



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



اشرافيية  
عليه صلوات الله  
عليه واهله

WWW. **Ghaemiyeh** .com  
WWW. **Ghaemiyeh** .org  
WWW. **Ghaemiyeh** .net  
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَجْلَدُ التَّحْقِيقِ

الجزء الثالث

المجلد الثالث



دار الفکر للطباعة والنشر

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# مختصر الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمى الناشر:

مركز القائميہ باصفهان للتحريرات الكمبيوترية

# الفهرس

٥	الفهرس
١٥	مختصر الميزان فى تفسير القرآن المجلد ٣
١٥	اشاره
١٥	اشاره
٢١	سوره يونس و هى مائه و تسع آيات
٢١	اشاره
٢١	[سوره يونس (١٠): الآيات ١ الى ١٠]
٢١	اشاره
٢٢	بيان:
٣١	[سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]
٣١	اشاره
٣٢	بيان:
٣٣	[سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ٢٥]
٣٣	اشاره
٣٥	بيان:
٤٤	[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]
٤٤	اشاره
٤٧	بيان:
٥٠	[سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٦]
٥٠	اشاره
٥١	بيان:
٥٤	[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٥]
٥٤	اشاره
٥٥	بيان:

٥٩ ..... [سوره يونس (١٠): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

٥٩ ..... اشاره

٦٠ ..... بيان:

٦٤ ..... [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٧٠]

٦٤ ..... اشاره

٦٦ ..... بيان:

٧٧ ..... [سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]

٧٧ ..... اشاره

٧٨ ..... بيان:

٨٠ ..... [سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٩٣]

٨٠ ..... اشاره

٨٢ ..... بيان:

٩٤ ..... [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ١٠٣]

٩٤ ..... اشاره

٩٥ ..... بيان:

١٠٢ ..... [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٩]

١٠٢ ..... اشاره

١٠٢ ..... بيان:

١٠٦ ..... سوره هود مكيه و هي مائه و ثلاث و عشرون آيه

١٠٦ ..... اشاره

١٠٦ ..... [سوره هود (١١): الآيات ١ الى ٤]

١٠٦ ..... اشاره

١٠٦ ..... بيان:

١١١ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٥ الى ١٦]

١١١ ..... اشاره

١١٣ ..... بيان:

- ١٣٠ ..... [سوره هود (١١): الآيات ١٧ الى ٢٤] [٢٤]
- ١٣٠ ..... اشاره
- ١٣١ ..... بيان:
- ١٣٩ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٣٥] [٣٥]
- ١٣٩ ..... اشاره
- ١٤٠ ..... بيان:
- ١٥٦ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٤٩] [٤٩]
- ١٥٦ ..... اشاره
- ١٥٨ ..... بيان:
- ١٧٤ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٦٠] [٦٠]
- ١٧٤ ..... اشاره
- ١٧٦ ..... بيان:
- ١٨٤ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٦١ الى ٦٨] [٦٨]
- ١٨٤ ..... اشاره
- ١٨٥ ..... بيان:
- ١٨٩ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٦] [٧٦]
- ١٨٩ ..... اشاره
- ١٩٠ ..... بيان:
- ١٩٦ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣] [٨٣]
- ١٩٦ ..... اشاره
- ١٩٧ ..... بيان:
- ٢٠٤ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥] [٩٥]
- ٢٠٤ ..... اشاره
- ٢٠٦ ..... بيان:
- ٢١٥ ..... [سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ٩٩] [٩٩]
- ٢١٥ ..... اشاره

٢١٥ ..... بيان:

٢١٨ ..... [سوره هود (١١): الآيات ١٠٠ الى ١٠٨]

٢١٨ ..... اشاره

٢١٩ ..... بيان:

٢٢٤ ..... [سوره هود (١١): الآيات ١٠٩ الى ١١٩]

٢٢٤ ..... اشاره

٢٢٧ ..... بيان:

٢٣٩ ..... [سوره هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

٢٣٩ ..... اشاره

٢٣٩ ..... بيان:

٢٤٢ ..... سوره يوسف مكيه و هي مائه و إحدى عشره آيه -

٢٤٢ ..... اشاره

٢٤٢ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٣]

٢٤٢ ..... اشاره

٢٤٢ ..... بيان:

٢٤٤ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٤ الى ٦]

٢٤٤ ..... اشاره

٢٤٤ ..... بيان:

٢٥١ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ٢١]

٢٥١ ..... اشاره

٢٥٢ ..... بيان:

٢٤٩ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٣٤]

٢٤٩ ..... اشاره

٢٧١ ..... بيان:

٢٨٩ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٤٢]

٢٨٩ ..... اشاره



٢٩٠ ..... بيان:

٣٠٠ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٤٣ الى ٥٧]

٣٠٠ ..... اشاره

٣٠١ ..... بيان:

٣١٤ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٢]

٣١٤ ..... اشاره

٣١٥ ..... بيان:

٣١٧ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٨٢]

٣١٧ ..... اشاره

٣٢١ ..... بيان:

٣٣٧ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٨٣ الى ٩٢]

٣٣٧ ..... اشاره

٣٣٨ ..... بيان:

٣٤٥ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ٩٣ الى ١٠٢]

٣٤٥ ..... اشاره

٣٤٧ ..... بيان:

٣٥٥ ..... [سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١١١]

٣٥٥ ..... اشاره

٣٥٦ ..... بيان:

٣٦٣ ..... سوره الرعد مكيه و هي ثلاث و أربعون آيه

٣٦٣ ..... اشاره

٣٦٣ ..... [سوره الرعد (١٣): الآيات ١ الى ٤]

٣٦٣ ..... اشاره

٣٦٤ ..... بيان:

٣٧١ ..... [سوره الرعد (١٣): الآيات ٥ الى ٦]

٣٧١ ..... اشاره

بيان: ..... ٣٧١

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٧ الى ١٦] ..... ٣٧٦

اشاره ..... ٣٧٦

بيان: ..... ٣٧٧

[سوره الرعد (١٣): الآيات ١٧ الى ٢٦] ..... ٣٩٠

اشاره ..... ٣٩٠

بيان: ..... ٣٩٢

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٢٧ الى ٣٥] ..... ٤٠٥

اشاره ..... ٤٠٥

بيان: ..... ٤٠٧

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٣٦ الى ٤٢] ..... ٤١٩

اشاره ..... ٤١٩

بيان: ..... ٤٢٠

[سوره الرعد (١٣): آيه ٤٣] ..... ٤٢٨

اشاره ..... ٤٢٨

بيان: ..... ٤٢٨

سوره إبراهيم مكيه و هي اثنتان و خمسون آيه ..... ٤٣٣

اشاره ..... ٤٣٣

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ١ الى ٥] ..... ٤٣٣

اشاره ..... ٤٣٣

بيان: ..... ٤٣٤

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٦ الى ١٨] ..... ٤٤٢

اشاره ..... ٤٤٢

بيان: ..... ٤٤٥

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ١٩ الى ٣٤] ..... ٤٥٦

اشاره ..... ٤٥٦

٤٥٨ ..... بيان:

٤٧٣ ..... [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٤١]

٤٧٣ ..... اشاره

٤٧٤ ..... بيان:

٤٨١ ..... [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ الى ٥٢]

٤٨١ ..... اشاره

٤٨٢ ..... بيان:

٤٩٠ ..... سوره الحجر مكيه و هي تسع و تسعون آيه

٤٩٠ ..... اشاره

٤٩٠ ..... [سوره الحجر (١٥): الآيات ١ الى ٩]

٤٩٠ ..... اشاره

٤٩١ ..... بيان:

٤٩٦ ..... [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١٥]

٤٩٦ ..... اشاره

٤٩٦ ..... بيان:

٤٩٧ ..... [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ٢٥]

٤٩٧ ..... اشاره

٤٩٨ ..... بيان:

٥٠٧ ..... [سوره الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٤٨]

٥٠٧ ..... اشاره

٥٠٨ ..... بيان:

٥٢٦ ..... [سوره الحجر (١٥): الآيات ٤٩ الى ٨٤]

٥٢٦ ..... اشاره

٥٢٨ ..... بيان:

٥٣٥ ..... [سوره الحجر (١٥): الآيات ٨٥ الى ٩٩]

٥٣٥ ..... اشاره

٥٣٦ ..... بيان:

٥٤٣ ..... سورة النحل مكيه و هي مائه و ثمان و عشرون آيه

٥٤٣ ..... اشاره

٥٤٣ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ١ الى ٢١]

٥٤٣ ..... اشاره

٥٤٥ ..... بيان:

٥٦٠ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ٢٢ الى ٤٠]

٥٦٠ ..... اشاره

٥٦٢ ..... بيان:

٥٧٩ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ٤١ الى ٦٤]

٥٧٩ ..... اشاره

٥٨١ ..... بيان:

٦٠٢ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ٦٥ الى ٧٧]

٦٠٢ ..... اشاره

٦٠٤ ..... بيان:

٦١٥ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٨ الى ٨٩]

٦١٥ ..... اشاره

٦١٧ ..... بيان:

٦٢٧ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ٩٠ الى ١٠٥]

٦٢٧ ..... اشاره

٦٢٨ ..... بيان:

٦٤٣ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١]

٦٤٣ ..... اشاره

٦٤٤ ..... بيان:

٦٤٧ ..... [سوره النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١٢٨]

٦٤٧ ..... اشاره

٦٤٩ ..... بيان:

٦٦٠ ..... سورة الإسراء مكيه و هي مائه و إحدى عشره آيه

٦٦٠ ..... اشاره

٦٦٠ ..... [سوره الإسراء (١٧): آيه ١]

٦٦٠ ..... اشاره

٦٦٠ ..... بيان:

٦٦٠ ..... اشاره

٦٦٣ ..... بحث روائى:

٦٩٢ ..... بحث آخر:

٦٩٣ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٨]

٦٩٣ ..... اشاره

٦٩٤ ..... بيان:

٧٠٠ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٩ الى ٢٢]

٧٠٠ ..... اشاره

٧٠١ ..... بيان:

٧١٦ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢٣ الى ٣٩]

٧١٦ ..... اشاره

٧١٨ ..... بيان:

٧٢٨ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٤٠ الى ٥٥]

٧٢٨ ..... اشاره

٧٢٩ ..... بيان:

٧٤٣ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ الى ٦٥]

٧٤٣ ..... اشاره

٧٤٤ ..... بيان:

٧٥٢ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٦٦ الى ٧٢]

٧٥٢ ..... اشاره

٧٥٤ ..... بيان:

٧٦١ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٧٣ الى ٨١]

٧٦١ ..... اشاره

٧٦٢ ..... بيان:

٧٦٧ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٨٢ الى ١٠٠]

٧٦٧ ..... اشاره

٧٦٩ ..... بيان:

٧٨٠ ..... [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ الى ١١١]

٧٨٠ ..... اشاره

٧٨١ ..... بيان:

٧٨٨ ..... تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، محمدحسین، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادى : [الميزان في تفسير القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پديدآور : مختصر الميزان في تفسير القرآن / [محمدحسین الطباطبائی]؛ تالیف الیاس کلانتری

مشخصات نشر : تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۶

شابك : ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-۱۵۰۰۰Xریال: (دوره)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۰۸ (ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۰۶ (ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۰۵-۰۴ (ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۰۲ (ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰۰ (ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۰۹ (ج.۶)

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلی

یادداشت : عربی

عنوان دیگر : الميزان في تفسير القرآن. برگزیده

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه کننده

شناسه افزوده : سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اسوه

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۵۸۷۹

ص : ۱













بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 الْإِنْسَانِ وَالْبَشَرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (۲) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (۳)  
 إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ  
 شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۴) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ  
 وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (۶) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (۷)  
 أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ  
 فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۹) دَعَوْاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۰)

قوله تعالى: الرَّتِّلْمَكُ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ الإِشَارَةُ بِاللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الْبَعْدِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ارْتِفَاعِ مَكَانِهِ الْقُرْآنِ وَ عُلُوِّ مَقَامِهِ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ النَّازِلِ مِنْ عِنْدِهِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ.

و الآيه-و معناها العلامة-و إن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعانى او الأعيان الخارجيه كما فى قوله: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء ١٩٧/) و فى قوله: وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١/) و كذا ما هو من قبيل القول كما فى قوله ظاهرا: وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (النحل ١٠١/) و نحو ذلك

لكن المراد بالآيات هاهنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعاً فإن الكلام في الوحي النازل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ كَلَامٌ مَتَلُوهُ مَقْرُوبٌ بِأَيِّ مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى صُورُنَا نَزُولِ الْوَحْيِ.

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي، و تتعين في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانه ما من ذوق التفاهم، و لذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين و البصريين و غيرهم.

و المراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة، و ربما قيل: إن الحكيم من الفعل بمعنى المفعول و المراد به المحكم غير القابل للانثلام و الفساد، و الكتاب الذي هذا شأنه - و قد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي - هو القرآن المنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ** إلى آخر الآية؛ الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إحياء الله إلى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوه القرآنيه.

و قوله: **أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ** الخ؛ تفسير لما أوحاه إليه، و يتبين به أن الذي ألقاه إليه من الوحي هو بالنسبه إلى عامه الناس إنذار و بالنسبه إلى الذين آمنوا منهم خاصه تبشير فهو لا محاله يضر الناس على بعض التقادير و هو تقدير الكفر و العصيان و ينفعهم على تقدير الايمان و الطاعه.

و قد فسّر البشرى الذي أمره أن يبشّر به المؤمنين بقوله: **«أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ»** و المراد بقدم الصدق هو المنزله الصادقه كما يشير إليه قوله: **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** (القمر ٥٥) فإن الايمان لما استتبع الزلفى و المنزله عند الله كان الصدق في الايمان يستتبع الصدق في المنزله التي يستتبعها فلهم منزله الصدق كما أن لهم إيمان الصدق.

فإطلاق القدم على المنزله و المكانه من الكنايه و لما كان إشغال المكان عاده إنما هو بالقدم استعملت القدم في المكان إن كان في الماديات، و في المكانه و المنزله إن كان في

المعنويات ثم أضيفت القدم الى الصدق، و هو صدق صاحب القدم فى شأنه أى قدم منسوبه الى صدق صاحبها او قدم هى صادقه لصدق صاحبها فى شأنه.

و هناك معنى آخر و هو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما و للكذب قدما و قدم الصدق هى التى تثبت و لا تزول.

و قوله: **قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ** أى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و قرئ **«إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ»** أى القرآن و مآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه صَلَّى الله عليه و آله و سلم بالسحر من جهه القرآن الكريم.

و الجمله كالتعليل لقوله: **«كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا»** يمثل به معنى تعجبهم و هو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاما من غير نوع كلامهم خارقا للعادة المألوفه فى سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب و تتولّه اليه النفوس فقالوا: إنه لسحر مبین، و إن الجائى به لساحر مبین.

قوله تعالى: **إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** لما ذكر فى الآيه السابقه عجبهم من نزول الوحي و هو القرآن على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى فى بيان ما كذبوا به من الجهتين أعنى من جهه أن ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه، و من جهه أن القرآن الذى رموه بالسحر كتاب إلهى حق و ليس من السحر الباطل فى شىء.

فقوله: **إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ** الخ؛ شروع فى بيان الجبهه الاولى و هى أن ما يدعوكم اليه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه و يجب عليكم أن تتبعوه.

و المعنى: إن ربكم معاشر الناس هو الله الذى خلق هذا العالم المشهود كله سماواته و أرضه فى ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته و قام مقام التدبير الذى اليه ينتهى كل تدبير و إداره فشرع يدبر أمر العالم، و إذا انتهى اليه كل تدبير من دون الاستعانه بمعين او الاعتضاد بأعضاء



لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الامور- وهو الشفاعة-إلا- من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب الأصلي الذى لا سبب بالأصالة دونه، و من دونه من الأسباب أسباب بتسيبيه و شفعاء من بعد إذنه.

و إذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذى يدبر امركم لا غيره مما اتخذتموها أربابا من دون الله و شفعاء عنده، و هو المراد بقوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى هلا انتقلتم انتقالا فكريا الى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل فى معنى الألوهية و الخلقه و التدبير.

و قد تقدم الكلام فى معنى العرش و الشفاعة و الإذن و غير ذلك فى ذيل قوله: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ (الأعراف ٥٤/٥٤) فى الجزء الثامن من الكتاب.

قوله تعالى: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعِدَ اللَّهُ حَقًّا تَذَكُّرًا بِالْمَعَادِ بَعْدَ التَّذَكُّرِ بِالْبَدءِ، و قوله: وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا مِنْ قِيَامِ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ مَقَامَ فَعْلِهِ، و المعنى: وعده الله وعدا حقا.

و الحق هو الخبر الذى له أصل فى الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقا معناه كون الخلقه الإلهيه بنحو لا تتم خلقه إلا برجوع الأشياء- و من جملتها الإنسان- اليه تعالى و ذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجى من الأرض و السقوط و الاستقرار عليها، و الأشياء على حال كدح الى ربها حتى تلاقيه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق ٦/٦) فافهم ذلك.

قوله تعالى: إِنَّهُ يَتَّبِعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛ تأكيد لقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» و تفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع و المعاد.

و يمكن أن يكون فى مقام التعليل لما تقدمه من قوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» الخ؛ أشير به الى حجتين من الحجج المستعمله فى القرآن لإثبات المعاد: أما قوله: «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فلأن الجارى من سَنَهُ اللّهُ سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شىء و يمدّه من رحمته بما تتم له به الخلقه فيوجد و يعيش و يتنعم برحمه منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهى الى اجل معدود.

و ليس انتهاؤه الى أجله المعدود المضروب له فناء منه و بطلانا للرحمة الإلهيه التى كان بها وجوده و بقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياه و قدره و علم و نحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإن ما أفاضه اللّهُ عليه من عنده هو وجهه تعالى و لن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء و انتهائها الى أجلها ليس فناء منها و بطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا و عودة منها الى عنده و قد كانت نزلت من عنده، و ما عند اللّهُ باق فلم يكن إلا بسطا ثم قبضا فاللّهُ سبحانه يبدأ الأشياء ببسط الرحمة، و يعيدها اليه بقبضها و هو المعاد الموعود.

و أما قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛ فإن الحجه فيه أن العدل و القسط الإلهي -و هو من صفات فعله- يأبى أن يستوى عنده من خضع له بالإيمان به و عمل صالحا و من استكبر عليه و كفر به و بآياته، و الطائفتان لا يحس بينهما بفرق فى الدنيا فإنما السيطره فيها للأسباب الكونيه بحسب ما تنفع و تضر ياذن اللّهُ.

فلا يبقى إلا أن يفرّق اللّهُ بينهما بعدله بعد إرجاعهما اليه فيجزى المؤمنين المحسنين جزاء حسنا و الكفار المسيئين جزاء سيئا من جهه ما يتلذذون به او يتألمون.

فالحجه معتمده على تمايز الفريقين بالإيمان و العمل الصالح و بالكفر و على قوله:

«بِالْقِسْطِ» هذا، و قوله: «لِيَجْزِيَ» متعلق بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» على ظاهر التقدير.

و يمكن أن يكون قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛ متعلقا بقوله: «ثُمَّ يُعِيدُهُ» و يكون الكلام مسوقا للتعليل و إشاره الى حجه واحده و هى الحجه الثانيه المذكوره، و الأقرب من جهه اللفظ هو

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الضياء-على ما قيل-مصدر ضاء يضيء ضوء و ضياء كعاذ يعوذ عودا و عواذا، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط، و اللفظ-على ما قيل-على تقدير مضاف و الأصل جعل الشمس ذات ضياء القمر ذا نور.

و كذلك قوله: وَ قَدَرَهُ مَدَازِلَ أَي وَقَدَّرَ الْقَمَرَ ذَا مَنَازِلَ فِي مَسِيرِهِ يَنْزِلُ كُلُّ لَيْلَةٍ مَنَزَلًا- مِنْ تِلْكَ الْمَنَازِلِ غَيْرَ مَا نَزَلَ فِي اللَّيْلِ السَّابِقَةِ فَلَا يَزَالُ يَتْبَاعِدُ مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يُوَافِقَهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، وَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ قَمَرِيٍّ كَامِلٍ فَتَرْتَسِمُ بِذَلِكَ الشُّهُورُ وَ تَرْتَسِمُ بِالشُّهُورِ السَّنُونَ، وَ لِذَلِكَ قَالَ «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ» .

و قوله: يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَرَادَ بِهِ التَّفْصِيلُ بِحَسَبِ التَّكْوِينِ الْخَارِجِيِّ أَوْ بِحَسَبِ الْبَيَانِ اللَّفْظِيِّ، وَ لَعَلَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ إِلَى سِيَاقِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْاِخْتِلَافُ ذَهَابُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الشَّيْئَيْنِ فِي جِهَةٍ غَيْرِ جِهَةِ الْآخَرِ فَاِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ ذَهَابُ أَحَدِهِمَا فِي جِهَةِ الضِّيَاءِ وَ الْآخَرِ فِي جِهَةِ الظَّلامِ، انْتَهَى. وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْخَلْفِ، وَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَاهُ أَخَذَ أَحَدَ الشَّيْئَيْنِ الْآخَرَ فِي جِهَةٍ خَلْفَهُ ثُمَّ اتَّسَعَ فَاسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ تَغْيِيرٍ كَاتِنٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ.

يقال: اختلفه أي جعله خلفه، و اختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه، و اختلف الناس إليه أي ترددوا بالدخول عليه و الخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

و المراد باختلاف الليل و النهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر و هو توالي الليل و النهار الراسم للأسابيع و الشهور و السنين، و إما اختلاف كل من الليل و النهار في أغلب بقاع الأرض المسكونة فالليل و النهار يتساويان في الاعتدال الربيعي ثم يأخذ النهار في

الزيادة فى المناطق الشماليه فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ اول الصيف فيأخذ فى النقيصه حتى يبلغ الاعتدال الخريفى و هو اول الخريف فيتساويان.

ثم يأخذ الليل فى الزيادة على النهار الى اول الشتاء و هو منتهى طول الليالى ثم يعود راجعا الى التساوى حتى ينتهى الى الاعتدال الربيعى و هو اول الربيع هذا فى المناطق الشماليه و الأمر فى المناطق الجنوبيه بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولاً- فى احد الجانبين زاد الليل طولاً فى الجانب الآخر بنفس النسبه.

و الاختلاف الأول بالليل و النهار هو الذى يدبّر أمر اهل الارض بتسليط حراره الأشعه ثم بسط برد الظلمه و نشر الرياح و بعث الناس للحركه المعاشيه ثم جمعهم للسكن و الراحة، قال تعالى: وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (النبا ١١٠).

و الاختلاف الثانى هو الذى يرسم الفصول الاربعه السنويه التى يدبّر بها أمر الأقوات و الأرزاق كما قال تعالى: وَ قَدَرَفِيهَا أَقواتها فى أَرْبَعَةِ أَيامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (حم السجده ١٠).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا الى آخر الآيتين.شروع فى بيان ما يتفرع على الدعوه السابقه المذكوره بقوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» من حيث عاقبه الأمر فى استجابته و ردّه و طاعته و معصيته.

فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» فوصفهم أولاً بعدم رجائهم لقاءه، و هو الرجوع الى الله بالبعث يوم القيامه، و قد تقدم الكلام فى وجه تسميته بلقاء الله فى مواضع من هذا الكتاب و منها ما فى تفسير آيه الرؤيه من سوره الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء، و بإنكاره يسقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعيد و الأمر و النهى، و بسقوطها يبطل الوحي و النبوه و ما يتفرع عليه من الدين السماوى.

و يانكار البعث و المعاد ينعطف هم الانسان على الحياه الدنيا فان الانسان و كذا كل موجود ذى حياه له هم فطرى ضرورى فى بقائه و طلب لسعاده تلك الحياه فان كان مؤمنا بحياه دائمه تسع الحياه الدنيويه و الاخروييه معا فهو، و إن لم يدعن إلا بهذه الحياه المحدوده الدنيويه علقت همته الفطريه بها، و رضى بها و سكن بسببها عن طلب الآخره، و هو المراد بقوله: «و رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا» .

و من هنا يظهر أن الوصف الثانى أعنى قوله: «و رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا» من لوازم القول الأول أعنى قوله: «لَا يَزُجُونَ لِقَاءَنَا» و هو بمنزله المفسر بالنسبه اليه، و أن الباء فى قوله: «اطْمَأَنَّنُوا بِهَا» للسببيه اى سكنوا بسببها عن طلب اللقاء و هو الآخر.

و قوله: «و الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» فى محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فان نسيان الآخره و ذكر الدنيا لا ينفك عن الغفله عن آيات الله.

و قوله: «أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» لبيان لجزائهم بالنار الخالده قبل أعمالهم التى كسبوها.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» الى آخر الآيه، هذا بيان لعاقبه أمر المؤمنين و ما يشبههم الله على استجابتهم لدعوته و طاعتهم لأمره.

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم، و إما يهديهم الى ربهم لأن الكلام فى عاقبه أمر من يرجو لقاء الله، و قد قال تعالى: «و يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَزَابَ» (الرعد ٢٧). فإنما يهدى الإيمان بإذن الله الى الله سبحانه و كلما اهتدى المؤمنون الى الحق او الى الصراط المستقيم او غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هى وسائل و مدارج تنتهى بالآخره اليه تعالى، قال تعالى: «وَأَنَّ إِلِيَّ رُبُّكَ الْمُتَهَيِّئِ» (النجم ٤٢).

و قد وصف المؤمنين بالإيمان و الأعمال الصالحه ثم نسب هدايتهم اليه الى الإيمان وحده فإن

الإيمان هو الذى يصعد بالعبد الى مقام القرب، وليس للعمل الصالح إلا اعانه الإيمان و إسعاده فى عمله كما قال تعالى: يَزِفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١) حيث ذكر للرفع الإيمان و العلم و سكت عن العمل الصالح، و أوضحه منه فى الدلاله قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» (فاطر ١٠).

هذا فى الهدايه التى هى شأن الإيمان، و أما نعم الجنه فإن للعمل الصالح دخلا فيها كما أن للعمل الطالح دخلا فى أنواع العذاب و قد ذكر تعالى فى المؤمنين قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» كما ذكر فى الكافرين قوله: «أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» .

و ليتنبه الباحث المتدبر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم، و من نعيمها الأنهار التى تجرى من تحتهم فيها، و قد تقدّم فى تفسير قوله تعالى:

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد ٧) و قوله: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ (النساء ٦٩) أن النعيم بحقيقه معناه فى القرآن الكريم هو الولايه الإلهيه، و قد خص الله أولياءه المقربين بنوع من شراب الجنه اعتنى به فى حقهم كما قال: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (الإنسان ٦)، و قال أيضا إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ -الى أن قال- يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ -الى أن قال- عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ٢٨)، و عليك بالتدبر فى الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتى ينجلى لك بعض ما أودعه الله سبحانه فى كلامه من الأسرار اللطيفه.

قوله تعالى: دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه -و هم الذين ليس فى قلوبهم إلا الله و لا مدبر لأمرهم غيره- أنه يطهر قلوبهم عن محبه غيره فلا يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشيء إلا الله و فى الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم الى نفسه عن ذكر الله سبحانه، و عن أى شاغل يشغلهم عن ربهم.

و هذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحه قدسه من شريك فى الاسم او فى المعنى او نقص او عدم، و تسييح منهم له لا فى القول و اللفظ فقط بل قولاً و فعلاً و لساناً و جناحاً، و ما دون ذلك فإن له شوباً من الشرك، و قد قال تعالى: **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** (يوسف ١٠٦).

و هؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذاره حب غيره الشاغله عن ذكره و ملأها بحبه فلا يريدون إلا إياه و هو سبحانه الخير الذى لا شر معه قال: **وَ اللَّهُ خَيْرٌ** (طه ٧٣).

فلا يواجهون بقلوبهم التى هى ملأى بالخير و السلام أحداً إلا بخير و سلام اللهم إلا أن يكون الذى واجهوه بقلوبهم هو الذى يبدل الخير و السلام شراً و ضراً كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خساراً.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]

### اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ إِشْرًا يُغَالِثُهُمْ بِهِمْ بِأَخْيَرِ لِقْضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

قوله تعالى: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ الْخَيْرِ؛ تعجيل الشيء الإتيان به بسرعته وعجلته، والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعته وعجلته، وعمه شدة الحيره.

ومعنى الآية: ولو يعجل الله للناس الشر وهو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمه لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحIRON في طغيانهم أشد التحير.

قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِثِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. الضر بالضم ما يمس الإنسان من الضرر في نفسه، وقوله: «دَعَا لِحِثِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» أى دعانا منبطحا لجنبه، الخ؛ والظاهر أن التردد للتعميم أى دعانا على أى حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرًا على دعائه لا- ينسانا فى حال، ويمكن أن يكون «لِحِثِّهِ» الخ؛ أحوال- ثلاثه من الإنسان لا من فاعل دعانا والعامل فيه «مَسَّ» والمعنى إذا مس الإنسان الضرر وهو منبطح أو قاعد أو قائم دعانا فى تلك الحال وهذا معنى ما ورد فى بعض المرسلات «دَعَا لِحِثِّهِ» العليل الذى لا يقدر أن يجلس «أَوْ قَاعِدًا» الذى لا يقدر أن يقوم «أَوْ قَائِمًا» الصحيح.

وقوله: مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كناية عن النسيان والغفله عما كان لا يكاد ينساه.

والمعنى: وإذا مس الإنسان الضرر لم يزل يدعونا لكشف ضرره وأصر على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذى مسه نسينا وترك ذكرنا وانجذبت نفسه الى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زين للمسرفين المفرطين فى التمتع بالزخارف الدنيويه أعمالهم فأورثهم نسيان جانب



الربوبيه و الاعراض عن ذكر الله تعالى.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قد ظهر معناه مما تقدم، و في الآيه التفات في قوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» من الغيبه الى الخطاب، و كأن النكته فيه التشديد في الإنذار لأن الإنذار و التخويف بالمشافهه أوقع أثرا و أبلغ من غيره.

ثم في قوله: كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ التفات آخر بتوجيه الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و النكته فيه أنه إخبار عن السنه الإلهيه في أخذ المجرمين، و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هو الأهل لفهمه و الإذعان بصدقه دونهم و لو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و لم يكفروا، و هذا بخلاف قوله:

«وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ...»

وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ» فإنه خبر تاريخي لا ضير في تصديقهم به.

قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ معناه ظاهر، و فيه بيان أن سنه الامتحان و الابتلاء عامه جاريه.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ٢٥]

### إشارة

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدُّلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَسْتَبْنُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتُمْ فِيهِمْ مَا فِيهِمْ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَ إِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلَمِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَنْتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)



قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ لَا يَزُجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدَّبُّهُ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ فِي الْآيَةِ كَانُوا قَوْمًا وَثَنِينَ يَقَدِّسُونَ الْأَصْنَامَ وَيَعْبُدُونَهَا، وَمِنْ سَنَنِهِمُ التَّوَعُّلُ فِي الْمِظَالِمِ وَالْإِثَامِ وَالْإِقْتِرَافِ الْمَعَاصِي، وَالْقُرْآنُ يَنْهَى عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَفْضِ الشُّرَكَاءِ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ التَّنَزُّهِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْفِسْقِ وَاتِّبَاعِ الشَّهْوَاتِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كِتَابًا هَذَا شَأْنُهُ إِذَا تَلِيَتْ آيَاتُهُ عَلَى قَوْمٍ ذَلِكَ شَأْنُهُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُؤَافِقْ مَا تَهَوَّاهُ أَنْفُسُهُمْ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الدَّعْوَةِ الْمَخَالَفَةِ فَلَوْ قَالُوا: أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يَقْتَرِحُونَ قُرْآنًا لَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى رَفْضِ الشُّرَكَاءِ وَاتِّقَاءِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَإِنْ قَالُوا: بَدَّلَ الْقُرْآنُ كَانَ مَرَادُهُمْ تَبْدِيلَ مَا يَخَالِفُ آرَاءَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِلَى مَا يُؤَافِقُهَا حَتَّى يَقَعَ مِنْهُمْ مَوْجِعُ الْقَبُولِ، وَذَلِكَ كَالشَّاعِرِ يَنْشُدُ مِنْ شِعْرِهِ أَوْ الْقَاصِّ يَقْصُّ الْقِصَّةَ فَلَا تَسْتَحْسِنُهُ طِبَاعُ السَّامِعِينَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ بغيره أَوْ بَدَّلَهُ، وَفِي ذَلِكَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ مَرَاتِبَ الْكَلَامِ وَهُوَ لِهَوِّ الْحَدِيثِ الَّذِي إِنَّمَا يَلْقَى لِتَلْهُو بِهِ نَفْسُ سَامِعِهِ وَتَنْشَطُ بِهِ عَوَاطِفُهُ ثُمَّ

لا يستطيعه السامع فيقول: ائت بغير هذا أو بدله.

فبذلك يظهر أن قولهم إذا تليت عليهم آيات القرآن: «أنت بقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» يريدون به قرآنا لا- يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا و يؤتى بذاك، وقولهم:

«أَوْ يَدِّلُهُ» أن يغير ما فيه من المعارف المخالفه لأهوائهم الى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره و بين تبديله.

و في قوله: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَائِبَاتِ من الخطاب الى الغيبه، والظاهر أن النكته فيه أن يكون توطئه الى إلقاء الأمر الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» الخ؛ فان ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم و توجيه اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ الى آخر الآيه التلقاء، بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان و البيان و يستعمل ظرفا.

و الله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم: «أنت بقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدِّلُهُ» في أثناء كلامه بقوله: «بَيِّنَاتٍ» فإن الآيات إذا كانت بَيِّنَاتٍ ظاهره الاستناد الى الله سبحانه كشفت كسفا قطعيا عما يريد الله سبحانه منهم من رفض الأصنام و الاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى الى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من تفصيل دينه؛ ردّ سؤالهم اليهم تفصيلا بتلقين نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الحجه في ذلك بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي» الى آخر الآيات الثلاث.

فقوله: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ الخ؛ جواب عن قولهم: أَوْ يَدِّلُهُ و معناه: قل لا أملكك- و ليس لي بحق- أن أبده من عند نفسي لأنه ليس بكلامي و إنما هو وحي إلهي أمرني ربي أن أتبعه و لا- أتبع غيره، و إنما لا أخالف أمر ربي لأنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم و هو يوم لقائه.

فقوله: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ نفى الحق و سلب الخيره، وقوله: إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا

مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: مَا يَكُونُ لِي وَقَوْلِهِ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي الْخ، فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّ أَتْبَعَ الْخ؛ بِمَا يُلَوِّحُ مِنْهُ أَنَّهُ مِمَّا تَعَلَّقَ بِهِ الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ.

و فِي قَوْلِهِ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ نَوْعَ مُحَاذَاهُ لَمَّا فِي صَدْرِ الْكَلَامِ مِنْ قَوْلِهِ: قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْآنِ الْخ؛ فَإِنَّ الْإِتْيَانَ بِالْوَصْفِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الْبَاعْثَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا مَا قَالُوا إِنَّمَا هُوَ إِنْكَارُهُمْ لِلْمَعَادِ وَ عَدَمَ رَجَائِهِمْ لِقَاءَ اللَّهِ فَقَابَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» فَيُؤَوِّلُ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّكُمْ تَسْأَلُونَ مَا تَسْأَلُونَ لِأَنَّكُمْ لَا تَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ لَكِنِّي لَا أَشْكُ فِيهِ فَلَا يُمْكِنُنِي إِجَابَتُكُمْ إِلَيْهِ لِأَنِّي أَخَافُ عَذَابَ يَوْمِ الْلِقَاءِ، وَ هُوَ يَوْمٌ عَظِيمٌ.

و فِي تَبْدِيلِ يَوْمِ الْلِقَاءِ بِيَوْمٍ عَظِيمٍ فَائِدَةُ الْإِنْدَارِ مُضَافًا إِلَى أَنَّ الْعَذَابَ لَا يَنَاسِبُ الْلِقَاءَ تِلْكَ الْمُنَاسِبَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَذْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ أَدْرَاكُمْ بِهِ أَيَّ أَعْلَمَكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَ الْعَمْرُ بِضَمَّتَيْنِ أَوْ بِالْفَتْحِ فَالْسُكُونُ هُوَ الْبَقَاءُ، وَ إِذَا اسْتَعْمَلَ فِي الْقِسْمِ كَقَوْلِهِمْ: لِعَمْرِي وَ لِعَمْرِكَ تَعِينِ الْفَتْحَ.

وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ رَدَّ الشَّقِّ الْأَوَّلِ مِنْ سؤَالِهِمْ وَ هُوَ قَوْلُهُمْ: «أَنتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» وَ مَعْنَاهَا عَلَى مَا يَسَاعِدُ عَلَيْهِ السِّيَاقُ: أَنَّ الْأَمْرَ فِيهِ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ لَا- إِلَى مَشِيئَتِي فَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ قُرْآنًا غَيْرَ هَذَا وَ لَمْ يَشَأْ هَذَا الْقُرْآنَ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَإِنِّي مَكْتَثٌ فِيكُمْ عَمْرًا مِنْ قَبْلِ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَ عَشْتُ بَيْنَكُمْ وَ عَاشَرْتُكُمْ وَ عَاشَرْتُمُونِي وَ خَالَطْتُكُمْ وَ خَالَطْتُمُونِي فَوَجَدْتُمُونِي لَا خَبَرَ عِنْدِي مِنْ وَحْيِ الْقُرْآنِ، وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ إِلَيَّ وَ بِيَدِي لَبَادَرْتُ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَ بَدَتْ مِنْ ذَلِكَ آثَارٌ وَ لَاحَتْ لَوَائِحُهُ، فَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَ إِنَّمَا الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ وَ قَدْ تَعَلَّقْتُ مَشِيئَتَهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ لَا غَيْرَهُ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ؟

قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ استفهام إنكارى أى لا أحد أظلم و أشهد إجراما من هذين الفريقين:

المفترى على الله كذبا، و المكذب بآياته فان الظلم يعظم بعظمه من يتعلق به و اذا اختص بجنب الله كان أشد الظلم.

و ظاهر سياق الاحتجاج فى الآيتين أن هذه الآيه من تمامها و المعنى: لا أجيبكم الى ما اقترحتم على من الإتيان بقرآن غير هذا او تبديله فإن ذلك ليس إلى و لا لى حق فيه، و لو أجبتكم اليه لكنت أظلم الناس و أشدهم إجراما و لا يفلح المجرمون فإنى لو بدلت القرآن و غيرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفتريا على الله كذبا و لا أظلم منه، و لو تركت هذا القرآن و جئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذبا لآيات الله، و لا أظلم منه.

و ربما احتمل كون الاستفهام الإنكارى بشقيه تعريضا للمشركين أى أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء و هو افتراء الكذب على الله و بتكذيبكم بنبوتى و الآيات النازله على و هو تكذيب بآيات الله و لا يفلح المجرمون.

قوله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، الكلام: موجه نحو عبده الأصنام من المشركين و إن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعه معناه، و ذلك لمكان «ما» و كون السوره مكّيه من أوائل ما نزل على النبى صلى الله عليه و آله و سلم من القرآن.

و قد كانت عبده الأصنام و يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها و بأربابها الى رب الأرباب و هو الله سبحانه، و يقولون: إننا على ما بنا من ألوات البشرىه الماديه و قذارات الذنوب و الآثام لا سبيل لنا الى رب الأرباب لطهاره ساحته و قدسها و لا نسبه بيننا و بينه.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه و هم أرباب الأصنام الذين فوض الله اليهم أمر تدبير خلقه، و نتقرب اليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنما نعبد الأصنام لتكون شفعا لنا عند

اللّه لتجلب لنا الخير و تدفع عنا الشر فتقع العباده للأصنام حقيقه، و الشفاعه لأربابها و ربما نسبت إليها.

و قد وضع فى الكلام قوله: مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ موضع الأصنام للتلويح الى موضع خطئهم فى مزعمتهم، و هو أن هذا السعى إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّه نافعه فى الامور و كانت ذوات شعور بالعباده و التقرب حتى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع او يشفع اربابها لهم عند اللّه إن كان اللّه يرتضى شفاعتهم و هؤلاء اجسام ميتة لا تشعر بشيء و لا تضرّ و لا تنفع شيئاً.

و قد أمر اللّه سبحانه نبيه صلى اللّه عليه و آله و سلم أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعه-مضافا الى ما يلوح اليه قوله: لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ -بقوله: قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ و محصّيه أن اللّه سبحانه لا علم له بهذه الشفاعه فى شيء من السماوات و الأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم، و هو من أقبح الافتراء و أشنع المكابره، و كيف يكون فى الوجود شيء لا يعلم به اللّه و هو يعلم ما فى السماوات و الأرض؟

فالاستفهام إنكارى، و نفى العلم بوجود الشفاعه كناية عن نفى وجودها، و لعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعه مما يتقوم بالعلم ذاته فإن الشفاعه إنما تتحقق اذا كان المشفوع عنده عالما بوجود الشافع و شفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعه عنده و هو لا يعلم.

و قوله: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ كلمه تنزيه، و هى من كلام اللّه و ليست مقوله قول النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فان ظرف المشركين بالنسبه اليه هو الخطاب دون الغيبه فلو كان من كلام النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم لقليل: عما تشركون بالخطاب.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قَدْ تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (البقره ٢١٣) أَنْ  
الآيه تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس.

أحدهما: الاختلاف من حيث المعاش و هو الذى يرجع الى الدعاوى و ينقسم به الناس الى مدّع و مدّعى عليه و ظالم و مظلوم و  
متعدّ و متعدّى عليه و أخذ بحقه و ضائع حقه، و هذا هو الذى رفعه الله سبحانه بوضع الدين و بعث النبيين و إنزال الكتاب معهم  
ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، و يعلمهم معارف الدين و يواجههم بالإندار و التبشير.

و ثانيهما: الاختلاف فى نفس الدين و ما تضمنه الكتاب الإلهى من المعارف الحقه من الاصول و الفروع، و قد صرح القرآن فى  
مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهى الى علماء الكتاب بغيا بينهم، و ليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالتقسيم  
الأول، و بذلك ينقسم الطريق الى طريقى الهدايه و الضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق، و قد ذكر سبحانه فى  
مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لو لا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه و لكن يؤخرهم الى  
أجل، قال تعالى وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّتَ بَيْنَهُمْ  
(الشورى ١٤) الى غير ذلك من الآيات.

و سياق الآيه السابقه أعنى قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ الخ؛ لا يناسب من الاختلافين المذكورين  
إلا الاختلاف الثانى و هو الاختلاف فى نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرهم و لا ينفعهم و  
اتخاذهم شفعاء عند الله، و مقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقا أمه واحده كونهم على دين واحد و هو دين  
التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحد و مشرك.

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضى أن يحكم الله بينهم باظهار الحق على الباطل و فيه هلاك المبطلين و إنجاء المحققين  
لكن السابق من الكلمه الإلهيه منعت من القضاء بينهم، و الكلمه



هى قوله تعالى لما أهبط الإنسان الى الدنيا: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦).

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَبِهُوا إِنِّي مَعََكُمْ مِنَ الْمُنْتَضِرِينَ الْآيَةَ؛ كقوله قبلها: «وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» وقوله قبله: «وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا» تعد أمورا من مظالم المشركين فى أقوالهم و أعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ليقيمها عليهم كما مرّ فى أول الآيات فقوله: «وَ يَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ الْخُبْرُ؛ عطف على قول فى أول الآيات «وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا».

و فيها مع ذلك عود بعد عود الى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم: «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» و إن كان طلب آية أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراء و تحقيرا لأمر القرآن و استخفافا به لعدم عدّه آية إلهيه و الدليل عليه قوله تعالى: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» و لم يقل «قل» كما قال فى سائر الآيات كأنه يقول: و يطلبون منك آية أخرى غير مكتفين بالقرآن و لا راضين به فإذا لم يكتفوا به آية فقل: إنما الآيات من الغيب المختص بالله و ليست بيدى فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

فهذا هو المستفاد من الآيه و فيها دلالة على أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم كان ينتظر آية فاصله بين الحق و الباطل غير القرآن قاضيه بينه و بين أمته، و سيجىء الوعد الصريح منه بهذه الآيه-التي يأمر بانتظارها هاهنا- فى قوله: «وَ إِذَا نُزِّلْنَا بِغَضِّ الدِّي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ (يونس ٤٦) الى تمام عده آيات.

قوله تعالى: «وَ إِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» الى آخر الآيه؛ مضمون الآيه و إن كان من المعانى العامه الجاربه فى أغلب الناس فى اكثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا يخلو عن أن يمسه سراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر فى حقه ذلك لكن الآيه من جهه السياق المتقدم كأنها مسوقه للتعريض

للمشركين و مكرهم فى آيات الله، و الدليل عليه قوله: «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفه خاصه و هم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء و الضراء بعد ظهورها، و من مكرهم مكرهم فى القرآن الذى هو آيه إلهيه و رحمه أذاقهم الله إياها بعد ضراء الجهاله العالقه بهم و شمول ضنك العيش و الذله و التفرقه و تباعد القلوب و بغضائها لهم و هم يمكرون به فتاره يقولون «أَنْتِ بَقْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلُهُ» و تاره يقولون «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

فالآيه تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه فى آيات الله، و تبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلا السوء من غير أن ينفعهم شيئا فإن الله أسرع مكرًا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم.

فمعنى الآيه «وَ إِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ» عبر عن الإصابه بالإذاقه للأيام الى التذاذهم بالرحمه و عنايه بالقله فإن الذوق يستعمل فى القليل من التغذى «رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ» و التعبير بالرحمه فى موضع السراء للإشاره الى أنها من الرحمه الإلهيه من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه، و يخضعوا لما تدعو اليه الآيه و هو توحيد ربهم و شكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم: «قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ» و الاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم:

«لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» و قولهم: «إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا».

فأمر الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم ان يجيبهم بقوله: «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» ثم علله بقوله: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم اليكم يكتبون اعمالكم و يحفظونها، و بمجرد ما عملتم عملا حفظ عليكم و تعين جزاؤه لكم قبل ان يؤثر مكركم اثره او لا يؤثر كما فسروه.

و هنا شيء و هو أن الظاهر من قوله تعالى: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا

نَسْتَسْخِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية ٢٩) على ما سيحىء من البيان فى تفسير الآيه ان شاء الله تعالى أن معنى كتابه الملائكه اعمال العباد هو اخراجهم الاعمال من كمون الاستعدادات الى مرحله الفعلية الخارجيه و رسم نفس الاعمال فى صحيفه الكون و بذلك تنجلي عليه كتابه الرسل لأعمالهم لكونه تعالى اسرع مكر اتمام الانجلاء فان حقيقه المعنى على هذا: أننا نحن نخرج اعمالكم التى تمكرون بها من داخل ذواتكم و نضعها فى الخارج فكيف يخفى علينا كونهم تريدون بنا المكر بذلك؟ و هل المكر إلا صرف الغير عما يتصدده بحيله و ستر عليه بل ذاك الذى تزعمونه مكرنا بنا مكرنا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرنا و تقدمون على المكر بنا، و هذه المزعمه و الاقدام ضلال منكم و إضلال منا لكم جزاء بما كسبته ايديكم، و سيأتى نظير هذا المعنى فى قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلِيٌّ أَنْفُسِكُمُ الْآيَهُ ٢٣ من السوره.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى الخطاب فى قوله: إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ على قراءه تمكرون بناء الخطاب و هى القراءه المشهوره، و هو من عجب الالتفات الواقع فى القرآن و لعل النكته فيه تمثيل معنى قوله: قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا فى العين كأنه تعالى لمّا قال لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» اراد ان يوضحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعه فكلمهم و أوضح لهم السبب فى كونه اسرع مكرنا ثم حجبه عن نفسه فعادوا الى غيبتهم و عاد الكلام الى حاله، و خوطب النبى صلى الله عليه و آله و سلم ببقية الخطاب «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ» الخ؛ و هذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْمِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ الى آخر الآيه؛ الفلك السفينه و تستعمل مفردا و جمعا، و المراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ و الريح العاصف: الشديده الهبوب، و قوله: أُحِيطَ بِهِمْ كناية عن الاشراف على الهلاك، و تقديره احاط بهم البلاء او الامواج، و الاشاره بقوله: «مِنْ هَذِهِ» الى الشده. و معنى الآيه ظاهر.

و فيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب الى الغيبه فى قوله: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ -الى قوله- بَغَيْرِ الْحَقِّ و لعل النكته فيه ارجاعهم الى الغيبه و توجيه الخطاب الى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و وصف اعجب جزء من هذه القصه الموصوفه له ليسمعه و يتعجب منه،و يكون فيه مع ذلك اعراض عن الامر بمخاطبتهم لانهم لا يفقهون القول.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْمَأْرُضِ بَغَيْرِ الْحَقِّ اصل البغى هو الطلب و يكثر استعماله فى مورد الظلم لكونه طلبا لحق الغير بالتعدى عليه و يقيد حينئذ بغير الحق،و لو كان بمعنى الظلم محضا لكان القيد زائدا.

و الجملة من تتمه الآيه السابقه،و المجموع اعني قوله: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ -الى قوله- بَغَيْرِ الْحَقِّ بمنزله الشاهد و المثال بالنسبه الى عموم قوله قبله: «وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ» الى آخر الآيه،او لخصوص قوله: قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا و على اى حال فقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ الْخ؛مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام فى الآيه السابقه و ان لم يكن من كلام النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم فافهم ذلك.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ الى آخر الآيه؛فى الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب فقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» الخ؛خطاب منه تعالى للناس بلا واسطه،و ليس من كلام النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم مما امره الله سبحانه ان يخاطب به الناس.

و الدليل على ذلك قوله تعالى: ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ الى آخر الآيه؛فانه لا يصلح ان يكون من خطاب النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

و النكته فى هذا الالتفات هى نظير النكته التى قدّمنا ذكرها فى قوله تعالى فى اول الكلام:

«إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» فكأنه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم اثناء ما يخاطبهم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هم يحسبون ان ربهم غائب عنهم غافل عن تياتهم و مقاصدهم فى اعمالهم

فيشرف عليهم و يمثل بذلك كونه معهم في جميع احوالهم و احاطته بهم و يقول لهم: انا اقرب اليكم و الى اعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به ان تبتغوا علينا و تمكروا بنا انما توجد بتقديرنا و تجري بأيدينا فكيف يمكنكم ان تبغوا بها علينا؟ بل هي بغى منكم على انفسكم فانها تبعدكم منا و تكتب آثامها في صحائف اعمالكم فبغيتكم على انفسكم و هو متاع الحياه الدنيا تتمتعون به اياما قلائل ثم الينا مرجعكم فنخبركم و نوضح لكم هناك حقائق اعمالكم.

و قوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالنصب في قراءه حفص عن عاصم و التقدير: تتمتعون متاع الحياه الدنيا، و بالرفع في قراءه غيره و هو خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير هو اى بغيتكم و عملكم متاع الحياه الدنيا.

و على كلتا القراءتين فقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الى آخر الآيه، تفصيل لإجمال قوله:

﴿إِنَّمَا بُغِيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ فقوله: ﴿مَتَاعَ﴾ الخ؛ في مقام التعليل بالنسبه الى كون بغيتهم على انفسهم من قبيل تعليل الاجمال بالتفصيل و بيانه به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ الى آخر الآيه؛ لما ذكر سبحانه في الآيه السابقه متاع الحياه الدنيا مثل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقه امره ما يعتبر به المعبرون، و هو من الاستعاده التمثليه و ليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شىء و ان اوهم ذلك قوله: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ابتداء، و نظائره شائعه في امثال القرآن، و الزخرف الزينه و البهجه، و قوله: ﴿لَمْ تَغْنَ﴾ من غنى في المكان اذا اقام فيه فأطال المقام، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الدعاء و الدعوه عطف نظر المدعو الى ما يدعى اليه و جلب توجهه و هو اعم من النداء فان النداء يختص بباب اللفظ و الصوت، و الدعاء يكون باللفظ و الاشاره و غيرهما،

و النداء انما يكون بالجهر و لا يقيد به الدعاء.

و الدعاء فى الله سبحانه تكوينى و هو ايجاد ما يريد لشيء كأنه يدعو الى ما يريد، قال تعالى: **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ** (الإسراء/٥٢) اى يدعوكم الى الحياه الاخرويه فتستجيبون الى قبولها، و تشريعى و هو تكليف النامن بما يريد من دين بلسان آياته، و الدعاء من العبد لربه عطف رحمته و عنايته الى نفسه بنصب نفسه فى مقام العبوديه و المملوكيه، و لذا كانت العباده فى الحقيقه دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه فى مقام المملوكيه و الاتصال بمولاه بالتبعيه و الذله ليعطفه بمولويته و ربوبيته الى نفسه و هو الدعاء.

و الى ذلك يشير قوله تعالى: **وَ قَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِى اَسْتَجِبْ لَكُمْ اِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ** (المؤمن /٦٠) حيث عبر اولا بالدعاء ثم بدله ثانيا العباده.

### [سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

#### اشاره

لِلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَ زِيَادَهٗ وَ لَا يَرْهَقُوْا وُجُوْهُهُمْ قَتْرًا وَ لَا ذَلَهٗ اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ (٢٦) وَ الَّذِيْنَ كَسَبُوْا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَزَهَّجُوْهُمُ ذَلَهٗ مَا لَهُمْ مِّنَ اللّٰهِ مِنْ عَاصِمٍ كَاٰنَّمَا اُغْشِيَتْ وُجُوْهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ (٢٧) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيْعًا ثُمَّ نَقُوْلُ لِلَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا مَكَانَكُمْ اَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَرِيْلًا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ اِيَّانَا تَعْبُدُوْنَ (٢٨) فَكَفٰى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ اِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِيْنَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا اَسْلَفَتْ وَ رُدُّوْا اِلٰى اللّٰهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَفْتُرُوْنَ (٣٠)

قوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ الخ؛ الحسنى مؤنث أحسن و المراد المثوبه الحسنى، و المراد بالزيادة الزيادة على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء و الثواب ثم جعله حقا للعامل فى مثل قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران ١٩٩) ثم ضاعفه و جعل المضاعف منه أيضا حقا للعامل كما فى قوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا (الأنعام / ١٦٠) و عند ذلك كان مفاد قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» استحقاقهم للجزاء و المثوبه الحسنى، و تكون الزيادة هى الزيادة على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشره الأمثال نظير ما يفيدته قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (النساء ١٧٣).

و لو كان المراد بالحسنى فى قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» العاقبه الحسنى، و ليس فيما يعقل فوق الحسنى شىء كان معنى قوله: «و زِيَادَةٌ» الزيادة على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهى كما يشير اليه قوله: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (الم السجده ١٧) و ما فى قوله: لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥) فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاؤه الإنسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك.

و الرهق بفتح الهمزة اللحق و الغشيان يقال: رهقه الدين أى لحق به و غشيه، و القتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود، و فى توصيفهم بقوله: وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ

محاذاة لما فى الآيه التاليه من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقطر و هو سواد صورى و الذله و هى سواد معنوى.

و المعنى: للذين أحسنوا فى الدنيا المثوبه الحسنى و زياده من فضل الله-أو العاقبه الحسنى و زياده لا تخطر ببالهم-و لا يغشى وجوههم سواد من قطر و لا ذله، و أولئك أصحاب الجنه هم فيها خالدون.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَزَهَّجُوهُمْ ذَلَّةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ جملة «جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» مبتدأ لخبر محذوف و التقدير: لهم جزاء سيئه بمثلها من العذاب، و الجملة خبر للمبتدأ الذى هو قوله: «الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» و المراد أن الذين كسبوا السيئات لا يجوزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السيئه فجزاه فعله سيئه عقوبه سيئه.

و قوله: مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ أى ما لهم عاصم يعصمهم من الله أى من عذابه و فيه نفى لشركائهم الذين يظنونهم شفعاء على وجه ينفى كل عاصم مانع سواء كان شريكا شفيعا أو ضدا قويا ممانعا أو أى عاصم غيرهما.

و قوله: كَانُوا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا القِطْع جمع قطعه و مظلمًا حال من الليل، و المراد كأن الليل المظلم قسّم الى قطع فاغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام، و المتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعه من تلك القطع لا كما فسره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعه بعد قطعه فصارت ظلمات بعضها فوق بعض. فليس فى الكلام ما يدل على ذلك.

و قوله: أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يدل على دوام بقائهم فى النار للدلاله الصحابه و الخلود عليه كما أن نظيره فى أصحاب الجنه يدل على نظيره.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ



وَ شُرَكَاءُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين و المشركين و شركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين و شركاءهم في هذه الآية و ما يتلوها ثم يشير إلى الجميع بقوله في الآية التالية: «هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ».

و قوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ أَي الزموا مكانكم أنتم و ليلزم شركاءكم مكانهم و تفرع على هذا الخطاب أن زيلنا بينهم، و قطعنا الرابطه التي كانت تربطهم بشركائهم و هي رابطه الوهم و الحسبان التي يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم و انقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم و لم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء و هم ليسوا بشركاء.

قوله تعالى: فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ظهر معناه بما مر من التقرير، و الفاء في قوله: «فَكَفَى بِاللَّهِ» يفيد التعليل كقولنا: عبد الله فهو ربك، و هو شائع في الكلام.

قوله تعالى: هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البلاء الاختبار، و الاشاره بقوله: «هُنَالِكَ» إلى الموقف الذي ذكره بقوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ.

فذلك الموقف موقف تختبر و تمتحن كل نفس ما أسلفت و قدمت من الأعمال فتتكشف لها حقيقه أعمالها و تشاهدها مشاهده عيان لا مجرد الذكر او البيان، و بمشاهده الحق من كل شيء عيانا ينكشف أن المولى الحق هو الله سبحانه، و تسقط و تنهدم جميع الأوهام، و تضل جميع الدعاوى التي يفترها الانسان بأوهامه و أهوائه على الحق.

فهذه الافتراءات و الدعاوى جميعا إنما نشأت من حيث الروابط التي نضعها في هذه الدنيا بين الأسباب و المسببات و الاستقلال و المولويه التي نعطيها الأسباب و لا إله إلا الله و لا مولى حقا إلا هو سبحانه فإذا انجلت حقيقه الأمر، و انكشف غيم الوهم و انهتك حجاب الدعاوى

ظهر أن لا مولى حقا إلا هو سبحانه، وبطل جميع الآلهة التي إنما أثبتها الافتراء من الانسان، و سقطت و حبطت جميع الاعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عباده حق.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٦]

### اشاره

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَى تُصَيِّرُفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الرزق هو العطاء الجارى، و رزقه تعالى للعالم الانسانى من السماء هو نزول الامطار و الثلوج و نحوه، و من الارض هو بانباتها نباتها و تربيتها الحيوان و منهما يرتزق الانسان، و ببركه هذه النعم الالهيه يبقى النوع الانسانى و المراد بملك السمع و الابصار كونه تعالى متصرفا فى الحواس الانسانيه التى بها ينتظم له انواع التمتع من الارزاق المختلفه التى اذن الله تعالى ان يتمتع بها فانما هو يشخص و يميز ما يريد مما لا يريد باعمال السمع و البصر و اللمس و الذوق و الشم فيتحرك نحو ما يريد، و يتوقف او يفر مما يكرهه بها.

فالحواس هى التى تتم بها فائده الرزق الالهى، و انما خص السمع و البصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما فى الأعمال الحيويه اكثر من غيرهما، و الله سبحانه هو الذى يملكها و يتصرف فيهما بالاعطاء و المنع و الزيادة و النقيصه.

و قوله: وَ مَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ الْحَيَّ بِحَسَبِ النَّظَرِ الْبَادِئِ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ الْمَبْدَأُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ فِي الشَّيْءِ فَيَصْدُرُ أَعْمَالُهُ عَنِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ، و اذا بطلت بطل الصدور كذلك.

قوله تعالى: فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ الْجَمْلَةَ الْأُولَى نَتِجَةَ الْحُجَّةِ السَّابِقَةِ، و قد وصف الرب بالحق ليكون توضيحا لمفاد الحجة، و توطئه و تمهيدا لقوله بعده: «فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» .

و قوله: الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ أخذ بلازم الحجة السابقة لاستنتاج أنهم ضالون فى عباده الاصنام فانه اذا كانت ربوبيته تعالى حقه فان الهدى فى اتباعه و عبادته فان الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذى هو الباطل إلا

فتقدير الكلام: فما ذا بعد الحق الذى معه الهدى إلا الباطل الذى معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شىء و أقيم الباقي مقامه ايجازاً، و قيل: فما ذا بعد الحق إلا الضلال، و لذا قال بعضهم: ان فى الآيه احتباكاً- و هو من المحسنات البديعيه- و هو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شىء يدل عليه الآخر فان تقدير الكلام: فما ذا بعد الحق إلا الباطل؟ و ما ذا بعد الهدى إلا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول و الهدى من الثانى و بقى قوله: فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟ و الوجه هو الذى قدّمناه.

ثم تمم الآيه بقوله: فَأَنى تُضْرَفُونَ اى الى متى تصرفون عن الحق الذى معه الهدى الى الضلال الذى مع الباطل.

قوله تعالى: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَدُوا أَنفُسَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ظاهر السياق ان الكلمه التى تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هى انهم لا يؤمنون اى أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتما و هو ان الفاسقين- و هم على فسقهم- لا يؤمنون و لا تنالهم الهدايه الالهيه الى الايمان، و قد قال تعالى: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المائدہ ١٠٨).

و على هذا فالإشارة بقوله: كَذَلِكَ الى ما تحصل من الآيه السابقه: ان المشركين صرفوا عن الحق و فسقوا عنه فوقعوا فى الضلال اذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

فمعنى قوله: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الخ؛ ان الكلمه الالهيه و القضاء الحتمى الذى قضى به فى الفاسقين- و هو أنهم لا يؤمنون- هكذا حقت و ثبتت فى الخارج و اخذت مصداقها و هو انهم خرجوا عن الحق فوقعوا فى الضلال اى إننا لم نقض عدم هدى الفاسقين و عدم إيمانهم ظلماً و لا جزافاً و انما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق و فسقوا فوقعوا فى الضلال و لا واسطه بينهما فافهم ذلك.

و فى الآيه دلالة على ان الامور الضرورية و الاحكام و القوانين البيّنه التى تجرى فى النظام المشهود كقولنا: لا واسطه بين الحق و الباطل و لا بين الهدى و الضلال لها نوع استناد الى القضاء الالهى، و ليست ثابتة فى ملكه تعالى من تلقاء نفسها.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تلقين للاحتجاج من جهة المبدأ و المعاد فان الذى يبدأ كل شىء ثم يعيده يستحق ان يعبد الانسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه و ينال عظيم ثوابه يوم المعاد.

و لما كان المشركون هم المخاطبون بالحجه غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ان يتصدى جواب سؤاله بنفسه و قال «قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ» و الى متى تصرفون عن الحق.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يهدى للحق و الى الحق بمعنى واحد فالهدايه تتعدى بكلتا الحرفين، و قد رود تعديتها باللام فى مواضع كثيره من كلامه تعالى كقوله: أَوْ لَعَمْرُ يَهْدِي لَهُمْ (الم السجده ٢٦)، و قوله: يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (الإسراء ٩) الى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام فى قوله: «يَهْدِي لِلْحَقِّ» للتعليل ليس بشىء.

لَقَّنْ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هذه الحجه و هى ثالثه الحجج، و هى حجه عقليه يعتمد عليها الخاصه من المؤمنين، و توضيحها ان المرتكز فى الفطره الانسانيه و به يحكم عقله ان من الواجب على الانسان ان يتبع الحق حتى انه ان انحرف فى شىء من اعماله عن الحق و اتبع غيره لغلط او شبهه او هوى فانما اتبعه لحسابه اياه حقا و التباس الأمر عليه، و لذا يعتذر عنه بما يحسبه حقا فالحق واجب الاتباع على الاطلاق و من غير قيد او شرط.

و الهادى الى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق، و من الواجب ترجيحه على من لا

يهدى اليه او يهدى الى غيره لأن اتباع الهادى الى الحق اتباع لنفس الحق الذى معه وجوب اتباعه ضرورى (١).

وقوله فى ذيل الآيه: **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** استفهام للتعجب استغرابا لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتباع من لا يهتدى ولا يهدى الى الحق.

قوله تعالى: **وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** أغنى يغنى يتعدى بمن وعن كليهما وقد جاء فى الكلام الإلهى بكل من الوجهين فعدى بمن كما فى الآيه، وبعن كما فى قوله: **مَا أَغْنَى عَنِّي مَا لِيَه** (الحاقه ٢٩).

وإنما نسب اتباع الظن الى أكثرهم لأن الأقل منهم وهم أئمة الضلال على يقين من الحق، ولم يؤثروا عليه الباطل و يدعو اليه إلا- بغيا كما قال تعالى: **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ** (البقره ٢١٣). و أما الأكثرون فإنما اتبعوا آباءهم تقليدا لهم لحسن ظنهم بهم.

وقوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** تعليل لقوله: **«وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا»** والمعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتباع للظن.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٥]

### اشاره

**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ** وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** وَادْعُوا مَنْ إِسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ** وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) **وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) **وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي** وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** أ فَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) **وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ** أ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا** وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَمَا أَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ** قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ **وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** (٤٥)

ص: ٤٠

١- ١). يونس ٣٦-٣١: بحث فى احتجاج القرآن على المشركين و آلهتهم؛ معنى الهدايه؛ ان ليس من شركاء المشركين من يهدى الى الحق و ان الله سبحانه يهدى الى الحق.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قد تقدمت الاشاره الى ان نفي صفه او معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن و الاستعداد، و هو أبلغ

من نفيه نفسه ففرق بين قولنا: ما كان زيد ليقوم، وقولنا: لم قم او ما قام زيد إذ الاول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد ولا استعداد له استعداد، والثاني ينفي القيام عنه فحسب، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤)، وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (الشورى ٥٣)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ (العنكبوت ٤٠).

فقوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا القرآن أن يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ» نفى لشأنيه الافتراء عن القرآن كما قيل وهو أبلغ من نفى فعليته، والمعنى ليس من شأن هذا القرآن ولا فى صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتره على الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراه والإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: ﴿يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ (الصف ٦)، وإنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب ابراهيم عليهما السلام فاذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الاقرب منها زمانا اليه وهو التوراه والإنجيل موصوفا بأنه بين يديه.

وربما قيل: إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الامور كالبعث والنشور والحساب والجزاء، وليس بشيء.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ عَطْفَ عَلَى «تَصْدِيقَ»﴾ والمراد بالكتاب بدلاله من السياق جنس الكتاب السماوى النازل من عند الله سبحانه على انبيائه، والتفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجه بعضها فى بعض المنطويه جانب منها فى آخر بالإيضاح والشرح.

وفيه دلالة على أن الدين الإلهى المنزل على أنبيائه عليهم السلام واحد لا اختلاف فيه إلا بالإجمال والتفصيل، والقرآن يفصل ما أجمله غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾



و أن القرآن الكريم مفصّل لما أجمله الكتب السماويه السابقه مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ** (المائدہ ٤٨). وقوله: **لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** اى لا- ريب فيه هو من رب العالمين، و الجملة الثانيه كالتعليل للولى.

قوله تعالى: **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** الى آخر الآيه، أم منقطعه و المعنى بل يقولون افتراه، و الضمير للقرآن، و اتصاف السوره بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه و القليل.

و المعنى قل للذين يقولون افتراه: إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسوره مثل هذا القرآن المفترى و ادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فانه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشريا و جاز او يؤتى بمثله و فى ذلك تحدّ ظاهر بسوره واحده من سور القرآن طويله كانت او قصيره (١).

قوله تعالى: **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** الى آخر الآيه؛ الآيه تبين وجه الحقيقه فى عدم إيمانهم به و قولهم إنه افتراء و هو أنهم كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقه من قبيل العلوم الواقعيه لا يسعها علمهم، و لم يأتهم تأويله بعد أى تأويل ذاك الذى كذبوا به حتى يضطروهم الى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: **وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** يشير الى يوم القيامه كما يؤيده قوله تعالى: **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ**

قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِرَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (الأعراف ٥٣).

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ قَسَمَهُمْ قَسَمِينَ مِنْ يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ثُمَّ كَتَى عَمَنَ لَا يُؤْمِنُ بِهِ أَنَّهُمْ مَفْسِدُونَ فَتَحْصِلُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا كَذَّبُوا بِهِ لِأَنَّهُمْ مَفْسِدُونَ.

فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من إيمان البعض وكفر البعض وأن الكفر ناش من رذيله الإفساد.

قوله تعالى: وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَلْقِينَ لِلتَّبَرِّي عَلَى تَقْدِيرِ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ، وَهُوَ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِنْتِصَارِ لِحَقِّ مِمَّنْ انْتَهَضَ لِأَحْيَائِهِ فَالطَّرِيقُ هُوَ حَمَلُ النَّاسِ عَلَيْهِ أَنْ حَمَلُوا وَإِلَّا فَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ لثَلَا يَحْمِلُوهُ عَلَى بَاطِلِهِمْ.

وقوله: أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ تفسير لقوله: «لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ».

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ الاستفهام للإنكار، وقوله: «وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ» قرينه على أن المراد بنفى السمع نفى ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمى بسمع القلب.

والمعنى: و منهم الذين يستمعون إليك وهم صم لا سمع لقلوبهم، ولست أنت قادر على إسماعهم ولا سمع لهم.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ مسوق للإشارة إلى أن ما ابتلى به هؤلاء المحرومون من السمع والبصر من جهة الصمم والعمى

من آثار ظلمهم انفسهم من غير ان يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع و البصر عنهم فانهم انما أوتوا من قبل انفسهم.

قوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ الخ؛ ظاهر الآيه ان يكون «يَوْمَ» ظرفا متعلقا بقوله: «قَدْ حَسِرَ» الخ؛ وقوله: «كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً» الخ؛ حالا من ضمير الجمع في «يَحْشُرُهُمْ» و قوله: «يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ» حالا ثانيا مبينا للحال الاول.

و المعنى قد خسر الذين كذبوا بقاء الله في يوم يحشرهم اليه حال كونهم يستقلون هذه الحياه الدنيا فيعدونها كمكث ساعه من النهار و هم يتعارفون بينهم من غير ان ينكر بعضهم بعضا او ينسأه.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

### اشاره

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسِيرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْأَلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

قوله تعالى: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ أَصْلَهُ: إن نرك، زيد عليه ما و النون الثقيله للتأكيد، و الترديد بين الإراده و التوفى للتسويه و استيعاب التقادير، و المعنى الينا مرجعهم على اى تقدير، و لفظه ثم للتراخى بحسب ترتيب الكلام دون الزمان و الآيه مسوقه لتطبيب نفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لتكون كالتوطئه لحديث قضاء العذاب الذى ستفصله الآيات التاليه لهذه الآيه.

و المعنى طب نفسا فإننا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك او توفيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم الينا و نحن شاهدون لأفعالهم المستوجه للعذاب لا تغيب عنا و لا ننساها.

و الالتفات من قوله: «نُرِيَنَّكَ» الى قوله: «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ» للدلالة على عله الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ قضاء إلهي منحل الى قضاءين أحدهما: أن لكل أمة من الامم رسولا يحمل رساله الله اليهم و يبلغها إياهم، و ثانيهما: أنه اذا جاءهم و بلغهم رسالته فاختلفوا من مصدق له و مكذب فإن الله يقضى و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم. هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

و منه يظهر أن قوله: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ» فيه إيجاز بالحذف و الإضمار و التقدير:

فإذا جاء رسولهم اليهم و بلغ الرساله فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق، و يدل على ذلك قوله: «قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه، و لذا كان السؤال عن القسط و عدم الظلم فى القضاء فى مورد العذاب و الضرر أسبق الى الذهن.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود، و هو القضاء بينهم فى الدنيا، و السائلون هم بعض المشركين من معاصري النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و الدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ؛ فقول بعضهم: إن السؤال عن عذاب يوم القيامة او إن السائلين بعض المشركين من الامم السابقة لا يلتفت اليه.

قوله تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ الى آخر الآيه؛ لما كان قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى معنى قولنا: أى وقت يفى ربك بما وعدك او يأتى بما أوعدنا به أنه يقضى بيننا و بينك فيهلكنا و ينجيك و المؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرنا؟ فهلا عجل لكم

ذلك - و ذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا و استهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية و هذا نظير قولهم: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر / ٧).

لَقَدْ سَبَّحَانَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَبْدَأَهُمْ فِي الْجَوَابِ بِيَانِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا حَتَّى يَدْفَعَهُ عَنْهَا وَ لَا نَفْعًا حَتَّى يَجْلِبَهُ إِلَيْهَا وَ يَسْتَعْجَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْلِكَهُ مِنْ ضَرٍّ وَ نَفْعٍ فَالْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ جَمِيعًا، وَ اقْتِرَاحُهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَعْجَلَ لَهُمُ الْقَضَاءَ وَ الْعَذَابَ مِنَ الْجَهْلِ.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، الْبَيَاتِ وَ التَّبَيُّتِ الْإِتْيَانِ لَيْلًا وَ يَغْلِبُ فِي الشَّرِّ كَقَصْدِ الْعَدُوِّ عَدُوَّهُ لَيْلًا.

و لما كان قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِي مَعْنَى اسْتَعْجَالِ آيَةِ الْعَذَابِ الَّتِي يَلْجِئُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ رَجَعَ بَعْدَ بَيَانِ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ إِلَى تَوْبِيخِهِمْ وَ ذَمِّهِمْ مِنَ الْجَهْتَيْنِ فَوَبَّخَهُمْ أَوَّلًا عَلَى اسْتَعْجَالِهِمْ بِالْعَذَابِ، وَ هُوَ عَذَابٌ فَجَائِئِيٌّ مِنَ الْحَزْمِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ لَا أَنْ يَسْتَعْجَلُ فِيهِ فَقَالَ تَعَالَى مَلَقْنَا لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ» وَ أَخْبَرُونِي «إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا» لَيْلًا - «أَوْ نَهَارًا» فَإِنَّهُ عَذَابٌ لَا يَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَهُ إِذْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ وَ قَدْ نَزَلَهُ «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ» مِنَ الْعَذَابِ «الْمُجْرِمُونَ» أَيُّ مَاذَا يَسْتَعْجَلُونَ مِنْهُ وَ أَنْتُمْ مُجْرِمُونَ لَا يَتَخَطَّكُمْ إِذَا أَتَاكُمْ.

فَفِي قَوْلِهِ: «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» التَّفَاتُ مِنَ الْخَطَابِ إِلَى الْغَيْبِ وَ كَأَنَّ النِّكْتَةَ فِيهِ رِعَايَةً حَالَهُمْ أَنْ لَا يَشَافَهُوا بِصَرِيحِ الشَّرِّ وَ لِيَكُونَ تَعَرُّضًا لِمَلَائِكَةِ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَ هُوَ إِجْرَامُهُمْ.

وَ وَبَّخَهُمْ ثَانِيًا عَلَى تَأْخِيرِ إِيْمَانِهِمْ إِلَى حِينٍ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيْمَانُ فِيهِ وَ هُوَ حِينُ نَزُولِ الْعَذَابِ فَإِنَّهُ آيَةُ الْعَذَابِ يَلْجِئُهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ عَلَى مَا هُوَ الْمَجْرَبُ مِنَ إِيْمَانِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ إِشْرَافِ الْهَلِكَةِ،

و من جهة أخرى الإيمان توبه و التوبه غير مقبوله عند ظهور آيه العذاب و الإشراف على الموت.

فقال تعالى أ تُمْ إِذَا مَا وَقَعَ الْعَذَابُ «آمَنْتُمْ بِهِ» أى بالقرآن او بالدين أو بالله «آلآن» أى أ تؤمنون به فى هذا الآن و الوقت «وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ الْأَشْبَهَ أَنْ تَكُونَ الْآيَةَ مُتَّصِلَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ؛ فتكون الآية الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم و إهلاكهم، و الآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع و الهلاك: ذوقوا عذاب الخلد و هو عذاب الآخرة و لا تجزون إلا أعمالكم التى كنتم تكسبونها و ذنوبكم التى تحملونها، و الخطاب تكوينى كنى به عن شمول العذاب لهم و نياله إياهم، و على هذا المعنى فالآيتان «قُلْ أَرَأَيْتُمْ -الى قوله- تَسْتَعْجِلُونَ» و اردتان مورد الاعتراض.

قوله تعالى: وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلُ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يستنبئونك أى يستخبرونك، و قوله: «أَحَقُّ هُوَ» بيان له، و الضمير على ما يفيد السياق راجع الى القضاء أو العذاب، و المآل واحد، و قد أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يؤكد القول فى إثباته من جميع جهاته، و بعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضى و عدم المانع.

فقوله: «قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» إثبات لتحققه و قد أكد الكلام القسم و الجملة الاسمية و إن و اللام، و قوله: «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ فِي الْمَآرِضِ لَأَفْتِيدَتْ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، إشاره الى شدة العذاب و أهميه التخلص منه عندهم، و إسرار الندامة إخفاؤها

و كتمانها خشية الشماته و نحوها، و الظاهر أنّ المراد بالقضاء و العذاب فى الآيه هو القضاء و العذاب الدينويان لا غير.

قوله تعالى: **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** الآيه و ما بعدها بيان برهاني على حقيقته ما ذكره من كونه حقا واقعا لا يمنع عنه مانع فإن كل شىء مما فى السماوات و الأرض اذا كان مملوكا لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها اليه تعالى، و لم يكن لغيره شىء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف فى شىء كان مستندا الى إرادته فقط من غير أن يستند الى مقتضى آخر خارج يتصرف فى ذاته المقدسه فيحمله على الفعل، أو يتقيد بعدم مانع خارجى اذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط الى مقتضى من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئا فعله من غير ممد أو عائق، و اذا وعد وعدا كان حقا لا مرد له من غير ان يتغير عن وعده بصارف (١).

قوله تعالى: **هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** احتجاج على ما تقدم فى الآيه السابقه من ملكه تعالى بالنسبه الى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول: إن أمركم جميعا من حياه و موت و رجوع اليه تعالى فكيف لا تكونون ملكا له.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٧٠]

### إشارة

**بِأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** (٥٧) **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** (٥٨) **قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** (٥٩) **وَ ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ فَضْلِ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ** (٦٠) **وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَغْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَضِغْرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبْرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** (٦١) **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) **الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** (٦٣) **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٦٤) **وَ لَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٦٥) **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** (٦٦) **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَسْتُمْ كُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** (٦٧) **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (٦٨) **قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ** (٦٩) **مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** (٧٠)

ص: ٥٠





قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾؛ قال الراغب في المفردات: الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظه والموعظه الاسم، انتهى. والصدر معروف والناس لئما وجدوا القلب في الصدر وهم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه وبه يعقل الأمور ويحب ويبغض ويريد ويكره ويشتاق ويرجو ويتمنى، عدوا الصدر خزانه لما في القلب من أسرارها والصفات الروحية التي في باطن الإنسان من فضائل و رذائل، وفي الفضائل صحة القلب واستقامته، وفي الرذائل سقمه و مرضه، والرذيله داء يقال: شفيت صدرى بكذا اذا ذهب به ما في صدره من ضيق و حرج، ويقال: شفيت قلبي، فشفاء الصدور و شفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب الى الإنسان الشقاء و تنغص عيشته السعيده و تحرمه خير الدنيا و الآخرة.

و الهدى هي الدلالة على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام ١٢٥) في الجزء السابع من الكتاب بحث فيها.

و الرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدته ضرر أو نقص في الغير يبعث الراحم الى جبر كسره و إتمام نقصه، و إذا نسبت اليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثير لتنزهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيته تعالى و إفاضته الوجود على خلقه.

و عطيته اذا نسبت الى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب اليه تعالى من وجودهم و بقائهم و رزقهم الذي يمدّ به بقاؤهم و سائر ما ينعم به عليهم من نعمه التي لا تحصى كثره و إن تعدّوا نعمه الله لا تحصوها، و اذا نسبت الى المؤمنين خاصة كانت هي ما يختص بهم من سعادته الحياه الانسانيه بمظاهرها المختلفه التي ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقه الإلهيه، و الأخلاق الكريمة و الأعمال الصالحه، و الحياه الطيبه في الدنيا و الآخره و الجنه و الرضوان.

و من ثم اذا وصف القرآن بأنه رحمه للمؤمنين كان معناه أنه يعشى المؤمنين أنواع الخيرات و البركات التي كنزها الله فيه لمن تحقق بحقائقها و تلبس بمعانيها، قال تعالى: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (الإسراء ٨٢).

قوله تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ الفضل هو الزيادة، و تسمى العطيّه فضلاً لأن المعطى إنما يعطى غالباً ما لا يحتاج اليه من المال ففي تسميه ما يفيضه الله على عباده فضلاً إشاره الى غناه تعالى و عدم حاجته في إفاضته الى ما يفيضه و لا الى من يفيض عليه.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامه خلقه، و بالرحمه خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمه السعاده الدينيه اذا انضمن الى النعمه العامه من حياه و رزق و سائر البركات العامه كان المجمع منهما أحق بالفرج و السرور و أخرى بالانبساط و الابتهاج.

و من الممكن أن يتأيد ذلك بقوله: «بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» حيث أدخلت باء السببيه على كل من الفضل و الرحمه، و هو مشعر بكون كل واحد منهما سبباً مستقلاً و إن جمع بينهما ثانياً

بقوله: «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» للدلالة على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح.

و يمكن ان يكون المراد بالفضل غير الرحمة و من الامور المذكوره فى الآيه السابقه اعطى الموعظه و شفاء ما فى الصدر و الهدى، و المراد بالرحمة: الرحمة بمعناها المذكور فى الآيه السابقه و هى العطيّه الخاصه الإلهيه التى هى سعادته الحياه فى الدنيا و الآخره.

و المعنى على هذا: ان ما تفضل الله به عليهم من الموعظه و شفاء ما فى الصدور و الهدى، و ما رحم المؤمنين به من الحياه الطيبه ذلك احق ان يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

و ربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ» (النور/٢١) حيث نسب زكاتهم الى الفضل و الرحمة معا و استناد الزكاه الى الفضل بمعنى العطيّه العامه بعيد عن الفهم، و مما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد فى الروايه من تفسير الآيه بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و على عليه السلام او بالقرآن و الاختصاص به و سيجىء ان شاء الله.

و قوله: «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ذكروا ان الفاء فى قوله: «فَلْيَفْرَحُوا» زائده كقول الشاعر: «فاذا قتلت فعند ذلك فاجزعى» و الظرف اعنى قوله: «فَبِذَلِكَ» بدل من قوله:

«بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»، و متعلق بقوله: «فَلْيَفْرَحُوا» قَدَّم عليه لإفاده الحسر، و قوله: «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلك كله ان الآيه تفرع على مضمون الآيه السابقه فانه تعالى لما خاطب الناس امتنانا عليهم أن هذا القرآن موعظه لهم و شفاء لما فى صدورهم و هدى و رحمه للمؤمنين منهم فرح عليه انه ينبغي لهم حينئذ ان يفرحوا بهذا الذى امتن به عليهم من الفضل و الرحمة لا بالمال الذى يجمعونه فان ذلك- و فيه سعادتهم و ما تتوقف عليه سعادتهم- خير من المال الذى ليس إلا فتنه ربما اهلكتهم و اشقتهم.

قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا»

وَ حَلَالًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ نَسَبَهُ الرِّزْقَ وَ هُوَ مَا يَمِدُّ الْإِنْسَانَ فِي بَقَائِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْأَرْضِيَّةِ مِنْ مَأْكُولٍ وَ مَشْرُوبٍ وَ مَلْبُوسٍ وَ غَيْرِهَا إِلَى الْإِنزَالِ مَبْنِي عَلَى حَقِيقَتِهِ يَفِيدُهَا الْقُرْآنُ وَ هِيَ أَنْ الْأَشْيَاءَ لَهَا خَزَائِنٌ عِنْدَ اللَّهِ تَنْزِلُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) وَ قَالَ تَعَالَى:

وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ (الذاريات ٢٢) وَ قَالَ: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦) وَ قَالَ: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥).

وَ أَمَا مَا قِيلَ: أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْإِنزَالِ أَمَّا هُوَ لَكُنْ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ مِنَ الْمَطَرِ الَّذِي يَنْزِلُهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَوَجْهٌ بَسِيطٌ لَا يَطْرُدُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ فِي جَمِيعِ الْمَوَارِدِ الَّتِي عَبَّرَ فِيهَا عَنْ كَيْفُونَتِهَا بِالْإِنزَالِ كَمَا فِي الْأَنْعَامِ وَ فِي الْحَدِيدِ، وَ الرِّزْقُ الَّذِي تَذَكَّرُ الْآيَةُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ لَهُمْ فَجَعَلُوا مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا هُوَ الْأَنْعَامُ مِنَ الْإِبِلِ وَ الْغَنَمِ كَالْوَصِيلِ وَ السَّائِبِ وَ الْحَامِ وَ غَيْرِهَا.

وَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: لَكُمْ لِلْغَايَةِ وَ تَفِيدُ مَعْنَى النِّفْعِ أَيْ أَنْزَلَ اللَّهُ لِأَجْلِكُمْ وَ لَتَنْتَفِعُوا بِهِ، وَ لَيْسَتْ لِلتَّعْدِيَةِ فَانِ الْإِنزَالِ أَمَّا يَتَّعَدَى بَعْلَى أَوْ إِلَى، وَ مِنْ هُنَا أَفَادَ الْكَلَامُ مَعْنَى الْإِبَاحَةِ وَ الْحَلِّ أَيْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ فَأَحْلَاهَا، وَ هَذَا هُوَ النَّكْتَةُ فِي تَقْدِيمِ التَّحْرِيمِ عَلَى الْإِحْلَالِ فِي قَوْلِهِ: «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا» أَيْ كَانَ اللَّهُ أَحْلَاهُ لَكُمْ بِأَنْزَالِهِ رِزْقًا لَكُمْ تَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي حَيَاتِكُمْ وَ بَقَائِكُمْ وَ لَكُنْكُمْ قَسَمْتُمُوهُ قَسَمِينَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ فَحَرَّمْتُمْ قَسَمًا وَ أَحْلَلْتُمْ آخَرَ فَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: أَخْبِرُونِي عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لِأَجْلِكُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْحَلَالِ فَقَسَمْتُمُوهُ قَسَمِينَ وَ جَعَلْتُمْ بَعْضَهُ حَرَامًا وَ بَعْضَهُ حَلَالًا مَا هُوَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ؟ وَ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّهُ افْتَرَأَ عَلَى اللَّهِ لَا عَنْ إِذْنِ مَنْ تَعَالَى.

وَ قَوْلُهُ: قُلْ أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ سؤَالٌ عَنِ سَبَبِ تَقْسِيمِهِمُ الرِّزْقَ إِلَى حَرَامٍ وَ حَلَالٍ، وَ إِذَا كَانَ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ عَنْ إِذْنِ مَنْ تَعَالَى لِعَدَمِ اتِّصَالِهِمْ بِرَبِّهِمْ بُوْحَى أَوْ رَسُولِ كَانَ مِنَ الْمَتَعِّينِ أَنَّهُ افْتَرَأَ فَالاسْتِفْهَامُ فِي سِيَاقِ التَّرْدِيدِ كُنَايَةً عَنِ اثْبَاتِ

الافتراء لهم و توييخ و ذم.

و الذى يقضى به النظر الابتدائى ان التردد فى الآيه غير حاصر اذ كما يجوز ان يكون تقسيمهم رزق الله الى حرام و حلال عن اذن من الله او افتراء عليه تعالى كذلك يجوز ان يكون عن مصلحه احرزوها او زعموها فى ذلك او عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه الى الله تعالى فيكون افتراء عليه.

و من وجه آخر التردد فى الآيه بين اذن الله و الافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراما و بعضه حلالا- و هو دائر بينهم إما أن يكون من الله او افتراء عليه، و من الممكن أن يمنع ذلك فى بادئ النظر فكثير من السنن الدائره بين الناس كوّنتها طبيعه مجتمعهم او عاداتهم القوميه و غير ذلك.

لكن التدبر فى كلامه تعالى و البحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى، و ليس لأحد من خلقه أن يبادر الى تشريع حكم و وضعه فى المجتمع الانسانى، قال تعالى: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (يوسف ٤٠).

و قد أشار تعالى الى لم ذلك فى قوله: **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** (الروم ٣٠) فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمدا على الخلقه و الفطره منطبقا عليها غير مخالف لما ينطق به الكون و الوجود.

و ذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثا كما قال: **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً** (المؤمنون ١١٥) بل خلقهم لأغراض إلهيه و غايات كماليه يتوجهون إليها بحسب جبلتهم و يسرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب و الأدوات و هداهم اليه من السبيل الميسر لهم كما قال: **أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** (طه ٥٠)، و قال: **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** (عبس ٢٠).

قوله تعالى: **وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** الى

آخر الآيه؛لما كان جواب الاستفهام المتقدم «أَللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» معلوما من المورد،و هو أنه افتراء،استعظم و خامه عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البدايه فلا محاله له أثر سيئ،ولذلك قال تعالى إيعادا و تهديدا «وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

و أما قوله: إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَآيَشْكُرُونَ فهو شكوى و عتبي يشار به الى ما اعتاد عليه الناس من كفران اكثرهم لنعمه الله،و عدم شكرهم قبال عطيته و نعمته،و المراد بالفضل هاهنا هو العطيه الإلهيه فإن الكلام فى الرزق الذى أنزله الله لهم و هو الفضل،و تحريمهم بعضه و هو الكفران و عدم الشكر.

و برجوع ذيل الآيه الى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته،و المعنى أن الله ذو فضل و عطاء على الناس و لكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذين يكفرون بنعمه الله و رزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كَذَّابًا عَلَيْكُمْ سُهُودًا إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛قال الراغب:الشأن الحال و الأمر الذى يتفق و يصلح،و لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال و الامور قال «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ». انتهى.

و قوله: «وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ الظاهر أن الضمير الى الله سبحانه و من الاولى للابتداء و النشوء و الثانيه للبيان،و المعنى:و لا تتلو شيئا هو القرآن ناشئا و نازلا من قبله تعالى،و الإفاضه فى الفعل الخوض فيه جمعا.

و قد وقع فى قوله: «إِلَّا كَذَّابًا عَلَيْكُمْ سُهُودًا» التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير، و النكته فيه الإشاره الى كثره الشهود فإن لله شهودا على أعمال الناس من الملائكه و الناس و الله من ورائهم محيط،و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم للدلاله على أن لهم أعوانا و خدمه.

و ليس ينبغي أن يغفل عن أن اصل الالتفات يبدأ من اول الآيه فإن الآيات السابقه كانت تخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم وَ تأخذ المشركين على الغيبه وَ تكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه، و قد حوّلت هذه الآيه وجه الكلام الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بما يخص به نفسه فقالت «و ما تكون من شأن و لا تتلوا منه من قرآن» ثم جمعتهم و المشركين و غيرهم جميعا فى خطاب واحد فقالت «و لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» و ذلك بضمهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و هم على غيبتهم و بسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول لمخاطبك:

أنت و قومك تفعلون كذا و كذا.

و الدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضم و التغليب قوله بعده: «و لا- يعزى عن ربك» الخ؛ فإن يكشف عن كون الخطاب معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم جاريا على ما كان.

و على أى حال فالتحول المذكور فى خطاب الآيه للإشاره الى أن السلطنه و الإحاطه التامه الإلهيه واقعه على الأعمال شهاده و علما على أتم ما يكون من كل جهه من غير أن يستثنى منه نبى و لا- مؤمن و لا- مشرك او يغفل عن عمل من الاعمال فلا يتوهم احد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، و ليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة و ليأخذ حذره.

و ذكر تلاوه القرآن مستقلا مع دخوله فى قوله قبالا: «و ما تكون فى شأن فإنه احد شئونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم للايماء الى أهميه أمرها و مزيد العناية بها.

و فى الآيه اولا تشديد فى العظه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و على أمته، و ثانيا: أن الذى يتلوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من القرآن للناس من وحى الله و كلامه لا- يطرقة تغيير و لا يدب فيه باطل لا فى تلقيه منا لله و لا فى تلاوته للناس فالآيه قريبه المضمون من قوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨)».



وقوله: **وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**؛ العزوب الغيبه و التباعد و الخفاء، وفيه إشارة الى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبه و حفظه لها في كتاب من غير زوال، وقد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله: **وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ (الأنعام ٥٩/)** في الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: **الْأَلَاءِ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السوره و هو الدعوه الى الايمان بكتاب الله و الندب الى توحيد الله تعالى بمعناه الواسع.

و للدلاله على أهميه المطلب افتتح بلفظه «**الْأَلَاءِ**» التنبيهيه، و الله سبحانه يذكر في هذه الآيه و الآيتين بعدها أولياءه و يعرّفهم و يصف آثار ولايتهم و ما يختصون به من الخصيصه.

فأولياء الله-على أى حال-هو المؤمنون فإن الله يعدّ نفسه وليا لهم في حياتهم المعنويه حيث يقول: **وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨/)**.

غير أن الآيه التاليه لهذه الآيه المفسره للكلمه تأبى أن تكون الولايه شامله لجميع المؤمنين و فيهم امثال الذين يقول الله سبحانه فيهم: **وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦/)**

فإن قوله في الآيه التاليه: «**الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ**» يعرّفهم بالايمن و التقوى مع الدلاله على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل «**آمَنُوا**» ثم قيل عطفاً عليه «**وَ كَانُوا يَتَّقُونَ**» فدلّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم و من المعلوم أن الإيمان الابتدائي غير مسبق بالتقوى بل هما متقاربان او هو قبل التقوى و خاصه التقوى المستمر.

فالمراد بهذه الإيمان مرتبه أخرى من مراتب الايمان غير المرتبه الاولى منه. فقد تقدم في الجزء الأول من الكتاب آيه ١٣٠ من البقره أن لكل من الإيمان و الإسلام و كذا الشرك و الكفر مراتب مختلفه بعضها فوق بعض فالمرتبه الاولى من الإسلام إجراء الشهاداتين لسانا

و التسليم ظاهرا، و تليه المرتبه الاولى من الإيمان و هو الإذعان بمؤدى الشهادتين قلبا إجمالا و إن لم يسر الى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق، و لذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات، قال تعالى: ﴿ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (يوسف ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُمْ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يبشّرهم الله تعالى بشاره إجماليه بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ إنشاء للبشاره كان معناه وقوع ما بشّر به في الدنيا و في الآخره كالتاهما، و إن كان اخبارا بأن الله سيبشّرهم بشرى كانت البشاره واقعه في الدنيا و في الآخره، و أما المبشّر به فهل يقع في الآخره فقط او في الدنيا و الآخره معا؟ الآيه ساكته عن ذلك.

و قد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى:

﴿ وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا نَصِيحَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم ٤٧) و قوله: ﴿ إِنَّا لَنُنصِرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (المؤمن ٥١) و قوله: ﴿ بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (الحديد ١٢) الى غير ذلك.

و قوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ إشاره الى ان ذلك من القضاء المحتوم الذى لا سبيل للتبديل اليه، و فيه تطيب لنفوسهم.

قوله تعالى: ﴿ وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تأديب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بتعزيتة و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه و الطعن في دينه و الاعتزاز بشركائهم و آلهتهم كما يشعر به القول في الآيه التاليه فكاد يحزن لله فسلاه الله و طيب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده و هو أن العزه لله و أنه سميع لمقالهم عليهم بحاله و حالهم و إذ كان له تعالى كل العزه فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزه الوهميه فهذوا ما هذوا، و إذ كان سميعا عليما فلو

شاء لأخذهم بالنكال و إذ كان لا يأخذهم فإنما فى ذلك مصلحه الدعوه و خير العاقبه.

و من هنا يظهر ان كلا من قوله: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ» و قوله: «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» عله مستقله للنهى و لذا جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: «الْأَلَاءُ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فِيهِ بَيَانُ مَالِكِيَّتِهِ تَعَالَى لِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ لِلَّهِ مَعْنَى رَبُّوبِيَّتِهِ فَإِنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِ مَمْلُوكِهِ، وَ هَذَا الْمَلِكُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِكَ لَهُ فَمَا يَدْعُونَ لَهُ مِنْ الشَّرَكَاءِ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ مَعْنَى الشَّرِكَةِ إِلَّا مَا فِي ظَنِّ الدَّاعِينَ وَ فِي خِرَصِهِمْ مِنَ الْمَفْهُومِ الَّذِي لَا مُصَدِّقَ لَهُ.

فالآيه تقيس شركاءهم اليه تعالى و تحكم ان نسبتهم اليه تعالى نسبه الظن و الخرص الى الحقيقه و الحق، و الباقي ظاهر.

و قد قيل «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» و لم قل: ما فى السماوات و ما فى الأرض لأن الكلام فى ربوبيه العباد من ذوى الشعور و العقل و هم الملائكه و الثقلان.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا» الآيه؛ الآيه تتم البيان الذى أورد فى الآيه السابقه لاثبات ربوبيته تعالى و الربوبيه - كما تعلم - هى الملك و التدبير، و قد ذكر ملكه تعالى فى الآيه السابقه، فبذكر تدبير من تدبيره العامه فى هذه الآيه تصلح به عامه معيشه الناس و تستبقى به حياتهم يتم له معنى الربوبيه.

و للإشاره الى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه، و مع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم الى انواع الحركات و التنقلات لكسب مواد الحياه و اصلاح شئون المعاش فليس يتم أمر الحياه الانسانيه بالحركه فقط او بالسكون فقط فدبر الله سبحانه الأمر فى ذلك بظلمه الليل الداعيه الى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العى و التعب و النصب و الى الارتياح و الانس بالأهل

و التمتع مما جمع و اكتسب بالنهار و الفراغ للعبوديه، و بضوء النهار الباعث الى الرؤيه فالاشتياق فالطلب.

قوله تعالى: **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** الى آخر الآيه؛ الاستيلاء بمعناه المعروف عند الناس هو ان يفصل الموجود الحي بعض اجزاء مادته فيربيه بالحمل او البيض تربيته تدريجيه حتى يتكون فردا مثله، و الانسان من بينها خاصه ربما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر و ذخراً ليوم الفاقه، و هذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عزّ اسمه منزّه عن الاجزاء متعال عن التدرّج في فعله برىء عن المثل و الشبه مستغن عن غيره بذاته.

و قد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكوره كما تعرّض لنفيه من جميعها في قوله: **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ يَلِ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ** يَدْعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره ١١٧/) و قد مرّت الاشاره الى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأول من الكتاب.

و اما الآيه التي نحن فيها فهي مسوقه للاحتجاج على نفى الولد من الجهه الاخيره فحسب و هو ان الغرض من وجوده الاستعانه به عند الحاجه و ذلك انما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً، و الله سبحانه هو الغنى الذي لا يخالفه فقر فانه المالك لما فرض في السماوات و الارض من شيء.

و قوله: **إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ** اى برهان «بهذا» اثبات لكونهم انما قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصل المعنى انه لا دليل لكم على ما قلموه بل الدليل على خلافه و هو انه تعالى غنى على الاطلاق، و الولد انما يطلبه من به فاقه و حاجه، و الكلام على ما اصطلاح عليه في فن المناظره من قبيل المنع مع السند.

و قوله: **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** تويخ لهم في قولهم ما ليس لهم به

علم، وهو مما يستقبحه العقل الانساني ولا سيما في ما يرجع الى رب العالمين عز اسمه.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ يُخَوِّفُ وَيُنذِرُ بِشَوْمِ الْعَاقِبَةِ، وَفِي الْآيَتَيْنِ مِنْ لَطِيفِ الْاِلْتِفَاتِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ فَقَدْ حَكَى اللَّهُ أَوَّلًا عَنْهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْغَيْبِ قَوْلَهُمْ: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» ثُمَّ خَاطَبَهُمْ خَطَابَ السَّخَطِ الْغَضَبَانِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِ وَافْتَرَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ «إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» وَانَّمَا خَاطَبَهُمْ مُتَنَكِّرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَهُمْ نَفْسَهُ حَيْثُ قَالَ «عَلَى اللَّهِ» وَ لَمْ يَقُلْ: عَلَيَّ أَوْ عَلَيْنَا صَوْنًا لِعَظَمَةِ مَقَامِهِ أَنْ يَخَالَطَهُمْ مَعْرُوفًا ثُمَّ اعْرَضَ عَنْهُمْ تَنْزَهًا عَنْ سَاحَةِ جَهْلِهِمْ وَ رَجَعَ إِلَى خَطَابِ رَسُولِهِ قَائِلًا «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» لِأَنَّهُ إِذْ نَذَرَ وَالْإِنْذَارُ شَأْنُهُ.

قوله تعالى: مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ خَطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فِيهِ بَيَانٌ وَجْهَ عَدَمِ فَلَاحِهِمْ بِأَنَّهُ كَفَرَ بِاللَّهِ لَيْسَ بِحِذَائِهِ إِلَّا مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ وَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَذُوقُونَهُ (١).

### [سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]

#### اشاره

وَ أُتِلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ كَاتِبِينَ فَلْيُكْتُبُوا مَا أَنْتُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُحَذِّرُونَ وَ تَذَكِّرِينَ بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

ص: ٦٣

(١- ١). بحث روائى فى فضل الله و رحمته: اولياء الله؛ البشرى للمتقين فى الحياه الدنيا و فى الآخره.

قوله تعالى: وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المقام مصدر ميمي و اسم زمان و مكان من القيام، و المراد به الأول أو الثالث أي قيامي بأمر الدعوه إلى توحيد الله أو مكائتي و منزلتي و هي منزله الرساله، و الإجماع العزم و ربما يتعدى بعلي قال الراغب: و أجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوسل إليه بالفكره نحو فأجمعوا كيدكم و شركاءكم.

و الغمه هي الكربه و الشده و فيه معنى التغطية كأن الهم يغطي القلب، و منه الغمام للغيم سمي به لتغطيته وجه السماء، و القضاء إلى الشيء إتمام أمره بقتل و إفناء و نحو ذلك.

و معنى الآية وَآتَلُّ يَا مُحَمَّدٌ «عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ» و خبره العظيم حيث واجه قومه و هو واحد يتكلم عن نفسه، و هو مرسل إلى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك، و أتم الحجه على مكذبيه في ذلك «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ مَقَامِي» و نهضت لأمر الدعوه إلى التوحيد أو منزلتي من الرساله «وَ تَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ» و هو داعيكم لا محاله إلى قتلي و إيقاع ما تقدرتون عليه من الشر بي لإراحه أنفسكم مني «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» قبال ما يهددني من تخرج صدوركم و ضيق نفوسكم عليّ بإرجاع أمرى إليه و جعله

وكيلا- يتصرف فى شئونى و من غير أن أشغل بالتدبير «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ» الذين تزعمون أنهم ينصرونكم فى الشدائد، واعزموا على بما بدا لكم، وهذا أمر تعجيزى «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» إن لم تكونوا اجتهدتم فى التوسل الى كل سبب فى دفعى «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» بدفعتى و قتلى «وَلَا تُنظِرُونِ» و لا تمهلونى.

و فى الآيه تحديه عليه السّلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم، و إظهار أن ربه قد ير على دفعهم عنه و إن أجمعوا عليه و انتصروا بشر كائهم و آلهتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَلَمَّا سَأَلْتِكُمْ مِنْ أَجْرِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تفرّيع على توكله بربه، و قوله: «فَلَمَّا سَأَلْتِكُمْ» الخ؛ بمنزله وضع السبب موضع المسبب و التقدير فإن توليتم و أعرضتم عن استجابته دعوتى فلا ضير لى فى ذلك فإنى لا أتضرر فى إعراضكم شيئا لأنى إنما كنت أتضرر بإعراضكم عنى لو كنت سألتكم أجرا على ذلك يفوت بالإعراض و ما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله.

و قوله: وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى الذين يسلمون الأمر اليه فيما أراده لهم و عليهم، و لا يستكبرون عن امره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهره حتى يخضعوا لها و يتوقعوا به ايصال نفع او دفع شر.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الخلائف جمع خليفه أى جعلنا هؤلاء الناجين خلائف فى الارض و الباقيين من بعدهم يخلفون سلفهم و يقومون مقامهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يريد بالرسول من جاء منهم بعد نوح الى زمن موسى عليهم السلام. و ظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزه التى اقترحتها الامم على انبيائهم بعد مجيئهم و دعوتهم و تكذيبهم لهم فأتوا بها و كان فيها القضاء بينهم و بين اممهم، و يؤيده قوله بعده: «فَلَمَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» الخ؛

فإن السابق الى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البيّنات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانيا بما كذبوا به أولا.

ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بتلك الآيات البيّنات فقد كانت الرسل بتوا دعوتهم فيهم و دعوهم الى توحيد الله فكذبوا به و بهم ثم اقترحوا عليهم آيه معجزه فجاءوهم بها فلم يؤمنوا.

وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآيه في تفسير قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ (الأعراف ١٠١) في الجزء الثامن من الكتاب، و بينا هناك أن في الآيه إشاره الى عالم الدرّ غير أنه لا ينافي إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفا فليراجع.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٩٣]

### اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُم الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَ جِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتِنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَلَمَّا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ زِينَةً وَ آمَوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُسْفِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْبَاتًا وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)





قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْخَاطِرَ أَي ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوْحٍ وَالرَّسُلِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ مُوسَىٰ وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ يَخْتَصِمُونَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ وَ هُمُ الْقَبِيضَةُ فَاسْتَكْبَرُوا عَنْ آيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْتَمِرِّينَ عَلَىٰ الْإِجْرَامِ.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا الْخَاطِرَ الظاهر أن المراد بالحق هو الآية الحقة كالشعبان و اليد البيضاء، وقد جعلهما الله آية لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق قالوا و أكدوا القول: إن هذا-يشيرون الى الحق من الآية-لسحر مبين واضح كونه سحرا، و انما سُمي الآية حقا قبال تسميتهم إياها سحرا.

قوله تعالى: قَالَ مُوسَىٰ أَمْ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا الْخَاطِرَ أَي فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ تِلْكَ وَ رَمَيْهِمُ الْحَقَّ بِأَنَّهُ سِحْرٌ مَبِينٌ قَالَ لَهُمْ مَنكَرًا لِقَوْلِهِمْ فِي صَوْرِهِ الْإِسْتِفْهَامُ:

«أَمْ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ» إِنَّهُ لَسِحْرٌ؟ ثُمَّ كَرَّرَ الْإِنْكَارَ مُسْتَفْهَمَا بِقَوْلِهِ: «أَسِحْرٌ هَذَا»؟ فَمَقُولُ الْقَوْلِ فِي الْجُمْلَةِ الْإِسْتِفْهَامِيَّةِ مَحْذُوفٌ إِجْزَاؤُهُ لِدَلَالَةِ الْإِسْتِفْهَامِ الثَّانِي عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: «وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً حَالِيَةً مَعْلَلَةً لِلإِنْكَارِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «أَسِحْرٌ هَذَا» ،

و يمكن أن يكون إخبارا مستقلا بيانا للواقع يبرئ به نفسه من أن يقترب السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح و للساحرين أنهم لا يفلحون.

قوله تعالى: **قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا الْخَالِفِينَ** هو الصرف عن الشيء، والمعنى: قال فرعون و ملاء لموسى معاتبين له **«أَجِئْنَا لِنُلْفِتْنَا»** و تصرفنا **«عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»** يريدون سنه قدمائهم و طريقتهم **«وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ»** يعنون الرئاسة و الحكومه و انبساط القدره و نفوذ الإراده يؤمّن بذلك أنكما اتخذتما الدعوه الدينيه وسيله الى إبطال طريقتنا المستقره فى الأرض، و وضع طريقه جديده أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها فى الناس و إيماننا بكما و طاعتنا لكما الكبرياء و العظمه فى المملكه.

و بعبارة أخرى إنما جئنا لتبدلاً الدوله الفرعونه المتعرقه فى القبط الى دوله إسرائيليه تدار بإمامتكم و قيادتكم، و ما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكم و تبلغا غايتكم من هذه الدعوه المزوره.

قوله تعالى: **وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** كان يأمر به ملاء فيعارض بسحر السحره معجزه موسى كما فصل فى سائر الآيات القاصه للقصه و تدل عليه الآيات التاليه.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لَهِمُوسَىٰ أَلْقُوا الْخِطَّ** أى لما جاءوا و واجهوا موسى و تهيئوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال و العصى، و قد كانوا هيتوها ليلقوها فيظهروها فى صور الحيات و الثعابين بسحرهم.

قوله تعالى: **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ** ما قاله عليه السلام بيان لحقيقه من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيروره العصا ثعبانا يلقف ما ألقوه من الحبال و العصى و أظهره فى صور الحيات و الثعابين بسحرهم.

و الحقيقة التي بينها لهم أن الذي جاءوا به سحر و السحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورته الحق الواقع لحواس الناس و أنظارهم، و إذا كان باطلا في نفسه فإن الله سيبيطه لأن السنه الإلهيه جاريه على إقرار الحق و احقاقه في التكوين و إزهاق الباطل و إبطاله فالدوله للحق و ان كانت للباطل جوله أحيانا.

و لذا علل قوله: إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» فان الصلاح و الفساد شأنان متقابلان، و قد جرت السنه الإلهيه أن يصلح ما هو صالح و يفسد ما هو فاسد أى ان يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به و أثر العمل الصالح ان يناسب و يلائم سائر الحقائق الكونيه في نظامها الذي تجرى هي عليه، و يمتزج بها و يخالطها فيصلحه الله سبحانه و يجريه على ما كان من طباعه، و أثر العمل الفاسد ان لا يناسب و لا يلائم سائر الحقائق الكونيه فيما تقتضيه بطباعها و تجرى عليه بجلتها فهو امر استثنائي في نفسه، و لو اصلحه الله في فساده كان ذلك إفسادا للنظام الكوني.

فيعارضه سائر الأسباب الكونيه بما لها من القوى و الوسائل المؤثره، و تعيده الى السير الصالحه إن أمكن و إلا أبطلته و أفنته و محته عن صحيفه الوجود البته.

قوله تعالى: وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ لما كشف الله عن الحقيقه المتقدمه في جانب النفي بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» أبان عنه في جانب الإثبات أيضا في هذه الآيه بقوله: «وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» و قد جمع تعالى بين معنئى النفي و الإثبات في قوله: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال ٨).

و من هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآيه أقسام الأفضيه الإلهيه في شئون الأشياء الكونيه الجاريه على الحق فإن قضاء الله ماض و سنته جاريه أن يضرب الحق و الباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى و يعفى أثره و يبقى الحق على جلانه، و ذلك قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد ١٧)، وسيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآيه إن شاء الله تعالى.

و الحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقه لهم ليوقفهم على سنّه إلهيه حقه غفلوا عنها، و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبه الآيه المعجزه على السحر و ظهور الحق على الباطل، و لذا بادروا الى الإيمان حين شاهدوا المعجزه، و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أخرى من كلامه.

و قوله: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» و ذكر الإِجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم و بنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهيه من ظهور الحق، و لذلك نسب الله كراهه ظهور الحق اليهم بما هم مجرمون في قوله: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» و في معناه قوله في اول الآيات: «فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

قوله تعالى: «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ» ذكر بعض المفسرين أن الضمير في «قَوْمِهِ» راجع الى فرعون، و الذريه الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل و آباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم في الإيمان بموسى؛ و قيل: الذريه بعض أولاد القبط؛ و قيل: أريد بها امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون، و قد ذكرا في القرآن و جاريه و امرأه هي مشاطه امرأه فرعون.

و ذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام و المراد بالذريه جماعه من بنى إسرائيل تعلموا السحر و كانوا من أصحاب فرعون؛ و قيل: هم جميع بنى إسرائيل و كانوا ستمائة الف نسبه سماهم ذريه لضعفهم؛ و قيل: ذريه آل إسرائيل ممن بعث اليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد، و هذه الوجوه - كما ترى - لا دليل على شىء منها في الآيات من جهه اللفظ.

و الذى يفيد السباق و هو الظاهر من الآيه أن يكون الضمير راجعا الى موسى و المراد

بالذريه من قوم موسى بعض الضعفاء من بنى إسرائيل دون ملائهم الأقوياء و الشرفاء، و الاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، و العاده الجاريه فى أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء و الأقوياء بأى وسيله أمكنت الى حفظ مكانتهم الاجتماعيه و جاههم القومى، و يتقربوا الى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخدمه و مرءاه النصيح و التجنب عما لا- يرتضيه فلم يكن فى وسع الملأ- من بنى اسرائيل أن يعلنوا موافقه موسى على بغيته، و يتظاهروا بالايمان به.

على أن قصص بنى اسرائيل فى القرآن أعدل شاهد على أن كثيرا من عتاه بنى اسرائيل و مستكبريهم لم يؤمنوا بموسى الى أواخر عهده و إن كانوا يتسلّمون له و يطيعونه فى عامه او امره التى كان يصدرها لبذل المساعى فى سبيل نجاه بنى اسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم و حريه شعبهم و منافع اشخاصهم، فالإطاعه فى هذه الامور أمر و الإيمان بالله و ما جاء به الرسول أمر آخر.

و يستقيم على هذا معنى قوله: «و مَلَأْتُهُمْ» بأن يكون الضمير الى الذريه و يفيد الكلام أن الذريه الضعفاء كانوا فى ايمانهم يخافون الملأ و الأشراف من بنى اسرائيل فانهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم انفسهم او تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون و قومه و يطيبوا انفسهم فلا يضيّقوا عليهم و ينقصوا من إيدائهم و التشديد عليهم.

و أما ما قيل: إن الضمير راجع الى فرعون لأنه ذو أصحاب او للذريه لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار اليه البته و خاصه أول الوجيهين.

و قوله: «أَنْ يَفْتِنَهُمْ اى يعذبهم ليعودوا الى ملته، و قوله: «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْمَأْرُضِ» اى و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال فى الارض مسرف فى الأمر.

فالمعنى -و الله أعلم- فتفرع على قصه بعثهما و استكبار فرعون و ملته أنه لم يؤمن بموسى إلا- ضعفاء من بنى اسرائيل و هم يخافون ملائهم و يخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم و كان

ينبغي لهم و من شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الأرض مسلطاً عليهم و أنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحد في الظلم و التعذيب.

و لو صحَّ أن يراد بقومه كل من بعث اليهم موسى و بلغهم الرسالة و هم القبط و بنو اسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة الى ما تقدم من تكلفاتهم.

قوله تعالى: **وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ** لما كان الايمان بالله بما يفيد للمؤمن من العلم بمقام ربه و لو إجمالاً و أنه سبب فوق الأسباب اليه ينتهي كل سبب، و هو المدبّر لكل أمر، يدعوه الى تسليم الأمر اليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل، و لازم ذلك إرجاع الأمر اليه و التوكل عليه، و قد أمرهم في الآية بالتوكل على الله، علقه أولاً على الشرط الذي هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذي هو الإسلام.

فالكلام في تقدير: إن كنتم آمنتم بالله و مسلمين له فتوكلوا عليه. و قد فرّق بين الشرطين و لعله لم يجمع بينهما فيقول «إن كنتم آمنتم و أسلمتم فتوكلوا» لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم، و أما الاسلام فهو من كمال الإيمان، و ليس من الواجب الضروري ان يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأخرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون احدهما واجبا واقعا منهم، و الآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله - و قد آمنتم - و كنتم مسلمين له - و ينبغي أن تكونوا كذلك - فتوكلوا على الله؛ ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى.

قوله تعالى: **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** الى آخر الآيتين، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون و ملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: «**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً**» الخ؛ سؤال منهم نتيجة توكلهم و هو ان ينزع الله منهم لباس الضعف و الذلّ، و ينجيهم من القوم الكافرين.

أما الأول فقد اشاروا اليه بقولهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» وذلك أن الذى يغرى الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنه للقوى الظالم كما أن الأموال والأولاد بما عندها من جاذبه الحب فتنه للانسان، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (التغابن ١٥).

و الدنيا فتنه لطالبها فسؤالهم ربهم أن لا يجعلهم فتنه للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف و الذله بسلب الغرض منه و هو سلب الشيء بسلب سببه.

و أما الثانى أعنى التنجيه فهو الذى ذكره حكايه عنهم فى الآيه الثانيه «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا نَّحْنُ الْبُيُوتِ الْمَسْكُونِ وَالْمَنْزِلِ، وَمِصْرَ بِلْدَانِ فِرْعَوْنَ، وَالْقَبْلَةَ فِي الْأَصْلِ بِنَاءِ نَوْعٍ مِنَ الْمَصْدَرِ كَجَلْسِهِ أَى الْحَالَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا التَّقَابُلُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَغَيْرِهِ فَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَى اجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ مُتَقَابِلَةً يِقَابِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَفِي وَجْهِهِ وَاحِدَةٌ وَكَانَ الْغَرَضُ أَنْ يَتِمَّكَانَا مِنْهُمْ بِالتَّبْلِيغِ وَ يَتِمَّكَانَا مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ جَمَاعَةً كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَوْ يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: «وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» لَوْ قَوْعَهُ بَعْدَهُ.

و أما قوله: وَ بَشَّرِ الْمُؤْمِنِينَ فَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْبَشَارَةَ بِإِجَابَةِ مَا سَأَلُوهُ فِي دَعَائِهِمُ الْمَذْكُورِ أَنفَا «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً» إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ.

و المعنى: و أوحينا الى موسى و أخيه أن اتخذا لقومكما مساكن من البيوت فى مصر -و كأنهم لم يكونوا الى ذاك الحين إلا كهيئه البدويين يعيشون فى الفساطيط أو عيشه تشبهها- و اجعلا أنتما و قومكما بيوتكم متقابله و فى جهه واحده يتصل بذلك بعضكم ببعض و يتمشى أمر التبليغ و المشاوره و الاجتماع فى الصلوات، و أقيموا الصلاه و بشر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجيهم من فرعون و قومه.



قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا خَالِجًا زِينَةً مِنَ الزَّيْنِ وَهِيَ الْهَيْئَةُ الَّتِي تَجْذِبُ النَّفْسَ إِلَى الشَّيْءِ، والنسبه بين الزينه و المال العموم من وجه فبعض الزينه ليس بمال يبذله بإزائه الثمن كحسن الوجه و اعتدال القامه، و بعض المال لبس بزينه كالأنعام و الأراضي، و بعض المال زينه كالحلى و التقابل الواقع بين الزينه و المال يعطى أن يكون المراد بالزينه جهه الزينه من غير نظر الى المالىه كالحلى و الرياش و الأثاث و الأبنيه الفاخره و غيرها.

و قوله: رَبَّنَا لِيُضِلُّنَا عَن سَبِيلِكَ قِيلَ اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، و المعنى و عاقبه أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك، و لا- يجوز أن يكون لام الغرض لأننا قد علمنا بالأدله الواضحه أن الله سبحانه لا- يعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال و لا يريد أيضا منهم الضلال، و كذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا. انتهى.

و هو حقّ لكن فى الإضلال الابتدائى المستحيل عليه تعالى، و أما الإضلال بعنوان المجازاه و مقابله السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبتته كلامه فى موارد كثيره، و قد كان فرعون و ملؤه مصرّين على الاستكبار و الإفساد ملخّين على الإجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينه و أموالا ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا.

و ربما قيل: إن اللام فى لِيُضِلُّنَا للدعاء، و ربما قيل: إن الكلام بتقدير لا أى لئلا يضلوا عن سبيلك، و السياق لا يساعد على شىء من الوجهين.

و الطمس - كما قيل - تغير الى الدثور و الدروس فمعنى «اطمس على أموالهم» غيرها الى الفناء و الزوال، و قوله: «وَ أَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ» من الشد المقابل للحل أى أقس قلوبهم و اربط عليها ربطا لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب، و قول بعضهم: إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم و ألم، و كذا قول آخرين: إنه كناية عن إماتتهم و إهلاكهم من الوجوه

فمعنى الآية: وقال موسى-و كان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون و ملئه و يقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال و الإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه-ربنا إنك جازيت فرعون و ملأه على كفرهم و عتوهم جزاء السوء فآتيتهم زينه و أموالا في الحياه الدنيا ربنا إرادته منك لأن يضلوا من أتبعهم عن سبيلك، و إرادتك لا تبطل و غرضك لا يلغو ربنا آدم على سخطك عليهم و اطمس على أموالهم و غيرها عن مجرى النعمه الى مجرى النقمه، و اجعل قلوبهم مشدوده مربوطه فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفا لا ينفعهم الإيمان و هو زمان يرون فيه العذاب الإلهي.

و هذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون و ملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم، و علمه أنه لا يترقب منهم في الحياه إلا أن يضلوا و يضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (نوح ٢٧/)، و حاشا ساحه الأنبياء عليهم السلام أن يتكلموا على الخرص و المظنه في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه و عز شأنه.

قوله تعالى: قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَجِيبُوا لِي وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْخَطَابِ-على ما يدل عليه السياق-لموسى و هارون و لم يحك الدعاء في الآية السابقه إلا عن موسى، و هذا يؤيد ما ذكره المفسرون: أن موسى صلى الله عليه و آله و سلم كان يدعو، و كان هارون يؤمن له و آمين دعاء فقد كانا معا يدعوان و إن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده.

و الاستقامه هو الثبات على الأمر، و هو منهما عليهما السلام الثبات على الدعوه الى الله و على إحياء كلمه الحق، و المراد بالذين لا يعلمون الجهله من شعب إسرائيل و قد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله: قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف ١٣٨/).

و المعنى قَالَ اللَّهُ مخاطبا لموسى و هارون «قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتَكُمَا» من سؤال العذاب الأليم لفرعون و ملئه، و الطمس على أموالهم و الشد على قلوبهم «فَأَسْتَقِيمَا» و اثبتا على ما أمرتما به من الدعوه الى الله و إحياء كلمه الحق «وَلَا تَتَّبِعَانَّ» البتة «سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» بإجابه ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم و دواعى شهواتهم، و فيه نوع تلويح الى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنتهم القوميه و سيرتهم الجاهليه.

و بالجملة فالآيه تذكر إجابته دعوتهما المتضمنه لعذاب فرعون و ملئه و عدم توفيقهم للإيمان و وعدهما بذلك، و لذلك ذكر فى الآيه التاليه وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التى فيه.

و لم يكن فى الدعاء ما يدل على مسأله الفور أو التراخى فى القضاء عليهم بالعذاب و على ذلك جرى أيضا سياق الآيه الداله على القبول و الإجابته و كذا الآيه المخبره عن كيفية إنجازها، و قد نقل فى المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنه قال: و روى ذلك عن أبى عبد الله عليه السّلام، و رواه عنه عليه السّلام فى الاحتجاج و كذا فى الكافى و تفسير العياشى عن هشام بن سالم عنه عليه السّلام و فى تفسير القمى عن أبيه عن النوفى عن السكونى عنه عليه السّلام.

قوله تعالى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَيْدًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ، الْبَغْيُ وَ الْعَدُو كَالْعَدْوَانِ الظلم و إدراك الشىء اللحق به و التسلط عليه كما أن اتّباع الشىء طلب اللحق به.

و قوله: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَى آمَنْتُ بِأَنَّهُ.

و قد وصف الله بالذى آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم و هو مجاوزة البحر و الأمان من الغرق، و لذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصير عليه من المعصيه و هو الشرك بالله و الاستكبار على الله، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ آلآنَ بالمد أصله

ءالآن أى أ تؤمن بالله الآن و هو حين أدركك العذاب و لا إيمان و توبه حين غشيان العذاب و مجيء الموت من كل مكان، و قد عصيت قبل هذا و كنت من المفسدين، و أفنيت أيامك فى معصيته، و لم تقدم التوبه لوقتها فما ذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته و هذا هو الذى كان موسى و هارون سألاه ربهما ان يأخذ به عذاب أليم و يسد سبيله الى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان و لا تغنى عنه التوبه شيئا.

قوله تعالى: فَأَلْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ التنجيه و الإنجاء تفعيل و إفعال من النجاه كالتخليص و الإخلاص من الخلاص وزنا و معنى.

و تنجيته ببدنه تدل على أن له اما آخر وراء البدن فقدنه بغشيان العذاب و هو النفس التى تسمى ايضا روحا، و هذه النفس المأخوذه هى التى يتوفاها الله و يأخذها حين موتها كما قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر ٤٢)، و قال: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده ١١)، و هى التى يخبر عنها الانسان بقوله: «أنا» و هى التى بها تتحقق للإنسان إنسانيته، و هى التى تدرك و تريد و تفعل الأفعال الانسانيه بواسطه البدن بما له من القوى و الأعضاء الماديه، و ليس للبدن إلا أنه آله و أداه تعمل بها النفس أعمالها الماديه.

و لمكان الاتحاد الذى بينها و بين البدن يسمى باسمها البدن و إلا فأسماء الأشخاص فى الحقيقه لنفوسهم لا لأبدانهم، و ناهيك فى ذلك التغير المستمر الذى يعرض البدن مده الحياه، و التبديل الطبيعى الذى يطرأ عليه حيناً بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه الى أجزاء آخر تتركب بدنا آخر فلو كان زيد هو البدن الذى ولدته أمه يوم ولدته و الاسم له لكان غيره و هو ذو سبعين و ثمانين قطعا و الاسم لغيره حتما، و لم يثب و لم يعاقب الانسان و هو شائب على ما عمله و هو شاب لأن الطاعه و المعصيه لغيره.

فهذه و أمثالها شواهد قطعيه على أن إنسانيه الانسان بنفسه دون بدنه، و الأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الانسان و يعرفها إجمالاً و إن كان ربما أنكرها فى مقام التفصيل.

و بالجملة فالآيه: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ كالصريح أو هو صريح فى أن النفوس وراء الأبدان، و أن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما يطلق على الأبدان بعنايه الاتحاد.

فمعنى: نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ نخرج بدنك من اليم و ننجيه، و هو نوع من تنجيتك-لما بين النفس و البدن من الاتحاد القاضى بكون العمل الواقع على أحدهما واقعا بنحو على الآخر- لتكون لمن خلفك آيه، و هذا بوجه نظير قوله تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ (طه/ ٥٥) فإن الذى يعاد الى الأرض هو جسد الانسان دون الانسان التام فليست نسبة الإعاده الى الانسان إلا لما بين نفسه و بدنه من الاتحاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أى أسكناهم مسكن صدق، و إنما يضاف الشىء الى الصدق نحو وعد صدق و قدم صدق و لسان صدق و مدخل صدق و مخرج صدق للدلاله على أن لوازم معناه و آثاره المطلوبه منه موجوده فيه صدقا من غير أن يكذب فى شىء من آثاره التى يعده بلسان دلالتها للالتزاميه لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الذى سيفى به واعده، و يسر بالوفاء به موعوده، و يحق أن يطمع فيه و يرجى وقوعه. فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب فى معناه و لوازم معناه.

و على هذا فقوله: مَبُوءاً صِدْقٍ يدل على أن الله سبحانه بَوَّأهم مَبُوءاً يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء و الهواء و بركات الأرض و وفور نعمها و الاستقرار فيها و غير ذلك، و هذه هى نواحي بيت المقدس و الشام التى أسكن الله بنى إسرائيل فيها و سماها الأرض المقدسه المباركه و قد قص القرآن دخولهم فيها.

و الآيه أعنى قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ -الى قوله- مِنَ الطَّيِّبَاتِ

مسوقه سوق الشكوى و العتبي، و يشهد به تذييلها بقوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ» الى آخر الآيه بيان لعاقبه اختلافهم عن علم و بمنزله أخذ النتيجة من القصه.

و المعنى: أنا أتمننا على بنى إسرائيل النعمه و بوأناهم مبيوء صدق و رزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مده طويله كانوا فيها فى إساره القبط فوحدنا شعبهم و جمعنا شملهم فكفروا النعمه و فرّقا الكلمه و اختلفوا فى الحق، و لم يكن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

## [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ١٠٣]

### اشاره

فَمَا كَانَ فِي شَكِّكَ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَيُؤْمِنُ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ الْكِتَابَ مِنَ قَبْلِكَ لَمَّا جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَ لَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَ فَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذِرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

قوله تعالى: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الشَّكَّ الرَّيْبِ، والمراد بقوله: «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» المعارف الراجعة الى المبدأ و المعاد و السنه الإلهيه فى القضاء على الامم مما تقدم فى السوره، وقوله: «يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» «يَقْرَأُونَ» فعل مضارع استعمل فى الاستمرار «مِنْ قَبْلِكَ» حال من الكتاب عامله متعلقه المقدره و التقدير منزلا من قبلك. كل ذلك على ما يعطيه السياق.

و المعنى «فَإِنْ كُنْتَ» أيها النبى «فى ريب» و شك «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» من المعارف الراجعة الى المبدأ و المعاد و ما قصصنا عليك اجمالا. من قصص الأنبياء الحاكيه لسنه الله الجاربه فى خلقه من الدعوه أولا ثم القضاء بالحق «فَسَيَلُّ» اهل الكتاب «الَّذِينَ» لا يزالون «يَقْرَأُونَ» جنس «الْكِتَابِ» منزلا. من السماء «مِنْ قَبْلِكَ» أقسم «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» المترددين.

و هذا لا يستلزم وجود ريب فى قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لا تحقق شك منه فان هذا النوع من الخطاب كما يصح أن يخاطب من يجوز عليه الريب و الشك كذلك يصح أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بينه من الأمر على نحو التكنيه عن كون المعنى الذى أخبر به المخبر مميّا تعاضدت عليه الحجج و تجمعت عليه الآيات فان فرض من المخاطب او السامع شك فى واحده منها كان له ان يأخذ بالآخرى.

و هذه طريقه شائعه فى عرف التخاطب و التفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جريا على ما تدعوهم اليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحججه على أمر من الامور ثم يقول: فان شككت فى ذلك أو سلمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حججه اخرى على ذلك و هى أنّ كذا كذا، و ذلك كناية عن أنّ الحجج متوفره متعاضده كالدعائم المضروبه على ما لا يحتاج الى مزيد من واحد منها لكن الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشه قائمه عليها على تقدير قيام الكل و البعض.

فيقول معنى الكلام الى أن هذه معارف بينها الله لك بحجج تضطر العقول الى قبولها و قصص تحكى سنه الله فى خلقه و الآثار تدل عليها، بينها فى كتاب لا- ريب فيه، فعلى ما بينه حججه و هناك حججه اخرى و هى أنّ أهل الكتب السماويه الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدأ و معاد، و هناك دين الهى بعث به رسله يدعون اليه، و لم يدعوا أمه من الامم إلا انقسموا قبيلين مؤمن و مكذب فأنزل الله آيه فاصله بين الحق و الباطل و قضى بينهم.

و هذا أمر لا- يسع أهل الكتاب أن ينكروه، و إنما كانوا ينكرون بشارات النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بعض ما يختص به الإسلام من المعارف و ما غيروه فى الكتب من الجزئيات، و من لطيف الإشاره أن الله سبحانه لم يذكر فى القصص المذكوره فى هذه السوره قصه هود و صالح لعدم تعرّض التوراه الموجوده عندهم لقصتهما و كذا قصه شعيب و قصه المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها



و ليس إلا لمكان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآية في القاء الحجج على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وزان قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء ١٩٧) في القاء الحجج إلى الناس.

على أن السورة من أوائل السور النازلة بمكّه، ولم تشتد الخصومه يومئذ بين المسلمين و أهل الكتاب و خاصة اليهود اشتدادها بالمدينه، و لم يركبوا بعد من العناد و اللجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و نشوب الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ٩١).

فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى، و أظنك إن أمعنت في تدبر الآية و سائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عليه و آلِهِ وَسَلَّمَ بحقيه ما نزل إليه من ربه، و يتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله، و ما يصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سلم أنه على بصيره من أمره، و أنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى، و أغناك عن التمحلات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لا جدوى في نقلها و البحث عنها.

قوله تعالى: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتُكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ نهى عن الارتياب و الامتراء أولاً ثم ترقى إلى النهى عن التكذيب بآيات الله و هو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآية لا تكون آية إلا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنيًا إلا على العناد و اللجاج.

و قوله: فَتُكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ تفریع على التكذيب بآيات الله فهو نتیجته و عاقبته فهو المنهى عنه بالحقیقه. و المعنى: و لا تكن من الخاسرين، و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه او ذهاب جميعه، و هو الإيمان بالله و آياته الذي هو رأس مال الإنسان في سعادته حیاته في الدنيا و الآخرة على ما يستفاد من الآية التالیه حیث یعلل خسرانهم أنهم لا یؤمنون.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ النَّخِ؛ تعليل للنهي السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشأن فإن اصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال: لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله: «الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» موضع «المكذبين» للدلالة على سبب الحكم و أن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمه الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال الى الله سبحانه.

و الكلمه الإلهيه التي حقت على المكذبين بآيات الله هي قوله يوم شرع الشريعة العامه لآدم و زوجته فمن بعدهما من ذريتهما: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا - الى قوله - وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩).

و هذا هو الذى يريد به بقوله فى مقام بيان سبب خسران المكذبين: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» و هم المكذبون حقت عليهم كلمه العذاب فهم «لا- يُؤْمِنُونَ» و لذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركاته فى الدنيا و الآخرة، و إذ حق عليهم أنهم لا- يؤمنون فلا- سبيل لهم الى الإيمان و لو جاءتهم كل آيه «حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» و لا فائده فى الإيمان الاضطرارى.

قوله تعالى: فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخِزْيِ النَّخِ؛ ظاهر السياق أن لو لا للتخصيص، و أن المراد بقوله: «آمَنَتْ» الإيمان الاختيارى الصحيح كما يشعر به قوله بعده: «فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا» و لوقوع التخصيص على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفى فاستقام الاستثناء الذى فى قوله: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ».

و المعنى: هلا كانت قريه- من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم- آمنت قبل نزول العذاب إيماناً اختيارياً فنفعها إيمانها. لا و لم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب

الخزى فى الحياه الدنيا و متعناهم بالحياه الى حين آجالهم العاديه الطبيعيه. و منه يعلم أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى: **وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَأْمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً** اى لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم و لا يؤمن فالمشيئه فى ذلك الى الله سبحانه و لم يشأ ذلك فلا ينبغى لك أن تطمع فيه و لا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم و إجبارهم على الإيمان، و الإيمان الذى نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه و إجبار.

و لذلك قال بعد ذلك فى صورته الاستفهام الإنكارى **«أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»** اى بعد ما بينا أن أمر المشيه الى الله و هو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البته لم يبق لك إلا أن تكره الناس و تجبرهم على الإيمان، و أنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك و لا أنا أقبل الإيمان الذى هذا نعته.

قوله تعالى: **وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** لما ذكر فى الآيه السابقه أن الأمر الى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعاً لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع فى إيمان الجميع زاد فى هذه الآيه فى بيان ذلك ما محصله أن الملك-بالكسر-لله فله أصاله التصرف فى كل أمر لا- يشاركه فى ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه فى بعض التصرفات.

و الإيمان بالله عن اختيار و الاهتداء اليه أمر من الامور يحتاج فى تحقيقه الى سبب يخصه، و لا يؤثر هذا السبب و لا يتصرف فى الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه فى ذلك لكن الله سبحانه بجعل الرجس و الضلال على أهل العناد و النجود لم يأذن فى إيمانهم، و لا رجاء فى سعادتهم.

و لو أنه تعالى أذن فى ذلك لأحد لأذن فى إيمان غير أولئك المكذبين فقوله: **«وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»** حكم عام حقيقى ينيط تملك النفوس للإيمان الى إذن الله، و قوله:

«وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ» الخ؛ يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم.

وقد أريد في الآيه بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك و الريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان، وقد عرّف في قوله تعالى: «وَمَنْ يردْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ١٢٥)».

وقد أريد أيضا بقوله: الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنهم ممن حقت عليه كلمة العذاب فإنهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال: «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (التوبة ٩٣)».

قوله تعالى: قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَي من المخلوقات المختلفه المتشتمته التي كل واحد منها آيه من آيات الله تعالى تدعو الى الإيمان، وقوله: «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» ظاهره أن «ما» استفهاميه و الجملة مسوقه بداعى الإنكار و إظهار الأسف كقول الطيب: بما ذا أعالج الموت؟ أى إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا «قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ لكن أى تأثير للنذر فيهم او للآيات فيهم و هم لا يؤمنون أى عازمون مجتمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذى على قلوبهم و ربما قيل: إن ما نفيه.

قوله تعالى: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ تفرّيع على ما فى الآيه السابقه من قوله: «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» أى اذا لم تغن الآيات و النذر عنهم شيئا و هم لا يؤمنون البته فهم لا ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم، و إنما يحبسون نفوسهم لآيه العذاب الإلهى التى تفصل بينك و بينهم فتقضى عليهم لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

ولذا أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم ان يبلغهم ذلك بقوله: «قُلْ فَمَا نَتَّظِرُوا» أى مثل ايام الذين خلوا من قبلكم يعنى يوم العذاب الذى يفصل بينى و بينكم فتؤمنون و لا ينفعكم إيمانكم «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

و قد تبين بما مر أن الاستفهام فى الآيه إنكارى.

قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا الْجمله تتمه صدر الآيه السابقه و قوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» الخ؛جمله معترضه و النظم الأصلى بحسب المعنى «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ» أى قومك هؤلاء «إِلَّا- مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الذين كانت تحق عليهم كلمه العذاب فنرسل اليهم آيه العذاب «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا».

و إنما اعترض بقوله: قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذى يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم، و هو يتضمن انتظار النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم للقضاء بينه و بينهم، و أما تنجيته و تنجيه المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المؤمنون لا هو وحده، و لا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاه من العذاب، و هو مع ذلك لا يتعلق به غرض فى المقام الذى سيق فيه الكلام لإندار المشركين لا لتبشير النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين فافهم ذلك.

و أما قوله: كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ فمعناه كما كنا ننجى الرسل و الذين آمنوا فى الامم السابقه عند نزول العذاب كذلك ننجى المؤمنين بك من هذه الامه حقًّا علينا ذلك حقًّا، فقوله: «حَقًّا عَلَيْنَا» مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف، و اللام فى «الْمُؤْمِنِينَ» للعهد و المراد به مؤمنو هذه الامه، و هذا هو الوعد الجميل للنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين من هذه الامه بالإنجاء.

و ليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» أن فيه تلويحا الى أن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم لا يدرك هذا القضاء، و إنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون و لم يذكر معهم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم مع أنه تعالى ذكر فى السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى فى كلامه: «فَأَمَّا نُورِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» او ما فى معناه.

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصَيِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي الخ؛ قد تقدم غير مره أن الدين هو السنه المعمول بها في الحياه لنيل سعادتها وفيه معنى الطاعه كما في قوله تعالى:

وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ (النساء ١٤٦) وربما استعمل بمعنى الجزاء.

وقوله: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي أَى فِي طَرِيقَتِي الَّتِي أَسْلَكَهَا وَ أَثْبَتَ عَلَيْهَا وَ شَكَّ الْإِنْسَانُ فِي دِينٍ غَيْرِهِ وَ طَرِيقَتَهُ الْمَعْمُولَةَ لَهُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي ثَبَاتِهِ عَلَيْهِ هَلْ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ وَ يَسْتَقِيمُ؟ وَ قَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطْمَعُونَ فِي دِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ وَ رَبَّمَا رَجَوْا أَنْ يَحُولُوهُ عَنْهُ فَيَنْجُوا مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَ رَفْضِ الشِّرْكِ بِالْآلِهَةِ.

فالمعنى: إِنْ كُنْتُمْ تَشْكُونَ فِيمَا أَدِينُ بِهِ وَ أَدْعُو إِلَيْهِ هَلْ أَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ؟ أَوْ شَكَّكُمْ فِي دِينِي مَا هُوَ؟ وَ لَمْ تَحْصِلُوا الْأَصْلَ الَّذِي يَبْتَنِي عَلَيْهِ فَإِنِّي أَصْرَحُ لَكُمْ الْقَوْلَ فِيهِ وَ أَبِينَهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَنِّي لَا أَعْبُدُ آلِهَتَكُمْ وَ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ.

وَ قَدْ أَخَذَ فِي قَوْلِهِ: وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ لَهُ تَعَالَى وَ صَفَ تَوْفِيهِمْ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَوْصَافِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْإِلَهَ لِزَعْمِهِمُ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ فِي دَفْعِ الضَّرْرِ وَ جَلْبِ النِّفْعِ، وَ التَّوْفَى أَمْرٌ لَا يَشْكُونَ أَنَّهُ سَيَصِيبُهُمْ وَ أَنَّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَمَسَّاسُ الْحَاجَةِ إِلَى الْأَمْنِ مِنْ ضَرَرِهِ يَوْجِبُ عِبَادَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

على أن اختيار التوفى للذكر ليكون في الكلام تلويح الى تهديدهم فإن الآيات السابقة وعدتهم العذاب وعدا قطعيا، و وفاه المشركين ميعاد عذابهم، و يؤيد ذلك اتباع قوله:

وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِقَوْلِهِ: أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ نَجَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ جُزْءَ الْوَعْدِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ - إِلَى قَوْلِهِ - نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ».

و المعنى: فاعلموا و استيقنوا أنى لا أعبد آلِهَتكم و لكن أعبد الله الذى وعد عذاب المكذبين منكم و إنجاء المؤمنين و أمرنى أن أكون منهم كما أمرنى أن أجتنب عبادة الآلهة.

قوله: وَ أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا عَظْفَ عَلَى مَوْضِعِ قَوْلِهِ: «وَ أُمِرْتُ أَنْ» الخ؛ فإنه فى معنى و كن من المؤمنين، و قد مر الكلام فى معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير

قوله تعالى: **وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** نهى بعد نهى عن الشرك، وبيان أن الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحق عليه ما أوعده الله به الظالمين في كلامه.

و من لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء **«مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ»** و حين ذكر العبادة **«الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»** فإن العبادة بالطبع يعطى للمعبود شعورا و عقلا- فناسب أن يعبر عنه بنحو **«الَّذِينَ»** المستعمل في ذوى العلم و العقل، و الدعاء و إن كان كذلك لمساقوته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع و لا يضر، و ربما توهم أن ذوى العلم و العقل يصح أن تنفع و تضر، عبر بلفظه **«ما»** ليلوح الى أنها جماد لا يتخيل في حقهم إرادته نفع أو ضرر.

و فى التعبير نفسه أعنى قوله: **«مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** إعطاء الحجة على النهى عن الدعاء.

قوله تعالى: **إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ** الخ؛ الجملة حاله و هى تتمه البيان فى الآية السابقة، و المعنى: و لا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده و لا ضرر، و الحال أن ما مسك الله به من ضر لا يكشفه غيره و ما أرادك به من خير لا يردده غيره فلهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته و إرادته، و هو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده و يرحمهم، و اتصافه بهذه الصفات الكريمة و كون غيره صفر الكف منها يقتضى تخصيص العبادة و الدعوه به.

قوله تعالى: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ** و هو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوه الحقه، و قوله: **فَمَنْ اهْتَدَى** الى آخر الآية؛ إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيره ببيان حقيقه هى ان الحق- و قد جاءهم- من حكمه ان من اهتدى اليه فإنما يهتدى و نفعه عائد اليه، و من ضل عنه فإنما يضل



و ضرره على نفسه فلهم ان يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع او ضرر، وليس هو صلى الله عليه و آله و سلم و كيلا لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآيه كناية عن وجوب اهتدائهم الى الحق لان فيه نفعهم.

قوله تعالى: **وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** أمر باتباع ما يوحى اليه و الصبر على ما يصيبه فى جنب هذا الاتباع من المصائب و المحن، و وعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه و بين القوم، و لا يحكم إلا بما فيه قره عينه فالآيه تشتمل على أمره بالاستقامه فى الدعوه و تسليته فيما يصيبه، و وعده بأن العاقبه الحسنى له.

و قد اختتمت الآيه بحكمه تعالى، و هو الذى عليه يعتمد معظم آيات السوره فى بيانها.

و الله اعلم.

ص: ٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ  
نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (۲) وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّيَّمٍ وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا  
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)

قوله تعالى: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ المقابله بين الاحكام و التفصيل الذى هو ايجاد الفصل بين  
أجزاء الشىء المتصل بعضها ببعض، و التفرقه بين الامور المندمجه كل منها فى آخر تدل على أن المراد بالاحكام ربط بعض  
الشىء

ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه الى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئا واحدا بسيطا غير ذى أجزاء و أبعاض.

و من المعلوم أن الكتاب اذا اتصف بالاحكام و التفصيل بهذا المعنى الذى مرّ فإنما يتصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى و المضمون لا- من جهة ألفاظه او غير ذلك، و أن حال المعانى فى الاحكام و التفصيل و الاتحاد و الاختلاف غير حال الاعيان فالمعانى المتكثرة اذا رجعت الى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ فى الجميع و هو بعينه على إجماله هذه التفاصيل، و هى بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال و هذا كله ظاهر لا ريب فيه.

و على هذا فكون آيات الكتاب محكمه أولا ثم مفصله ثانيا معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها و تشتت مقاصدها و أغراضها ترجع الى معنى واحد بسيط، و غرض فارد أصلى لا- تكثّر فيه و لا تشتت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصدا من المقاصد و لا ترمى الى هدف إلاّ و الغرض الأصلى هو الروح السارى فى جثمانه و الحقيقه المطلوبه منه.

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته و تفرّق أبعاضه إلاّ غرض واحد متوحد إذا فصل كان فى مورد أصلا دينيا و فى آخر أمرا خلقيا و فى ثالث حكما شرعيا و هكذا كلما تنزل من الاصول الى فروعها و من الفروع الى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ، و لا يخطى غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد و الأخلاق و الأعمال، و هى بتحليلها و إرجاعها الى الروح السارى فيها الحاكم على أجسادها تعود الى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحه عزّه و كبريائه مثلا فى مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى و صفاته العليا، و فى مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا و التسليم و الشجاعه و العفّه و السخاء و نحو ذلك و الاجتناب عن الصفات الرذيله، و فى مقام الأعمال

و الأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة و الورع عن محارم الله.

و إن شئت فقل: إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما يبينه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب و كذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص.

فقد تبين أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف و الشرائع القرآنية الى أصل واحد هو بحيث اذا ركب في كل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنية.

و قوله تعالى: مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ الْحَكِيمِ مِنْ اسْمَائِهِ الْحَسَنِ الْفَعْلِيهِ يَدُلُّ عَلَى اتِّقَانِ الصَّنْعِ، وَ كَذَا الْخَيْرِ مِنْ اسْمَائِهِ الْحَسَنِ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ بِجَزْئِيَّاتِ أَحْوَالِ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ وَ مَصَالِحِهَا، وَ إِسْنَادِ إِحْكَامِ الْآيَاتِ وَ تَفْصِيلِهَا إِلَى كَوْنِهِ تَعَالَى حَكِيمًا خَيْرًا لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ النِّسْبَةِ.

قوله تعالى: <sup>□</sup> <sup>□</sup> أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّدِيرٍ وَ بَشِيرٍ وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ؛ وَ مَا بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لِمُضْمُونِ الْآيَةِ «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ» وَ إِذْ كَانَتْ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى... لَهُ آيَاتٌ مُحْكَمَةٌ ثُمَّ مَفْصَلَةٌ كَانَتْ الْعِنَايَةَ فِي تَفْسِيرِهَا مَتَوَجِّهَةً إِلَى إِبْضَاحِ هَذِهِ الْجِهَاتِ.

و من المعلوم ان هذا الكتاب الذى انزله الله تعالى من عنده الى رسوله ليتلوه على الناس و يبلغهم له وجه خطاب الى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و وجه خطاب الى الناس بوساطته اما وجه خطابه الى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و هو الذى يتلقاه الرسول من وحى الله فهو ان انذر و بشر و ادع الناس الى كذا و كذا، و هذا الوجه هو الذى عنى به فى اول سورة يونس حيث قال تعالى:

أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس ٢).

و اما وجه خطابه الى الناس و هو الذى يتلقاه الناس من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فهو ما يلقيه الى

الناس من المعنى فى ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان رساله أنى ادعوكم الى الله دعوه نذير و بشير، وهذا الوجه من الخطاب هو الذى عنى به فى قوله: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ» الخ.

فآليه من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوه الرسول اياهم بتلاوه كتاب الله عليهم، وليس كلاما للرسول بطريق الحكايه و لا بتقدير القول و لا من الالتفات فى شىء، و لا ان التقدير: امركم بأن لا تعبدوا او «فصّلت آياته لأين لا تعبدوا إلا الله» بأن يكون قوله: «لا تعبدوا» نفيا لا نهيا فإن قوله بعد «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» معطوف على قوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و هو يشهد بأن «لا تعبدوا» نهى لا نفى. على ان التقدير لا يصار اليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعه البلاغه فى الآيه.

و على هذا فقله: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» دعوه الى توحيد العباده بالنهى عن عباده غير الله من الآلهه المتخذة شركاء لله، و قصر العباده فيه تعالى، و قوله: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» امر بطلب المغفره من الله و قد اتخذوه ربا لهم برفض عباده غيره ثم امر بالتوبه و الرجوع اليه بالأعمال الصالحه، و يتحصّل من الجميع سلوك الطريق الطبيعى الموصل الى القرب و الزلفى منه تعالى، و هو رفض الآلهه دون الله ثم طلب المغفره و الطهاره النفسانيه للحضور فى حظيره القرب ثم الرجوع اليه تعالى بالأعمال الصالحه. و قد جىء بأن التفسيريه ثانيا فى قوله: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا» الخ؛ لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير اليهما قوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و هى مرحله التوحيد بالعباده مخلصا، و قوله:

«وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» و هى مرحله العمل الصالح و إن كانت الثانيه من نتائج الاولى و فروعها.

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسى و الاستغفار و التوبه نتيجه و فرعا متفرعا عليه أورد

النذر و البشاره بعد ذكر التوحيد، و الوعد الجميل الذى يتضمنه قوله: «يُمَتِّعُكُمْ» الخ؛ بعد ذكر الاستغفار و التوبه فقال «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ» فبين به أن النذر و البشري كائنين ما كانا يرجعان الى التوحيد و يتعلقان به ثم قال «وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا» الخ؛ فإن الآثار القيمه و النتائج الحسنه المطلوبه إنما تترتب على الشىء بعد ما تم فى نفسه و كمل بصفاته و فروعها و نتائجها، و التوحيد و إن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها و يتفرع عليها فروعها و أغصانها، «كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا».

و الظاهر أن المراد بالتوبه فى الآيه الايمان كما فى قوله تعالى: فَاعْفُرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمنون ٧) فيستقيم الجمع بين الاستغفار و التوبه مع عطف التوبه عليه بثم، و المعنى اتركوا عبادته الأصنام بعد هذا و اطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصيه ثم آمنوا بربكم.

و قيل: إن المعنى اطلبوا المغفره و اجعلوها غرضكم ثم توصلوا اليه بالتوبه و هو غير جيد و من التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى: استغفروا من ذنوبكم الماضيه ثم توبوا اليه كلما أذنبتم فى المستقبل و كذا قول آخر: إن «ثُمَّ» فى الآيه بمعنى الواو لأن التوبه و الاستغفار واحد.

و قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» هو الوقت الذى ينتهى اليه الحياه لا تتخطاه البتة، فالمراد هو التمتع فى الحياه الدنيا بل بالحياه الدنيا لأن الله سبحانه سماها فى مواضع من كلامه متاعا، فالمتاع الحسن الى أجل مسمى ليس إلا الحياه الدنيا الحسنه.

فيؤول معنى قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا» على تقدير كون «مَتَاعًا» مفعولا

مطلقا الى نحو من قولنا: يمتعكم تمتيعا حسنا بالحياه الحسنه الدنيويه، ومتاع الحياه إنما يكون حسنا إذا ساق الإنسان الى سعادته الممكنه له، وهداه الى أمانى الإنسانيه من التمتع بنعم الدنيا فى سعه و أمن و رفاهيه و عزه و شرافه فهذه الحياه الحسنه تقابل المعيشه الضنك التى يشير إليها فى قوله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (طه ١٢٤).

و قوله: وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ الفضل هو الزيادة و إذ نسب الفضل فى قوله: «كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ» الى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينه على كون الضمير فى «فَضْلُهُ» راجعا الى ذى الفضل دون اسم الجلاله كما احتمله بعضهم و الفضل و الزيادة من المعانى النسبيه التى إنما تتحقق بقياس شىء الى شىء و إضافته اليه.

فالمعنى: و يعطى كل من زاد على غيره بشىء من صفاته و أعماله و ما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر و خصوص موهبه السعاده تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه او يغصب فضله او يملكه غيره كما يشاهد فى المجتمعات غير الدينيه و إن كانت مدنيه راقيه فلم تنزل البشريه منذ سكنت الأرض و كونت أنواع المجتمعات الهمجيه او الراقيه او ما هى أرقى تنقسم الى طائفتين مستعليه مستكبره قاهره، و مستذله مستعبده مقهوره، و ليس يعدل هذا الإفراط و التفريط و لا يسوى هذا الاختلاف إلا دين التوحيد.

و قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ أى فإن تتولوا، الخ؛ بالخطاب، و الدليل عليه قوله: «عَلَيْكُمْ» و ما تقدم فى الآيتين من الخطابات المتعدده فلا يصغى الى قول من يأخذ قوله: «تَوَلَّوْا» جمعا مذكرا غائبا من الفعل الماضى فإنه ظاهر الفساد.

## [سوره هود (١١): الآيات ٥ الى ١٦]

### اشاره

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَ يَتَّخِفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ لِيَا بَنِيهِمْ يُعَلِّمُ مَا يُلْمِزُونَ وَ مَا يُعَلِّمُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يُعَلِّمُ مَسِيرَتَهَا وَ مَسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّه مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَ لَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِذَا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَدْخَلْنَا نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)





قوله تعالى: **أَلَا- إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ** الى آخر الآية؛ ثنى الشيء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحا اي عطفه و طواه و ردّ بعضه على بعض قال فى المجمع: اصل الثنى العطف تقول: ثنيته عن كذا اي عطفته، و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى، و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح، و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى. و قال ايضا: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال: استخفى و تخفّى بمعنى، و كذلك استغشى و تغشّى، انتهى.

فالمراد بقوله: **يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ** أنهم يميلون بصدورهم الى خلف و يطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب اي من استماعه حين تلاوته و هو كناية عن استخفائهم من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و من حضر عنده حين تلاوه القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة.

و قوله: **أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ يُبَاهِيَهُمْ يَخْلَفُونَ** كأنهم كانوا يسترون رءوسهم

ايضا بثيابهم عند استخفائهم بثنى الصدور فذكر الله سبحانه ذلك و أخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرون و ما يعلنون فما يغنيهم التخفى عن استماع القرآن و الله يعلم سرهم و علانيتهم.

وقيل: إن المراد باستخفائهم ثيابهم هو الاستعشاء في بيوتهم ليلا عند أخذ المضاجع للنوم، و هو أخفى ما يكون فيه الانسان و أخلى أحواله، و المعنى: أنهم يشنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم، و الله يعلم سرهم و علانيتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال و هو حال تغشيتهم بثيابهم للنوم، و لا يخلو الوجه من ظهور.

قوله تعالى: **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** الى آخر الآيه، الدابة على ما فى كتب اللغة كل ما يدب و يتحرك، و يكثر استعماله فى النوع الخاص منه، و قرينه المقام تقتضى كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعه علمه تعالى، و لذلك عقب به قوله: **«الَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ بِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»**.

و هذا المعنى أعنى كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعه علمه لكل دابة فى جميع احوالها يستوجب أن يكون قوله: **وَيَعْلَمُ مَسِيرَهَا وَ مُسِيرَتَهَا بِمَنْزِلَةِ عَطْفِ التَّفْسِيرِ** لقوله: **عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** فيعود المعنى الى أن كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها- و لن تبقى بغير رزق- فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت فى مستقر لا تخرج منه كالحوث فى الماء و كالصدف فيما وقعت و استقرت فيه من الأرض رزقها هناك و إن كانت خارجه من مستقرها و هى فى مستودع ستر كه الى مستقرها كالطير فى الهواء او كالمسافر الغارب عن وطنه او كالجنين فى الرحم رزقها هناك و بالجمله هو تعالى عالم بحال كل دابة فى الأرض و كيف لا و عليه تعالى رزقها و لا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق و خبره منه بما حلّ فيه من محل دائم او معجل و مستقر او مستودع.

و أما قوله: **عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى و قد تكرر فى

القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصه به و أنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: **أَمَّنْ لِلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** (المملك ٢١/)، وقال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** (الذاريات ٥٨/) وقال تعالى: **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** (الذاريات ٢٣/).

ولا- ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره اذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره، و لذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال: **كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** (الأنعام ١٢/)، وقال: **وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (الروم ٤٧/) الى غير ذلك من الآيات.

و الاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده و إذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله، و إذ لا شريك له تعالى في إيجاداه لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق. و قد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام آيه: ٥٩ و في سورة يونس آيه: ٦١ فليراجع.

قوله تعالى: **وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات و الأرض على ما يظهر من كلامه تعالى و يفسره ما ورد في ذلك عن اهل العصمه عليهم السلام موكول الى ما سيأتي من تفسير سورة حم السجده إن شاء الله تعالى.

و إجمال القول الذي يظهر به معنى قوله: **سِتَّةِ أَيَّامٍ** وقوله: **وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات-بلفظ الجمع-و يقارنها بالأرض و يصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلق أرضنا فكل ما علاك و أظلك فهو سماء على ما قيل و العلو و السفل من المعاني الإضافية.

فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلق أرضنا و تحيط بها فإن الأرض كروي الشكل على ما يفيدته قوله تعالى: يُغِثِي  
اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا (الأعراف ٥٤).

و السماء الاولى هي التي تزينه مصابيح النجوم و الكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها او هي فوقها و تترين بها كالسقف يتزين  
بالقناديل و المشاكي و أما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى: سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ طَبَاقًا  
(الملك ٣)، و قوله:

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ طَبَاقًا وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (نوح ١٦) حيث يدل على مطابقته  
بعضها بعضا.

و أما قوله: وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فهو حال و المعنى و كان عرشه يوم خلقهن على الماء و كون العرش على الماء يومئذ كناية  
عن أن ملكه تعالى كان مستقرا يومئذ على هذا الماء الذي هو مادة الحياه فعرش الملك مظهر ملكه، و استقراره على محل هو  
استقرار ملكه عليه كما ان استواءه على العرش احتواءه على الملك و أخذه في تدبيره.

قوله تعالى: لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- اللام للغايه و البلاء الامتحان و الاختبار، و قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» بيان للاختبار و  
الامتحان في صورته الاستفهام و المراد أنه تعالى خلق السماوات و الأرض على ما خلق لغايه امتحانكم و تمييز المحسنين منكم  
من المسيئين (١).

و أما ما في الآيه من تعليل خلق السماوات و الارض بقوله: «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و نظائره الكثيره في القرآن فإنما هو و  
أمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة و المصالح المتفرعه و قد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ  
شَيْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده ٧)، فهو سبحانه هو الخير لا شر فيه و هو الحسن لا قبح عنده و ما كان كذلك لم

ص: ١٠٢

يصدر عنه شرّ و لا قبيح البته.

و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى او الذى أمر به و إن استقبحه العقل، و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه او الذى نهى عنه و إن استحسسه العقل و استصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ (الأعراف / ٢٨).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ لما كان قوله: «لَيَبْلُوكُمْ» الخ؛ يشير الى المعاد أشار الى ما كان يواجهه به الكفار ذكره صلى الله عليه و آله و سلم للمعاد برميّه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآيه أنهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة و بلاغه النظم سحراً، كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن او النبى صلى الله عليه و آله و سلم من حقائق المعارف التى لا يصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحراً، و على هذا فهو من مبالغتهم فى الافتراء على كتاب الله و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدّوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر الى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطه و التمويه بإظهار الباطل فى صوره الحق على نحو إطلاق الملزوم و إرادته اللازم لكن لا- يلائمه ظاهر قوله تعالى فى نظير المورد: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا- يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (المؤمنون / ٨٩).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أُمَّهُ مَعِيدُودَهُ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ الى آخر الآيه؛ اللام فى صدر الآيه للقسم و لذلك أكد الجواب أعنى قوله:

«لَيَقُولَنَّ» باللام و النون و المعنى: و أقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين: ما الذى يحبس هذا العذاب الموعود عنا و لما ذا لا ينزل علينا و لا يحلّ

و فى هذا إشاره أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و أن الله أقر ذلك تأخيراً رحمه لهم فاستهزءوا به و سخروا منه بقولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ و يؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ الخ.

و بهذا يتأيد أن السوره-سوره هود-نزلت بعد سوره يونس لمكان قوله تعالى فيها:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الى آخر الآيات.

و قوله: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ الْأَمَّةِ الْحِينِ وَالْوَقْتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (يوسف ٤٥)﴾ أى بعد حين و وقت.

و ربما أمكن أن يراد بالامه الجماعه فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً و يمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم.

و قوله: ﴿أَلَا- يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ و ﴿حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بمنزله الجواب عن قولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ الواقع موقع الاستهزاء فإنه فى معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب، و محصله أن هذا العذاب الذى يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسسه سبب فإننا كفرون غير عادلين عن الكفر و لا- تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم و لا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحق بهم هذا العذاب الذى كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَا مَا فِي صُلْبِهِ مِنْ لَدُنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ قَالٍ فِي الْمَجْمَعِ: الذوق تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، و سمي الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيهاً بما يذاق ثم يزول كما قيل: أحلام نوم أو كظل

زائل و النزع قلع الشىء عن مكانه، و اليئوس فعول من يئس -صيغه مبالغه- و اليأس القطع بأن الشىء المتوقع لا يكون و نقيضه الرجاء. انتهى.

و قد وضعت الرحمه فى الآيه مكان النعمه لإشعار بأن النعم التى يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمه و هى رفع حاجه الإنسان فيما يحتاج اليه من غير استحقاق و إيجاب و المعنى: إنا إن آتينا الإنسان شيئاً من النعم التى يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها و اشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها اليه ثانياً ممكننا و كفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمه من حقه الثابت علينا و يرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أخذ منه و الكفران، و قد أخذ فى الآيه لفظ الإنسان -و هو لفظ دال على نوعه- للدلاله على أن الذى يذكر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالى: **وَ لئنْ أذقناه نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسْتَهٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** قال فى المجمع: النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه و الضراء مضره يظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عيناء مع ما فيهما من المبالغه، و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما يلتذ به و ضده الغم -الى أن قال:- و الفخور الذى يكثر فخره و هو التناول بتعديد المناقب و هى صفة ذم اذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه. انتهى.

و المراد بالسيئات بقرينه المقام المصائب و البلايا التى يسوء الإنسان نزولها عليه، و المعنى:

و لئن أصبناه بالنعمه بعد الضراء ليقولنّ ذهب الشدائد عنى، و هو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد و النوازل لا تعود بعد زوالها و لا تنزل بعد ارتفاعها ثانياً.

و قوله: **إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** بمنزله التعليل لقوله: **ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي** فإنه يفرح و لا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضراء، و لو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقاءه و لا اعتماد على دوامه. و أن الأمر ليس اليه بل الى غيره و من الجائز أن يعود اليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحاً بذلك فإنه لا فرح فى أمر مستعار غير

وانه ليفخر بما أوتى من النعماء على غيره، ولا- فخر إلا- بكرامه أو منقبه يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمرا بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه و يتزعه منه و يعيد اليه ما ذهب عنه من السيئات و لذلك يفخر و يكتر من الفخر.

قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشده و البلاء من اليأس و الكفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر، و مغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضر، و يذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمه لم ير لها عوده و أنها كانت من عند الله سبحانه، و له تعالى ان يعيدها اليه إن شاء حتى يصبر على بلائه و يتعلق قلبه به بالرجاء و المسأله، و إن عادت اليه نعمه بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح و فخر و لم ير لله تعالى صنعا في ذلك حتى يشكره عليها و يكف عن الفرح و عن التناول على غيره بالفخر.

استثنى سبحانه طائفه من الإنسان و وصفهم بقوله: **«الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»** ثم وعدهم وعدا حسنا بقوله: **«أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ»** و ذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند الضراء فلا يحملهم الجزع على اليأس و الكفر، و يعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضراء و أعقب بالنعماء و صرف نعمه في ما يرضيه و يريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح و الفخر.

و هؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بامحاء آثار ذلك الطبع المذموم و وضع الخصال المحموده موضعه و لهم عند ربهم مغفره و أجر كبير.

و في الآيه دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة و أجرا كبيرا، و المغفرة لا تنال المشركين، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء ١١٦).**



وقد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآيه أعنى المغفره و الأجر الكبير للمؤمنين فى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (فاطر ٧/٧)، وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (الملك ١٢/١٢).

قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ لما كانت رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم بما أيدت به من القرآن الكريم و الآيات البيّنات و الحجج و البراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها و لا لانسان صحيح المشاعر ردها و الكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع، و إذا كان وقوع أمر على صفه من الصفات مستبعدا أخذ الانسان فى تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبه الوقوع الى ما يستبعده الطبع.

و لما كان المقام فى الآيه الكريمه هذا المقام و كان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبى صلى الله عليه و آله و سلم اليهم من الحق الصريح و ما أنزل اليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البيّنات و الحجج ما لا ينبغى أن يذعن به لبعده طبعاً بيّن تعالى لذلك وجهها بعد وجه على سبيل الترجى فقال «و لعلك تارك بعض ما يوحى اليك» الخ؛ «أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءً» الخ.

فكأنه قيل: من المستبعد أن تهديهم الى الحق الواضح و يسمعوا منك كلامى ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك و غير داعيهم اليه و لذلك جبهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله و لذلك لم يؤمنوا به. فإن كنت تركت بعض الوحي خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير و ليس لك إلا ما شاء الله، و ان يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، الخ.

و قوله: تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقه

متضمنه لتبليغ الوحي في الجملة أى لعلك تركت بعض ما أوحينا اليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا- يجبهوك بما جبهوك به من الرد و الجحود،و ذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضا و شطر منه يقرب شطرا منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتمله على الدعاوى،و آيات الثواب و العقاب تقرب الحق من القبول بالتطمع و التخويف،و آيات القصص و العبر تستميل النفوس و تلين القلوب.

و قوله: وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا الْخ؛قال في المجمع:ضائق و ضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين:أحدهما أنه عارض،و الآخر أنه أشكل بقوله:

«تَارِكٌ» انتهى.

و الظاهر أن ضمير «به» راجع الى قوله: «بَغْضَ مَا يُوحَى» و إن ذكر بعضهم أن الضمير راجع الى قولهم: «لَوْ لَا- أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» الخ؛أو الى اقتراحهم و هذا أوفق بكون قوله: «أَنْ يَقُولُوا» الخ؛بدلا من الضمير فى «به» و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله: «تَارِكٌ» و التقدير:لعلك تارك ذلك مخافه أن يقولوا:لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

و قوله: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ جواب عن اقتراحهم بقوله:لو لا- أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك،و قد تكرر فى مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر فى بعضها على ذكر مجيء الملك و زيد فى بعضها عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة و أن يكون له جنه يأكل منها و أن ينزل من السماء كتابا يقرءونه.و قد أجاب الله سبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا و هو أن رسوله ليس له إلا الرسالة فلبس بيده و هو بشر رسول أن يجيبهم الى ما اقترحوها به عليه إلا أن يشاء الله فى ذلك شيئا و يأذن فى إتيان آيه كما قال: وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (المؤمن ٧٨).

ثم عقب قوله: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ بقوله: وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

للتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالمعجزات و محصّيه: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بشر مثلهم و لم يؤمر إلا- بالإنذار و هو الرساله بإعلام الخطر، و القيام بالامور كلها و تدبيرها سواء كانت جاريه على العاده أو خارقه لها إنما هو الى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيما ليس اليه.

و ذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها و هو القائم على كل شيء فيما يجرى عليه من النظام فما من شيء إلا و هو تعالى المبدأ في أمره و شأنه و المنتهى سواء الامور الجاريه على العاده و الخارقه لها فهو تعالى الذى يسلم اليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم اليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء و وكيل.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» بمعونه من قوله: «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ» يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمرا ليس اليه و إنما هو الى الله تعالى.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ قَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَصْحُ بِهِ أَخَذَ «أَمْ» متصلا لكون قوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الخ؛ فى معنى الاستفهام، و التقدير:

أفأنت تارك بعض ما يوحى اليك خوفا من اقتراحهم المعجزه أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامى ثم لا يؤمنوا به و قيل: إن أم منقطعه و المعنى: بل يقولون افتراه.

و قوله: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» فى الكلام تحدّ ظاهر و الضمير راجع الى القرآن او الى السوره بما أنها قرآن و الفاء فى «فَأْتُوا» تفيد تفريع الامر على قوله:

«افْتَرَاهُ» و فى الكلام حذف و إيصال رعايه للإيجاز، و التقدير: قل لهم: إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندى و كان من الجائز أن يأتى بمثله غيرى فإن كنتم صادقين فى دعواكم و مجدين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و استعينوا فى ذلك بدعوه كل من

تستطيعون من دون الله من اوثانكم الذين تزعمون انهم آلهه تتسرعون اليهم فى الحاجات و غيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الاسباب و الوسائل و لا يبقى أحد ممن يطمع فى تأثير إعانتة و يرجى نفعه فى ذلك فلو كان من عندى لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله.

و قد بان بهذا البيان ان التحدى بالقرآن فى الآيه الكريمة ليس من حيث نظمه و بلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء فى ذلك آلهتهم و غير آلهتهم و فيهم من لا يعرف الكلام العربى او جزاله نظمه و صفه بلاغته فالتحدى عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقه و الحجج و البراهين الساطعه و المواعظ الحسنه و الأخلاق الكريمة و الشرائع الإلهيه و الأخبار الغيبيه و الفصاحه و البلاغه نظير ما فى قوله تعالى: قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (الإسراء ٨٨)، و قد تقدمت الإشاره الى ذلك فى الكلام على إعجاز القرآن فى الجزء الاول من الكتاب.

قوله تعالى: فَإِلمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ إجابة الدعوه و استجابتها بمعنى.

و الظاهر من السياق ان الخطاب فى الآيه للمشركين، و أنه من تمام كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلم الذى أمر بقوله تعالى: «قُلْ» أن يلقىه اليهم، و على هذا فضمير الجمع فى قوله: «فَمَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا» راجع الى الآلهه و كل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله: «وَ اذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

و المعنى: فإن لم يستجب لكم معاصر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم و من بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام و علماء اهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماويه و أخبار الأنبياء و الامم و الكهنه المستمدين من إلقاء شياطين الجن،

و جهابذه العلم و الفهم من سائر الناس المتعمقين فى المعارف الانسانيه بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله و لم يخلق عن علمى أنا و لا- غيرى ممن تزعمون أنه يعلمنى و يملئ على، و اعلموا أيضا ان ما ادعوكم اليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه اليه فهل انتم ايها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره؟

فقوله تعالى: فَإِلْمٌ يَشْتَجِبُوا لَكُمْ فى معنى قولنا: فإن لم تقدرُوا على المعارضه بعد الاستعانه و الاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله، و ذلك أن الأسباب التى توجب قدرتهم على المعارضه هى ما عندهم من قدره البيان و قريحه البلاغه و هم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله و كذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد، و لهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم، و أيضا ما عند غير آلهتهم من المدد، و اذا لم يستجبههم الذين يدعونهم فى معارضه القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبه لقدرتهم و ارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضه القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدره فى الكلام كناية.

و قوله: فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به و هو الغيب الذى لا سبيل لغيره تعالى اليه إلا بإذنه كما قال تعالى: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء ١٦٦)، و قال: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يوسف / ١٠٢)، و قال: عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن / ٢٧)، و قال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الواقعه ٨٠).

فالمعنى: فإن لم تقدرُوا على معارضته بأى سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبى و أنه من أنباء الغيب الذى يختص به تعالى فهو الذى أنزله على

و كلمنى به و اراد تفهيمى و تفهيمكم بما فيه من المعارف الحقه و ذخائر الهداياه.

و ذكر بعضهم ان المراد به انه انما انزل على علم من الله بنزوله و شهاده منه له، و ذكر آخرون ان المراد انه انما انزل بعلم من الله انه لا يقبل المعارضه او بعلم من الله بنظمه و ترتيبه و لا يعلم غيره ذلك، و هذه معان واهيه بعيده عن الفهم.

و الجملة أعنى قوله: **أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ** احدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابته شركائهم لهم. و النتيجة الأخرى قوله: **«وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** و لزوم هذه النتيجة من وجهين: أحدهما: أنهم اذا دعوا آلهم لما يهتمهم من الأمور فلم فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهه فليس الإله إلا من يجيب المضطر اذا دعاه و خاصه اذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذى أتى به النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يقطع دابرهم و يميت ذكرهم و يصرف الناس عن التوجه اليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم اذا دعوهم لمعارضه كتاب هذا شأنه كان ذلك من اوضح الدليل على نفى ألوهيتهم.

و ثانيهما: أنه اذا صح ان القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به، و مما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه.

و قوله: **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** أى لما علمتم و اتضح لكم من جهه عدم استجابته شركائهم من دون الله و عجزكم عن المعارضه فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه و كون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه؟ و هو أمر بالإسلام فى صورته الاستفهام. هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآيه.

و قيل: إن الخطاب فى قوله: **فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ** الخ؛ للنبى صلى الله عليه و آله و سلم خوطب بلفظ الجمع تعظيما له و تفخيما لشأنه و ضمير الجمع الغائب راجع الى المشركين أى فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبى اليه من المعارضه فاعلم أنه منزل بعلم الله و أن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره.

و فيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع و الكثره يختص فى الكلام العربى بالمتكلم و اما الخطاب و الغيبه فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

مضافا الى ان استناد الوحي الإلهى و التكليم الربانى اليه تعالى استناد ضرورى لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم دلالاته على كونه كلاما من الله دلالة ضروريه غير محتاجه الى حجه حتى يحتج عليه بعدم إجابته المشركين الى معارضه القرآن و عجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الانسان و الجن و الملك و أى هاتف آخر فإنه يحتاج فى حصول العلم باستناده الى متكلمه الى دليل خارجى من حسن أو عقل، و قد تقدمت إشاره الى ذلك فى قصه زكريا من سوره آل عمران، و سيجىء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إنشاء الله تعالى.

على أن خطاب النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بمثل قوله: «و أنه لا- إله إلا- هو»، و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ» لا- يخلو عن بشاعه. على أن نفس الاستدلال ايضا غير تام كما سنبين.

و قيل: إن الخطاب فى الآيه للنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و المؤمنين جميعا او للمؤمنين خاصه لأن المؤمنين يشاركونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى الدعوه الدينيه و التحدى بالقرآن الذى هو كتاب ربهم المنزل عليهم و المعنى: فإن لم يستجب المشركون لكم فى المعارضه فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله و أن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله؟

و لما تفتن بعضهم أن لا معنى لدعوه المؤمنين و هم مؤمنون بالله وحده و بكتابه الى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله و بأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله و ازدادوا به ايمانا و يقينا و أنه لا إله إلا هو و لا يستحق العباده سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم و الإخلاص فيه؟

و فيه أنه تقييد للآيه من غير مقيّد و الحجه غير تامه و ذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضه بما عندهم من البضاعه و استعانوا عليها بدعوه آلهتهم و سائر من يطمعون فيه

من الجن و الإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر و تَمَّتْ بِذَلِكَ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ، و أما عدم استجابته الكفار للمعارضه فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأتروا بما أمروا به بقوله: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق و إنما كان قولهم: «افْتَرَاهُ» قولا ناشئا عن العناد و اللجاج لا عن إذعان به أو شك فيه، أو لأنهم كانوا آيسين من استجابته شركائهم للدعوه على المعارضه، أو لأنهم كانوا هازلين فى قولهم ذلك يهدرون هذرا.

و بالجمله عدم استجابته المشركين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أو للمؤمنين أو لهم جميعا لا يدل بنفسه على كون القرآن نازلا من عند الله إلا اذا كان عدم الاستجابته المذكوره بعد تحقق دعوتهم شركاءهم الى المعارضه و عدم استجابتهم لهم، و لم يتحقق من المشركين دعوه على هذه الصفه، و مجرد عدم استجابته المشركين انفسهم لا ينفع شيئا، و لا يبقى إلا أن يقال: إن معنى الآية: فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم و لم يستجب المشركون لكم أيها النبي و معاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، الخ؛ و هذا هو الذى أوأنا اليه آنفا أنه تقييد للآيه من غير مقيد.

على أن فيه امرا للمؤمنين أن يهتدوا فى ايمانهم و يقينهم بأمر فرضى غير واقع و كلامه تعالى يجلّ عن ذلك، و لو أريدت الدلاله على أنهم غير قادرين على ذلك و إن دعوا شركاءهم الى المعارضه كان من حق الكلام أن يقال: فإن لم يستجيبوا لكم و لن يستجيبوا فاعلموا، الخ؛ كما قيل كذلك فى نظيره قال تعالى: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ اذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» (البقره ٢٤).

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ» إيصال الحق الى صاحبه و إعطاؤه له بكماله، و البخس



و في الآيه تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم و لا يسلمون له إيثارا للحياه الدنيا و نسيانا للآخره، و بيان لشيء من سنّه الاسباب القاضيه عليهم باليأس من نعيم الحياه الآخره.

و ذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغايه التي ارادها به و عمله لأجلها، فإن كانت غايه دنيويه تصلح شئون الحياه الدنيا من مال و جمال و حسن حال ساقه العمل-إن أعانتها سائر الاسباب العامله-الى ما يرجوه بالعمل و أما الغايات الاخرويه فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع، و مجرد صلاحيه العمل لأن يقع في طريق الآخره و ينفع في الفوز بنعيمها كالبر و الإحسان و حسن الخلق لا يوجب الثواب و ارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله و دار ثوابه.

و لذلك عقبه بقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فأخبر أنهم اذا وردوا الحياه الآخره وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياه كما تأكل النار الحطب و تبير و تهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود، و تحبط جميع ما صنعوا فيها و تبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا، و لذلك سماها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أى الهلاك فقال تعالى: «لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَدَّؤُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا (إبراهيم ٢٩)»، و بذلك يظهر أن كلا من قوله: «وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» و قوله: «وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يفسر قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» نوعا ما من التفسير (١).

ص: ١١٥

١ - ١). هود ٥-١٦: بحث روائي في سيره المشركين اذا مروا برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؛ ان رزق العباد على الله؛ السؤال من فضل الله؛ القضاء بالرزق و الامر بطلبه؛ نظر الائمة المعصومين صلى الله عليه و آله و سلم في طلب الرزق؛ بدء الخلقه؛ الاعمال الصالحه.

أَقَمْنِ كَانَ عَلِيٌّ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ  
فَالذَّارُ مُوعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۷) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا  
أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۸) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (۱۹) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا  
كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لَا جَزْمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ (۲۲) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَحْبَبُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ  
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَمْ لَا تَذَكَّرُونَ (۲۴)

قوله تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً الْجمله تفريع على ما مضى من الكلام الذى هو فى محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا- من عند الله سبحانه، و«مَنْ» مبتدأ خبره محذوف و التقدير: كغيره، أو ما يؤدى معناه، و الدليل عليه قوله تلو «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَخْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

و الاستفهام إنكارى و المعنى: ليس من كان كذا و كذا كغيره ممن ليس كذلك و أنت على هذه الصفات فلا تك فى مريه من القرآن.

و قوله: عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ البينه صفة مشبهه معناها الظاهره الواضحه غير أن الامور الظاهره الواضحه ربما أوضحت ما ينضم إليها و يتعلق بها كالنور الذى هو بين ظاهر و يظهر به غيره، و لذلك كثر استعمال البينه فيما يتبين به غيره كالحججه و الآيه، و يقال للشاهد على دعوى المدعى بينه.

و الظاهر أن المراد بالبينه فى المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقريته قوله بعد «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» و إن كان المراد به بحسب المورد هو النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ» .

فالمراد بها البصيره الإلهيه التى اوتيتها النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهرا ان يتفرع عليه قوله: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ» و هو ظاهر و لا- ينافيه كون القرآن فى نفسه بينه من الله من جهة كونه آيه منه تعالى كما فى قوله: قُلْ إِنِّي عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ (الأنعام ٥٧/)، فإن المقام غير المقام.

و قوله تعالى: وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ المراد بالشهاده تأديه الشهاده التى تفيد صحه

الأمر المشهود له دون تحمّلها فإن المقام مقام تثبيت حقيته القرآن و هو إنما يناسب الشهاده بمعنى التأديه لا بمعنى التحمل.

و الظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقيقته القرآن و كان على بصيره إلهيه من امره فأمن به عن بصيرته و شهد بأنه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد و الرساله فإن شهاده الموقن البصير على امر تدفع عن الإنسان مريه الاستيحاش و ريب التفرد فإن الانسان اذا أذعن بأمر و تفرد فيه ربما اوحشه التفرد فيه اذا لم يؤيده احد فى القول به اما اذا قال به غيره من الناس و أيد نظره فى ذلك زالت عنه الوحشه و قوى قلبه و ارتبط جأشه و قد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى فى قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ (الأحقاف ١٠).

و على هذا فقوله: «يَتْلُوهُ» من التلو لا من التلاوه، و الضمير فيه راجع الى «مِنْ» او الى «بَيْنَهُ» باعتبار انه نور او دليل، و مآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذى يلى صاحب البينه يلى بينته كما يلى نفسه و الضمير فى قوله: «مِنْهُ» راجع الى «مِنْ» دون قوله: «رَبِّهِ» و عدم رجوعه الى البينه ظاهر و محصل المعنى: من كان على بصيره إلهيه من امر و لحق به من هو من نفسه فشهد على صحه امره و استقامته.

و على هذا الوجه ينطبق ما ورد فى روايات الفريقين ان المراد بالشاهد علىّ عليه السلام إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الاراده الاستعماليه.

و قوله تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً الضمير راجع الى الموصول او الى البينه على حد ما ذكرناه فى ضمير «يَتْلُوهُ» و الجمله حال بعد حال اى أ فمن كان على بصيره إلهيه ينكشف له بها ان القرآن حقّ منزل من عند الله و الحال ان معه شاهدا منه يشهد بذلك عن بصيره و الحال أن هذا الذى هو على بينه سبقه كتاب موسى إماما و رحمه او قبل بينته التى منها القرآن او هى القرآن المشتمل على المعارف و الشرائع الهاديه الى الحق

كتاب موسى إماما فليس هو او ما عنده من البيئه ببدع من الأمر غير مسوق بمثل و نظير بل هناك طريق مسلوک من قبل يهدى اليه كتاب موسى.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ الْمَشَارِ إِلَيْهِمْ** بقوله: «**أُولَئِكَ**» بناء على ما تقدم من معنى صدر الآيه هم الذين كانوا على بينه من ربهم المدلول عليهم بقوله: «**أَفَمَنْ كَانَ**» الخ، و أما إرجاع الإشاره الى المؤمنين لدلاله السياق عليهم فبعيد عن الفهم.

و كذا الضمير فى قوله: «**بِهِ**» راجع الى القرآن من جهة أنه بينه منه تعالى او امر قامت عليه البيئه، و أما إرجاعه الى النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم فلا يلائم ما قررناه من معنى الآيه فإن فى صدر الآيه بيان حال النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله: «**فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ**» كأنه قيل: إنك على بينه كذا و معك شاهد و قبلك كتاب موسى، و من كان على هذه الصفه يؤمن بما اوتى من كتاب الله، و لا يصح أن يقال: و من كان على هذه الصفه يؤمن بك، و الكلام فى الضمير فى «**و مَنْ يَكْفُرْ بِهِ**» كالكلام فى ضمير «**يُؤْمِنُونَ بِهِ**» .

و أمر الآيه فيما يحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرها عجيب فضرب بعضها فى بعض يرقى الى الوف من المحتملات بعضها صحيح و بعضها خلافه.

قوله تعالى: **فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** المريه كجلسه النوع من الشك، و الجملة تفرع على صدر الآيه، و المعنى أن من كان على بينه من ربه فى امر و قد شهد عليه شاهد منه و قبله إمام و رحمه ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من امر الله و لا يوحشه إعراض أكثر الناس عما عنده، و أنت كذلك فإنك على بينه من ربك و يتلوک شاهد و من قبلك كتاب موسى إماما و رحمه و إذا كان كذلك فلا تك فى مريه من امر ما أنزل اليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله و لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

وقوله: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ تعليل للنهي وقد اكد بأن و لام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمريه و هى قيام البيئه و شهاده الشاهد و تقدم كتاب موسى إماما و رحمه.

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ من الممكن أن يكون ذبلا للسياق السابق من حيث كان تطيبا لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيقول المعنى الى أنك إذ كنت على بينه من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفتريا على الله الكذب لأن المفترى على الله كذبا من أظلم الظالمين، و لهم من وبال كذبهم كذا و كذا.

و كيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه او نسبه شىء اليه بغير الحق او بغير علم، و الافتراء من أظهر أفراد الظلم و الإثم، و يعظم الظلم بعظم متعلقه حتى اذا انتهى الى ساحه العظمه و الكبرياء كان من أعظم الظلم.

وقوله تعالى: أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ الْعُرْضُ الشَّيْءِ ليرى و يوقف عليه، و لما كان ارتفاع الحجب بينهم و بين ربهم يوم القيامة بظهور آياته و وضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضورا اضطراريا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم على ربهم كما سمي بوجه آخر بروزا منهم لله فقال: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن ١٦)، و قال: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (إبراهيم ٤٨) فقال «أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ» أى يأتى بهم الملائكه الموكلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم و بين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

وقوله: وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ الْأَشْهَادُ جمع شهيد كأشراف جمع شريف و قيل: جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، و يؤيد الأول قوله تعالى:

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ (النساء ٤١) و قوله: وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (ق ٢١).

و قول الأَشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله اى سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادته الأَشهاد عليهم بذلك فى موقف لا يذكر فيه إلا الحق و لا مناص فيه عن الاعتراف و القبول كما قال تعالى: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨) و قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا و مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (آل عمران ٣٠).

قوله تعالى: أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الخ؛ تتمه قول الأَشهاد، و الدليل عليه قوله تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٤٥).

و هذا القول منهم المحكى فى كلامه تعالى تشبث منهم للبعد و اللعن على الظالمين و تسجيل للعذاب، و ليس اللعن و الرحمة يوم القيامة كاللعن و الرحمة فى الدنيا كما فى قوله تعالى:

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (البقره ١٥٩) و ذلك أن الدنيا دار عمل و يوم القيامة يوم جزاء فما فيه من لعنه او رحمه هو إيصال ما أذخر لهم اليهم فلعن اللاعن احدا يوم القيامة طرده من رحمه الله الخاصه بالمؤمنين و تسجيل عذاب البعد عليه.

قوله تعالى: أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ الخ؛ الاشاره الى المفترين على الله الموصوفين بما مر فى الآيتين السابقتين.

و المقام يدل على ان المراد من كونهم غير معجزين فى الأرض انهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه فى حياتهم الارضيه حيث خرجوا عن زى العبوديه فأخذوا يفترون على الله الكذب و يصدون عن سبيله و يبغونها عوجا فكل ذلك لا- لأن قدرتهم المستعاره فاقت قدره الله سبحانه و مشيتهم سبقت مشيته، و لا لأنهم خرجوا من ولايه الله فدخلوا فى ولايه غيره و هم

الذين اتخذوهم اولياء من اصنامهم و كذا سائر الأسباب التي ركنوا إليها، و ذلك قوله: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» .

و بالجمله لا قدرتهم غلبت قدره الله سبحانه و لا شركاؤهم الذين يسمونهم اولياء لأنفسهم اولياء لهم بالحقيقه يدبرون امرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغى و الظلم بل الله سبحانه هو وليهم و هو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم و اعمالهم بما يجرمهم الى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥)، و قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره / ٢٦).

و قوله: يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فسقوا ثم لجوا عليه او لأنهم عصوا الله بأنفسهم و حملوا غيرهم على معصيه الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصيه قال تعالى:

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل ٢٥) و قال: وَ نَكْتِبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس ١٢).

و قوله: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ فى مقام التعليل و لذا جىء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا و لم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة الله و لا لأن لهم اولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون ان يسمعوا ما يأتىهم من الإنذار و التبشير من ناحيته او يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم فى قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف ١٧٩)، و فى قوله:

وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام ١١٠)، و قوله: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً (البقره ٧)، و آيات اخرى كثيرة تدل على انه تعالى سلبهم عقولهم و اعينهم و آذانهم غير انه تعالى يحكى عنهم مثل قولهم:



وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ (الملك ١١)، و اعترفهم بأن عدم سمعهم و عقلهم كان ذنبا منهم مع ان ذلك مستند الى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على انهم انفسهم توسلوا الى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦) وغيره.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ اما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقه-و ذلك بتملكك من الله تعالى-إلا نفسه و اذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها و ضيعتها بالكفر و المعصيه فقد خسر في هذه المعامله التي اقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك، و أما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذبا و افتراء ليس له وجود في الخارج من اوهامهم و مزاعمهم التي زيّنتها لهم الأهواء و الهوسات الدنيويه و بانطواء بساط الحياه الدنيا يزول و ينمحي تلك الاوهام و يضل ما لاح و استقر فيها من الكذب و الافتراء و يومئذ يعلمون ان الله هو الحق المبين، و يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله تعالى: لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْمَآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسِرُونَ عن الفراء: أن «لَا جَرَمَ» في الاصل بمعنى لا بد و لا محاله ثم كثرت فحولت الى معنى القسم و صارت بمعنى «حقا» و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا. انتهى، و قد ذكروا أن «جَرَمَ» بفتحين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظه «لا محاله» و تفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع إن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى في «لا محاله» فمعنى الآية على هذا: حقا إنهم في الآخرة هم الأخسرون.

و وجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبه الى غيرهم من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها و إضاعتها بالكفر و العناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا و يسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد، قال

تعالى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام/١٢). وقال تعالى في هؤلاء المختوم على سمعهم و أبصارهم و قلوبهم: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (يس/١٠). و قال أيضا في سبب عدم إمكان إيمانهم: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ (الجاثية/٢٣).

و ان فرض أنهم أخسر بالنسبة الى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم و صداهم عن سبيل الله حرموا سعادته الحياه التي يمهدا لهم الدين الحق فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمه مخلده و أما الدنيا فليست إلا قليلا، قال تعالى: كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (الأحقاف/٣٥).

على أن الأعمال تشتد و تتضاعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى: وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (الإسراء/٧٢)، و أحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآيه حصر الأخرين فيهم دون إثبات أخسريتهم في الآخرة قبال الدنيا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَيْسَ آخِرُ الْأَيَّامِ؛ قال الراغب في المفردات: الخبت المطمئن من الأرض و أختب الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل و أنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين و التواضع قال الله تعالى:

و أخبتوا الى ربهم، و قال: و بشر المخبتين أى المتواضعين نحو لا- يستكبرون عن عبادته، و قوله: فتخبت له قلوبهم أى تلين و تخشع. انتهى.

فالمراد بإخباتهم الى الله اطمئنانهم اليه بحيث لا يتزلزل ما فى قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون و لا يرتابون كالأرض المطمئنه التي تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل ان الأصل، أخبتوا لربهم فإن ما فى معنى الاطمئنان يتعدى يالى دون اللام.

و تقييده تعالى الإيمان و العمل الصالح بالإخبار اليه يدل على أن المراد بهم طائفه خاصه من المؤمنين و هم المطمئنون منهم الى الله ممن هم على بصيره من ربهم، و هو الذى أشرنا اليه فى صدر الآيات عند قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ» الخ؛ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس و هم أهل البصيره الإلهيه و من عميت عين بصيرته.

قوله تعالى: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْمَأْعَمِيِّ وَالْمَأْصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ المثل هو الوصف، و غلب فى المثل السائر و هو بيان معنى من المعانى الخفيه على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه و يتلقاه فهمه لينتقل به الى المعنى المعقول المقصود بيانه، و المراد بالفريقين من بين حالهما فى الآيات السابقه، و الباقي واضح.

## [سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٣٥]

### اشاره

وَ لَعَدَّ أَرْسَالَنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلِمِ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَ مَا تَرَاكَ إِلَّا تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَىٰ الرَّأْيِ وَ مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ مِنْ رَبِّي وَ مَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ مَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤَيَّتَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيَاحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِيحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» القراءه المعروفه «إني» بكسر الهمزه على تقدير القول و قرئ أنى بفتح الهمزه بنزع الخافض و التقدير بأنى لكم نذير مبین، و الجملة أعنى قوله: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» على أى حال بيان إجمالى لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به اليهم إنذار مبین فهو نذير مبین.

فكما أنه لو قال: ما سألقيه اليكم من القول إنذار مبین كان بيانا لجميع ما أرسل به اليهم بأوجز كلمه كذا قوله: إني لكم نذير مبین بيان لذلك بالإجمال غير أنه يزيد على سابقه بيان

سمه نفسه و هي أنه رسول من الله اليهم لينذرهم بعذاب الله، وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطه يحمل الرساله.

قوله تعالى: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

بيان ثان لما ارسل به او بيان لقوله: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» و مآل الوجهين واحد، و أن على أى حال مفسره، و المعنى أن محصل رسالته النهى عن عباده غير الله تعالى من طريق الإنذار و التخويف.

و الظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة او الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَنْتَ أَكْثَرُ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» الآيه؛ فإنه ظاهر فى عذاب الاستئصال.

فهو عليه السلام كان يدعوهم الى رفض عباده الأوثان و يخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم اى مؤلم و نسبه الإيلام الى اليوم دون العذاب فى قوله: «عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» من قبيل وصف الظرف بصفه المظروف.

و بما تقدم يندفع ما ربما قيل: إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه فى خوفه عليه السلام من تعذيبهم المقطوع؟ و الخوف إنما يستقيم فى محتمل الوقوع لا مقطوعه.

و بالجمله كان عليه السلام يدعوهم الى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب، و إنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذى خلقهم و دبّر شئون حياتهم و أمور معاشهم بخلق السماوات و الأرض و إشراق الشمس و القمر و إنزال الأمطار و إنبات الأرض و إنشاء الجنات و شق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه عليه السلام فى سوره نوح.

و إذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه و ليعبدوه وحده.



المفردات: الرذل-بفتح الراء-و الرذال-بكسرها-المرغوب عنه لرداءته قال تعالى «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ» وقال «إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ» وقال «قَالُوا أُنُومٌ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ» جمع الأردل.

وقال فى المجمع: الرذل الخسيس الحقير من كل شىء و الجمع اردل ثم يجمع على ارادل كقولك: كلب و اكلب و كالب و، ويجوز ان يكون جمع الأردل فيكون مثل اكابر جمع اكبر.

وقال: و الرأى الرؤيه من قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» أى رؤيه العين و الرأى ايضا ما يراه الإنسان فى الأمر و جمعه آراء. انتهى.

وقال فى المفردات: و قوله: «بِآدِي الرَّأْيِ» أى ما يبدأ من الرأى و هو الرأى الفطير، و قرئ: بآدى بغير همزه أى الذى يظهر من الرأى و لم يتروّ فيه. انتهى.

وقوله: «بِآدِي الرَّأْيِ» يحتمل أن يكون قيذا لقوله: «هُمْ أَرَادْنَا» أى كونهم أراذل و سفله فينا معلوم فى ظاهر الرأى و النظر او فى اول نظره.

و يحتمل كونه قيذا لقوله: «اتَّبَعَكَ» أى اتبعوك فى ظاهر الرأى او فى اوله من غير تعمق و تفكر و لو تفكروا قليلا و قلبوا أمرك ظهرا لبطن ما اتبعوك، و هذا الاحتمال لا- يستغنى عن تكرار الفعل ثانيا و التقدير: اتبعوك بآدى الأمر و إلا اختل المعنى لو لم يتكرر و قيل: ما نراك اتبعك بآدى الرأى إلا الذين هم أراذنا. و بالجملة معنى الآية: أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل و الأخساء من القوم و لو اتبعناك ساويناهم و دخلنا فى زمرتهم و هذا ينافى شرافتنا و يحط قدرنا فى المجتمع، و فى الكلام إيماء الى بطلان رسالته عليه السلام بدلاله الالتزام فإن من معتقدات العامه أن القول لو كان حقا نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أولو القوه و الطول فلو استنكفوا عنه او اتبعه الأخساء و الضعفاء كالعيبد و المساكين و الفقراء ممن لا حظ له من مال او جاه و لا مكانه له عند العامه فلا خير فيه.

وقوله: **وَ مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ** المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيوى يختصون بالتنعم به او شىء من الامور الغيبية كعلم الغيب او التأيد بقوه ملكوتيه و ذلك لكون النكره-فضل-واقعه فى سياق النفى فتفيد العموم.

وقد أشركوا أتباع نوح عليه السّلام و المؤمنين به منهم فى دعوته إذ قالوا «و لا نرى لكم علينا» و لم يقولوا «و لا نرى لك» لأنهم كانوا يحثونهم و يرغبونهم فى اتباع ما اتبعوه من الطريقه.

و المعنى أن دعوتكم إيانا-و عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياه الدنيا كالمال و البنين و العلم و القوه-إنما يستقيم و يؤثر أثره لو كان لكم شىء من الفضل تفضلون به علينا من زينه الحياه الدنيا او علم من الغيب او قوه من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعا منا لكم و لا نرى شيئا من ذلك عندكم فأى موجب يوجب علينا اتباعكم؟

و إنما عممنا الفضل فى كلامه للفضل من حيث الجهات الماديه و غيره كعلم الغيب و القوه الملكوتيه خلافا لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادى كالمال و الكثره و غيرهما، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكره فى سياق النفى.

مضافا الى أن ما يحاذى قولهم هذا من جواب نوح عليه السّلام يدل على ذلك و هو قوله: **«و لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ»** الخ؛ على ما سيأتى.

وقوله تعالى: **بَلْ نَحْنُكُمْ كَاذِبِينَ** إضراب فى الاحتجاج كما تقدمت الإشارة اليه فمحصله انا لا نرى معكم امرا يوجب اتباعنا لكم بل هناك امر يوجب عدم الاتباع و هو انا نظنكم كاذبين.

و معناه على ما يعطيه السياق-و الله اعلم-انه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحه دعوتكم و إنكم تلحون علينا بالسمع و الطاعه و انتم صفر الأيدى من مزايا الحياه من مال و جاه و هذه الحال تستدعى الظن بأنكم كاذبون فى دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من امانى الحياه بهذه الوسيله و بالجمله هذه اماره توجب عاده الظن بأنها اكذوبه يتوسل بها الى





مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَدْتُهُمْ» الخ؛ فتدبر فيها.

فقوله: قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ:

«مَا تَزَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا» يريدون به أنه ليس معه إلا البشرية التي يماثلهم فيها و يماثلونه فبأى شيء يدعى وجوب اتباعهم له؟ بل هو كاذب يريد بما يدعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم و يترأس عليهم.

و إذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفى رسالته و سندهم فى ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه فى دعوى الرسالة و هو الآيه المعجزه الداله على صدق الرسول فى دعوى الرسالة فإن الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعاده الجاربه لا طريق الى العلم بتحقيقه إلا بوقوع امر غيبى آخر خارق للعاده يوقن به كون الرسول صادقا فى دعواه الرسالة، و لذلك اشار عليه السلام بقوله:

«يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي» الى أن معه بينه من الله و آيه معجزه تدل على صدقه فى دعواه.

و قوله: وَ أَنَا بِي رَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ الظاهر انه عليه السلام يشير به الى ما آتاه الله تعالى من الكتاب و العلم، و قد تكرر فى القرآن الكريم تسميه الكتاب و كذا تسميه العلم بالله و آياته رحمه قال تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً (هود/١٧)، و قال: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً (النحل/٨٩)، و قال:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا (الكهف/٦٥) و قال: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (آل عمران/٨).

و أما قوله: فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ فالظاهر ان ضميره راجع الى الرحمه، و المراد أن ما عندى من العلم و المعرفه اخفاها عليكم جهلكم و كراحتكم للحق بعد ما ذكرتكم به و بثته فيكم.

وقوله: أُنزِلْكُمْ مَوْتًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفك منه، والمراد بإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون إجبارهم على الإيمان بالله وآياته والتلبس بما يستدعيه المعارف الإلهية من النور والبصيرة.

ومعنى الآية-والله اعلم-أخبروني إن كانت عندي آية معجزه تصدق رسالتي مع كوني بشرا مثلكم و كانت عندي ما تحتاج اليه الرسالة من كتاب و علم يهديكم الى الحق لكن لم يلبث دون ان اخفاه عليكم عنادكم و استكباركم أ يجب علينا عندئذ ان نجبركم عليها؟اي عندي جميع ما يحتاج اليه رسول من الله في رسالته و قد أوقفتمكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغيانا و استكبارا و ليس عليّ ان أجبركم عليها، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا- إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا- عَلَى اللَّهِ يَرِيدُ بِهِ الْجَوَابِ عَمَّا اتَّهَمُوهُ بِهِ مِنَ الْكُذْبِ وَ لَازِمُهُ أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ طَرِيقًا إِلَى جَلْبِ أَمْوَالِهِمْ وَ اخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ طَمَعًا فِيهِ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْأَلِهِمْ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَتَّهَمُوهُ بِذَلِكَ.

قوله تعالى: وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ جَوَابِ عَنْ قَوْلِهِمْ: «وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِي الرَّأْيِ» وَ قَدْ بَدَلَ لَفْظَهُ الْأَرَادِلَ- وَ هِيَ لَفْظُهُ إِرْزَاءٌ وَ تَحْقِيرٌ- مِنْ قَوْلِهِ: الَّذِينَ آمَنُوا تَعْظِيمًا لِأَمْرِ إِيْمَانِهِمْ وَ إِشَارَةٌ إِلَى ارْتِبَاطِهِمْ بِرَبِّهِمْ.

نفى في جوابه ان يكون يطردهم و علل ذلك بقوله: «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» إِيْدَانًا بِأَنْ لَهُمْ يَوْمًا يَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فِيحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِيجَازِيهِمْ عَلَى مَا عَمَلُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فحاسبهم على ربهم و ليس لغيره من الأمر شيء، فليس على نوح عليه السلام ان يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء و المساكين و الضعفاء ان يطردوا من مجتمع الخير و يسلبوا النعمة و الشرافة و الكرامة.

فظهر ان المراد بقوله: «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» الإِيْمَانُ إِلَى مَحَاسِبِهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِيَاهُمْ

يوم يرجعون فيه اليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام ٥٧).**

قوله تعالى: **وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** النصر مضمّن معنى المنع او الانجاء و نحوهما و المعنى من يمنعنى أو من ينجينى من عذاب الله إن طردتهم أفلا تتذكرون أنه ظلم، و الله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم و ينتقم منه، و العقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوى بين الظالم و المظلوم، و لا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوءه و يشفى به غليل صدر المظلوم و الله عزيز ذو انتقام.

قوله تعالى: **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكُكُمْ جَوَابٍ عَنْ قَوْلِهِمْ: «وَلَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ»** يرد عليهم قولهم بأننى لست أدعى شيئاً من الفضل الذى تتوقعون منى أن أدعيه بما أنى أدعى الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهيه فيستقل بإغناء الفقير و شفاء العليل و إحياء الموتى و التصرف فى السماء و الأرض و سائر أجزاء الكون بما شاء و كيف شاء.

و أن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه الى نفسه، و يدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه و بالجمله يستكثر من الخيرات و يصاب من المكاره.

و أن يرتفع عن درجه البشريه الى مقام الملكيه أى يكون ملكاً منزهاً من ألوان الطبيعه و مبرى من حوائج البشريه و نقائصها فلا يأكل و لا يشرب و لا ينكح و لا يقع فى تعب اكتساب الرزق و اقتناء لوازم الحياه و أمتعتها.

فهذه هى جهات الفضل التى تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها و يمتلكها فيستقل بها، و قد أخطأتم فليس للرسول إلا الرساله و إنى لست أدعى شيئاً من ذلك فلا أقول لكم عندى

خزائن الله و لا- أعلم الغيب و لا أقول إني ملك، و بالجمله لست أدعى شيئاً من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقده، و إنما أقول إني على بينه من ربي تصدق رسالتي و آتاني رحمه من عنده.

و المراد بقوله: خَزَائِنُ اللَّهِ جميع الذخائر و الكنوز الغيبية التي ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون اليه في وجودهم و بقائهم و يستعينون به على تتميم نقائصهم و تكميلها.

فهايتيك هي التي ترعم العامه أن الأنبياء و الأولياء يؤتون مفاتيحها و يمتلكون بها من القدره ما يفعلون بها ما يشاءون و يحكمون ما يريدون كما اقترح على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و قد حكاه الله تعالى إذ يقول: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسَ فَا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٣).

و إنما قال: وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ و لم يقل: و لا أقول إني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضمن به و لا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل: لا- أقول إني أعلم الغيب نافيا لوجوده عند القائل بل يحتاج الى أن يقال: لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله:

وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ قَوْلُهُ: وَ لَا أَقُولُ إني مَلِكٌ، و لم يكرر قوله: لَكُمْ لحصول الكفايه بالواحد.

و قد أمر الله سبحانه نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم قومه ثم ذبله بما يظهر به المراد إذ قال: قُلْ لَا- أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا- أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إني مَلِكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَمْ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (الأنعام ٥٠).

انظر الى قوله: لَا أَقُولُ لَكُمْ الْخ؛ ثم الى قوله: «إِنْ أَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» ثم الى قوله: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ» الخ؛ فهو ينفى أولاً- الفضل الذى يتوقعه عامه الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول رساله فحسب ثم يبادل الى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجبهه التى يتوقعها الناس و هو أنه بصير بإبصار الله تعالى و أن غيره بالنسبه اليه كالأعمى بالنسبه الى البصير و هذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتبع الأعمى البصير، و هو المجوز له أن يدعوهم الى اتباعه (١).

قوله تعالى: وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالَ فِي المفردات: زريت عليه عبه و أزريت به قصدت به و كذلك ازدريت به و أصله افتعلت قال: تزدري أعينكم أى تستقلهم تقديره تزدريهم أعينكم أى تستقلهم و تستهين بهم. انتهى.

و هذا الفصل من كلامه عليه السلام إشاره الى ما كان يعتقدہ الملاء الذين كفروا من قومه و بنوا عليه سنه الاشرافيه و طريقه السيادة، و هو أن أفراد الإنسان تنقسم الى قسمين الأقوياء و الضعفاء، أما الأقوياء فهم أولو الطول و أرباب القدره المعتضدون بالمال و العده، و أميا الضعفاء فهم الباقون. و الأقوياء هم الساده فى المجتمع الانسانى لهم النعمه و الكرامه، و لأجلهم انعقاد المجتمع، و غيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضحى منافعهم كالرعيتہ بالنسبه الى كرسى الحكومه المستبدہ، و العبيد بالنسبه الى الموالى، و الخدم و العمله بالنسبه الى المخدمين و النساء بالنسبه الى الرجال، و بالأخره كل ضعيف بالنسبه الى القوى المستعلى عليه.

و بالجمله كان معتقدہم أن الضعيف فى المجتمع إنسان منحط أو حيوان فى صورہ إنسان

ص: ١٣٦

١- (١). هود ٢٥-٣٥: كلام فى قدره الانبياء و الاولياء فلسفى و قرآنى.

إنما يرد داخل المجتمع و يشاركهم فى الحياه ليستفيد الشريف من عمله و ينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامه مطرود عن حظيره الشرافه آيس من الرحمه و العنايه.

فهذا هو الذى كانوا يرونه □ كان هو المعتمد عليه فى مجتمعهم، و قد ردّ نوح عليه السّلام ذلك إليهم بقوله: «وَأَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» .

□ ثمّ بيّن خطأهم فى معتقدهم بقوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ» أى إن أعينكم إنما تزدريهم و تستحقّهم و تستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم و هوانهم، و ليس هو الملاك فى إحراز الخير و نيل الكرامه بل الملاك فى ذلك و خاصّه الكرامات و المثوبات الإلهيه أمر النفس و تحلّيها بحلّى الفضيله و المنقبه المعنويه، و لا طريق لى و لا لكم الى العلم ببواطن النفوس و خبايا القلوب إلاّ لله سبحانه فليس لى و لا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير و السعاده.

□ ثمّ بيّن بقوله: «إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» السبب فى تحاشيه عن هذا القول و معناه أنه قول بغير علم، و تحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافا من غير دليل ظلم لا ينبغى أن يرومه الانسان فيدخل بذلك فى زمره الظالمين.

□ و هذا المعنى هو الذى يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطابا لهؤلاء الطاغين إذ يقول: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ و مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ □ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ (الأعراف ٤٩).

□ و فى الكلام أعنى قول نوح عليه السّلام «وَأَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ» الخ؛ تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرمون على ضعفاء المجتمع المزاي الحيويه الاجتماعيه كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامه الدينيه و يقولون: إنهم لا يسعدون بدين و إنما يسعد به أشراف

المجتمع و أقوياءوهم، وفيه أيضا تعريض بأنهم ظالمون.

و إنما عقب نوح عليه السلام قوله: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» و هو ينفى فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في الرسول عن نفسه، بقوله: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» الخ؛ مع أنه راجع الى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن المألأ الحقوهم به في قولهم: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» .

و توضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتباعنا لك و لمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا و لا نرى لكم علينا من فضل أميا أنت فليس معك ما يختص به الرسول من قدره ملكوته أو علم بالغيب أو أن تكون ملكا منزها من ألوات المادّه و الطبيعه، و أما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامه الانسانيه المحرومون من الرحمه و العنايه.

فأجاب عنهم نوح بما معناه: أمّا أنا فلا أدعى شيئا مما تتوقعون من رسالتى فليست للرسول إلا الرساله و أما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضلا فهو أعلم بأنفسهم، و ملاك الكرامه الدينيه و الرحمه الإلهيه زكاء النفس و سلامه القلب دون الظاهر الذى تزدريه أعينكم فلست أقول: لن يؤتيهم الله خيرا، فإنه ظلم يدخلنى فى زمرة الظالمين.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ» كلام القوه الى نوح عليه السلام بعد ما عجزوا عن دحض حجته و إبطال ما دعا إليه من الحق، و هو مسوق سوق التعجيز و المراد بقولهم: «بِمَا تَعِدُنَا» ما أنذرهم به فى أوّل دعوته من عذاب يوم أليم.

و المعنى -و الله أعلم- يا نوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب، و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل



يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعى الآيس من السمع و الطاعه و هو الشر الذى يهددهم به و يذكره وراء نصحه.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لَمَا كَانَ قَوْلِهِمْ: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» الخ؛ طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب و ليس ذلك اليه وإنما هو رسول، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضا- فى سياق قصر القلب- أن الإتيان بالعذاب ليس إلى بل إنما هو الى الله فهو الذى يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذى وعدتكموه بأمره فهو ربكم و اليه مرجع أمركم كله، و لا يرجع إلى من أمر التدبير شىء حتى أن وعدى إياكم بالعذاب و اقتراحكم على بطلبه لا يؤثر فى ساحه كبريائه شيئا فإن يشأ يأتيكم به و إن لم يشأ فلا.

و من هنا يظهر أن قوله عليه السلام: «إِنْ شَاءَ» من أطف القیود فى هذا المقام أفيد به حق التنزيه و هو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شىء و لا يقهره قاهر يفعل ما يشاء و لا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتى فى آخر السوره من الاستثناء فى قوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (هود ١٠٨).

و قوله: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» تنزيه آخر لله سبحانه و هو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزى الذى ألقوه اليه عليه السلام فإن ظاهره أنهم لا يعبتون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم.

قوله تعالى: وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ الخ؛ قال فى المفردات: النصح تحرى فعل او قول فيه صلاح صاحبه -قال- و هو من قولهم: نصحت له الود أى أخلصته و ناصح العسل خالصه او من قولهم:

نصحت الجلد خطته و الناصح الخياط و الناصح الخيط.

و قال أيضا: الغى جهل من اعتقاد فاسد، و ذلك أن الجهل قد يكون من الانسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا، و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد، و هذا النحو الثانى

يقال له غيى قال تعالى: مَا ضَلَّ لِصَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وقال: وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ .

انتهى.

و على هذا فالفرق بين الإغواء و الإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد فى ذكر الضال، و الإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلا.

و الإرادة و المشيه كالمترادفتين، و هى من الله سبحانه تسبب الأسباب المؤديه لوجود شىء بالضروره فكون الشىء مرادا له تعالى أنه تم أسباب وجوده و أكملها فهو كائن لا محاله، و أما اصل السببيه الجاربه فهى مراده بنفسها و لذا قيل: خلق الله الأشياء بالمشيه و المشيه بنفسها.

و بالجمله قوله: وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي الْخ؛ كأحد شقى الترييد و الشق الآخر قوله: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» كأنه عليه السلام يقول: أمركم الى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب و لا يدفع عذابه و لا يقهر مشيته شىء فلا أنتم معجزوه، و لا نصحى ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمه العذاب، و قيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

و الإغواء كالإضلال و إن لم يجز نسبته الىه تعالى اذا كان إغواء ابتدائيا لكنه جائز اذا كان بعنوان المجازاه كأن يعصى الإنسان و يستوجب به الغوايه فيمنعه الله أسباب التوفيق و يخليه و نفسه فيغوى و يضل عن سبيل الحق، قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

و فى الكلام إشاره الى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبق بالإغواء الإلهى كما يلوح اليه قوله تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (الإسراء ١٦)، و قال: وَ قَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (حم السجده ٢٥).

ص: ١٤٠

و قوله: هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تعليل لقوله: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي» الخ؛ أو لقوله: «إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» -الى قوله- يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» جميعا و محصله أن أمر تدبير العباد الى الرب الذى اليه يرجع الامور، و الله سبحانه هو ربكم و إليه ترجعون فليس لى أن آتاكم بعذاب موعود، و ليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم و ليس لنصحى أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ أصل الجرم-على ما ذكره الراغب فى مفرداته- قطع الثمره من الشجره و أجرم أى صار ذا جرم، و استعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم و فتحها بمعنى الاكتساب المكروه و هو المعصيه، و الآيه، واقعه موقع الاعتراض، و النكته فيه أن دعوه نوح و احتجاجاته على وثنيه قومه و خاصه ما أورده الله تعالى فى هذه السوره من احتجاجه أشبه شىء بدعوه النبی صلی الله علیه و آله و سلم، و احتجاجه على وثنيه أمته.

و إن شئت زياده تصديق فى ذلك فارجع الى سوره الأنعام- و هى فى الحقيقه سوره الاحتجاج- و قابل ما حكاه الله تعالى عن نوح فى هذه السوره ما أمر الله به النبی صلی الله علیه و آله و سلم فى تلك السوره بقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ» -الى أن قال- وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ - الى أن قال - قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» .

و لك أن تطبق سائر ما ذكر من حججه عليه السیلام فى سوره نوح و الأعراف على ما ذكر من الحجج فى سوره الأنعام و فى هذه السوره فتشاهد صدق ما ادعينا.

و فى قوله: وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ إثبات إجرام مستمر لهم و قد أرسل إرسال المسلمات كما فى قوله: «فَعَلَىٰ إِجْرَامِي» من إثبات الجرم و ذلك أن الذى ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إن نوحا عليه السیلام لم يحتج بهذه الحجج و هى حقّه،

لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعه لا تقبل الكذب و هي تثبت لهؤلاء الكفار إجراما مستمرا في رفض ما يهديهم اليه من الإيمان و العمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعاً، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم مجرم لا قطعاً بل على تقدير أن يكون مفترياً و ليس بمفتر.

## [سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٤٩]

### اشاره

وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَ اصْبِرْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورَ قُلْنَا إجْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَ قَالَ إِرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ إِرْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَيَأْوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَ قِيلَ بُعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَ نَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِن وَعِيدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمُنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَىٰ أُمَّةٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّةٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)



قوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ الابتئاس من البؤس وهو حزن مع استكانه.

وقوله: لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ إِيثاس وإقناط له عليه السلام من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك، ولذلك فرّج عليه قوله: «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» لأن الداعى الى أمر إنما يبتئس ويغتمّ من مخالفه المدعوين و تمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان والاستجابة لدعوته، و أما إذا يئس من إجابتهم فلا يهتم بهم ولا يتعب نفسه فى دعوتهم الى السمع والطاعة والإلحاح عليهم بالإقبال اليه و لو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحججه و إبراز المعذره.

و على هذا ففى قوله: فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تسليه من الله لنحو عليه السلام و تطيب لنفسه الشريفه من جهه ما فى الكلام من الإشاره الى حلول حين فصل القضاء بينه و بين قومه، و صيانه لنفسه من الوجد و الغم لما كان يشاهد من فعلهم به و بالمؤمنين به من قومهم من إيدائهم إياهم فى دهر طويل (مما يقرب من ألف سنه) لبث فيه بينهم.

قوله تعالى: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ الفلك هى السفينه مفردها و جمعها واحد و الأعين جمع قله للعين و إنما جمع للدلاله على كثره المراقبه و شدتها فإن الجملة كناية عن المراقبه فى الصنع.

و ذكر الأئين قرينه على أن المراد بالوحى ليس هو هذا الوحى أعنى قوله: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» الخ؛ حتى يكون وحيا للحكم بل وحى فى مقام العمل و هو تسديد و هدايه عمليه بتأييده بروح القدس الذى يشير اليه أن افعل كذا و افعل كذا كما ذكره تعالى فى الأئمه من آل ابراهيم عليهم السلام بقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا

لِلْعَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣) وقد تقدمت الاشاره اليه في المباحث السابقه و سيجىء ان شاء الله في تفسير الآيه.

و قوله: «وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا اى لا تسألنى فى امرهم شيئاً تدفع به الشر و العذاب و تشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل و الحكم حتم و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ» فى محل التعليل لقوله: «وَلَا تُخَاطِبُنِي» الخ؛ او لمجموع قوله:

«وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» و يظهر ايضا أن قوله: «وَلَا تُخَاطِبُنِي» الخ؛ كناية عن الشفاعة.

و المعنى: و اصنع السفينه تحت مراقبتنا الكامله و تعليمنا إياك و لا تسألنى صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضى عليهم الغرق قضاء حتم لا مرد له.

قوله تعالى: «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّخْرًا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسِيخْرُونَ قَالَ فى المجمع: السخرية إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل، و منه التسخير لتدليل يكون استضعافا بالقهر، و الفرق بين السخرية و اللعب أن فى السخرية خديعه و استنقاصا و لا تكون إلا فى الحيوان و قد يكون اللعب بجماد، انتهى.

و قال الراغب فى المفردات: سخرت منه و استسخرته للهزاء منه قال تعالى «إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسِيخْرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» «يَلْ عَجِبْتَ وَ يَسِيخْرُونَ» و قيل: رجل سخره-بالضم فالفتح-لمن سخر و سخره-بالضم فالسكون-لمن يسخر منه، و السخرية-بالضم-و السخرية-بالكسر-لفعل الساخر، انتهى.

و قوله: «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ» حكاية الحال الماضيه يمثل بها ما يجرى على نوح عليه السلام من إيذاء قومه و قيام طائفه منهم بعد طائفه على إهانته و الاستهزاء به فى عمل السفينه و صبره عليه فى جنب الدعوه الإلهيه و إقامه الحجه عليهم من غير ان يفشل و يثنى.

وقوله: **كَلِمًا مَّرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّئًا** مِنْهُ حَالٌ مِنْ فاعِلٍ يصنع و المَلَأَ هَاهُنَا الجَمَاعَةَ الَّذِينَ يَعْأُ بِهِمْ، وَ فِي الكَلَامِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَهُ وَ هُوَ يَصْنَعُ الفَلَكَ جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ بِالْمَرُورِ عَلَيْهِ سَاخِرِينَ، وَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَصْنَعُهَا فِي مَرَأَى مِنْهُمْ وَ مَمَرَّ عَامًا.

و قوله: **قَالَ إِنَّ تَسِيخَرُوا مِمَّا فَإِنَّا نَسِيخَرُ مِنْكُمْ** كَمَا تَسِيخَرُونَ فِي مَوْضِعِ الجَوَابِ لِسؤالٍ مَقْدَرٍ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: فَمَا ذَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَقِيلَ «قَالَ إِنَّ تَسِيخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخَرُ مِنْكُمْ» وَ لَذَا فَصَلَ الكَلَامَ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ.

وَ لَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ تَسِيخَرُوا مِنِّي فَإِنِّي أُسِيخَرُ مِنْكُمْ لِيُدْفَعَ بِهِ عَنِ نَفْسِهِ وَ عَنِ عَصَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَ كَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَمِدُّ مِنْ أَهْلِهِ وَ أَتْبَاعِهِ فِي ذَلِكَ وَ كَانُوا يَشَارُكُونَهُ فِي عَمَلِ السَّفِينَةِ وَ كَانَتِ السَّخْرِيَّةُ تَتَنَاوَلُهُمْ جَمِيعًا فَظَاهَرَ الكَلَامُ أَنَّ المَلَأَ كَانُوا يُوَاجِهُونَ نُوحًا وَ مِنْ مَعَهُ فِي عَمَلِ السَّفِينَةِ بِسَخْرِيَّةِ نُوحٍ وَ رَمِيَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالخَيْلِ وَ الجُنُونِ فَيَشْمَلُ هَزْوَهُمْ نُوحًا وَ مِنْ مَعَهُ وَ إِنْ كَانُوا لَمْ يَذْكُرُوا فِي هَزْوِهِمْ إِلَّا نُوحًا فَقَطْ.

عَلَى أَنَّ الطَّبْعَ وَ العَادَةَ يَقْضِيَانِ أَنَّ يَكُونُوا يَسِيخَرُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِ أَيْضًا كَمَا كَانُوا يَسِيخَرُونَ مِنْهُ فَهَمَّ أَهْلُ مَجْتَمَعٍ وَاحِدٍ تَرْتَبُ المَعَاشِرَةَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَ إِنْ كَانَتِ سَخْرِيَّتُهُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ سَخْرِيَّةً مِنْهُ فِي الحَقِيقَةِ لِأَنَّهُ هُوَ الأَصْلُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الدَّعْوَةُ، وَ لَذَا قِيلَ «سَيِّئًا مِنْهُ» وَ لَمْ يَقُلْ: سِيخَرُوا مِنْهُ وَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَ السَّخْرِيَّةُ وَ إِنْ كَانَتِ قَبِيحَةً وَ مِنَ الجَهْلِ إِذَا كَانَتِ ابْتِدَائِيَّةً لَكِنَّهَا جَائِزَةٌ إِذَا كَانَتِ مَجَازًا وَ بِعِنَاوَانِ المَقَابَلَةِ وَ خَاصَّةً إِذَا كَانَتِ تَتَرْتَبُ عَلَيْهَا فَائِدَةٌ عَقْلَانِيَّةً كإِنْفَاذِ العَزِيمَةِ وَ إِتْمَامِ الحُجَّةِ، قَالَ تَعَالَى: **فَيَسِيخَرُونَ مِنْهُمْ سَيِّئًا** اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبة ٧٩)، وَ يَدُلُّ عَلَى اعْتِبَارِ المَجَازِ وَ المَقَابَلَةِ بِالمِثْلِ فِي الآيَةِ قَوْلُهُ: «كَمَا تَسِيخَرُونَ» .

قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ**



مُقِيمٌ السياق يقضى أن يكون قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تفريعاً على الجملة الشرطية السابقة «إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» و تكون الجملة المتفرعة هو متن السخرية التي أتى بها نوح عليه السلام، و يكون قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛ متعلقاً بتعلمون على أنه معلوم العلم.

و المعنى: ان تسخروا منا فإننا نسخر منكم فنقول لكم: سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن او انتم؟ و هذه سخرية بقول حق.

و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا و هو الغرق الذي أخزاهم و أذلهم، و المراد بقوله: «وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» اى ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق، هو عذاب النار في الآخرة، و الدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذي في الدنيا و الثانى هو عذاب الآخرة هو المقابلة و تكرر العذاب-منكراً-فى اللفظ و توصيف الأول بالإخزاء و الثانى بالإقامة.

و ربما أخذ بعضهم قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تاماً من غير ذكر متعلق العلم و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛ ابتداءً كلام من نوح عليه السلام و هو بعيد عن السياق.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ» الى آخر الآية؛ يقال: فار القدر يفور فوراً و فوراناً اذا غلا و اشتد غليانه، و فارت النار اذا اشتعلت و ارتفع لهيبها، و التَّنُّورُ تنور الخبز، و هو مما انفقت فيه اللغتان: العربية و الفارسية او الكلمه فارسيه فى الاصل.

و فوران التَّنُّورِ نبع الماء و ارتفاعه منه، و قد ورد فى الروايات: أن أول ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنور، و على هذا فاللام فى التَّنُّورِ للعهد يشار بها الى تنور معهود فى الخطاب، و يحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم: «حمى الوطيس» اذا اشتدّ الحرب.

فقوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ» أى كان الأمر على ذلك حتى اذا جاء

أمرنا أى تحقّق الأمر الربوبىّ و تعلّق بهم و فار الماء من التّور أو اشتدّ غضب الربّ تعالى قلنا له كذا و كذا.

و فى التّور أقوال آخر بعيدة من الفهم كقول من قال: إن المراد به طلوع الفجر و كان عند ذلك أوّل ظهور الطوفان، و قول بعضهم: إن المراد به أعلى الأرض و أشرفها أى انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة و وجود الارض، و قول آخرين: إن التور وجه الأرض هذا.

و قوله: قُلْنَا اْحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى أمرنا نوحا عليه السّلام أن يحمل فى السفينه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين و هى الذكر و الانثى.

و قوله: وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أى و احمل فيها أهلك و هم المختصون به من زوج و ولد و أزواج الأولاد و أولادهم إلا من سبق عليه قولنا و تقدّم عليه عهدنا أنه هالك، و كان هذا المستثنى زوجته الخائنه التى يذكرها الله تعالى فى قوله:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا (التحریم ١٠). و ابن نوح الذى يذكره الله تعالى فى الآيات التالیه و كان نوح عليه السّلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بين الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله و أنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا.

و قوله: وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ أى و احمل فيها من آمن بك من قومك غير اهلك لأن من آمن به من اهله أمر بحمله بقوله: «وَ أَهْلَكَ» و لم يؤمن به من القوم إلا قليل.

فى قوله: وَ مَا آمَنَ مَعَهُ دون ان يقال: و ما آمن به تلويح الى أن المعنى: و ما آمن بالله من نوح إلا قليل، و ذلك انسب بالمقام و هو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق، و الملاك فيه هو الإيمان بالله و الخضوع لربوبيته، و كذا فى قوله: «إِلَّا قَلِيلٌ» دون أن يقال: إلا قليل منهم بلوغا فى استقلالهم أن من آمن كان قليلا فى نفسه لا بالقياس الى القوم فقد كانوا

فى نهايه القله.

قوله تعالى: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ قَرَأَ مَجْرَاهَا بِفَتْحِ الْمِيمِ وَهُوَ مَجْرَى السَّفِينَةِ وَ سِيرَهَا، وَ مَجْرَاهَا بِضَمِّ الْمِيمِ وَهُوَ إِجْرَاءُ السَّفِينَةِ وَ سِيَاقَهَا، وَ مَرَسَاهَا بِضَمِّ الْمِيمِ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ مُرَادِفٌ الْإِرْسَاءِ، وَ الْإِرْسَاءُ الْإِثْبَاتُ وَ الْإِيقَافُ، قَالَ تَعَالَى: وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (النازعات ٣٢).

وقوله: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «جَاءَ أَمْرُنَا» أَيْ حَتَّى إِذَا قَالَ نُوحٌ، السَّخُّ، وَ خُطَابُهُ لِأَهْلِهِ وَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ لِجَمِيعٍ مِنْ فِي السَّفِينَةِ.

وقوله: بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا تَسْمِيَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْلِبُ بِهِ الْخَيْرُ وَ الْبِرْكَةُ لِجَرَى السَّفِينَةِ وَ إِرْسَائِهَا فَإِنَّ فِي تَعْلِيْقِ فِعْلِ مِنْ الْأَفْعَالِ أَوْ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَ رَبَطَهُ بِهِ صَيَانُهُ لَهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَ الْفُسَادِ وَ اتِّقَاءِ مِنَ الضَّلَالِ وَ الْخُسْرَانِ لِمَا أَنَّهُ تَعَالَى رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ مُنِيعُ الْجَانِبِ لَا سَبِيلَ لِلدُّثُورِ وَ الْفَنَاءِ وَ الْعَيِّْ وَ الْعِنَاءِ إِلَيْهِ فَمَا تَعَلَّقَ بِهِ مَصُونٌ لَا مُحَالَهَ مِنْ تَطَرُّقِ عَارِضِ السُّوءِ.

فهو عليه السَّلَامُ يعلِّقُ جَرَى السَّفِينَةِ وَ إِرْسَاءَهَا بِاسْمِ اللَّهِ وَ هَذَا هُمَا السَّبَبَانِ الظَّاهِرَانِ فِي نَجَاةِ السَّفِينَةِ وَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْغَرَقِ، وَ إِنَّمَا يَنْجِحُ هَذَا السَّبَبَانِ لَوْ شَمِلَتِ الْعَنَاءِ الْإِلَهِيَّةَ مِنْ رَكْبِهَا وَ إِنَّمَا تَشْمَلُ لِلْعَنَاءِ بِشُمُولِ الْمَغْفَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِخَطَايَا رُكَّابِهَا وَ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُمْ لِيَنْجُوا مِنَ الْغَرَقِ وَ يَعِيشُوا عَلَى رَسَلِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَ لِذَلِكَ عَلَّلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَسْمِيَتَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» أَيْ إِنَّمَا أَذْكَرُ اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَجْرَى سَفِينَتِي وَ مَرَسَاهَا لِأَنَّهُ رَبِّي الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، لَهُ أَنْ يَحْفَظَ مَجْرَاهَا وَ مَرَسَاهَا مِنَ الْإِخْتِلَالِ وَ التَّخْبِطِ حَتَّى نَنْجُو بِذَلِكَ مِنَ الْغَرَقِ بِمَغْفَرَتِهِ وَ رَحْمَتِهِ.

وَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ إِنْسَانٍ حَكَمَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ التَّسْمِيَةَ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ فِيمَا أَوْحَاهُ مِنْ كِتَابِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ فَاتِحِ فَتْحِ هَذَا الْبَابِ كَمَا أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ أَوَّلُ مَنْ جَاءَ

بكتاب و شريعته و أول من انتهض لتعديل الطبقات و رفع التناقض عن المجتمع الإنساني.

و ما قدمناه من معنى قوله: «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا» مبنى على ما هو الظاهر من كون الجملة تسميه من نوح عليه السّلام و المجرى و المرسى مصدرين ميمين و ربما احتمل كونه تسميه ممن مع نوح بأمره او كون مجراها و مرساها اسمين للزمان او المكان فيختلف المعنى.

قال فى الكشاف فى الآيه: يجوز أن يكون كلاما واحدا و كلامين: فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله باركبوا حالا من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله او قائلين بسم الله وقت إجرائها و وقت إرسائها إما لأن المجرى و المرسى للوقت و اما لأنهما مصدر ان كالأجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم و مقدم الحاج، و يجوز أن يراد مكانا الإجراء و الإرساء، و انتصابهما بما فى بسم الله من معنى الفعل او بما فيه من اراده القول.

و الكلامان أن يكون بسم الله مجراها و مرساها جملة من مبتدأ و خبر مقتضيه (1) أى بسم الله اجراؤها و ارساؤها، يروى أنه كان اذا أراد أن تجرى قال: بسم الله فجرت، و اذا أراد أن ترسوا قال: بسم الله فرست، و يجوز أن يقحم (2) الاسم كقوله: ثم اسم السلام عليكما و يراد بالله اجراؤها و ارساؤها.

قال: و قرئ مجراها و مرساها (3) بفتح الميم من جرى و رسى اما مصدرين او وقتين او مكانين، و قرأ مجاهد: مجراها و مرساها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين لله.

ص: ١٥٠

- 
- ١- ١). اقتضاب الكلام ارتجاله و المراد من كون الجملة مقتضيه كونها ابتدائية اى كونها كلاما ابتدائية من نوح مقطوعا عما قبله.
  - ٢- ٢). التحميم إدخال الكلمه بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف و المضاف اليه و المراد كون الاسم معترضا بين «ثم» و «السلام» و كذا بين الباء و لفظ الجلاله فى قوله: بسم الله.
  - ٣- ٣). قراءه مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب الى ابن محيصن.

قوله تعالى: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ الضمير للسفينه، و الموح اسم جنس كتمر او جمع موجه-على ما قيل-و هي قطعه عظيمه ترتفع عن جمله الماء و في الآية اشعار بأن السفينه كانت تسير على الماء و لم تكن تسبح جوف الماء كالحياتان كما قيل.

قوله تعالى: وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْرَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن ابيه و المؤمنين في مكان لا يقرب منهم، و لذلك قال «وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ» و لم يقل: و قال نوح لابنه.

و المعنى: و نادى نوح ابنه و كان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم و قال في ندائه: يا بني -بالتصغير و الإضافه دلالة على الإشفاق و الرحمة- اركب معنا السفينه و لا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركهم في الصحبه و عدم ركوب السفينه، و لم يقل عليه السلام:

و لا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه و أنه غير مؤمن إلا باللفظ، و لذلك دعاه الى الركوب.

قوله تعالى: قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْخ؛ قال الراغب: المأوى مصدر أوى يأوى أوياً و مأوى تقول: أوى الى كذا: انضم اليه يأوى أوياً و مأوى و آواه غيره يؤويه ابواء، انتهى.

و المعنى: اقل ابن نوح مجيباً لأبيه راداً لأمره: سأنضم الى جبل يعصمني و يقيني من الماء فلا أغرق، قال نوح: لا عاصم اليوم- و هو يوم اشتد غضب الله و قضى بالغرق لأهل الأرض الآ- من التجأ منهم الى الله- من الله لا جبل و لا غيره، و حال بين نوح و ابنه الموح فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموح بينهما و لم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه.

و في الكلام اشاره الى ان ارضهم كانت ارضا جبلية لا مثونه زائده في صعود الانسان الى

بعض جبال كانت هناك.

قوله: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ  
البلع اجراء الشىء فى الحلق الى الجوف،و الإقلاع الإمساك و ترك الشىء من أصله،و الغيض جذب الأرض المائع الرطب من  
ظاها الى باطنها و هو كالنشف يقال:غاضت الارض الماء اى نقصته.

و الجودى مطلق الجبل و الأرض الصلبه،و قيل:هو جبل بأرض موصل فى سلسله جبال تنتهى الى ارمينيه و هى المسماه «آارات».

و قوله: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي نداء صادر من ساحه العظمه و الكبرياء لم يصرح باسم قائله و هو الله عز  
اسمه للتعظيم،و الأمر تكوينى تحمله كلمه «كن»الصادره من ذى العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على  
وجهها من الماء المتفجر من عيونها،و أن تكفّ السماء عن امطارها.

و فيه دلالة على أن الارض و السماء كانتا مشتركين فى اطغاء الماء بأمر الله كما بيّنه قوله تعالى: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ  
مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ (القمر ١٢).

و قوله: وَغِيضَ الْمَاءِ اى نقص الماء و نشف عن ظاهر الارض و انكشف البسيط،و ذلك انما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن  
اجتماعه منه فى الغدران و تشكيل البحار و البحيرات،و انتشاف ما على سائر البسيطة.

و قوله: وَقُضِيَ الْأَمْرُ اى أنجز ما وعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهى يغرقهم و تطهر الارض منهم اى كان  
ما قيل له كن كما قيل فقضاء الامر كما يقال على جعل الحكم و اصداره كذلك يقال على امضائه و انفاذه و تحقيقه فى  
الخارج،غير أن القضاء الإلهى و الحكم الربوبى الذى هو عين الوجود الخارجى جعله و انفاذه واحدا،و انما

و قوله: وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ اي استقرت السفينه على الجبل او على جبل الجودى المعهود، و هو اخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح و من معه من امر الطوفان.

و قوله: وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ اي قال الله عز اسمه: بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ اي ليعدوا بعدا فأبعدهم بذلك من رحمته و طردهم عن دار كرامته، و الكلام فى ترك ذكر فاعل «قِيلَ» هاهنا كالكلام فيه فى «قِيلَ» السابق.

و الأمر أيضا فى قوله: بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ كالأميرين السابقين يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَيِّدَاءُ أَقْلَعِي تَكْوِينِي فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدى الى خزيهم فى الدنيا و خسرانهم فى الآخرة، و ان كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعى لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهى بالإيمان و العمل، و كونه جزاء لهم على استكبارهم و استعلائهم على الله عز و جل.

و للصفح عن ذكر الفواعل فى قوله: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَيِّدَاءُ أَقْلَعِي تَكْوِينِي» و قوله: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و قوله: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَيِّدَاءُ أَقْلَعِي تَكْوِينِي» و قوله: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و قوله: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَيِّدَاءُ أَقْلَعِي تَكْوِينِي» مشترك و هو أن هذه الامور العظيمة الهائلة المسدهشه لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذى لا شريك له فى أمره فلا يذهب الوهم الى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم يذكر.

و لمثل هذه النكته حذف فاعل «غِيضَ الْمَاءِ» و هو الأرض، و فاعل «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ» و هو السفينه، و لم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح، و لا الناجون بأنهم نوح عليه السلام و من معه فى السفينه فإن الآيه بلغت فى بلاغتها العجيبه من حيث سياق القصة مبلغا ليس فيه الاسماء تنزل امطارها، و ارض انفجرت بعيونها و انغمرت بالماء و سفينه تجرى فى امواجه، و امر مقضى، و قوم ظالمون هم قوم نوح و امر الهى يوعد القوم بالهلاك فلو غيظ الماء فإنما تغيضه الأرض، و لو استقر شىء و استوى فإنما هى السفينه تستقر على الأرض

كما انه لو قيل: يا ارض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي و قيل: بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عز اسمه و القوم الظالمون هم المقضى عليهم بالعذاب، و لو قيل: قضى الأمر فإنما القاضى هو الله سبحانه، و الأمر هو ما وعده نوحا و نهاه ان يراجعه فى ذلك و هو انهم مغرقون، و لو قيل للسماء: اقلعي بعد ما قيل للأرض: ابلعي ماءك فإنما يراد اقلاعها و امساكها ماءها.

ففى الآيه الكريمة اجتماع عجيب من اسباب الإيجاز و توافق لطيف فيما بينها كما أن الآيه واقفه على موقف عجيب من بلاغه القرآن المعجزه يبهر العقول و يدهش الألباب و ان كانت الآيات القرآنيه كلها معجزه فى بلاغتها.

و قد اهتم بأمرها رجال البلاغه و علماء البيان فغاصوا لحيّ بحرهما و اخرجوا ما استطاعوا نيله من لثايلها، و ما هو—و قد اعترفوا بذلك—الأ كغرفه من بحر أو حصاه من بر.

قوله تعالى: **وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** دعاء نوح عليه السّلام لابنه الذى تخلف عن ركوب السفينه و قد كان آخر عهده به يوم ركب السفينه فوجده فى معزل فناداه و امره بركوب السفينه فلم يأتهم ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السّلام و هو يرى انه مؤمن بالله من اهله و قد وعده الله بإنجاء اهله.

و لما به من الوجد و الحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى: **«وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ»** و لم يقل: سأل او قال او دعاء، و رفع الصوت بالاستغاثه من المضطر الذى اشتد به الضر و هاج به الوجد امر طبعى. و الدعاء اعنى نداء نوح عليه السّلام ربه فى ابنه و ان ذكر فى القصه بعد ذكر انجاز غرق القوم و ظاهره كون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال ان يكون النداء بعد حيلولة الموج بينهما و على هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان انما هو لمكان العناية ببيان جميع ما فى القصه من الهيئه الهائله فى محل واحد لتكميل



تمثيل الواقعه ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية.

و قد كان عليه السّلام رسولا احد الأنبياء أولى العزم عالما باللّه عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه فى العبوديه، و الظرف ظهرت فيه آيه الربوبيه و القهر الإلهى اكمل ظهورها فأغرقت الدنيا و اهلها، و نودى من ساحه العظمه و الكبرياء على الظالمين بالبعد، فأخذ نوح عليه السّلام يدعو لابنه و الظرف هذا الظرف لم يجترئ عليه السّلام-على ما يقتضيه ادب النبوه-على ان يسأل ما يريد من نجاه ابنه بالتصريح، بل اورد القول كالمستفسر عن حقيقه الأمر، و ابتدر بذكر ما وعده اللّه من نجاه اهله حين أمره أن يجمع الناجين معه فى السفينه فقال له «أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ» .

و كان أهله-غير امرأته-حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا و لو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السّلام مؤمنا لم يدعه البتّه الى ركوب السفينه فهو عليه السّلام الداعى على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا و لم يكن مخالفته لأمر أبيه اذ أمره بركوب السفينه كفرا أو مؤديا الى الكفر و انما هى معصيه دون الكفر.

و لذلك كله قال عليه السّلام «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» فذكر وعد ربّه و ضمّ اليه أنّ ابنه من أهله-على ما فى الكلام من دلالة «ربى» على الاسترحام، و دلالة الإضافة فى «ابنى» على الحجّه فى قوله: «مِنْ أَهْلِي» و دلالة التأكيد بأن و لام الجنس فى قوله: «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» على أداء حق الإيمان.

و كانت الجملتان «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» ينتجان بانضمام بعضهما الى بعض الحكم بلزوم نجاه ابنه لكنه عليه السّلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا فى مقام العبوديه فلا حكم إلاّ للّه بل سلّم الحكم الحقّ و القضاء الفصل الى اللّه سبحانه فقال «وَ أَنْتَ أَحْكُمُ الْحَاكِمِينَ» .

فالمعنى: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَاِنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ كُلِّ الْحَقِّ، وَاِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنْ لَا تَأْخُذْهُ بَعْدَابِ الْقَوْمِ بِالْغُرُقِ وَمَعَ ذَلِكَ فَالْحُكْمُ الْحَقُّ إِلَيْكَ فَأَنْتَ أَحْكُمِ الْحَاكِمِينَ كَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَوْضِحُ مَا هُوَ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ وَلَمْ يَذْكَرْ نَجَاهُ ابْنَهُ وَلَا زَادَ عَلَى هَذَا الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ شَيْئًا وَسِيَوَافِيكَ بَيَانُ ذَلِكَ.

قوله تعالى: قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَمْتِنَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ خ؛ بَيْنَ سُبْحَانِهِ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجِهَ الصَّوَابِ فِيمَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ» الخ؛ وَهُوَ يَسْتَوْجِبُ بِهِ نَجَاهُ ابْنَهُ فَقَالَ تَعَالَى «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فَارْتَفَعَ بِذَلِكَ اثْرَ حُجَّتِهِ.

وَالْمُرَادُ بِكَوْنِهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ الَّذِينَ وَعَدَهُ اللَّهُ بِنَجَاتِهِمْ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَهْلِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الْأَهْلُ الصَّالِحُونَ، وَهُوَ لَيْسَ بِصَالِحٍ وَإِنْ كَانَ ابْنُهُ وَمِنْ أَهْلِهِ بِمَعْنَى الْإِخْتِصَاصِ، وَلِذَلِكَ عُلِّلَ قَوْلُهُ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» بِقَوْلِهِ: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ».

فَإِنْ قُلْتَ: لِأَنَّهُ ذَلِكَ إِنْ يَكُونُ امْرَأَتُهُ الْكَافِرَةُ مِنْ أَهْلِهِ لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الْحُكْمِ بِالْإِسْتِثْنَاءِ وَهِيَ دَاخِلَةٌ مَوْضُوعًا فِي قَوْلِهِ: «وَأَهْلِكَ» وَيَكُونُ ابْنُهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَخَارِجًا مَوْضُوعًا لَا بِالْإِسْتِثْنَاءِ وَهُوَ بَعِيدٌ.

قُلْتَ: الْمُرَادُ بِالْأَهْلِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» هُمُ الْأَهْلُ بِمَعْنَى الْإِخْتِصَاصِ وَبِالْمُسْتَثْنَى -مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ- غَيْرُ الصَّالِحِينَ وَمُصَدِّقُهُ امْرَأَتُهُ وَابْنُهُ هَذَا، وَآمَّا الْأَهْلُ الْوَاقِعُ فِي قَوْلِهِ هَذَا: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فَهَمُ الصَّالِحُونَ مِنَ الْمُخْتَصِّينَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَبَقًا لِمَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُرِيدُ بِالْأَهْلِ فِي قَوْلِهِ هَذَا غَيْرَ الصَّالِحِينَ مِنْ أَوْلَى الْإِخْتِصَاصِ وَإِلَّا شَمِلَ امْرَأَتَهُ وَبَطَلَتْ حُجَّتُهُ فَافْهَمْ ذَلِكَ.

فهذا هو الظاهر من معنى الآية، ويؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مما سيأتي

فى البعث الروائى التالى ان شاء الله.

و ذكروا فى تفسير الآيه معان آخر.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ لما تبين لنوح عليه السلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذى خاطب به ربه الى السؤال كان سائلا ما ليس له به علم و كان من الجاهلين و ان عنايه الله حالت بينه و بين الهلكه، شكر ربه فاستعاذ بمغفرته و رحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» .

و الكلام فى الاستعاذه مما لم يقع بعد من الامور المهلكه و المعاصى الموبقه كالنهى عما لم يقع من الذنوب و الآثام و قد تقدم الكلام فيه و قد امر الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالاستعاذه من الشيطان و هو معصوم لا سبيل للشيطان اليه، قال تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ -الى ان قال- مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (الناس ٥) و قال:

وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (المؤمنون ٩٨) و الوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى: عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨).

و قوله: وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ كلام صورته صورته التوبه و حقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم و التأديب.

أما صورته توبته فإن فى ذلك رجوعا الى ربه تعالى بالاستعاذه و لازمها طلب مغفره الله و رحمته اى ستره على الإنسان ما فيه زلته و هلاكه و شمول عنايته لحاله و قد تقدم فى أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعم من مخالفه الأمر التشريعى بل كل وبال و أثر سيئ يسوء الإنسان بوجه، و أن المغفره أعم من الستر على المعصيه المعروفة عند المتشرعه بل كل ستر إلهى يسعد الإنسان و يجمع شمله.

و أما حقيقه الشكر فإن العنايه الإلهيه التي حالت بينه و بين السؤال الذى كان يوجب دخوله فى زمرة الجاهلين و عصمته ببيان وجه الصواب كانت سترا إلهيا على زلّه فى طريقه و رحمه و نعمه أنعم الله سبحانه بها عليه فقله عليه السّلام: «وَالْإِلَٰهَ تَغْفِرُ لِي وَ تَزَحْمِنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أى إن لم تعذنى من الزّلات لخسرت، ثناء و شكر لصنعه الجميل.

قوله تعالى: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ أُمَمٌ مِّمَّنْ مَعَكَ الخ؛ السلام هو السلامه أو التحيه غير ان ذكر مسّ العذاب فى آخر الآيه يؤيد كون المراد به فى صدرها السلامه من العذاب و كذا تبديل البركه فى آخر الآيه الى التمتع يدل على ان المراد بالبركات ليس مطلق النعم و أمتعته الحياه بل النعم من حيث تسوق الانسان الى الخير و السعاده و العاقبه المحموده.

فقوله: قِيلَ - و لم ذكر القائل و هو الله سبحانه للتعظيم - يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ معناه - و الله أعلم - يا نوح انزل مع سلامه من العذاب - الطوفان - و نعم ذوات بركات و خيرات نازله منا عليك، أو انزل بتحيه و بركات نازله منا عليك.

و قوله: وَ عَلَيَّ أُمَمٌ مِّمَّنْ مَعَكَ معطوف على قوله: «عَلَيْكَ» و تنكير أم يدل على تبعيضهم لأن من الامم من يذكره تعالى بعد فى قوله: «وَ أُمَّمٌ سَنَمُنُّعُهُمْ» .

و الخطاب أعنى قوله تعالى: يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ الى آخر الآيه بالنظر الى ظرف صدوره و ليس وقتئذ متنفّس على وجه الأرض من انسان او حيوان و قد أغرقوا جميعا و لم يبق منهم إلا جماعه قليله فى السفينه و قد رست و استوت على الجودى، و قد قضى أن ينزلوا الى الأرض فيعمروها و يعيشوا فيها الى حين.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها الى يوم القيامه نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أهبط آدم عليه السّلام من الجنه الى الارض و قد حكاه الله تعالى فى موضع بقوله: وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ - الى أن

قال - قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩) و في موضع آخر بقوله: قَالَ فِيهَا تَحْيُونَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (الأعراف / ٢٥).

و هذا الخطاب خطاب ثانٍ مشابه لذاك الخطاب الأول موجّه الى نوح عليه السّلام و من معه من المؤمنين - و إليهم ينتهي نسل البشر اليوم - متعلق بهم و بمن يلحق بهم من ذراريهم الى يوم القيامة، و هو يتضمن تقدير حياتهم الأرضيه و الإذن في نزولهم إليها و استقرارهم فيها و إيوائهم إياها.

و قد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبر عن إذنه لطائفه منهم بالسّلام و البركات و هم نوح عليه السّلام و أمم ممن معه، و لطائفه أخرى بالتمتع، و عقّب التمتع بمس العذاب لهم كما أن كلمتي السّلام و البركات لا تخلوان من بشرى الخير و السعادة بالنسبه الى ما تعلقتا به.

و قوله: وَ أُمَمٌ سِينُتُّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِثْلُ عَذَابٍ أَلِيمٍ كأنه مبتدأ لخبر محذوف و التقدير: و ممن معك أمم او و هناك أمم ستمتعهم، الخ؛ و قد أرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل: و متاع لامم آخرين سيعذبون طردا لهم من موقف الكرامه، فأخبر أن هناك أممًا آخرين ستمتعهم ثم نعذبهم و هم غير مأذون لهم في التصرف في أمتعته الحياه إذن كرامه و زلفى.

قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ أَى هذه القصص أو هذه القصة من أنباء الغيب نوحيا اليك.

و قوله: مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَى كانت و هى على محوضه الصدق و الصحه مجهوله لك و لقومك من قبل هذا، و الذى عند أهل الكتاب منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما فى التوراه الحاضره من قصته عليه السّلام.

وقوله: فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ أمر منتزع عن تفصيل القصه أى اذا علمت ما آل اليه أمر نوح عليه السّلام وقومه من هلاك قومه و نجاته و نجاه من معه من المؤمنين و قد ورّثهم الله الأرض على ما صبروا، و نصر نوحا على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبه للمتقين، و هم الصابرون فى جنب الله سبحانه (١)(٢)(٣)(٤).

## [سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٦٠]

### اشاره

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

ص ١٦٠:

١- ١). هود ٣٦-٤٩: بحث روائى حول قصه نوح عليه السلام.

٢- ٢). هود ٣٦-٤٩: ابحاث حول قصه نوح فى فصول و هى ابحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه، الاشاره الى قصته، قصته عليه السّلام فى القرآن، بعثه و ارساله، دينه و شريعته عليه السّلام، اجتهاده عليه السّلام فى دعوته، لبثه فى قومه، صنعه عليه السّلام الفلك، نزول العذاب و مجىء الطوفان، قضاء الامر و نزوله و من معه الى الارض، قصه ابن نوح الغريق، خصائص نوح عليه السّلام، قصته عليه السّلام فى التوراه الحاضره، ما جاء فى امر الطوفان فى اخبار الامم و اساطيرهم، هل كانت نبوته عليه السّلام عامه للبشر؟، هل الطوفان كانت عامه لجميع الارض؟، انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها، العوامل المؤثره فى ازدياد المياه و غزاره عملها فى عهد الطوفان، عمره عليه السّلام الطويل، اين هو جبل الجودى؟.

٣- ٣). هود ٣٦-٤٩: كلام فى عبادته الاصنام فى فصول (الانسان و اطمئنانه الى الحس، الاقبال الى الله بالعباده، كيف نشأت الوثنيه؟، و بما ذا بدأت، اتخاذ الاصنام لأرباب الانواع و غيرهم، الوثنيه الصابئه، الوثنيه البرهميه، الوثنيه البوذيه، و ثنيه العرب، دفاع الاسلام عن التوحيد و منازلته الوثنيه، بناء سيره النبى على التوحيد و نفى الشركاء).

٤- ٤). هود ٣٦-٤٩: كلام فى: التناسخ عند الوثنيين؛ سريان هذه المحاذير الى سائر الاديان؛ اصلاح الاسلام لهذه المفاسد.



قوله تعالى: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا كَانَ أَخَاهُمْ فِي النِّسْبِ لِكَوْنِهِ مِنْهُمْ وَأَفْرَادَ الْقَبِيلَةِ يَسْمُونَ إِخْوَهُ لِانْتِسَابِهِمْ جَمِيعًا إِلَىٰ أَبِي الْقَبِيلَةِ، وَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ سَابِقًا: «نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» وَالتَّقْدِيرُ «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» وَلَعَلَّ حَذْفَ الْفِعْلِ هُوَ الْمَوْجِبُ لِتَقْدِيمِ الظَّرْفِ عَلَى الْمَفْعُولِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَىٰ خِلَافِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ حَيْثُ قِيلَ «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ» النِّسْبُ؛ وَلَمْ يَقُلْ: وَهُودًا إِلَىٰ عَادٍ مِثْلًا كَمَا قَالَ «نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» لِأَنَّ دَلَالَةَ الظَّرْفِ أَعْنَى «إِلَىٰ عَادٍ» عَلَىٰ تَقْدِيرِ الْإِرْسَالِ أَظْهَرَ وَأَوْضَحَ.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» الْكَلَامُ وَارِدٌ مُرَدِّ الْجَوَابِ كَأَنَّ السَّامِعَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» قَالَ: فَمَاذَا قَالَ لَهُمْ؟ فَقِيلَ «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» النِّسْبُ؛ وَلِذَا جِيءَ بِالْفَصْلِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ.

وَقَوْلُهُ: «اعْبُدُوا اللَّهَ» فِي مَقَامِ الْحَصْرِ أَيْ اعْبُدُوهُ وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ مِنْ آلِهَةٍ اتَّخَذْتُمُوهَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعْبُدُونَهَا لِتَكُونَ لَكُمْ ضِعْفًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْبُدُوهُ تَعَالَىٰ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْحَصْرِ الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ بَعْدَ: «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اتَّخَذُوا آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بِالشَّرْكِ وَالشَّفَاعَةِ.

قوله تعالى: «يَا قَوْمِ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ الْفَطْرُ الشَّقُّ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ كَمَا يَنْفَطِرُ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرِ، وَمِنْهُ فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلِهِ مَا شَقَّ مِنْهُ فَظَهَرَ. انْتَهَى، وَقَالَ الرَّاعِبُ: أَصْلُ الْفَطْرِ الشَّقُّ طَوْلًا يُقَالُ: فَطَرَ فُلَانٌ كَذَا فَطْرًا وَأَفَطَرَ هُوَ فَطُورًا وَانْفَطَرَ انْفِطَارًا- إِلَىٰ أَنْ قَالَ- وَفَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَهُوَ إِيجَادُ الشَّيْءِ وَإِبْدَاعُهُ عَلَىٰ هَيْئَةٍ مَتَرَشِّحَةٍ لِفِعْلِ مِنَ الْأَفْعَالِ فَقَوْلُهُ: فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ مِنْ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَا فَطَرَ أَيْ أَبْدَعَ وَرَكَزَ فِي النَّاسِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَفَطَرَ اللَّهُ هِيَ مَا رَكَزَ فِيهِ مِنْ قُوَّتِهِ عَلَىٰ مَعْفَرِهِ الْإِيمَانِ



و هو المشار اليه بقوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. انتهى.

و الظاهر أن الفطر هو اليجاد عن عدم بحث، و الخصوصيه المفهومه من مثل قوله:

«فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» إنما نشأت من بناء النوع الذى تشتمل عليه فطره و هى فعله، و على هذا فتفسير بعضهم الفطره بالخلقه بعيد من الصواب، و إنما الخلق هو إيجاد الصوره عن ماده على طريق جمع الأجزاء، قال تعالى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ (المائدة ١١٠).

و الكلام مسوق لرفع التهمه و العبه و المعنى يا قوم لا- أسألكم على ما أدعوكم أجرا و جزاء حتى تهتمونى أنى أستدر به نفعاً يعود إالى و إن أضرب بكم، و لست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثاً من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذى أوجدنى و أبدعنى أفلا تعقلون عنى ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنى ناصح لكم فى دعوتى، و ما أريد إلا أن أحملكم على الحق.

قوله تعالى: وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً الى آخر الآيه؛ تقدم الكلام فى معنى قوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فى صدر السوره.

و قوله: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً» فى موقع الجزاء لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» الخ؛ أى أن تستغفروه و تتوبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً، و المراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا و أظل فهو سماء، و قيل المطر و هو شائع فى الاستعمال، و المدرار مبالغه من الدرّ، و أصل الدرّ اللبن ثم استعير للمطر و لكل فائده و نفع فأرسال السماء مدراراً إرسال سحب تمطر أمطاراً متتابعه نافعه تحيى بها الارض و ينبت الزرع و العشب، و تنضر بها الجنات و البساتين.

و قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ قيل المراد بها زياده قوه الايمان على قوه

الأبدان وقد كان القوم أولى قوه و شده في أبدانهم و لو أنهم آمنوا انضافت قوه الإيمان على قوه أبدانهم، وقيل المراد بها قوه الأبدان كما قال نوح لقومه: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيِّنَ (نوح ١٢) و لعل التعميم أولى.

و قوله: «وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» بمنزله التفسير لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهه دون الله إجرام منكم و معصيه توجب نزول السخط الإلهى عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم و ارجعوا اليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطله ممطره و زياده قوه الى قوتكم.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ سَأَلَهُمْ هُوْدُ فِي قَوْلِهِ: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» الى آخر الآيات الثلاث؛ أمرين هما أن يتركوا آلهتهم و يعودوا الى عباده الله وحده و أن يؤمنوا به و يطيعوه فيما ينصح لهم فردوا عليه القول بما فى هذه الآيه إجمالاً و تفصيلاً:

أما إجمالاً فبقولهم: «مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» يعنون أن دعوتك خاليه عن الحججه و الآيه المعجزه و لا موجب للإصغاء الى ما هذا شأنه.

و أما تفصيلاً فقد أجابوا عن دعوته إياهم الى رفض الشركاء بقولهم: «وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ» و عن دعوته إياهم الى الايمان و الطاعه بقولهم: «وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» فأيسوه فى كلتا المسألتين.

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأى لبيأس من إجابتهم بالمره فقالوا «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» و الاعتراء الاعتراض و الإصابه يقولون: إنما نعتقد فى أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل و الجنون لشمك إياها و ذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبا بما تفوهت به فى صوره الدعوه.

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ أُشْهِدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ

دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ أَجَاب هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِمْ بَاطِلٌ الْبِرَاءَةُ مِنْ شُرَكَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ثُمَّ التَّحْدِي عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَكِيدُوا بِهِ جَمِيعاً وَلَا يَنْظُرُوهُ.

فقوله: أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ إِنْ شَاءَ وَلَا يَخْبَارُ كَمَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَقَامِ التَّبَرُّي، وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ كَوْنَهُ بَرِيئاً مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ فَإِنَّ التَّبَرُّزَ بِالْبِرَاءَةِ لَا يَنَافِي تَحَقُّقَهَا مِنْ قَبْلِ، وَقَوْلُهُ: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ» أَمْرٌ وَنَهْيٌ تَعَجِيزِيَانِ.

وَإِنَّمَا أَجَابَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا أَجَابَ لِشَاهِدِ الْقَوْمِ مِنْ آلِهِمْ أَنَّهَا لَا تَمْسُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسُوءٍ مَعَ تَبَرُّزِهِ بِالْبِرَاءَةِ، وَهُوَ لَوْ كَانَتْ آلُهُ ذَاتَ عِلْمٍ وَقَدْرَةٍ لَقَهَرَتْهُ وَانْتَقَمَتْ مِنْهُ لِنَفْسِهَا كَمَا ادَّعَوْا أَنْ بَعْضَ آلِهِمْ اعْتَرَاهُ بِسُوءٍ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَيْنَهُ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِآلِهِ وَ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَعْتَرِهِ بِسُوءٍ كَمَا ادَّعَوْهُ، ثُمَّ يَشَاهِدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِقَتْلِ أَوْ تَنْكِيلٍ مَعَ كَوْنِهِمْ ذَوِي شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ لَا يِعَادِلُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي الشِدَّةِ وَالْبَطْشِ، وَ لَوْ لَا أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ صَادِقٌ فِي مَا يَقُولُهُ مَصُونٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ لَقَدَّرُوا عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا أَرَادُوهُ مِنْ عَذَابٍ أَوْ دَفْعٍ.

فَالْحَقُّ أَنَّ قَوْلَهُ: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ مُشْتَمِلٌ عَلَى حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ عَلَى بَطْلَانِ الْوَهْيِيِّ الشَّرْكَاءِ، وَ عَلَى آيَةٍ مَعْجَزَةٍ لَصَحِّهِ رِسَالَهُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَ فِي قَوْلِهِ: جَمِيعاً إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَرَادَهُ تَعَجِيزَهُمْ وَ تَعَجِيزَ آلِهِمْ جَمِيعاً فَيَكُونُ أَمْرٌ دَلَالَةٌ عَلَى كَوْنِهِ عَلَى الْحَقِّ وَ كَوْنِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ الَّذِي فِي صُورِهِ التَّعَجِيزُ صَالِحاً لِأَنَّ يَكُونُ بَدَاعِي إِظْهَارِ عِجْزِ الْخَصْمِ وَ عَدَمِ قَدْرَتِهِ، وَ صَالِحاً لِأَنَّ يَصْدُرَ بَدَاعِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخَافُ الْخَصْمُ وَ إِنْ كَانَ الْخَصْمُ قَادِراً عَلَى الْإِتْيَانِ بِمَا يُؤْمَرُ بِهِ لَكِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى تَخْوِيفِهِ وَ إِكْرَاهِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَ حَمَلَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْهُ كَقَوْلِ السَّحْرَةِ لِفِرْعَوْنَ: فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (طه ٧٢).

وَ كَانَ قَوْلُهُ: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ» مُحْتَمِلاً لِأَنَّ يَكُونُ الْمَرَادُ بِهِ إِظْهَارُ أَنَّهُ لَا

يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» فذكر أنه متوكل في أمره على الله الذي هو يدبر أمره و أمرهم ثم عقبه بقوله: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فذكر أنه ناجح في توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعا قاهر لهم يحكم على سنه واحده و هى نصره الحق و إظهاره على الباطل اذا تقابلا و تغالبا.

فتبريه من أصنامهم و تعجزهم على ما هم عليه من الحال بقوله: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ» ثم لبثه بينهم فى عاقبه و سلامه لا يمسونه بسوء و لا يستطيعون أن ينالوه بشر آيه معجزه و حجه سماويه على أنه رسول الله اليهم.

و قوله: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» الدابه كل ما يدب فى الأرض من أصناف الحيوان، و الأخذ بالناصيه كناية عن كمال السلطه و نهايه القدره، و كونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته فى الخلقه واحده ثابتة غير متغيره و هو تدبير الامور على منهاج العدل و الحكمة فهو يحق الحق و يبطل الباطل إذا تعارضا.

فالمعنى إنى توكلت على الله ربي و ربكم فى نجاح حجتى التى ألقيتها اليكم و هو التبرز بالبراءه من آلهتكم و أنكم و آلهتكم لا- تضرّوننى شيئا فإنه المالك ذو السلطنه على و عليكم و على كل دابه، و سنته العادله ثابتة غير متغيره فسوف ينصر دينه و يحفظنى من شركم.

و لم يقل «إن ربي و ربكم على صراط مستقيم» على وزان قوله: «عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» فإنه فى مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم، و هو يأخذه تعالى ربا بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعده ربا لنفسه و يستمسك برابطه العبوديه التى بينه و بين ربه حتى ينجح طلبته، و هذا بخلاف مقام قوله: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» فانه يريد هناك بيان عموم السلطه و الاحاطه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ و هذه الجملة من كلامه عليه السلام ناظر الى قولهم فى آخر جدالهم: «إِنْ نَقُولُ إِلَّا- اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» الدال على أنهم قاطعون على أن لا- يؤمنوا به و دائمون على الجحد، والمعنى إن تتولوا و تعرضوا عن الإيمان بى و الإطاعة لأمرى فقد أبلغتكم رساله ربهى تمت عليكم الحججه و لزمتمكم البليه.

قوله تعالى: وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ هذا وعيد و إخبار بالتبعه التى يستتبعها إجرامهم، فإنه كان وعدهم ان يستغفروا الله و يتوبوا اليه أن يرسل السماء عليهم مدرارا و يزيد قوه الى قوتهم، و نهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد.

و قوله: وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ اى يجعل قوما غيركم خلفاء فى الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفه منه فى الأرض كما قال تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠)، و قد كان عليه السلام بين لهم أنهم خلفاء فى الارض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً الْآيَه؛ (الأعراف ٦٩).

و ظاهر السياق أن الجملة الخبريه معطوفه على أخرى مقدره، و التقدير: و سيذهب بكم ربهى و يستخلف قوما غيركم على حد قوله: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ (الأنعام ١٣٣).

و قوله: «و لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» ظاهر السياق أنه تتمه لما قبله اى لا تقدرن على إضراره بشيء من الفوت و غيره إن اراد أن يهلككم و لا- أن تعذيبكم و إهلاككم يفوت منه شيئا مما يريده فإن ربهى على كل شيء حفيظ لا يعزم عن علمه عازب و لا يفوت من قدرته فائت؛ و للمفسرين فى الآيه وجوه أخر بعيده عن الصواب أعرضنا عنها؟

قوله تعالى: **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ الْمُرَادِ بِمَجِيءِ الْأَمْرِ نَزُولِ الْعَذَابِ** و بوجه أدق صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول و بين قومه كما قال تعالى: **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (المؤمن ٧٨).**

و قوله: **بِرَحْمَةٍ مِّمَّا الظاهر أن المراد بها الرحمة الخاصة بالمؤمنين المستوجبه نصرهم في دينهم و إنجاءهم من شمول الغضب الإلهي و عذاب الاستئصال، قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (المؤمن ٥١).**

و قوله: **وَ نَجَّيْنَا هُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ظاهر السياق أنه العذاب الذي شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبه الى ما قبله، و قيل: المراد به عذاب الآخرة و ليس بشيء.

قوله تعالى: **وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** الآية؛ و ما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصه عاد فأول التلخيصين قوله: **(وَ تِلْكَ عَادٌ - الى قوله - وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة و الموعظه و الآية المعجزه التي أبانت لهم طريق الرشد و ميزت لهم الحق من الباطل فجدوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون الى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصيانه سائر رسل الله و هو ظاهر قوله في موضع آخر: **كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (الشعراء ١٢٤).** و يشعر به ايضا قوله: **وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ (الأحقاف ٢١)،** و من الممكن أن يكون لهم

رسل آخرون بعثوا اليهم فيما بين هود و نوح عليهما السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

و أتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبارتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو اليه، و الجبار العظيم الذى يقهر الناس بإرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق، فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعة الجبابره.

ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله: **وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اى و أتبعهم الله فى هذه الدنيا لعنه و إبعادا من رحمه، و مصداق هذا اللعن العذاب الذى عقّبهم فلحق بهم، أو الآثام و السيئات التى تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنوا سنّه الإشراك و الكفر لمن بعدهم، قال تعالى: **وَ نَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس ١٢).****

و قيل: المعنى لحقت بهم لعنه فى هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم، و من أدرك آثارهم، و كل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

و أما اللعنه يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذى يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير.

و فى تعقيب قوله فى الآية: **وَ أَتَّبِعُوا بقوله: **وَ أَتَّبِعُوا لطف ظاهر.****

قوله تعالى: **أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ اى كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض و هذا هو التلخيص الثانى الذى أشرنا اليه لخص به التلخيص الاول فقوله: **أَلَا إِنَّ عَاداً الخ؛ يحاذى به وصف حالهم المذكور فى قوله: «وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا» الخ؛ و قوله: «أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ» الخ؛ يحاذى به قوله: «وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ» الخ.****

و يتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعنه السابقه اللعنه الإلهيه دون لعن الناس، و الأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثه السابقه و خاصه الوجه الثانى دون

## [سوره هود (١١): الآيات ٤١ الى ٤٨]

## اشاره

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا  
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٤١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا  
تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٤٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا  
تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٤٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ  
(٤٤) فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعِيدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ (٤٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٤٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٤٧) كَأَن  
لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلًا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٤٨)

ص: ١٧٠



قوله تعالى: وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ تقدم الكلام فى نظيره الآية فى قصه هود.

قوله تعالى: هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا الى آخر الآية؛ قال الراغب الإنشاء إيجاد الشيء و تربيته و أكثر ما يقال ذلك فى الحيوان قال «هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ». انتهى، وقال: العماره ضد الخراب يقال: عمر أرضه يعمرها عماره قال «وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» يقال: عمرته فعمر فهو معمور قال «وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» «وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ» و أعمرته الأرض و استعمرته إذا فوّضت اليه العماره قال «وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» انتهى، فالعماره تحويل الارض الى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقبه منها كعمارها الدار للسكنى و المسجد للعباده و الزرع للحرث و الحديقه لاجتناء فاكهتها و التنزه فيها و الاستعمار هو طلب العماره بأن يطلب من الانسان أن يجعل الأرض عامره تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها.

و على ما مرّ يكون معنى قوله: هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا - و الكلام يفيد الحصر - أنه تعالى هو الذى اوجد على المواد الارضيه هذه الحقيقه المسماه بالإنسان ثم كملها بالتربيه شيئاً فشيئاً و أفطره على ان يتصرف فى الأرض بتحويلها الى حال ينتفع بها فى حياته، و يرفع بها ما يتبته له من الحاجه و النقيصه اى إنكم لا- تفتقرون فى وجودكم و بقائكم إلا- اليه تعالى و تقدّس.

فقول صالح: هو الذى أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فى مقام التعليل و حجه يستدل بها على ما ألقاه اليهم من الدعوه بقوله: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» و لذلك جىء بالفصل كأنه قيل له: لم نعبده وحده؟ فقال: لأنه هو الذى أنشأكم من

و قد علل قوله: فَاسْتَغْفِرُوهُ السَّخْبُ؛ بقوله: «إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» لأنه استنتج من حجته المذكوره أنه تعالى يقوم بإيجاد الانسان و تربيته و تدبير أمر حياته، و أنه لا- استقلال لشيء من الأسباب العمّاله فى الكون بل الله تعالى هو الذى يسوق هذا الى هنا، و يصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الانسان و بين حوائجه و جميع الأسباب العمّاله فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا- يدركه فهم و لا يناله عبادته و قربان، و إذا كان قريبا فهو مجيب، و إذا كان قريبا مجيبا و هو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا اليه.

قوله تعالى: قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَالْحُجْرَاءُ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آلَاءَ مَنْ لَا يَذَرُهُمْ فَتَنَاتِهِمْ أَضَلُّونَ. قوله «قَدْ كُنْتَ فِينَا» دليل على كونه مرجوا لعامتهم و جمهورهم.

فقولهم: قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحه تنفع بخدماتك مجتمعهم و تحمل الامه على صراط الترقى و التعالى لما كانت تشاهد فيك من امارات الرشد و الكمال لكنهم يسوا منك و من رزانه رأيك اليوم بما أبدعت من القول و أقمت من الدعوه.

و قولهم: أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا استفهام إنكارى بداعى المذمه و الملامه، و الاستفهام فى مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب ياسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنه من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسه، و استمرار إقامة السنن المقدسه من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، و وحده قوميه لها استقامه فى الرأى و الإراده.

و قوله: وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ حجه ثانيه لهم فى رد دعوه

صالح عليه السلام، وحتهم الاولى ما يتضمنه صدر الآيه و محصلها أن ما تدعو اليه من رفض عباده الأصنام بدعه منكره تذهب بسنه ثمود المقدسه و تهدم بنیان مليتهم، و تمت ذكرهم فعلينا أن نرده، و الثانيه أنك لم تأت بحجه بينه على ما تدعو اليه تورث اليقين و تميظ الشك عنا فنحن في شك مريب مما تدعوننا اليه و ليس لنا أن نقبل ما تندب اليه على شك منا فيه.

و الإبراهه الاتهام و إساءه الظن يقال: رابني منه كذا إذا أوجب فيه الشك و أرابني كذا إرابه إذا حملك على اتهامه و سوء الظن به.

قوله تعالى: **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ أَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ أَلِي آخِرَ الْآيَةِ؛ المراد بالبينه الآيه المعجزه و بالرحمه النبوه، و قد تقدم الكلام في نظير الآيه من قصه نوح عليه السلام في السوره.**

و قوله: **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ جَوَابَ الشَّرْطِ، و حاصل المعنى:**

أخبروني إن كنت مؤيدا بآيه معجزه تنبئ عن صحه دعوتي و أعطاني الله الرساله فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجني من الله و يدفع عني إن أظعتكم فيما تسألون و وافقتكم فيما تريدونه مني و هو ترك الدعوه.

ففي الكلام جواب عن كلتا حجتهم و اعتذار عما لاموه عليه من الدعوه المبتدعه.

و قوله: **فَلَمَّا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ تَفْرِيعٍ عَلَىٰ قَوْلِهِ السَّابِقِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي مَقَامِ دَحْضِ الْحُجَّتَيْنِ وَ الْعِذَارِ عَنْ مَخَالَفَتِهِمْ وَ الْقِيَامِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ خِلَافِ سُنَّتِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ فَالْمَعْنَىٰ فَمَا تَزِيدُونَنِي فِي حِرْصِكُمْ عَلَىٰ تَرْكِ الدَّعْوَةِ وَ الرَّجُوعِ إِلَيْكُمْ وَ اللَّحُوقِ بِكُمْ غَيْرَ أَنْ تَخْسِرُونِي فَمَا مَخَالَفَةُ الْحَقِّ إِلَّا خِسَارُهُ.**

و قيل: المراد أنكم ما تزيدونني في قولكم: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ غير نسبتى إياكم الى الخساره. و قيل: المعنى ما تزيدونني إلا بصيره في خسارتكم و الوجه الأول أوجه.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ إِضَافَةُ النَاقَةِ إِلَى اللَّهِ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ كَبِيتَ اللَّهُ وَ كَتَابَ اللَّهُ. وَ كَانَتْ النَاقَةُ آيَةً مُعْجِزَةً لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوْيِدُ نُبُوَّتِهِ، وَ قَدْ أَخْرَجَهَا عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ مِنْ صَخْرِ الْجَبَلِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ قَالَ لَهُمْ: إِنَّهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ مُحَرَّرَةً، وَ حَذَرَهُمْ أَنْ يَمَسُّوهَا بِسُوءٍ أَى يَصِيبُوهَا بِضَرْبٍ أَوْ جَرْحٍ أَوْ قَتْلِ. وَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَخَذَهُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ مُعْجَلٌ، وَ هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ.

قوله تعالى: فَعَقَّرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعِدٌ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ عَقَرَ النَاقَةَ نَحْرَهَا، وَ الدَارُ هِيَ الْمَكَانُ الَّذِي بَيْنَهُ الْإِنْسَانُ فَيَسْكُنُ فِيهِ وَ يَأْوِي إِلَيْهِ هُوَ وَ أَهْلُهُ، وَ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْآيَةِ الْمَدِينَةُ سَمِيَتْ دَارًا لِأَنَّهَا تَجْمَعُ أَهْلَهَا كَمَا تَجْمَعُ الدَارُ أَهْلَهَا، وَ قِيلَ الْمُرَادُ بِالدَّارِ الدُّنْيَا، وَ هُوَ بَعِيدٌ.

وَ الْمُرَادُ بِتَمَتَّعَهُمْ فِي مَدِينَتِهِمْ الْعَيْشَ وَ التَّنْعَمَ بِالْحَيَاةِ لِأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ يَتَمَتَّعُ بِهِ، أَوْ الْإِلْتِمَادَ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ الَّتِي هِيَئُوهَا فِيهَا مِنْ مَنَاطِرِ ذَاتِ بَهْجَةٍ وَ الْأُنْثَى وَ الْمَأْكُولِ وَ الْمَشْرُوبِ وَ الْإِسْتِرْسَالِ فِي أَهْوَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

وَ قَوْلُهُ: ذَلِكَ وَعِدٌ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ الْإِشَارَةُ إِلَى قَوْلِهِ: تَمَتَّعُوا النَّخْ؛ وَ «وَعِدٌ غَيْرٌ مَكْذُوبٌ» بَيَانٌ لَهُ.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَمَا قَوْلُهُ: «وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنَّا» فَقَدْ مَتَّعُوا فِي مَثَلِهِ فِي قِصَّةِ هُودٍ.

وَ أَمَا قَوْلُهُ: وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ فَمَعْطُوفٌ عَلَى مَحذُوفٍ وَ التَّقْدِيرُ نَجَّيْنَا مِنْ خِزْيِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، وَ الْخِزْيُ الْعَيْبُ الَّذِي تَظْهَرُ فُضِيحَتُهُ وَ يَسْتَحْيِي مِنْ إِظْهَارِهِ أَوْ أَنَّ التَّقْدِيرَ: نَجَّيْنَا مِنْ الْقَوْمِ وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: وَ نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

وقوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ في موضع التعليل لمضمون صدر الآيه و فيه التفات من التكلم بالغير الى الغيبه، و قد تقدم نظيره في آخر قصه هود في قوله: «أَلَا- إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ» و الوجه فيه ذكر صفه الربوبيه ليدل به على خروجهم من زى العبوديه و كفرهم بالربوبيه و كفرانهم نعم ربهم.

قوله تعالى: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِاثِمِينَ يقال: جثم جثوما اذا وقع على وجهه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا غنى بالمكان أى أقام فيه، و الضمير راجع الى الديار.

قوله تعالى: أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعِيداً لِّتَمُودَ الْجَمَلَتَانِ تلخيص ما تقدم تفصيله من القصه فالجمله الاولى تلخى ما انتهى اليه أمر تمود و دعوه صالح عليه السلام، و الثانيه تلخيص ما جازاهم الله به، و قد تقدم نظيره الآيه في آخر قصه هود (١)(٢).

### [سوره هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٦]

#### اشاره

وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالِ لِمَ لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حِينٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ يُدْعَاهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرُهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا- تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

ص: ١٧٥

١- ١). هود ٦٨-٦١: بحث روائى حول قصه صالح و قومه.

٢- ٢). هود ٦٨-٦١: كلام فى قصه صالح فى فصول (تمود قوم صالح عليه السلام، بعثه صالح عليه السلام، شخصيه صالح عليه السلام).

قوله تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الْبُشْرَىٰ هِيَ الْبِشَارَةُ، وَالْعَجَلُ وَلَدُ الْبَقْرَةِ، وَالْحَنِيذُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَيْ الْمَحْنُودُ وَهُوَ اللَّحْمُ الْمَشْوِيُّ عَلَى حِجَارِهِ مَحْمَاهُ بِالنَّارِ كَمَا أَنَّ الْقَدِيدَ هُوَ الْمَشْوِيُّ عَلَى حِجَارِهِ مَحْمَاهُ بِالشَّمْسِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ الْمَشْوِيُّ الَّذِي يَقَطُرُ مَاءٌ وَ سَمْنًا، وَقِيلَ: هُوَ مَطْلُقُ الْمَشْوِيِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ فِي الْقِصَّةِ: «فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ» لَا يَخْلُو مِنْ تَأْيِيدِ مَا لِلْمَعْنَى الثَّانِي.**

و قوله: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ** معطوف على قوله سابقا:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» قال في المجمع: وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر و معنى قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصه بعد قصه، و قد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع

فى حال توقع.انتهى.

و الرسل هم الملائكة المرسلون الى ابراهيم للبشاره و الى لوط لاهلاك قومه و قد اختلفت كلمات المفسرين فى عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلاله لفظ الجمع -الرسلى-على ذلك،و فى بعض الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام،و سيأتى نقلها إن شاء الله فى البحث الروائى.

و البشرى التى جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السّلام لم يذكر بلفظها فى القصة،و التى ذكرت فيها منها هى البشاره لامرأته،و إنما ذكرت بشاره إبراهيم نفسه فى غير هذا المورد كسورتى الحجر و الذاريات،و لم يصرح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أ هو إسحاق أم إسماعيل عليهم السّلام أو أنهم بشروه بكليهما؟و ظاهر سياق القصة فى هذه السوره أنها البشاره بإسحاق،و سيأتى البحث المستوفى عن ذلك فى آخر القصة.

و قوله: **قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ** أى تسالموا هم و إبراهيم فقالوا:سلاما أى سلّمنا عليك سلاما،و قال إبراهيم:سلام أى عليكم سلام.

و السلام الواقع فى تحيه ابراهيم عليه السّلام نكره و وقوعه نكره فى مقام التحيه دليل على ان المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخيم و مزيد التكريم و التقدير:عليكم سلام زاك طيب أو ما فى معناه،و لذا ذكر بعض المفسرين:ان رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حيّاهم بأحسن من تحيتهم فبالغ فى إكرامهم ظنا منه أنهم ضيف.

و قوله: **فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** أى ما أبطأ فى أن قدّم اليهم عجلا مشويا يقطر ماء و سمنا و أسرع فى ذلك.

قوله تعالى: **فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** عدم وصول ايديهم اليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم الى الطعام،و ذلك أماره العداوه و إضمار الشر،و نكرهم و أنكرهم بمعنى واحد و إنما كان أنكرهم لإنكاره ما شاهد

منهم من فعل غير معهود.

و الإيجاس الخطور القلبي، قال الراغب: الوجل الصوت الخفى، و التوجل التسمع، و الإيجاس وجود ذلك النفس قال: و أوجل منهم خيفه، و الوجل قالوا: هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الوجل خاطر. انتهى.  
فالجمله من الكنايه كأن لطروق الخيفه-و هو النوع من الخوف-و خطوره فى النفس صوتا تسمع بالسمع القلبي، و المراد أنه استشعر فى نفسه خوفا و لذلك أمّنه و طيبوا نفسه بقولهم:

«لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ».

و معنى الآيه أن إبراهيم عليه السّلام لما قدم اليهم العجل المشوى رأهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل-و ذلك أماره الشر- استشعر فى نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له و تطيبا لنفسه: لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكه الكرام المنزهين من الأكل و الشرب و ما يناظر ذلك من لوازم البدن الماديه، و أنهم مرسلون لخطب جليل.

قوله تعالى: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ضحكت من الضحك بفتح الضاد اى حاضت، و يؤيده تفرّيع البشاره عليه فى قوله عقيبه: «فبشرناهم» الخ؛ و يكون ضحكها أماره تقرب البشرى الى القبول، و آيه تهيب نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به، و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام و أنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض و هى عجوز، و إنما كانت قائمه تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله و بين الضيفان النازلين به و تحادثهم.

و المعنى أن إبراهيم عليه السّلام كان يكلمهم و يكلمونه فى امر الطعام و الحال أن امرأته قائمه هناك تنظر الى ما يجرى بين الضيفان و بين إبراهيم و ما كان يخطر ببالها شىء دون ذلك ففاجأها انها حاضت فبشرته الملائكه بالولد.

و قوله: فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ إسحاق هو ابنها من



ابراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق عليهما السلام فالمراد أن الملائكة بشرها بأنها ستلد إسحاق و إسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد. هذا على قراءه يعقوب بالفتح و هو مزوع الخافض و قرئ برفع يعقوب و هو بيان لتتمه البشاره، و الاولى ارجح.

و كأن فى هذا التعبير: وَمِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ إشاره الى وجه تسميه يعقوب عليه السلام بهذا الاسم، و هو أنه كان يعقب بحسب هذه البشاره أباه إسحاق و قد ذكر فيها أنه وراه، و يكون فيها تخطئه لما فى التوراه من السبب فى تسميه يعقوب به.

قوله تعالى: قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ الويل القبح و كل مساءه توجب التحسير من هلكه او مصيبه او فجيعة او فضيحه، و نداؤه كناية عن حضوره و حلوله يقال: يا ويلي أى حضرني و حل بي ما فيه تحسيرى، و يا ويلتا بزياده التاء عند النداء مثل يا أبتا.

و العجوز الشيخه من النساء، و البعل زوج المرأه و الأصل فى معناه القائم بالأمر المستغنى عن الغير يقال للنخل الذى يستغنى بماء السماء عن سقى الأنهار و العيون بعل، و يقال للصاحب و للرب: بعل. و منه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم.

و العجيب صفه مشبهه من العجب و هو الحال العارض للإنسان من مشاهدته ما لا يعلم سببه، و لذا يكثر من الامور الشاذه النادره للجهل بسببها عاده و قولها: «يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ» الخ؛ و ارد مورد التعجب و التحسر فإنها لما سمعت بشاره الملائكه تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم و شيخ هرم بالغين فى الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاء فهو أمر عجيب على ما فيه من العار و الشين عند الناس فيضحكون منهما و يهزءون بهما و ذلك فضيحه.

قوله تعالى: قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ المجد هو الكرم و المجيد الكريم كثير النوال و قد تقدم معنى بقيه مفردات الآيه.

وقولهم: أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ اسْتِفْهَامٌ إنكارى انكرت الملائكة تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب و استغراب الأمر، والأمر المنسوب الى الله سبحانه و هو الذى يفعل ما يشاء و هو على كل شىء قدير لا وجه للتعجب منه.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة و مواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم الى ما مضى من نعمه النازله عليهم نعمه اخرى مختصه بهم من بين الناس و هو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عاده.

و لهذا الذى ذكرنا قالت الملائكة لها فى إنكار ما رأوا من تعجبها أولا «أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» فأضافوا الأمر الى الله لينقطع بذلك كل استعجاب و استغراب لأن ساحه الالهيه لا يشق شىء عليها و هو الخالق لكل شىء.

و ثانيا رَحِمْتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فنبهوها بذلك أن الله انزل رحمته و بركاته عليهم أهل البيت، و ألزمهم ذلك فليس من البعيد ان يكون من ذلك تولد مولود من والدين فى غير سنهما العادى المألوف لذلك.

و قوله: إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فى مقام التعليل لقوله: «رَحِمْتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» اى إنه تعالى مصدر كل فعل محمود و منشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته و بركاته على كل من يشاء من عباده.

قوله تعالى: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ الروع الخوف و الرعب و المجادله فى الأصل الإلحاح فى البحث و المساءله للغلبه فى الرأى، و المعنى انه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفه بتبين ان النازلين به لا يريدون به سوءا و لا يضمرون له شراً. و جاءته البشرى بأن الله سيرزقه و زوجه إسحاق و من وراء إسحاق يعقوب اخذ يجادل الملائكة فى قوم لوط يريد بذلك ان يصرف عنهم العذاب.

فقوله: يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ لحكاية الحال الماضية او بتقدير فعل ماض قبله و تقديره: اخذ يجادلنا، الخ، لأن الأصل في جواب لما ان يكون فعلا ماضيا.

و يظهر من الآيه ان الملائكة اخبروه اولاً: بأنهم مرسلون الى قوم لوط ثم ألقوا اليه البشاره ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم، و العذاب نازل لا مرد له.

و الذى ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر: وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالِ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (العنكبوت ٣٢).

قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ الحليم هو الذى لا يعاجل العقوبه و الانتقام، و الأواه كثير التأوه مما يصيبه او يشاهده من السوء، و المنيب من الإنابه و هو الرجوع و المراد الرجوع فى كل أمر الى الله.

و الآيه مسوقه لتعليل قوله فى الآيه السابقه: «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و فيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام و بيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا و يستقيموا، و كان كثير التأثر من ضلال الناس و حلول الهلاك بهم مراجعاً الى الله فى نجاتهم. لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين و ينتصر لهم بما هم ظالمون و حاشاه عن ذلك.

قوله تعالى: يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام و بذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح فى صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمراً فإن القضاء حتم و العذاب واقع لا محاله. فقولهم: «يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا» أى انصرف عن هذا الجدال و لا تطمع فى نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه.

وقولهم: إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ أَى بَلغ أمره مبلغا لا يدفع بدافع ولا يتبدل بمبدل و يؤيده قوله فى الجملة التالىة: «وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» فإن ظاهره المستقبل و لو كان الأمر صادرا لم يتخلف القضاء عن المقضى البتة و يؤيده أيضا قوله فى ما سياتى من آيات قصة قوم لوط: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا الخ؛ آية ٨٢ من السورة.

وقولهم: وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ اى غير مدفوع عنهم بدافع فله الحكم لا معقب لحكمه، و الجملة بيان لما أمر به جىء بها تأكيدا للجملة السابقة و المقام مقام التأكيد، و لذلك جىء فى الجملة الاولى بضمير الشأن و قد المفيد للتحقيق، و صدرت الجملتان معا يان، و أضافوا الأمر الى رب إبراهيم عليه السلام دون امر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدل (١)(٢).

## [سورة هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣]

### اشاره

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصَيْبٌ (٧٧) وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزَوْنَ فِي ضَعْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِيبَكَ لَنْ يَصِيبَكَ فَاذْهَبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

ص: ١٨٢

١-١. هود ٦٩-٧٦: بحث روائى فى اهلاک قوم لوط.

٢-٢. هود ٦٩-٧٦: كلام فى قصة البشرى (حديث ضيف ابراهيم عليه السلام).

قوله تعالى: **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** يقال: ساءه الأمر مساءه أى أوقع عليه السوء، و سبيء بالأمر بالبناء للمجهول أى أوقع عليه من ناحيته و بسببه.

و الذرع مقياسه الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها، و يطلق على نفس المقياس ايضاً، و يقال: ضاق بالأمر ذرعاً و هو كناية عن انسداد طريق الحيله و العجز عن الاهتداء الى مخلص ينجو به الانسان من النائبة كالذى يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه.

و العصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشدّ و اليوم العصيب هو اليوم الذى شدّ بالبلاء شدا لا يقبل الانحلال و لا بعض أجزائه ينفكّ عن بعض.

و المعنى جاءت رسلنا لوطاً و هم الملائكة النازلون بإبراهيم عليه السلام ساء مجيئهم لوطاً، و عجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه فى صور غلمان مرد صبيحي المنظر و كان قومه ذوى حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقب أن يعرضوا

عنهم و يتركوهم على حالهم، و لذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال «هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» أى شديد ملتفتٌ بعض شره ببعض.

قوله تعالى: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ الرَّاعِبُ: يقال: هرع و أهرع ساقه سوقا بعنف و تخويف، انتهى. و عن كتاب العين الإهرع السوق الحثيث، انتهى.

و قوله: «و مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» أى و من قبل ذلك كانوا يفترون المعاصى و يأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف، و لا يحجبهم عن ذلك استحياء أو استنشاع، و لا ينزجرون بموعظه أو ملامه أو مذمه لأن العاده تسهل كل صعب و تزين كل قبيح و وقبح.

و الجمله كالمعترضه بين قوله: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» و قوله: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي الخ» و هى نافعه فى مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذى كان يهرعهم و يسوقهم الى لوط عليه السلام هو أنهم كانوا يعملون السيئات و صوراً بذلك معتادين على إتيان الفحشاء و لعين به فساقهم ذلك الى المعجىء اليه و قصد السوء بأضيفه.

و أما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكه و استقرار العاده سلبوا سماع القبول و أن يزجرهم زاجر من عظه أو نصيحه، و لذلك بدأ لوط فى تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم «اتقوا الله و لا تخزون فى ضيفى» الخ.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ» الى آخر الآيه؛ لما رأهم تجمّعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظه أو إغلاظ فى الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصيه فيه من الحلال فعرض بناته عليهم و رجحه لهم بأنهن أطهر لهم.

و إنما المراد بصيغه التفضيل -أطهر- مجرد الاشتمال على الطهاره من غير شوب

بقضاره، والمراد هي طهاره محضاً، وهو استعمال شائع، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه ١١)﴾، وقال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ (النساء ١٢٨)﴾. وتفيد معنى الأخذ بالمتيقن.

و تقييد قوله: ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ بقوله: ﴿هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ شَاهِدٌ صَدَقَ عَلَيَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَضَ لَهُمْ مَسِيهٌ عَنْ نِكَاحٍ لَا عَنْ سَفَاحٍ وَ حَاشَا مَقَامَ نَبِيِّ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ السَّفَاحَ لَا طَهَارَةَ فِيهِ أَصْلًا وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (الإسراء ٣٢)﴾، وَ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ (الأنعام ١٥١)﴾، وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ هُوَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَامَةِ الْمَشْرَعَةِ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَةِ النَّازِلَةِ عَلَيَّ أَنْبِيَائِهِ.

وَ قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَعْفِي﴾ بَيَانٌ لِلْمَطْلُوبِ، وَ قَوْلُهُ: ﴿وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَعْفِي﴾ عَطْفٌ تَفْسِيرِي لِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا كَانَ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَتَعَرَّضُوا لِضَعْفِهِ لِتَقْوَى اللَّهِ لَا لَهْوَى نَفْسِهِ وَ عَصِييَةِ جَاهِلِيَّةٍ مِنْهُ، وَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فَرْقٌ بَيْنَ ضَعْفِهِ وَ غَيْرِهِمْ فِيمَا كَانَ يَرُدُّعُهُمْ، وَ قَدْ وَعَظَهُمُ بِالرَّدْعِ عَنْ هَذَا الذَّنْبِ الشَّنِيعِ وَ أَلْحَ عَلَيَّ ذَلِكَ سَنِينَ مَتَمَادِيهِ.

وَ إِنَّمَا عُلِقَ الرَّدْعُ عَلَيَّ مَعْنَى الضَّيْفَةِ وَ أَضَافَ الضَّيْفَ إِلَى نَفْسِهِ وَ ذَكَرَ الْخَزْيَ الْوَارِدَ عَلَيْهِ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ كُلِّ ذَلِكَ رَجَاءً أَنْ يَهِيحَ صَفْهُ الْفِتْوَى وَ الْكِرَامَةِ فِيهِمْ وَ لِذَلِكَ عَقِبَ ذَلِكَ بِالِاسْتِغَاثَةِ وَ الْاسْتِنصَارِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهِمْ ذَا رَشْدٍ إِنْسَانِي فَيَنْتَصِرُ لَهُ وَ يَنْجِيهِ وَ ضِيُوفَهُ مِنْ أَيْدِي أَوْلِيَاءِ الظَّالِمِينَ لَكِنِ الْقَوْمَ كَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (الحجر ٧٢) وَ لَمْ يُوَثِّرْ ذَلِكَ فِيهِمْ أَثْرًا وَ لَمْ يَنْتَهَوْا عَنْ قَوْلِهِ بَلْ أَجَابُوا بِمَا أَيَّسُّوهُ بِهِ مِنْ أَى إِلْحَاحٍ فِي ذَلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

نريدُ هذا جواب القوم عما دعاهم اليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفى أن يكون لهم فى بناته من حق و أنه يعلم ذلك و يعلم ما هو بغيتهم فى هذا الهجوم و ما ذا يريدون.

و قد قيل فى معنى نفيتهم الحق: إن معناه ما لنا فى بناته من حاجه و ما ليس للانسان فيه حاجه فكأنه لا حق له فيه فى الكلام نوع استعاره.

و قيل: إن المراد ليس لنا فى بناتك من حق لأننا لا نتزوجهن و من لم يتزوج بامرأه فلا حق له فيها فالمراد بنفى الحق نفى سببه و هو الازدواج.

و قيل: المراد بالحق هو الحظ و النصيب دون الحق الشرعى او العرفى أى لا رغبه لنا فيهن لأنهن نساء و لا ميل لنا اليهن.

و الذى يجب الالتفات اليه أنهم لم يقولوا: ما لنا فى بناتك من حق بل قالوا «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ» فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك و بين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكروه بما كان يعلم من السنه القوميه الجاربه بينهم، و هو المنع من التعرض لنساء الناس و خاصه بالقهر و الغلبه او ترك إتيان النساء بالمره و استباحه التعرض للغلمان و قضاء الوطر منهم، و قد كان لوط يردعهم عن سنتهم ذلك إذ يقول لهم: إِنَّكُمْ لَتَيَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ (الأعراف ٨١) أ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ (الشعراء ١٦٦) أ إِنَّكُمْ لَتَيَأْتُونَ الرَّجَالَ وَ تَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ (العنكبوت ٢٩)، و لا شك أن السنه القوميه الجاربه على فعل شىء يثبت حقا فيه، و الجاربه على تركه ينفى الحق.

و بالجملة هم يلفتون نظره عليه السلام الى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنه القوميه و ما يعلم من إرادتهم فى الهجوم على داره هذا و لعل هذا أحسن الوجوه، و بعده الوجه الثالث.

قوله تعالى: قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ يُقَالُ: آوَىٰ



الى كذا يأوى أوياً و مأوى أى انضم اليه، و آواه اليه يؤويه إيواء أى ضمه اليه. و الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر انه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله و تهيج فتوتهم فى حفظ موقعه و رعايه حرمة فى عدم التعرض لضيفه بما يجلب اليه العار و الخزى، و قد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولى الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره و يدفع عنه بل أياسوه بقولهم: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ» لم يبق له إلا- أن يظهر ما به من البث و الحزن فى صورته التمنى فتمنى أن يكون له منهم قوه يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين- و هو الرجل الرشيد الذى كان يسأل عنه فى استغاثته- او يكون له ركن شديد و عشيره منيعه ينضم اليهم فيدفعهم بهم.

فقوله: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَى ليت لى قدره بسبيكم بانضمام رجل منكم رشيد إلى يقوم بنصرتى فأدفعكم به، و قوله: «أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٍ شَدِيدٍ» أى او كنت أنضم الى ركن شديد أى عشيره منيعه يمنعكم منى هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

قوله تعالى: قَالُوا يَا لَوُطُ إِذَا رُسِلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْطَلُوا إِلَيْكَ إِلَى آخر الآيه؛ عدم وصولهم اليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون، و المعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط: إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة و عرفوه أنهم مرسلون من عند الله، و طيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا اليه و لن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى فى موضع آخر من كلامه: وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ (القمر ٣٧)، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر و ازدحموا على بابه فصاروا عميانا يتخبطون.

و قوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَتْلُفِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَرَّ السَّرِيَّ بِالضَّمِّ السَّيْرُ بِاللَّيْلِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» نَوْعٌ تَوْضِيحٌ لَهُ، وَ الْبَاءُ لِلْمَصَاحِبِ أَوْ بِمَعْنَى فِي. وَ الْقِطْعُ مِنَ الشَّيْءِ طَائِفَةٌ مِنْهُ وَ بَعْضُهُ، وَ الْاِتِّفَاتُ اِفْتِعَالٌ مِنَ الْاِتِّفِ، قَالَ الرَّاعِبُ: يُقَالُ: لَفْتَهُ عَنْ كَذَا صَرَفَهُ عَنْهُ، قَالَ تَعَالَى «قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْلِفِثَنَّ» أَيْ تَصْرَفْنَا، وَ مِنْهُ التَّفْتُ فَلَانِ إِذَا عَدَلَ عَنْ قَبْلِهِ بِوَجْهِهِ، وَ امْرَأَهُ لَفَوْتُ تَلَفْتُ مِنْ زَوْجِهَا إِلَى وَلَدِهَا مِنْ غَيْرِهِ. اِنْتَهَى.

وَ الْقَوْلُ دَسْتُورٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِلْوَطِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِرْشَادًا لَهُ إِلَى النِّجَاحِ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِالْقَوْمِ صَبِيحَهُ لَيْلَتَهُمْ هَاتِيكَ، وَ فِيهِ مَعْنَى الْاِسْتِعْجَالِ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُهُ بَعْدَ: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ».

وَ الْمَعْنَى أَنَا مَرْسَلُونَ لِعَذَابِ الْقَوْمِ وَ هَلَاكِهِمْ فَانْجِ أَنْتَ بِنَفْسِكَ وَ أَهْلِكَ وَ سَيَرُوا أَنْتَ وَ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنْ هَذَا اللَّيْلِ وَ اِخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فَإِنَّهُمْ هَالِكُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ صَبِيحَهُ لَيْلَتَهُمْ هَذِهِ، وَ لَا كَثِيرٌ وَقْتُ بَيْنِكَ وَ بَيْنَ الصُّبْحِ، وَ لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ كَمِ الْوَرَاءِ.

وَ قَوْلُهُ: إِلَّا أَمْرًا تَكَ إِنَّهُ مُصِيبٌ مَا أَصَابَهُمْ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ اِسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ:

«بِأَهْلِكَ» لَا- مِنْ قَوْلِهِ: «أَحَدٌ» وَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّهُ مُصِيبٌ بِهَا مَا أَصَابَهُمْ» بَيَانُ السَّبَبِ لَاسْتِثْنَائِهَا، وَ قَالَ تَعَالَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ: إِلَّا أَمْرًا تَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (الْحَجْرُ ٦٠).

وَ قَوْلُهُ: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ أَيْ مَوْعِدُ هَلَاكِهِمْ الصُّبْحُ وَ هُوَ صَدْرُ النَّهَارِ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ حِينَ الشَّرُوقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الْحَجْرُ ٧٣).

وَ الْجُمْلَةُ الْاُولَى تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» وَ فِيهِ نَوْعٌ اِسْتِعْجَالٍ كَمَا تَقَدَّمَ، وَ يُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» وَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَعْجِلُهُمْ فِي عَذَابِ الْقَوْمِ فَيَجِيبُوهُ بِقَوْلِهِمْ: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» أَيْ إِنْ مِنَ الْمَقْدَرِ أَنْ يَهْلِكُوا بِالصُّبْحِ وَ لَيْسَ مَوْعِدًا بَعِيدًا أَوْ يَكُونُ الْجُمْلَةُ الْاُولَى اِسْتِعْجَالًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ،

و الثانية تسليه منهم للوط فى استعجاله.

و لم يذكر فى الآيات ما هى الغايه لسراهم و المحل الذى يتوجهون اليه، و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (الحجر ١٦٥)، و ظاهره أن الملائكه لم يذكروا له المقصد و أحالوا ذلك الى ما سيأتيه من الدلاله بالوحي الإلهي.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ آمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ضَمَائِرَ التَّائِبِ الثَّلَاثِ راجعه الى أرض القوم او القرية او بلادهم المعلومه من السياق، و السجّيل على ما فى المجمع بمعنى السجّين و هو النار، و قال الراغب: السجّين حجر و طين مختلط، و أصله فيما قيل فارسى معرّب، انتهى. يشير الى ما قيل إن أصله سنككل، و قيل: إنه مأخوذ من السجلّ بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك، و قيل: مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت.

و الظاهر أن الأصل فى جميع هذه المعانى هو التركيب الفارسى المعرّب المفيد معنى الحجر و الطين، و السجلّ بمعنى الكتاب ايضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسّمى كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس، و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك.

و النضد هو النظم و الترتيب، و التسويم جعل الشئ ذا علامه من السيماء بمعنى العلامه.

و المعنى: و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكه بعذابهم و هو كلمه «كن» التى أشار إليها فى قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ - كُنْ (يس ٨٣)، جعلنا على أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجاره من سجّيل منضود معلّمه عند ربك و فى علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذى رميت لأجل إصابته.

و قوله تعالى: وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعْدٍ قِيلَ المراد بالظالمين ظالمو أهل

مكة او المشركون من قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الكلام مسوق للتهديد، والمعنى وليست هذه الحجارة من ظالمى مكة ببعيد او المعنى: ليست هذه القرى المخسوفه من ظالمى قومك ببعيد فإنه فى طريقهم بين مكة و الشام، كما قال تعالى فى موضع آخر: وَإِنَّهَا لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ (الحجر ٧٦)، و قال: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (الصافات ١٣٨).

و يؤيد العدول من سياق التكلم الى الغيبه فى قوله: «مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ» فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا: مسومه عندنا، الى هذا التعبير ليتعرض لقومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالتهديد أو بإنهاء الحديث الى حسهم ليكون أقوى تأثيراً فى الحجاج عليهم.

و ربما احتمال أن المراد تهديد مطلق الظالمين و المراد انه ليست الحجارة اى إظهارها من عند الله تعالى من معشر الظالمين و منهم قوم لوط الظالمون ببعيد، و يكون وجه الالتفات فى قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» ايضا التعريض لقوم النبي الظالمين المشركين (١)(٢).

### [سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥]

#### اشاره

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا أَلْسِنَةً هُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفُكُمْ إِلَهِي مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ (٩٢) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

ص: ١٩٠

١- ١). بحث روائى حول قصه لوط عليه السلام و قومه.

٢- ٢). هود ٧٧-٨٣: كلام فى قصه لوط و قومه فى فصول (قصته و قصه قومه فى القرآن، عاقبه امرهم، شخصيه لوط المعنويه، لوط و قومه فى التوراه).



قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدِينَةٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء و أممهم، و مدين اسم مدينه كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبه إرسال شعيب الى مدين و كان مرسلا الى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا: جرى الميزاب، و في عد شعيب عليه السلام أخوا لهم دلالة على أنه كان ينتسب اليهم.

و قوله: قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ تقدم تفسيره في نظائره.

و قوله: «وَلَا تَتَّقُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ» المكيال و الميزان اسما آله بمعنى ما يكال به و ما يوزن به، و لا يوصفان بالنقص و إنما يوصف بالنقص كالزيادة و المساواه المكيل و الموزون فنسبه النقص الى المكيال و الميزان من المجاز العقلي.

و في تخصيص نقص المكيال و الميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم و إقبالهم عليه و إفراطهم فيه بحيث ظهر فساد و بان سيئ أثره فأوجب ذلك شده اهتمام به من داعي الحق فدعاهم الى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي.

و قوله: إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ أَىٰ أَشَاهِدْكُمْ فِي خَيْرٍ، و هو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال و سعه الرزق و الرخص و الخصب فلا حاجة لكم الى نقص المكيال و الميزان، و اختلاس اليسير من اشيء الناس طمعا في ذلك من غير سبيله المشروع و ظلما و عتوا، و على هذا فقوله: إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ تعليل لقوله: وَلَا تَتَّقُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ.

و يمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعنايه الله معنيون بنعمه آتاكم عقلا و رشدا و رزقكم رزقا فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهه من دونه و تشركوها به غيره، و أن تفسدوا فى الأرض بنقص المكيال و الميزان، و على هذا يكون تعليلا- لما تقدمه من الجملتين أعنى قوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ» الخ؛ و قوله: «وَلَا تَنْقُصُوا» الخ؛ كما أن قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» كذلك.

فمحصل قوله: إِنِّي أَرَاكُمْ الى آخر الآيه أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصيه الله: أحدهما: أنكم فى خير و لا حاجه لكم الى بخرس أموال الناس من غير سبيل حلها. و ثانيهما: ان وراء مخالفه امر الله يوما محيطا يخاف عذابه.

و ليس من البعيد أن يراد بقوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» أنى أراكم برؤيه خير أى انظر اليكم نظر الناصح المشفق الذى لا- يصاحب نظره إلا الخير و لا يريد بكم غير السعاده، و على هذا يكون قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» كعطف التفسير النسبه اليه.

و قوله: وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ يشير به الى يوم القيامه او يوم نزول عذاب الاستتصال و معنى كون اليوم- هو يوم القضاء بالعذاب- محيطا أنه لا- مخرج منه و لا- مفر و لا- ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر و لا معين، و لا ينفع فيه توبه و لا شفاعه، و يتول معنى الإحاطه الى كون العذاب قطعيا لا مناص منه، و معنى الآيه أن للكفر و الفسوق عذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ الخ؛ الإيفاء إعطاء الحق بتمامه و البخرس النقص كمر القول فى المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغه فى الاهتمام أمر لا غنى لمجتمعهم عنه، و ذلك أنه دعاهم اولاً- الى الصلاح بالنهى عن نقص المكيال و الميزان، و عاد ثانيا فأمر بايفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخرس الناس اشياءهم إشاره الى أن مجرد التحرز عن نقص

المكيال و الميزان لا- يكفى فى إعطاء هذا الأمر حقه- وإنما نهى عنه اولا لتكون معرفه إجماليه هى كالمقدمه لمعرفه التكليف تفصيلا- بل يجب أن يوفى الكائل و الموازن مكياله و ميزانه و يعطياهما حقهما و لا يخسا و لا ينقصا الأشياء المنسوبه الى الناس بالمعامله حتى يعلما انها اديا الى الناس اشياءهم و ردا اليهم ما لهم على ما هو عليه.

و قوله: **وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** قال الراغب: العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جذب إلا ان العيث اكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا و العثى فيما يدرك حكما يقال: عثى يعنى عثيا، و على هذا **«وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»** و عثا يعثو عثوا. انتهى.

و على هذا فقوله: **مُفْسِدِينَ** حال من ضمير **«لَا تَعْتُوا»** لإفاده التأكيد نظير ما يفيد قولنا: لا تفسدوا إفسادا.

و الجمله اعنى قوله: **وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** نهى مستأنف عن الفساد فى الارض من قتل او جرح او أى ظلم مالى او جاهى او عرضى لكن لا يبعد ان يستفاد من السياق كون الجمله عطفيا تفسيرا للنهى السابق فيكون نهيا تأكيدا عن التطفيف و نقص المكيال و الميزان لأنه من الفساد فى الأرض.

قوله تعالى: **بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** البقيه بمعنى الباقي و المراد به الربح الحاصل للبائع و هو الذى يبقى له بعد تمام المعامله فيضعه فى سبيل حوائجه، و ذلك ان المبادله و إن لم يوضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح، و إنما كان الواحد منهم يقتنى شيئا من متاع الحياه، فإذا كان يزيد على ما يحتاج اليه بَدَل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج اليه و لا يملكه ثم اخذت نفس التجاره و تبديل الأمتعه من الأثمان حرفه يكتسب بها المال و يقتنى بها الثروه فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد او انواع شتى و عرضه على أرباب الحاجه للمبادله، و أضاف الى



رأس ماله فيه شيئاً من الربح بإزاء عمله في الجمع و العرض و رضى بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل امر المبادله عليهم فللتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشته و يحوّل اليه ثروه يقنتيها و يقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذي هو بقيه إلهيه هداكم الله اليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف و نقص المكيال و الميزان و إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذي ساقه الله اليه من طريق حله، و أما غير ذلك مما لا يرتضيه الله و لا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه و لا حاجه له اليه.

و قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أَيْ و ما يرجع الى قدرتي شيء مما عندكم من نفس او عمل او طاعه او رزق و نعمه فإنما انا رسول ليس عليه إلاّ البلاغ، لكم ان تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم او تسقطوا في مهبط الهلكه من غير ان اقدر على جلب خير اليكم او دفع شر منكم فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ رَدّ منهم لحجه شعيب عليه، و هو من أطف التركيب، و مغزى مرادهم أننا في حربه فيما نختاره لأنفسنا من دين او نتصرف به في اموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت او تنهاننا عن كل ما كرهت فإن ساءك شيء مما تشاهد منا بما تصلّى و تتقرب الى ربك و أردت ان تأمر و تنهى فلا تتعدّ نفسك لأنك لا تملك إلاّ إياها.

و قد أدوا مرادهم هذا في صوره بديعه مشوبه بالتهكم و اللوم معا و مسبوكه في قالب الاستفهام الإنكارى و هو ان الذي تريده منا من ترك عباده الأصنام، و ترك ما شئنا من التصرف في اموالنا هو الذي بعثتك اليه صلاتك و شوهته في عينك فأمرتك به لما انها ملكتك لكنك اردت منا ما ارادته منك صلاتك و لست تملكنا انت و لا صلاتك لأننا احرار في

شعورنا و إرادتنا لنا ان نختار اى دين شئنا و نتصرف فى اموالنا اى تصرف اردنا من غير حجر و لا منع و لم نتحل إلا ديننا الذى هو دين آباءنا و لم نتصرف إلا فى اموالنا و لا حجر على ذى مال فى ماله.

فما معنى ان تأمرک إياک صلاتک بشىء و نكون نحن الممثلون لما امرتک به؟ و بعبارة أخرى ما معنى ان تأمرک صلاتک بفعلنا القائم بنا دونک؟ فهل هذا إلا سفها من الرأى؟ و إنک لأنت الحلیم الرشید و الحلیم لا یعجل فى زجر من یراه مسینا و انتقام من یراه مجرما حتى ینجلی له وجه الصواب، و الرشید لا یقدم على امر فيه غی و ضلال فکیف اقدمت على مثل هذا الأمر السفهى الذى لا صوره له إلا الجهاله و الغی؟

قوله تعالى: **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** المراد بكونه على بينة من ربه كونه على آية بينة و هى آية النبوه و المعجزه الداله على صدق النبى فى دعوى النبوه، و المراد بكونه رزق من الله رزقا حسنا أن الله آتاه من لدنه وحى النبوه المشتمل على أصول المعارف و الشرائع، و قد مرّ توضیح نظیر هاتین الكلمتين فيما تقدم.

و المعنى: أخبرونى إن كنت رسولا من الله اليكم و خصّنى بوحي المعارف و الشرائع و أريدنى بآية بينة يدل على صدق دعواى فهل أنا سفیه فى رأى؟ و هل ما أدعوكم اليه دعوه سفهيه؟ و هل فى ذلك تحكّم منى عليكم او سلب منى لحریتکم؟ فإنما هو الله المالك لكل شىء و لستم أحرار بالنسبه اليه بل انتم عباده يأمرکم بما شاء، و له الحكم و اليه ترجعون.

و قوله: **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ تَعَدِيهِ** المخالفه بالى لتضمينه معنى ما يتعدى بها كالميل و نحوه؟ و التقدير: أخالفکم ماثلا الى ما أنهاكم عنه او أميل الى ما أنهاكم عنه مخالفا لكم.

و الجملة جواب عن ما اتهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحريه فى أعمالهم

و يستعبدهم و يتحكم عليهم، و محصّيه أنه لو كان مريداً ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه، و هو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتّهموه به و إنما يريد الإصلاح ما استطاع (١).

و قوله: **وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** في مقام الاستثناء من الاستطاعه فإنه عليه السّلام لما ذكر لهم انه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع و العمل الصالح على مقدار ماله من الاستطاعه و في ضوئها أثبت لنفسه استطاعه و قدره و ليست للعبد باستقلاله و حيال نفسه استطاعه دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص و القصور بقوله:

**«وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ»** أي إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعه مني من تدبير أمور مجتمعكم و توفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجه لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه و لا مخرج من إحاطته و لا استقلال في امر دونه فهو الذي اعطاني ما هو عندي من الاستطاعه، و هو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه و توفيقى به (٢)(٣).

قوله تعالى: **وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ** الجرم بالفتح فالسكون-على ما ذكره الراغب-قطع الثمره عن الشجر و قد استعير لكل اكتساب مكروه، و الشقاق المخالفه و المعاداه. و المعنى: احذروا أن يكتسب لكم مخالفتي و معاداتي بسبب ما أدعوكم اليه إصابه مصيبه مثل مصيبه قوم نوح و هي الغرق او قوم هود و هي الريح العقيم او قوم صالح و هي الصيحه و الرجفه.

و قوله: **وَ مَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَبَعِيدٍ** أي لا فصل كثيرا بين زمانهم و زمانكم و قد كانت الفاصله الزمانيه بين القومين أقل من ثلاثه قرون، و قد كان لوط معاصرا لإبراهيم عليهما السّلام

ص: ١٩٧

١-١. هود ٧٤-٩٥: كلام في حكمه احكام الله.

٢-٢. هود ٨٤-٩٥: كلام في انه تعالى و كيل كل شيء.

٣-٣. هود ٨٤-٩٥: كلام في معنى حريه الانسان في عمله.

و شعيب معاصرا لموسى عليهما السلام.

وقيل: المراد به نفى البعد المكاني، والإشارة الى أن بلادهم الخربه قريبه منكم لقرب مدين من سدوم و هو بالأرض المقدسه، فالمعنى: و ما كان قوم لوط منكم بعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفه و آثارهم الباقية الظاهره. و السياق لا يساعد عليه و التقدير خلاف الأصل لا يصار اليه إلا بدليل.

قوله تعالى: «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» قد تقدم الكلام فى معنى قوله: «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» اى استغفروا الله من ذنوبكم و ارجعوا اليه الإيمان به و برسوله إن الله ذو رحمة و موده يرحم المستغفرين التائبين و يحبهم.

و قد قال أولا- «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» فأضاف الرب اليهم ثم قال فى مقام تعليله «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» و لعل الوجه فيه أنه ذكر فى مرحله الأمر بالاستغفار و التوبه من الله سبحانه صفه ربوبيته لأنها الصفه التى ترتبط بها العباده و منها الاستغفار و التوبه، و أضاف ربوبيته اليهم بقوله: «رَبَّكُمْ» لتأكيد الارتباط و للإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الارباب من دون الله.

و كان من حق الكلام ان يقول فى تعليله: إن ربكم رحيم وودود لكنه لما كان مع كونه تعليلا ثناء على الله سبحانه، و قد أثبت سابقا انه رب القوم أضافه ثانيا الى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم و ربى رحيم وودود.

على ان فى هذه الإضافة معنى المعرفه و الخبره فتفيد تأييدا لصحة القول فإنه فى معنى انه تعالى رحيم وودود و كيف لا؟ و هو ربى أعرفه بهذين الوصفين.

و الودود من أسماء الله تعالى، و هو فعول من الود بمعنى الحب إلا ان المستفاد من موارد استعماله انه نوع خاص من المحبه و هو الحب الذى له آثار و تبعات ظاهره كالالفه و المروده و الإحسان، قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (الروم ٢١).

و الله سبحانه يحب عباده و يظهر آثار حبه بإفاضه نعمه عليهم: وَإِنْ تَعِدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا (إبراهيم ٣٤) فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى: قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الفقه أبلغ من الفهم و أقوى، و رهط الرجل عشيرته و قومه، و قيل:

إنه من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة و على هذا ففي قولهم: رهطك، إشاره إلى قلتهم و هو ان امرهم، و الرجم هو الرمي بالحجارة.

لما حاجهم شعيب عليه السلام و أعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون ان يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجج فذكروا له:

أولاً: ان كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له، و هذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائدة فيه.

ثم عقبه بقولهم: «وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا» أى لا- نفهم ما تقول و لست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد فى فهم كلامك و الاهتمام بأخذه، و السمع و القبول له فإننا لا نراك فينا إلا ضعيفا لا يعبأ بأمره و لا يلتفت إلى قوله.

ثم هددوه بقولهم: «وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» أى و لو لا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكننا نراعى جانبهم فيك، و فى تقليل العشيره إيماء إلى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير ان يبالوا بعشيرته، و إما كفهم عن قتله نوع احترام و تكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» تأكيداً لقولهم: «لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» أى لست بقوى منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتلى، و إنما يمنعنا رعايه جانب رهطك. فمحصل قولهم إهانته شعيب و أنهم لا يعبتون به و لا بما قال، و إنما يراعون فى ترك

التعرض له جانب رهطه.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا الظهري نسبة الى الظهر بفتح الظاء المعجمه و إنما غير بالنسب و هو الشيء الذى وراء الظهر فيترك نسيا منسيا يقال: اتخذه وراء ظهرياً اي نسيه و لم ذكره و لم يعتن به.

و هذا نقض من شعيب لقولهم: وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ اي كيف تعززون رهطى و تحترمون جانبهم، و لا تعززون الله سبحانه و لا تحترمون جانبه و انى انا الذى ادعوكم اليه من جانبه؟ فهل رهطى اعز عليكم من الله؟ و قد جعلتموه نسيا منسيا و ليس لكم ذلك و ما كان لكم ان تفعلوه ان ربي بما تعملون محيط بما له من الإحاطه بكل شىء و جودا و علما و قدره. و فى الآيه طعن فى رأيهم بالسفه كما طعنوا فى الآيه السابقه فى رأيه بالهوان.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع: المكانه الحال التى يتمكن بها صاحبها من عمل. انتهى و هو فى الأصل. كما قيل -من مكن مكانه كضخم ضخمه إذا قوى على العمل كل القوه و يقال- تمكن من كذا أى أحاط به قوه.

و هذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بانه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق و لا اضطراب من كفرهم به و تمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوه و التمكن فلهم عملهم و له عمله فسوق يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذى يأخذه العذاب. و هو أو هو؟ و يعلمون من هو كاذب؟ فليرتقبوا و هو معهم رقيب لا يفارقهم.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا -الى قوله- جَائِمِينَ تقدم ما يتضح به معنى الآيه.

قوله تعالى: كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ غنى فى المكان إذا أقام فيه. و قوله: «أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ» الخ؛ فيه لعنهم كما لعنت ثمود، و قد تقدم بعض

الكلام فيه فى القصص السابقه (١).

[سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ٩٩]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ الباء فى قوله:

«بِآيَاتِنَا» للمصاحبه اى و لقد ارسلنا موسى مصحوبا لآياتنا و ذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء و الرسل و أيدهم بالآيات المعجزه طائفتان منهم من أوتى الآيه المعجزه على حسب ما اقترحه قومه كصالح عليه السّلام المؤيد بآيه الناقه، و طائفه أيدوا بآيه من الآيات فى بدء بعثتهم كموسى و عيسى و محمّد عليهم السّلام، كما قال تعالى خطابا لموسى عليه السّلام: إِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِنَا (طه ٤٢)، و قال فى عيسى عليه السّلام: وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ الْخ؛ (آل عمران ٤٩)، و قال فى محمّد صلى الله عليه و آله و سلم: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ (الصف ٩)، و الهدى القرآن بدليل قوله: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

ص: ٢٠١

١- ١). هود ٨٤-٩٥: كلام فى قصه شعيب و قومه فى القرآن فى فصول (هو عليه السّلام ثالث المرسل، شخصيته المعنويه، ذكره فى التوراه).

لِلْمُتَّقِينَ (البقره ٢/٢)، و قال تعالى: وَ اتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ (الأعراف ١٥٧/١).

فموسى عليه السّلام مرسل مع آيات و سلطان مبين، و ظاهر أن المراد بهذه الآيات الامور الخارقه التي كانت تجرى على يده، و يدل على ذلك سياق قصصه عليه السّلام فى القرآن الكريم.

و أما السلطان و هو البرهان و الحججه القاطعه التي يتسلط على العقول و الافهام فيعمّ الآيه المعجزه و الحججه العقليه، و على تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العامّ على الخاصّ.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجاربه بينه و بين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذى ما ابتلى بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السّلام لكنّ الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه و جنوده و نجى بنى اسرائيل بيده، و يشعر بهذا المعنى قوله: **قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (طه ١٤٦/١)، و قوله لموسى عليه السّلام: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ (طه ٦٨/١).**

و فى هذه الآيه و نظائرها دلالة واضحة على أن رساله موسى عليه السّلام ما كانت تختصّ بقومه من بنى اسرائيل بل كانت تعمّهم و غيرهم.

قوله تعالى: **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ** نسبه رسالته الى فرعون و ملاه-و الملاء هم اشراف القوم و عظماءهم الذين يملئون القلوب هيبه-دون جميع قومه لعلها للإشاره الى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعا لا رأى لهم إلا ما رآه لهم عظماءهم.

و قوله: **فَآتَبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ** الخ؛ الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعمّ من القول و الفعل كما حكى الله عن فرعون فى قوله: **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩/١)**، فينطبق على السّنه و الطريقه التي كان يتخذها و يأمر



بها. و كأن الآيه محاذاه لقول فرعون هذا فكذبه الله تعالى بقوله: «وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» .

و الرشيد فعيل من الرشد خلاف الغي اي و ما أمر فرعون بنى رشد حتى يهدى الى الحق بل كان ذا غي و جهاله، و قيل: الرشيد بمعنى المرشد.

و فى الجملة أعنى قوله: «وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» وضع الظاهر موضع المضمرة و الأصل «أمره» و لعل الفائدة فيه ما يفيد اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر و لا يستفاد ذلك من الضمير البته.

قوله تعالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ أى يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمة الضلال، قال تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ (القصص ٤١).

قوله: فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ تفریع على سابقه أى يقدمهم فيوردهم النار، و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع، و ربما قيل: تفریع على قوله: «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أى اتبعوه فأوردهم الاتباع النار، و قد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله: وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (المؤمن ٤٦) حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا، و لا يخفى ان الآيات ظاهره فى خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها فى العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوًا و عشيا، و فى يوم القيامة بالدخول فى أشد العذاب الذى سجل فيها أنه النار.

و قوله: وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ الورد هو الماء الذى يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للشرب، قال الراغب فى المفردات: الورد أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره يقال: وردت الماء أرد و رودا فأنا وارد و الماء مورود. و قد أوردت الإبل الماء قال «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» و الورد الماء المرشح للورود. انتهى.

و على هذا ففى الكلام استعاره لطيفه بتشبيه الغايه التى يقصدها الإنسان فى الحياه لمساعيه المبذوله بالماء الذى يقصده العطشان فعذب السعاده التى يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرد، و سعاده الإنسان الأخيره هى رضوان الله و الجنه و لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون و أخطئوا سبيل السعاده الحقيقه تبدلت غايتهم الى النار فكانت النار هو الورد الذى يردونه، و بس الورد المورد، لأن الورد هو الذى يخمد لهيب الصدر و يروى الحشا العطشان و هو عذب الماء و نعم المنهل السائغ و أما إذا تبدل الى عذاب النار فبس الورد المورد.

قوله تعالى: وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ أى هم اتبعوا أمر فرعون فاتبعتهم لعنه من الله فى هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحه قربه، و مصداق اللعن الذى أتبعوه هو الغرق، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمه المكتوب فى صحائف أعمالهم الذى من آثاره الغرق و عذاب الآخره.

و قوله: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ الرفد هو العطيه و الأصل فى معناه العون، و سميت العطيه رفا و مرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه، و المعنى و بس الرفد رفاهم يوم القيامة و هو النار التى يسجرون فيها، و الآيه نظيره قوله فى موضع آخر:

وَ أَتَّبِعَانَّهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (القصص ٤٢).

و ربما أخذ «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ظرفا فالآيه متعلقا بقوله: «أَتَّبِعُوا» أو بقوله: «لَعْنَهُ» نظير قوله: «فِي هَذِهِ»، و المعنى: و أتبعهم الله فى الدنيا و الآخره لعنه أو فاتبعهم الله لعنه الدنيا و الآخره ثم استؤنف فقيل: بس الرفد المرفود اللعن الذى أتبعوه أو الاتباع باللعن.

## [سوره هود (١١): الآيات ١٠٠ الى ١٠٨]

### إشارة

ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْقُرَى نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا فَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَا هُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَ مَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذُنُوبِهَا فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ (١٠٨)

قوله تعالى: ذٰلِكَ مِنْ اٰيٰتِ الْقُرٰى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ الْاِشَارَةُ اِلَى مَا تَقْدِمُ مِنَ الْقِصَصِ، وَ مِنْ تَبْعِيضِيَّةِ اٰى الَّذِى قِصَصْنَاهُ عَلَيْكَ هُوَ بَعْضُ اَخْبَارِ الْمَدَائِنِ وَ الْبِلَادِ اَوْ اَهْلِهِمْ نَقَصَهُ عَلَيْكَ.

و قوله: مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ الْحَصِيدُ قَطْعُ الزَّرْعِ، شَبَّهَهَا بِالزَّرْعِ يَكُونُ قَائِمًا وَ يَكُونُ حَصِيدًا، وَ الْمَعْنَى اِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْقُرَى نَفْسَهَا اَنَّ مِنْ الْقُرَى الَّتِى قِصَصْنَا اَنْبَاءَهَا عَلَيْكَ مَا هُوَ

قائم لم تذهب بقايا آثارها التي تدلّ عليها بالمره كقرى قوم لوط حين نزول قصيتهم في القرآن كما قال: **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (العنكبوت ٣٥) وقال:

**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (الصفات ١٣٨)، و منها ما انمحت آثاره و انطمست أعلامه كقرى قوم نوح و عاد.

و إن كان المراد بالقرى أهلها فالمعنى أنّ من تلك الامم و الأجيال من هو قائم لم يقطع دابرهم البتّه كأمة نوح و صالح، و منها من قطع الله دابرهم كقوم لوط لم ينج منهم إلا أهل بيت لوط و لم يكن لوط منهم.

قوله تعالى: **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** الى آخر الآية؛ أى ما ظلمناهم فى إنزال العذاب عليهم و إهلاكهم إثر شركهم و فسوقهم و لكن ظلموا أنفسهم حين أشركوا و خرجوا عن زى العبوديّة، و كلما كان عمل و عقوبه عليه كان أحدهما ظلما إما العمل و إما العقوبه عليه فإذا لم تكن العقوبه ظلما كان الظلم هو العمل استتبع العقوبه.

فمحصّل القول أنا عاقبناهم ظلمهم و لذا عقبه بقوله: **«فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ»** الخ؛ لأن محصّل النظم أخذناهم فما أغنت عنهم آلِهتهم، فالمفترّع عليه هو الذى يدل عليه قوله:

**«وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ»** الخ؛ و المعنى أخذناهم فلم يكفهم فى ذلك آلِهتهم التى كانوا يدعونها من دون الله لتجلب اليهم الخير و تدفع عنهم الشر، و لم تغنهم شيئا لما جاء أمر ربك و حكمه بأخذهم أو لما جاء عذاب ربك.

و قوله: **«وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبِ التَّتِيبِ التَّدْمِيرِ وَ الْإِهْلَاكِ مِنَ التَّبِّ وَ أَصْلِهِ الْقَطْعُ** لأن عبادتهم الأصنام كان ذنبا مقتضيا لعذابهم و لما أحسوا بالعذاب و البؤس فالتجئوا الى الأصنام و دعوا لكشفه و دعاؤها ذنب آخر زاد ذلك فى تشديد العذاب عليهم و تغليظ العقاب لهم فما زادوهم غير هلاك.

و نسبة التتبيب الى آلِهتهم مجاز و هو منسوب فى الحقيقة الى دعائهم إياها، و هو عمل

قائم الحقيقه بالداعى لا بالمدعو.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ الإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى، وَذَلِكَ بَعْضُ مُصَادِقِ أَخْذِهِ تَعَالَى بِالْعُقُوبَةِ قَاسٌ بِهِ مُطْلَقٌ أَخْذَهُ الْقُرَى فِي أَنَّهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ الْكُلِّيِّ بِبَعْضِ مُصَادِقِهِ فِي الْحُكْمِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ عَامٌ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ فَنَّ التَّشْبِيهِ شَائِعٌ وَقَوْلُهُ: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» بَيَانٌ لَوَجْهِ الشَّبْهِ وَهُوَ الْأَلَمُ وَالشَّدَّةُ.

والمعنى كما أخذ الله سبحانه هؤلاء الأئمة الظالمه: قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و قوم فرعون أخذوا أليما شديدا، كذلك يأخذ سائر القرى الظالمه إذا أخذها فليعتبر بذلك المعترفون.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَمَآيَهٗ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الإِشَارَةُ إِلَى مَا أَنْبَأَهُ اللَّهُ مِنْ قِصَصِ تِلْكَ الْقُرَى الظالمه التي أخذها بظلمها أخذوا أليما شديدا.

و أنبأ أن أخذه كذلك يكون، و في ذلك آيه لمن خاف عذاب الآخرة، و علامه تدل على أن الله سبحانه و تعالى سيأخذ في الآخرة المجرمين بإجرامهم، و إن أخذه سيكون أليما شديدا فيوجب اعتباره بذلك و تحرزه ممّا يستتبع سخط الله تعالى.

و قوله: ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ أَي ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ عَذَابُ الْآخِرَةِ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ فَالإِشَارَةُ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَكَرُ عَذَابِ الْآخِرَةِ، «و لَذَلِكَ أَتَى بِلَفْظِ الْمَذْكُورِ» كَمَا قِيلَ، وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَذْكَيرُ الإِشَارَةِ لِيُطَابِقَ الْمَبْتَدَأَ الْخَبِيرَ.

و وصف اليوم الآخر بأنه مجموع له الناس دون ان يقال: سيجمع أو يجمع له الناس إنما هو للدلالة على أن جمع الناس له من أوصافه المقضية له التي تلزمه و لا تفارقه من غير أن يحتاج الى الإخبار عنه بخبر.

فمشخص هذا اليوم أن الناس مجموعون لأجله-و اللام للغايه-فليوم شأن من الشأن

لا- يتم إلا- بجمع الناس بحيث لا- يغادر منهم أحد و لا- يتخلف عنه متخلف: و للناس شأن من الشأن يرتبط به كل واحد منهم بالجميع، و يمتزج فيه الأول مع الآخر و الآخر مع الأول و يختلط فيه الكل بالبعض و البعض بالكل، و هو حساب أعمالهم من جهة الإيمان و الكفر و الطاعة و المعصية، و بالجملة من حيث السعادة و الشقاوه.

و قوله: وَ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ كالمترفع بظاهره على الجملة السابقة «ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ» إذ الجمع يوجب المشاهده غير أن اللفظ غير مقيد بالناس و إطلاقه يشعر بأنه مشهود لكل من له أن يشهد كالناس و الملائكة و الجن، و الآيات الكثيره الداله على حشر الجن و الشياطين و حضور الملائكة هناك يؤيد إطلاق الشهاده كما ذكر.

قوله تعالى: وَ مَا تُوخَّرُهُ إِلَّا- لِأَجَلٍ مَّعِيْنٍ أَي أن لذلك اليوم أجلا قضى الله أن لا يقع قبل حلول أجله و الله يحكم لا معقب لحكمه و لا راد لقضائه، و لا يؤخر اليوم إلا لأجل يعده فإذا تم العدد و حل الأجل حق القول و وقع اليوم.

قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فاعل «يَأْتِ» ضمير راجع الى الأجل السابق الذكر أى يوم يأتى الأجل الذى تؤخر القيامه اليه لا تتكلم نفس إلا بإذنه، قال تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ (العنكبوت ٥).

و ذكر بعضهم كما فى المجمع أن المعنى يوم يأتى القيامه و الجزاء، و لازمه إرجاع الضمير الى القيامه و الجزاء لدلاله سابق الكلام اليه بوجه، و هو تكلف لا حاجه اليه.

و ذكر آخرون- كما فى تفسير صاحب المنار- أن المعنى فى الوقت الذى يجيء فيه ذلك اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقه إلا- بإذن الله تعالى فالمراد باليوم فى الآيه مطلق الوقت أى غير المحدود لأنه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر الذى هو فاعل يأتى.

و هو خطأ لاستلزامه ظرفيه اليوم لليوم لعود المعنى حقيقه الى قولنا: فى الوقت الذى يجيء فيه ذلك الوقت المعين أو اليوم الذى يجيء فيه ذلك اليوم المعين، و التفرقه بين

اليومين يجعل أحدهما خاصا و معينا و الآخر عاما و مرسلا لا ينفع فى دفع محذور ظرفيه الشىء لنفسه و مطروفيه الزمان- و هو ظرف بذاته-لزمان آخر، و هو محال لا ينقلب ممكنا بتغيير اللفظ.

و ما ذكره من التفرقة بين اليومين بالاطلاق و التحديد مجرد تصوير لا تغنى شيئا فان اليوم الذى يأتى فيه ذلك اليوم الموصوف و ذلك اليوم الموصوف متساويان إطلاقا و تحديدا و سعه و ضيقا، نعم ربما يؤخذ الزمان متحدا بما يقع فيه من الحوادث فيصير حادثا من الحوادث و تلغى ظرفيته فيجعل مطروفا لزمان آخر كما يقال يوم الأضحى فى شهر ذى الحجه و يوم عاشوراء فى المحرم، قال تعالى: **وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** (الجاثية ٢٧) فإن صحت هذه العناية فى الآية أمكن به أن يعود ضمير يأتى الى اليوم.

و قوله: **لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ** أى لا تتكلم نفس ممن حضر إلا بإذن الله سبحانه، و حذف أحد التاءين المجتمعين فى المستقبل من باب التفعّل شائع قياسى.

و الباء فى قوله: **بِإِذْنِهِ** للمصاحبه فالاستثناء فى الحقيقة من الكلام لا من المتكلم كما فى قوله: **لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** (النبا ٣٨) و المعنى لا تتكلم نفس بشىء من الكلام إلا بالكلام الذى يصاحب إذنه لا كالدنيا يتكلم فيها الواحد منهم بما اختاره و أراد، أذن فيه الله إذن تشريع أم لم يأذن.

و قد ذكرت الصفة أعنى عدم تكلم نفس إلا بإذنه من خواص يوم القيامة المعرفه له، و ليست بمختصه به فإنه لا تتكلم أى نفس من النفوس و لا يحدث أى حادث من الحوادث دائما إلا بإذنه من غير أن يختص ذلك بيوم القيامة (١).

ص: ٢٠٩

---

(١-١). هود ١٠٠-١٠٨: بحث فى زوال الستر و الحجاب و ظهور الحقائق يوم القيامة، معنى عدم تكلم الانسان يوم القيامة.

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ قال في المجمع: الزفير أول نهاق الحمار و الشهيق آخر نهاقه انتهى. و قال في الكشاف: الزفير إخراج النفس و الشهيق رده انتهى. و قال الراغب في المفردات، الزفير تردد النفس حتى ينتفخ الضلوع منه. و قال: الشهيق طول الزفير و هو رده و الزفير مده، قال تعالى «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ» «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا» و قال «سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا» و أصله من جبل شاهق أى متناهى الطول. انتهى.

و المعانى - كما ترى - متقاربه و كأن فى الكلام استعاره، و المراد أنهم يردون أنفاسهم الى صدورهم ثم يخرجونها فيمدونها برفع الصوت بالبكاء و الأنين من شدة حر النار و عظم الكربه و المصيبه كما يفعل الحمار ذلك عند نهيقه.

و كان الظاهر من سياق قوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» أن يقال بعده: فأما الذى شقى ففى النار له فيها زفير و شهيق، الخ؛ لكن السياق السابق عليه الذى افتتح به وصف يوم القيامة أعنى قوله: «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ» مبنى على الكثرة و الجماعه، و مقتضاها المضى على هيئه الجمع: الذين شقوا و الذين سعدوا، و إما عبر بقوله: شقى و سعيد لما قيل قبله «لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ» فاختر المفرد المنكر ليفيد النفى بذلك الاستغراق و العموم فلما حصل الغرض بقوله: «لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» عاد السياق السابق المبني على الكثرة و الجماعه فقيل «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا» بلفظ الجمع الى آخر الآيات الثلاث.

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ. بيان لمكث أهل النار فيها كما أن الآيه التاليه «وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنْهُمْ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ» بيان لمكث أهل الجنة فيها و تأييد لاستقرارهم فى مأواهم.



قال الراغب في المفردات: الخلود هو تبرى الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد يصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي (١): خوالد و ذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها يقال: خلد يخلد خلوداً، قال تعالى «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» و الخلد-بالفتح فالسكون-اسم للجزء الذى يبقى من الانسان على حالته فلا يستحيل ما دام الانسان حيا استحاله سائر اجزائه، و أصل المخلد الذى يبقى مده طويله، و منه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عن الشيب، و دابه مخلده هي التي تبقى ثناياها حتى تخرج رباعيتها ثم استعير للمبقى دائما.

و الخلود في الجنة بقاء الأشياء على حاله التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها قال تعالى: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .

و قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ قيل: مبقون بحالتهم لا يعترتهم الفساد، و قيل: مقرطون بخلده، و الخلده ضرب من القرطه، و إخلاد الشيء جعله مبقى و الحكم عليه بكونه مبقى، و على هذا قوله سبحانه: «وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ» أى ركن إليها ظانا أنه يخلد فيها. انتهى.

و قوله: مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ نَوْعٍ مِنَ التَّقْيِيدِ يفيد تأكيد الخلود و المعنى دائمين فيها دوام السماوات و الأرض لكن الآيات القرآنية ناصه على أن السماوات و الأرض لا تدوم دوام الأبد و هي مع ذلك ناصه على بقاء الجنة و النار بقاء لا الى فناء و زوال.

و من الآيات الناصه على الأول قوله تعالى: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى (الأحقاف ٣)، و قوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ

ص: ٢١١

(١- ١). الأثافي، جمع الأثفيه بضم الهمزة و هي الحجر الذى توضع عليه القدر و هما أثفيتان.

كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (الأنبياء ١٠٤)، و قوله:

و السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر ٦٧)، و قوله: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبِنًا (الواقعه ٦).

و منها في النص على الثاني قوله: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (التغابن ٩)، و قوله: وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَ لِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (الأحزاب ٦٥) (١)(٢).

## [سوره هود (١١): الآيات ١٠٩ الى ١١٩]

### اشاره

فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوفُونَ نَصْرَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَ إِن كُلاً لَمَّا لِيُؤْفِقَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَ لَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَ أقيم الصلاة طرْفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَ إِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْ لَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّتِهِ يَبْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلَهَا مُضِلُّحُونَ (١١٧) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

ص: ٢١٢

١-١. هود ١٠٠-١٠٨: بحث حول الخلود في الآخرة.

٢-٢. هود ١٠٠-١٠٨: بحث روائي في: السعادة و الشقاوة، الخلود في الجنة و النار.

قوله تعالى: فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ السَّخ؛ تفرّيع لما تقدّم من تفصيل قصص الامم الماضيه التي ظلموا أنفسهم باتخاذ الشركاء و الفساد في الأرض فأخذهم الله بالعذاب، و المشار اليهم بقوله: «هَؤُلَاءِ» هم قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقوله: «مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ» أى إنهم يعبدونها تقليدا كآبائهم فالآخرون يسلكون الطريق الذى سلكه الأولون من غير حجه، و المراد بنصيبتهم ما هو حظهم قبال شركهم و فسقهم.

و قوله: غَيْرَ مَنقُوصٍ حال من النصيب و فيه تأكيد لقوله: «لَمَوْفُوهُمْ» فإن التوفيه تأديه حق الغير بالتمام و الكمال، و فيه إثبات الكافرين من العفو الإلهي.

و معنى الآية: فإذا سمعت قصص الأولين و أنهم كانوا يعبدون آلهه من دون الله و يكذبون

بآياته، وعلمت سنه الله تعالى فيهم و أنها الهلاك في الدنيا و المصير الى النار الخالده في الآخره لا تكن في شك و مريه من عباده هؤلاء الذين هم قومك ما يعبدون إلا كعباده آبائهم على التقليد من غير حجه و لا بينه، و إنا سنعطيهم ما هو نصيبهم من جزاء أعمالهم من غير أن ننقص من ذلك شيئاً بشفاعه أو عفو كيفما كان.

و يمكن أن يكون المراد بآبائهم، الامم الماضيه الهالكه دون آباء العرب بعد إسماعيل مثلاً و ذلك أن الله سماهم آباء لهم أولين كما في قوله: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ (المؤمنون ٦٨) و هذا أنسب و أحسن و المعنى -على هذا- فلا- تكن في شك من عباده قومك ما يعبد هؤلاء إلا كمثل عباده أولئك الامم الهالكه الذين هم آباؤهم، و لا شك أنا سنعطيهم حظهم من الجزاء كما فعلنا ذلك بآبائهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ لما كانت هذه الآيات مسوقه للاعتبار بالقصص المذكوره في السوره، و كانت القصص نفسها سردت ليتعظ بها القوم و يقضوا بالحق في اتخاذهم شركاء لله سبحانه، و تكذيبهم بآيات الله و رمى القرآن بأنه افتراء على الله تعالى.

تعرض في هذه الآيات-المسوقه للاعتبار- لأمر اتخاذهم الآلهه و تكذيب القرآن فذكر تعالى أن عباده القوم للشركاء كعباده أسلافهم من الامم الماضيه لها و سينالهم العذاب كما نال أسلافهم و أن اختلافهم في كتاب الله كاختلاف أمه موسى عليه السلام فيما آتاه الله من الكتاب و أن سيقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فقوله: «وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ» إشاره الى اختلاف اليهود في التوراه بعد موسى.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمْ كرر سبحانه في كتابه ذكر أن اختلاف الناس في أمر الدنيا أمر فطروا عليها لكن اختلافهم في أمر الدين لا منشأ له إلا

البغى بعد ما جاءهم العلم، قال تعالى: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (يونس / ١٩)، وقال: وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (آل عمران / ١٩)، وقال: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (البقره / ٢١٣).

وقوله: وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ الإِرابه إلقاء الشك في القلب، فتوصيف الشك بالمريب من قبيل قوله: «ظَلًّا ظَلِيلًا» و «حِجَابًا مَسْتُورًا» و «حِجْرًا مَحْجُورًا» و غير ذلك، و يفيد تأكيداً لمعنى الشك.

و الظاهر أن مرجع الضمير في قوله: «وَإِنَّهُمْ» امه موسى و هم اليهود، و حق لهم أن يشكوا فيه فإن سند التوراه الحاضره ينتهى الى ما كتبه لهم رجل من كهنتهم يسمى عزراء عند ما أرادوا أن يرجعوا من بابل بعد انقضاء السبى الى الأرض المقدسه، و قد أحرقت التوراه قبل ذلك بسنين عند إحراق الهيكل فانتهاه سندها الى واحد يوجب الريب فيها طبعاً و نظيرها الإنجيل من جهه سنده.

قوله تعالى: وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لفظه إن هي المشبهه بالفعل و اسمها قوله: «كُلًّا» منونا مقطوعاً عن الإضافه و التقدير كلهم أى المختلفين، و خبرها قوله: «لِيُؤْفِقِيَهُمْ» و اللام و النون لتأكيد الخبر، و قوله: «لَمَّا» مؤلف من لام تدل على القسم و ما مشدده تفصل بين اللامين، و تفيد مع ذلك تأكيداً، و جواب القسم محذوف يدل عليه خبر إن.

و المعنى -و الله أعلم- و إن كل هؤلاء المختلفين أقسم ليوفينهم و يعطينهم ربك أعمالهم أى جزاءها إنه بما يعملون من أعمال الخير و الشر خبير.

و نقل في روح المعانى عن أبى حيان عن ابن الحاجب أن «لَمَّا» فى الآيه هى ما الجازمه

و حذف مدخولها شائع فى الاستعمال يقال: خرجت و لما، و سافرت و لما. ثم قال: و الاولى على هذا أن يقدر: لما يوفوها أى و إن كلا منها لما يوفوا أعمالهم ليوفينهم ربك إياها. و هذا وجه وجهه.

قوله تعالى: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنِ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يقال: قام كذا و ثبت و ركز بمعنى واحد كما ذكره الراغب و غيره، و الظاهر أن الأصل المأخوذ به فى ذلك قيام الإنسان و ذلك أن الإنسان فى سائر حالاته و أوضاعه غير القيام كالقعود و الانبطاح و الجثو و الاستلقاء و الانكباب لا يقوى على جميع ما يرومه من الأعمال كالقبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر ما الإنسان مهيمن عليه بالطبع لكنه إذا قام على ساقه قياما كان على أعدل حالاته الذى يسلطه على عامه أعماله من ثبات و حركه و أخذ و رد و إعطاء و منع و جلب و دفع، و ثبت مهيمنا على ما عنده من القوى و أفعالها، فقيام الإنسان يمثل شخصيته الإنسانية بماله من الشئون.

ثم استعير فى كل شىء لأعدل حالاته الذى يسلط معه على آثاره و أعماله فقيام العمود أن يثبت على طوله، و قيام الشجر أن يركز على ساقه متعرقا بأصله فى الأرض، و قيام الإناء المحتوى على مائع أن يقف على قاعدته فلا يهراق ما فيه و قيام العدل أن ينبسط على الأرض، و قيام السنه و القانون أن تجرى فى البلاد.

و الإقامه جعل الشىء قائما أى جعله بحال يترتب عليه جميع آثاره بحيث لا يفقد شيئا منها كإقامه العدل و إقامه السنه و إقامه الصلاة و إقامه الشهاده، و إقامه الحدود، و إقامه الدين و نحو ذلك.

و الاستقامه طلب القيام من الشىء و استدعاء ظهور عامه آثاره و منفعه فاستقامه الطريق اتصافه بما يقصد من الطريق كالاستواء و الوضوح و عدم إضلاله من ركبته، و استقامه الإنسان فى أمر أن يطلب من نفسه القيام به و إصلاحه بحيث لا يتطرق اليه فساد و لا نقص،

و يأتي تاما كاملا، قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَإِحَادٌ فَاسِدٌ تَقِيْمُوا إِلَيْهِ (حم السجده ١٦) أى قوموا بحق توحيده فى الوهيته، وقال: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا (حم السجده ٣٠) أى ثبتوا على ما قالوا فى جميع شئون حياتهم لا- يركنون فى عقائدهم و أخلاقهم و أعمالهم إلا- الى ما يوافق التوحيد و يلائمه أى يراعونه و يحفظونه فى عامه ما يواجهم فى باطنهم و ظاهرهم. وقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (الروم ٣٠) فإن المراد بإقامه الوجه إقامة النفس من حيث مستقبل العمل و تواججه، و إقامة الإنسان نفسه فى أمر هى استقامته فيه فافهم.

فقوله: فَاسِدٌ تَقِيْمٌ كَمَا أُمِرْتَ أى كن ثابتا على الدين موفيا حقه طبق ما أمرت بالاستقامه، و قد أمر به فى قوله: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يونس ١٠٥)، و قوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم ٣٠).

و قوله: وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ عَظِفَ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَسْتَكِنِ فى «فَاسِدٌ تَقِيْمٌ» أى استقم أنت و من تاب معك أى استقيموا جميعا و إنما أخرج النبى صلى الله عليه و آله و سلم من بينهم و افرد بالذکر معه تشريفا لمقام النبوه، و على ذلك تجرى سنته تعالى فى كلامه كقوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره ٢٨٥) و قوله: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم ٨).

على أن الأمر الذى تقيده به قوله: «فَاسِدٌ تَقِيْمٌ» أعنى قوله: «كَمَا أُمِرْتَ» يختص بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و لا يشاركه فيه غيره فإن ما ذكر من مثل قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» الخ؛ خاص به فلو قيل: فاستقيموا لم يصح تقيده بالأمر السابق.

و المراد بمن تاب مع النبى المؤمنون الذين رجعوا الى الله بالإيمان و إطلاق التوبه على أصل الإيمان- و هو رجوع من الشرك- كثير الورد فى القرآن كقوله تعالى: وَ يَسْتَغْفِرُونَ

لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمن ٧٧) الى غير ذلك.

و قوله: وَلَا تَطَّعُوا أَي لَّا- تتجاوزوا حدكم الذى خطته لكم الفطره و الخلقه و هو العبوديه لله وحده كما تجاوزه الذين قبلكم فأفضاهم الى الشرك و ساقهم الى الهلكه، و الظاهر أن الطغيان بهذا المعنى مأخوذ من طغى الماء إذا جاوز حده، ثم استعير لهذا الأمر المعنوى الذى هو طغيان الإنسان فى حياته لتشابه الأثر و هو الفساد.

و قوله: إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ تعليل لمضمون ما تقدمه، و معنى الآيه اثبت على دين التوحيد و الزم طريق العبوديه من غير تزلزل و تذبذب، و ليثبت الذين آمنوا معكم، و لا تتعدوا الحد الذى حد لكم لأن الله بصير بما تعملون فيؤاخذكم لو خالفتم أمره.

و فى الآيه الكريمه من لحن التشديد ما لا- يخفى فلا- يحس فيها بشيء من آثار الرحمه و أمارات الملاطفه و قد تقدمها من الآيات ما يتضمن من حديث مؤاخذة الامم الماضيه و القرون الخاليه بأعمالهم و استغناء الله سبحانه عنهم ما تصعق له النفوس و تطير القلوب.

غير ما فى قوله: فَاسْتَتِمْ كَمَا أَمَرْتَ من أفراد النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالذكر و إخراجهم من بين المؤمنين تشريفا لمقامه لكن ذلك يفيد بلوغ التشديد فى حقه فإن تخصيصه قبلا- بالذكر يوجب توجه هول الخطاب و روع التكليم من مقام العزه و الكبرياء اليه وحده عدل ما يتوجه الى جميع الامه الى يوم القيامه كما وقع نظير التشديد فى قوله تعالى: وَلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ (الإسراء ٧٥).

و لذلك ذكر أكثر المفسرين أن قوله عليه السلام: «شييتنى سورة هود» ناظر الى هذه الآيه، و سيوافيك الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ



اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ قال فى الصحاح: ركن اليه كنصر، ركونا: مال و سكن، و الركن بالضم الجانب الأقوى. و الأمر العظيم و العز و المنعه انتهى و عن لسان العرب مثله، و عن المصباح أن الركون هو الاعتماد على الشىء.

و قال الراغب: ركن الشىء جانبه الذى يسكن اليه، و يستعار للقوه، قال تعالى: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ و ركنت الى فلان أركن بالفتح و الصحيح أن يقال:

ركن يركن - كنصر - و ركن يركن - كعلم - قال تعالى «وَلَا تَزُكُّوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و ناقه مركنه الضرع له أركان تعظمه و المركان الإجابيه، و أركان العبادات جوانبها التى عليها مبناها، و بتركها بطلانها. انتهى و هذا قريب مما ذكره فى المصباح.

و الحق أنه الاعتماد على الشىء عن ميل اليه لا مجرد الاعتماد فحسب و لذلك عدى يالى لا بعلى و ما ذكره أهل اللغه تفسير له بالأعم من معناه على ما هو دأبهم.

فالركون الى الذين ظلموا هو نوع اعتماد عليهم عن ميل اليهم إما فى نفس الدين كأن يذكر بعض حقائقه بحيث ينتفعون به أو يغمض عن بعض حقائقه التى يضرهم إفساؤها، و إما فى حياه دينيه كأن يسمح لهم بنوع من المداخله فى إداره امور المجتمع الدينى بولايه الامور العامه أو الموده التى تفضى الى المخالطه و التأثير فى شئون المجتمع أو الفرد الحيويه.

و بالجمله الاقتراب فى أمر الدين أو الحياه الدينيه من الذين ظلموا بنوع من الاعتماد و الاتكاء يخرج الدين أو الحياه الدينيه عن الاستقلال فى التأثير و يغيرهما عن الوجهه الخالصه، و لازم ذلك السلوك الى الحق من طريق الباطل أو إحياء حق يا حياء باطل و بالأخره إماته الحق لإحيائه.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا أنه تعالى جمع فى خطابه فى هذه الآيه الذى هو من تتمه الخطاب فى الآيه السابقه بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بين المؤمنين من أمته، و الشئون التى له و لامته

هى المعارف الدينيه و الأخلاق و السنن الإسلاميه فى تبليغها و حفظها و إجرائها و الحياه الاجتماعيه بما يطابقها، و ولايه امور المجتمع الإسلامى، و انتحال الفرد بالدين و استنانه بسنه الحياه الدينيه فليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لا لامته أن يركنوا فى شىء من ذلك الى الذين ظلموا.

على أن من المعلوم أن هاتين الآيتين كالتتيجه المأخوذه من قصص القرى الظالمه التى أخذهم الله بظلمهم و هما متفرعتان عليها ناظرتان إليها، و لم يكن ظلم هؤلاء الامم الهالكه و فى شركهم بالله تعالى و عباده الأصنام فحسب بل كان مما ذمه الله من فعالهم اتباع الظالمين و الفساد فى الارض بعد إصلاحها و هو الاستنانه بالسنن الظالمه التى يقيمها الولاه الجائرون، و يستن بها الناس و هم بذلك ظالمون.

و من المعلوم أيضا أن الآيتين متربتان فى غرضهما فالاولى تنهى عن أن يكونوا من اولئك الذين ظلموا، و الثانيه تنهى أن يقتربوا منهم و يميلوا اليهم و يعتمدوا (1) فى حقهم على باطلهم فقوله: «وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» نهى عن الميل اليهم و الاعتماد عليهم و البناء على باطلهم فى أمر أصل الدين و الحياه الدينيه جميعا.

و وقوع الآيتين موقع التتيجه المتفرعه على ما تقدم من القصص المذكوره يفيد أن المراد بالذين ظلموا فى الآيه ليس من تحقق منه الظلم تحققا ما و إلا لعم جميع الناس إلا أهل العصمه و لم يبق للنهى حينئذ معنى، و ليس المراد بالذين ظلموا الظالمين أى المتلبسين بهذا الوصف المستمرين فى ظلمهم فإن لإفاده الفعل الدال على مجرد التحقق معنى الصفه الداله على التلبس و الاستمرار أسبابا لا يوجد فى المقام منها شىء و لا دلاله لشىء على شىء جزافا.

ص: ٢٢٠

---

١- ١) أى أن يتوسلوا فى اجراء الحق بين أنفسهم بالوسيله الباطله التى عند اعداء الدين من الظالمين.

بل المراد بالذين ظلموا اناس حال اولئك الذين قصهم الله في الآيات السابقة من الامم الهالكه، و كان الشأن في قصتهم أنه تعالى أخذ الناس جملة واحده في قبال الدعوه الإلهيه المتوجهه اليهم ثم قسمهم الى من قبلها منهم و الى من ردها ثم عبر عن قبلها بالذين آمنوا في بضعه مواضع من القصص المذكوره و عن ردها بالذين ظلموا و ما يقرب منه في أكثر من عشر مواضع كقوله: **وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا وَقَوْلِهِ:**

**وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ** و قوله: **وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** و قوله: **أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ** و قوله: **أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ تَمُودُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ (١).**

قوله تعالى: **وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** الخ؛ طرفا النهار هو الصباح و المساء، و الزلف جمع زلفى كقرب جمع قربي لفظا و معنى على ما قيل، و هو وصف ساد مسد موصوفه كالساعات و نحوها، و التقدير و ساعات من الليل أقرب من النهار.

و المعنى أقم الصلاة فى الصلاح و المساء و فى ساعات من الليل هى أقرب من النهار، و ينطبق من الصلوات الخمس اليوميه على صلاه الصبح و العصر و هى صلاه المساء و المغرب و العشاء الآخره، و قتهما زلف من الليل كما قاله بعضهم، أو على الصبح و المغرب و قتهما طرفا النهار و العشاء الآخره و وقتها زلف من الليل كما قاله آخرون، و قيل غير ذلك.

لكن البحث لما كان فقيها كان المتبع فيه ما ورد عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل بيته عليهم السلام من البيان، و سيجىء فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و قوله: **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** تعليل لقوله: **«وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ»** و بيان أن

ص: ٢٢١

الصلوات حسنات وارده على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصي و هي ما تعترتها من السيئات، وقد تقدم كلام في هذا الباب في مسأله الحبط في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و قوله: ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ أَي هذا الذي ذكر و هو أن الحسنات يذهبن السيئات على رفعه قدره تذكرا للمتلبسين بذكر الله تعالى من عباده.

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ثم أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بالصبر بعد ما أمره بالصلاه كما جمع بينهما في قوله: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ (البقره ٤٥) و ذلك أن كلا- منهما في بابه من أعظم الأركان أعني الصلاه في العبادات، و الصبر في الأخلاق و قد قال تعالى في الصلاه: وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت ٤٥) و قال في الصبر: إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى ٤٣).

و اجتماعهما أحسن و سيله يستعان بها على النوائب و المكارهه فالصبر يحفظ النفس عن القلق و الجزع و الانهزام، و الصلاه توجهها الى ناحيه الرب تعالى فتنسى ما تلقاه من المكارهه، و قد تقدم بيان في ذلك في تفسير الآيه ٤٥ من سوره البقره في الجزء الأول من الكتاب.

و إطلاق الأمر بالصبر يعطى أن المراد به الأعم من الصبر على العباده و الصبر عن المعصيه و الصبر عند النائبه، و على هذا يكون أمرا بالصبر على جميع ما تقدم من الأوامر و النواهي أعني قوله: «فَاسْتَقِمُّ» «وَ لَا تَطْغَوْا» «وَ لَا تَزْكُوا» «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ» .

لكن أفراد الأمر و تخصيصه بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يفيد أنه صبر في أمر يختص به و إلا قيل «وَ اصْبِرُوا» جريا على السياق، و هذا يؤيد قول من قال: إن المراد اصبر على أذى قومك في طريق دعوتك الى الله سبحانه و ظلم الظالمين منهم، و أما قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ» فإنه ليس أمرا بما يخصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من الصلاه بل أمر بإقامته الصلاه بمن تبعه من المؤمنين جماعه فهو أمر لهم جميعا بالصلاه فافهم ذلك.

وقوله: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ تعليل للأمر بالصبر.

قوله تعالى: فَلَوْ لَا - كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ الخ؛ لو لا بمعنى هلا و ألا يفيد التعجيب و التوبيخ، و المعنى هلا- كان من القرون التى كانت من قبلكم و قد أفيناها بالعذاب و الهلاك او لو بقيه أى قوم باقون ينهون عن الفساد فى الأرض ليصلحوا بذلك فيها و يحفظوا امتهم من الاستئصال.

وقوله: إِلَّا - قَلِيلًا - مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ استثناء من معنى النفى فى الجملة السابقة فى المعنى: من العجب أنه لم يكن من القرون الماضية مع ما رأوا من آيات الله و شاهدوا من عذابه بقايا ينهون عن الفساد فى الأرض -إلا- قليلا ممن أنجينا من العذاب و الهلاك منهم فإنهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقوله: وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ بيان حال الباقي منهم بعد الاستثناء و هم أكثرهم و عرّفهم بأنهم الذين ظلموا و بين أنهم اتبعوا لذائد الدنيا التى اترفوا فيها و كانوا مجرمين.

و قد تحصل بهذا الاستثناء و هذا الباقي الذى ذكر حالهم تقسيم الناس الى صنفين مختلفين: الناجون بإنجاء الله و المجرمون و لذلك عقبه بقوله: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» .

قوله تعالى: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصِيبُونَ أى لم يكن من سنته تعالى إهلاك القرى التى أهلها مصلحون لأن ذلك ظلم و لا يظلم ربك أحدا فقوله: «بِظُلْمٍ» قيد توضيحي لا احترازي، و يفيد أن سنته تعالى عدم إهلاك القرى المصلحه لكونه من الظلم «وَ مَا كَانَ رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» .

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ -الى قوله- أَجْمَعِينَ الخلف خلاف القدام و هو الأصل فيما اشتق من

هذه المادة من المشتقات يقال: خلف أباه أى سد مسده لوقوعه بعده، وأخلف وعده أى لم يف به كأنه جعله خلفه، ومات و خلف ابنا أى تركه خلفه، واستخلف فلانا أى طلب منه أن ينوب عنه بعد غيبته أو موته أو بنوع من العناية كاستخلاف الله تعالى آدم و ذريته فى الأرض، وخالف فلان فلانا و تخالفا إذا تفرقا فى رأى أو عمل كأن كلا منهما يجعل الآخر خلفه، و تخلف عن أمره إذا أدبر و لم يأت به، و اختلف القوم فى كذا إذا خالف بعضهم بعضا فيه فجعله خلفه، و اختلف القوم الى فلان إذا دخلوا عليه واحدا بعد واحد، و اختلف فلان الى فلان إذا دخل عليه مرات كل واحده بعد اخرى.

ثم الاختلاف و يقابله الاتفاق من الامور التى لا- يرتضيها الطبع السليم لما فيه من تشتت القوى و تضعيفها و آثار اخرى غير محموده من نزاع و مشاجره و جدال و قتال و شقاق كل ذلك يذهب بالأمن و السلام غير أن نوعا منه لا مناص منه فى العالم الإنسانى و هو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهيه الى اختلاف البنى فإن التركيبات البدنيه مختلفه فى الأفراد و هو يؤدى الى اختلاف الاستعدادات البدنيه و الروحيه و بانضمام اختلاف الأجواء و الظروف الى ذلك يظهر اختلاف السلائق و السنن و الآداب و المقاصد و الأعمال النوعيه و الشخصيه فى المجتمعات الإنسانيه، و قد أوضحت الأبحاث الاجتماعيه أن لو لا ذلك لم يعيش المجتمع الإنسانى و لا طرفه عين (1).

و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أى حقت كلمته تعالى و أخذت مصداقها منهم بما ظلموا و اختلفوا فى الحق من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، و الكلمه هى قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ.

و الآيه نظيره قوله: وَ لَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

ص: ٢٢٤

١- (١). هود ١٠٩-١١٩: بحث فى: اختلاف فى الطبائع، اختلاف فى الدين.

مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده ١٣) والأصل في هذه الكلمه ما ألقاه الله تعالى الى إبليس لعنه الله إذ قال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا طِبَّادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ قَالِ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٥٨) والآيات متحده المضمون يفسر بعضها بعضا (١).

## [سوره هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

### اشاره

وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلِ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

### بيان:

قوله تعالى: وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ الى آخر الآيه أى و كل القصص نقص عليك تفصيلا أو إجمالاً، وقوله: «مِنَ أَلْبَاءِ الرُّسُلِ» بيان لما اضيف اليه كل، وقوله: «مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ» عطف بيان للأبناء اشير به الى فائده القصص بالنسبه اليه صلى الله عليه و آله و سلم و هو تثبيت فؤاده و حسم ماده القلق و الاضطراب منه.

و المعنى نقص عليك أبناء الرسل لثبت به فؤادك و تربط جأشك في ما أنت عليه من

ص: ٢٢٥

١ - ١). هود ١٠٩-١١٩: بحث روائى حول معنى الركون الى الذين ظلموا؛ الصلوات الخمس اليوميه؛ ان الحسنات يذهبن السيئات؛ اهلاك القرى؛ الاختلاف فى الدين.

سلوك سبيل الدعوه الى الحق، والنهضة على قطع منابت الفساد، والمحنة من أذى قومك.

ثم ذكر تعالى من فائده السوره ما يعمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقومه مؤمنين وكافرين فقال فيما يرجع الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من فائده نزول السوره «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ» والإشارة الى السوره أو الى الآيات النازله فيها أو الأنباء على وجه، ومجىء الحق فيها هو ما بين الله تعالى فى ضمن القصص وقبلها وبعدها من حقائق المعارف فى المبدأ والمعاد وسنته تعالى الجاربه فى خلقه بإرسال الرسل ونشر الدعوه ثم إسعاد المؤمنين فى الدنيا بالنجاه، وفى الآخره بالجنه، وإشقاء الظالمين بالأخذ فى الدنيا والعذاب الخالد فى الآخره.

وقال فيما يرجع الى المؤمنين «وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» فإن فيما ذكر فيها من حقائق المعارف تذكره للمؤمنين يذكرون بها ما نسبوه من علوم الفطره فى المبدأ والمعاد وما يرتبط بهما، وفيما ذكر فيها من القصص والعبر موعظه يتعظون بها.

قوله تعالى: «وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» وهذا فيما يرجع الى غير المؤمنين يأمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يختم الحجاج معهم ويقطع خصامهم بعد ما تلا القصص عليهم بهذه الجمل فيقول لهم: أما إذا لم تؤمنوا ولم تنقطعوا عن الشرك والفساد بما ألقىت اليكم من التذكرة والعبر ولم تصدقوا بما قصه الله من أنباء الامم وأخبر به من سنته الجاربه فيهم فاعملوا على ما أنتم عليه من المكانه والمنزله، وما تحسبونه خيرا لكم إنا عاملون، وانتظروا ما سيستقبلكم من عاقبه عملكم إنا منتظرون فسوف تعرفون صدق النيا الإلهى وكذبه.

وهذا قطع للخصام ونوع تهديد أورده الله فى القصص الماضيه قصه نوح وهود وصالح عليهم السلام، وفى قصه شعيب عليه السلام حاكيا عنه «يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» (آيه ٩٣ من السوره).



قوله تعالى: **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** لما كان أمره تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأمرهم بالعمل بما تهوى أنفسهم والانتظار، وإخبارهم بأنه و من آمن معه عاملون و منتظرون، في معنى أمره و من تبعه بالعمل و الانتظار عقبه بهاتين الجملتين ليكون على طيب من النفس و ثبات من القلب من أن الدائرة ستكون له عليهم.

و المعنى فاعمل و انتظر أنت و من تبعك فغيب السماوات و الأرض الذي يتضمن عاقبه أمرك و أمرهم إنما يملكه ربك الذي هو الله سبحانه دون آلهتهم التي يشركون بها و دون الأسباب التي يتوكلون عليها حتى يدبروا الدائرة لأنفسهم و يحولوا العاقبه الى ما ينفعهم، و الى ربك الذي هو الله يرجع الأمر كله فيظهر من غيبه عاقبه الأمر على ما شاءه و أخبر به، فالدائرة لك عليهم، و هذا من عجيب البيان.

و من هنا يظهر وجه تبديل قوله: **«رَبُّكَ»** المكرر من هذه الآيات بلفظ الجلاله «الله» لأن فيه من الإشعار بالإحاطه بكل ما دق و جل ما ليس في غيره، و المقام يقتضى الاعتماد و الالتجاء الى ملجأ لا يقهره قاهر و لا يغلب عليه غالب، و هو الله سبحانه و لذلك ترى أنه يعود بعد انقضاء هذه الجمل الى ما كان يكرره من صفه الرب، و هو قوله: **«وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»**.

قوله تعالى: **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ الظاهر** أنه تفريع لقوله: **«وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ»** أى إذا كان الأمر كله مرجوعا اليه تعالى فلا يملك غيره شيئا و لا يستقل بشيء فاعبده سبحانه و اتخذه و كيلا فى جميع الامور و لا تتوكل على شيء من الأسباب دونه لأنها أسباب بتسبيبه غير مستقلة دونه، فمن الجهل الاعتماد على شيء منها. و ما ربك بغافل عما تعملون فلا يجوز التساهل فى عبادته و التوكل عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ  
أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)

غرض السوره بيان ولايه الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى إخلاصا و امتلا بمحبته تعالى لا يبتغى له بدلا و لم يلو الى غيره تعالى من شىء، و أن الله تعالى يتولى هو أمره فيربيه أحسن تربيه فيورده مورد القرب و يسقيه فيرويه من مشرعه الزلفى فيخلصه لنفسه و يحييه حياه إلهيه و إن كانت الأسباب الظاهره أجمعت على هلاكه، و يرفعه و إن توفرت الحوادث على ضعته، و يعزه و ان دعت النوائب و رزايا الدهر الى ذلته و حط قدره.

وقد بين تعالى ذلك بسرد قصه يوسف الصديق عليه السلام. ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصه من القصص باستقصائها من أولها الى آخرها غير قصته عليه السلام، وقد خصت السوره بها من غير شركه ما من غيرها.

فقد كان عليه السلام عبدا مخلصا فى عبوديته فأخلصه الله لنفسه و أعزه بعزته و قد تجمعت الأسباب على إذلاله وضعته فكلمنا ألقته فى إحدى المهالك أحياء الله تعالى من نفس السبيل التى كانت تسوقه الى الهلاكه: حسده إخوته فألقوه فى غيابه الجب ثم شروه بثمان بخرس دراهم معدوده فذهب به ذلك الى مصر و أدخله فى بيت الملك و العزه، راودته التى هو فى بيتها عن نفسه و اتهمته عند العزيز و لم تلبث دون أن اعترفت عند النسوة ببراءته ثم اتهمته و أدخلته السجن فكان ذلك سبب قربه عند الملك، و كان قميصه الملطخ بالدم الذى جاءوا به الى أبيه يعقوب أول يوم هو السبب الوحيد فى ذهاب بصره فصار قميصه بعينه و قد أرسله بيد إخوته من مصر الى أبيه آخر يوم هو السبب فى عود بصره اليه، و على هذا القياس.

و بالجمله كلما نازعه شىء من الأسباب المخالفه أو اعترضه فى طريق كماله جعل الله تعالى ذلك هو السبب فى رشد أمره و نجاح طلبته، و لم يزل سبحانه يحوله من حال الى حال حتى آتاه الحكم و الملك و اجتباه و علمه من تأويل الأحاديث و أتم نعمته عليه كما وعده أبوه.

و قد بدأ الله سبحانه قصته بذكر رؤيا رآها فى بادئ الأمر و هو صبى فى حجر أبيه و الرؤيا من المبشرات ثم حقق بشارته و أتم كلمته فيه بما خصه به من التريه الإلهيه، و هذا هو شأنه تعالى فى أوليائه كما قال تعالى: **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (يونس ٦٤).

و فى قوله تعالى بعد ذكر رؤيا يوسف و تعبير أبيه عليه السلام لها: **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ**

آيَاتُ لِلْسَّائِلِينَ إشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عما يرجع إلى هذه القصة، وهو يؤيد ما ورد أن قوما من اليهود بعثوا مشركي مكة أن يسألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن سبب انتقال بني إسرائيل إلى مصر وقد كان يعقوب عليه السَّلام ساكنا في أرض الشام فنزلت السورة.

و على هذا فالغرض بيان قصته عليه السَّلام وقصه آل يعقوب، وقد استخرج تعالى بيانه ما هو الغرض العالى منها وهو طور ولايه الله لعباده المخلصين كما هو اللائح من مفتح السوره و مختمها، و السوره مكيه على ما يدل عليه سياق آياتها، و ما ورد فى بعض الروايات عن ابن عباس أن أربعا من آياتها مدنيه، و هى الآيات الثلاث التى فى أولها، و قوله: لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد.

قوله تعالى: الر تَأْمَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِشَارَةَ بلفظ البعيد للتعظيم و التفخيم، و الظاهر أن يكون المراد بالكتاب المبين هذا القرآن المتلو و هو مبين واضح فى نفسه و مبين موضح لغيره ما ضمنه الله تعالى من المعارف الإلهيه و حقائق المبدأ و المعاد.

و قد وصف الكتاب فى الآية بالمبين لا كما فى قوله فى أول سوره يونس: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ لكون هذه السوره نازله فى شأن قصه آل يعقوب و بيانها، و من المحتمل أن يكون المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: إِذْ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الضمير للكتاب بما أنه مشتمل على الآيات الإلهيه و المعارف الحقيقيه، و إنزاله قرآنا عربيا هو إلباسه فى مرحله الإنزال لباس القراءه و العربيه، و جعله لفظا متلوا مطابقا لما يتداوله العرب من اللغه كما قال تعالى فى موضع آخر: إنا جعلناه قرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف ٤).

و قوله: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ من قبيل توسعه الخطاب و تعميمه فان السوره مفتحه بخطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ»، و على ذلك يجرى بعد كما فى قوله: «نَحْنُ

نُقِصْ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» الخ.

فمعنى الآية-و الله أعلم-إنا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات فى مرحله النزول ملبسا بلباس اللفظ العربى محلى بحليته ليقع فى معرض التعقل منك و من قومك أو امتك، و لو لم يقلب فى وحيه فى قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربيا مبينا لم يعقل قومك ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بك لاختصاصك بوحيه و تعليمه.

و فى ذلك دلاله ما على أن الألفاظ الكتاب العزيز من جهه تعينها بالاستناد الى الوحي و كونها عربيه دخلا فى ضبط أسرار الآيات و حقائق المعارف، و لو أنه اوحى الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بمعناه و كان اللفظ الحاكى له لفظه صلى الله عليه و آله و سلم كما فى الأحاديث القدسيه مثلا أو ترجم الى لغة اخرى خفى بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس و لم تنله أيدي تعقلهم و فهمهم.

و عنايته تعالى فيما أوحى من كتاب باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر فى كلامه كيف؟ و قد قسمه الى المحكمات و المتشابهات و جعل المحكمات ام الكتاب ترجع إليها المتشابهات قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ (آل عمران ٧) و قال تعالى أيضا: وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل ١٠٣).

قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ إِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ قال الراغب فى المفردات: القص تتبع الأثر يقال: قصصت أثره، و القصص الأثر قال: فارتدا على آثارهما قصصا، و قالت لاخته قصيه. قال: و القصص الأخبار المتتبعه قال تعالى: لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ. فى قصصهم عبره، و قص عليه القصص، نقص عليك أحسن القصص. انتهى فالقصص هو القصة و أحسن القصص أحسن القصة و الحديث، و ربما قيل: إنه مصدر بمعنى الاقتصاص.

فإن كان اسم مصدر فقصة يوسف عليه السّلام أحسن قصه لأنها تصف إخلاص التوحيد في العبودية، و تمثل ولايه الله سبحانه لعبده و أنه يريه بسلوكة في صراط الحب و رفعه من حضيض الذلة الى أوج المعزه، و أخذه من غيابه جبّ الإساره و مرتبط الرقيه و سجن النكال و النقمه الى عرش العزه و سرير الملك.

و إن كان مصدرًا فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذي اقتص سبحانه به أحسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصة الحب و الغرام بأعف ما يكون و أستر ما يمكن.

و المعنى -و الله أعلم- نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب وحيننا هذا القرآن اليك و إنك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصة من الغافلين عنها.

## [سوره يوسف (١٢): الآيات ٤ الى ٦]

### إشاره

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَلْحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ آلِ يَعْقُوبَ كُلَّمَا أَتَمَّهَا عَلَيَّ أَبُويَكَ مِنْ قَبْلُ إِبرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

### بيان:

قوله تعالى: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ لم يذكر يعقوب عليه السلام باسمه بل كنى عنه

بالأب للدلالة على ما بينهما من صفه الرحمه و الرأفه و الشفقه كما يدل عليه ما فى الآيه التاليه «قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ» الخ.

و قوله: رَأَيْتُ و رَأَيْتُهُمْ من الرؤيا و هى ما يشاهده النائم فى نومته أو الذى خمدت حواسه الظاهره بإغماء أو ما يشابهه، و يشهد به قوله فى الآيه التاليه: «لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ» و قوله فى آخر القصه: «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ» .

و تكرار ذكر الرؤيه لطول الفصل بين قوله: «رَأَيْتُ» و قوله: «لِي سَاجِدِينَ» و من فائده التكرير الدلاله على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى. على أن ما حصل له من المشاهده نوعان مختلفان فمشاهده أشخاص الكواكب و الشمس و القمر مشاهده أمر صورى و مشاهده سجدتهم و خضوعهم و تعظيمهم له مشاهده أمر معنوى.

و قد عبر عن الكواكب و النيرين فى قوله: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» بما يختص بأولى العقل-ضمير الجمع المذكور و جمع المذكر السالم-للدلاله على أن سجدتهم كانت عن علم و إراده كما يسجد واحد من العقلاء لآخر.

قوله تعالى: قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ذكر فى المفردات: أن الكيد ضرب من الاحتيال، و قد يكون مذموما و ممدوحا و إن كان يستعمل فى المذموم أكثر و كذلك الاستدراج و المكر.

انتهى. و قد ذكروا أن الكيد يتعدى بنفسه و باللام.

و الآيه تدل على أن يعقوب لما سمع ما قصه عليه يوسف من الرؤيا أيقن بما يدل عليه أن يوسف عليه السلام سيتولى الله أمره و يرفع قدره، يسنده على أريكه الملك و عرش العزه، و يخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامه فأشفق على يوسف عليه السلام و خاف من اخوته عليه و هم عصبه أقوياء أن لو سمعوا الرؤيا-و هى ظاهره الانطباق على يعقوب عليه السلام و زوجته و أحد عشر من ولده غير يوسف، و ظاهره الدلاله على انهم جميعا سيخضعون و يسجدون

ليوسف-حملهم الكبر و الأنفه أن يحسدوه فيكيدوا له كيدا ليحولوا بينه و بين ما تبشره به رؤياه.

و لذلك خاطب يوسف عليه السّلام خطاب الإشفاق كما يدل عليه قوله: «يَا بَنِيَّ» بلفظ التصغير، و نهاء عن اقتصاص رؤياه على إخوته قبل أن يعبرها له و ينبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامه الإلهيه المقضيه فى حقه، و لم يقدم النهى على البشاره إلا لفرط حبه له و شده اهتمامه به و اعتناؤه بشأنه، و ما كان يتفرس من إخوته أنهم يحسدونه و أنهم امتثلوا منه بغضا و حنقا.

و الدليل على بلوغ حسدهم و ظهور حنقهم و بغضهم قوله: «لَا تَقْضِيْ صُ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» فلم يقل: إني أخاف أن يكيدوا، أو لا- آمنهم عليك بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرّع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم و أكدّ تحقق الكيد منهم بالمصدر-المفعول المطلق-اذ قال «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» ثم أكد ذلك بقوله ثانيا فى مقام التعليل: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» أى إن لكيدهم سببا آخر منفصلا يؤيد ما عندهم من السبب الذى هو الحسد و يثيره و يهيجه ليؤثر أثره السيئ و هو الشيطان الذى هو عدو للإنسان مبين لا خله بينه و بينه أبدا يحمل الإنسان بوسوسته و تسويله على أن يخرج من صراط الاستقامه و السعاده الى سبيل عوج فيه شقاء دنياه و آخرته فيفسد ما بين الوالد و ولده و ينزع بين الشقيق و شقيقه و يفرق بين الصديق و صديقه ليضلهم عن الصراط.

فكأن المعنى: قال يعقوب ليوسف عليهما السّلام: يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فانهم يحسدونك و يغتazon من أمرك فيكيدونك عندئذ بنزع و إغراء من الشيطان و قد تمكن من قلوبهم و لا يدعهم يعرضوا عن كيدك فإن الشيطان للإنسان عدو مبين.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ آلِ يَعْقُوبَ الى آخر الآيه؛ الاجتباء من الجبايه و هى الجمع يقال: جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه، و منه جبايه الخراج أى جمعه قال تعالى



يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ (القصص ٥٧/٥٧) ففى معنى الاجتباء جمع أجزاء الشىء و حفظها من التفرق و التشتت، و فيه سلوك و حركه من الجابى نحو المجبى فاجتباه الله سبحانه عبدا من عباده هو أن يقصده برحمته و يخصه بمزيد كرامته فيجمع شمله و يحفظه من التفرق فى السبل المتفرقه الشيطانيه المفرقه للإنسان و يركبه صراطه المستقيم و هو أن يتولى أمره و يخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما أخبر تعالى بذلك فى يوسف عليه السلام إذ قال إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (الآيه ٢٤ من السوره).

و قوله: وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ التَّأْوِيلُ هو ما ينتهى اليه الرؤيا من الأمر الذى تتعقبه، و هو الحقيقه التى تتمثل لصاحب الرؤيا فى رؤياه بصوره من الصور المناسبه لمداركه و مشاعره كما تمثل سجده أبوى يوسف و إخوته الأحد عشر فى صوره أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر و خرورها أمامه ساجده له، و قد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل فى تفسير قوله: فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ الْآيَه، (آل عمران ٧/٧) فى الجزء الثالث من الكتاب.

و الأحاديث جمع الحديث و ربما اريد به الرؤى لأنها من حديث النفس فان نفس الانسان تصور له الامور فى المنام كما يصور المحدث لسماعه الامور فى اليقظه فالرؤيا حديث مثله و منه يظهر ما فى قول بعضهم: إن الرؤى سميت أحاديث باعتبار حكايتها و التحديث بها و هو كما ترى.

و قوله: وَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ قَالَ الرَّاغِبُ فى المفردات:

النعمه (بالكسر فالسكون) الحاله الحسنه، و بناء النعمه بناء الحاله التى يكون عليها الإنسان كالجلسه و الركبه، و النعمه (بالفتح فالسكون) التعم و بناؤها بناء المره من الفعل كالضربه و الشتمه، و النعمه للجنس تقال للقليل و الكثير.

قال: و الإنعام إيصال الإحسان الى الغير، و لا يقال إلا إذا كان الموصل اليه من جنس

الناطقين فإنه لا- يقال: أنعم فلان على فرسه، قال تعالى «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَانْعَمْتَ عَلَيْهِ) و النعماء بإزاء الضراء.

قال: و النعيم النعمه الكثيره قال تعالى «فِي جَدَاتِ النَّعِيمِ» و قال تعالى «جَدَاتِ النَّعِيمِ» ، و تنعم تناول ما فيه النعمه و طيب العيش، يقال: نعمه تنعيما فتنعم أى لين عيش و خصب قال تعالى «فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ» و طعام ناعم و جاريه ناعمه. انتهى.

فقوله: وَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ يريد أن الله أنعم عليكم بما تسعدون به فى حياتكم لكنه يتم ذلك فى حقك و فى حق آل يعقوب و هم يعقوب و زوجه و سائر بنيه كما كان رآه فى رؤياه.

و قد جعل يوسف عليه السلام أصلا و آل يعقوب معطوفا عليه إذ قال «عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ» كما يدل عليه الرؤيا إذ رأى يوسف نفسه مسجودا له و رأى آل يعقوب فى هيئه الشمس معها القمر و أحد عشر كوكبا سجدا له.

و قد ذكر الله تعالى مما أتم به النعمه على يوسف عليه السلام أنه آتاه الحكم و النبوه و الملك و العزه فى مصر مضافا الى أن جعله من المخلصين و علمه من تأويل الأحاديث، و مما أتم به النعمه على آل يعقوب أنه أقر عين يعقوب بابنه يوسف عليهما السلام، و جاء به و بأهله جميعا من البدل و رزقهم الحضاره بنزول مصر.

و قوله: كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ أى نظير ما أتم النعمه من قبل على إبراهيم و إسحاق و هما أبواك فإنه آتاهما خير الدنيا و الآخره فقوله:

«مِنْ قَبْلُ» متعلق بقوله: «أَتَمَّهَا» و ربما احتمل كونه ظرفا مستقرا و صفا لقوله: «أَبَوَيْكَ» و التقدير كما أتمها على أبويك الكائنين من قبل.

و «إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ» بدل أو عطف بيان لقوله: «أَبَوَيْكَ» و فائده هذا السياق الإشعار بكون النعمه مستمره موروثه فى بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث أتمها الله على إبراهيم

و إسحاق و يعقوب و يوسف عليهم السلام و سائر آل يعقوب.

و معنى الآيه: و كما رأيت فى رؤياك يخلصك ربك لنفسه بإنقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره، و يعلمك من تأويل الأحاديث و هو ما يثول اليه الحوادث المصوره فى نوم أو يقظه و يتم نعمته هذه و هى الولاية الإلهيه بالنزول فى مصر و اجتماع الأهل و الملك و العزه عليك و على ابويك و إخوتك و إنما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجرى عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك و ما يستحقونه من غضبه (١).

## [سوره يوسف (١٢): الآيات ١٧ الى ٢١]

### اشاره

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلْنَا مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ حَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَاتٍ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)

ص: ٢٣٧

١-١). يوسف ١-٦: بحث حول سجده يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام.

## بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ شُرُوعَ فِي

ص: ٢٣٨

القصة و فيه التنبيه على أن القصة مشتمله على آيات إلهيه داله على توحيد الله سبحانه، وأنه هو الولي يلي امور عباده المخلصين حتى يرفعهم الى عرش العزه، و يثبتهم فى أريكه الكمال فهو تعالى الغالب على أمره يسوق الأسباب الى حيث يشاء لا الى حيث يشاء غيره و يستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها.

و فى قوله تعالى: لِلشَّائِلِينَ دلاله على أنه كان هناك جماعه سألوا النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن القصة أو عما يرجع بوجه الى القصة فانزلت فى هذه السوره.

قوله تعالى: إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ذكر فى المجمع أن العصبه هى الجماعه التى يتعصب بعضها لبعض، و يقع على جماعه من عشره الى خمسه عشر، و قيل: ما بين العشره الى الأربعين، و لا واحد له من لفظه كالقوم و الرهط و النفر. انتهى.

و قوله: إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا القائلون هم أبناء يعقوب ما خلا يوسف و أخاه الذى ذكروه معه، و كانت عدتهم عشره و هم رجال اقوياء بيدهم تدبير بيت أبيهم يعقوب و إداره مواشيه و أمواله كما يدل عليه قولهم: «وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ» .

و قولهم: «لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ» بنسبته الى يوسف مع أنهم جميعا أبناء ليعقوب و إخوه فيما بينهم يشعر بأن يوسف و أخاه هذا كانا أخوين لام واحده و أخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط، و الروايات تذكر أن اسم أخى يوسف هذا «بنيامين»، و السياق يشهد أنهما كانا صغيرين لا يقومان بشيء من أمر بيت يعقوب و تدبير مواشيه و أمواله.

و قولهم: وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ أى عشره اقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوه بعض، و هو حال عن الجمله السابقه يدل على حسدهم و حنقهم لهما و غيظهم على أبيهم يعقوب فى حبه لهما أكثر منهم، و هو بمنزله تمام التعليل لقولهم بعده: «إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» .

وقولهم: إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قضاء منهم على أبيهم بالضلال و يعنون بالضلال الاعوجاج في السليقه و فساد السيره دون الضلال في الدين (١).

قوله تعالى: اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ تتمه قول إخوه يوسف و الآيه تتضمن الفصل الثاني من مؤامرتهم في مؤتمرهم الذي عقده في أمر يوسف ليرسموا بذلك خطه تريخ نفوسهم منه كما ذكره تعالى بقوله: وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (الآيه ١٠٢ من السوره).

و قد ذكر الله سبحانه متن مؤامرتهم في هذه الآيات الثلاث «قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ -الى قوله- إِنَّ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» .

فأوردوا أولاً ذكر مصيبتهم في يوسف و أخيه إذ صرفا وجه يعقوب عنهم الى أنفسهما و جذبا نفسه اليهما عن سائر الأولاد فصار يلتزمهما و لا- يعباً بغيرهما ما فعلوا، و هذه محنه حاله بهم توعدهم بخطر عظيم في مستقبل الامر فيه سقوط شخصيتهم و خيبه مسعاهم و ذلتهم بعد العزه و ضعفهم بعد القوه، و هو انحراف من يعقوب في سيرته و طريقته.

ثم تذاكروا ثانيا في طريق التخلص من الرزیه بطرح كل منهم ما هيأه من الخطه و يراه من الرأى فأشار بعضهم الى لزوم قتل يوسف، و آخرون الى طرحه أرضا بعيدة لا يستطيع معه العود الى أبيه و اللحق بأهله فينسى بذلك اسمه و يمحو رسمه فيخلو وجه أبيهم لهم و ينسب حبه و حباؤه فيهم.

ثم اتفقوا على ما يقرب من الرأى الثاني و هو أن يلقوه في قعر بئر ليلتقطه بعض السياره

ص: ٢٤٠

١-١). يوسف ٧-٢١: بحث في معنى قول ابناء يعقوب «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» عله حسد اخوان يوسف عليه؛ ان يعقوب كان يحب يوسف و اخاه في الله.

و يذهبوا به الى بعض البلاد النائية البعيده فينقطع بذلك خبره و يعفى أثره.

فقوله تعالى: **أَقْتُلُوا يُوسُفَ حَكَايَهُ لِأَحَدِ الرَّأْيَيْنِ مِنْهُمْ فِي أَمْرِهِ**، و فى ذكرهم يوسف وحده- و قد ذكروا فى مفتتح كلامهم فى المؤامره يوسف و أخاه معا «**لِيُؤَسِّفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْمَا**» - دليل على أنه كان مخصوصا بمزيد حب يعقوب و بلوغ عنايته و اهتمامه و إن كان أخوه أيضا محبو بالحب و الإكرام من بينهم و كيف لا؟! و يوسف هو الذى رأى الرؤيا و بشر بأخص العنايات الإلهيه و الكرامات الغيبيه، و قد كان أكبرهما و الخطر المتوجه من قبله اليهم أقرب مما من قبل أخيه، و لعل فى ذكر الأخوين معا إشاره الى حب يعقوب لامهما الموجب لوجه بالطبع لهما و تهيج حسد الإخوه و غيظهم و حقدهم بالنسبه اليهما.

و قوله: **أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا** حكايه رأيهم الثانى فيه، و المعنى صيره أو غربوه فى أرض لا يقدر معه على العود الى بيت أبيه فيكون كالمقتول ينقطع أثره و يستراح من خطره كإلقائه فى بئر أو تغريبه الى مكان ناء و نظير ذلك.

و الدليل عليه تنكير «أرض» و لفظ الطرح الذى يستعمل فى القاء الانسان المتاع أو الأناث الذى يستغنى عنه و لا ينتفع به للإعراض عنه.

و فى نسبه الرأيين بالترديد اليهم، دليل على أن مجموع الرأيين كان هو المرضى عند أكثر الإخوه حتى قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف، الخ.

و قوله: **يَخْذُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ** أى افعلوا به أحد الأمرين حتى يخلو لكم وجه أبيكم و هو كنايه عن خلوص حبه لهم بارتفاع المانع الذى يجلب الحب و العطف الى نفسه كأنهم و يوسف إذا اجتمعوا و أباهم حال يوسف بينه و بينهم و صرف وجهه الى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه أبيهم لهم و اختص حبه بهم و انحصر إقباله عليهم.

و قوله: **وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** أى و تكونوا من بعد يوسف أو من

بعد قتله أو نفيه-و المآل واحد-قوما صالحين بالتوبه من هذه المعصيه.

و فى هذا دليل على أنهم كانوا يرونه ذنبا و إثما،و كانوا يحترمون أمر الدين و يقدسونه لكن غلبهم الحسد و سولت لهم أنفسهم اقتراف الذنب و ارتكاب المظلمه و آمنهم من عقوبه الذنب بتلقين طريق يمكنهم من الاعتراف من غير لزوم العقوبه الإلهيه و هو أن يقترفوا الذنب ثم يتوبوا.

و هذا من الجهل فإن التوبه التى شأنها هذا الشأن غير مقبوله البتة فإن من يوطن نفسه من قبل على المعصيه ثم التوبه منها لا يقصد بتوبته الرجوع الى الله و الخضوع لمقامه حقيقه بل إنما يقصد المكر بربه فى دفع ما أوعده من العذاب و العقوبه مع المخالفه لأمره أو نهييه، فتوبته ذيل لما وطن عليه نفسه أولا: أن يذنب فيتوب فهى فى الحقيقه تتمه ما رامه أولا من نوع المعصيه و هو الذنب الذى تعقبه توبه و ليست رجوعا الى ربه بالندم على ما فعل. و قد تقدم البحث عن معنى التوبه فى تفسير قوله تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** الآية،(النساء ١٧)/الجزء الرابع من الكتاب.

و قيل المراد بالصلاح فى الآيه صلاح الأمر من حيث سعادته الحياه الدنيا و انتظام الامور فيها و المعنى و تكونوا من بعده قوما صالحين بصلاح أمركم مع أبيكم.

قوله تعالى: **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي الْوُحُوشِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** الجب هو البئر التى لم يطرأ أى لم يبن داخلها بالحجاره،و إن بنى بها سميت البئر طويا،و الغيابه بفتح الغين المنهبط من الأرض الذى يغيب ما فيه من الأنظار و غيابه الجب قعره الذى لا يرى لما فيه من الظلمه.

و قد اختار هذا القائل الرأى الثانى المذكور فى الآيه السابقه الذى يشير اليه قوله: «أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا» إلا أنه قيده بما يؤمن معه القتل أو أمر آخر يؤدى الى هلاكه كأن يلقى فى بئر و يترك فيها حتى يموت جوعا أو ما يشاكل ذلك،فما أبداه من الرأى يتضمن نفى يوسف



من الأرض من غير أن يتسبب الى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون اهلاكا لذى رحم، وهو أن يلقى فى بعض الآبار التى على طريق الماره حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه و يسيروا به الى بلاد نائيه تعفو أثره و تقطع خبره، و السياق يشهد بأنهم ارتضوا هذا الرأى إذ لم يذكر رد منهم بالنسبه اليه و قد جرى عملهم عليه كما هو مذكور فى الآيات التاليه.

قوله تعالى: قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَصْل «لَا تَأْمَنَّا» لَا تَأْمَنَّا ثُمَّ ادْغَم بِالِادْغَامِ الْكَبِيرِ.

و الآيه تدل على ان الإخوه أجمعوا على قول القائل: لا- تقتلوا يوسف و ألقوه فى غيابه الجب، و أجمعوا على أن يمكروا بأبيهم فيأخذوا يوسف و يفعلوا به ما عزموا عليه و قد كان أبوهم لا- يأمنهم على يوسف و لا يخليه و إياهم فكان من الواجب قبل أن يزكوا أنفسهم عند أبيهم و يجلّوا قلبه من كدر الشبهه و الارتياب حتى يتمكنوا من أخذه و الذهاب به. و لذلك جاءوا أباهم و خاطبوه بقولهم: «يَا أَبَانَا -و فيه اثاره للعطف و الرحمه و إثثار للموده- مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» أى و الحال أنا لا نريد به إلاّ الخير و لا نبتغى إلاّ ما يرضيه و يسره.

ثم سألوه ما يريدونه و هو أن يرسله معهم الى مرتعهم الذى كانوا يخرجون اليه ماشيتهم و غنمهم ليرتع و يلعب هناك، و هم حافظون له فقالوا «أَرْسَلُهُ مَعَنَا» الخ.

قوله: أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَ يَلْعَبُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ الرتع هو توسع الحيوان فى الرعى و الانسان فى التنزه و أكل الفواكه و نحو ذلك.

و قولهم: «أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَ يَلْعَبُ» اقتراح لمسئولهم كما تقدمت الإشارة اليه و قولهم: «وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» اكدوه بوجوه التأكيد: إن و اللام و الجملة الاسميه على وزان قولهم: «وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» كما يدل ان كل واحده من الجملتين تتضمن نوعا من التطيب

لنفس أبيهم كأنهم قالوا: ما لك لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه إيانا معشر الإخوة كأن نقصده بسوء فإننا له لناصحوون و إن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه مكروه و نحن مساهلون في حفظه و مستهينون في كلاءته فإننا له لحافظون.

فالكلام مسوق على ترتيبه الطبيعي: ذكروا أولا- أنه في أمن من ناحيتهم دائما ثم سألوا إن يرسله معهم غداه غد ثم ذكروا أنهم حافظون له ما دام عندهم، وبذلك يظهر ان قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ» تأمين له دائمى من ناحيه انفسهم، وقولهم: «وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ» تأمين له موقت من غيرهم.

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ هذا ما ذكر أبوهم جوابا لما سألوه، ولم ينف عن نفسه أنه لا- يأمنهم عليه و إنما ذكر ما يأخذه من الحالة النفسانية لو ذهبوا به فقال و قد أكد كلامه «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» و قد كشف عن المانع أنه نفسه التى يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به الموجب لحزنه تلطفا فى الجواب معهم و لئلا يهيج ذلك عنادهم و لجاجهم و هو من لطائف النكت.

و اعتذر اليهم فى ذلك بقولهم: «وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» و هو عذب موجه فإن الصحارى ذوات المراتع التى تأوى إليها المواشى و ترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعاً من ذئب او سباع تقصدها و تكمن فيها للافتراس و الاصطياد فمن الجائر أن يقبلوا على بعض شأنهم و يغفلوا عنه فيأكله الذئب.

قوله تعالى: قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّبُّ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ تجاهلوا لأبيهم كأنهم لم يفقهوا إلا أنه يأمنهم عليه لكن يخاف أن يأكله الذئب على حين غفله منهم فردوه رد منكر مستغرب، و ذكروا لتطيب نفسه انهم جماعه اقوياء متعاضدون ذووا بأس و شدة، و اقسما بالله إن أكل الذئب إياه و هم عصبه يقضى بخسرانهم و لن يكونوا

خاسرين البته، و إنما أقسموا- كما يدل عليه لام القسم- ليطييوا نفسه و يذهبوا بحزنه فلا يمنعهم من الذهاب به، و هذا شائع في الكلام «و في الكلام وعد ضمنى منهم له أنهم لن يغفلوا» لكنهم لم يلبثوا يوما حتى كذبوا أنفسهم فيما أقسموا له و اخلفوه ما وعده، إذ قالوا «يا أبانا إنا ذهبتنا نستيق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب» الآية.

قوله تعالى: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ قَالَ الرَّاعِبُ: أجمعت على كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوصل اليه بالفكره نحو فأجمعوا أمركم و شركاءكم. قال: و يقال: أجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه. انتهى.

و في المجمع: أجمعوا أى عزموا جميعا أن يجعلوه فى غيابه الجب أى قعر البئر و اتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد الى الشئ لا يقال فيه إنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعى. انتهى.

و الآية تشعر بأنهم أقنعوا أباهم بما قالوا له من القول و أرضوه أن لا يمنعهم أن يخرجوا يوسف معهم الى الصحراء فحملوه معهم لإنفاذ ما ازمعوا عليه من القائه فى غيابه الجب.

و جواب لما محذوف للدلاله على فجاعه الأمر و فظاعته، و هى صنعته شائعه فى الكلام ترى المتكلم يصف أمرا فظيعا كقتل فجيح يحترق به القلب و لا يطيقه السمع فيشرع فى بيان أسبابه و الاحوال التى تؤدى اليه فيجرى فى وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثه سكت سكوتا عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفه القتل بلغت من الفجاعه مبلغا لا يسع المتكلم أن يصرح به و لا يطيق السامع أن يسمعه.

فكان الذى يصف القصة- عز اسمه- لما قال «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ» سكت مليا و أمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى و أسفا لأن السمع لا يطيق وعى ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبى ابن الأنبياء و لم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبه فيه و هم اخوته و هم يعلمون مبلغ حب أبيه النبى الكريم يعقوب له فيا قاتل الله

الحسد يهلك شقيقا مثل يوسف الصديق بأيدى إخوته، و يثكل أبا كريما مثل يعقوب بأيدى أبنائه، و يزين بغيا شنيعا كهذا فى اعين رجال ربوا فى حجر النبوه و نشثوا فى بيت الأنبياء.

و لما حصر الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه فى ذيل القصة فقال «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» الخ.

قوله تعالى: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» الضمير ليوسف و ظاهر الوحي أنه من وحي النبوه، و المراد بأمرهم هذا إلقاءهم إياه فى غيابه الجب، و كذا الظاهر أن جملة «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حال من الإيحاء المدلول عليه بقوله: «وَ أَوْحَيْنَا» الخ؛ و متعلق «لَا يَشْعُرُونَ» هو الأمر أى لا يشعرون بحقيقه أمرهم هذا أو الإيحاء أى و هم لا يشعرون بما أوحينا اليه.

و المعنى -و الله أعلم- و أوحينا الى يوسف أقسم لتخبرنهم بحقيقه أمرهم هذا و تأويل ما فعلوا بك فإنهم يرونه نفيا لشخصك و إنساء لاسمك و إطفاء لنورك و تذليلا لك و حطا لقدرك و هو فى الحقيقه تقرب لك الى أريكه العزه و عرش المملكه و إحياء لذكرك و إتمام لنورك و رفع لقدرك و هم لا يشعرون بهذه الحقيقه و ستنبئهم بذلك، و هو قوله لهم و قد أتكا على أريكه العزه و هم قيام أمامه يسترحمونه بقولهم: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَ أَهْلْنَا الضُّرُّ وَ جِنَّا بِيضَاعِهِ مُرٌّ جَاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ إذ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه إذ أنتم جاهلون -الى أن قال- أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا الخ.

انظر الى موضع قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ» فإنه إشاره الى أن هذا الذى تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقه ما فعلتم بيوسف، و قوله: «إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» فإنه يحاذى من هذه الآيه التى نحن فيها قوله: «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .

قوله تعالى: «وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» العشاء آخر النهار، و قيل: من صلاه

المغرب الى العتمة، و إنما كانوا سيكون ليلبسوا الأمر على أيهم فيصدقهم فيما يقولون و لا يكذبهم.

قوله تعالى: **قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: أصل السبق التقدم في السير نحو «و السابقات سبقا» و الاستباق التسابق و قال «**إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ**» «و **اسْتَبَقَا** البَاب» انتهى، و قال الزمخشري في الكشاف: نستبق أى نتسابق، و الافتعال و التفاعل يشتركان كالانتضال و التناضل و الارتماء و الترامي و غير ذلك، و المعنى نتسابق في العدو أو في الرمي. انتهى.

و قوله: **بِمُؤْمِنٍ لَنَا** أى بمصدق لقولنا، و الإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء قال تعالى **فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ** (العنكبوت ٢٦).

و المعنى -إنهم حينما جاءوا أباهم عشاء سيكون قالوا لأبيهم: يا أبانا إنا معشر الإخوه ذهبنا الى البيداء نتسابق في عدو أو رمى - و لعله كان في عدو- فإن ذلك أبلغ في إبعادهم من رحلهم و متاعهم و كان عنده يوسف على ما ذكروا- و تركنا يوسف عند رحلنا و متاعنا فأكله الذئب، و من خيبتنا و مسكنتنا أنك لست بمصدق لنا فيما نقوله و نخبر به و لو كنا صادقين فيه.

و قولهم: **وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** كلام يأتي بمتله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب و انسدت عليه طرق الحيله، للدلاله على أن كلامه غير موجه عند من يعتذر اليه و عذره غير مسموع و هو يعلم بذلك لكنه مع ذلك مضطر أن يخبر بالحق و يكشف عن الصدق و إن كان غير مصدق فيه، فهو كناية عن الصدق في المقال.

قوله تعالى: **وَ جَاءُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** الكذب بالفتح فالكسر مصدر أريد به الفاعل للمبالغه أى بدم كاذب بين الكذب.

و فى الآيه إشعار بأن القميص و عليه دم- و قد نكر الدم للدلاله على هو ان دلالتة و ضعفها على ما وصفوه- كان على صفه تكشف عن كذبهم فى مقالهم فإن من افترسته السباع و أكلته لم تترك له قميصا سالما غير ممزق. هذا شأن الكذب لا يخلو الحديث الكاذب و لا الاحدوثه الكاذبه من تناف بين أجزاءه و تناقض بين أطرافه أو شواهد من أوضاع و أحوال خارجيه تحف به و تنادى بالصدق و تكشف القناع عن قبيح سريره و باطنه و إن حسنت صورته (١).

قوله تعالى: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ هذا جواب يعقوب و قد فوجئ بنعى ابنه و حبيبه يوسف دخلوا عليه و ليس معهم يوسف و هم يبكون يخبرونه أن يوسف قد أكله الذئب و هذا قميصه المملخ بالدم، و قد كان يعلم بمبلغ حسدهم له و هم قد انتزعوه من يده بالحاح و إصرار و جاءوا بقميصه و عليه دم كذب ينادى بكذبهم فيما قالوه و أخبروا به.

فأضرب عن قولهم: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» الخ؛ بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» و التسويل الوسوسه أى ليس الأمر على ما تخبرون بل وسوست لكم أنفسكم فيه أمرا، و أبهم الأمر و لم يعنيه ثم أخبر أنه صابر فى ذلك من غير أن يؤاخذهم و ينتقم منهم لنفسه انتقاما و إنما يكظم ما هجم نفسه كظما.

فقوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً تكذيب لما أخبروا به من أمر يوسف و بيان أنه على علم من أن فقد يوسف لا يستند الى ما ذكره من افتراس السبع و إنما يستند الى مكر مكروه و تسويل من أنفسهم لهم، و الكلام بمنزله التوطئه لما ذكره بعد من قوله:

«فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» الى آخر الآيه.

ص: ٢٤٨

(١-١). يوسف ٧-٢١: كلام فى ان الكذب لا يفلح.

و قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ مدح للصبر و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب و التقدير: سأصبر على ما أصابني فإن الصبر جميل و تنكير الصبر و حذف صفته و إبهامها للإشارة الى فخامه أمره و عظم شأنه أو مراره طعمه و صعوبه تحمله.

و قد فرّع قوله: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» على ما تقدم للإشعار بأن الأسباب التي أحاطت به و أفرغت عليه هذه المصيبة هي بحيث لا يسع له معها إلا أن يملك سبيل الصبر، و ذلك أنه عليه السلام فقد أحب الناس اليه يوسف و هو ذا يذكر له أنه صار أكله للذئب و هذا قميصه ملطخا بالدم و هو يرى أنهم كاذبون فيما يخبرونه به، و يرى أن لهم صنعا في افتقاده و مكر في أمره و لا طريق له الى التحقيق فيما جرى على يوسف و التجسس مما آل اليه أمره و أين هو؟ و ما حاله؟ فإنما أعوانه على أمثال هذه النوائب و أعضاده لدفع ما يقصده من المكاره إنما هم أبناؤه و هم عصبه أولو قوه و شدة فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبة و وقوع المصيبة فبمن يقع فيهم؟ و بما ذا يدفعهم عن نفسه؟ فلا يسعه إلا الصبر.

فقوله: وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ - و هو من أعجب الكلام - بيان لتوكله على ربه يقول: إني أعلم أن لكم في الأمر مكرًا و أن يوسف لم يأكله ذئب لكنى لا أركن في كشف كذبكم و الحصول على يوسف بالأسباب الظاهرة التي لا تغني طائلا بغير إذن من الله و لا أتشحط بينها بل أضبط استقامه نفسى بالصبر و أوكل ربي أن يظهر على ما تصفون أن يوسف قد قضى نحبه و صار أكله للذئب.

فظهر أن قوله: «وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ» دعاء في موقف التوكل و معناه: اللهم إني توكلت عليك في أمرى هذا فكن عوناً لى على ما يصفه بنى هؤلاء، و الكلمه مبنيه على توحيد الفعل فإنها مسوقه سوق الحصر و معناها أن الله سبحانه هو المستعان لا مستعان لى غيره فإنه عليه السلام كان يرى أن لا حكم حقا إلا حكم الله كما قال فيما سيأتى من كلامه «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ»، و لتكميل هذا التوحيد بما هو أعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل:

سأصبر و لم يقل: و الله أستعين على ما تصفون بل ترك نفسه و ذكر اسم ربه و أن الأمر منوط بحكمه الحق و هو من كمال توحيده و هو مستغرق فى وجده و أسفه و حزنه ليوסף غير أنه ما كان يحب يوسف و لا يتوله فيه و لا يجد لفقده إلا لله و فى الله.

قوله تعالى: وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ قَالَ الرَّاعِبُ:الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره.انتهى، وقال:دلوت الدلو إذا أرسلتها،و أدليتها إذا أخرجتها.انتهى،وقيل بالعكس،وقال:الإسرار خلاف الإعلان.انتهى.

وقوله: قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ إيراده بالفصل مع أنه متفرع وقوعا على إدلاء الدلو للدلالة على أنه كان أمرا غير مترقب الوقوع فإن الذى يترقب وقوعه غير الإدلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فكان مفاجئا لهم و لذا قال «قَالَ يَا بُشْرَى» و نداء البشرى كنداء الأسف و الويل و نظائرها للدلالة على حضوره و جلاء ظهوره.

وقوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ مفاده ذم عملهم و الإنابه عن كونه معصيه محفوظه عليهم سيؤاخذون بها،و يمكن أن يكون المراد به أن ذلك إنما كان بعلم من الله أراد بذلك أن يبلغ يوسف مبلغه الذى قدر له فإنه لو لم يخرج من الجب و لم يسر بضاعه لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما اوتيه من الملك و العزه.

و المعنى الآيه:و جاءت جماعه ماره الى هناك فأرسلوا من يطلب لهم الماء فأرسل دلوه فى الجب ثم لما أخرجها فاجأهم بقوله: «يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ» -وقد تعلق يوسف بالحبل فخرج-فأخفوه بضاعه يقصد بها البيع و التجاره و الحال أن الله سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو أن ذلك كان بعلمه تعالى و كان يسير يوسف هذا المسير ليستقر فى مستقر العزه و الملك و النبوه.

قوله تعالى: وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ



الزَّاهِدِينَ الثَّمَنُ الْبَخْسُ هُوَ النَّاقِصُ عَنِ حَقِّ الْقِيَمَةِ، وَدِرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ أَى قَلِيلَةٌ وَالْوَجْهُ فِيهِ -عَلَى مَا قِيلَ- أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا كَثُرَتِ الدِّرَاهِمُ أَوْ الدَّنَانِيرُ وَزَنُوهَا وَلا يَعْدُونَ إِلَّا الْقَلِيلَةَ مِنْهَا وَالمَرَادُ بِالدِّرَاهِمِ النُّقُودَ الْفُضِيَّةَ الدَّائِرَةَ بَيْنَهُمْ يَوْمئِذٍ، وَالشِّرَاءُ هُوَ الْبَيْعُ، وَالزَّهْدُ هُوَ الرِّغْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْاِتِّقَاءِ.

وَالمُظَاهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ ضَمِيرِي الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: «وَ شَرَوْهُ» «وَ كَانُوا» لِلسِّيَارَةِ وَالمَعْنَى أَنَّ السِّيَارَةَ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْجَبِّ وَ أُسْرُوهُ بِضَاعَهُ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ نَاقِصٍ وَ هِيَ دِرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ قَلِيلَةٌ وَ كَانُوا يَتَّقُونَ أَنَّ يَظْهَرُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فَيَتَتَرَعَّ هُوَ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكِدًا السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّيَارَةَ حَمَلُوا يَوْسُفَ مَعَهُمْ إِلَى مِصْرَ وَ عَرَضُوهُ هُنَاكَ لِلْبَيْعِ فَاشْتَرَاهُ بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ وَ أَدْخَلَهُ فِي بَيْتِهِ.

وَ قَدْ أَعْجَبَتِ الْآيَاتُ فِي ذِكْرِ هَذَا الَّذِي اشْتَرَاهُ وَ تَعْرِيفَهُ فَذَكَرَ فِيهَا أَوْلَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

«وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ فَأُنْبَأَتْ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، وَ ثَانِيًا بِمِثْلِ قَوْلِهِ: «وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ فَعَرَفْتَهُ بِأَنَّهُ كَانَ سَيِّدًا مِصْرِيًّا» وَ ثَالِثًا بِمِثْلِ قَوْلِهِ: «وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ فَأَوْضَحَتْ أَنَّهُ كَانَ عَزِيزًا فِي مِصْرَ يَسْلُمُ لَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْعِزَّةُ وَ المَنْعَةُ، ثُمَّ أَشَارَتْ إِلَى أَنَّهُ كَانَ لَهُ سِجْنٌ وَ هُوَ مِنْ شُؤْنِ مِصْرِيَّةِ الْأُمُورِ وَ الرِّئَاسَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَ عِلْمٌ بِذَلِكَ أَنَّ يَوْسُفَ كَانَ ابْتِيعَ أَوَّلَ يَوْمٍ لِعَزِيزِ مِصْرَ وَ دَخَلَ بَيْتَ الْعِزَّةِ.

وَ بِالْجَمَلَةِ لَمْ يَعْرِفِ الرَّجُلُ كُلَّ مَرَّةٍ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَوْقِفَ الْحَدِيثِ مِنَ الْقِصَّةِ، وَ لَمْ يَكُنْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَعْرِيفِهِ حَاجَةٌ إِلَى أَزِيدٍ مِنَ وَصْفِهِ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَ بِهَا بَيْتُهُ فَلِذَا اقْتَصَرَ فِي تَعْرِيفِهِ بِقَوْلِهِ: «وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ».

وَ كَيْفَ كَانَ، الْآيَةُ تَنْبِئُ عَلَى إِيجَازِهَا أَنَّ السِّيَارَةَ حَمَلُوا يَوْسُفَ مَعَهُمْ وَ أَدْخَلُوهُ مِصْرَ وَ شَرُوهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهَا فَأَدْخَلَهُ بَيْتَهُ وَ وَصَّاهُ امْرَأَتَهُ قَائِلًا: اكَرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

نتخذه ولدا.

فقوله: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ أَي الْعَزِيزِ «الْمَرْأَتِ» وَ هِيَ الْعَزِيزَةُ «أَكْرَمِي مَنَوَاهُ» أَي تَصْدَى بِنَفْسِكَ أَمْرَهُ وَ اجْعَلِي لَهُ مَقَامًا كَرِيمًا عِنْدَكَ «عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا» فِي مَقَاصِدِنَا الْعَالِيَةِ وَ أَمُورِنَا الْهَامَةِ «أَوْ تَتَّخِذَهُ وَ لَدًا» بِالتَّبْنِيِّ.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ قال في المفردات المكان عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء قال و يقال: مكنته و مكنت له فتمكن، قال تعالى: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَ نُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ قال: قال الخليل: المكان مفعول من الكون، و لكثرتة في الكلام أجرى مجرى فعال ففعل: تمكن و تمسكن مثل تمززل انتهى. فالمكان هو مقر الشيء من الأرض، و الإمكان و التمكين الإقرار و التقرير في المحل، و ربما يطلق المكان المكانة لمستقر الشيء من الامور المعنويه كالمكانة في العلم و عند الناس يقال:

أمكنته من الشيء فتمكن منه أي أقدرته فقدر عليه و هو من قبيل الكناية.

و لعل المراد من تمكين يوسف في الأرض إقراره فيه بما يقدر معه على التمتع من مزايا الحياه و التوسع فيها بعد ما حرم عليه إخوته القرار على وجه الأرض فألقوه في غيابه الجب ثم شروه بثمن بخس ليسير به الركبان من أرض الى أرض و يتغرب عن أرضه و مستقر أبيه.

و قد ذكر تعالى تمكينه ليوسف في الأرض في خلال قصته مرتين إحداهما بعد ذكر خروجه من غيابه الجب و تسيير السياره إياه الى مصر و بيعه من العزيز و هو قوله في هذه الآيه: وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ ثَانِيَتُهُمَا بعد ذكر خروجه من سجن العزيز و انتصابه على خزائن أرض مصر حيث قال تعالى: وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ (الآيه ٥٦ من السوره) و العناية في الموضعين واحده.

ص: ٢٥٢

وقوله: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ الْإِشَارَةَ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَبِّ وَبَيْعِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ تَمْكِينِهِ فِي الْأَرْضِ هَذَا الْمَقْدَارَ مِنَ التَّمَكِينِ الَّذِي حَصَلَ بِهِ مِنْ دَخُولِهِ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ وَاسْتِقْرَارِهِ فِيهِ عَلَى أَهْنِ عَيْشٍ بِتَوْصِيهِ الْعَزِيزِ فَالتَّشْبِيهِ مِنْ قَبِيلِ تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى غَزَارِهِ الْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ لَهُ وَ لَيْسَ مِنَ الْقِسْمِ الْمَذْمُومِ مِنْ تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِ:

كَأَنَّا وَالْمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا

قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءٌ

بل المراد أن ما فعلنا به من التمكين في الأرض كان يماثل هذا الذي وصفناه وأخبرنا عنه فهو يتضمن من الأوصاف الغزيره ما يتضمنه ما حدثناه فهو تल्प في البيان بجعل الشئء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع الى غزاره أوصافه وأهميتها و تعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه.

و من هذا الباب قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى ١١) وقوله تعالى: لِيَمِثِلَ هَذَا فليعملِ الْعَامِلُونَ (الصفات ٦١) والمراد أن كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به الله سبحانه لا يشبهه و لا يماثله شئء، و أن كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنة و مائلها في صفاتها فليعملِ الْعَامِلُونَ لأجل الفوز به.

و إن كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه في الأرض فتشبيهه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلى ببعض أفراده ليدل به على أن سائر الأفراد حالها هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض اجزائه للدلالة على أن الأجزاء الباقية حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف في الأرض يجرى على هذا النمط المذكور في قصه خروجه من الجب و دخوله مصر و استقراره في بيت العزيز على أحسن حال فإن إخوته حسدوه و حرموا عليه القرار على وجه الأرض عند أبيه فألقوه في غيابه الجب و سلبوه نعمه التمتع في وطنه في البادية و باعوه من السياره ليغربوه من أهله فجعل الله سبحانه كيدهم هذا بعينه سببا يتوسل

به الى التمکن و الاستقرار فى بيت العزيز بمصر على أحسن حال ثم تعلقت به امرأه العزيز و راودته هى و نسوه مصر ليوردنه فى الصبوه و الفحشاء فصرف الله عنه كيدهن و جعل ذلك بعينه و سيله لظهور إخلاصه و صدقه فى ايمانه ثم بدا لهم أن يجعلوه فى السجن و يسلبوا عنه حريه معاشره الناس و المخالطه لهم فتسبب الله سبحانه بذلك بعينه الى تمكينه فى الأرض تمكيناً يتبوء من الأرض حيث يشاء لا يمنعه مانع و لا يدفعه دافع.

و بالجمله الآيه على هذا التقدير من قبيل قوله تعالى: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (المؤمن ٧٤) و قوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧) أى إن إضلاله تعالى للكافرين يجرى دائماً هذا المجرى، و ضربه الأمثال أبداً على هذا النحو من المثل المضروب و هو أنموذج ينبغى أن يقال اليه غيره.

و قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ بَيَانٌ لَغَايَةِ التَّمَكِينِ الْمَذْكُورِ وَ اللَّامِ لِلغَايَةِ، وَ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَقْدَرٍ وَ التَّقْدِيرِ: مَكْنَاهُ فِي الْأَرْضِ لِنَفْعَلُ بِهِ كَذَا وَ كَذَا وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ إِنَّمَا حَذَفَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ غَايَاتٍ أُخْرَى لَا يَسَعُهَا مَقَامُ التَّخَاطُبِ، وَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥) وَ نَظَائِرُهُ.

و قوله: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن و هو ما يفعله فى الخلق مما يتركب منه نظام التدبير قال تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ (يونس ٣)، و إنما أضيف اليه تعالى لأنه مالك كل أمر كما قال تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ لَبَّارِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (الأعراف ٥٤).

و المعنى أن كل شأن من شئون الصنع و الإيجاد من أمره تعالى و هو تعالى غالب عليه و هو مغلوب له مقهور دونه يطيعه فيما شاء، ينقاد له فيما أراد، ليس له أن يستكبر او يتمرد فيخرج من سلطانه كما ليس له أن يسبقه تعالى و يفوته، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ بِأَعْيُنِهِ أَمْرُهُ

و بالجمله هو تعالى غالب على هذه الأسباب الفعالة بإذنه يحمل عليها ما يريد فليس لها إلا السمع و الطاعه و لكن أكثر الناس لا يعلمون لحسابانهم أن الأسباب الظاهره مستقله فى تأثيرها فعاله برءوسها فإذا ساقطت الحوادث الى جانب لم يحولها عن وجهتها شىء و قد أخطئوا (١).

### [سوره يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٣٤]

#### اشاره

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْقَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَيِّجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْنَّ فَلَئِمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَ قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

ص: ٢٥٥



قوله تعالى: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه و تتقوى به أركانه بذهاب آثار الصباوه، و يأخذ ذلك من ثمانية شر من عمره الى سن الكهوله التى عندها يكمل العقل و يتم الرشد.

و الظاهر أن المراد به الانتهاء الى أول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء الى آخره كالأربعين، و الدليل عليه قوله تعالى فى موسى عليه السلام: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** (القصص ١٤) حيث دل على التوسط فيه بقوله: «استوى»، و قوله: **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَهُ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** (الأحقاف ١٥) فلو كان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعين لم تكن حاجه الى تكرار قوله: «بَلَغ» .

و قوله: **آتَيْنَاهُ حُكْمًا** الحكم هو القول الفصل و إزالة الشك و الريب من الامور القابله للاختلاف-على ما يتحصل من اللغه-و لازمه إصابه النظر فى عامه المعارف الإنسانيه الراجعه الى المبدأ و المعاد و الأخلاق النفسانيه و الشرائع و الآداب المرتبطه بالمجتمع البشرى.

و بالنظر الى قوله عليه السلام لصاحبيه فى السجن: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (الآيه ٤٠ من السوره)، و قوله بعد: **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** (الآيه ٤١ من السوره)، يعلم أن هذا الحكم الذى أوتيه كان هو حكم الله فكان حكمه حكم الله، و هذا هو الذى سأله إبراهيم عليه السلام من ربه إذ قال: **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (الشعراء ٨٣).

و قوله: **وَعِلْمًا** و هذا العلم المذكور المنسوب الى إيتائه تعالى كيفما كان و أى مقدار كان علم لا يخالطه جهل كما أن الحكم المذكور معه حكم لا يخالطه هوى نفسانى و لا

تسويل شيطاني كيف؟ و الذي آتاهما هو الله سبحانه و قد قال تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ (الآيه ٢١ من السوره)، و قال: إِنَّ اللَّهَ بِأَعْيُنِنَا (الطلاق ٣) فما آتاه من الحكم لا يخالطه تزلزل الريب و الشك، و ما يؤتیه من العلم لا يكون جهلا البته.

ثم من المعلوم أن هذه المواهب الإلهيه ليست بأعمال جزافيه و لا لغوا أو عبثا منه تعالى فالنفوس التي تؤتى هذا الحكم و العلم لا تستوى هم و النفوس الخاطئه في حكمها المنغمره في جهلها، و قد قال تعالى: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِبَأْتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا (الأعراف ٥٨) و الى ذلك الإشاره بقوله: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» حيث يدل على أن هذا الحكم و العلم اللذين آتاهما الله إياهما الله إياه لم يكونا موهبتين ابتدائيتين لا مستدعى لهما أصلا بل هما من قبيل الجزاء جزاه الله بهما لكونه من المحسنين.

و ليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أن الله تعالى يجزي كل محسن -على اختلاف صفات الإحسان- شيئا من الحكم و العلم يناسب موقعه في الإحسان و قد قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨) و قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَتِينًا فَأَحْسِنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢).

و هذا العلم المذكور في الآيه يتضمن ما وعد الله سبحانه تعليمه ليوسف من تأويل الأحاديث فإنه واقع بين قوله تعالى في الآيات السابقه: «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» و قوله حكايه عن يوسف في قوله لصاحبيه في السجن: «ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ رَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ قال في المفردات: الرود هو التردد في طلب الشيء برفق و منه الرائد لطالب الكلاء، قال: و الإراده



منقوله من راد يروود إذا سعى فى طلب شىء، قال: و المرأوده أن تنازع غيرك فى الإراده فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يروود، و راودت فلانا عن كذا، قال تعالى: هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ قَالَ: تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ أَى تصرفه عن رأيه، و على ذلك قوله: وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ سُرَاوِدٌ عَنْهُ أَبَاهُ انتهى.

و فى المجمع: المرأوده المطالبه بأمر بالرفق و اللين ليعمل به و منه المرود لأنه يعمل به، و لا يقال فى المطالبه بدين: راوده، و أصله من راد يروود إذا طلب المرعى، و فى المثل: الرائد لا يكذب أهله، و التعليق إطباق الباب بما يعسر فتحه، و إنما شدد ذلك لتكثير الإغلاق أو للمبالغه فى الإيثاق، انتهى.

و هيت لك اسم فعل بمعنى هلم، و معاذ الله أى اعوذ بالله معادا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله.

و الآيه الكريمة «وَ رَاوَدْتُهُ النَّبِيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» على ما فيها من الإيجاز تنبئ عن إجمال قصه المرأوده غير أن التدبر فى القيود المأخوذه فيها و السياق الذى هى واقع فيه و سائر ما يلوح من أطراف قصته المورده فى السوره يجلى عن حقيقه الحال و يكشف القناع عن تفصيل ما خبئ من الأمر (١).

و قوله: قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ الى آخر الآيه؛ جواب ليوسف يقابل به مسألتها بالعياذ بالله يقول: أعوذ بالله معاذ مما تدعيننى اليه لأنه ربي الذى تولى أمرى و أحسن مثواى و جعلنى بذلك سعيدا مفلحا و لو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح و خرجت به من تحت ولايته.

ص: ٢٥٩

(١ - ١). يوسف ٢٢-٣٤: كلام حول قصه يوسف (يوسف، امرأه العزيز، يوسف و امرأه العزيز).

وقد راعى عليه السلام فى كلامه هذا أدب العبوديه كله كما تقدم وقد أتى أولاً بلفظه «الجلاله» ثم بصفه الربوبيه ليدل به على أنه لا يعبد ربا غير الله مله آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** التدبر البالغ فى أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العامله فيها يعطى أن نجاه يوسف منها لم تكن إلا أمرا خارقا للعاده و واقعه هى أشبه بالرؤيا منها باليقظه.

فقد كان يوسف عليه السلام رجلا- و من عزيزه الرجال الميل الى النساء،و كان شابا بالغا أشده و ذلك أو ان غليان الشهوه و ثوران الشبق،و كان ذا جمال بديع يدهش العقول و يسلب الألباب و الجمال و الملاحه يدعو الى الهوى و الترح،و كان مستغرقا فى النعمه و هنىء العيش محبورا بمثوى كريم و ذلك من أقوى أسباب التهوس و الإتراف،و كانت الملكه فتاه فائقه الجمال و كذلك تكون حرم الملوک و العظماء.

و كانت لا محاله متزينه بما يأخذ بمجامع كل قلب،و هى عزيزه مصر و هى عاشقه و آلها تتوق إليها النفوس نفسها اليه،و كانت لها سوابق الإ-كرام و الإحسان و الإنعام ليوسف و ذلك كله مما يقطع اللسان و يصمت الإنسان،و قد تعرضت له و دعتة الى نفسها و الصبر مع التعرض أصعب،و قد راودته هذه الفتانه و أتت فيها بما فى مقدرتها من الغنج و الدلال،و قد ألحت عليه فجذبتة الى نفسها حتى قدت قميصه و الصبر معها أصعب و أشق،و كانت عزيزه لا يرد أمرها و لا يثنى رأيها،و هى ربتة خصه بها العزيز،و كانا فى قصر زاه من قصور الملوک ذى المناظر الرائقه التى تبهر العيون و تدعو الى كل عيش هنىء.

و كانا فى خلوه و قد غلقت الأبواب و أرخت الستور،و كان لا يأمن الشر مع الامتناع، و كان فى أمن من ظهور الأمر و انتهاك الستر لأنها كانت عزيزه بيدها أسباب الستر و التعميه، و لم تكن هذه المخالطه فائته لمره بل كان مفتاحا لعيش هنىء طويل،و كان يمكن ليوسف

أن يجعل هذه المخالطه و المعاشقه وسيله يتوسل بها الى كثير من آمال الحياه و أمانيهها كالمملك و العزه و المال.

فهذه أسباب و أمور هائله لو توجهت الى جبل لهدته أو أقبلت على صخره صماء لأذابتها و لم يكن هناك مما يتوهم مانعا إلا الخوف من ظهور الأمر أو منعه نسب يوسف أو قبح الخيانه للعزیز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان فى أمر منه. و لو كان بدأ من ذلك شىء لكان فى وسع العزیزه أن تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مرادتها فكادت حتى أرضت نفس العزیز إرضاء فلم يؤاخذها بشىء و قلبت العقوبه ليوسف حتى سجن.

و أما منعه النسب فلو كانت مانعه لمنعت إخوه يوسف عما هو أعظم من الزنا و أشد إثما فإنهم كانوا أبناء إبراهيم و إسحاق و يعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم شرافه النسب من أن يهوما بقتله و يلقوه فى غيايت الجب و يبيعون من السياره بيع العبيد و يتكلموا فيه أباهم يعقوب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فبكى حتى ابيضت عيناه.

و أما قبح الخيانه و حرمتها فهو من القوانين الاجتماعيه و القوانين الاجتماعيه إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعه على تقدير المخالفه، و ذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطه القوه المجريه و الحكومه العادله، و أما لو أغفلت القوه المجريه أو فسقت فأهملت أو خفى الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين كما ستتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه و يظهر به على هذه الأسباب القويه التى كانت لها عليه إلا أصل التوحيد و هو الإيمان بالله. و إن شئت فقل المحبه الإلهيه التى ملأت وجوده و شغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلا و لا موضع إصبع. فهذا هو ما يفيدته التدبر فى القصه. و لارجع الى متن الآيه.

ف قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى وَجْهِ نَجَاةِ يُوسُفَ مِنْ هَذِهِ الْغَائِلَةِ، وَالسِّيَاقُ يُعْطِي أَنَّ الْمُرَادَ بِصِرْفِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ عَنْهُ إِجْنَازُهُ مِمَّا أُرِيدُ مِنْهُ وَ سِئْلُ بِالْمُرَاوَدِ وَالْخُلُوهِ، وَإِنْ الْمَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «كَذَلِكَ» هُوَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» .

فَيُتَوَلَّى مَعْنَى قَوْلِهِ: «كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إِلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَانَ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ صِرْفَنَا عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ بِمَا رَأَى مِنْ بُرْهَانِ رَبِّهِ فَرُؤْيِهِ بُرْهَانَ رَبِّهِ هِيَ السَّبَبُ الَّذِي صِرْفَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَا يَزِمُ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ الْجِزَاءُ الْمَقْدَرُ لِقَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» هُوَ ارْتِكَابُ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَزِمُ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ «لَوْلَا أَنْ رَأَى» السُّخْرَ؛ قَيْدًا لِقَوْلِهِ: «وَهَمَّ بِهَا» وَ ذَلِكَ يُقْتَضَى أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِمْ بِهَا نَظِيرُ هَمِّهَا بِهِ هُوَ الْقَصْدُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَ يَكُونَ حِينَئِذٍ هَمُّهَا بِهَا دَاخِلًا تَحْتَ الشَّرْطِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَا وَ أُوشِكُ أَنْ يَرْتَكِبَ فَإِنَّ «لَوْلَا»، وَ إِنْ كَانَتْ مَلْحَقَةً بِأَدْوَاتِ الشَّرْطِ وَ قَدْ مَنَعَ النَّحَاةَ تَقَدَّمَ جِزَائُهَا عَلَيْهَا قِيَاسًا عَلَى إِنْ الشَّرْطِيَّةَ إِلَّا أَنَّ قَوْلَهُ: «وَهَمَّ بِهَا» لَيْسَ جِزَاءً لَهَا بَلْ هُوَ مُقْسَمٌ بِهِ بِالْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» وَ هُوَ فِي مَعْنَى الْجِزَاءِ اسْتِغْنَى بِهِ عَنْ ذِكْرِ الْجِزَاءِ فَهُوَ كَقَوْلِنَا: وَاللَّهُ لِأَضْرِبَنَّهُ إِنْ يَضْرِبُنِي وَ الْمَعْنَى: وَاللَّهُ إِنْ يَضْرِبُنِي أَضْرِبُهُ.

وَ مَعْنَى الْآيَةِ: وَاللَّهُ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ اللَّهُ لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَا وَ أُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَ إِنَّمَا قُلْنَا: أُوشِكُ أَنْ يَقَعَ، وَ لَمْ نَقُلْ: وَقَعَ لِأَنَّ الْهَمَّ - كَمَا قِيلَ - لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيمَا كَانَ مَقْرُونًا بِالْمَانِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا (التوبة ٧٤)، وَ قَوْلُهُ: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا (آل عمران ١٢٢)، وَ قَوْلُ صَخْرٍ:

أَهْمُّ بِأَمْرِ الْحِزْمِ لَا أُسْتَطِيعُهُ

وَ قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَ النَّزْوَانِ

ص: ٢٤٢

فلو لا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهمم و الاقتراب دون الارتكاب و الاقتراف، و قد أشار سبحانه الى ذلك بقوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ» و لم يقل: لنصرفه عن السوء و الفحشاء فتدبر فيه.

و من هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمم بها و الميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشه و هى الزنا فهو عليه السلام لم فعل و لم يكذب، و لو لا ما أراه الله من البرهان لهمم و كاد أن يفعل، و هذا المعنى هو الذى يؤيده ما قدمناه من الاعتبار و التأمل فى الأسباب و العوامل المجتمعه فى هذا الحين القاضيه لها عليه.

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِه اللام فيه للقسم، و المعنى و أقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه و لا يكون الهم إلا بأن تشفع الإراده بشىء من العمل.

و قوله: وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَا - أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقه، و المعنى أقسم لو لا رؤيته برهان ربه لهمم بها و كاد أن يجيبها لما تريده منه.

و البرهان هو السلطان و يراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزه قال تعالى: فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ (القصص ٣٢)، و قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ (النساء ١٧٤)، و قال: أَلَيْسَ اللَّهُ قُلُّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (النمل ٦٤) و هو الحجه اليقينيّه التى تجلى الحق و لا تدع ريباً لمرتاب.

و الذى رآه يوسف عليه السلام من برهان ربه و إن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه -على أى حال- كان سبباً من أسباب اليقين لا -يجامع الجهل و الضلال بتاتا، و يدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السلام فيما يناجى ربه كما سيأتى: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصِيبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (الآيه ٣٣ من السوره)، و يدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال و قبورها و مصلحتها و مفسدتها أن هذا النوع من العلم قد

يُجَامِعُ الضَّلَالِ وَالْمَعْصِيَةِ وَهُوَ ظَاهِرٌ، قَالَ تَعَالَى: أَمْ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ (الجاثية ٢٣) وَقَالَ: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤).

فالبرهان الذى أراه به و هو الذى يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف و اليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعه لا تميل معها الى معصيه أصلا، و سنورد فيه بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

و قوله: كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ اللام في «لِنَصْرِفَ» للغايه أو التعليل و المآل واحد و «كَذَلِكَ» متعلق بقوله: «لِنَصْرِفَ» و الإشارة الى ما ذكر من رؤيه برهان ربه، و السوء هو الذى يسوء صدوره من العبد بما هو عبد و هو مطلق المعصيه أو الهَمَّ بها، و الفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعه كالزنا، و قد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء و الفحشاء على الزنا و الهَمَّ به.

و المعنى: الغايه-أو السبب-فى أن رأى برهان ربه هى أن نصرف عنه الفحشاء و الهَمَّ بها.

و من لطيف الإشاره فى الآيه ما فى قوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» حيث أخذ السوء و الفحشاء مصروفين عنه لا- هو مصروفا عنهما، لما فى الثانى من الدلاله على أنه كان فيه ما يقتضى اقترافهما المحوج الى صرفه عن ذلك، و هو ينافى شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين و هم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شىء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أى داع يدعو من دون الله سبحانه.

و قوله: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ فى مقام التعليل لقوله: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ» الخ؛ و المعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، و هم يعاملون هذه المعامله.

و يظهر من الآيه أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، و أن الله سبحانه يصرف كل سوء و فحشاء عنهم فلا يقتربون معصيه و لا يهتمون بها بما يريهم الله من برهانه،

و هذه هي العصمة الإلهية.

و يظهر أيضا أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفه المعهوده لنا (١).

قوله تعالى: وَاشْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرِ الْأَسْتَبَاقِ وَتَسَابَقَ وَقَدْ تَقَدَّمُ، وَالْقَدُّ وَالْقَطُّ هُوَ الشَّقُّ إِلَّا أَنْ الْقَدُّ هُوَ الشَّقُّ طَوِيلًا وَالْقَطُّ هُوَ الشَّقُّ عَرْضًا، وَالذَّبْرُ وَالْقَبْلُ كَالْخَلْفِ وَالْأَمَامِ.

و السياق يعطى أن استباقهما كان لغرضين مختلفين فكان يوسف عليه السلام يريد أن يفتحه و يتخلص منها بالخروج من البيت، و امرأه العزيز كانت تريد أن تسبقه اليه فتمنعه من الفتح و الخروج لعلها تفوز بما تريده منه، و أن يوسف سبقها الى الباب فاجتذبتة من قميصه من الورااء فقدته و لم ينقذ إلا لأنه كان فى حال الهرب مبتعدا منها و إلا لم ينشق طولاً.

و قوله: وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَمَدَى الْبَابِ الْإِلْفَاءُ الْوَجْدَانُ يُقَالُ: أَلْفَيْتَهُ كَذَا أَى وَجَدْتَهُ وَ الْمَرَادُ بِسَيِّدِهَا زَوْجَهَا. قيل: إنه جرى على عرف مصر و قد كانت النساء بمصر يلقين زوجهن بالسيد، و هو مستمر الى هذا الزمان.

قوله تعالى: قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَيِّجَنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْمٌ لَمَّا أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَمَدَى الْبَابِ انقلب مجلس المرآوده الى موقف التحقيق، و إنما أوجد هذا الموقف وجود العزيز لدى الباب و حضورهما و الهيئه هذه الهيئه عنده، و يتكفل ما جرى فى هذا الموقف قوله: «وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَمَدَى الْبَابِ» الى تمام خمس آيات.

فبدأت امرأه العزيز تشكو يوسف اليه و تسأله أن يجازيه فذكرت أنه أراد بها سوء و عليه أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً لكنها لم تصرح بذلك و لا بشيء من أطراف الواقعه بل كُتت

ص: ٢٦٥

١- ١). يوسف ٢٢-٣٤: بحث تفسيري و آراء المفسرين حول الآية «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا»؛ معنى هم يوسف بها.

و أتت بحكم عام عقلاني يتضمن مجازاه من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فلم يصرح باسم يوسف و هو المرید، و لا باسم نفسها و هي الأهل، و لا باسم السوء و هو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدبا في حضره العزيز و تقديسا لساحته.

و لم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن و العذاب الأليم لأن قلبها الواله اليه الملىء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن في الإبهام نوعا من الفرج إلا أن في تعبيرها بقولها:

«بِأَهْلِكَ» نوعا من التحريض عليه و تهيجه على مؤاخذته و لم يكن ذلك إلا كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد و الأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمه فإن صرفه عن مؤاخذه يوسف عليه السلام لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبه.

قوله تعالى: قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي لم يبدأ يوسف عليه السلام بالقول أدبا مع العزيز و صونا لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم يربدا دون أن يصرح بالحق فقال «هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي» و في الكلام دلالة على القصر و هي من قصر القلب أي لم اردها بالسوء بل هي التي أرادت ذلك فراودتني عن نفسي.

و في كلامه هذا- و هو خال عن أقسام التأكيد كالقسم و نحوه- دلالة على سكون نفسه عليه السلام و طمأنينته و أنه لم يحتشم و لم يجزع و لم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء و لا يخافها و لا ما اتهمته و قد استعاذ بربه حين قال «مَعَاذَ اللَّهِ» .

قوله تعالى: وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الى آخر الآيتين. لما كانت الشهادة في معنى القول كان قوله: «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ» الخ؛ بمنزله مقول القول بالنسبه اليه فلا حاجه الى تقدير القول قبل قوله: «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ» الخ؛ و قد قيل: إن هذا القول لما أدى مؤدى الشهاده عبر عنه بلفظ الشهاده.

و قد أشار هذا الشاهد الى دليل ينحل به العقده و يتضح طريق القضييه فتكلم فقال «إِنْ



كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَيَّرَ دَقَّتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فَإِنْ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَحَدَهُمَا صَادِقٌ فِي دَعْوَاهُ وَالْآخَرُ كَاذِبٌ، وَ كُونَ الْقَدِّ مِنَ قَبْلِ يَدِلُّ عَلَى مَنَازَعَتِهِمَا وَ مَصَارَعَتِهِمَا بِالْمُوَاجَهَةِ فَالْقَضَاءُ لَهَا عَلَيْهِ، وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دَبْرٍ فَكَذَّبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَإِنْ كُونَ الْقَدِّ مِنْ دَبْرٍ يَدِلُّ عَلَى هَرَبِهِ مِنْهَا وَ تَعْقِيبِهَا إِيَّاهُ وَ اجْتِنَابِهَا لَهُ إِلَى نَفْسِهَا فَالْقَضَاءُ لَهُ عَلَيْهَا. وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

وَ أَمَّا مِنْ هَذَا الشَّاهِدِ؟ فَقَدْ اِخْتَلَفَ فِيهِ الْمَفْسُرُونَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ رَجُلًا حَكِيمًا أَشَارَ لِلعَزِيزِ بِمَا أَشَارَ كَمَا عَنِ الْحَسَنِ وَ قَتَادَةَ وَ عَكْرَمَةَ، وَ قِيلَ: كَانَ رَجُلًا - وَ هُوَ ابْنُ عَمِّ الْمَرْأَةِ وَ كَانَ جَالِسًا مِنْ زَوْجِهَا لَدَى الْبَابِ، وَ قِيلَ: لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِنْسِ وَ لَا الْجِنِّ بَلْ خَلَقَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا عَنِ مَجَاهِدٍ، وَ رَدَّ بِمَنَافَاتِهِ الصَّرِيحَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «مِنْ أَهْلِهَا» .

وَ مِنْ طَرُقِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ بَعْضِ طَرُقِ أَهْلِ السَّنَةِ أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ مِنْ أَهْلِهَا، وَ سَيَجِيءُ فِي الْبَحْثِ الرَّوَاثِي التَّالِي إِذَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْظَرَ فِيهِ أَنَّ الَّذِي أَتَى بِهِ هَذَا الشَّاهِدُ بَيَانٌ عَقْلِيٌّ وَ دَلِيلٌ فِكْرِيٌّ يُوْدِي إِلَى نَتِيجَةٍ هِيَ الْقَاضِيَةُ لِأَحَدِ هَذَيْنِ الْمَتَدَاعِيَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، وَ مِثْلُ هَذَا لَا يَسْمَى شَهَادَةً عَرَفًا فَإِنَّهَا هِيَ الْبَيَانُ الْمَعْتَمَدُ عَلَى الْحَسَنِ أَوْ مَا فِي حَكْمِهِ وَ بِالْجَمَلَةِ الْقَوْلُ الَّذِي لَا يَعْتَمَدُ عَلَى التَّفَكِيرِ وَ التَّعْقُلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَيِّمِعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ (حَمَّ السَّجْدَةِ / ٢٠)، وَ قَوْلِهِ: قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ (الْمَنَافِقُونَ / ١) فَإِنَّ الْحَكْمَ بِصَدَقِ الرِّسَالَةِ وَ إِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مَسْتَنَدًا إِلَى التَّفَكْرِ وَ التَّعْقُلِ لَكِنِ الْمُرَادُ بِالشَّهَادَةِ تَأْيِيدُهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحَقِّ الْمَعْلُومِ قِطْعًا مِنْ غَيْرِ مَلَاخِظِهِ كَوْنَهُ عَنِ التَّفَكْرِ وَ تَعْقُلِ كَمَا فِي مَوَارِدٍ يَعْبُرُ عَنْهَا بِالقَوْلِ وَ نَحْوِهِ.

فَلَيْسَ مِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يَكُونَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ قَوْلِ هَذَا الْقَائِلِ بِمِثْلِ «وَ شَهِدَ شَاهِدًا» إِشَارَةٌ إِلَى كَوْنِ ذَلِكَ كَلَامًا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ تَرَوٍّ وَ فِكْرٍ فَيَكُونُ شَهَادَةً لِعَدَمِ اعْتِمَادِهِ عَلَى تَفَكُّرٍ وَ تَعْقُلٍ لَا قَوْلًا يَعْبُرُ بِهِ عَرَفًا عَنِ الْبَيَانِ الَّذِي يَبْتَنِي عَلَى تَرَوٍّ وَ تَفَكُّرٍ، وَ بِهَذَا يَتَأَيَّدُ مَا وَرَدَ مِنَ الرَّوَايَةِ أَنَّهُ

كان صبيا في المهدي فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيد الله سبحانه به قول يوسف عليه السلام.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، أي فلما رأى العزيز قميص يوسف و الحال أنه مقدود مشوق من خلف، قال إن الأمر من كيدكن معاشر النساء إن كيدكن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

و نسبه الكيد الى جماعه النساء مع كونه من امرأته الدلاله على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء، و كيدهن معهود معروف، و لذا استعظمه و قال ثانيا «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» و ذلك أن الرجال اوتوا من الميل و الانجذاب اليهن ما ليس يخفى و اوتين من أسباب الاستماله و الجلب ما في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال و يسخرن أرواحهم بجلوات فتانه و أطوار سحاره تسلب أحلامهم، و تصرفهم الى إرادتهن من حيث لا يشعرون و هو الكيد و إرادته الإنسان بالسوء و مفاد الآيه أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف عليه السلام على امرأته.

قوله تعالى: يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ من مقول قول العزيز أي إنه بعد ما قضى له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر و أمر امرأته أن تستغفر لذنبها و من خطيئتها.

فقوله: يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا يشير الى ما وقع من الأمر و يعزم على يوسف أن يعرض عنه و يفرضه كأن لم يكن فلا يحدث به و لا يذيعه، و لم يرد في كلامه تعالى ما يدل على أن يوسف عليه السلام حدث به أحدا و هو الظن به عليه السلام كما نرى أنه لم يظهر حديث المراوده للعزيز حتى اتهمته بسوء القصد فذكر الحق عند ذلك لكن كيف يخفى حديث استمر عهدا ليس بالقصير، و قد استولى عليها الوله و سلب منها الغرام كل حلم و حزم، و لم تكن المراوده مره أو مرتين و الدليل على ذلك ما سيأتي من قول النسوه «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تَرَاوَدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» .

وقوله: وَاسْتَغْفِرِي لِتَدْنِيكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ يقرر لها الذنب و يأمرها أن تستغفر ربها لذلك الذنب لأنها كانت بذلك من أهل الخطيئه، و لذلك قيل «مِنَ الْخَاطِئِينَ» و لم قل من الخاطئات.

و هذا كله من كلام العزيز على ما يعطيه السياق لا من كلام الشاهد لأنه قضاء و حكم و القضاء العزيز لا للشاهد.

قوله تعالى: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قصه نسوه مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية الى تمام ست آيات.

و الذى يعطيه التدبر فيها بما ينضم إليها من قرائن الأحوال و ما يستوجه طبع القصة أنه لما كان من أمر يوسف و العزيزه ما كان، شاع الخبر فى المدينه تدريجا، و صارت النساء و هن سيدات المدينه يتحدثن به فى مجامعهن و محافلهن فيما بينهن و يعيرن بذلك عزيزه مصر و يعبئها أنها تولهت الى فتاها و افتتنت به و قد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، و ضلت به ضلالا مبينا.

و كان ذلك مكررا منهن بها على ما فى طبع أكثر النساء من الحسد و العجب فإن المرأه تغلبه العواطف الرقيقه و الإحساسات اللطيفه و ركوز لطف الخلقه و جمال الطبيعه فيها مشعوفه القلب بالزينه و الجمال متعلقه الفؤاد برسوم الدلال، و يورث ذلك فيها و خاصه فى الفتيات إعجابا بالنفس و حسدا للغير.

فقوله تعالى: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا الْخ؛ النسوه اسم جمع للمرأه و تقييده بقوله: فى المدينه تفيد أنهم كن من جهه العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن فى شيوع الفضيحه.

و امرأه العزيزه هى التى كان يوسف فى بيتها و قد راودته عن نفسه و العزيز معناه معروف،

وقد كان يلقب به السيد الذى اشترى يوسف من السياره و كان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض.

و فى قوله: ﴿تُرَاوِدُ دَلَالَهُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ وَ هُوَ أَفْحَشُ الْمُرَاوِدَةِ، وَ الْفَتَى الْغُلَامُ الشَّابُّ وَ الْمَرْأَةُ فَتَاهُ، وَ قَدْ شَاعَ تَسْمِيَةُ الْعَبْدِ فَتَى وَ كَأَنَّهُ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ أَضِيفَ إِلَى ضَمِيرِهَا فَقِيلَ «فَتَاهَا» .

و فى المفردات «شَعَفَهَا حُبًّا» أى أصاب شغاف قلبها أى باطنه. عن الحسن، و قيل:

وسطه. عن أبى على، و هما يتقاربان انتهى. و شغاف القلب غلافه المحيط به.

و المعنى: و قال عدده من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها و فى حقها: امرأة تستمر فى مرأوده عبدها عن نفسه و لا يحرى بها ذلك لأنها مرأه و من القحه أن تراود المرأه الرجل بل ذاك- إن كان- من طبع الرجال و إنها امرأه العزيز فهى عزيزه مصر فمن الواجب الذى لا معدل عنه أن تراعى شرف بيتها و عزه زوجها و مكانه نفسها، و إن الذى علقت به عبدها و من الشنيع أن يتوله مثلها و هى عزيزه مصر بعبد عبرانى من جمله عبيده، و إنها أحبته و تعدت ذلك الى مرأوده فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت و استمرت على مرأوده و ذلك أقبح و أشنع و أمعن فى الضلال.

و ذلك عقبن قوله: «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ» الخ؛ بقولهن: «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» .

قوله تعالى: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا قَالَ فِى الْمَجْمَعِ: المكر هو القتل بالحيله على ما يراد من الطلبه. انتهى. و تسميه هذا القول منهن مكرًا بامرأه العزيز لما فيه من فضاحتها و هتك سترها من ناحيه رقيباتها حسدا و بغيا، و إنما أرسلت اليهن لثريهن يوسف و بتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها و يعذرنها فى حبه.

و على هذا إنما سمى قولهن مكرًا و نسب السمع اليه لأنه صدر منهن حسدا و بغيا لغايه

فضاحتها بين الناس.

و قوله: أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الحُضُورِ عِنْدَهَا.

و قوله: وَ أَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا الإِعْتَادُ الإِعْدَادُ وَ المِرَادُ بِهِ مَا يَتَّكَأُ عَلَيْهِ مِنْ نَمْرُقٍ أَوْ كُرْسَى كَمَا كَانَ مَعْمُولًا فِي بَيْوتِ العِظْمَاءِ.

و فسر المتكأ بالانترج و هو نوع من الفاكهه كما قرئ في الشواذ «مُتَّكًا» بالضم فالسكون و هو الانترج و قرئ «مُتَّكًا» بضم الميم و تشديد التاء من غير همز.

و قوله: وَ آتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا أى لقطع ما يرون أكله من الفاكهه كالانترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكوله بالقطع و قوله: «وَ قَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْنَّ» أى أمرت يوسف أن يخرج عليهن و هن خاليات الأذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهه و قطعها، و فى اللفظ دلالة على أنه عليه السلام كان غائبا عنهن و كان فى مخدع هناك أو بيت آخر فى داخل بيت المأدبه الذى كن فيه فإنها قالت «اخْرُجْ عَلَيْنَّ» و لو كان فى خارج من البيت لقالت «ادخل عليهن».

و فى السياق دلالة على أن هذا التدبير كان مكرًا منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها فيما عدلنها، و قد أصابت فى رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاه فأعدت لهن متكأ و آتت كل واحده منهن سكينًا، و أخفت يوسف عن أعينهن ثم فاجأتهن بإظهاره دفعه لهن ليغبن عن عقولهن، و يندهشن بذاك الجمال البديع و يأتين بما لا يأتى به ذو شعور البته و هو تقطيع الأيدى مكان الفواكه لا من الواحده و الثنتين منهن بل من الجميع.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ وَ قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ الإِكْبَارُ الإِعْظَامُ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ انْدِهَاشِهِنَّ وَ غِيْبَتِهِنَّ عَنِ شعورهن و إرادتهن بمفاجأه مشاهده ذاك الحسن الرائع طبقا للناموس الكونى العام و هو خضوع الصغير للكبير و قهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته و كبريائه لشعور

الإنسان قهر سائر ما فى ذهنه من المقاصد والأفكار فأنساها و صار يتخطى فى أعماله.

و لذلك لما رأينه قهرت رؤيته شعورهن فقطعن ايديهن تقطيعا مكان الفاكهه التى كن يردن قطعها،و فى صيغه التفعيل دلالة على الكثرة يقال: قتل القوم تقتيلا و مؤتهم الجذب تمويتا.

و قوله: وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ تَنْزِيهِهُ لَلَّهِ سُبْحَانَهُ فى أمر يوسف و هذا كقوله تعالى: مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (النور ١٦) و هو أدب الكلام عند المليونين إذا جرى القول فى أمر فيه نوع تنزيه و تبرئه لأحد يبدأ فينزه الله سبحانه ثم يشتغل بتنزيه من اريد تنزيهه فهن لما أردن تنزيه عليه السلام بقولهن: «مَا هَذَا بَشَرًا» الخ؛ بدأن بتنزيهه تعالى، ثم أخذن ينزهنه.

و قوله: «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» نفى أن يكون يوسف عليه السلام بشرا و إثبات أنه ملك كريم، و هذا بناء على ما يعتقدده المليون و منهم الوثنيون أن الملائكة موجودات شريفه هم مبادئ كل خير و سعادته فى العالم منهم يترشح كل حياه و علم و حسن و بهاء و سرور و سائر ما يتمنى و يؤمل من الامور ففيهم كل جمال صورى و معنوى، و إذا مثلوا تخيلوا فى حسن لا يقدر بقدره، و يتصوره أصحاب الأصنام فى صور إنسانيه حسنه بهيه.

و لعل هذا هو السبب فى قولهن: «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه و جمال المنظر مع أن الذى فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه و اعتدال صورته بل سمينه ملكا كريما لتكون فيه إشارة الى حسن صورته و سيرته معا، و جمال خلقه و خلقه و ظاهره و باطنه جميعا. و الله أعلم.

و تقدم قولهن هذا على قول امرأه العزيز: «فذلكن الذى لمتنى فيه» يدل على أنهم لم يفهمهن بهذا الكلام إعدار لامرأه العزيز فى حبها له و تيمها و غرامها به، و إنما كان ذلك اضطرارا

منهن على الشاء عليه و إظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن و توله قلوبهن اليه فقد كان فيه فضاحتهم، و لم تقل امرأه العزيز «فذلكن الذى لمتنى فيه» إلا بعد ما فضحتهن فعلا و قولاً بتقطع الأيدي و تنزيه الحسن فلم يبق لهن إلا أن يصدقنها فيما تقول و يعذرنها فيما تفعل.

قوله تعالى: **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** الى آخر الآية؛ الكلام فى موضع دفع الدخل كأن قائلها يقول: فما ذا قالت امرأه العزيز لهن؟ فقيل **«قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ»**.

و قد فرغت كلامها على ما تقدمه من قولهن و فعلهن و أشارت الى شخص الذى لمنها فيه و وصفته بأنه الذى لمنها فيه ليكون هو بعينه جوابا لما رمينها به من ترك شرف بيتها و عزه زوجها و عفه نفسها فى حبه، و عذرا قبال لومهن إياها فى مرادته، و أقوى البيان أن يحال السامع الى العيان، و من هذا الباب قوله تعالى: **أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ** (الأنبياء / ٣٦)، و قوله: **رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا** (الأعراف / ٣٨).

ثم اعترفت بالمرأوده و ذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفه و طلب العصمه، و إنما استرسلت و أظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما تخفيه لما رأت موافقه القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن و نبهت يوسف أنها غير تاركته فلوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به، و هذا معنى قولها: **«وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ»**.

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقه و سياسته لو خالف فقالت **«وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ»** و قد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم و النون و اللام و نحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيزه جازمه، و عندها ما يجبره على ما أرادته و لو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحة، و الصغار و الهوان بعد الإكرام و الاحترام، و فى الكلام تجلد و نوع تعزز و تمنع بالنسبه اليهن و نوع تنبيه و تهديد بالنسبه الى يوسف عليه السلام.

و هذا التهديد الذى يتضمنه قولها: «وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ» أشد و أهول مما سألته زوجها يوم المراده بقولها: «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

أما أولا: فلانها رددت الجزاء هناك بين السجن و العذاب الاليم و جمع هاهنا بين الجزاءين و هو السجن و الكون من الصاغرين .

و أما ثانيا: فلانها هاهنا قامت بالتهديد بنفسها لا بأن تسأل زوجها، و كلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه و لا يرجع عما حزم به. و قد حققت أنها تملك قلب زوجها و تقدر أن تصرفه مما يريد الى ما تريده، و تقوى على التصرف فى أمره كيفما شاءت؟

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ قال الراغب فى المفردات: صبا فلان يصبو صبوا و صبوه إذا نزع و اشتاق و فعل فعل الصبيان، قال تعالى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ» انتهى. و فى المجمع: الصبوه لطفه الهوى. انتهى.

تفاوضت امرأه العزيز و النسوة فقالت و قلن و استرسلن فى بت ما فى ضمائرهن و يوسف عليه السَّلام واقف أمامهن يدعونه و يراودونه عن نفسه لكن يوسف عليه السَّلام لم يلتفت اليهن و لا- كلمهن و لا- بكلمه بل رجع الى ربه الذى ملك قلبه بقلب لا مكان فيه إلا له و لا شغل إلا به «قال: رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» الخ.

و قوله هذا ليس بدعاء على نفسه بالسجن و أن يصرف الله عنه ما يدعونه اليه بالقائه فى السجن، و إنما هو بيان حال لربه و أنه عن تربيته إلهيه يرجح عذاب السجن فى جنب الله على لذه المعصيه و البعد منه، فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأه العزيز حين خلت به و راودته عن نفسه «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» ففى الكلامين معا تمنع و تعزز بالله، و إنما الفرق أنه يخاطب بأحدهما امرأه العزيز و بالآخر ربه القوى العزيز و ليس شىء



و في قوله: رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ الخ؛ نوع توطئه لقوله: «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» الخ؛ الذي هو دعاء في صورته بيان الحال.

فمعنى الآية: رب إنى لو خيرت بين السجن و بين ما يدعونى اليه لاخترت السجن على غيره و أسألك أن تصرف عنى كيدهن فإنك إن لا تصرف عنى كيدهن أنتزع و أمل اليهن و أكن من الجاهلين فإنى إنما أتوقى شرهن بعلمك الذى علمتنيه و تصرف به عنى كيدهن فإن أمسكت عن إفاضته على صرت جاهلا و وقعت فى مهلكه الصبوه و الهوى.

قوله تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى استجاب الله مسألته فى صرف كيدهن عنه حين قال «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» إنه هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم (١)(٢).

### [سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٤٢]

#### اشاره

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّى حِينَ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَيَا بَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُكَ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خِيفَ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَشْجَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخَرُ فَيُضِلُّكَ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

ص: ٢٧٥

١ - ١. يوسف ٢٢-٣٤: ابحاث حول التقوى الدينى و درجاته فى فصول (القانون و الاخلاق الكريمة و التوحيد، يحصل التقوى الدينى بأحد امور ثلاثه، كيف يورث الحب الاخلاص).

٢ - ٢. يوسف ٢٢-٣٤: بحث روائى حول قصه يوسف عليه السلام؛ معنى هم يوسف بها.

قوله تعالى: ثُمَّ يَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ لِيُجَنِّهَهُ حَتَّىٰ حِينَ الْبَدَاءِ هُوَ ظَهْوَر رَأَىٰ بَعْدَ مَا لَمْ يَكُنْ يُقَالُ؟ بَدَا لِي فِي أَمْرٍ كَذَا أَى ظَهَرَ لِي فِيهِ رَأَىٰ جَدِيدًا، وَ الضَّمِير فِي قَوْلِهِ: «لَهُمْ» إِلَى الْعَزِيزِ وَ امْرَأَتِهِ وَ مَنْ يَتْلُوهُمَا مِنْ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ وَ أَعْوَانِ الْمَلِكِ وَ الْعِزَّةِ.

وَ الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ الشُّوَاهِدِ وَ الْأَدْلَةَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ بَرَاءَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ طَهَارَتِهِ ذِيْلَهُ مِمَّا اتَّهَمُوهُ بِهِ

كشهاده الصبى وقد القميص من خلفه و استباقهما الباب معا، و لعل منها تقطيع النسوه أيديهن برؤيته و استعصامه عن مرادتهن إياه عن نفسه و اعتراف امرأه العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

و قوله: لَيْسَ جُنَّةُ اللّامِ فِيهِ لِلْقِسْمِ أَى أَقْسَمُوا و عزموا ليسجننه البته، و هو تفسير للرأى الذى بدا لهم، و يتعلق به قوله: «حَتَّى حِينَ» و لا- يخلو من معنى الانتظار بالنظر الى قطع حين عن الإضافه و المعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراده الشائع فى المدينه و ينسأه الناس.

و معنى الآيه: ثم ظهر للعزيز و من يتلوه من امرأته و سائر مشاوريه رأى جديد فى يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الداله على براءته و عصمته و هو أن يسجنوه حيناً من الزمان حتى ينسى حديث المراده الذى يجلب لهم العار و الشين و أقسموا على ذلك.

و يظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحه بيت العزيز و صونا لاسرته عن هوان التهمه و العار، و لعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينه العام و لا يخلوا الناس و خاصه النساء أن يفتنوا به فإن الحسن الذى أوله امرأه العزيز و السيدات من شرفاء المدينه و فعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم فى المدينه بلوى.

لكن الذى يظهر من قوله فى السجن لرسول الملك: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَيُتْلَىٰ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» الى آخر ما قال، ثم قول الملك لهن: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، و قولهن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء ثم قول امرأه العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين، كل ذلك يدل على أن المرأه ألبست الأمر بعد على زوجها و أرابته فى براءه يوسف عليه السلام فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك فى ذلك، و لم يكن ذلك إلا عن سلطه تامه منها عليه و تمكن كامل من قلبه و رأيه.

و على هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بأمر منها لتدفع بذلك تهمة الناس عن نفسها و تؤدب

يوسف لعله ينقاد لها و يرجع الى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوة بقولها: «وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ» .

قوله تعالى: وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَيُنَادِي إِلَى آخِرِ آيَةِ؛ الفتى العبد و سياق الآيات يدل على أنهما كانا عبيد من عبيد الملك، و قد وردت به الروايات كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

و قوله: قَالَ أَحْيِدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا فصل قوله: «قَالَ أَحْيِدُهُمَا» للدلالة على الفصل بين حكاية الرؤيا و بين الدخول كما يشعر به ما فى السياق من قوله:

«أَرَانِي» و خطابه له بصاحب السجن.

و قوله: أَرَانِي لحكاية الحال الماضيه كما قيل، و قوله: «أَعْصِرُ خَمْرًا» أى أعصر عنبا كما يعصر ليتخذ خمرا فقد سمي العنب خمرا باعتبار ما يؤول اليه.

و المعنى أصبح أحدهما و قال ليوسف عليه السلام إنى رأيت فيما يرى النائم أنى أعصر عنبا للخمر.

و قوله: وَقَالَ الْمَآخِرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ أى تنهشه و هى رؤيا أخرى ذكرها صاحبه. و قوله: «بَنَيْنَا بِنْتًا وَإِلَيْهِ إِنَّا نُرَاكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أى قالنا بنينا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله: «قَالَ» «وَقَالَ» و هذا من لطائف تفنن القرآن، و الضمير فى قوله: «بِنْتًا وَإِلَيْهِ» راجع الى ما يراه المدلول عليه بالسياق، و فى قوله: «إِنَّا نُرَاكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» تعليل لسؤالهما التأويل و «نُرَاكُ» أى نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم، و إنما أقبلنا عليه فى تأويل رؤياهما لإحسانه، لما يعتقد عامه الناس أن المحسنين الأبرار ذووا قلوب طاهره و نفوس زاكية فهم ينتقلون الى روابط الامور و جريان الحوادث انتقالا أحسن و أقرب الى الرشد من انتقال غيرهم.

و المعنى: قال أحدهما ليوسف: إنى رأيت فيما يرى النائم كذا و قال الآخر: إنى رأيت

كذا، وقال له: أخبرنا بتأويل ما رآه كل منا لأننا نعتقد أنك من المحسنين، ولا يخفى لهم أمثال هذه الأمور الخفية لزكاء نفوسهم و صفاء قلوبهم.

قوله تعالى: **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا لَمَّا أَقْبَلَ صَاحِبَا السِّجْنِ عَلَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سْؤَالِهِ عَنِ تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَأْيَاهَا عَنِ حَسَنِ ظَنِّ بَعْضِ مَنْ جَهِهَ مَا كَانَا يَشَاهِدَانِ مِنْهُ سَيِّمَاءَ الْمُحْسِنِينَ اغْتَنِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْفُرْصَةَ فِي بَثِّ مَا عِنْدَهُ مِنْ أَسْرَارِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ سَبْحَانَهُ الَّذِي عَلَّمَهُ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمَا أَنَّهُ عَلِيمٌ بِذَلِكَ بِتَعْلِيمٍ مِنْ رَبِّهِ خَبِيرٌ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَتَوَسَّلَ بِذَلِكَ إِلَى الْكَشْفِ عَنِ سِرِّ التَّوْحِيدِ وَنَفَى الشَّرْكَاءَ ثُمَّ أَوَّلَ رُؤْيَاهُمَا.**

فقال أولا: لا يأتیکما طعام ترزقانه- و أنتما فی السجن- إلا نبأ تکما بتأويله- أى بتأويل ذاکما الطعام و حقیقته و ما يؤول الیه أمره- فأنا خبير بذلك فلیکن آیه لصدقی فیما أدعوکما الیه من دین التوحید.

هذا على تقدير عود الضمير فى قوله: «بتأويله» الى الطعام، و يكون عليه إظهارا منه عليه السلام لآيه نبوته نظير قول المسيح عليه السلام لبنى إسرائيل: **وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ٤٩)**، و يؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليهم السلام كما سيأتى فى بحث روائى إن شاء الله تعالى.

و أما على تقدير عود ضمير «بتأويله» الى ما رآه من الرؤيا فقوله: **«لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ»** الخ؛ وعد منه لهما تأويل رؤياهما و وعد بتسريعه غير أن هذا المعنى لا يخلو من بعد بالنظر الى السياق.

قوله تعالى: **ذَلِكَ مَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْمَآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ**

بين عليه السّلام أن العلم و التنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادى الاكتسابى فى شىء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه مله المشركين و اتباعه مله آباءه إبراهيم و إسحاق و يعقوب أى رفضه دين الشرك و أخذه بدين التوحيد.

و المشركون من أهل الأوثان يعتقدون بالله سبحانه و يشبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم فى الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم أن الذى يقدر له شركاء فى التأثير أو فى استحقاق العباده ليس هو الله و كذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد فى شىء، و لذلك نفى عليه السّلام عنهم الإيمان بالله و بالآخره، و أكد كفرهم بالآخره بتكرار الضمير حيث قال «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» و ذلك لأن من لا يؤمن بالله فأحرى به أن لا يؤمن برجوع العباد اليه.

و هذا الذى يقصه الله سبحانه من قول يوسف عليه السّلام «وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» هو أول ما أنبأ فى مصر نسبه و أنه من أهل بيت إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى لم يجعل الله سبحانه لنا أهل البيت سبيلا الى أن نشرك به شيئا و منعنا من ذلك، ذلك المنع من فضل الله و نعمته علينا أهل البيت و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به.

و أما أنه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم الى أن يشركوا به فليس جعل إجبار و إلقاء بل جعل تأيد و تسديد حيث أنعم عليهم بالنبوه و الرساله و الله أعلم حيث يجعل الرساله فاعتصموا بالله عن الشرك و دانوا بالتوحيد.

و أما أن ذلك من فضل الله عليهم و على الناس فلأنهم أيدوا بالحق و هو أفضل الفضل و الناس فى وسعهم أن يرجعوا اليهم فيفوزوا باتباعهم و يهتدوا بهداهم.

و أما أن أكثر الناس لا يشكرون فلأنهم يكفرون بهذه النعمه و هى النبوه و الرساله فلا

يعبئون بها ولا يتبعون أهلها أو لأنهم يكفرون بنعمه التوحيد و يتخذون لله سبحانه شركاء من الملائكة و الجن و الإنس يعبدونهم من دون الله.

هذا ما ذكره أكثر المفسرين فى معنى الآية.

و يبقى عليه شىء و هو أن التوحيد و نفى الشركاء ليس مما يرجع فيه الى بيان النبوه فإنه مما يستقل به العقل و تقضى به الفطره فلا معنى لعدده فضلا على الناس من جهه الاتباع بل هم و الأنبياء فى أمر التوحيد على مستوى واحد و شرع سواء و لو كفروا بالتوحيد فإنما كفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطره لا لعدم اتباع الأنبياء (١).

قوله تعالى: يَا صَاحِبِي السُّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لفظه الخير بحسب الوزن صفه من قولهم: خار يخار خيره إذا انتخب و اختار أحد شيئين يتردد بينهما من حيث الفعل أو من حيث الأخذ بوجه فالخير منهما هو الذى يفضل على الآخر فى صفه المطلوبه فيتعين الأخذ به فخير الفعلين هو المطلوب منهما الذى يتعين القيام به و خير الشيئين هو المطلوب منهما من جهه الأخذ به كخير المالين من جهه التمتع به و خير الدارين من جهه سكنائها و خير الانسانين من جهه مصاحبته، و خير الرأيين من جهه الأخذ به، و خير الإلهين من جهه عبادته، و من هنا ذكر أهل الأدب أن الخير فى الأصل «أخير» أفعل تفضيل، و الحقيقه أنه صفه مشبهه تفيد بحسب ماده ما يفيد أفعل التفضيل من الفضل فى القياس.

و بما مر يتبين أن قوله عليه السلام: «أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الخ؛ مسوق لبيان الحجه على تعينه تعالى للعباده إذا فرض تردد الأمر بينه و بين سائر الأرباب التى تدعى من دون الله لا لبيان أنه تعالى هو الحق الموجود دون غيره من الأرباب أو أنه تعالى هو

ص: ٢٨١

الإله الذى تنتهى إليه الأشياء بدءا و عودا دونها أو غير ذلك فإنه الشئ إنما يسمى خيرا من جهة طلبه و تعيينه بالأخذ به بنحو  
ف قوله عليه السلام: أ هو خير أم سائر الأرباب يريد به السؤال عن تعيين أحد الطرفين من جهة الأخذ به و الأخذ بالرب هو عبادته.

ثم إنه عليه السلام سمي آلهتهم أربابا متفرقين لأنهم كانوا يعبدون الملائكة و هم عندهم صفات الله سبحانه أو تعيينات ذاته  
المقدسه التى تستند إليها جهات الخير و السعاده فى العالم فيفرون بين الصفات بتنظيمها طولاً و عرضاً و يعبدون كلا بما يخصه  
من الشأن فهناك إله العلم و إله القدره و إله السماء و إله الأرض و إله الحسن و إله الحب و إله الأمن و إله الخصب و غير  
ذلك، و يعبدون الجن و هم مبادئ الشر فى العالم كالموت و الفناء و الفقر و القبح و الألم و الغم و غير ذلك، و يعبدون أفراد  
كالكاملين من الأولياء و الجابره من السلاطين و الملوك و غيرهم، و هم جميعاً متفرون من حيث أعيانهم و من حيث أصنامهم  
و التماثيل المتخذة لهم المنصوبه للتوجه بها اليهم.

و قابل الأرباب المتفرقين بذكر الله عز اسمه و وصفه بالواحد القهار حيث قال «أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» فالكلمه تفيد بحسب  
المعنى خلاف ما يفيد قوله: «أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ» لضروره التقابل بين طرفى الترديد.

قوله تعالى: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا  
إِيَّاهُ الْخَبْرُ؛ بدأ عليه السلام بخطاب صاحبيه فى السجن أولاً ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما و بين غيرهما من  
عبده الأوثان.

و نفى العباده إلا عن الأسماء كناية عن أنه لا مسميات وراء هذه الأسماء فتقع العباده فى مقابل الأسماء كلفظه إله السماء و إله  
الأرض و إله البحر و إله البر و الأب و الام و ابن الإله و نظائر ذلك.



وقد أكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله: «أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ» فإنه في معنى الحصر أى لم يضع هذه الأسماء أى أحد غيركم بل أنتم و آباؤكم وضعتموها، ثم أكده ثانيا بقوله: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» و السلطان هو البرهان لتسلطه على العقول أى ما أنزل الله بهذه الأسماء أو بهذه التسميه من برهان يدل على أن لها مسميات وراءها، و حينئذ كان يثبت لها الالوهيه أى المعبوديه فصحت عبادتكم لها.

و من الجائز أن يكون ضمير «بِهَا» عائدا الى العباده أى ما أنزل الله حجه على عبادتها بأن يثبت لها شفاعه و استقلالاً فى التأثير حتى تصح عبادتها و التوجه إليها فإن الأمر الى الله على كل حال. و اليه أشار بقوله بعده: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» .

و هو أعنى قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» مما لا ريب فيه البتة إذ الحكم فى أمر ما لا يستقيم إلا ممن يملك تمام التصرف، و لا مالك للتصرف و التدبير فى امور العالم و تربيه العباد حقيقه إلا الله سبحانه فلا حكم بحقيقه المعنى إلا له.

و هو أعنى قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» مفيد فيما قبله و ما بعده صالح لتعليقهما معا، أما فائدته فى قوله قبل: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» فقد ظهرت آنفا، و أما فائدته فى قوله بعد:

«أمر أن لا- تعبدوا إلا- إياه» فلأنه متضمن لجانب إثبات الحكم كما أن قوله قبل: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» متضمن لجانب السلب، و حكمه تعالى نافذ فى الجانبين معا فكأنه لما قيل «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» قيل «فما ذا حكم به فى أمر العباد» فقيل «أمر أن لا تعبدوا إلا إياه» و لذلك جىء بالفعل.

و معنى الآية-و الله أعلم- ما تعبدون من دون الله إلا أسماء خاليه عن المسميات لم يضعها إلا أنتم و آباؤكم من غير أن ينزل الله سبحانه من عنده برهانا يدل على أن لها شفاعه عند الله أو شيئا من الاستقلال فى التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها، أو طمعا فى خيرها أو خوفا من شرها.

و أما قوله: **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** فيشير به الى ما ذكره من توحيد الله و نفى الشريك عنه، و القيم هو القائم بالأمر القوي على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل و المتضعضع، و المعنى أن دين التوحيد وحده هو القوى على إداره المجتمع و سوقه الى منزل السعاده، و الدين المحكم غير المتزلزل الذى فيه الرشد من غير غي و الحقيه من غير بطلان، و لكن أكثر الناس لانسهم بالحس و المحسوس و انهما كهم فى زخارف الدنيا الفانيه حرما سلامه القلب و استقامه العقل لا يعلمون ذلك، و إنما يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا و هم عن الآخره معرضون.

أما أن التوحيد دين فيه الرشد و مطابقه الواقع فيكفى فى بيانه ما أقامه عليه السلام من البرهان، و أما أنه هو القوى على إداره المجتمع الإنسانى فلأن هذا النوع إنما يسعد فى مسير حياته إذا بنى سنن حياته و أحكام معاشه على مبنى حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبنى باطل خرافى لا يعتمد على أصل ثابت (١).

قوله تعالى: **يَا صَاحِبِ السُّجُنِ أَمَا آخِذُكُمْ بِسَيِّئِ رَبِّهِ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخِرُ فَيُضِلُّكُمْ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** معنى الآيه ظاهر، و قرينه المناسبه قاضيه بأن قوله: «**أَمَا آخِذُكُمْ**» الخ؛ تأويل رؤيا من قال منهما «**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**» و قوله: «**وَ أَمَا الْآخِرُ**» الخ؛ تأويل لرؤيا الآخر.

و قوله: **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** لا يخلو من إشعار بأن الصاحبين أو أحدكما كذب نفسه فى دعواه الرؤيا و لعله الثانى لما سمع تأويل رؤياه بالصلب و أكل الطير من رأسه، و يتأيد بهذا ما ورد من الروايه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام أن الثانى من الصاحبين قال له: **إِنِّي كَذَبْتُ فِيمَا قَصَصْتَ عَلَيْكَ مِنَ الرُّؤْيَا فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»**

ص: ٢٨٤

١- (١). يوسف ٣٥-٤٢: برهان على توحيد العباده لله تعالى.

أى إن التأويل الذى استفتيتما فيه مقضى مقطوع لا مناص عنه.

قوله تعالى: **وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ الضمائر فى قوله: «قَالَ» و «ظَنَّ» و «فَلَبِثَ» راجعه الى يوسف أى قال يوسف للذى ظن هو أنه سينجو منهما: اذكرنى عند ربك بما يثير رحمته لعله يخرجنى من السجن.**

و إطلاق الظن على اعتقاده مع تصريحه لهما بأنه من المقضى المقطوع به و تصريحه بأن ربه علمه تأويل الأحاديث لعله من إطلاق الظن على مطلق الاعتقاد و له نظائر فى القرآن كقوله تعالى: **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** (البقره ٤٦).

و قوله: **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** الخ؛ الضميران راجعان الى «الذى» أى فأنسى الشيطان صاحبه الناجى أن يذكره لربه أو عند ربه فلبث يوسف فى السجن يضع سنين و البضع ما دون العشره بإضافه الذكر الى ربه من قبيل إضافه المصدر الى معموله المعدى اليه بالحرف أو الى المظروف بنوع من الملايسه.

و أما إرجاع الضميرين الى يوسف حتى يفيد أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله سبحانه فتعلق بذيل غيره فى نجاته من السجن فعوقب على ذلك فلبث فى السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم و ربما نسب الى الروايه.

فمما يخالف نص الكتاب فإن الله سبحانه نص على كونه عليه السلام من المخلصين و نص على أن المخلصين لا سبيل للشيطان اليهم مضافا الى ما أثنى الله عليه فى هذه السوره.

و الإخلاص لله لا- يستوجب ترك التوسل بالأسباب فإن ذلك من أعظم الجهل لكونه طمعا فيما لا مطمع فيه بل إنما يوجب ترك الثقة بها و الاعتماد عليها و ليس فى قوله: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» ما يشعر بذلك البتة.

على أن قوله تعالى بعد آيتين: **«وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ اذْكُرْ بَعْدَ أُمَّه»** الخ؛ قرينه صالحه

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٤٣ الى ٥٧]

اشاره

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ  
إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهِ أَنَا  
أُنْبِتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ  
يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ  
(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ  
الذُّسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَدِّئْ لَهُ مَا بَالَ النَّسْوَةُ اللَّاتِي قَطَعَنَ  
أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْدَتُنَّ يَوْسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ  
الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْدْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ  
الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمِمَّا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ  
أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَمَدِينًا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَ  
كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ  
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَوِيَّاتٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ رؤيا للملك يخبر بها الملاء والدليل عليه قوله: «إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَوِيَّاتٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ» وقوله: «إِنِّي أَرَى» حكاية حال ماضيه، و من المحتمل أنها كانت رؤيا متكرره كما يحتمل مثله فى قوله سابقا: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» «إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ» الخ.

و السمان جمع سمينه و العجاف جمع عجفاء بمعنى المهزوله، قال فى المجمع: و لا يجمع فعلاء

على فعال غير العجفاء على عجاف و القياس فى جمعه العجف بضم العين و سكون الجيم كالحمرء و الخضراء و البيضاء على حمر و خضر و بيض، و قال غيره: إن ذلك من قبيل الاتباع و الجمع القياسى عجف.

و الإفتاء إفعال من الفتوى و الفتيا، قال فى المجمع: الفتيا الجواب عن حكم المعنى و قد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتيا انتهى.

و قوله: تَعْبُرُونَ من العبر و هو بيان تأويل الرؤيا و قد يسمى تعبيرا، و هو على أى حال مأخوذ من عبور النهر و نحوه كأن العابر يعبر من الرؤيا الى ما وراءها من التأويل، و هو حقيقة الأمر التى تمثلت لصاحب الرؤيا فى صورته خاصة مألوفه له.

و معنى الآية: و قال ملك مصر لملئه إنى أرى فى منامى سبع بقرات سمات يأكلهن سبع بقرات مهازيل و أرى سبع سنبلات خضر و سنبلات أخر يابسات يا أيها الملاء بينوا لى ما عندكم من حكم رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون.

قوله تعالى: قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ الْأَحْلَام جمع حلم بضمين و قد يسكن وسطه هو ما يراه النائم فى منامه و كأن الأصل فى معناه ما يتصور للإنسان من داخل نفسه من غير توصله اليه بالحس، و منه تسميه العقل حلما لأنه استقامه التفكير، و منه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ (النور ٥٩) أى زمان البلوغ، بلوغ العقل، و منه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأثناء ضد الطيش و هو ضبط النفس و الطبع عن هيجان الغضب و عدم المعاجلة فى العقوبة فإنه إنما يكون عن استقامه التفكير، و ذكر الراغب: أن الأصل فى معناه الحلم بكسر الحاء، و لا يخلو من تكلف.

و قال الراغب: الضغث قبضه ريحان أو حشيش أو قضبان و جمعه أضغاث، قال تعالى «وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا» و به شبه الأحلام المختلفة التى لا تتبين حقائقها «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» حزم أخلاط من الأحلام انتهى.

و تسميه الرؤيا الواحده بأضغاث الأحلام كأنه بعنايه دعوى كونها صوراً متفرقه مختلطه مجتمعه من رؤى مختلفه لكل واحد منها تأويل على حده فإذا اجتمعت و اختلطت عسر للمعبر الوقوف على تأويلها، و الإنسان كثيراً ما ينتقل في نومه واحد من رؤيا الى اخرى و منهما الى ثالثه و هكذا فإذا اختلطت أبعاضها كانت أضغاث أحلام و امتنع الوقوف على حقيقتها، و يدل على ما ذكرنا من العنايه التعبير بأضغاث أحلام بتنكير المضاف و المضاف اليه معا كما لا يخفى.

على أن الآيه أعنى قوله: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ» الخ؛ غير صريحه في كونه رؤيا واحد و في التوراه أنه رأى البقرات السمان و العجاف في رؤيا و السنبلات الخضر و اليابسات في رؤيا اخرى.

و قوله: «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ إِنْ كَانَ الْأَلْفُ وَاللَّامُ الْعَهْدَ فَالْمَعْنَى وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْمَنَامَاتِ الَّتِي هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامِ بِعَالَمِينَ. وَ إِنْ كَانَ لَغَيْرِ الْعَهْدِ وَ الْجَمْعِ الْمَحَلِّيِّ بِاللَّامِ يَفِيدُ الْعُمُومَ فَالْمَعْنَى وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ جَمِيعِ الْمَنَامَاتِ بِعَالَمِينَ وَ إِنَّمَا نَعْبَرُ غَيْرَ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ مِنْهَا، وَ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ لَا تَدْفَعُ بَيْنَ عَدَمِ رُؤْيَاهِ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ بَيْنَ نَفِيهِمُ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْأَحْلَامِ الْأَحْلَامَ الصَّحِيحَةَ فَحَسَبَ كَانَ كُلٌّ مِنْ شَطْرِي كَلَامِهِمْ يَغْنَىٰ عَنِ الْآخَرِ.

و معنى الآيه قالوا أى قال الملأ للملك: ما رأيت أضغاث أحلام و أخلاط من منامات مختلفه و ما نحن بتأويل هذا النوع من المنامات بعالمين أو و ما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين و إنما نعلم تأويل الرؤى الصالحه.

قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهُ أَنَا أَتَّبِعُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ الْإِمَامَةَ الْجَمَاعَةَ الَّتِي تَقْصِدُ لَشَأْنٍ وَ يَغْلِبُ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْإِنْسَانِ، وَ الْمُرَادُ بِهَا هَاهُنَا الْجَمَاعَةُ مِنَ السَّنِينِ وَ هِيَ الْمَدَّةُ الَّتِي نَسِيَ فِيهَا هَذَا الْقَائِلُ وَ هُوَ سَاقِي الْمَلِكِ أَنْ يَذْكَرَ يُوسُفَ عِنْدَ بِهِ

و قد سأله يوسف ذلك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

و المعنى: وقال الذى نجا من السجن يا صاحبي يوسف فيه و اذكر بعد جماعه من السنين ما سأله يوسف في السجن حين أول رؤياه: أنا أنبئكم بتأويل ما رآه الملك في منامه فأرسلوني الى يوسف فى السجن حتى أخبركم بتأويل ذلك.

و خطاب الجمع فى قوله: «أُنَبِّئُكُمْ» و قوله: «فَأَرْسِلُونِ» تشريك لمن حضر مع الملك و هم الملاء من أركان الدوله و أعضاء المملكه الذين يلون أمور الناس، و الدليل عليه قوله الآتى:

«لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» كما سيأتى.

قوله تعالى: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فى الكلام حذف و تقدير إيجازاً، و التقدير: فأرسلوه فجاء الى يوسف فى السجن فقال:

يا يوسف أيها الصديق أفنتا فى رؤيا الملك و ذكر الرؤيا و ذكر أن الناس فى انتظار تأويله و هذا الاسلوب من لطائف أساليب القرآن الكريم.

و سمى يوسف صديقا و هو كثير الصدق المبالغ فيه لما كان رأى من صدقه فيما عبر به منامه و منام صاحبه فى السجن و أمور أخرى شاهدها من فعله و قوله فى السجن، و قد أمضى الله سبحانه كونه صديقا بنقله ذلك من غير رد.

و قد ذكر متن الرؤيا من غير أن يصرح أنه رؤيا فقال «أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخْرٍ يَأْبَسَاتٍ» لأن قوله: «أَفْتِنَا» و هو سؤال الحكم الذى يؤدى اليه نظره، و كون المعهود فيما بينه و بين يوسف تأويل الرؤيا، و كذا ذيل الكلام يدل على ذلك و يكشف عنه.

و قوله: لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لعل الأول تعليل لقوله:

«أَفْتِنَا» و لعل الثانى تعليل لقوله: «أَرْجِعُ» و المراد أفنتا فى أمر هذه الرؤيا ففى إفتائك رجاء أن أرجع به الى الناس و أخبرهم بها و فى رجوعى اليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحيره



و من هنا يظهر أن قوله: «أَرْجِعْ» فى معنى أرجع بذلك فمن المعلوم أنه لو أفتى فيه فرجع المستفتى الى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ اليهم رجوع بمصاحبه ما ألقى اليه من التأويل فافهم ذلك.

و فى قوله أولاً: «أَفْتِنَا» و ثانياً «لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» دلالة على أنه كان يستفتيه بالرساله عن الملك و الملاء و لم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحملة اليهم و لذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له و لغيره فقال «تَزْرَعُونَ» الخ.

و فى قوله: «إِلَى النَّاسِ» إشعار أو دلالة على أن الناس كانوا فى انتظار أن يرتفع بتأويله حيرتهم، و ليس إلا أن الملاء كانوا هم أولياء أمور الناس و خيرتهم فى الأمر خيره الناس أو أن الناس أنفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك و اهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظره غالباً الى ما يهتم به الإنسان من شئون الحياه و الملوك إنما يهتمون بشئون الملكه و أمور الرغبه.

قوله تعالى: «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ» قال الراغب: الدأب إدامه السير دأب فى السير دأبا قال تعالى:

و سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبِينَ وَ الدأب العاده المستمره دائماً على حاله، قال تعالى:

كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ أَى كعادتهم التى يستمرون عليها. انتهى و عليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعه متواليه مستمره، و قيل: هو من دأب بمعنى التعب أى تزرعون بجد و اجتهاد، و يمكن أن يكون حالاً أى تزرعون دائبين مستمرين أو مجددين مجتهدين فيه.

ذكروا أن «تَزْرَعُونَ» خبر فى معنى الإنشاء، و كثيراً ما يؤتى بالأمر فى صورته الخبر مبالغه فى وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (الصف ١١)»، و الدليل عليه قوله بعد: «فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ»، قيل:

و إنما أمر بوضعه و تركه فى سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس و لا يهلك و إن بقى مده من الزمان، و إذا ديس و صفى أسرع اليه الهلاك.

و المعنى: ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه فى سنبله لئلا يهلك و احفظوه كذلك إلا قليلا و هو ما تأكلون فى هذه السنين.

قوله تعالى: **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ الشَّدَادُ** جمع شديد من الشده بمعنى الصعوبه لما فى سنى الجذب و المجاعه من الصعوبه و الحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر، و هذا أنسب لما بعده من توصيفها بقوله: **«يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ»**.

و عليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سبع ضاربه تكرر على الناس لافتراسهم و أكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله و تنصرف عنهم.

و الإحصان الإحراز و الادخار، و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السنين الخصبه سبع سنين شداد يشددن عليكم يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحرزون و تدخرون.

قوله تعالى: **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعَصِرُونَ** يقال: غاثة الله و أغاثة أى نصره، و يغايته بفتح الياء و ضمها أى بنصره و هو من الغوث بمعنى النصره و غايمهم الله يغايهم من الغيث و هو المطر، فقوله: **«فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ»** إن كان من الغوث كان معناه: ينصرون فيه من قبل الله سبحانه بكشف الكربه و رفع الجذب و المجاعه و إنزال النعمه و البركه، و إن كان من الغيث كان معناه: يمطرون فيرتفع الجذب من بينهم.

و هذا المعنى الثانى أنسب بالنظر الى قوله بعده: **«وَ فِيهِ يَعَصِرُونَ»** و لا يصغى الى قوله من يدعى: أن المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآيه إلا على قراءه **«يَعَصِرُونَ»** بالبناء للمجهول و معناه يمطرون.

و ما أورده بعض المستشرقين على المعنى الثانى أنه لا ينطبق على مورد الآيه فإن خصب

مصر إنما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالامطار لا تؤثر فيها أثرا.

رد عليه بأن الفيضان نفسه لا يكون إلا بالمطر الذى يمدده فى مجاريه من بلاد السودان.

على أن من الجائز أن يكون «يُعَاتُ» مأخوذا من الغيث بمعنى النبات، قال فى لسان العرب: و الغيث الكلاء ينبت من ماء السماء انتهى، وهذا أنسب من المعنيين السابقين بالنظر الى قوله: «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» .

وقوله: وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ من العصر وهو إخراج ما فى الشيء من ماء أو دهن بالضغط كإخراج ماء العنب و التمر للدبس و غيره و إخراج دهن الزيت و السمسم للالتدام و الاستصباح و غيرهما، و يمكن أن يراد بالعصر الحلب أى يحلبون ضرور أنعامهم كما فسرهم بعضهم به.

و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت أراضيهم-أو يمطرون أو ينصرون-و فيه يتخذون الأشربه و الأدهنه من الفواكه و البقول أو يحلبون ضرور أنعامهم. و فيه كناية عن توفر النعمه عليهم و على أنعامهم و مواشيهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلْنَا مَا جَاءَ النَّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فى الكلام حذف و إضمار إيجازا، و التقدير-على ما يدل عليه السياق و الاعتبار بطبيعة الأحوال- و جاء الرسول و هو الساقى فنأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا و قال الملك بعد ما سمعه:

ائتونى به.

و ظاهر أن الذى أنبأهم به من جذب سبع سنين متواليه كان أمرا عظيما، و الذى أشار اليه من رأى البين الصواب أعظم منه و أغرب عند الملك المهتم بأمر أمته المعتنى بشئون مملكته، و قد أفزعه ما سمع و أدهشه، و لذلك يحضاره ليكلمه و يتبصره بما يقوله مزيد تبصر، و يشهد بهذا ما حكاه الله تعالى من تكليمه إياه بقوله: «فلما جاءه و كلمه» الخ.

ص: ٢٩٣

و لم يكن أمره بإتيانه به إشخاصا له بل إطلاقا من السجن و إشخاصا للتكليم، و لو كان إشخاصا و إحضارا لمسجون يعود الى السجن بعد التكليم لم يكن ليوسف عليه السلام أن يستنكف عن الحضور بل أجبر عليه إجبارا بل كان إحضارا عن عفو و إطلاق فوسعه أن يأتي الحضور و يسأله أن يقضى فيه بالحق، و كانت نتيجة هذا الإياء و السؤال أن يقول الملك ثانيا: ائتوني به أستخلصه لنفسي بعد ما قال أولا: ائتوني به.

و قد راعى عليه السلام أدبا بارعا فى قوله للرسول: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَدِّئْ لَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» فلم يذكر امرأه العزيز بما يسوؤه و ليس يريد إلا أن يقضى بينه و بينها، و إنما أشار الى النسوة اللاتي راودنه، و لم يذكرهن أيضا بسوء إلا بأمر يظهر بالتحقيق فيه براءته و لا براءته من مراوده امرأه العزيز بل نزاهته من أى مراوده و فحشاء تنسب اليه فقد كان بلاؤه عظيما.

و لم يذكرهن بشيء من المكروه إلا ما فى قوله: «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ» و ليس إلا نوعا من بث الشكوى لربه.

و ما ألفت قوله فى صدر الآيه و ذيلها حيث يقول للرسول: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَدِّئْ لَهُ» ثم يقول «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ» و فيه نوع من تبليغ الحق، و ليكن فيه تنبه لمن يزعم أن مراده من «رَبِّي» فيما قال لامرأه العزيز «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» هو زوجها، و أنه يسميه ربا لنفسه.

و ما ألفت قوله: «مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» و البال هو الأمر الذى يهتم به يقول: ما هو الأمر العظيم و الشأن الخطير الذى أوقعهن فيما وقعن فيه، و ليس إلا - هوهنّ فيه و و لهنّ فى حبه حتى أنساهن أنفسهن فقطعن الأيدي مكان الفاكهه تقطيعا فليفكر الملك فى نفسه أن الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظيم جدا، و الكف عن معاشقتهن و الامتناع من إجابتهن بما يردنه و هن يفدينه بالأنفس و الأموال أعظم، و لم يكن المراوده بالمره و المرتين و لا - الإلحاح و الإصرار يوما أو يومين و لن تيسر المقاومه و الاستقامه تجاه ذلك إلا لمن صرف

اللّه عنه السوء و الفحشاء ببرهان من عنده.

قوله تعالى: **قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْآيَةِ**؛ قال الراغب: الخطب الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب قال تعالى **﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾** **﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾**. انتهى.

وقال أيضا: حصحص الحق أى وضح و ذلك بانكشاف ما يظهره، و حص و حصحص نحو كف و كفكف و كب و كبكب، و حصه قطع منه إما بالمباشره و إما بالحكم-الى أن قال- و الحصه القطعه من الجملة، و يستعمل استعمال النصيب. انتهى.

وقوله: **﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ؟﴾** جواب عن سؤال مقدر على ما فى الكلام من حذف و إضمار إيجازا- كل ذلك يدل عليه السياق- و التقدير: كأن سائلا- يسأل فيقول: فما الذى كان بعد ذلك؟ و ما فعل الملك؟ فقيل: رجع الرسول الى الملك و بلغه ما قاله يوسف و سأله منى القضاء فأحضر النسوة و سألهن عما يهمن من شأنهن فى مرادتهن ليوسف: ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن **﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾** فنزهه عن كل سوء، و شهدن أنهم لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه.

و ذكرهن كلمه التنزيه **﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾** نظير تنزيههن حينما رأينه لأول مره **﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾** يدل على بلوغه عليه السلام النهايه فى النزاهه و العفه فيما علمنه كما أن كان بالغا فى الحسن.

و الكلام فى فصل قوله: **﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾** نظير الكلام فى قوله: **﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ﴾** و قوله: **﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾** فعند ذلك تكلمت امرأه العزيز و هى الأصل فى هذه الفتنة و اعرفت بذنبها و صدقت يوسف عليه السلام فيما كان يدعيه من البراءه قالت: الآن حصحص و وضح الحق و هو أنه: أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين فنسبت المرادوه الى نفسها و كذبت نفسها فى اتهامه بالمرادوه، و لم تقنع بذلك بر برأته تبرئه كامله أنه لم يراود و لا أجابها فى مرادتها بالطاعه.

و اتضحت بذلك براءته عليه السّلام من كل وجه، و في قول النسوة و قول امرأه العزيز جهات من التأكيد بالغه في ذلك كنفى السوء عنه بالنكره في سياق النفي مع زياده من «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» مع كلمه التنزيه «حَاشَ لِلَّهِ» في قولهن، و اعترافها بالذنب في سياق الحصر «أَنَا رَأَوْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ» و شهادتها بصدقه مؤكده يانّ و اللام و الجملة الاسميه «وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» و غير ذلك في قولها. و هذا ينفي عنه عليه السّلام كل سوء أعم من الفحشاء و المراوده لها و أى ميل و نزعه إليها و كذب و افتراء، بنزاهه من حسن اختياره.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ من كلام يوسف عليه السّلام على ما يدل عليه السياق، و كأنه قاله عن شهادته النسوة على براءه ساحتها من كل سوء و اعتراف امرأه العزيز بالذنب و شهادتها بصدقه و قضاء الملك ببراءته.

و حكاية القول كثير النظير في القرآن كقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره / ٢٨٥) أى قالوا لا نفرق، الخ؛ و قوله: وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (الصافات / ١٦٦).

و على هذا فالإشارة بقوله: «ذَلِكُمْ» الى إرجاع الرسول الى الملك و سؤاله القضاء، و الضمير فى «لِيَعْلَمَ» و «لَمْ أَخُنْهُ» عائد الى العزيز و المعنى إنما أرجعت الرسول الى الملك و سألته أن يحقق الأمر و يقضى بالحق ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب بمراوده امرأته و ليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين.

يذكر عليه السّلام لما فعله من الإرجاع و السؤال غايتين:

أحدهما: أن يعلم العزيز أنه لم يخنه و تطيب نفسه منه و يزول عنها و عن أمره أى شبهه و ريبه.

و الثاني: أن يعلم أن الخائن مطلقاً لا ينال بخيائته غايته و أنه سيفتضح لا محاله سنه الله التي قد خلت في عبادته و لن تجد لسنه الله تبديلاً فإن الخيانه من الباطل، و الباطل لا يدوم و سيظهر الحق عليه ظهوراً، و لو اهتدى الخائن الى بغيته لم تفتضح النسوه الآتى قطعاً أيديهن و أخذن بالمرأوده و لا امرأه العزيز فيما فعلت و أصرت عليه فالله لا يهدى كيد الخائنين.

و كان الغرض من الغايه الثانيه «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» و تذكيره و تعليمه للملك، الحصول على لازم فائده الخبر و هو أن يعلم الملك أنه عليه السلام عالم بذلك مدعن بحقيقته فإذا كان لم يخنه في عرضه بالغيب و لا يخون في شيء البتة كان جديراً بأن يؤتمن على كل شيء نفساً كان أو عرضاً أو مالاً.

و بهذا الامتياز البين يتهاً ليوسف ما كان بباله أن يسأل الملك إياه و هو قوله بعد أن أشخص عند الملك: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» .

و الآيه ظاهره في أن هذا الملك هو غير عزيز مصر زوج المرأه الذي أشير اليه بقوله:

«وَأَلْفَيْتَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» و قوله: «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» .

و قد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآيه و التي بعدها تتمه قول امرأه العزيز «الآن حصي حصص الحق أنا راودتته عن نفسه و إنه لمن الصادقين» و سيأتي الكلام عليه.

قوله تعالى: «وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» تتمه كلام يوسف عليه السلام و ذلك أن قوله: «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» كان لا يخلو من شائبه دعوى الحول و القوه و هو عليه السلام من المخلصين المتوغلين في التوحيد الذين لا يرون لغيره تعالى حولا و لا قوه فبادر عليه السلام الى نفى الحول و القوه عن نفسه و نسبه ما ظهر منه من عمل صالح أو صفه جميله الى رحمه ربه، و تسويه نفسه بسائر النفوس التي هي بحسب الطبع مائله الى الأهواء أماره بالسوء فقال «وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» فقوله هذا كقول شعيب عليه السلام: «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا

فقوله: وَمَا أَتَىٰ نَفْسِي إِشَارَهُ إِلَى قَوْلِهِ: «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» و أنه لم قل هذا القول بداعى تنزيه نفسه و تزكيتها بل بداعى حكاية رحمه من ربه، و علل ذلك بقوله: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» أى إن النفس بطبعها تدعو الى مشتبهاتها من السيئات على كثرتها و فورها فمن الجهل أن تبرأ من الميل الى السوء، و إنما تكف عن أمرها بالسوء و دعوتها الى الشر برحمه من الله سبحانه تصرفها عن السوء و توفيقها لصالح العمل.

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَمَدِينٌ مِّمَّنْ أَمِينٌ يقال: أستخلصه أى جعله خالصاً، و المكين صاحب المكانه و المنزله، و فى قوله: «فَلَمَّا كَلَّمَهُ» حذف للإيجاز و التقدير: فلما أتى به اليه و كلمه قال إنك اليوم، الخ؛ و فى تقييد الحكم باليوم اشاره الى التعليل، و المعنى إنك اليوم و قد ظهر من مكارم أخلاقك فى التجنب عن السوء و الفحشاء و الخيانه و الظلم، و الصبر على مكروهه و صغار فى سبيل طهاره نفسك، و اختصاصك بتأييد من ربك غيبى و علم بالأحاديث و الرأى و الحزم و الحكمة و العقل لدينا ذو مكانه و أمانه، و قد أطلق قوله: «مَكِينٌ أَمِينٌ» فأفاد بذلك عموم الحكم.

و المعنى: و قال الملك ائتوني بيوسف أجعله خالصاً لنفسى و خاصه لى فلما أتى به اليه و كلمه قال له إنك اليوم و قد ظهر من كمالك ما ظهر لدينا ذو مكانه مطلقه و أمانه مطلقه يمكنك من كل ما تريد و يأتمنك على جميع شئون الملك و فى ذلك حكم صدارته.

قوله تعالى: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ لما عهد الملك ليوسف إنك اليوم لدينا مكين أمين و أطلق القول سأله يوسف عليه السلام أن ينصبه على خزائن الأرض و يفوض اليه أمرها، و المراد بالأرض أرض مصر.

و لم يسأله ما سأل إلا ليتقلد بنفسه إداره أمر الميره و أرزاق الناس فيجمعها



و يدخرها لسنين السبع الشداد التي سيستقبل الناس و تنزل عليهم جديها و مجاعتها و يقوم بنفسه لقسمه الأرزاق بين الناس و إعطاء كل منهم ما يستحقه من الميره من غير حيف.

و قد علل سؤاله ذلك بقوله: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» فإن هاتين الصفتين هما اللآزم وجودهما فيمن يتصدى مقاما هو سائله و لا غنى عنهما له، و قد أجب الی ما سأل و اشتغل بما كان يريدہ كل ذلك معلوم من سياق الآيات و ما يتلوها.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ التمكنين هو الإقدار و التبوؤ أخذ المكان.

و الإشارة بقوله: «كَذَلِكَ» الی ما ساقه من القصة بما انتهى الی نیله عليه السّلام عزه مصر، و هو حديث السجن و قد كانت امرأه العزيز هددته بالصغار بالسجن فجعله الله سببا للعزه، و على هذا النمط كان يجرى أمره عليه السّلام أكرمه أبوه فحسده إخوته فكادوا به بإلقائه في غياهب الجب و بيعه من السّياره ليدلوه فأكرم الله مثواه في بيت العزيز، و كادت به امرأه العزيز و نسوه مصر ليوردنه مورد الفجور فأبان الله عصمته ثم كادت به بالسجن لصغاره فتسبب الله بذلك لعزته.

و للإشارة الی أمر السجن و حبسه و سلبه حريه الاختلاط و العشره، قال تعالى «وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» أي رفعنا عنه حرج السجن الذي سلب منه إطلاق الإراده فصار مطلق المشيه له أن يتبوأ في أي بقعه يشاء فهذا الكلام بوجه يحاذی قوله تعالى السابق فيه حين دخل بيت العزيز و وصاه امرأته: «وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» .

و بهذه المقايسه يظهر أن قوله هاهنا: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ» في معنى قوله هناك: «وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» و أن المراد أن الله سبحانه إذا شاء أن يصيب برحمته أحدا لم يغلب في مشيته و لا يسع لأى مانع مفروض أن يمنع من إصابته. و لو وسع لسبب أن يبطل مشيه الله في أحد

لوسع فى يوسف الذى تعاضدت الأسباب القاطعه و تظاهرت لخفضه فرعه الله و لإذلاله فأعزه الله، إن الحكم إلا لله.

و قوله: **وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** إشاره الى أن هذا التمكين أجر اوتيه يوسف عليه السلام، و وعد جميل للمحسنين جميعا أن الله لا يضيع أجرهم.

قوله تعالى: **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** أى لأولياء الله من عباده فهو وعد جميل اخروى لأوليائه تعالى خاصه و كان يوسف عليه السلام منهم.

و الدليل على أنه لا- يعم عامه المؤمنين الجملة الحاليه «**وَ كَانُوا يَتَّقُونَ**» الداله على أن هذا الإيمان و هو حقيقه الإيمان لا محاله كان منهم مسبقا بتقوى مستمر حقيقى و هذا التقوى لا يتحقق من غير إيمان فهو إيمان بعد إيمان و تقوى و هو المساوق لولايه الله سبحانه قال تعالى **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ** (يونس ١٦٤) (١).

### [سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٢]

#### اشاره

**وَ جَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَىٰ الْكَفِيلِ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَبِّرْ أَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)**

ص: ٣٠٠

١- ١). يوسف ٤٣-٥٧: بحث روائى حول رؤيا ملك مصر و انباء يوسف بتأويله.

قوله تعالى: «وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ فِي الْكَلَامِ حَذَفَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا تَرَكَ الْاِقْتِصَاصَ لَهُ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ غَرَضِ هَامَ بِهِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ بَيَانُ لِحُقُوقِ أُخَى يُوسُفَ مِنْ أُمِّهِ بِهِ وَإِشْرَاكَهُ مَعَهُ فِي النِّعْمَةِ وَالْمَنْ الْإِلَهَى ثُمَّ مَعْرِفَتِهِمْ بِيُوسُفَ وَ لِحُقُوقِ بَيْتِ يَعْقُوبَ بِهِ فَهُوَ شَطْرُ مَخْتَارٍ مِنْ قِصَّتِهِ وَ مَا جَرَى عَلَيْهِ بَعْدَ عِزِّهِ مِصْرَهُ.

وَالَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ مِنْ إِخْوَتِهِ هُمُ الْعَصْبَةُ مَا خَلَا أُخِيهِ مِنْ أُمِّهِ فَإِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْنَسُ بِهِ وَ لَا يَخْلِي بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ مَا كَانَ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مَا سَيَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ.

وَ كَانَ بَيْنَ دُخُولِهِمْ هَذَا عَلَى أُخِيهِمْ يُوسُفَ وَ بَيْنَ انْتِصَابِهِ عَلَى خِزَانَةِ الْأَرْضِ وَ تَقْلِيدِهِ عِزَّهُ مِصْرَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ سِنِينَ فَإِنَّهُمْ إِذَا جَاءُوا إِلَيْهِ فِي بَعْضِ السِّنِينَ الْمَجْدِبَةِ وَ قَدْ خَلَّتِ السَّبْعُ السِّنُونَ الْمَخْصُوبَةَ، وَ لَمْ يَرَوْهُ مِنْذُ سَلْمُوهُ إِلَى السِّيَارَةِ يَوْمَ أُخْرِجَ مِنَ الْجَبِّ وَ هُوَ صَبِيٌّ وَ قَدْ مَرَّ عَلَيْهِ سِنُونَ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ وَ لَبِثَ بَضْعَ سِنِينَ فِي السِّجْنِ وَ تَوَلَّى أَمْرَ الْخِزَانَةِ مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ سِنِينَ، وَ هُوَ الْيَوْمَ فِي زِيٍّ عَزِيزٍ مِصْرَ لَا يَظُنُّ بِهِ أَنَّهُ رَجُلٌ عَبْرِيٌّ مِنْ غَيْرِ الْقَبْطِ، وَ هَذَا كُلُّهُ صَرَفُهُمْ عَنْ أَنْ يَظُنُّوا بِهِ أَنَّهُ أُخُوهُمْ وَ يَعْرِفُوهُ لَكِنَّهُ عَرَفَهُمْ بِكِيَايَسَتِهِ أَوْ بِفِرَاسَةِ النَّبُوَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى «وَ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ»

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْجِهَازُ مَا يَعْدُ مِنْ مَتَاعٍ وَ غَيْرِهِ، وَ التَّجْهِيْزُ حَمْلُ ذَلِكَ أَوْ بَعْتُهُ. انْتَهَى. فَالْمَعْنَى وَ لَمَّا حَمَلَهُمْ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْجِهَازِ وَ الطَّعَامِ الَّذِي بَاعَهُ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ بِأَخٍ لَهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ وَ قَالَ ائْتُونِي، الْخ.

وَ قَوْلُهُ: «أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ - أَيُّ لَا أَبْخَسُ فِيهِ وَ لَا أَظْلِمُكُمْ بِالْاِتِّكَاءِ عَلَى قُدْرَتِي

و عزتى - وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أكرم النازلين بى و أحسن مثوهم، و هذا تحريض لهم أن يعودوا اليه ثانيا و يأتوا اليه بأخيهم من أبيهم كما أن قوله فى الآيه التاليه: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرُبُونِ» تهديد لهم لئلا يعصوا أمره، و كما أن قولهم فى الآيه: «سَرَّادُ عَنَّهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ» تقبل منهم لذلك فى الجملة و تطيب لىفس يوسف عليه السلام.

ثم من المعلوم أن قوله عليه السلام أو ان خروجهم: «أَتْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» مع ما فيه من التأكيد و التحريض و التهديد ليس من شأنه أن يورد كلاما ابتدائيا من غير مقدمه و توطئه تعمى عليهم و تصرفهم أن يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريهم فى أمره. و هو ظاهر.

و قد أورد المفسرون فى القصة من مفاوضاتهم و تكليمه إياهم أمورا كثيره لا دليل على شىء منها من كلامه تعالى فى سياق القصة و لا أثر يطمأن اليه فى أمثال المقام.

و كلامه تعالى خال عن التعرض لذلك، و إنما الذى يستفاد منه أنه سأهم عن خطبهم فأخبروه و هم عشره أنهم إخوه و أن لهم أخا آخر بقى عند أبيهم لا يفارقه أبوه و لا يرضى أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به اليه فيراه.

قوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرُبُونِ الْكَيْلَ بِمَعْنَى الْمَكِيلِ وَ هُوَ الطَّعَامُ، وَ لَا تَقْرُبُونِ أَيْ لَا تَقْرُبُونِي بِدُخُولِ أَرْضِي وَ الْحُضُورِ عِنْدِي لِلْاِمْتِيَارِ وَ اشْتِرَاءِ الطَّعَامِ. وَ مَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ، وَ هُوَ تَهْدِيدٌ مِنْهُمْ لَوْ خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ كَمَا تَقْدَمُ.

قوله تعالى: «قَالُوا سَرَّادُ عَنَّهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ الْمَرَاوِدِ» كما تقدم هى الرجوع فى أمر مره بعد مره بالإلحاح أو الاستخدام، فى قولهم لىوسف عليه السلام: «سَرَّادُ عَنَّهُ أَبَاهُ» دليل على أنهم قصوا عليه قصته أن أباهم يرضن به و لا يرضى بمفارقتة له و يابى أن يبتعد منه لسفر أو أى غيبه، و فى قولهم: «أَبَاهُ» و لم قولوا: أبانا تأييد لذلك.

و قولهم: «وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ أَيْ فَاعِلُونَ لِلْإِتْيَانِ بِهِ أَوْ لِلْمَرَاوِدِ لِحْمَلِهِ مَعَهُم وَ الْإِتْيَانُ بِهِ إِلَيْهِ، وَ مَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ، وَ فِيهِ تَقْبَلُ مِنْهُمْ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْجَمَلَةِ وَ تَطْيِيبُ لِنَفْسِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

كما تقدم.

قوله تعالى: وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الفتيان جمع الفتى و هو الغلام، و قال الراغب:

البضاعة قطعه وافر من المال يقتنى للتجاره يقال: أبضع بضاعه و ابتضعها، قال تعالى «هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُذَّتِ الْبُيُوتُ» و قال تعالى «بِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ» و الأصل فى هذه الكلمه البضع -بفتح الباء- و هو جمله من اللحم ببضع أى يقطع -قال- و فلان بضعه منى أى جار مجرى بعض جسدى لقربه منى -قال- و البضع بالكسر المنقطع من العشره، و يقال ذلك لما بين الثلاث الى العشره و قيل: بل هو فوق الخمس و دون العشره. انتهى، و الرحال جمع رحل و هو الوعاء و الأثاث، و الانقلاب الرجوع.

و معنى الآيه: و قال يوسف عليه السلام لغلمايه: اجعلوا مالهم و بضاعتهم التى قدموها ثمننا لما اشتروه من الطعام فى أوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا و رجعوا الى أهلهم -و فتحوا الأوعية- لعلهم يرجعون إلينا و يأتوا بأخيهم فإن ذلك يقع فى قلوبهم و يطعمهم الى الرجوع و التمتع من الإكرام و الإحسان.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٨٢]

اشاره

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُعِنَا مِنَ الْكَذِبِ فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَيْلَ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَ حَدَّثُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانًا وَ نَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لِيَأْتِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَ كَيْلٌ (٦٦) وَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَهُ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَ إِنَّهُ لَمُدْوٍ عَلِيمٌ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَلَمَّا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبِيلَ وَعَمَاءَ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَمَاءَ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرٌ الْحَاكِمِينَ (٨٠) اِرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا

عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَ سَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)

ص: ٣٠٣







قوله تعالى: فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَحْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ الاكتيال أخذ الطعام كيلا إن كان مما يكال، قال الراغب: الكيل كيل الطعام يقال: كلت له الطعام إذا توليت له ذلك، و كلته الطعام إذا أعطيته كيلا، و اکتلت عليه إذا أخذت منه كيلا، قال تعالى: وَيُلِّمُ الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ - وَإِذَا كَالُوهُمْ.

و قوله: قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أى لو لم نذهب بأخينا و لم يذهب معنا الى مصر، بدليل قوله: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا» فهو إجمال ما جرى بينهم و بين عزيز مصر من أمره بمنعم من الكيل إن لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم، يقصونه لأبيهم و يسألونه أن يرسله معهم ليكتالوا و لا يحرموا.

و قولهم: آخَانًا إظهار رأفه و إشفاق لتطيب نفس ابيهم من انفسهم كقولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» بما فيه من التأكد البالغ.

قوله تعالى: قَالِ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ قال فى المجمع: الأمان اطمئنان القلب الى سلامه الأمر يقال: آمنه يأمنه أمانا انتهى فقوله: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛ أى هل اطمأن اليكم فى ابني هذا إلا مثل ما اطمأنت اليكم فى أخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان.

و محصله أنكم تتوقعون منى أن أثق فيه بكم و تطمئن نفسى اليكم كما وثقت بكم و اطمأنت

اليكم فى أخيه من قبل و تعدوننى بقولكم «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» أن تحفظوه كما وعدتم فى يوسف بقولكم «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» و قد أمنتكم بمثل هذا الأمن على يوسف فلم تغنوا عنى شيئاً و جئتم بقميصه الملطخ بالدم أن الذئب أكله و أمنى لكم على هذا الأخ مثل أمنى على أخيه من قبل أمن لمن لا يغنى أمنه و الاطمئنان اليه شيئاً و لا بيده حفظ ما سلم اليه و ائتمن له.

و قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ تفرّيع على سابق كلامه «هَيْلُ أَمْنِكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛ و تفيد الاستنتاج أى إذا كان الاطمئنان اليكم فى أمره لغى لا أثر له و لا يغنى شيئاً فخير الاطمئنان و الاتكال ما كان اطمئنانا الى الله سبحانه من حيث حفظه، و إذا تردد الأمر بين التوكّل عليه و التفويض اليه و بين الاطمئنان الى غيره كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعين.

و قوله: وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فى موضع التعليل لقوله: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» أى إن غيره تعالى ربما أمن فى أمر و ائتمن عليه فى أمانه سلم له فلم يرحم المؤمن وضيع الأمانه لكنه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمه فى محل الرحمه و يترحم العاجز الضعيف الذى فوض اليه أمراً و توكّل عليه، و من يتوكّل على الله فهو حسبه.

قوله تعالى: وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَ جَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ الى آخر الآيه؛ البغى هو الطلب و يستعمل كثيراً فى الشر و منه البغى بمعنى الظلم و البغى بمعنى الزنا، و قال فى المجمع: الميره الأطمعه التى تحمل من بلد الى بلد و يقال: مرتهم أميرهم ميرا: إذا أتيتهم بالميره، و مثله: امترتهم امتياراً. انتهى.

و قوله: يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي استفهام أى لما فتحوا متاعهم و وجدوا بضاعتهم ردت اليهم و كان ذلك دليلاً على اكرم العزيز لهم و أنه غير قاصد بهم سوء و قد سلم اليهم الطعام و رد اليهم الثمن فكان ذهابهم الى مصر للاختيار خير سفر نفعاً و درا راجعوا أباهم و قالوا: يا أبانا ما الذى نطلب من سفرنا الى مصر وراء هذا؟ فقد اوفى لنا الكيل و رد الينا ما بذلناه من البضاعه

فقولهم: يَا أَبَاتَنَا مَا نَبَغِي هَذِهِ بَضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا أَرَادُوا بِهِ تَطْيِيبَ نَفْسِ أَبِيهِمْ لِيَرْضَى بِذَهَابِ أَحْيِهِمْ مَعَهُمْ لِأَنَّهُ فِي أَمْنٍ مِنَ الْعَزِيزِ وَ هُمْ يَحْفَظُونَهُ كَمَا وَعَدُوهُ وَ لِذَلِكَ عَقَبُوهُ بِقَوْلِهِمْ: «وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَحَانَا وَ نَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» أَيْ سَهْلٌ.

وَ رُبَمَا قِيلَ: إِنْ «مَا» فِي قَوْلِهِ: «مَا نَبَغِي» لِلنَّفْيِ أَيْ مَا نَطْلُبُ بِمَا أَخْبَرْنَاكَ مِنَ الْعَزِيزِ وَ إِكْرَامِهِ لَنَا الْكُذْبَ فَهَذِهِ بَضَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا، وَ كَذَا قِيلَ: إِنْ الْيَسِيرُ بِمَعْنَى الْقَلِيلِ أَيْ إِنْ الَّذِي جِئْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ الْكَيْلِ قَلِيلٌ لَا يَقْنَعُنَا فَنَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نُضَيِّفَ إِلَيْهِ كَيْلَ بَعِيرٍ أَخِينَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَ كَيْلُ الْمَوْثِقِ بِكَسْرِ الشَّاءِ مَا يُوَثِّقُ بِهِ وَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَ الْمَوْثِقُ مِنَ اللَّهِ هُوَ أَمْرٌ يُوَثِّقُ بِهِ وَ يَرْتَبِطُ مَعَ ذَلِكَ بِاللَّهِ وَ إِيتَاءُ مَوْثِقِ إِلَهِي وَ إِعْطَاؤُهُ هُوَ أَنْ يَسْلُطَ الْإِنْسَانَ عَلَى أَمْرِ إِلَهِي يُوَثِّقُ بِهِ كَالْعَهْدِ وَ الْيَمِينِ بِمَنْزِلَةِ الرَّهِينَةِ، وَ الْمَعَاهِدِ وَ الْمَقْسَمِ بِقَوْلِهِ عَاهَدْتُ اللَّهَ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا أَوْ بِاللَّهِ لِأَفْعَلَنْ كَذَا يَرَاهُنْ كِرَامَهُ اللَّهُ وَ حَرَمَتَهُ فَيَضَعُهَا رَهِينَةً عِنْدَ مَنْ يَعَاهِدُهُ أَوْ يَقْسَمُ لَهُ، وَ لَوْ لَمْ يَفِ بِمَا قَالَ خَسِرَ فِي رَهِينَتِهِ وَ هُوَ مُسْئِلٌ عِنْدَ اللَّهِ لَا مَحَالَ.

وَ الْإِحَاطَةُ مِنَ حَاطَ بِمَعْنَى حَفِظَ وَ مِنْهُ الْحَائِطُ لِلجِدَارِ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَ الْمَكَانِ لِيَحْفَظَهُ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ أَيْ مُسْلِطٌ عَلَيْهِ حَافِظٌ لَهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ لَا يَخْرُجُ وَ لَا شَيْءٌ مِنْ أَجْزَائِهِ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَ أَحَاطَ بِهِ الْبَلَاءُ وَ الْمَصِيبَةُ أَيْ نَزَلَ بِهِ عَلَى نَحْوِ انْسَدَّتْ عَلَيْهِ جَمِيعَ طَرِيقِ النِّجَاهِ فَلَا مَنَاصَ لَهُ مِنْهُ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَحِيطَ بِهِ أَيْ هَلِكَ أَوْ فَسَدَ أَوْ انْسَدَّتْ عَلَيْهِ طَرِيقُ النِّجَاهِ وَ الْخِلَاصِ قَالَ تَعَالَى: وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلَّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا (الكهف ٤٢)، وَ قَالَ:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (يونس ٢٢) وَ مِنْهُ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ:

«إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» أَيْ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ مِنَ النَّازِلِ مَا يَسْلُبُ مِنْكُمْ كُلَّ اسْتِطَاعَةٍ وَ قُدْرَةٍ فَلَا

يسعكم الإتيان به إلى.

و الوكالة نوع تسلط على أمر يعود الى الغير ليقوم به، و توكيل الإنسان غيره في أمر تسليطه عليه ليقوم في إصلاحه مقامه، و التوكل عليه اعتماده و الاطمئنان اليه في أمر، و توكيله تعالى و التوكل عليه في الامور ليس بعنايه أنه خالق كل شيء و مالكه و مدبره بل بعنايه أنه أذن في نسبه الامور الى مصادرها و الأفعال الى فواعلها و ملكها إياها بنحو من التمليك و هي فاقده للأصالة و الاستقلال في التأثير و الله سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا أراد الإنسان أمرا و توصل اليه بالأسباب العاديه التي بين يديه أن يرى الله سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر و ينفي الاستقلال و الأصالة عن نفسه و عن الأسباب التي استعملها في طريق الوصول اليه فيتوكل عليه سبحانه. فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبه الامور الى نفسه أو الى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه و عن الأسباب و إرجاع الاستقلال و الأصالة اليه تعالى مع إبقاء أصل النسبه غير المستقله التي الى نفسه و الى الأسباب.

و لذلك نرى أن يعقوب عليه السلام فيما تحكيه الآيات من توكله على الله لم بلغ الأسباب و لم يهملها بل تمسك بالأسباب العاديه فكلم أولا بنيه في أخيهم ثم أخذ منهم موثقا من الله ثم توكل على الله و كذا فيما وصاهم في الآيه الآتيه بدخولهم من أبواب متفرقه ثم توكله على ربه تعالى.

فالله سبحانه على كل شيء و وكيل من جهه الامور التي لها نسبه إليها كما أنه ولي لها من جهه استقلاله بالقيام على الامور المنسوبه إليها و هي عاجزه عن القيام بها بحول و قوه، و أنه رب كل شيء من جهه أنه المالك المدبر لها.

و معنى الآيه «قَالَ» يعقوب لبنيه «لَنْ أُرْسِلَهُ» أى أحاكم من ام يوسف «مَعَكُمْ حَيْتَى تُؤْتُونِ» و تعطونى «مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ» أثق به و أعتد عليه من عهد أو يمين «لَتَأْتِنِي بِهِ» و اللام للقسم و لما كان إيتاؤهم موثقا من الله إنما كان يمضى و يفيد فيما كان راجعا الى استطاعتهم

وقدرتهم استثنى فقال «إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» و تسلبوا الاستطاعة و القدره «فَلَمَّا آتَوْهُ مُؤْتَفَهُمْ» من الله «قَالَ» يعقوب «اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ» أى إنا قاولنا جميعا فقلت و قلت و توسلتم بذلك الى هذه الأسباب العاديه للوصول الى غرض نبتغيه فليكن الله سبحانه و كيلا على هذه الأقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشيء فليات به كما التزم و إن تخلف فليجازه الله و ينتصف منه.

قوله تعالى: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ الى آخر الآيه؛ هذه كلمه ألقاها يعقوب عليه السلام الى بنيه حين آتوه موثقا من الله و تجهزوا و استعدوا للرحيل، و من المعلوم من سياق القصة أنه خاف على بنيه و هم أحد عشر عصبه-لا من أن يراهم عزيز مصر مجتمعين صفا واحدا لأنه كان من المعلوم أنه سيخصهم اليه فيصطفون عنده صفا واحدا و هم أحد عشر إخوه لأب واحد-بل إنما كان يخاف عليهم أن يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أى نازله اخرى.

و قوله بعده: «وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» لا يخلو من دلالة أو إشعار بأنه كان يخاف ذلك جدا فكأنه عليه السلام-و الله أعلم-أحس حينما تجهزوا للسفر و اصطفوا أمامه للوداع إحساس إلهام أن جمعهم و هم على هذه الهيئه الحسنه سيفترق و ينقص من عددهم فأمرهم أن لا يتظاهروا بالاجماع كذلك و حذرهم عن الدخول من باب واحد و عزم عليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقه رجاء أن يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقه بينهم و النقص فى عددهم.

ثم رجع الى إطلاق كلامه الظاهر فى كون هذا السبب الذى ركن اليه فى دفع ما خطر بباله من المصيبه سببا أصيلا مستقلا-و لا مؤثر فى الوجود بالحقيقه إلا الله سبحانه-فقيده كلامه بما يصلحه فقال مخاطبا لهم «وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» ثم علله بقوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» أى لست أرفع حاجتكم الى الله سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذى تتقون به نزول النازله

و تتوسلون به الى السلامه و العافيه و لا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيله فإن هذه الأسباب لا تغنى من الله شيئاً و لا لها حكم دون الله سبحانه فليس الحكم مطلقاً إلا لله بل هذه أسباب ظاهريه إنما تؤثر إذا أراد الله لها أن تؤثر.

و لذلك عقب كلامه هذا بقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» أى إن هذا سبب أمرتكم باتخاذها لدفع ما أخافه عليكم من البلاء و توكلت مع ذلك على الله فى أخذ هذا السبب و فى سائر الأسباب التى أخذتها فى امورى، و على هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غير غوى يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإداره اموره و لا أن الأسباب العاديه باستقلالها تقوى على إيصاله الى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه أن يلتجئ فى اموره الى وكيل يصلح شأنه و يدبر أمره أحسن تدبير فذلك الوكيل هو الله سبحانه القاهر الذى لا يقهره شىء الغالب الذى لا يغلبه شىء يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قوله تعالى: **وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** الذى يعطيه سياق الآيات السابقه و اللاحقه و التدبر فيها—و الله أعلم—أن يكون المراد بدخولهم من حيث أمرهم أبوهم أنهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من ابواب متفرقه كما أمرهم ابوهم حينما و دعوه للرحيل، و إنما اتخذ يعقوب عليه السلام هذا الأمر و سيله لدفع ما تفرسه من نزول مصيبه بهم تفرق جمعهم و نقص من عددهم كما أشير اليه فى الآيه السابقه لكن اتخاذ هذه الوسيله و هى الدخول من حيث أمرهم أبوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء و كان قضاء الله سبحانه ماضياً فيهم و أخذ العزيز أخاهم من أيهم لحديث سرقت الصواع و انفصل منهم كبيرهم فبقى فى مصر و أدى ذلك الى تفرق جمعهم و نقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث أمرهم من الله من شىء.

لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجه فى نفس يعقوب عليه السلام فإنه جعل هذا السبب الذى تخلف

عن أمره و أدى الى تفرق جمعهم و نقص عددهم بعينه سببا لوصول يعقوب الى يوسف عليهما السلام فإن يوسف أخذ أخاه اليه و رجع سائر الإخوة إلا كبيرهم الى أبيهم ثم عادوا الى يوسف يسترحمونه و يتذللون لعزته فعرفهم نفسه و أشخص أباه و أهله الى مصر فاتصلوا به.

فقوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أَى لم يكن من شأن يعقوب أو هذا الأمر الذى اتخذه وسيله لتخلصهم من هذه المصيبة النازله أن يغنى عنهم من الله شيئا البتة و يدفع عنهم ما قضى الله أن يفارق اثنان منهم جمعهم بل أخذ منهم واحد و فارقهم و لزم أرض مصر آخر و هو كبيرهم.

و قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قيل: إن «إِلَّا» بمعنى لكن أى لكن حاجه فى نفس يعقوب قضاها الله فرد اليه ولده الذى فقده و هو يوسف.

و لا يبعد أن يكون «إِلَّا» استثنائية فإن قوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فى معنى قولنا: لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئا أو لم ينفعهم جميعا شيئا و لم يقض الله لهم جميعا به حاجه إلا حاجه فى نفس يعقوب، و قوله: ﴿قَضَاهَا﴾ استئناف و جواب سؤال كأن سائلا يسأل فيقول: ما ذا فعل بها؟ فاجيب بقوله: ﴿قَضَاهَا﴾.

و قوله: ﴿وَ إِنَّهُ لَدُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ الضمير ليعقوب أى إن يعقوب لدو علم بسبب ما علمناه من العلم أو يسبب تعليمنا إياه و ظاهر نسبه التعليم اليه تعالى أنه علم موهبى غير اكتسابى و قد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدي الى مثل هذه العناية الإلهيه، و يؤيد ذلك أيضا قوله تعالى بعده: ﴿وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لو كان من العلم الاكتسابى الذى يحكم بالأسباب الظاهرية و يتوصل اليه من الطرق العاديه المؤلفه لعلمه الناس و اهتموا اليه.

و الجمله «وَ إِنَّهُ لَدُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ» الخ؛ ثناء على يعقوب عليه السلام، و العلم الموهبى لا يضل فى هدايته و لا يخطئ فى إصابته و الكلام كما يفيد السباق يشير الى ما تفرس له يعقوب عليه السلام من البلاء و توسل به من الوسيله و حاجته فى يوسف فى نفسه لا ينساها و لا يزال يذكرها، فمن

هذه الجهات يعلم أن في قوله: «وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْتَاهُ» الخ؛ تصديقا ليعقوب عليه السلام فيما قاله لبنيه و تصويبا لما اتخذ من الوسيله لحاجته بأمرهم بما أمر توكله على الله ففضى الله له حاجه فى نفسه.

قوله تعالى: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الْإِيوَاءَ إِلَيْهِ ضَمَهُ وَ تَقْرِيْبَهُ مِنْهُ فِي مَجْلِسِهِ وَ نَحْوِهِ، وَ الْإِبْتِئَاسَ اجْتِلَابَ الْبُؤْسِ وَ الْإِغْتِمَامَ وَ الْحُزْنَ، وَ ضَمِيرَ الْجَمْعِ لِلْإِخْوَةِ.

و معنى الآيه «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» بعد دخولهم مصر «آوَى» و قرب «إِلَيْهِ أَخَاهُ» الذى أمرهم أن يأتوا به اليه و كان أخا له من أبيه و أمه «قَالَ» له «إِنِّي أَنَا أَخُوكَ» أى يوسف الذى فقدته منذ سنين -و الجملة خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر- «فَلَا تَبْتَئِسْ» و لا تغتم «بِمَا كَانُوا» أى الإخوة «يَعْمَلُونَ» من أنواع الأذى و المظالم التى حملهم عليها حسدهم لى و لكك و نحن أخوان من ام أو لا تبئس بما كان غلمانى يعملون فإنه كيد لحبسك عندى.

و ظاهر السياق أنه عرفه نفسه بإسرار القول اليه و سلاه على ما عمله الإخوه و طيب نفسه فلا يعبا بقول بعضهم أن معنى قوله:إنى أنا أخوك:أنا أخوك مكان أخيك الهالك-و قد كان أخبره أنه كان له أخ من أمه هلك من قبل فبقى وحده لا أخ له من أمه- و لم يعترف يوسف له بالنسب و لكنه أراد أن يطيب نفسه.

و ذلك أنه ينافيه ما فى قوله: «إِنِّي أَنَا أَخُوكَ» من وجوه التأكيد و ذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف.على أنه ينافى أيضا ما سيأتى من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه: «أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فأعتر بعزته كما لا يخفى.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السُّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ السقايه الظرف الذى يشرب فيه،و الرحل ما



يوضع على البعير للركوب، والعير القوم الذين معهم أحمال الميره و ذلك اسم للرجال و الجمال الحامله للميره و إن كان قد يستعمل فى كل واحد من دون الآخر، ذكر ذلك الراغب فى مفرداته.

و معنى الآيه ظاهر و هذه حيله احتالها يوسف عليه السلام ليأخذ بها أخاه اليه كما قصه و فصله الله تعالى و جعل ذلك مقدمه لتعريفهم نفسه فى حال التحق به أخوه و هما منعمان بنعمه الله مكرمان بكرامته.

و قوله: ثُمَّ أَدْنَى أُمَّؤُذُنَ أَيْتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ الخطاب لإخوه يوسف و فيهم أخوه لأمه، و من الجائز توجيه الخطاب الى الجماعه فى أمر يعود الى بعضهم إذا كان لا يمتاز عن الآخرين، و فى القرآن منه شىء كثير، و هذا الأمر الذى سمي سرقة و هو وجود السقايه فى رحل البعير كان قائما بواحد منهم و هو أخو يوسف لأمه لكن عدم تعيينه بعد من بينهم كان مجوزا لخطابهم جميعا بأنكم سارقون فإن معنى هذا الخطاب فى مثل هذا المقام أن السقايه مفقوده و هى عند بعضكم ممن لا يتعين إلا بعد الفحص و التفطيش.

و من المعلوم من السياق أن أخا يوسف لأمه كان عالما بهذا الكيد مستحضرا منه و لذلك لم يتكلم من أول الأمر الى آخره و لا بكلمه و لا نفى عن نفسه السرقة و لا اضطرب كيف؟ و قد عرّفه يوسف أنه أخاه و سلاه و طيب نفسه فليس إلا أن يوسف عليه السلام كان عرّفه ما هو غرضه من هذا الصنع، و أنه إنما يريد بتسميته سارقا و إخراج السقايه من رحله أن يقبض عليه و يأخذه اليه فتسميته سارقا إنما كان اتهاما فى نظر الإخوه و أما بالنسبه اليه و فى نظره فلم يكن تسميه جديده و تهمة حقيقه بل توصيفا صوريا فحسب لمصلحه لازمه جازمه.

فنسبه السرقة اليهم-بالنظر الى هذه الجهات-لم تكن من الافتراء المذموم عقلا المحرم شرعا، على أن القائل هو المؤذن الذى أذن بذلك.

قوله تعالى: قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ فقد-كما قيل-غيبه الشىء

عن الحسن بحيث لا يعرف مكانه، والضمير في قوله: «قَالُوا» للإخوة وهم العير، وقوله:

«مَاذَا تَفْقِدُونَ» مقول القول والضمير في قوله: «عَلَيْهِمْ» ليوסף وفتيانه كما يدل عليه السياق.

والمعنى قال إخوة يوسف المقبلين ليوסף وفتيانه: ما ذا تفقدون؟ وفي السياق دلالة على أن المنادى إنما ناداهم من ورائهم وقد أخذوا في السير.

قوله تعالى: «قَالُوا نَفَقَدْ صُوعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ الصَّوَاعِ بِالصَّوَاعِ السَّقَايَةِ وَقِيلَ: إِنَّ الصَّوَاعَ هُوَ الصَّاعُ الَّذِي يَكَالُ بِهِ، وَكَانَ صُوعَ الْمَلِكِ إِنَاءً يَشْرَبُ فِيهِ وَيَكَالُ بِهِ وَ لِدَلِكْ سَمِيَ تَارَهُ سَقَايَهُ وَ أُخْرَى صُوعَا، وَ يَجُوزُ فِيهِ التَّذْكَيرُ وَ التَّنْأِيثُ، وَ لِدَلِكْ قَالِ «وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ» وَ قَالِ «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا» .

والحمل ما يحمله الحامل من الأثقال، وقد ذكر الراغب أن الأثقال المحمولة في الظاهر كالشياء المحمولة على الظهر تختص باسم الحمل بكسر الحاء، والأثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن والماء في السحاب والثمره في الشجره تختص باسم الحمل بفتح الحاء.

وقال في المجمع: الزعيم والكفيل والضمين نظائر والزعيم أيضا القائم بأمر القوم وهو الرئيس.

ولعل القائل «نَفَقَدْ صُوعَ الْمَلِكِ» هو فتیان يوسف والقائل «وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ» يوسف عليه السلام نفسه لأنه هو الرئيس الذي قوم أمر الإعطاء والمنع والضمانه والكفاله والحكم، ويعود معنى الكلام على هذا الى نحو من قولنا: أجب عنهم يوسف وفتيانه أما فتیان فقالوا: نفقد صواع الملك، وأما يوسف فقال: ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم، وهذه جعاله.

و ظاهر بعض المفسرين: أن قوله: «وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ» تتمه قول المؤذن «أَيَّتْهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» و على هذا فقوله: «قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ» -الى قوله- صُوعَ

المَلِكِ» معترض.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ المراد بالأرض أرض مصر و هي التي جاؤها و معنى الآيه ظاهر.

و فى قولهم: لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ دلالة على أنهم فتنوا و حقق فى أمرهم أول ما دخلوا مصر للميره بأمر يوسف عليه السّلام بدعوى الخوف من أن يكونوا جواسيس و عيوناً أو نازلين بها لأغراض فاسده اخرى فسئلوا عن شأنهم و محلهم و نسبهم و أمثال ذلك، و به يتأيد ما ورد فى بعض الروايات أن يوسف أظهر لهم أنه فى ريب من أمرهم فسألهم عن شأنهم و مكانهم و أهلهم و عند ذلك ذكروا أن لهم أبا شائخا و أخا من أبيهم فأمر بإتيانهم به، و سيأتى فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

و قولهم: وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ نفى أن يكونوا متصفين بهذه الصفة الرذيله من قبل أن يعهد منهم أهل البيت ذلك.

قوله تعالى: قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ أى قال فتيان يوسف أو هو و فتيانه سائلين منهم عن الجزاء: ما جزاء السرقة أو ما جزاء الذى سرق منكم إن كنتم كاذبين فى إنكاركم.

و الكلام فى قولهم: «إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» فى نسبة الكذب اليهم يقرب من الكلام فى قولهم:

«إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» و قد تقدم.

قوله تعالى: قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ مرادهم أن جزاء السرقة نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنى أن من سرق مالا يصير عبدا لمن سرق ماله و هكذا كان حكمه فى سنه يعقوب عليه السّلام كما يدل عليه قولهم:

«كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» أى هؤلاء الظالمين و هم السراق لكنهم عدلوا عنه الى قولهم: «جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» للدلالة على أن السرقة إنما يجازى بها نفس السارق لا رفقته

و صحبه و هم أحد عشر نسمة لا ينبغي أن يؤاخذ منهم لو تحققت السرقة إلا السارق بعينه من غير أن يتعدى الى نفوس الآخرين و رحالهم ثم للمسروق منه أن يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ فِيهِ تَفْرِيعٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَى أَخَذَ بِالتَّفْتِيشِ و الفحص بالبناء على ما ذكره من الجزاء فبدأ بأوعيتهم قبل وِعَاءِ أَخِيهِ و ظروفهم قبل وِعَاءِ أَخِيهِ للتعمية عليهم حذرا من أن يتنبهوا و يتفطنوا أنه هو الذى وضعها فى رحل أخيه ثم استخرجها من وِعَاءِ أَخِيهِ و عند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها فى رحله.

قوله تعالى: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛الإشارة الى ما جرى من الأمر فى طريق أخذ يوسف عليه السلام أخاه لأمه من عصبه إخوته، و قد كان كيدا لأنه يوصل الى ما يطلبه منهم من غير أن يعلموا و يتفطنوا به و لو علموا لما رضوا به و لا-مكنوه منه، و هذا هو الكيد غير أنه كان بإلهام من الله سبحانه أو وحى منه اليه علمه به طريق التوصل الى أخذ أخيه. و لذلك نسب الله سبحانه ذلك الى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»

و ليس كل كيد بمنفى عنه تعالى، و إنما تنتزه ساحه قدسه عن الكيد الذى هو ظلم و نظيره المكر و الإضلال و الاستدراج و غيرها.

و قوله: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ بَيَانٌ لِّلسَّبَبِ الدَّاعَى إِلَى الكيد، و هو أنه كان يريد أن يأخذ أخاه اليه، و لم يكن فى دين الملك أى سنته الجارية فى أرض مصر طريق يؤدى الى أخذه، و لا أن السرقة حكمها استعباد السارق و لذلك كادهم يوسف-بأمر من الله-بجعل السقايه فى رحله ثم إعلام أنهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه ان كانوا كاذبين فيخبروا أن جزاء السرقة عن عندهم أخذ السارق

و استعباده فيأخذهم بما رضوا به لأنفسهم.

و على هذا فلم يكن له أن يأخذ أخاه في دين الملك إلا في حال يشاء الله ذلك و هو هذا الحال الذي رضوا فيه أن يجازوا بما رضوا به لأنفسهم.

و من هنا يظهر أن الاستثناء يفيد أنه كان من دين الملك أن يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء و هو أشق، و كان ذلك متداولاً في كثير من السنن القومية و سياسات الملوك.

و قوله: نَزَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ امتنان على يوسف عليه السلام بما رفعه الله على إخوته، و بيان لقوله: «كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ» و كان امتناناً عليه.

و في قوله: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ بيان أن العلم من الامور التي لا يقب على حد ينتهي اليه بل كان ذي علم يمكن ان يفرض من هو أعلم منه.

و ينبغي أن يعلم ان ظاهر قوله: «ذِي عِلْمٍ» هو العلم الطارى على العالم الزائد على ذاته لما في لفظه «ذِي» من الدلالة على المصاحبه و المقارنه فالله سبحانه و علمه الذي هو صفه ذاته عين ذاته، و هو تعالى علم غير محدود كما ان وجوده أحدى غير محدود، خارج بذاته عن إطلاق الكلام.

على ان الجملة «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ» إنما تصدق فيما أمكن هناك فرض «فَوْقَ» و الله سبحانه لا فوق له و لا تحت له و لا وراء لوجوده و لا حد لذاته و لا نهايه.

و لا- يبعد ان يكون قوله: «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ» إشارة الى كونه تعالى فوق كل ذي علم أن يكون المراد بعليم هو الله سبحانه أورد في هيئه النكره صونا للسان عن تعريفه للتعظيم.

قوله تعالى: قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ القائلون هم إخوه يوسف عليه السلام لأبيه، و لذلك نسبوا يوسف الى أخيهم المتهم بالسرقه لأنهما كانا من أم واحده، و المعنى أنهم قالوا: إن يسرق هذا صواع الملك فليس يبعد منه لأنه كان

له اخ وقد تحققت السرقة منه من قبل فهما يتوارثان ذلك من ناحيه امهما و نحن مفارقوهما فى الام.

و فى هذا نوع تبرئه لأنفسهم من السرقة لكنه لا يخلو من تكذيب لما قالوه آنفا «وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ» لأنهم كانوا ينفقون به السرقة عن أبناء يعقوب جميعا و إلا لم يكن ينفعهم البتة فقولهم: «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ» يناقضه و هو ظاهر. على أنهم أظهروا بهذه الكلمه ما فى نفوسهم من الحسد لىوسف و اخيه-و لعلمهم لم يشعروا به-و هذا يكشف عن أمور مؤسفه كثيره فيما بينهم.

و بهذا يتضح بعض الاتضاح معنى قول يوسف «أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا» كما ان الظاهر ان قوله:

«أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا» الى آخر الآيه كالبيان لقوله: «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» و كما أن قوله: «وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» عطف تفسير لقوله: «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ» .

و المعنى-و الله أعلم- «فَأَسَرَّهَا» أى اخفى هذه الكلمه التى قالوها اى لم يتعرض لما نسبوا اليه من السرقة و لم ينفه و لم يبين حقيقه الحال بل «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» و كأن هناك قائلا يقول: كيف أسرها فى نفسه فاجيب أنه «قَالَ: أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا» و أسوأ حالا لما فى اقوالكم من التناقض و فى نفوسكم من غريزه الحسد الظاهره و اجترائكم على الكذب فى حضره العزيز بعد هذا الإكرام و الإحسان كله «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» إنه قد سرق أخ له من قل فلم يكذبهم فى وصفهم و لم ينفه.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» سياق الآيات يدل على أنهم إنما قالوا هذا القول لما شاهدوا أنه استحق الأخذ و الاستعباد، و ذكروا أنهم أعطوا أباهم موثقا من الله أن يرجعوه اليه فلم يكن فى مقدرتهم أن يرجعوا الى أبيهم و لا يكون معهم، فعند ذلك عزموا أن يفدوه بواحد منهم إن قبل العزيز، و كلموا العزيز فى ذلك أن يأخذ أى من شاء منهم، و يخلى عن سبيل أخيهم المتهم

ليرجعوه اليه أبيه.

و معنى الآيه ظاهر، و فى اللفظ ترقيق و استرحام و إثارة لصفه الفتوه و الإحسان من العزيز.

قوله تعالى قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ رد منه عليه السلام لسؤالهم أن يأخذ أحدهم مكانه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع:

اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس يئس و أيس يئس لغه، و استنفعل مثل استيأس و استأيس. قال: و يئس و استيأس بمعنى مثل سخر و استسخر و عجب و استعجب.

و النجى القوم يتناجون الواحد و الجمع فيه سواء قال سبحانه «وَقَرَّبْنَا نَجِيًّا» و إنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به، و المناجاة المساره و أصله من النجوه هو المرتفع من الأرض فإنه رفع السر من كل واحد الى صاحبه فى خفيه، و النجوى يكون اسما مصدرىا قال سبحانه «وَإِذْ هُمْ نَجْوَى» أى يتناجون، و قال فى المصدر «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ» و جمع النجى أنجيه قال:

و برح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه. انتهى.

و الضمير فى قوله: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ» ليوסף و يمكن أن يكون لأخيه و المعنى «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا» أى إخوه يوسف «مِنْهُ» أى من يوسف أن يخلى عن سبيل أخيه و لو بأخذ أحدهم بدلا منه «خَلَصُوا» و خرجوا من بين الناس الى فراغ «نَجِيًّا» يتناجون فى أمرهم أ يرجعون الى أبيهم و قد أخذ منهم موثقا من الله أن يعيدوا أخاهم اليه أم يقيمون هناك و لا فائده فى إقامتهم؟ ما ذا يصنعون؟

«قَالَ كَبِيرُهُمْ» مخاطبا لسائرهم «أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ» ألا ترجعوا من سفركم هذا اليه إلا بأخيكم، «وَ مِنْ قَبْلِ» هذه الواقعة «مَا فَزَّطْتُمْ» أى تفريطكم و تقصيركم «فِي» أمر «يُوسُفَ» عهدتم أباكم أن تحفظوه و تردوه اليه سالما فألقيتموه فى الجب

ص: ٣٢٠

ثم بعموه من السياره ثم أخبرتكم أباكم أنه أكله الذئب.

«فَلَنْ أُبْرِحَ الْمَأْرُضَ» أى فإذا كان الشأن هذا الشأن لن أنتحى و لن أفارق أرض مصر «حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي» برفعه اليد عن الموثق الذى واثقته به «أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» فيجعل لى طريقا الى النجاه من هذه المضيقه التى سدت لى كل باب و ذلك إما بخلاص أخى من يد العزيز من طريق لا أحتسبه أو بموتى أو بغير ذلك من سبيل!!.

أما أنا فأختار البقاء هاهنا و أما أنتم فارجعوا الى أبيكم الى آخر ما ذكر فى الآيتين التاليتين.

قوله تعالى «إِزْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ» قيل المراد بقوله: «وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا» أنا لم نشهد فى شهادتنا هذه «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» إلا بما علمنا من سرقة، و قيل المراد ما شهدنا عند العزيز أن السارق يؤخذ بسرقة و يسترق إلا بما علمنا من حكم المسألة، قيل و إنما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب: ما يدرى الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة و يسترق؟ و إنما علم ذلك بقولكم، و أقرب المعنيين الى السياق أولهما.

و قوله: «وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ» قيل أى لم نكن نعلم أن ابنك سيسرق فيؤخذ و يسترق و إنما كنا نعلم على ظاهر الحال و لو كنا نعلم ذلك لما بادرنا الى تفسيره معنا و لا أقدمنا على الميثاق.

و الحق أن المراد بالغيب كونه سارقا مع جهلهم بما و معنى الآية إن ابنك سرق و ما شهدنا فى جزاء السرقة إلا بما علمنا و ما كنا نعلم أنه سرق السقايه و أنه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهاده فما كنا نعلم به ذلك.

قوله تعالى: «وَ سَيَسْئَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُذِّبَتْ فِيهَا وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلَتْ فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ» أى و اسأل جميع من صاحبنا فى هذه السفره أو شاهد جريان حالنا عند العزيز التى لا يبقى لك أدنى ريب فى أنا لم نفرط فى أمره بل إنه سرق فاسترق.



فالمراد بالقريه التي كانوا فيها بلده مصر-على الظاهر-و بالعبير التي أقبلوا فيها القافله التي كانوا فيها و كان رجالها يصاحبونهم في الخروج الى مصر و الرجوع منها ثم أقبلوا مصاحبين لهم،و لذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم: «وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ» أى فيما نخبرك من سرقة و استرقاقه لذلك،و نكلفك السؤال لإزالة الريب من نفسك.

## [سوره يوسف (١٢): الآيات ٨٣ الى ٩٢]

### إشاره

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفَ عَلَى يُوسُفَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّارِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ آلِ إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا إِنَّكَ لَمَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْنَا يَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

قوله تعالى: <sup>□</sup> قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فِي الْمَقَامِ حَذَفَ كَثِيرٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:

«ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا» إِلَىٰ آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ وَالتَّقْدِيرُ وَ لَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ وَقَالُوا مَا وَصَّاهُمْ بِهِ كَبِيرُهُمْ قَالَ أَبُوهُمْ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، الخ.

□ وقوله: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً حكاية ما أجابهم به يعقوب عليه السلام و لم يقل عليه السلام هذا القول تكذيباً لهم فيما أخبروه به و حاشاه أن يكذب خبراً يحتف بقرائن الصدق و تصاحبه شواهد يمكن اختباره بها، و لا رماهم بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» رمياً بالمظنه بل ليس إلا أنه وجد بفراسه إلهيه أن هذه الواقعة ترتبط و تتفرع على تسويل نفساني منهم إجمالاً و كذلك كان الأمر فإن الواقعة من أذئاب واقعه يوسف و كانت واقعته من تسويل نفساني منهم.

و من هنا يظهر أنه عليه السلام لم ينسب إلى تسويل أنفسهم عدم رجوع أخى يوسف فحسب بل عدم رجوعه و عدم رجوع كبيرهم الذى توقف بمصر و لم يرجع إليه، و يشهد لذلك قوله:

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» فجمع في ذلك بين يوسف و أخيه و كبير الإخوه فلم يذكر أخا يوسف وحده و لا يوسف و أخاه معا، فظاهر السياق أن ترجيه رجوع بنيه الثلاثة مبنى على صبره الجميل قبال ما سولت لهم أنفسهم أمرا.

فالمعنى -و الله أعلم- أن هذه الواقعة مما سولت لكم أنفسكم كما قلت ذلك في واقعه يوسف فصبر جميل قبال تسويل أنفسكم عسى الله أن يأتيني بأبنائي الثلاثة جميعا.

و من هنا يظهر أن قولهم: إن المعنى: ما عندي ان الأمر على ما تصفونه بل سولت لكم أنفسكم أمرا فيما أظن، ليس في محله.

□  
و قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ترج مجرد لرجوعهم جميعا مع ما فيه من الإشارة الى أن يوسف حى لم يمت -على ما يراه- و ليس مشربا معنى الدعاء، و لو كان في معنى الدعاء لم يختمه بقوله: «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» بل بمثل قولنا:

إنه هو السميع العليم أو الرؤوف الرحيم أو ما يناظرهما كما هو المعهود في الأدعية المنقولة في القرآن الكريم.

بل هو رجاء لثمره الصبر فهو يقول: إن واقعه يوسف السابقة و هذه الواقعة التى أخذت منى ابنين آخرين إنما هما لأمر ما سولته لكم أنفسكم فسأصبر صبيرا و أرجو به ان يأتيني الله بأبنائي جميعا و يتم نعمته على آل يعقوب كما وعدنيه إنه هو العليم بمورد الاجتباء و إتمام النعمه حكيم فى فعله يقدر الامور على ما تقتضيه الحكمة البالغة فلا ينبغي للإنسان ان يضطرب عند البلايا و المحن بالطيش و الجزع و لا أن ييأس من روجه و رحمته.

و الاسمان: العليم الحكيم هما اللذان ذكرهما يعقوب ليوسف عليه السلام لأول مره أول رؤياه فقال «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ثم ذكرهما يوسف ليعقوب عليهما السلام ثانيا حيث رفع ابويه على العرش و خرّوا له سجدا فقال «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ -الى أن قال- وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» .

قوله تعالى: وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفِي عَلَى يَوْسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قال الراغب فى المفردات: الأسف الحزن و الغضب معا، و قد يقال لكل واحد منهما على الانفراد و حقيقته ثوران دم القلب شهوه الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا، و متى كان على من فوqe انقبض فصار حزنا-الى ان قال- و قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى أغضبونا قال أبو عبد الله (١)الرضا: إن الله لا يأسف كأسفنا و لكن له أولياء يأسفون و يرضون فجعل رضاهم رضاه و غضبهم غضبه. قال: و على ذلك قال: من أهان لى و ليا فقد بارزنى بالمحاربة. انتهى.

و قال: الكظم مخرج النفس يقال: أخذ بكظمه، و الكظوم احتباس النفس و يعبر به عن السكوت كقولهم: فلان لا يتنفس إذا و صف بالمبالغة فى السكوت، و كظم فلان حبس نفسه قال تعالى «إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ» و كظم الغيظ حبسه قال تعالى «وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ»، و منه كظم البعير إذا ترك الاجترار و كظم السقاء شده بعد ملئه مانعا لنفسه. انتهى.

و قوله: وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ابيضاض العين أى سوادها هو العمى و بطلان الإبصار و ربما يجامع قليل إبصار لكن قوله الآتى: إِذْ هَبُوا بَقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا (الآية ٩٣ من السورة) يشهد بأنه كناية عن ذهاب البصر.

و معنى الآية «ثُمَّ تَوَلَّى» و أعرض يعقوب عليه السلام «عَنْهُمْ» أى عن أبنائه بعد ما خاطبهم بقوله: بل سولت لكم أنفسكم أمرا «وَ قَالَ يَا أَسِيفِي» و يا حزنى «عَلَى يَوْسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ» و ذهب بصره «مِنَ الْحُزْنِ» على يوسف «فَهُوَ كَظِيمٌ» حابس غيظه متجرع حزنه لا يتعرض لبنيه بشىء.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ

ص: ٣٢٥

(١- ١). كذا فى النسخة المنقولة عنها و الصحيح ابو الحسن.

مِنَ الْهَالِكِينَ الْحَرَضِ وَالْحَارِضِ الْمَشْرِفِ عَلَى الْهَلَاكِ وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي لَا مِيتَ فِينَسِي وَ لَا حَى فِيرَجِي، وَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَنْسَبَ بِالنَّظَرِ إِلَى مَقَابَلَتِهِ الْهَلَاكِ، وَ الْحَرَضُ لَا يَتْنَى وَ لَا يَجْمَعُ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ.

وَ الْمَعْنَى: نَقَسَمَ بِاللَّهِ لَا- تَزَالُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ وَ تَدِيمُ ذَكَرَهُ مِنْذُ سَنِينَ لَا- تَكْفُ عَنْهُ حَتَّى تَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ أَوْ تَهْلِكَ، وَ ظَاهِرُ قَوْلِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوهُ رِقَهُ بِحَالِهِ وَ رَأْفَهُ بِهِ، وَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا تَفَوَّهُوا بِهِ تَبَرُّمَا بِبِكَائِهِ وَ سَأَمَهُ مِنْ طَوْلِ نِيَاحِهِ لِيَوْسُفَ، وَ خَاصَهُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُهُمْ فِي مَا كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ أَمْرِ يَوْسُفَ، وَ كَانَ ظَاهِرَ بِكَائِهِ وَ تَأْسَفَهُ أَنَّهُ يَشْكُوهُمْ كَمَا رَبَّمَا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: «إِنَّمَا أَشْكُوا» الْخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْبَثُّ الْهَمُّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ عَلَى كِتْمَانِهِ فَيَبْئُهُ أَى يَفْرُقُهُ، وَ كُلُّ شَيْءٍ فَرَقْتَهُ فَقَدْ بَثْتَهُ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ: «وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أَنْتَهَى فَهُوَ مِنَ الْمَصْدَرِ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَى الْمَبْثُوثِ.

وَ الْحَصْرُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا أَشْكُوا» الْخ؛ مِنْ قَصْرِ الْقَلْبِ فَيَكُونُ مَفَادَهُ أَنَّى لَسْتُ أَشْكُو بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَيْكُمْ مَعَاشِرَ وَلَدِي وَ أَهْلِي، وَ لَوْ كُنْتُ أَشْكُوهُ إِلَيْكُمْ لَأَنْقَطَعَ فِي أَقَلِّ زَمَانٍ كَمَا يَجْرِي عَلَيْهِ دَابُّ النَّاسِ فِي بَثِّهِمْ وَ حُزْنِهِمْ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَا يَأْخُذُهُ مَلَلٌ وَ لَا سَأَمُهُ فِيمَا يَسْأَلُهُ عَنْهُ عِبَادُهُ وَ يَبْرِمُهُ أَرْبَابُ الْحَوَائِجِ وَ يَلْحُونُ عَلَيْهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَلَسْتُ أَيَّاسٌ مِنْ رُوحِهِ وَ لَا أَقْنَطُ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وَ فِي قَوْلِهِ: «وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» إِشَارَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ إِلَى عِلْمِهِ بِاللَّهِ لَا يَسْتَفَادُ مِنْهُ إِلَّا مَا يَسَاعِدُ عَلَى فَهْمِهِ الْمَقَامِ كَمَا إِشْرْنَا إِلَيْهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا- تَتَّبِعُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» قَالَ فِي الْمَجْمَعِ:

التحسس-بالحاء-طلب الشيء بالحاسه و التجسس-بالجيم-نظيره و فى الحديث:لا تحسسوا و لا تجسسوا،و قيل إن معناهما واحد و نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين كقول الشاعر «متى أدن منه ينأ عنه و يبعد».

و قيل:التجسس بالجيم البحث عن عورات الناس،و بالحاء الاستماع لحديث قوم و سئل ابن عباس عن الفرق بينهما؟قال:لا يبعد أحدهما عن الآخر:التحسس فى الخير و التجسس فى الشر.انتهى.

و قوله: **وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ** الروح بالفتح فالسكون النفس أو النفس الطيب و يكنى به عن الحاله التى هى ضد التعب و هى الراحة و ذلك أن الشده التى فيها انقطاع الأسباب و انسداد طرق النجاه تتصور اختناقاً و كظماً للإنسان و بالمقابله الخروج الى فسحه الفرج و الظفر بالعافيه تنفساً و روحاً لقلوبهم يفرج الهمّ و ينفس الكرب،فالروح المنسوب اليه تعالى هو الفرج بعد الشده بإذن الله و مشيئته،و على من يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لا قاهر لمشيئته و لا معقب لحكمه،و ليس له أن يئس من روح الله و يقنط من رحمته فإنه تحديد لقدرته و فى معنى الكفر باحاطته وسعه رحمته كما قال تعالى حاكياً عن لسان يعقوب عليه السلام **«إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»** و قال حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام **وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** (الحجر ٥٦)،و قد عد اليأس من روح الله فى الأخبار المأثوره من الكبائر الموبقه.

و معنى الآية-ثم قال يعقوب لبنيه **آمرا لهم- «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا»** من يوسف و أخيه،الذى أخذ بمصر و ابحتوا عنهما لعلكم تظفرون بهما **«وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»** و الفرج الذى يرزقه الله بعد الشده **«إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»** الذين لا يؤمنون بأن الله يقدر أن يكشف كل غمه و ينفس عن كل كربه.

قوله تعالى: **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ**

وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ الْخ؛ البضاعه المزجاء المتاع القليل، و فى الكلام حذف و التقدير فساروا بنى يعقوب الى مصر و لما دخلوا على يوسف قالوا، الخ.

كانت لهم -على ما يدل عليه السياق- حاجتان الى العزيز و لا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسباب الى قضائهما و استجابته عليهم فيها.

إحداهما: أن يبيع منهم الطعام و لا ثمن عندهم يفى بما يريدونه من الطعام على أنهم عرفوا بالكذب و سجل عليهم السرقة من قبل و هان أمرهم على العزيز لا يرجى منه أن يكرمهم بما كان يكرمهم به فى الجيئه الاولى.

و ثانيتهما: أن يخلى عن سبيل أخيهم المأخوذ بالسرقة، و قد استياسوا منه بعد ما كانوا ألحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخليه سبيله بأخذ أحدهم مكانه.

و لذلك لما حضروا عند يوسف العزيز و كلموه و هم يريدون أخذ الطعام و إعتاق أخيهم أوقفوا أنفسهم موقف التذلل و الخضوع و بالغوا فى رقة الكلام استرحاما و استعطافا فذكروا أولا ما مسهم و أهلهم من الضر و سوء الحال ثم ذكروا قله ما أتوا به من البضاعه ثم سألوه إيفاء الكيل، و أما حديث أخيهم المأخوذ فلم يصرحوا بسؤال تخليه سبيله بل سألوه أن يتصدق عليهم و إنما يتصدق بالمال و الطعام مال و أخوهم المسترق مال العزيز ظاهرا ثم حرضوه بقولهم: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» و هو فى معنى الدعاء.

فمعنى الآية «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ» و أحاط بنا جميعا المضيقة و سوء الحال «وَ جِئْنَا» اليك «بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ» و متاع قليل لا يعدل ما نسألك من الطعام غير أنه نهايه ما فى وسعنا «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» و كأنهم يريدون به أخاهم أو إياه و الطعام «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» خيرا.

و قد بدءوا القول بخطاب «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» و ختموه بما فى معنى الدعاء، و أتوا خلاله بذكر سوء حالهم و الاعتراف بقله بضاعتهم و سؤاله أن يتصدق عليهم و هو من أمر السؤال

و الموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلك لسوء سابقته، و هم عصبه قد اصطفوا أما عزيز مصر.

و عند ذلك تمت الكلمه الإلهيه أنه سيرفع يوسف و أخاه و يضع عنده سائر بنى يعقوب لظلمهم، و لذلك لم يلبث يوسف عليه السلام دون أن أجابهم قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ» و عرفهم نفسه، و قد كان يمكنه عليه السلام أن يخبر أباه و أخوته مكانه و أنه بمصر طول هذه المده غير القصيره لكن الله سبحانه شاء أن يوقف إخوته أمامه و معه أخوه المحسود متوقف المذله و المسكنه و هو متك على أريكه العزه.

قوله تعالى: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» إنما يخاطب المخطفى المجرم بمثل هل علمت و أتدرى و رأيت و نحوها و هو عالم بما فعل لتذكيره جزاء عمله و وبال ذنبه لكنه عليه السلام أعقب استفهامه بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» و فيه تلقين عذر.

فقوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ» مجرد تذكير لعملهم بهما من غير توبيخ و مؤاخذه ليعرفهم من الله عليه و على أخيه و هذا من عجيب فتوه يوسف عليه السلام، و يالها من فتوه.

قوله تعالى: «قَالُوا أَإِنَّكَ لَمَأْتٌ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» الى آخر الآيه تأكيد الجمله المستفهم عنها للدلاله على أن الشواهد القطعيه قامت على تحقق مضمونها و إنما يستفهم لمجرد الاعتراف فحسب.

و قد قامت الشواهد عندهم على كون العزيز هو أخاهم يوسف و لذلك سأله بقولهم:

«أَأِنَّكَ لَمَأْتٌ يُوسُفُ» مؤكداً بيان و اللام و ضمير الفصل فأجابهم بقوله: «أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي» و إنما ألحق أخاه بنفسه و لم يسألوا عنه و ما كانوا يجهلونه ليخبر عن من الله عليهما، و هما مع المحسودان و لذا قال «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» .

ثم أخبر عن سبب المن الإلهي بحسب ظاهر الأسباب فقال «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا



يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» وفيه دعوتهم الى الإحسان و بيان أنه يتحقق بالتقوى و الصبر.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ الْإِثَارِ هو الاختيار و التفضيل، و الخطأ ضد الصواب و الخاطئ و المخطئ من خطأ خطأ و خطأ إخطاء بمعنى واحد، و معنى الآية ظاهر و فيها اعترافهم بالخطأ و تفصيل الله يوسف عليهم.

قوله تعالى: قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ التثريب التوبيخ و المبالغة فى اللوم و تعديد الذنوب، و إنما قيد نفي التثريب باليوم ليدل على مكانه صفحه و إغماضه عن الانتقام منهم و الظرف هذا الظرف هو عزيز مصر اوتى النبوه و الحكم و علم الأحاديث و معه أخوه و هم أذلاء بين يديه معترفون بالخطيئه و أن الله آثره عليهم بالرغم من قولهم أول يوم: «يُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

ثم دعا لهم و استغفر بقوله: «يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» و هذا دعاء و استغفار منه لإخوته الذين ظلموه جميعا و إن كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الآتى: «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» و سيجىء إن شاء الله تعالى (١).

## [سوره يوسف (١٢): الآيات ٩٣ الى ١٠٢]

### اشاره

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْتَقُوهُ عَلَيَّ وَجْهَ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَ اتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَأَ أَنْ تَفَنَّدُونَ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَيَّ وَجْهَهُ فَازْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيَّ يُونُسَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَ رَفَعَ أَبُوهُ عَلَيَّ الْعَرْشَ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِيِّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ الْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

ص: ٣٣٠

١- ١). يوسف ٨٣-٩٢: بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه فى مصر؛ سيره يوسف فى مصر؛ حزن يعقوب على يوسف و تغيير حالته من الحزن.



قوله تعالى: إِذْهَبُوا بِقَمِيصَتِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَيَّ وَجْهَ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ أَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ تتمه كلام يوسف عليه السلام يأمر فيه إخوته أن يذهبوا بقميصه الى أبيه فيلقوه على وجهه ليشفى الله به عينيه و يأتي بصيرا بعد ما صار من كثره الحزن و البكاء ضريرا لا يبصر.

و هذا آخر العنايةات البديعه التي أظهرها الله سبحانه في حق يوسف عليه السلام على ما يقصه في هذه السوره مما غلب الله الاسباب فحولها الى خلاف الجبهه التي كانت تجرى إليها حسده إخوته فاستدلوه و غربوه عن مستقره بالقائه في الجب و بيعه من السياره بثمان بخس فجعل الله سبحانه هذا السبب بعينه سببا لقراره في بيت عزيز مصر في أكرم مثوى ثم أقره في أريكه عزه تضرع اليه أمامها إخوته بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

ثم أحبته امرأه العزيز و نسوه مصر فراودنه عن نفسه ليوردنه في مهلكه الفجور فحفظه الله و جعل ذلك سببا لظهور براءه ساحته و كمال عفته، ثم استدلوه فسجنوه فجعله الله سببا لعزته و ملكه.

و جاء إخوته الى أبيه يوم ألقوه في غيابه الجب بقميصه المملخ بالدم فأخبروه بموته كذبا فكان القميص سببا لحزن أبيه و بكائه في فراق ابنه حتى ابيضت عيناه و ذهب بصره فرد الله سبحانه به بصره اليه و بالجمله اجتمعت الاسباب على خفضه و أراد الله سبحانه رفعه فكان ما أراد الله دون الذي توجهت اليه الاسباب و الله غالب على أمره.

و قوله: وَ أَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أمر منه بانتقال بيت يعقوب من يعقوب و أهله و بنيه و ذراريه جميعا من البدو الى مصر و نزولهم بها.

قوله تعالى: وَ لَمَّا فَصَّيَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَّا أَن تَفَنَّدُونَ الْفَصْلَ الْقَطْعَ وَ الْإِنْقِطَاعَ وَ التَّنْفِيدَ تَفْعِيلَ مِنَ الْفَنْدِ بَفَتْحَتَيْنِ وَ هُوَ ضَعْفُ الرَّأْيِ، وَ الْمَعْنَى لَمَّا خَرَجَتِ الْعِيرَ الْحَامِلَةَ لِقَمِيصِ يَوْسُفَ مِنْ مِصْرَ وَ انْقَطَعَتْ عَنْهَا قَالَ أَبُوهُمْ يَعْقُوبَ لَمَنْ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ لَوْ لَّا أَن تَرْمُونِي بِضَعْفِ الرَّأْيِ أَيْ إِنِّي لِأَحْسُ بِرِيحِهِ وَ أَرَى أَنَّ الْإِلْقَاءَ قَرِيبٌ وَ مِنْ حَقِّهِ أَن تَدْعُونَا بِمَا أَجَدَهُ لَوْ لَّا أَن تَخْطُئُونِي لَكِنْ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَن تَفَنَّدُونِي فَلَا تَدْعُونَا بِقَوْلِي.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ الْقَدِيمِ مُقَابِلَ الْجَدِيدِ وَ الْمُرَادُ بِهِ الْمَتَقَدِّمُ وَ جُودًا، وَ هَذَا مَا وَاجَهَهُ بِهِ بَعْضُ بَنِيهِ الْحَاضِرِينَ عِنْدَهُ، وَ هُوَ مِنْ سَيِّئِ حَظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَفَوَّهُوا بِمَثَلِهِ فِي بَدَأِ الْقِصَّةِ إِذْ قَالُوا «إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» وَ فِي خْتَمِهَا وَ هُوَ قَوْلُهُمْ هَذَا: «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» .

وَ الظَّاهِرُ أَن مَرَادَهُمْ بِالضَّلَالِ هَاهُنَا هُوَ مَرَادُهُمْ بِالضَّلَالِ هُنَاكَ وَ هُوَ الْمَبَالِغَةُ فِي حُبِّ يَوْسُفَ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْحُبِّ مِنْ يَوْسُفَ وَ هُمْ عَصَبُهُ الْيَهُودِ تَدْبِيرَ بَيْتِهِ وَ الدِّفَاعَ عَنْهُ لَكِنْ أَبَاهُمْ قَدْ ضَلَّ عَنْ مَسْتَوَى طَرِيقِ الْحُكْمِ وَ قَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْحُبِّ طِفْلَيْنِ صَغِيرَيْنِ لَا يَغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئًا فَأَقْبَلَ بِكُلِّهِ الْيَهُودَ وَ نَسِيَهُمْ، ثُمَّ لَمَّا فَقَدَ يَوْسُفَ جَزَعُ لَهُ وَ لَمْ يَزَلْ يَجْزَعُ وَ يَبْكِي حَتَّى ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ وَ تَقَوَّسَ ظَهْرُهُ.

فَهَذَا هُوَ مَرَادُهُمْ مِنْ كَوْنِهِ فِي ضَلَالِهِ الْقَدِيمِ لَيْسُوا يَعْنُونَ بِهِ الضَّلَالَةَ فِي الدِّينِ حَتَّى يَصِيرُوا بِذَلِكَ كَافِرِينَ:

أَمَّا أَوْلَا: فَلَأَنَّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ فُصُولِ كَلَامِهِمْ فِي خِلَالِ الْقِصَّةِ يَشْهَدُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُوَحَّدِينَ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَ أَمَّا ثَانِيًا: فَلَأَنَّ الْمَقَامَ هَاهُنَا وَ كَذَا فِي بَدَأِ الْقِصَّةِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ لَا مَسَاسَ لَهُ بِالضَّلَالِ فِي الدِّينِ حَتَّى يَحْتَمِلَ رَمِيَهُمْ أَبَاهُمْ فِيهِ، وَ إِنَّمَا يَمَسُّ أَمْرًا عَمَلِيًّا حَيَوِيًّا وَ هُوَ

حب أب لبعض أولاده و تقديمه فى الكرامه على آخريين فهو المعنى بالضلال.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّى أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ البشير حامل البشاره و كان حامل القميص و قوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّى أَعْلَمُ» يشير عليه السّلام الى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف:

«إِنَّمَا أَشْكُوا بَثْنَىٰ وَحُزْنَىٰ إِلَىٰ اللّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم: «يَا أَبَانَا» و يريدون بالذنوب ما فعلوه به فى أمر يوسف و أخيه، و أما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل.

قوله تعالى: قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أخر عليه السّلام الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى» و لعله إنما أخره لىتم له النعمه بقاء يوسف و تطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم و فى بعض الأخبار: أنه أخره الى وقت يستجاب فيه الدعاء و سيجىء إن شاء الله.

قوله تعالى: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوْسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِ شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ فى الكلام حذف و التقدير فخرج يعقوب و آله من أرضهم و ساروا الى مصر و لما دخلوا «الخ».

و قوله: آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ فسروه بضمهما اليه، و قوله: «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ» الخ؛ ظاهر فى أن يوسف خرج من مصر لاستقبالهما و ضمهما اليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر إكراما و تأدبا و قد أبدع عليه السّلام فى قوله: «إِنِ شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ» حيث أعطاهم الأمن و اصدر لهم حكمه على سنه الملوك و قيد ذلك بمشيئه الله سبحانه للدلاله على أن المشيه الإنسانيه لا تؤثر أثرها كسائر الاسباب إلا- إذا وافقت المشيه الإلهيه على ما هو مقتضى التوحيد الخالص، و ظاهر هذا السياق أنه لم يكن لهم الدخول و الاستقرار فى مصر إلا بجواز من ناحيه الملك،

و لذا أعطاهم الأمن فى مبتدأ الأمر.

و قد ذكر سبحانه «أَبُوَيْهِ» و المفسرون مختلفون فى أنهما كانا والديه أباه و أمه حقيقه أو أنهما يعقوب و زوجه خاله يوسف بالبناء على أن أمه ماتت و هو صغير، و لا- يوجد فى كلامه تعالى ما يؤيد أحد المحتملين غير أن الظاهر من الأبوين هما الحقيقيان.

و معنى الآيه «فَلَمَّا دَخَلُوا» أى أبواه و إخوته و أهلهم «عَلَى يَوْسُفَ» و ذلك فى خارج مصر «أَوْى» و ضم «إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَ قَالَ» لهم مؤمنا لهم «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» .

قوله تعالى: وَ رَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ الِى آخِرِ الْآيَةِ؛ العرش هو السرير العالى و يكثر استعماله فيما يجلس عليه الملك و يختص به، و الخرور السقوط على الارض و البدو البادية فإن يعقوب كان يسكن البادية.

و قوله: وَ رَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ أى رفع يوسف أبويه على عرش الملك الذى كان يجلس عليه و مقتضى الاعتبار و ظاهر السياق أنهما رفعوا على العرش بأمر من يوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه كما يشعر به قوله: «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» فإن الظاهر أن السجده إنما وقعت لأول ما طلع عليهم يوسف فكأنهم دخلوا البيت و اطمأن بهم المجلس ثم دخل عليهم يوسف فغشاهم النور الإلهى المتلألئ من جماله البديع فلم يملكوا أنفسهم دون أن خروا له سجدا.

و قوله: وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا الضمير ليوسف كما يعطيه السياق فهو المسجود له، و قول بعضهم: إن الضمير لله سبحانه نظرا الى عدم جواز السجود لغير الله لا دليل عليه من جهة اللفظ، و قد وقع نظيره فى القرآن الكريم فى قصه آدم و الملائكه قال تعالى وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (طه ١١٦).

و الدليل على أنها لم تكن منهم سجده عباده ليوسف أن بين هؤلاء الساجدين يعقوب عليه السلام

و هو ممن نصّ القرآن الكريم على كونه مخلصا-بالفتح-لله لا يشرك به شيئا، و يوسف عليه السّلام -و هو المسجود له-منهم  
بنص القرآن و هو القائل لصاحبيه في السجن: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء و لم يردعهم.

فليس إلا أنهم إنما أخذوا يوسف آيه الله فاتخذوه قبله في سجدتهم و عبدوا الله بها لا غير كالكعبه التي تؤخذ قبله فيصلى إليها  
فيعبد بها الله دون الكعبه، و من المعلوم أن الآيه من حيث إنها آيه لا-نفسيه لها أصلا فليس المعبود عندها إلا الله سبحانه و  
تعالى، و قد تكرر الكلام في هذا المعنى فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لما شاهد عليه السّلام سجده أبويه و إخوته  
الأحد عشر ذكر الرؤيا التي رأى فيها أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له ساجدين و أخبر بها أباه و هو صغير فأولها له، فأشار  
إلى سجودهم له و قال «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا -أى الرؤيا- رَبِّي حَقًّا».

ثم أثنى على ربه شاكرًا له فقال «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» فذكر إحسان ربه به فى إخراجة من السجن و هو ضراء  
و بلاء دفعه الله عنه بتبديله سراء و نعمه من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيلة لنيله العزه و الملك.

و لم يذكر إخراجة من الجب قبل ذلك لحضور إخوته عنده و كان لا يريد أن يذكر ما يسوؤهم ذكره كرما و فتوه بل أشار إلى  
ذلك بأحسن لفظ يمكن أن يشار به إليه من غير أن يتضمن طعنا فيهم و شتانا فقال «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ  
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» و النزغ هو الدخول فى أمر لإفساده.

و المراد: و قد أحسن بى من بعد أن أفسد الشيطان بينى و بين إخوتى فكان من الأمر ما كان فأدّى ذلك إلى فراق بينى و بينكم  
فساقنى ربي إلى مصر فأقرنى فى أرغد عيش و أرفع عزه و ملك ثم قرّب بيننا بنقلكم من البادية إلى فى دار المدنيه و الحضاره.

يعنى أنه كانت نوائب نزلت بى إثر إفساد الشيطان بينى و بين إخوتى و مما أخصه بالذكر من بينها فراق بينى و بينكم ثم رزىه السجن فأحسن بى ربى و دفعها عنى واحده بعد أخرى و لم يكن من المحن و الحوادث العاديه بل رزايا صماء و عقودا لا تنحل لكن ربى نفذ فيها بلطفه و نفوذ قدرته فبدلها أسباب حياه و نعمه بعد ما كانت أسباب هلاك و شقاء و لهذه الثلاثه الأخيره عقب قوله: «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي» الخ؛ بقوله: «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ» .

فقوله: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ تعليل لإخراجه من السجن و مجيئهم من البدو، و يشير به الى ما خصه الله به من العنايه و المنه و أن البلايا التى أحاطت به لم تكن لتنحل عقدها أو لتتحرف عن مجراها لكن الله لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشده عوامل رخاء و راحه و أسباب الذله و الرقيه وسائل عزه و ملك.

و اللطيف من أسمائه تعالى يدل على حضوره و إحاطته تعالى بما لا سبيل الى الحضور فيه و الإحاطه به من باطن الأشياء و هو من فروع إحاطته تعالى بنفوذ قدره و العلم قال تعالى:

أَلَا- يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك ١٤) و الأصل فى معناه الصغر و الدقه و النفوذ يقال: لطف الشيء بالضم يلطف لطفه إذا صغر و دق حتى نفذ فى المجارى و الثقب الصغار، و يكنى به عن الإرفاق و الملاءمه و الاسم اللطف.

و قوله: هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ تعليل لجميع ما تقدم من قوله: «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» الخ؛ و قد علل عليه السلام الكلام و ختمه بهذين الاسمين محاذاه لأبيه حيث تكلم فى رؤياه و قال «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ -الى أن قال- إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و ليس يبعد أن يفيد اللام فى قوله: «الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» معنى العهد يفيد تصديقه لقول أبيه عليه السلام و المعنى: و هو ذاك العليم الحكيم الذى وصفته لى يوم أوّلت رؤياى.

قوله تعالى: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ



الى آخر الآيه؛ لما أثنى عليه السّلام على ربه و عدّ ما دفع عنه من الشدائد و النوائب أراد أن يذكر ما خصه به من النعم المثبتة و قد هاجت به المحبه الإلهيه و انقطع بها عن غيره تعالى فترك خطاب أبيه و انصرف عنه و عن غيره ملتفتا الى ربه و خاطب ربه عز اسمه فقال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» .

و قوله: **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِيَّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ** إضراب و ترق في الثناء، و رجوع منه عليه السّلام الى ذكر أصل الولاية الإلهيه بعد ما ذكر بعض مظاهرها الجليه كإخراجه من السجن و المعجىء بأهله من البدو و إيتائه من الملك و تعليمه من تأويل الأحاديث فإن الله سبحانه رب فيما دق و جلّ معاً، و لى في الدنيا و الآخرة جميعاً.

و ولايته تعالى أعنى كونه قائماً كل شىء في ذاته و صفاته و أفعاله منشأها إيجادها تعالى إياها جميعاً و إظهاره لها من كتم العدم فهو فاطر السموات و الأرض و لذا يتوجه اليه تعالى قلوب أوليائه و المخلصين من عباده من طريق هذا الاسم الذى يفيد وجوده تعالى لذاته و إيجادها لغيره قال تعالى: **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (إبراهيم ١٠)**.

و لذا بدأ به يوسف عليه السّلام و هو من المخلصين في ذكر ولايته فقال **«فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِيَّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ»** أى إنى تحت ولايتك التامه من غير أن يكون لى صنع فى نفسى و استقلال فى ذاتى و صفاتى و أفعالى أو أملك لنفسى شيئاً من نفع أو ضرر أو موت أو حياه أو نشور.

و قوله: **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ أَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ** لما استغرق عليه السّلام فى مقام الذله قبال رب العزه و شهد بولايته له فى الدنيا و الآخرة سأله سؤال المملوك المولى عليه أن يجعله كما يستدعيه ولايته عليه فى الدنيا و الآخرة و هو الإسلام ما دام حيا فى الدنيا و الدخول فى

زمره الصالحين في الآخرة فإن كمال العبد المملوك أن يسلم لربه ما يريد منه ما دام حيا ولا يظهر منه ما يكرهه ولا يرتضيه فيما يرجع اليه من الأعمال الاختيارية و أن يكون صالحا لقرب مولاه لائقا لمواهبه الساميه فيما لا يرجع الى العبد و اختياره، و هو سؤاله عليه السلام في الدنيا و الدخول في زمره الصالحين في الآخرة و هو الذي منحه الله سبحانه لجدته إبراهيم عليه السلام و لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (البقره ١٣١).

و هذا الإسلام الذي سأله عليه السلام أقصى درجات الإسلام و أعلى مراتبه، و هو التسليم المحض لله سبحانه، و هو أن لا يرى العبد لنفسه و لا- لآثار نفسه شيئا من الاستقلال حتى لا يشغله شيء من نفسه و لا صفاتها و لا أعمالها من ربه، و إذا نسب اليه تعالى كان إخلاصه عبده لنفسه.

و مما تقدم ظهر أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» سؤال منه لبقاء الإخلاص و استمرار الإسلام ما دام حيا و بعبارة أخرى أن يعيش مسلما حتى يتوفاه الله فهو كناية عن أن يثبتته الله على الإسلام حتى يموت، و ليس يراد به أن يموت في حال الإسلام و لو لم يكن قبل ذلك مسلما، و لا سؤالا للموت و هو مسلم حتى يكون المعنى أني مسلم فتوفني.

و يتبين بذلك فساد ما روى عن عده من قدماء المفسرين أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» دعاء منه يسأل به الموت من الله سبحانه حتى قال بعضهم: لم يسأل أحد من الأنبياء الموت من الله و لا تمناه إلا يوسف عليه السلام.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتُ لَمَدِيهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ الإشاره الى نبا يوسف عليه السلام، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و ضمير الجمع لإخوه يوسف و الإجماع العزم و الإراده.

و قوله: وَ مَا كُنْتُ لَمَدِيهِمْ الخ؛ حال من ضمير الخطاب من «إِلَيْكَ» و قوله: «نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتُ» الى آخر الآيه بيان لقوله: «ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ» و المعنى أن نبا يوسف من

أنباء الغيب فإننا نوحيه إليك و الحال أنك ما كنت عند إخوه يوسف إذ عزموا على أمرهم و هم يمكرون فى أمر يوسف  
(١)(٢)(٣).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١١١]

إشارة

وَمَا أَكْثَرُ الدَّاسِ وَ لَوْ حَرَضْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ مَا تَسْتَلْهُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَ كَذَّابِينَ مِنْ آيَةٍ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ  
عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ  
سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَعَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ  
قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنَجَّيْنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ  
حَدِيثًا يُفْتَرَى وَ لَكِنْ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

ص: ٣٤٠

- ١- ١). يوسف ٩٣-١٠٢: بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه و يعقوب حين وجدوا يوسف.
- ٢- ٢). يوسف ٩٣-١٠٢: كلام فى قصه يوسف فى فصول (قصته فى القرآن، ما اثنى الله عليه و منزلته المعنويه، قصته فى التوراه الحاضره).
- ٣- ٣). يوسف ٩٣-١٠٢: كلام فى الرؤيا فى فصول (الاعتناء بشأنها، للرؤيا حقيقه، المنامات الحقه، فى القرآن ما يؤيد ذلك).

قوله تعالى: وَمِمَّا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ أَي لیس من شأن أكثر الناس لانكباہم علی الدنيا و انجذاب نفوسهم الی زینتها و سهوہم عما أودع فی فطرہم من العلم باللہ و آیاتہ أن یؤمنوا بہ، و لو حرصت و أحببت إیمانہم، و الدلیل علی هذا المعنی الآیات التالیہ.

قوله تعالى: وَمِمَّا تَسْتَأْذِنُ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ الواو حالیه ای ما هم بمؤمنین و الحال أنك ما تسألہم علی إیمانہم أو علی هذا القرآن الذی ننزلہ علیک و تتلوہ علیہم من أجر حتى یصدہم الغرامہ المالیہ و إنفاق ما یحبونہ من المال عن قبول دعوتہ و الإیمان بہ.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ بیان لشأن القرآن الواقعی و هو أنه ممحض فی أنه ذکر للعالمین یذکرون بہ ما أودع اللہ فی قلوب جماعات البشر من العلم بہ و بآیاتہ فما هو إلا ذکر یذکرون بہ ما أنستہم الغفلہ و الإعراض و لبس من الأمتعہ الی یکتسب بها الأموال أو ینال بها عزہ أو جاء أو غیر ذلك.

قوله تعالى: وَكَأَيُّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ

عَنْهَا مُعْرَضُونَ الْوَاوِ حَالِيهِ وَ يَحْتَمَلُ الْاِسْتِثْنَا فِ الْمُرُورِ عَلَى الشَّيْءِ هُوَ مُوَافَاتِهِ ثُمَّ تَرَكَهُ بِمُوَافَاةٍ مَا وَرَاءَهُ فَالْمُرُورُ عَلَى الْآيَاتِ السَّمَاوِيَةِ وَالْأَرْضِيَةِ مَشَاهِدَتَهَا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى.

وَالْمَعْنَى أَنَّ هُنَاكَ آيَاتٍ كَثِيرَةً سَمَاوِيَةً وَ أَرْضِيَةً تَدُلُّ بِوُجُودِهَا وَ النِّظَامِ الْبَدِيعِ الْجَارِي فِيهَا عَلَى تَوْحِيدِ بِهِمْ وَ هُمْ يَشَاهِدُونَهَا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى فَتَتَكَرَّرُ عَلَيْهِمْ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ مُعْرَضُونَ عَنْهَا لَا يَتَنَبَّهُونَ.

وَ لَوْ حَمَلَ قَوْلُهُ: «يَمُرُّونَ عَلَيْهَا» عَلَى التَّصْرِيحِ مِنْ دُونِ الْكِنَايَةِ كَانَ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى مَا يَبْتَنِي عَلَيْهِ الْهَيْئَةُ الْحَدِيثَةُ مِنْ حَرَكَةِ الْأَرْضِ وَضِعًا وَ انْتِقَالًا فَإِنَّا نَحْنُ الْمَارُونَ عَلَى الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَةِ بِحَرَكَةِ الْأَرْضِ الْاِنْتِقَالِيَةِ وَ الْوَضْعِيَةِ لَا بِالْعَكْسِ عَلَى مَا يَخِيلُ الْبِنَا فِي ظَاهِرِ الْحَسِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ الضَّمِيرُ فِي «أَكْثَرُهُمْ» رَاجِعٌ إِلَى النَّاسِ بِاعْتِبَارِ إِيمَانِهِمْ أَيْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ وَ إِن لَّمْ تَسْأَلْهُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا وَ إِن كَانُوا يَمْرُونَ عَلَى الْآيَاتِ السَّمَاوِيَةِ وَ الْأَرْضِيَةِ عَلَى كَثْرَتِهَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ - وَ هُمْ الْأَقْلُونَ - مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِالشَّرْكِ.

وَ تَلَبَّسَ الْإِنْسَانُ بِالْإِيمَانِ وَ الشَّرْكِ مَعَ كَوْنِهِمَا مَعْنِيَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ لَا - يَجْتَمِعَانِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ نَظِيرَ تَلَبُّسِهِ بِسَائِرِ الْاِعْتِقَادَاتِ الْمُتَنَاقِضَةِ وَ الْاِخْلَاقِ الْمُتَضَادَّةِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِمَا مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَقْبَلُ فِي نَفْسِهَا الْقُوَّةَ وَ الضَّعْفَ فَتَخْتَلِفُ بِالنِّسْبَةِ وَ الْإِضَافَةِ كَالْقُرْبِ وَ الْبَعْدِ فَإِنَّ الْقُرْبَ وَ الْبَعْدَ الْمَطْلُوقَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ إِلَّا أَنَّهُمَا إِذَا كَانَا نَسْبِيَيْنِ لَا يَمْتَنِعَانِ الْاجْتِمَاعَ وَ التَّصَادُقَ كَمَا هِيَ فَإِنَّهَا قَرِيبَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعِيدَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّامِ، وَ كَذَا هِيَ بَعِيدَةٌ مِنَ الشَّامِ إِذَا قِيسَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ قَرِيبَةٌ مِنْهُ إِذَا قِيسَتْ إِلَى بَغْدَادٍ.

وَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ الشَّرْكِ بِهِ وَ حَقِيقَتُهُمَا تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ بِالْخُضُوعِ لِلْحَقِيقَةِ الْوَاجِبِيَّةِ وَ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ تَعَالَى مِمَّا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا إِلَّا يَأْذَنُهُ تَعَالَى يَخْتَلِفَانِ بِحَسَبِ النِّسْبَةِ وَ الْإِضَافَةِ فَإِنَّ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَتَعَلَّقَ الْإِنْسَانُ مِثْلًا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ وَ زِينَتِهَا الْبَاطِلَةِ وَ يَنْسَى مَعَ ذَلِكَ كُلَّ حَقِّ

و حقيقه، و من الجائر أن ينقطع عن كل ما يصد النفس و يشغلها عن الله سبحانه و يتوجه بـكله اليه و يذكره و لا يغفل عنه فلا يركن في ذاته و صفاته إلا اليه و لا يريد إلا ما يريد كالمخلصين من أوليائه تعالى.

و بين المنزلتين مراتب مختلفه بالقرب من أحد الجانبين و البعد منه و هي التي يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع، و من الدليل على ذلك الأخلاق و الصفات المتمكنه في النفوس التي تخالف مقتضى ما تعتقده من حق أو باطل، و الأعمال الصادره منها كذلك ترى من يدعى الإيمان بالله يخاف و ترتعد فرائضه من أى نائبه أو مصيبه تهدده و هو يذكر أن لا قوه إلا بالله، و يلتمس العزه و الجاه من غيره و هو يتلو قوله تعالى: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» و يقرع كل باب يبتغى الرزق و قد ضمنه الله، و يعصى الله و لا يستحيى و هو يرى أن ربه عليم بما في نفسه سمع لما يقول بصير بما يعمل و لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء، و على هذا القياس.

فالمراد بالشرك في الآيه بعض مراتبه الذي يجامع بعض مراتب الإيمان و هو المسمى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفى.

قوله تعالى: أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ الْغَاشِيَةَ صَفَهُ سَادَهُ مَسَدُ الْمُصَوِّفِ الْمَحْذُوفِ لِدَلَالِهِ كَلِمَةَ الْعَذَابِ عَلَيْهِ، وَ التَّقْدِيرُ عَقُوبُهُ غَاشِيَةً تَغْشَاهُمْ وَ تَحِيطُ بِهِمْ.

و البغته الفجأه. و قوله: «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حال من ضمير الجمع أى تفاجئهم الساعه فى إتيانها و الحال أنهم لا يشعرون بإتيانها لعدم مسبقيتها بعلامات تعين وقتها و تشخص قيامها و الاستفهام للتعجب، و المعنى أن أمرهم فى إعراضهم عن آيات السماء و الأرض و عدم إخلاصهم الإيمان لله و تماديهم فى الغفله عجيب أ فأمنوا عذاباً من الله يغشاهم أو ساعه تفاجئهم و تبهتهم؟

قوله تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لما ذكر سبحانه أن محض الإيمان به و إخلاص التوحيد له عزيز المنال و هو الحق الصريح الذى تدل عليه آيات السماوات و الأرض أمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم أن يبين لهم أن سبيله هو الدعاء الى هذا التوحيد على بصيره.

فقوله: هَذِهِ سَبِيلِي إعلان لسبيله، و قوله: «أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ» بيان للسبيل، و قوله: «وَ سُبْحَانَ اللَّهِ» اعتراض للتنزيه، و قوله: «وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تأكيد لمعنى الدعوه الى اللّٰه و بيان أن هذه الدعوه ليست دعوه اليه تعالى كيف كان بل دعوه على أساس التوحيد الخالص لا معدل عنه الى شرك أصلا.

و أما قوله: أَنَا وَ مَنْ اتَّبَعَنِي فتوسعه و تعميم لحمل الدعوه و أن السبيل و إن كانت سبيل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مختصه به لكن حمل الدعوه و القيام به لا يختص به بل من اتبعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم يقوم بها لنفسه.

لكن السياق يدل على أن الإشراك ليس بذاك العموم الذى يترأى من لفظ «مَنْ اتَّبَعَنِي» فإن السبيل التى تعرفها الآيه هى الدعوه عن بصيره و يقين الى إيمان محض و توحيد خالص و انما يشاركه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فيها من كان مخلصا لله فى دينه عالما بمقام ربه ذا بصيره و يقين و ليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت، و لا أن الاستواء على هذا المستوى مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدّهم اللّٰه سبحانه فى الآيه السابقه من المشركين و ذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته، و كيف يدعو الى اللّٰه من كان غافلا عنه آمننا من مكره معرضا عن آياته و ذكره؟ و قد وصف اللّٰه فى آيات كثيره أصحاب هذه النعوت بالضلال و العمى و الخسران و لا تجتمع هذه الخصال بالهدايه و الإرشاد البتة.

قوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ الى آخر الآيه؛ لما ذكر سبحانه حال الناس فى الإيمان به ثم حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فى دعوته إياهم عن رساله إلهيه من غير أن يسألهم فيها أجرا و يجر لنفسه نفعا بين أن ذلك ليس

بيدع من الأمر بل مما جرت عليه السنه الإلهيه فى الدعوه الدينيه فلم يكن الرسل الماضون ملائكه و إنما بعثوا من بين هؤلاء الناس و كانوا رجالا من أهل القرى يخالطون الناس و يعرفون عندهم أوحى الله اليهم و أرسلهم نحوهم يدعونهم اليه كما أن النبى كذلك، و من الممكن أن يسير هؤلاء المدعوون فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبه الذين من قبلهم فبلادهم الخربه و مساكنهم الخاليه تفصح عما آل اليه أمرهم، و تنبئ عن عاقبه كفرهم و جحودهم و تكذيبهم لآيات الله.

فالنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم لا يدعوهم إلا كما كان يدعوهم الأنبياء من قبله، و ليس يدعوهم إلا الى ما فيه خيرهم و صلاح حالهم و هو أن يتقوا الله فيفلحوا و يفوزوا بسعاده خالده و نعيم مقيم فى دار باقيه و لدار الآخره خير للذين اتقوا أ فلا تعقلون.

فقوله: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى** تطبيق لدعوه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم على دعوه من قبله من الرسل. و لعل توصيفهم بأنهم كانوا من أهل القرى للدلاله على أنهم كانوا من أنفسهم يعيشون بينهم و معروفين عندهم بالمعاشره و المخالطه و لم يكونوا ملائكه و لا من غير أنفسهم، و يؤيد ذلك توصيفهم بأنهم كانوا رجالا فإن الرجال كانوا أقرب الى المعرفه من النساء ذوات الخدر.

وقوله: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** إنذار لآمه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم بمثل ما أندر به الامم الخاليه فلم يسمعوا فذاقوا وبال أمرهم.

وقوله: **وَلَعَلَّارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** بيان النصيح و أن ما يدعون اليه و هو التقوى ليس وراءه إلا ما فيه كل خيرهم و جماع سعادتهم.

قوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا** جاءهم نصرنا الى آخر الآيه ذكروا أن يس و استيأس بمعنى، و لا يبعد أن يقال: إن الاستيأس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئه الاستفعال و هو مما يعد بأسا عرفا و ليس باليأس



القاطع حقيقه.

وقوله: حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ السَّخَابُ، متعلق الغايه بما يتحصل من الآيه السابقه و المعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالا أمثالك من أهل القرى و تلك قراهم البائده دعوهم فلم يستجيبوا و أنذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيأس الرسل من إيمان اولئك الناس، و ظن الناس أن الرسل قد كذبوا أى اخبروا بالعذاب كذبا جاء نصرنا فنجىء بذلك من نشاء و هم المؤمنون و لا يرد بأسنا أى شدتنا عن القوم المجرمين.

أما استيأس الرسل من إيمان قومهم فكما أخبر في قصه نوح: وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ (هود/٣٦) وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَىٰ الْبَارِضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنِّي تَذَرُهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (نوح/٢٧) و يوجد نظيره فى قصص هود و صالح و شعيب و موسى و عيسى عليهم السلام.

و أما ظن امهم أنهم قد كذبوا فكما اخبر عنه فى قصه نوح من قولهم: بَلْ نَحْنُكُمْ كَاذِبِينَ (هود/٢٧)، و كذا فى قصه هود و صالح و قوله: فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (الإسراء/١٠١).

و أما تنجيه المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم/٤٧) و قد أخبر به فى هلاك بعض الامم أيضا كقوله: نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/٥٨) نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/٦٦) نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/٤٤) الى غير ذلك.

و أما أن بأس الله لا يرد عن المجرمين فمذكور فى آيات كثيره عموما و خصوصا كقوله:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس/٤٧)، و قوله: وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدٍّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (الرعد/١١) الى غير ذلك من الآيات.

هذا أحسن ما أوردوه فى الآيه من المعانى، و الدليل على كون الآيه بمضمونها غاية لما تتضمنه سابقتها كما قدمناه، و قد أوردوا لها معانى اخرى لا يخلو شىء منها من السقم و الإضراب عنها اوجه.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ الى آخر الآيه؛ قال الراغب اصل العبر تجاوز من حال الى حال فأما العبور فيختص بتجاوز الماء-الى أن قال- و الاعتبار و العبره بالحاله التى يتوصل بها من معرفه المشاهد الى ما ليس بمشاهد قال تعالى: إن فى ذلك لعبره. انتهى.

و الضمير فى قصصهم للأنبياء و منهم يوسف صاحب القصة فى السوره، و احتمال رجوعه الى يوسف و إخوته و المعنى أقسم لقد كان فى قصص الأنبياء أو يوسف و إخوته عبره لأصحاب العقول، ما كان القصص المذكور فى السوره حديثا يفترى و لكن تصديق الذى بين يدي القرآن، و هو التوراه المذكور فيه القصة يعنى توراه موسى عليه السلام.

و قوله: وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ الْخَيْرِ؛ أى بيانا و تمييزا لكل شىء مما يحتاج اليه الناس فى دينهم الذى عليهم بناء سعادتهم فى الدنيا و الآخرة، و هدى الى السعاده و الفلاح و رحمه خاصه من الله سبحانه لقوم يؤمنون به فإنه رحمه من الله لهم يهتدون بهدايته الى صراط مستقيم (1).

ص: ٣٤٧

---

(١-١). يوسف ١٠٣-١١١: بحث روائى فى: التوحيد و الشرك؛ التسبيح؛ استيئاس الرسل و مجيء نصر الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۱)  
اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْبَغَ عَلَيْهَا نَارًا مَدِينَةً وَرَضِيَ مِنْهَا حَمَلًا وَجَعَلَ الْكُلَّ بَحْرًا مُسْتَمِيًّا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ  
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ (۲) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَادٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا  
زُوجِينَ إِنثِينَ يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَ  
نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴)

غرض السوره بيان حقيه ما نزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الكتاب و أنه آيه الرساله و أن قولهم:

«لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» و هم يعرضون به للقرآن و لا يعدونه آيه كلام مردود اليهم و لا ينبغي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يصغى اليه و لا لهم أن يتفوهوا به.

و يدل على ذلك ابتداء السوره بمثل قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و اختتامها بقوله: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» الآية؛ و تكرر حكاية قولهم: لو لا أنزل عليه آيه من ربه.

و محصل البيان على خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن هذا القرآن النازل عليك حق لا يخالطه باطل فإن الذي يشتمل عليه من كلمه الدعوه هو التوحيد الذي تدل عليه آيات الكون من رفع السماوات و مد الأرض و تسخير الشمس و القمر و سائر ما يجرى عليه عجائب تدبيره و غرائب تقديره تعالى.

و تدل على حقيه دعوته أيضا أخبار الماضين و آثارهم جاءتهم الرسل بالبينات فكفروا و كذبوا فأخذهم الله بذنوبهم. فهذا ما يتضمنه هذا الكتاب و هو آيه داله على رسالتك.

و قولهم: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» تعريضا منهم للقرآن مردود اليهم أولا- بأنك لست إلا- منذرا و ليس لك من الأمر شيء حتى يقترح عليك بمثل هذه الكلمه و ثانيا أن الهدايه و الإضلال ليسا كما يزعمون في وسع الآيات حتى يرجوا الهدايه من آيه يقترحونها و إنما ذلك الى الله سبحانه يضل من يشاء و يهدي من يشاء على نظام حكيم و أما قولهم: لست مرسلا فيكفيك من الحجه شهاده الله في كلامه على رسالتك و دلاله ما فيه من المعارف الحقه على ذلك.

و من الحقائق الباهره المذكوره في هذه السوره ما يتضمنه قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»

الآيه؛ و قوله: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»، و قوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، و قوله: «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» .

و السوره مكيه كلها على ما يدل عليه سياق آياتها و ما تشتمل عليه من المضامين، و نقل عن بعضهم أنها مكيه إلا آخر آيه منها فإنها نزلت بالمدينه فى عبد الله بن سلام، و عزی ذلك الى الكلبى و مقاتل، و يدفعه أنها محتتم السوره قوبل بها ما فى مفتحتها من قوله: «وَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ» .

و قيل: إن السوره مدنيه كلها إلا آيتين منها و هما قوله: «وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» الآيه؛ و الآيه التى بعدها، و نسب ذلك الى الحسن و عكرمه و قتاده، و يدفعه سياق الآيات بما تشتمل عليه من المضامين فإنها لا تناسب ما كان يجرى عليه الحال فى المدينه و بعد الهجره.

و قيل: إن المدنى منها قوله تعالى: «وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَِّبُهُمْ بِمَا صَيَّرْنَا قَارِعَةً» الآيه؛ و الباقي مكى و كأن القائل اعتمد فى ذلك على قبولها الانطباق على أوائل حال الإسلام بعد الهجره الى الفتح و سيأتى فى بيان معنى الآيه ما يتضح به اندفاعه.

قوله تعالى: المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ الخ؛ الحروف المصدره بها السوره هى مجموع الحروف التى صدرت بها سوره «الم» و سور «الر» كما أن المعارف المبينه فى السوره كأنها المجموع من المعارف المعنيه فى ذينك الصنفين من السور، و فى الرجاء أن نشرح القول فى ذلك فيما سيأتى إن شاء الله العزيز.

و قوله: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ظاهر سياق الآيه و ما يتلوها من الآيات الثلاث على ما بها من الاتصال و هى تعد الآيات الكونيه من رفع السماوات و مد الأرض و تسخير الشمس و القمر و غير ذلك الداله على توحيد الله سبحانه الذى يفصح عنه القرآن الكريم و تندب اليه الدعوه الحقه، و هى تذكر أن التدبر فى تفصيلها و التفكير فيها يورث اليقين بالمبدإ و المعاد و العلم، بأن الذى أنزل الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم حق.

فظاهر ذلك كله أن يكون المراد بالآيات المشار إليها بقوله: «تَلَمَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» الموجودات الكونية و الأشياء الخارجيه المسخره فى النظام العام الإلهى، و المراد بالكتاب هو مجموع الكون الذى هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الكريم بما يشتمل على الآيات الكونية بنوع من العناية و المجاز.

و على هذا يكون فى الآيه إشاره الى نوعين من الدلاله و هما الدلاله الطبيعیه التى تتلبس بها الآيات الكونية من السماء و الأرض و ما بينهما، و الدلاله اللفظیه التى تتلبس بها الآيات القرآنيه المنزله من عنده تعالى الى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم، و يكون قوله: «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» استدراكا متعلق بالجملتين معا أعنى بقوله: «تَلَمَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» و قوله: «وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ» لا بالجمله الأخيره فحسب.

و المعنى -و الله أعلم- تلك الامور الكونيه -و قد أشير بلفظ البعيد دلاله على ارتفاع مكانتها- آيات الكتاب العام الكونى داله على أن الله سبحانه واحد لا شريك له فى ربوبيته و القرآن الذى أنزل اليك من ربك حق ليس بباطل -و اللام فى قوله: «الْحَقُّ» للحصر فتفيد المحوضه -فتلك آيات قاطعه فى دلالتها و هذا حق فى نزوله و لكن أكثر الناس لا يؤمنون، لا بتلك الآيات العينيه و لا بهذا الحق النازل، و فى لحن الكلام شىء من اللوم و العتاب.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب فى المفردات: العمود ما تعتمد عليه الخيمه و جمعه عمد -بضمتين- و عمد -بفتحتين- قال: فى عمد ممده، و قرئ فى عمد، و قال: بغير عمد ترونها انتهى. و قيل: إن العمد بفتحتين اسم جمع للعماد لا جمع.

و المراد بالآيه التذكير بدليل ربوبيته تعالى وحده لا شريك له و أن السماوات مرفوعه بغير عمد تعتمد عليها تدركها أبصاركم و هناك نظام جار و هناك شمس و قمر مسخران يجريان الى أجل مسمى، و لا بد ممن يقوم على هذه الامور فيرفع السماء و ينظم النظام و يسخر الشمس

و القمر و يدبر الأمر و يفصل هذه الآيات بعضها عن بعض تفصيلا فيه رجاء أن توقنوا بقاء ربكم فالله سبحانه هو ذاك القائم بما ذكر من أمر رفع السماوات و تنظيم النظام و تسخير الشمس و القمر و تدبير الأمر و تفصيل الآيات فهو تعالى رب الكل لا رب غيره.

فقوله: الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ هُوَ فَصَلَهَا مِنَ الْأَرْضِ فَصَلًا يَتَسَلَطُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ بِالْقَاءِ أَشْعَتْهَا وَ أَنْزَلَ الْأَمْطَارَ وَ صَوَّعَهَا عَلَيْهَا وَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهِيَ مَرْفُوعَةٌ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ مَحْسُوسَةٍ لِلْإِنْسَانِ تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَتَّنَ أَنْ لَهَا رَافِعًا حَافِظًا لَهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ مَكَانِهَا مَمْسُكًا لَهَا أَنْ تَزُولَ مِنْ مَسْتَقَرِّهَا.

و قوله: ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْعَرْشِ وَ الْاسْتَوَىٰ وَ التَّسَخِيرُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ الْآيَةِ ٥٤.

و قوله: كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَي كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّعَيَّنٍ يَقِفُ عِنْدَهُ وَ لَا يَتَعَدَاهُ كَذَا قِيلَ وَ مِنَ الْجَائِزِ بَلِ الرَّاجِحُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ الْمَحذُوفُ ضَمِيرَ جَمْعٍ رَاجِعًا إِلَىٰ الْجَمِيعِ وَ الْمَعْنَى كُلٌّ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِنَّ حَكْمَ الْجَرِيِّ وَ الْحَرَكَةَ وَ عَامَ مَطْرَدٍ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَجْسَامِ.

و قد تقدم الكلام في معنى الأجل المسمى في تفسير سورة الأنعام الآية ١ فراجع.

و قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ التَّدْبِيرُ هُوَ الْإِتْيَانُ بِالشَّيْءِ عَقِيبَ الشَّيْءِ وَ يَرَادُ بِهِ تَرْتِيبُ الْأَشْيَاءِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْمُخْتَلَفَةِ وَ نَظْمُهَا بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الْخَاصِّ بِهِ بِحَيْثُ يَلْحَقُ بِكُلِّ مِنْهَا مَا يَقْصَدُ بِهِ مِنَ الْغَرَضِ وَ الْفَائِدَةِ وَ لَا يَخْتَلُ الْحَالُ بِتَلَاشِي الْأَصْلِ وَ تَفَاسِدِ الْأَجْزَاءِ وَ تَزَاحِمِهَا يُقَالُ: دَبَّرَ أَمْرَ الْبَيْتِ أَي نَظَّمَ أُمُورَهُ وَ التَّصَرُّفَاتِ الْعَائِدَةَ إِلَيْهِ بِحَيْثُ أَدَّى إِلَىٰ صِلَاحِ شَأْنِهِ وَ تَمَتَّعَ أَهْلُهُ بِالْمَطْلُوبِ مِنْ فَوَائِدِهِ.

فتدبير أمر العالم نظم أجزائه نظما جيدا متقنا بحيث يتوجه به كل شيء الى غاية المقصوده منه و هي آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به و منتهى ما ينساق اليه من الأجل المسمى،

و تدبير الكل إجراء النظام العام العالمى بحيث يتوجه الى غايته الكليه و هى الرجوع الى الله و ظهور الآخره بعد الدنيا.

و قوله: يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ظاهر السياق أن المراد بالآيات هى الآيات الكونيه فالمراد بتفصيلها هو تمييز بعضها من بعض و فتحها بعد رتقها، و هذا من سنته تعالى يفصل الأشياء و يميز كل شىء من كل شىء و يخرج من كل شىء ما هو كامن فيه مستخف فى باطنه فيفصل به النور من الظلمه و الحق من الباطل و الخير من الشر و الصالح من الطالح و المثيب من المجرم.

و لذا عقبه بقوله: «لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» فإن يوم اللقاء هو الساعه التى سماها الله بيوم الفصل و وعد فيه تمييز المتقين من المجرمين و الفجار قال: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (الدخان ٤٠)، و قال: وَ ائْتَاؤُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ٥٩)، و قال:

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (الأنفال ٣٧).

و فى قوله: لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءِ رَبِّكُمْ و لم يقل: لعلكم بلقائه، و وضع الظاهر موضع المضمرة و الوجه فيه الإصرار على تثبيت الربوبيه و التأكيد له و الإشاره الى أن الذى خلق العالم و دبر أمره فصار ربا له هو رب لكم أيضا فلا رب إلا رب واحد لا شريك له.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَّدَ الْبَارِئَاتِ وَ جَعَلَ فِيهَا رُؤُوسًا وَ أَنْهَارًا الى آخر الآيه؛ الرواسى جمع راسيه من رسى إذا ثبت و قر، و المراد بها الجبال لثباتها فى مقرها، و الزوج خلاف الفرد و يطلق على مجموع الأمرين و على أحدهما فهما زوج و هما زوجان، و ربما يقيد الزوجان باثنين تأكيداً للدلاله على أن المراد هو اثنان لا أربعة كما فى الآيه.

و قوله: هُوَ الَّذِي مَرَّدَ الْبَارِئَاتِ أى بسطها بسطا صالحا لأن يعيش فيه الحيوان و ينبت فيه الزرع و الشجر، و الكلام فى نسبه مد الأرض اليه تعالى و كونه كالتوطئه و التمهيد لما



يلحق به من قوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا» الخ؛ نظير الكلام في قوله في الآية السابقة:

«اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» .

وقوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا» الضمير للأرض والكلام مسوق بحيث يستتبع بعض أجزائه بعضا والغرض -والله أعلم- بيان تدبيره تعالى أمر سكنه الأرض من إنسان وحيوان في حركته لطلب الرزق و سكونه للارتياح فقد مد الله سبحانه الأرض و لو لا ذلك لم يصلح لبقاء نوع الإنسان و الحيوان و لو كانت ممدوده فحسب من غير ارتفاع و انخفاض في سطحها لم تصلح لظهور ما ادخر فيها من خزائن الماء على سطحها لشرب الزروع و البساتين فجعل سبحانه فيها الجبال الرواسي و ادخر فيها ما ينزل على الأرض من ماء السماء و شق من أطرافها أنهارا و فجر منها عيوننا مطله على السهل تسقى الزروع و الجنان فيخرج به ثمرات مختلفه حلوه و مره صيفه و شتويه بريه و أهليه، و سلط على وجه الأرض الليل و النهار و هما عاملان قويان في رشد الأثمار و الفواكه بتسليط الحرارة و البروده المؤثرتين في النضج و النمو و الانبساط و الانقباض، و تسليط الضوء و الظلمه النظامين لحركه الدواب و الإنسان و سعيهما في طلب الرزق و سكونهما للنوم و الرقده.

فمد الأرض يسهل الطريق لجعل الجبال الرواسي و ذلك لشق الأنهار و ذلك لجعل الثمرات المزدوجه المختلفه و بالليل و النهار يتم المطلوب و في ذلك كله تدبير متصل متحد يكشف عن مدبر حكيم واحد لا شريك له في ربوبيته، و إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

وقوله: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أَى و من جميع الثمرات الممكنه الكينونه جعل في الأرض أنواعا متخالفه نوعا يخالف آخر كالصيفي و الشتوي و الحلو و غيره و الرطب و اليابس.

هذا هو المعروف في تفسير زوجين اثنين فالمراد بالزوجين الصنف يخالفه صنف آخر سواء كانا صنفين لا ثالث لهما أم لا، نظير ما تأتي فيه التشبيه للتكرير كقوله تعالى: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ

كَرَّتَيْنِ (الملك ١٤) أريد به الرجوع كره بعد كره و إن بلغ من الكثرة ما بلغ (١).

وقوله: يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ أى يلبس ظلمه الليل ضوء النهار فيظلم الهواء بعد ما كان مضيئا، و ذكر بعضهم أن المراد به إغشاء كل من الليل و النهار غيره و تعقيب الليل النهار و النهار الليل، و لا قرينه تدل على ذلك.

ثم ختم الآية بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فإن التفكير فى النظام الجارى عليها الحاكم فيها القاضى باتصال بعضها ببعض و تلاؤم بعضها مع بعض المؤدى الى توجه المجموع و كل جزء من أجزائها الى غايات تخصصها يكشف عن ارتباطها بتدبير واحد عقلى فى غايه الإتقان و الإحكام فيدل على أن لها ربا واحدا لا شريك له فى ربوبيته عليما لا يعتريه جهل قديرا لا يغلب فى قدرته ذا عنايه بكل شىء و خاصه بالإنسان يسوقه الى ما فيه سعاده الخالده.

قوله تعالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَّبِعٌ ۖ أَوْرَاقٌ وَجَذَبَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِهْرٌ وَغَيْرُ صِهْرٍ ۚ تَوَّانٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجره يقال: هما صنوا نخله و فلان صنو أبيه و التثنيه صنوان و جمعه صنوان قال تعالى:

صنوان و غير صنوان. انتهى، و قال: و الاكل لما يؤكل بضم الكاف و سكونه قال تعالى «أَكُلُهُمْ دَائِمٌ» و الأكله للمره و الأكله كاللقمه. انتهى.

و المعنى أن من الدليل على أن هذا النظام الجارى قائم بتدبير مدبر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها و يجريها على ما يشاء و كيف يشاء أن فى الأرض قطعاً متجاورات متقاربه بعضها من بعض متشابهه فى طبع ترابها و فيها جنات من أعناب و العنب من الثمرات التى تختلف اختلافا عظيما فى الشكل و اللون و الطعم و المقدار و اللطافه و الجوده و غير ذلك، و فيها زرع مختلف فى

ص: ٣٥٥

(١-١). الرعد ١-٤: بحث فى معنى «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» فى قوله تعالى: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» .

جنسه و صنفه من القمح و الشعير و غير ذلك، و فيها نخيل صنوان أى أمثال نابته على أصل مشترك فيه و غير صنوان أى متفرقه تسقى الجميع من ماء واحد و نفضل بعضها على بعض بما فيه من المزيه المطلوبه فى شىء من صفاته.

## [سوره الرعد (١٣): الآيات ٥ الى ٦]

### اشاره

وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْتَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)

### بيان:

قوله تعالى: وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع: العجب و التعجب هجوم ما لا يعرف سببه على النفس الغسل طوق تشد به اليد الى العنق انتهى.

أشار تعالى فى مفتتح كلامه الى حقيقه ما أنزله الى نبيه من معارف الدين فى كتابه ملوحا الى أن آيات التكوين تهدي اليه و تدل عليه و أصولها التوحيد و الرساله و البعث ثم فصل القول فى دلالة الآيات التكوينية على ذلك و استنتج من حجج ثلاث ذكرها توحيد الربوبيه و البعث بالتصريح، و يستلزم ذلك حقيقه الرساله و الكتاب المنزل الذى هو آيتها، فلما اتضح ذلك و استنار تمهدت الطريق لذكر شبه الكفار فيما يرجع الى الاصول الثلاثه فأشار فى هذه الآيه الى

شبهتهم فى البعث و سيتعرض لشبههم و أقاويلهم فى الرساله و التوحيد فى الآيات التالیه.

و شبهتهم فى ذلك قولهم: «أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» أوردته بعنوان أنه عجب أخرى به أن يتعجب منه لظهور بطلانه و فساده ظهورا لا- مسوغ لإنسان سليم العقل أن يرتاب فيه فلو تفوه به إنسان لكان من موارد العجب فقال: «وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ» الخ.

و معنى الجملة على ما يرشد إليه حذف متعلق «تَعَجَّبَ» إن تحقق منك تعجب-و لا- محاله يتحقق لأن الإنسان لا يخلو منه- فقولهم هذا عجيب يجب أن يتعلق به تعجبك، فالتركيب كناية عن وجوب التعجب من قولهم هذا لكونه قولا ظاهر البطلان لا يميل إليه ذولب و حجى.

و قولهم: «أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» مرادهم من التراب بقريته السياق ما يصير إليه بدن الإنسان بعد الموت من صورته التراب و ينعدم عند ذلك الإنسان الذى هو الهيكل اللحمى الخاص المركب من أعضاء خاصه المجهز بقوى ماديه على زعمهم و كيف يشمل الخلقه أمرا منعدا من أصله فيعود مخلوقا جديدا؟.

و لشبهتهم هذه جهات مختلفه أجب الله سبحانه فى كلامه عن كل واحده منها بما يناسبها و يحسم مادتها:

فمنها: استبعاد أن يستحيل التراب إنسانا سويا، و قد أجب عنه بأن إمكان استحاله المواد الأرضيه منيا ثم المنى علقه ثم العلقه مضغه ثم المضغه بدن إنسان سوى و وقوع ذلك بعد إمكانه لا يدع ريبا فى جواز صيروره التراب ثانيا إنسانا سويا قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ الْآيَه، (الحج ٥).

و منها: استبعاد إيجاد الشئ بعد عدمه. و أجب بأنه مثل الخلق الاول فليجز كما جاز قال

تعالى: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (يس ٧٩).

و منها: أن الإنسان تنتفى ذاته بالموت فلا ذاته بالموت فلا ذات حتى تتلبس بالخلق الجديد و لا إنسان بعد الموت و الفوت إلا في تصور المتصور دون الخارج بنحو.

و قد أوجب في كلامه تعالى عنه بيان أن الإنسان ليس هو البدن المركب من عده أعضاء ماديه حتى ينعدم من أصله بطلان التركيب و انحلاله بل حقيقته روح علويه-و إن شئت قلت: نفس-متعلق بهذا المركب المادي تستعمله في أغراضه و مقاصده و بها حياه البدن يبقى بها الإنسان محفوظ الشخصيه و إن تغير بدنه و تبدل بمرور السنين و مضى العمر ثم الموت هو أن يأخذها الله من البدن و تقطع علقته به ثم البعث هو أن يجدد الله خلق البدن و تعليقها به و هو القيام لله لفصل القضاء.

قال تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ أُولَىٰ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الم السجده ١١) يقول إنكم بالموت لا تضلون في الأرض و لا تنعدمون بل الملك الموكل بالموت يأخذ الأمر الذي تدل عليه لفظه «كم» و«نا» و هي النفوس فتبقى في قبضته و لا تضل ثم إذا بعثتم ترجعون الى الله بلحوق أبدانكم الى نفوسكم و أنتم انتم.

فلإنسان حياه باقيه غير محدوده بما في هذه الدنيا الفانيه و له عيشه في دار اخرى باقيه ببقاء الله و لا يتمتع في حياته الثانيه إلا بما يكتسبه في حياته الاولى من الإيمان بالله و الأعمال الصالحه و يعده في يومه لغده من مواد السعاده فإن اتبع الحق و آمن بآيات الله سعد في أخراه بكرامه القرب و الزلفى و ملك لا- يبلى، و إن أخلد الى الأرض و انكب على الدنيا و أعرض عن الذكرى بقى في دار الشقاء و البوار و غل بأغلال الخيبه و الخسران في مهبط اللعن و حضيض البعد و كان من أصحاب النار.

و إذا عرفت هذا الذى قدمناه و تأملته تأملا كافيا بأن لك أن قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الى آخر الآيه؛ ليس بمجرد تهديد بالعذاب لهؤلاء القائلين «أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» على ما يتخيل فى بادئ النظر بل جواب بلازم القول.

توضيح ذلك أن لازم قولهم: إن الإنسان إذا مات و صار ترابا بطلت الإنسانيه و انعدمت الشخصيه أن يكون الإنسان صوره ماديه قائمه بهذا الهيكل البدنى المادى العائش بحياه ماديه من غير أن تكون له حياه اخرى خالده بعد الموت يبقى فيها بقاء الرب تعالى و يسعد بقربه و يفوز عنده و بعباره اخرى تكون حياته محدوده بهذه الحياه الماديه غير أن تنبسط على ما بعد الموت و تدوم أبدا، و هذا فى الحقيقه إنكار للعالم الربوبى إذ لا معنى لرب لا معاد اليه.

و لازم ذلك أن يقصر الإنسان همه فى المقاصد الدنيويه و الغايات الماديه من غير أن يرتقى فهمه الى ما عند الله من النعيم المقيم و الملك العظيم فيسعى لقربه تعالى و يعمل فى يومه لغده كالمغلول الذى لا يستطيع حراكا و لا يقدر على السعى لواجب أمره.

و لازم ذلك أن يثبت الإنسان فى شقاء لازم و عذاب دائم فإنه افسد استعداد السعاده و قطع الطريق و هذه اللوازم الثلاث هى التى أشار تعالى اليه بقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ.

فقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ إشارة الى اللازم الأول و هو إعراض منكرى المعاد عن العالم الربوبى و الحياه الباقية و الستر على ما عند الله من النعيم المقيم و الكفر به.

و قوله: وَ أُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ إشارة الى اللازم الثانى و هو الإخلاق الى الأرض و الركون الى الهوى و التقيد بقيود الجهل و أغلال الجحد و الإنكار، و قد مر فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا لِّلآيَةِ، (البقره ٢٦) فى الجزء الأول من الكتاب كلام فى كون هذه التعبيرات القرآنيه حقائق او مجازات فراجع اليه.

و قوله: أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إشارة الى اللازم الثالث و هو مكثهم فى العذاب و الشقاء.

قوله تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال في المجمع: الاستعجال طلب التعجيل بالأمر و التعجيل تقديم الأمر قبل وقته، و السيئه خصله تسوء النفس و نقيضها الحسنه و هي خصه تسر النفس، و المثالات العقوبات واحدها مثله بفتح الميم و ضم الثاء، و من قال في الواحد: مثله بضم الميم و سكون الثاء قال في الجمع: مثلات بضميتين نحو غرفه و غرفات، و قيل في المجمع: مثلات و مثلات-أى بسكون الثاء و فتحها-انتهى.

و قال الراغب في المفردات: المثله نغمه تنزل بالإنسان فيجعل مثالا يرتدع به غيره و ذلك كالنكال و جمعه مثلات و مثلات-أى بضم الميم أو فتحها و ضم الثاء- و قد قرئ: من قبلهم المثالات، و المثالات بإسكان الثاء على التخفيف نحو عضد و عضد. انتهى.

و قوله: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ضمير الجمع للذين كفروا المذكورين في الآيه السابقه، و المراد باستعجالهم بالسيئه قبل الحسنه سؤالهم نزول العذاب اليهم استهزاء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ قبل سؤال الرحمه و العافيه، و الدليل عليه قوله: «وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ» - و الجملة في موضع الحال- فإن المراد به العقوبات النازله على الأمم الماضين القاطعه لدابرهم.

و المعنى: يسألك الذين كفروا أن تنزل عليهم العقوبه الإلهيه قبل الرحمه و العافيه بعد ما سمعوك تنذرهم بعذاب الله استهزاء و هم على علم بالعقوبات النازله قبلهم على الامم الماضين الذين كفروا برسلهم و الآيه في مقام التعجيب.

و قوله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ استئناف أو في موضع الحال، و يفيد بيان السبب في كون استعجالهم أمرا عجيبا أى إن ربك ذو رحمه واسع و تسع الناس في جميع أحوالهم حتى حال ظلمهم و ذو غضب شديد و قد سبقت رحمته غضبه فما بالهم يعرضون عن وسيع رحمته و مغفرته و يسألون شديد عقابه و هم

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٧ الى ١٦]

اشاره

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ  
الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ  
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ  
حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ  
السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي  
اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ  
وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)  
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)



قوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ليس المراد بهذه الآية الآيه القاضيه بين الحق و الباطل المهلكه للامه و هى المذكوره فى الآيه السابقه بقوله: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» بأن يكون تكرارا لها و ذلك لعدم إعانه السياق على ذلك، و لو أريد ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: و يقولون لولا «الخ».

بل المراد أنهم يقترحون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آيه أخرى غير القرآن تدل على صدقه فى دعوى الرساله و كانوا يحقرون أمر القرآن الكريم و لا يعبثون به و يسألون آيه أخرى معجزه كما أوتى موسى و عيسى و غيرهما عليهم السلام فكان فى قولهم: «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» تعريض منهم للقرآن.

و أما قوله: إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ فإعطاء جواب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و فى

توجيه الخطاب اليه دونهم و عدم أمره أن يبلغ الجواب إياهم تعريض لهم أنهم لا يستحقون جوابا لعدم فقههم به و فقدهم القدر اللازم من العقل و الفهم و ذلك أن اقتراحهم الآيه مبنى على زعمهم- كما يدل عليه كثير مما حكى عنهم القرآن فى هذا الباب على أن من الواجب أن يكون للرسول قدره غيبه مطلقه على كل ما يريد فله أن يوجد ما أراد و عليه أن يوجد ما أريد منه.

و الحال أن الرسول ليس إلا بشرا مثلهم أرسله الله اليهم لينذرهم عذاب الله و يحذرهم أن يستكبروا عن عبادته و يفسدوا فى الأرض بناء على السنه الإلهيه الجاريه فى خلقه أنه يهدى كل شىء الى كماله المطلوب و يدل عبادته على ما فيه صلاح معاشهم و معادهم.

فالرسول بما هو رسول بشر مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و ليس عليه إلا تبليغ رساله ربه و أما الآيات فأمرها الى الله ينزلها إن شاء و كيف شاء فاقترحها على الرسول جهل محض.

فالمعنى: أنهم يقترحون عليك آيه- و عندهم القرآن أفضل آيه- و ليس اليك شىء من ذلك و إنما أنت هاد تهديهم من طريق الإنذار و قد جرت سنه الله فى عبادته أن يبعث فى كل قوم هاديا يهديهم.

و الآيه تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدى الناس الى الحق إما نبي منذر و إما هاد غيره يهدى بأمر الله و قد مر بعض ما يتعلق بالمقام فى أبحاث النبوه فى الجزء الثانى و فى أبحاث الإمامه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ قَالَ فى المفردات: غاض الشىء و غاضه غيره نحو نقص و نقصه غيره قال تعالى «وَ غِيضَ الْمَاءِ» «وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ» أى تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذى تبتلعه الأرض و الغيضة المكان الذى يقف فيه الماء فيبتلعه و ليله غائضه أى

و على هذا فالأنسب أن تكون الامور الثلاثه المذكوره فى الآيه أعنى قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ و ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ و ﴿مَا تَزِدَادُ﴾ إشاره الى ثلاثه من أعمال الأرحام فى أيام الحمل فما تحمله كل أنثى هو الجنين الذى تعيه و تحفظه و ما تغيضه الأرحام هو دم الحيض تنصب فيها فتصرفه الرحم فى غذاء الجنين، و ما تزداده هو الدم التى تدفعها الى خارج كدم النفاس و الدم أو الحمرة التى تراها أيام الحمل أحيانا و هو الذى يظهر من بعض ما روى عن أئمه أهل البيت عليهم السلام و ربما ينسب الى ابن عباس.

و قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ المقدار هو الحد الذى يحد به الشىء و يتعين و يمتاز به من غيره إذ لا ينفك الشىء الموجود عن تعين فى نفسه و امتياز من غيره و لو لا ذلك لم يكن موجودا البته.

و هذا المعنى أعنى كون كل شىء مصاحبا لمقدار و قرينا لحد لا يتعداه حقيقه قرآنيه تكرر ذكرها فى كلامه تعالى كقوله: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (الطلاق ٣)، و قوله:

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١) و غير ذلك من الآيات.

فإذا كان الشىء محدودا بحد لا يتعداه و هو مضروب عليه ذلك الحد عند الله و بأمره و لن يخرج من عنده و إحاطته و لا يغيب عن علمه شىء كما قال: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج ١٧) و قال: أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (حم السجده ٥٤)، و قال: لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ (السبأ ٣) فمن المحال أن لا يعلم تعالى ما تحمل كل أنثى و ما تغيض الأرحام و ما تزداد.

فذيل الآيه أعنى قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ تعليل لصدرها أعنى قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ الخ؛ و الآيه و ما يتلوها كالتدليل للآيه السابقه أن الله يعلم بكل شىء و يقدر

على كل شيء و يجب الدعوه و يخضع له كل شيء فهو أحق بالربوبيه فإليه أمر الآيات لا إليك و إنما أنت منذر.

قوله تعالى: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ الْغَيْبِ** و الشهاده كما سمعت مرارا معنيان إضافيان فالشيء الواحد يمكن أن يكون غيبا بالنسبه الى شيء و شهاده بالنسبه الى آخر و ذلك أن الاشياء-كما تقدم-لا تخلو من حدود تلزمها و لا تنفك عنها فما كان من الاشياء داخلا في حد الشيء غير خارج عنه فهو شهاده بالنسبه اليه مشهود لإدراكه و ما كان خارجا عن حد الشيء غير داخل فيه فهو غيب بالنسبه اليه غير مشهود لإدراكه.

و من هنا يظهر أن الغيب لا يعلم به إلا الله سبحانه أما أنه لا يصير معلوما لشيء فلأن العلم نوع إحاطه و لا معنى لإحاطه الشيء بما هو خارج عن حد وجوده أجنبي عن إحاطته،و أما أنه تعالى يعلم الغيب فلأنه تعالى غير محدود الوجود بحد و هو بكل شيء محيط فلا يمتنع شيء عنه بحده فلا يكون غيبا بالنسبه اليه و الى فرض أنه غيب بالنسبه الى غيره.

فيرجع معنى علمه بالغيب و الشهاده بالحقيقه الى أنه لا غيب بالنسبه اليه بل الغيب و الشهاده اللذان يتحققان فيما بين الأشياء بقياس بعضها الى بعض هما معا شهادتان بالنسبه اليه تعالى،و يصير معنى قوله: **«عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ»** أن الذي يمكن أن يعلم به أرباب العلم و هو الذي لا يخرج عن حد وجودهم و الذي لا يمكن أن يعلموا به لكونه غيبا خارجا عن حد وجودهم هما معا معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكل شيء.

و قوله: **الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** اسمان من أسمائه تعالى الحسنی،و الكبر و يقابله الصغر من المعاني المتضايفه فإن الأجسام إذا قيس بعضها الى بعض من حيث حجمها المتفاوت فما احتوى على مثل حجم الآخر و زياده كان كبيرا و ما لم يكن كذلك كان صغيرا ثم توسعوا فاعتبروا ذلك في غير الأجسام،و الذي يناسب ساحه قدسه تعالى من معنى الكبرياء أنه تعالى يملك كل كمال لشيء و يحيط به فهو تعالى كبير أى له كمال كل ذى كمال و زياده.

و المتعال صفه من التعالى و هو المبالغه فى العلو كما يدل عليه قوله: **تَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** (الإسراء ٤٣) فإن قوله: «عُلُوًّا كَبِيرًا» مفعول مطلق لقوله: **تَعَالَىٰ** و موضوع فى محل قولنا: «تعاليا» فهو سبحانه على و متعال أما أنه على فلأنه علا كل شىء و تسلط عليه و العلو هو التسلط، و أما أنه متعال فلأن له غايه العلو لأن علوه كبير بالنسبه الى كل علو فهو العالى المتسلط على كل عال من جهه.

و من هنا تظهر النكته فى تعقيب قوله: **عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ** بقوله: **الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ** لأن مفاد مجموع الاسمين أنه سبحانه محيط بكل شىء متسلط عليه و لا يتسلط عليه و لا يغلبه شىء من جهه البتة فهو يعلم الغيب كما يعلم الشهاده و لا يتسلط عليه و لا يغلبه غيب حتى يعزى عن علمه بغيبته كما لا يتسلط عليه شهاده فهو عالم الغيب و الشهاده لأنه كبير متعال.

قوله تعالى: **سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ** السرب بفتح السين و السروب الذهاب فى حدور و سيلان الدمع و الذهاب فى مطلق الطريق يقال سرب سربا و سروبا نحو مر مرا و مرورا. كذا فى المفردات فالسارب هو الذهاب فى طريق المعلى بنفسه.

و الآيه كالتفريع على الآيه السابقه أى إذا كان الله سبحانه عالما بالغيب و الشهاده على سواء فسواء منكم من أسر القول و من جهر به أى بالقول و الله سبحانه يعلم بقولهما و يسمع حديثهما من غير أن يخفى عليه إسرار من أسر بقوله، و سواء منكم من هو مستخف بالليل يستمد بظلمه الليل و إرخاء سدولها لأن يخفى من أعين الناظرين و من هو سارب بالنهار ذاهب فى طريقه متبرز غير مخل لنفسه فالله يعلم بهما من غير أن يخفى المستخفى بالليل بمكيدته.

قوله تعالى: **لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** الخ؛ ظاهر السياق أن الضمائر الأربع «لَهُ» «يَدَيْهِ» «خَلْفِهِ» «يَحْفَظُونَهُ» مرجعها واحد و لا

مرجع يصلح لها جميعا إلا- ما فى الآيه السابقه أعنى الموصول فى قوله: «مَنْ أَسِيرَ الْقَوْلِ» الخ؛ فهذا الإنسان الذى يعلم به الله سبحانه فى جميع أحواله هو الذى له معقبات من بين يديه و من خلفه.

و تعقيب الشىء إنما يكون بالمجىء بعده و الإتيان من عقبه فتوصيف المعقبات بقوله: «مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» إنما يتصور إذا كان سائرا فى طريق، ثم طاف عليه المعقبات حوله و قد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائرا هذا السير بقوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق ٦) و فى معناه سائر الآيات الداله على رجوعه الى ربه كقوله:

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس ٨٣) وَ إِلَيْهِ تُقَلَّبُونَ (العنكبوت ٢١) فللإنسان و هو سائر الى ربه معقبات تراقبه من بين يديه و من خلفه.

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ» الخ؛ يدل بالجملة على أن الله قضى قضاء حتم بنوع من التلازم بين النعم الموهوبه من عنده للإنسان و بين الحالات النفسية الراجعه الى الإنسان الجارية على استقامه الفطره فلو جرى قوم على استقامه الفطره و آمنوا بالله و عملوا صالحا أعقبهم نعم الدنيا و الآخره كما قال: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا (الأعراف ٩٦) و الحال ثابتة فيهم دائمه عليهم ما داموا على حالهم فى أنفسهم فإذا غيروا حالهم فى أنفسهم غير الله سبحانه حالهم الخارجيه بتغيير النعم نقما.

و أما قوله تعالى: وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ فَإِنَّمَا دَخَلَ فِي الْحَدِيثِ لَا بِالْقصد الأولى لكنه تعالى لما ذكر أن كل شىء عنده بمقدار و أن لكل إنسان معقبات يحفظونه بأمره من أمره و لا يدعونيه يهلك أو يتغير أو يضطرب فى وجوده و النعم التى اوتيتها، و هم على حالهم من الله لا يغيرها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم و جب أن يذكر أن هذا التغيير من السعاده الى الشقاء و من النعمه الى النقمه أيضا من الامور المحكمه المحتومه التى

ليس لمانع أن يمنع من تحققها، وإنما أمره الى الله لا حظ فيه لغيره، وبذلك يتم أن الناس لا مناص لهم من حكم الله في جانبي الخير و الشر و هم مأخوذ عليهم و في قبضته.

فالمعنى: و إذا أراد الله بقوم سوء لا يريد ذلك إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من سمات معبوديه و مقتضيات الفطره فلا مرد لذلك السوء من شقاء أو نقمه أو نكال.

ثم قوله: **وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ عَظْفٌ تَفْسِيرِي عَلَى قَوْلِهِ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ»** و يفيد معنى التعليل له فإنه إذا لم يكن لهم من وال يلي أمرهم إلا الله سبحانه لم يكن هناك أحد يرد ما أراد الله بهم من السوء.

فقد بان من جميع ما تقدم أن معنى الآية-على ما يعطيه السياق-و الله أعلم-أن لكل من الناس على أى حال كان معقبات يعقبونه فى مسيره الى الله من بين يديه و من خلفه أى فى حاضر حاله و ماضيه يحفظونه بأمر الله من أن يتغير حاله بهلاك أو فساد أو شقاء بأمر آخر من الله، و هذا الأمر الآخر الذى يغير الحال إنما يؤثر أثره إذا غير قوم ما بأنفسهم فعند ذلك يغير الله ما عندهم من نعمه و يريد بهم السوء و إذا أراد بقوم سوء فلا- مرد له لأنهم لا-والى لهم يلي أمرهم من دونه حتى يرد ما أراد الله بهم من سوء (1).

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبُرُوقَ حَافًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ السَّحَابِ** بفتح السين جمع سحابه بفتحها و لذلك وصف بالثقال.

و الإبراء إظهار ما من شأنه أن يحس بالبصر للمبصر ليصره أو جعل الإنسان على صفه الرؤيه و الإبصار، و التقابل بين قوله: «يُرِيكُمُ» و قوله: «يُنْشِئُ» يؤيد المعنى الأول.

و قوله: **حَافًا وَ طَمَعًا** مفعول له أى لتخافوا و تطمعوا، و يمكن أن يكون مصدرين بمعنى الفاعل حالين من ضمير «كم» أى خائفين و طامعين.

ص: ٣٦٨

و المعنى: هو الذى يظهر لعيونكم البرق ليظهر فيكم صفتا الخوف و الطمع كما أن المسافر يخافه و الحاضر يطمع فيه، و أهل البحر يخافونه و أهل البر يطمعون فيه و يخاف صاعقته و يطمع فى غيئه، و يخلق بإنشائه السحابات التى تثقل بالمياه التى تحملها، و فى ذكر آيه البرق بالإرءاءه و آيه السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

قوله تعالى: **وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ** الخ؛ الصواعق جمع صاعقه و هو القطعه الناريه النازله من السماء عن برق و رعد، و الجدل المفاوضه و المنازعه فى القول على سبيل المغالبه، و أصله من جدلت الجبل إذا أحكمت فتله، و المحال بكسر الميم مصدر ماحله يماحله إذا ماكره و قاواه ليتبين أيهما أشد و جادله لإظهار مساويه و معائبه فقوله: **«وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ»** معناه- و الله أعلم- أن الوثنيين- و اليهم وجه الكلام فى إلقاء هذه الحجج- يجادلون فى ربوبيته تعالى بتلفيق الحجج على ربوبيه أربابهم كالتمسك بدأب آبائهم و الله سبحانه شديد المماحله لأنه عليهم بمساويهم و معائبهم قدير على إظهارها و فضاحتهم.

قوله تعالى: **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الدعاء و الدعوه توجيه نظر المدعو الى الداعى و يتأتى غالبا بلفظ أو إشاره، و الاستجابه و الإجابه إقبال المدعو على الداعى عن دعائه، و أما اشتمال الدعاء على سؤال الحاجه و اشتمال الاستجابه على قضائها فذلك غايه متممه لمعنى الدعاء و الاستجابه غير داخله فى مفهوميهما.**

نعم: الدعاء إنما يكون دعاء حقيقه إذا كان المدعو ذا نظر يمكن أن يوجه الى الداعى و ذا جده و قدره يمكنه بهما استجابته الدعاء و أما دعاء من لا يفقه أو يفقه و لا يملك ما ترفع به الحاجه فليس بحق الدعاء و إن كان فى صورته.

و لما كانت الآيه الكريمه قرر فيها التقابل بين قوله: **«لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ»** و بين قوله: **«وَ الَّذِينَ»**



يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الخ؛ الذى يذكر أن دعاء غيره خال عن الاستجابة ثم يصف دعاء الكافرين بأنه فى ضلال علمنا بذلك أن المراد بقوله: «دَعْوَةُ الْحَقِّ» الدعوه الحقه غير الباطله و هى الدعوه التى يسمعها المدعو ثم يستجيبها البته، و هذا من صفاته تعالى و تقدس فإنه سميع الدعاء قريب مجيب و هو الغنى ذو الرحمه و قد قال: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره/ ١١٦) و قال: أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (المؤمن ٦٠) فأطلق و لم يشترط فى الاستجابة إلا أن تتحقق هناك حقيقه الدعاء و أن يتعلق ذلك الدعاء به تعالى لا غير.

فلفظه دعوه الحق من إضافه الموصوف الى الصفه أو من الإضافه الحقيقيه بعنايه أن الحق و الباطل كأنهما يقتسمان الدعاء فقسم منه للحق و هو الذى لا يتخلف عن الاستجابة، و قسم منه للباطل و هو الذى لا يهتدى الى هدف الإجابة كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابة.

فهو تعالى لما ذكر فى الآيات السابقه أنه عليم بكل شىء و أن له القدره العجيبه ذكر فى هذه الآيه أن له حقيقه الدعاء و الاستجابة فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير، و قد ذكر ذلك فى الآيه بطريقتى الإثبات و النفى أعنى إثبات حق الدعاء لنفسه و نفيه عن غيره.

و مثل من يدعو غير الله سبحانه مثل هذا الباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه و ليس له من الدعاء إلا صورته الخاليه من المعنى و اسمه من غير مسمى فهؤلاء المدعوون من دون الله لا يستجيبون للذين يدعونهم بشىء و لا يقضون حاجتهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه و يقضى حاجته أى لا يحصل لهم إلا صوره الدعاء كما لا يحصل لذلك الباسط إلا صورته الطلب ببسط الكفين.

و من هنا يعلم أن هذا الاستثناء «إِلَّا كَبَّاسِطِ كَفَيْهِ» الخ؛ لا ينتقض به عموم النفى فى المستثنى منه و لا يتضمن إلا صوره الاستثناء فهو يفيد تقويه الحكم فى جانب المستثنى منه فإن مفاده أن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه الى

الماء و لن يستجاب له، و بعبارة أخرى لن ينالوا بدعائهم إلا أن لا ينالوا شيئاً أى لن ينالوا شيئاً البتة.

و هذا من لطيف كلامه تعالى و يناظر من وجه قوله تعالى الآتى: «قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» و أكد منه كما سيجىء إن شاء الله.

ثم أكد سبحانه الكلام بقوله: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» مع ما فيه من الإشارة الى حقيقة أصيله أخرى و هى أنه لا غرض لدعاء إلا الله سبحانه فإنه العليم القدير و الغنى ذو الرحمه فلا طريق له إلا طريق التوجه اليه تعالى فمن دعا غيره و جعله الهدف لدعائه فقد الارتباط بالغرض و الغايه و خرج بذلك عن الطريق فضل دعاؤه فإن الضلال هو الخروج عن الطريق و سلوك ما لا يوصل الى المطلوب.

قوله تعالى: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ السُّجُودِ الْخُرُورِ عَلَى الْأَرْضِ بوضع الجبهه أو الذقن عليها قال تعالى وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا (يوسف ١٠٠/)، و قال يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (الإسراء ١٠٧/). و الواحد منه سجده.

و الكره ما يأتى به الإنسان من الفعل بمشقه فإن حمل عليه من خارج فهو الكره بفتح الكاف و ما حمل عليه من داخل نفسه فهو الكره بضمها و الطوع يقابل الكره مطلقاً.

و قال الراغب: الغدوه و الغداه من أول النهار، و قوبل فى القرآن الغدو بالآصال نحو قوله:

«بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» و قوبل الغداه بالعشى قال «بِالْغُدَاهِ وَالْعَشِيِّ» انتهى و الغدو جمع غداه كقنى و قناه و قال فى المجمع: الآصال جمع أصل -بضمين- و أصل جمع أصيل فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل فكأنه أصل الليل الذى ينشأ منه و هو ما بين العصر الى مغرب الشمس.

انتهى.

و أما قوله: «و ظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» ففيه إلحاق أظلال الأجسام الكثيفه بها

فى السجود فإن الظل و إن كان عدما من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النور إلا أن له آثارا خارجيه و هو يزيد و ينقص فى طرفى النهار و يختلف اختلافا ظاهرا للحس فله نحو من الوجود ذو آثاره يخضع فى وجوده و آثاره لله و يسجد له.

و هى تسجد لله سبحانه سجده طوع فى جميع الأحيان، و إنما خص الغدو و الأصال بالذكر لا لما قيل: إن المراد بهما الدوام لأنه يذكر مثل ذلك للتأييد إذ لو أريد سجودها الدائم لكان الأنسب به أن يقال: بأطراف النهار حتى يعم جميع ما قبل الظهر و ما بعده كما وقع فى قوله:

وَ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطَّرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (طه ١٣٠).

بل النكته فيه -و الله أعلم- أن الزيادة و النقيصه دائمتان للأظلال فى الغداه و الأصيل فيمثلان للحس السقوط على الأرض و ذله السجود، و أما وقت الظهيرة و أوساط النهار فربما انعدمت الأظلال فيها أو نقصت و كانت كالساكنه لا يظهر معنى السجده منها ذلك الظهور.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا الْآيَه بما تشتمل على أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالاحتجاج على المشركين بمنزله الفذلکه من الآيات السابقه.

و ذلك أن الآيات السابقه تبين بأوضح البيان أن تدبير السماوات و الأرض و ما فيهما من شىء الى الله سبحانه كما أن خلقها منه و أنه يملك ما يفتقر اليه الخلق و التدبير من العلم و القدره و الرحمه و أن كل من دونه مخلوق مدبر لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و ينتج ذلك أنه الرب دون غيره.

فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يسجل عليهم نتيجة بيانه السابق و يسألهم بعد تلاوه الآيات السابقه عليهم الكاشفه عن وجه الحق لهم بقوله: «مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى من هو الذى يملك السماوات و الأرض و ما فيهما و يدبر أمرها؟ ثم أمره أن يجيب هو نفسه عن السؤال و يقول «اللَّهُ» لأنهم و هم مشركون معاندون يمتنعون عن الإقرار بتوحيد الربوبيه و فى ذلك

تلويح الى أنهم لا يعقلون حجه و لا يفقهون حديثا.

ثم استنتج بمعونه هذه النتيجة نتيجته ثانيه بها يتضح بطلان شركهم أوضح البيان و هى أن مقتضى ربوبيته تعالى الثابته بالحجج السابقه أنه هو المالك للنفع و الضرر فكل من دونه لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضراً فكيف لغيره؟ فاتخاذ أرباب من دون الله أى فرض أولياء من دونه يلون أمر العباد و يملكون لهم نفعاً و ضراً فى الحقيقه فرض لأولياء ليسوا بأولياء لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضراً فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟

و هذا هو المراد بقوله مفرعاً على السؤال السابق: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» أى فكيف يملكون لغيرهم ذلك: أى إذا كان الله سبحانه هو رب السماوات و الأرض فقد قلتم باتخاذكم أولياء آله من دونه قولاً يكذبه نفسه و هو عدم ولايتهم فى عين ولايتهم و هو التناقض الصريح بأنهم أولياء غير أولياء و أرباب لا ربوبيه لهم.

و بالتأمل فيما قدمناه أن الآيه بمنزله الفذلكه من سابق البيانات يعود مفاد الآيه الى مثل قولنا: إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات و الأرض إلا الله؟ أ فاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعاً و لا ضراً؟ فالعدول عن التفريع الى أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: قل كذا و قل كذا و تكراره مره بعد مره إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذاره الجهل و العناد و هذا من لطيف نظم القرآن.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ مثلاًن ضربهما الله سبحانه بعد تمام الحججه و إتمامها عليهم و أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يضربهما لهم يبين بأحدهما حال المؤمن و الكافر فالكافر بالحججه الحقه و الآيات البينات غير المسلم لها أعمى و المؤمن بها بصير فالعاقل لا يسوى بينهما ببيدهه عقله، و يبين بالثانى أن الكفر بالحق ظلمات كما أن الكافر الواقع فيها غير بصير و الإيمان بالحق نور كما أن المؤمن الآخذ به بصير و لا يستويان البته فمن الواجب على المشركين إن كان لهم عقول سليمة- كما

يدعون- أن يسلموا للحق و يرفضوا الباطل و يؤمنوا بالله وحده.

قوله تعالى: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ -الى قوله- وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ فِي التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: «جَعَلُوا» و «عَلَيْهِمْ» دون أن يقال جعلتم و عليكم دليل على أن الكلام مصروف عنهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دون أن يؤمر بإلقائه اليهم.

ثم العود في جواب هذا الاحتمال الذي يتضمنه قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» الى الأمر بإلقائه اليهم بقوله: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» دليل على أن السؤال إنما هو عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المطلوب من إلقاء توحيد الخالق اليهم هو الإلقاء الابتدائي لا- الإلقاء بنحو الجواب، و ليس إلا لأنهم لا يقولون بخالق غير الله سبحانه كما قال تعالى: «وَلَيْسَ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (لقمان ٢٥)، (الزمر ٣٨)» و قد كرر تعالى نقل ذلك عنهم.

فهؤلاء الوثنيون ما كانوا يرون لله سبحانه شريكا في الخلق و الإيجاد و إنما كانوا ينازعون الإسلام في توحيد الربوبية لا في توحيد الالهية بمعنى الخلق و الإيجاد، و تسليمهم توحيد الخالق المبدع و قصر ذلك على الله يبطل قولهم بالشركاء في الربوبية و تتم الحجة عليهم لأن اختصاص الخلق و الإيجاد بالله سبحانه ينفي استقلال الوجود و العلم و القدره عن غيره تعالى و لا ربوبية مع انتفاء هذه النعوت الكمالية.

و لذلك لم يبق لهم في القول بربوبية شركائهم مع الله سبحانه إلا أن ينكروا توحده تعالى في الخلق و الإيجاد و يثبتوا بعد الخلق و الإيجاد لآلهتهم و هم لا يفعلونه. و هذا هو الموجب لذكره تعالى هذا الاحتمال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من دون أن يخاطبهم به أو يأمره أن يخاطبهم.

فكأنه تعالى إذ يقول «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» يقول لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هؤلاء تمت عليهم الحجة في توحيد الربوبية من جهة اختصاصه تعالى بالخلق و الإيجاد فلم يبق لهم إلا أن يقولوا بشركه شركائهم في الخلق و الإيجاد فهل هم قائلون بأن

شركائهم خلقوا خلقا كخلقه ثم تشابه الخلق عليهم فقالوا بربوبيتهم إجمالا مع الله.

ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يلقي اليهم ما يقطع دابر هذا الاحتمال فقال «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» و الجملة صدرها دعوى دليلها ذيلها أى أنه تعالى واحد فى خالقيته لا شريك له فيها، وكيف يكون له فيها شريك و له وحده يقهر كل عدد و كثره و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (يوسف ٣٩). بعض الكلام فى معنى كونه تعالى هو الواحد القهار، و تبين هناك أن مجموع هاتين الصفتين ينتج صفة الأحديه.

و قد بان مما ذكرناه وجه تغيير السياق فى قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» و الإعراض عن سياق الخطاب السابق فتأمل فى ذلك و اعلم أن أكثر المفسرين اشتبه عليهم الحال فى الحجج التى تقيمها الآيات القرآنيه لإثبات ربوبيته تعالى و توحيده فيها و نفى الشريك عنه فخلطوا بينها و بين ما أقيمت لإثبات الصانع فتنبه لذلك (١).

### [سورة الرعد (١٣): الآيات ١٧ الى ٢٦]

#### إشاره

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاخْتَمَلَ السَّبِيلُ زَيْدًا رَابِعًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَيْدٌ مِثْلَهُ  
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَدْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ  
(١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ  
الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ  
(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ  
الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ رِزْقًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ  
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ  
كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ  
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ  
مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

ص: ٣٧٥

١- ١). الرعد ٧-١٦: بحث روائى فى: قول الله تبارك و تعالى «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»؛ ان المنذر هو رسول الله و على عليه السلام هو الهادى؛ الغيب و الشهاده؛ ان ليس من عبد الا و معه ملائكة يحفظونه.



قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ قال في مجمع البيان: الوادى سفح الجبل العظيم المنخفض الذى يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الدية لأنه جمع المال العظيم الذى يؤدى عن القتل، والقدر اقتران الشئ بغيره من غير زياده ولا نقصان و الوزن يزيد و ينقص فإذا كان مساويا فهو القدر، و قرء الحسن بقدرها بسكون الدال، و هما لغتان يقال: أعطى قدر شبر و قدر شبر، و المصدر بالتخفيف لا غير.

قال: و الاحتمال رفع الشئ على الظهر بقوه الحامل له، و يقال: علا صوته على فلان فاحتمله و لم يغضبه، و الزيد و ضر الغليان و هو خبث الغليان و منه زبد القدر و زبد السيل.

و الجفاء ممدود مثل الغشاء و أصله الهمز يقال: جفأ الوادى جفاء قال أبو زيد: يقال: جفأت الرجل إذا صرعت و أجفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها عنها، قال الفراء: كل شئ ينضم بعضه الى بعض فإنه يجيء على فعال مثل الحطام و القماش و الغشاء و الجفاء.

و الإيقاد إلقاء الحطب فى النار استوقدت النار، و انقدت و توقدت، و المتاع ما تمتعت به، و المكث السكون فى المكان على مرور الزمان يقال: مكث و مكث-بفتح الكاف و ضمها- و تمكث أى تلبث. انتهى.

و قال الراغب: الباطل نقيض الحق و هو ما لا ثبات له عند الفحص عنه قال تعالى «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ» و قد يقال ذلك فى الاعتبار الى المقال و الفعال يقال: بطل بطولا و بطلا و بطلانا و أبطله غيره قال عز و جل «وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و قال «لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». انتهى موضع الحاجه.

فبطلان الشئ هو أن يقدر للشئ نوع من الوجود ثم إذا طبق على الخارج لم يثبت على ما قدر و لم يطابقه الخارج و الحق بخلافه فالحق و الباطل يتصف بهما أولا الاعتقاد ثم غيره بعنايه



فالقول نحو السماء فوقنا و الأرض تحتنا بكون حقا لمطابقه الواقع إياه إذا فحص عنه و طبق عليه، و لقولنا: السماء تحتنا و الأرض فوقنا كان باطلا- لعدم ثباته فى الواقع على ما قدر له من الثبات، و الفعل يكون حقا إذا وقع على ما قدر له من الغايه أو الأمر كالأكل للشبع و السعى للرزق و شرب الدواء للصحه مثلا إذا أثره و بلغ غرضه، و يكون باطلا إذا لم يقع على ما قدر عليه من الغايه أو الأمر، و الشىء الموجود فى الخارج حق من جهه أنه موجود كما اعتقد كوجود الحق تعالى، و الشىء غير الموجود و قد اعتقد له الوجود باطل و كذا لو كان موجودا لكن قدر له من خواص الوجود ما ليس له كتقدير الاستقلال و البقاء للموجود الممكن فالموجود الممكن باطل من جهه عدم الاستقلال أو البقاء المقدر له و إن كان حقا من جهه أصل الوجود قال:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

و كل نعيم لا محاله زائل

و الآيه الكريمة من غرر الآيات القرآنيه تبحث عن طبيعه الحق و الباطل فتصف بدء تكونهما و كيفيه ظهورهما و الآثار الخاصه بكل منهما و سنه الله سبحانه الجاربه فى ذلك و لن تجد لسنه الله تحويلا و لن تجد لسنه الله تبديلا.

بين تعالى ذلك بمثل ضربه للناس، و ليس بمثلين كما قاله بعضهم و لا بثلاثه أمثال كما ذكره آخرون كما سنشير اليه إن شاء الله و إنما هو مثل واحد ينحل الى أمثال فقال تعالى «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا» و قوله: «أَنْزَلَ» فعل فاعله هو الله سبحانه لم يذكر لوضوحه، و تنكير «مَاءً» للدلاله على النوع و هو الماء الخالص الصافى يعنى نفس الماء من غير أن يختلط بشىء أو يشوبه تغير، و تنكير «أَوْدِيَهُ» للدلاله على اختلافها فى الكبر و الصغر و الطول و القصر و تغايرها فى السعه و الوعى، و نسبة السيلان الى الاوديه نسبة مجازيه نظير قولنا: جرى الميزاب و توصيف الزبد بالرابى لكونه طافيا يعلو

السييل دائما و هذا كله بدلاله السياق، و إنما مثل بالسييل لأن احتمال الزبد الرابى فيه أظهر.

و المعنى: أنزل الله سبحانه من السماء و هى جهه العلو ماء بالإمطار فسالت الأوديه الواقعه فى محل الامطار المختلفه بالسعه و الضيق و الكبر و الصغر بقدرها أى كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره و الصغير بقدره فاحتمل السييل الواقع فى كل واحد من الأوديه المختلفه زبدا طافيا عاليا و هو الظاهر على الحس يستر الماء سترًا.

ثم قال تعالى وَ مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ من نشويه و ما يوقدون عليه أنواع الفلزات و المواد الأرضيه القابله للإذابه المصوغه منها آلايت الزينه و أمتعه الحياه التى يتمتع بها و المعنى و يخرج من الفلزات و المواد الأرضيه التى يوقدون عليها فى النار طلبا للزينه كالذهب و الفضة أو طلبا لمتاع كالحديد و غيره يتخذ منه الآلات و الأدوات، زبد مثل الزبد الذى يربو السييل يطفو على ماده المذابه و يعلوه.

ثم قال تعالى كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ أى يثبت الله الحق و الباطل نظير ما فعل فى السييل و زبده و ما يوقدون عليه فى النار و زبده.

فالمراد بالضرب-و الله أعلم-نوع من التثبيت من قبيل قولنا:ضربت الخيمه أى نصبتها و قوله:ضربت عليهم الذله و المسكنه أى أوقعت و أثبتت و ضرب بينهم بسور أى أوجد و بنى،و اضرب لهم طريقا فى البحر أى افتح و ثبت و الى هذا المعنى أيضا يعود ضرب المثل لأنه تثبيت و نصب لما يماثل الممثل حتى يتبين به حاله،و الجميع فى الحقيقه من قبيل إطلاق الملزوم و إرادته اللازم فإن الضرب و هو إيقاع شىء على شىء بقوه و عنف لا ينفك عاده عن تثبيت أمر فى ما وقع عليه الضرب كثبوت الودت فى الأرض بضرب المطرقه و حلول الألم فى جسم الحيوان بضربه فقد أطلق الضرب و هو الملزوم و أريد التثبيت و هو الأمر اللازم.

ثم قال تعالى فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ جمع بين الزبد بين أعنى زبد السيل و زبد ما يوقدون عليه و قد كانا متفرقين في الذكر لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصه و هو أنه يذهب جفاء، و لذا قدمنا آنفا أن الآيه تتضمن مثلا واحدا و إن انحل الى غير واحد من الأمثال.

و قد عدل عن ذكر الماء و غيره الى قوله: «وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ» للدلاله على خاصه يختص بها الحق و هو أن الناس ينتفعون به و هو الغايه المطلوبه لهم.

و المعنى: فأما الزبد الذي كان يطفو على السيل و يعلوه أو يخرج مما يوقدون عليه في النار فيذهب جفاء و يصير باطلا متلاشيا، و أما الماء الخالص أو العين الارضيه المصوغه و فيهما انتفاع الناس و تمتعهم في معاشهم فيمكث في الأرض ينتفع به الناس.

ثم قال تعالى كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ و ختم به القول أى إن الأمثال المضروبه للناس فى كلامه تعالى يشابه المثل المضروب فى هذه الآيه فى أنها تميز الحق من الباطل و تبين للناس ما ينفعهم فى معاشهم و معادهم.

و لا- يبعد أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى ما ذكره من أمر نزول المطر و جريان الاوديه بسيولها المزبده و إيقاد المواد الأرضيه و خروج زبدها، أعنى أن تكون الإشاره الى نفس هذه الحوادث الخارجيه و التكونات العينيه لا القول فيدل على أن هذه الوقائع الكونيه و الحوادث الواقعه فى عالم الشهاده أمثال مضروبه تهدى اولى النهى و البصيره الى ما فى عالم الغيب من الحقائق كما أن ما فى عالم الشهاده آيات داله على ما فى عالم الغيب على ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم، و لا كثير فرق بين كون هذه المشهودات أمثالا مضروبه أو آيات داله و هو ظاهر.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسَيْنِ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المهاد الفراش الذى يوطأ لصاحبه و المكان الممهد الموطأ و سميت جهنم لأنها

مهدت لاستقرارهم فيها لكفرهم و أعمالهم السيئه.

و الآيه و ما بعدها من الآيات التسعه متفرعه على المثل المضروب فى الآيه السابقه كما تقدمت الإشاره اليه يبين الله سبحانه فيها آثار الاعتقاد الحق و الإيمان به و الاستجابه لدعوته، و آثار الاعتقاد الباطل و الكفر به و عدم استجابه دعوته و يشهد بذلك سياق الآيات فإن الحديث فيها يدور حول عاقبه الإيمان و الكفر و أن العاقبه المحموده التى للإيمان لا يقوم مقامها شىء و لو كان ضعف ما فى الدنيا من نعمه.

و على هذا فالأظهر أن يكون المراد بالحسنى العاقبه الحسنى و ما ذكره بعضهم أن المراد بها المثوبه الحسنى أو الجنه و إن كان حقا بحسب المآل فإن عاقبه الإيمان و العمل الصالح المحموده هى المثوبه الإلهيه الحسنى و هى الجنه لكن المثوبه أو الجنه غير مقصوده فى المقام بما أنها مثوبه أو جنه بل بما أنها عاقبه أمرهم و ينتهى إليها سعيهم.

و يؤيده بل يدل عليه قوله تعالى فيهم فى الآيات التاليه بعد تعريفهم بصفاتهم المختصه بهم:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآيه.

و على هذا أيضا فقوله: «لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ» موضوع موضع الغايه المحذوفه للدلاله على فخامه أمرها و بلوغها الغايه من حمل الهول و الدهشه و الشر و الشقوه بما لا يذكر.

و المعنى: و الذين لم يستجيبوا لربهم يحل بهم أمر- أو يفوتهم أمر و هو نتيجة الاستجابه و عاقبتها الحسنى- من صفته أنه لو أن لهم ما فى الارض من نعمه تلتذ بها النفس الانسانيه و هو غايه ما يمكن لإنسان أن يأمله و يتمناه ثم أضيف اليه مثله و هو فوق منيه الإنسان و بعبارة ملخصه لو كانوا يملكون غايه مناهم فى الحياه و ما فوق هذه الغايه رضوا أن يفتدوا بهذا الذى يملكونه فرضا عما يفوتهم من الحسنى، و فى بعض كلمات على عليه السلام فى وصفه «غير موصوف ما نزل بهم».

ثم أخبر تعالى عن هذا الذى لا- يوصف من عاقبه أمرهم فقال «أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ» و سوء الحساب الحساب الذى يسوؤهم و لا يسرهم فهو من إضافة الصفه الى الموصوف ثم ذم تعالى ذلك مشيرا الى سوء العاقبه بقوله: «وَبئْسَ الْمِهَادُ» أى بئس المهاد مهادهم الذى مهد لهم و يستقرون فيه، و مجموع قوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ» الخ؛ فى موضع التعليل لما ذكر من الافتداء و التعليل بالإشاره كثير فى الكلام يقال: افعل بفلان كذا و كذا ذاك الذى من صفته كذا و كذا.

و معنى الآيه-و الله أعلم-للذين استجابوا لدعوه ربهم الحقه العاقبه الحسنى و الذين لم يستجيبوا له لهم من عاقبه الامر ما يرضون أن يفتدوا للتخلص منه فوق ما يمكنهم أن يتمنوه لأن الذى يحل بهم من العاقبه السيئه يتضمن أو يقارن سوء الحساب و القرار فى و بئس المهاد مهادهم.

و قد وضع فى الآيه الاستجاب و عدم الاستجابه مكان الإيمان و الكفر لمناسبه المثل المضروب فى الآيه السابقه من نزول الماء من السماء و قبول الأوديه منه كل بقدره، و الاستجابه قبول الدعوه.

قوله تعالى: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ استفهام إنكارى و هو فى موضع التعليل لما تضمنه الآيه السابقه، و بيان تفصيلى لعاقبه حال الفريقين من حيث استجابه دعوه الحق و عدمها.

و ملخص البيان: أن الحق يستقر فى قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربهم فتصير قلوبهم ألبابا و قلوبا حقيقه لها آثارها و بركاتها و هو التذكر و التبصر، و من خواص هذه القلوب التى يعرف بها صاحبوها أن اولى الألباب يثبتون على الوفاء بعهد الله المأخوذ عنهم بفطرتهم فلا- ينقضون ميثاق ربهم، و يثبتون على احترام ما وصلهم الله به و هى الرحم التى أجرى الله الخلقه من طريقها فيصلونها و هم خاشعون خائفون، و يثبتون بالصبر عند المصائب و عن

المعصية و على الطاعة، و يجرون بالتوجه الى ربهم و هو الصلاه، و إصلاح المجتمع و هو الإنفاق، و درء السيئات بالحسنات.

فهؤلاء لهم عاقبه الدار المحموده و هى الجنه يدخلونها و تنعكس اليهم فيها ماثبات أعمالهم الحسنه المذكوره فيصاحبون فيها الصالحين من آباءهم و أزواجهم و ذرياتهم كما وصلوا الرحم فى الدنيا، و الملائكه يدخلون عليهم من كل باب مسلمين عليهم بما صبروا كما فتحوا أبواب العبادات و الطاعات المختلفه فى الدنيا فهذا هو أثر الحق.

و قوله: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنْتُمْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۖ لَا يَبْصُرُ بِهِ إِلَّا لِينَارٍ أَوْ بُرْجٍ يُفْتَقِدُ لِنَارِهِ إِذَا خَلَ بِهَا وَمَا هِيَ بِإِلَافَةٍ إِلَّا ذِكْرًا لِقَوْمٍ يُعْذِرُونَ» [الأنعام: 110] الاستفهام فيه للإنكار- كما تقدم- و فيه نفى التساوى بين من استقر فى قلبه العلم بالحق و من جهل الحق و فى توصيف الجاهل بالحق بالأعمى إيماء الى أن العالم به يصير و قد سماه بالأعمى و البصير فى قوله آنفا: «فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ» الآية، فالعلم بالحق بصيره و الجهل به عمى و التبصر يفيد التذكر و لذا عده من خواص اولى العلم بقوله: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ» .

و قوله: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» فى مقام التعليل لما سبقه أعنى قوله: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ» الخ؛ أى إنهما لا يستويان لأن لاولى العلم تذكر ليس لاولى العمى و الجهل، و قد وضع فى موضع اولى العلم اولو الأبواب فدل على دعوى أخرى تفيد فائده التعليل كأنه قيل: لا يستويان لأن لأحد الفريقين تذكر ليس للآخر، و إنما اختص التذكر بهم لأن لهم ألبابا و قلوبا و ليس ذلك لغيرهم.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ» ظاهر السياق أن الجملة الثانيه عطف تفسيرى على الجملة الاولى فالمراد بالميثاق الذى لا ينقضونه هو عهد الله الذى يوفون به، و المراد بهذا العهد و الميثاق بقريته ما ذكر فى الآيه السابقه من تذكرهم هو ما عاهدوا به ربهم و واثقوه بلسان فطرتهم أن يوحده و يجروا على ما يقتضيه توحيده من الآثار فإن الانسان مفطور على توحيده تعالى و ما يهتف به توحيده، و هذا عهد عاهدته

و أما العهود و الموائيق المأخوذه بوسيله الأنبياء و الرسل على أمر من الله و الأحكام و الشرائع فكل ذلك من فروع الميثاق الفطرى فإن الدين فطرى.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَصِفُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ السَّخَّ الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعى النازل بشهاده ذيل الآيه «وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» فإن الحساب على الأحكام النازله فى الشريعة ظاهرا و إن كانت مدركه بالفطره كقبح الظلم و حسن العدل فإن المستضعف الذى لم يبلغه الحكم الإلهى و لم يقصر لا يحاسب عليه كما يحاسب غيره، و قد تقدم فى أبحاثنا السابقة أن الحجه لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطرى لو لا انضمام طريق الوحي اليه قال تعالى: لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرُّسُلِ (النساء / ١٦٥).

و الآيه مطلقه فالمراد به كل صلّه أمر الله سبحانه بها و من أشهر مصاديقه صلّه الرحم التى أمر الله بها و أكد القول فى وجوبها، قال تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ (النساء / ١).

و قد أكد القول فيه بما فى ذيل الآيه من قوله: «وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» فأشار الى أن فى ترك الصلّه مخالفه لأمر الله فليخش الله فى ذلك و عملا سيئا مكتوبا فى صحيفه العمل محفوظا على الإنسان يجب أن يخاف من حسابه السيئ.

و الظاهر أن الفرق بين الخشيه و الخوف أن الخشيه تأثر القلب من إقبال الشر أو ما فى حكمه، و الخوف هو التأثير عملا بمعنى الإقدام على تهيبه ما يتقى به المحذور و إن لم يتأثر القلب و لذا قال سبحانه فى صفه أنبيائه: وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب / ٣٩). فنفى عنهم الخشيه عن غيره و قد أثبت الخوف لهم عن غيره فى مواضع من كلامه كقوله: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى (طه / ٦٧) و قوله: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً (الأنفال / ٥٨).

ولعله اليه يرجع ما ذكره الراغب في الفرق بينهما أن الخشية خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم. ولذا خص العلماء بها في قوله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ و كذا قول بعضهم: إن الخشية أشد الخوف لأنها مأخوذة من قولهم: شجره خشية أى يابسه.

و كذا قول بعضهم: إن الخوف يتعلق بالمكروه و بمنزله يقال: خفت المرض و خفت زيدا بخلاف الخشية فإنها تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه يقال: خشيت الله.

و لو لا رجوعها الى ما قدمناه لكانت ظاهره النقض و ذكر بعضهم أن الفرق أغلبي لا كلي، و الآخرون أن لا فرق بينهما أصلا و هو مردود بما قدمناه من الآيات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إطلاق الصبر يدل على اتصافهم بجميع شعبه و أقسامه و هى الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية لكنه مع ذلك مقيد بقوله: «ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» أى طلبا لوجه ربهم فصفتهم التى يمدحون بها أن يكون صبرهم لوجه الله لأن الكلام فى صفاتهم التى تنشأ و تنمو فيهم من استجابتهم لربهم و علمهم بحقه ما أنزل اليهم من ربهم لا- كل صفة يمدحها الناس فيما بينهم و إن لم ترتبط بعبوديتهم و إيمانهم بربهم كالصبر عند الكريهه تمنعا و عجا بالنفس أو طلبا لجميل الثناء و نحوه كما قيل:

و قولى كلما جشأت و جاشت

مكانك تحمدى أو تستريحي

و المراد بوجه الرب تعالى هو الوجه المنسوبه اليه تعالى من العمل و نحوه و هى الوجهه التى عليها يظهر و يستقر العمل عنده تعالى أعنى المثوبه التى له عنده الباقيه ببقائه و قد قال تعالى:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (آل عمران ١٩٥)، و قال: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِمَا قِيَ (النحل / ٩٦)، و قال: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (القصص / ٨٨).

و قوله: وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ أى جعلوها قائمه غير ساقطه بالإخلال بأجزائها و شرائطها أو بالاستهانه بأمرها، و عطف الصلاه و ما بعدها على الصبر من عطف الخاص على



العام اعتناء بشأنه و تعظيماً لأمره. كما قيل.

وقوله: **وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً** المراد به مطلق الإنفاق أعم من الواجب وغيره، والآيه مكيه لم ينزل وجوب الزكاه عند نزولها بعد، و تقييد الإنفاق بقوله:

«**سِرًّا وَ عَلَانِيَةً**» للدلاله على استيفائهم حقه فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار و منه ما يحسن فيه الإعلان فعلى من آمن بما أنزله الله بالحق أن يستوفى من كل حقه فيسر بالإنفاق إذا كان في إعلانه مظنه الرياء أو السمعه أو إهانته أو إذهاب ماء الوجه، و يعلن فيه فيما كان في إعلانه تشويق الناس على البر و المعروف و دفع التهمه و نحو ذلك.

وقوله: **وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** الدرء الدفع و المعنى إذا صادفوا سيئه جاءوا بحسنه تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئه، و هذا أعم من أن يكون ذلك في سيئه صدرت من أنفسهم فدفعوها بحسنه جاءوا بها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو دفعوها بتوبه الى ربهم فإن التائب من الذنب كمن لا- ذنب له أو في سيئه أتى بها غيرهم بالنسبه اليهم كمن ظلمهم فدفعوه بالعفو أو بالإحسان اليه أو من جفاهم فقابلوه بحسن الخلق و البشر كما إذا خاطبهم الجاهلون فقالوا: سلاماً أو أتى بمنكر فنهوا عنه أو ترك معروف فأمروا بها.

فذلك كله من درء السيئه بالحسنه و لا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص ببعض هذه الوجوه البته.

وقد اختلف التعبير في هذه الصفات المذكوره لاولى الألباب «الذين يوفون، و لا- ينقضون، و يصلون، و يخشون، و يخافون، و صبروا، و أقاموا، و أنفقوا، و يدرءون» فأتى في بعضها- و هي سته- بلفظ المضارع، و في بعضها- و هي ثلاثه- بلفظ الماضي.

وقد نقل عن بعضهم في وجه ذلك أن التعبير في قوله: «**وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**» الخ؛ بلفظ الماضي و فيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفتن في الفصاحه لأن هذه الأفعال وقعت صلته للموصول يعنى «**وَ الَّذِينَ**» و الموصول وصلته

فى معنى اسم الشرط مع الجملة الشرطيه، و الماضى و المضارع يستويان معنى فى الجملة الشرطيه نحو إن ضربت ضربت و إن تضرب أضرب فكذا فيما بمعناه.

و لذا قال النحويون: إذا وقع الماضى صلته أو صفه لنكره عامه احتمال أن يراى به الماضى و أن يراى به الاستقبال فمن الأول «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» و من الثانى «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ» .

و فيه أن إلغاء خصوصيه زمان الفعل من الماضى و الاستقبال فى الشرط و ما فى معناه لا يستوجب إلغاء لوازم الأزمنه كالتحقق فى الماضى و الجريان و الاستمرار و نحوهما فى المضارع فإن فى الماضى مثلا عنايه بالتحقق و إن كان ملغى الزمان فصحه السؤال عن نكته اختلاف التعبير فى محله بعد.

و يستفاد من كلام بعض آخر فى وجهه أن المراد بالأوصاف المتقدمه أعنى الوفاء بالعهد و الصله و الخشيه و الخوف الاستصحاب و الاستمرار لكن الصبر لما كان مما يتوقف على تحققه التلبس بتلك الأوصاف اعتنى بشأنه فعبر بلفظ الماضى الدال على التحقق و كذا فى الصلاه و الإنفاق اعتناء بشأنهما.

و فيه أن بعض الصفات السابقه لا يقصر فى الأهميه عن الصبر و الصلاه و الإنفاق كالوفاء بعهد الله الذى أريد به الإيمان بالله بإجابه دعوه الفطره فلو كان الاعتناء بالشأن هو الوجه كان من الواجب أن يعبر عنه بلفظ الماضى كغيره من الصبر و الصلاه و الإنفاق.

و الذى أحسب-و الله أعلم- أن مجموع قوله تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» مسوق لبيان معنى واحد و هو الإتيان بالعمل الصالح أعنى إتيان الواجبات و ترك المحرمات و تدارك ما يقع فيه من الخلل استثناء بالحسنه فالعمل الصالح هو المقصود بالاصاله و درء السيئه بالحسنه الذى هو تدارك الخلل الواقع فى العمل مقصود بالتبع كالمتمم للنقيصه.

فلو جرى الكلام على السياق السابق و قيل «و الذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم و يقامون الصلاه و ينفقون مما رزقناهم سرا و علانيه و يدرءون بالحسنه السيئه» فات هذه العنايه و بطل ما ذكر من حديث الأصاله و التبعية لكن قيل «و الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» فاخذ جميع الصبر المستقر أمرا واحدا مستمرا ليدل على وقوع كل الصبر منهم ثم قيل «و يَدْرُونَ» الخ؛ ليدل على دوام مراقبتهم بالنسبه اليه لتدارك ما وقع فيه من الخلل، و كذا فى الصلاه و الإنفاق فافهمه.

و هذه العنايه بوجه نظيره العنايه فى قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» الآية؛ حيث يدل على تفرع تنزل الملائكه على تحقق قولهم: «رَبُّنَا اللَّهُ» و استقامتهم دون الاستمرار عليه.

و قوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ أَى عاقبتها المحموده فإنها هى العاقبه حقيقه لأن الشىء لا ينتهى بحسب ما جبله الله عليه إلا الى عاقبه تناسبه و تكون فيها سعادته، و أما العاقبه المذمومه السيئه فيها بطلان عاقبه الشىء لخلل واقع فيه، و إنما تسمى عاقبه بنحو من التوسع، و لذلك أطلق فى الآية عقبى الدار و أريدت بها العاقبه المحموده و قوبلت فيما يقابلها من الآيات بقوله: «و لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»، و من هنا يظهر أن المراد بالدار هذه الدار الدنيا أى حياه الدار فالعاقبه عاقبتها.

قوله تعالى: «جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا و مَن صِلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ و أزْوَاجِهِمْ و ذُرِّيَّتِهِمُ العدن الاستقرار يقال: عدن بمكان كذا إذا استقر فيه و منه المعدن لمستقر الجواهر الأرضيه و جنات عدن أى جنات نوع من الاستقرار فيه خلود و سلام من كل جهه.

و جنات عدن «الخ»؛ بديل أو عطف بيان من قوله: «عُقُوبَى الدَّارِ» أى عاقبه هذه الدار المحموده هى جنات العدن و الخلود فليست هذه الحياه الدنيا بحسب ما طبعها الله عليه إلا حياه واحده متصله أولها عناء و بلاء و آخرها رخاء نعيم و سلام، و هذا الوعد هو الذى يحكى وفاء

تعالى به حكاية عن أهل الجنة بقوله: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤).

و الآيه- كما سمعت- تحاذى قوله: «يَصْتَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» و بيان لعاقبه هذا الحق الذى أخذوه و عملوا به و بشرى لهم أنهم سيصاحبون الصالحين من أرحامهم و أهليهم من الآباء و الامهات و الذرارى و الاخوان و الاخوات و غيرهم و يشمل الجميع قوله: «أَبَائِهِمْ وَ أَرْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ» لأن الامهات أزواج الآباء و الاخوان و الاخوات و الاعمام و الاخوال و أولادهم ذريات الآباء، و الآباء من الداخلين فمعهم أزواجهم و ذرياتهم ففى الآيه ايجاز لطيف.

قوله تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ و هذا عقبى أعمالهم الصالحه التى داموا عليها فى كل باب من أبواب الحياه بالصبر على الطاعه و عن المعصيه و عند المصيبه مع الخشيه و الخوف.

و قوله: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» قول الملائكه و قد خاطبوهم بالأمن و السلام الخالد و عقبى محموده لا يعترىها ذم و سوء أبدا.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان حال غير المؤمنين بطريق المقابله و قد قوبل بقوله: «وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» بقيه ما ذكر فى الآيات السابقه بعد الوفاء بعهد الله و الصلحه، من الأعمال الصالحه و فيه إيماء الى أن الأعمال الصالحه هى التى تضمن صلاح الأرض و عماره الدار على نحو يؤدى الى سعادته النوع الإنسانى و رشد المجتمع البشرى، و قد تقدم بيانه فى دليل النبوه العامه.

و قد بين تعالى جزاء عملهم و عاقبه أمرهم بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» و اللعن الابعاد من الرحمه و الطرد من كل كرامه، و ليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل و رفضهم الحق النازل من الله، و ليس للباطل إلا البوار.

قوله تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ بيان أن ما أوتى الفريقان من العاقبه المحموده و الجنه الخالده و من اللعنه و سوء الدار هو من الرزق الذى يرزقه الله من يشاء و كيف يشاء من غير حجر عليه أو إلزام.

و قد بين أن فعله تعالى يستمر على وفق ما جعله من نظام الحق و الباطل فالاعتقاد الحق و العمل به ينتهى الى الارتزاق بالجنه و السلام و الباطل من الاعتقاد و العمل به ينتهى الى اللعنه و سوء الدار و نكد العيش.

و قوله: وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ يريد به-على ما يفيدته السياق-أن الرزق هو رزق الاخرى لكنهم لميلهم الى ظاهر الحياه الدنيا و زينتها ركنوا إليها و فرحوا بها، و قد أخطئوا فإنها حياه غير مقصوده بنفسها و لا خالده فى بقائها بل مقصوده لغيرها الذى هو الحياه الآخره فهى بالنسبه الى الآخره متاع يتمتع به فى غيره و لغيره غير مطلوب لنفسه فالحياه الدنيا بالقياس الى الحياه الآخره إنما تكون من الحق إذا أخذت مقدمه لها يكتسب بها رزقها و أما إذا أخذت مطلوبه بالاستقلال فليست إلا من الباطل الذى يذهب جفاء و لا ينتفع به فى شىء، قال تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤).

### [سوره الرعد (١٣): الآيات ٢٧ الى ٣٥]

#### اشاره

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مِآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠) وَ لَوْ أَنْ قُرْآنًا سُرِّيَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى بَيِّنٌ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَ لَقَدْ أَسْرَيْتُهُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)



قوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ عود إلى قول الكفار «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» وإنما ارادوا به أنه لو أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من ربه لاهتدوا به واستجابوا له وهم لا يعدون القرآن النازل إليه آية.

و الدليل على إرادتهم هذا المعنى قوله بعده: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ» الخ؛ وقوله بعد:

«وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» - إلى قوله - بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» وقوله بعد: «وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» إلى آخر الآية.

فأجاب تعالى عن قولهم بقوله أمر نبيه أن يلقيه اليهم: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ» فأفاد أن الأمر ليس إلى الآيه حتى يهتدوا بنزولها و يضلوا بعدم نزولها بل أمر الإضلال و الهدايه إلى الله سبحانه يضل من يشاء و يهدى من يشاء.

و لما لم يؤمن أن يتوهموا منه أن الأمر يدور مدار مشيه جزافيه غير منتظمه أشار إلى دفعه بتبديل قولنا: و يهدى إليه من يشاء من قوله: «وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ» فبين أن الأمر إلى مشيه الله تعالى جاريه على سنه دائمه و نظام متقن مستمر و ذلك أنه تعالى يشاء هدايه من أناب و رجع إليه و يضل من أعرض و لم ينب فمن تلبس بصفه الإنابه و الرجوع إلى الحق و لم يتقيد بأغلال الأهواء هداه الله بهذه الدعوه الحقه و من كان دون ذلك ضل عن الطريق و إن كان مستقيما و لم تنفعه الآيات و إن كانت معجزه و ما تغن الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون.

و من هنا يظهر أن قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ» الخ؛ على تقدير: إن الله يضل بمشيته من لم ينب إليه و يهدى إليه بمشيته من أناب إليه.

و يظهر أيضا أن ضمير «إِلَيْهِ» فى «يَهْدِي إِلَيْهِ» راجع إليه تعالى و أن ما ذكره بعضهم أنه

راجع الى القرآن. و آخرون أنه راجع الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم غير وجيه.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الاطمئنان السكون و الاستقرار و الاطمئنان الى الشئ السكون اليه.

و ظاهر السياق أن صدر الآيه بيان لقوله في ذيل الآيه السابقه: «مَنْ أَنَابَ» فالإيمان و اطمئنان القلب بذكر الله هو الإنابه، و ذلك من العبد تهيو و استعداد يستعقب عطيه الهدايه الإلهيه كما أن الفسق و الزيغ في باب الضلال تهيو و استعداد يستعقب الإضلال من الله كما قال:

وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)؛ و قال: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (الصف ٥).

و ليس الإيمان بالله تعالى مثلا- مجرد إدراك أنه حق فإن مجرد الإدراك ربما يجمع الاستكبار و الجحود كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤) مع أن الإيمان لا- يجمع الجحود فليس الإيمان بشئ مجرد إدراك أنه حق مثلا بل مطاوعه و قبول خاصه من النفس بالنسبه الى ما أدركته يوجب تسليمها له و لما يقتضيه من الآثار و آيته مطاوعه سائر القوى و الجوارح و قبولها له كما طاوعته النفس و قبلته فترى المعتاد ببعض الأعمال المذمومه ربما يدرك وجه القبح أو المساءه فيه غير أنه لا يكف عنه لأن نفسه لا تؤمن به و لا تستسلم له و ربما طاوعته و سلمت له بعد ما أدركته و كفت عنه عند ذلك بلا مهل و هو الإيمان.

و هذا هو الذى يظهر من قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (الأنعام ١٢٥) فالهدايه من الله سبحانه تستدعى من قلب العبد أو صدره و بالآخره من نفسه أمرا نسبه اليه نسبه القبول و المطاوعه الى الأمر المقبول المطاوع، و قد عبر عنه في آيه الأنعام بشرح الصدر و توسعته، و فى الآيه المبحوث عنها بالإيمان و اطمئنان القلب و هو أن يرى الإنسان نفسه فى أمن من قبوله و مطاوعته و يسكن قلبه اليه و يستقر هو فى قلبه من غير أن يضطرب منه أو



ينقلع عنه.

و من ذلك يظهر أن قوله: «وَ تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ» عطف تفسيري على قوله: «آمَنُوا» فالإيمان بالله يلازم اطمئنان القلب بذكر الله تعالى.

ولا ينافي ذلك ما في قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (الأنفال/٢) فإن الوجل المذكور فيه حاله قلبيه متقدمه على الاطمئنان المذكور في الآية المبحوث عنها كما يرشد اليه قوله تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِرُّ عَنْهُ غُلُوبًا يُدْعُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكِ اللَّهُ يَهْدِي بِمَنْ يَشَاءُ (الزمر/٢٣) وذلك أن النعمة هي النازلة من عنده سبحانه و أما النقمه أيا ما كانت فهي بالحقيقه امساك منه عن إفاضه النعمه و إنزال الرحمه و ليست فعلا- ثبوتيا صادرا منه تعالى على ما يفيدده قوله: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/٢).

و إذا كان الخوف و الخشيه انما هو من شر متوقع و لا شر عنده سبحانه فحقيقه الخوف من الله هي خوف الإنسان من أعماله السيئه التي توجب إمساك الرحمه و انقطاع الخير المفاض من عنده، و النفس الإنسانيه إذا قرعت بذكر الله سبحانه التفتت أولا الى ما أحاطت به من سمات القصور و التقصير فأخذتها القشعيريه في الجلد و الوجل في القلب ثم التفتت ثانيا الى ربه الذي هو غايه طلبه فطرته فسكنت اليه و اطمأنت بذكره.

و قال في مجمع البيان: وقد وصف الله المؤمن هاهنا بأنه يطمئن قلبه الى ذكر الله، و وصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه و إنعامه و آلاءه التي لا تحصى و أياديه التي لا تجازى فيسكن اليه، و بالثاني أنه يذكر عقابه و انتقامه فيخافه و يوجل قلبه. انتهى، و هذا الوجه أوفق بتفسير من فسر الذكر في الآية بالقرآن الكريم و قد سماه الله تعالى ذكرا في مواضع كثيره من كلامه كقوله: وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ (الأنبياء/٥٠) و قوله:

ص: ٣٩٤

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (الحجر ٩) وغير ذلك.

لكن الظاهر أن يكون المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي و أعنى به مطلق انتقال الذهن و الخطور بالبال سواء كان بمشاهده آيه أو العثور على حجه أو استماع كلمه، و من الشاهد عليه قوله بعده: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فإنه كضرب القاعده يشمل كل ذكر سواء كان لفظيا أو غيره، و سواء كان قرآنا أو غيره.

و قوله: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا اليه و يريحوا قلوبهم بذكره فإنه لا هم للإنسان في حياته إلا الفوز بالسعاده و النعمه و لا خوف له إلا من أن تغتاله الشقوقه و النقمه و الله سبحانه هو السبب الوحيد الذى بيده زمام الخير و اليه يرجع الأمر كله، و هو القاهر فوق عباده و الفعال لما يريد و هو ولى عباده المؤمنين به اللاجئين اليه فذكره للنفس الأسيره بيد الحوادث الطالبه لركن شديد يضمن له السعاده، المتحيره فى أمرها و هى لا تعلم أين تريد و لا أنى يراد بها؟ كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه و تستريح منه نفسه، و الركون اليه و الاعتماد عليه و الاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق و هو يجد من نفسه نشاط الصحه و العافيه آنا بعد آن.

فكل قلب-على ما يفيدته الجمع المحلى باللام من العموم-يطمئن بذكر الله و يسكن به ما فيه من القلق و الاضطراب نعم إنما ذلك فى القلب الذى يستحق أن يسمى قلبا و هو القلب الباقى على بصيرته و رشد، و أما المنحرف عن أصله الذى لا يبصر و لا يفقه فهو مصروف عن الذكر محروم عن الطمأنينه و السكون قال تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج ٤٦)، و قال: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (الأعراف ١٧٩) و قال نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧).

و فى لفظ الآيه ما يدل على الحصر حيث قدم متعلق الفعل أعنى قوله: «بِذِكْرِ اللَّهِ» عليه فيفيد أن القلوب لا تطمئن بشيء غير ذكر الله سبحانه، و ما قدمناه من الإيضاح ينور هذا

الحصر إذ لا هم لقلب الإنسان و هو نفسه المدركه إلا نيل سعادته و الأمن من شقائه و هو فى ذلك متعلق بذيّل الأسباب، و ما من سبب إلا- و هو غالب فى جهه و مغلوب من اخرى إلا الله سبحانه فهو الغالب غير المغلوب الغنى ذو الرحمه فبذكره أى به سبحانه وحده تطمئن القلوب و لا يطمئن القلب الى شىء غيره إلا غفله عن حقيقه حاله و لو ذكر بها أخذته الرعده و القلق.

و مما قيل فى الآيه الكريمه أعنى قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ» الخ؛ أنها استئناف، و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» مبتدأ خبره قوله فى الآيه التاليه: «طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ» و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بدل من المبتدأ و قوله: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» اعتراض بين المبتدأ و خبره، و هو تكلف بعيد من السياق.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ طُوبَى عَلَى وَزْنِ فَعْلَى بضم الفاء مؤنث أطيّب فهى صفه لمحذوف و هو-على ما يستفاد من السياق-الحياه أو المعيشه و ذلك أن النعمه كائنه ما كانت إنما تغتبط و تهناً إذا طابت للإنسان و لا تطيب إلا إذا اطمان القلب اليه و سكن و لم يضطرب و لا يوجد ذلك إلا لمن آمن بالله و عمل عملاً صالحاً فهو الذى يطمئن منه القلب و يطيب له العيش فإنه فى أمن من الشر و الخسران و سلام مما يستقبله و يدركه و قد أوى الى ركن لا ينهدم و استقر فى ولايه الله لا يوجه اليه ربه إلا ما فيه سعادته إن اعطى شيئاً فهو خير له و إن منع فهو خير له.

و قد قال فى وصف طيب هذه الحياه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل ٩٧) و قال فى صفه من لم يرزق اطمئنان القلب بذكر الله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (طه ١٢٤)، و لعل وصف الحياه أو المعيشه فى الآيه التى نحن فيها بزياده الطيب تلميحا الى أنها نعمه لا تخلو من طيب على أى حال إلا أنها فيمن اطمان قلبه

بذكر الله أكثر طيبا لخلوصها من شوائب المنغصات.

فقوله: طُوبَى لَّهُمْ فِي تَقْدِيرِ لِهَمِّ حَيَاهِ أَوْ مَعِيشَةِ طُوبَى، فطوبى مبتدأ و «لَهُمْ» خبره و إنما قدم المبتدأ المنكر على الظرف لأن الكلام واقع موقع التهته و في مثله يقدم ما به التهته استعجالا بذكر ما يسر السامع ذكره نظير قولهم في البشارة: بشرى لك.

و بالجمله في الآيه تهته الذين آمنوا و عملوا الصالحات- و هم الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر الله اطمئنانا مستمرا- بأطيب الحياه أو العيش و حسن المرجع، و بذلك يظهر اتصالها بما قبلها فإن طيب العيش من آثار اطمئنان القلب كما تقدم.

قوله تعالى: كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّهٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ متاب مصدر ميمي للتوبه و هي الرجوع، و الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى ما ذكره تعالى من سنته الجاريه من دعوه الامم الى دين التوحيد ثم إضلال من يشاء و هدايه من يشاء على وفق نظام الرجوع الى الله و الإيمان به و سكون القلب بذكره و عدم الرجوع اليه.

و المعنى: و أرسلناك في امه قد خلت من قبلها امم إرسالا يماثل هذه السنه الجاريه و يجرى في أمره على وفق هذا النظام لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك و تبلغهم ما يتضمنه هذا الكتاب و هم يكفرون، بالرحمن و إنما قيل: بالرحمن، دون أن يقال «بنا» على ما يقتضيه ظاهر السياق إيماء الى أنهم في ردهم هذا الوحي الذي يتلوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عليهم و هو القرآن و عدم اعتنائهم بأمره حيث يقولون مع نزوله «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» يكفرون برحمه إلهيه عامه تضمن لهم سعادته دنياهم و أخراهم لو أخذوه و عملوا به.

ثم أمر تعالى: أن يصرح لهم القول في التوحيد فقال «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٌ» أي هو وحده ربي من غير شريك كما تقولون و لربوبيته لي وحده أتخذة القائم على جميع أمورى و بها، و أرجع اليه في حوائجى و بذلك يظهر أن قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٌ» من آثار الربوبيه المتفرعه عليها فإن الرب هو المالك المدبر فمحصل المعنى هو و كيلي

و اليه أرجع.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» المراد بتسيير الجبال قلعها من اصولها وإذهابها من مكان الى مكان و بتقطيع الأرض شقها و جعلها قطعة قطعة، و بتكليم الموتى إحيائهم لاستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ليستدل اعلى حقيه الدار الآخرة فإن هذا هو الذى كانوا يقترحونه.

فهذه امور عظيمه خارقه للعادة فرضت آثارا لقرآن فرضه الله سبحانه بقوله: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» و الآيات- كما عرفت- مسوقه لبيان أن أمر الهدايه ليس براجع الى الآيه التى يقترحونها بقوله: «لَوْ لَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً» بل الأمر الى الله يضل من يشاء كما أضلهم و يهدى اليه من أناب.

و على هذا يجرى سياق الآيات كقوله تعالى بعد: «بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصَيْدُوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ» و قوله: «وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ لَآتِيَنَّ بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ الْآيَةَ» الى غير ذلك، و على مثله جرى سياق الآيات السابقه.

فجزاء لو المحذوف هو نحو من قولنا: ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله و المعنى و لو فرض أن قرآنا من شأنه أنه تسيير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله بل الأمر كله لله ليس شىء منه لغيره حتى يتوهم متوهم أنه لو أنزلت آيه عظيمه هائله مدهشه أمكنها أن تهديهم لا بل الأمر لله جميعا و الهدايه راجعه الى مشيته.

قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ

جَمِيعاً تفرّيع على سابقه.

ذكر بعضهم أن اليأس بمعنى العلم و هي لغه هوازن و قيل لغه حى من النخع و أنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونى

ألم تياسوا أنى ابن فارس زهدم

و قول رباح بن عدى:

ألم يياس الأقوم أنى أنا ابنه

و إن كنت عن أرض العشيره نائيا

و محصل التفرّيع على هذا أنه إذا كانت الأسباب لا تملك من هدايتهم شيئاً حتى قرآن سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، و أن الامر لله جميعاً فمن الواجب أن يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايه الذين كفروا و لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً الذين آمنوا و الذين كفروا لكنه لم يهد الذين كفروا فلم يهتدوا و لن يهتدوا.

و ذكر بعضهم أن اليأس بمعناه المعروف و هو القنوط غير أن قوله: «أَفَلَمْ يَيَّأْسِ» مضمن معنى العلم و المراد بيان لزوم علمهم بأن الله لم يشأ هدايتهم و لو شاء ذلك لهدى الناس جميعاً و لزوم قنوطهم عن اهتدائهم و إيمانهم.

فتقدير الكلام بحسب الحقيقه: أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايتهم و لو يشاء لهدى الناس جميعاً أو لم يياسوا من اهتدائهم و ايمانهم؟ ثم ضمن اليأس معنى العلم و نسب اليه من متعلق العلم الجملة الشرطيه فقط أعنى قوله: «لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً» إيجازاً و إثارة للاختصار.

و ذكر بعضهم: أن قوله: «أَفَلَمْ يَيَّأْسِ» على ظاهر معناه من غير تضمين و قوله: «أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ» الخ؛ متعلق بقوله: «آمَنُوا» بتقدير الباء و متعلق «يَيَّأْسِ» محذوف و تقدير الكلام أ فلم يياس الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من إيمانهم و ذلك أن الذين آمنوا يرون أن الأمر لله جميعاً و يؤمنون بأنه تعالى لو يشاء لهدى الناس جميعاً و لو لم يشاء لم يهد فإذ لم

يهد و لم يؤمنوا فليعلموا أنه لم يشأ و ليس في مقدره سبب من الأسباب أن يهديهم و يوفقهم للإيمان فليأسوا من إيمانهم.

و هذه وجوه ثلاثه لعل أعد لها أوسطها و الآيه على أى حال لا تخلو من إشاره الى أن المؤمنين كانوا يودون أن يؤمن الكفار و لعلمهم لمودتهم ذلك لما سمعوا قول الكفار «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» طمعوا فى إيمانهم و رجوا منهم الاهتداء إن أنزل الله عليهم آيه أخرى غير القرآن فسألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يجيبهم على ذلك فأبأسهم الله من إيمانهم فى هذه الآيات، و فى آيات أخرى من كلامه مكيه و مدنيه كقوله فى سوره يس و هى مكيه: وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (آيه ١٠)، و قوله فى سوره البقره و هى مدنيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (آيه ٦).

قوله تعالى: وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَهُ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ سياق الآيات يشهد أن المراد بقوله: «بِمَا صَنَعُوا» كفرهم بالرحمن قبال الدعوه الحقه، و القارعه هى المصيبه تفرع الإنسان قرعا كأنها تؤذنه بأشد من نفسها و فى الآيه تهديد و وعيد قطعى للذين كفروا بعذاب غير مردود و ذكر علائم و أشرط له تفرعهم مره بعد مره حتى يأتهم العذاب الموعود.

و المعنى: و لا يزال هؤلاء الذين كفروا بدعوتك الحقه تصيبهم بما صنعوا من الكفر بالرحمن مصيبه قارعه أَوْ تحل تلك المصيبه القارعه قريبا من دارهم فلا يزالون كذلك حتى يأتى ما وعدهم الله من العذاب لأن الله لا يخلف ميعاده و لا يبدل قوله.

و التأمل فى كون السوره مكيه على ما يشهد به مضامين آياتها ثم فى الحوادث الواقعه بعد البعثه و قبل الهجره و بعدها الى فتح مكه يعطى أن المراد بالذين كفروا هم كفار العرب من أهل مكه و غيرهم الذين ردوا أول الدعوه و بالغوا فى الجحود و العناد و الحوا على الفتنه

و المراد بالذين تصيبهم القارعه من كان فى خارج الحرم منهم تصيبهم قوارع الحروب و شن الغارات، و بالذين تحل القارعه قريبا من دارهم أهل الحرم من قريش تقع حوادث سوء قريبا من دارهم فتصيبهم معرفتها و تنالهم وحشتها و همها و سائر آثارها السيئه، و المراد بما وعدهم عذاب السيف الذى أخذهم فى غزوه بدر و غيرها.

و اعلم أن هذا العذاب الموعود للذين كفروا فى هذه الآيات غير العذاب الموعود المتقدم فى سورة يونس فى قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ -الى قوله ثانيا- وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس ٤٧-٥٤) فإن الذى فى سورة يونس وعيد عام للامه، و الذى فى هذه الآيات وعيد خاص بالذين كفروا فى أول الدعوه النبويه من قريش و غيرهم، و قد تقدم فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦) فى الجزء الأول من الكتاب أن المراد بقوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» فى القرآن إذا أطلق إطلاقا المعاندون من مشركى العرب فى أول الدعوه كما أن المراد بالذين آمنوا إذا أطلق كذلك السابقون الى الإيمان فى أول الدعوه.

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْقَائِمِ عَلَىٰ شَيْءٍ هُوَ الْمَهِيْمُ الْمَتَسَلِّطُ عَلَيْهِ وَ الْقَائِمُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ الَّذِى يَدْبِرُهُ نَوْعًا مِنَ التَّدْبِيرِ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِمُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ أَمَا قِيَامُهُ عَلَيْهَا فَلأنه محيط بذاتها قاهر عليها شاهد لها، و أما قِيَامُهُ بِمَا كَسَبَتْ فَلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبه الحركه و السكون الى أعمال محفوظه عليها فى صحائف الأعمال ثم يحولها الى المثوبات و العقوبات فى الدنيا و الآخره من قرب و بعد و هدى و ضلال و نعمه و نقمه و جنه و نار.

و الآيه متفرعه على ما تقدمها أى إذا كان الله سبحانه يهدى من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب و يضل من يشاء فيجازيه بأشد العقاب و له الأمر جميعا فهو قائم على كل نفس بما



كسبت و مهيمن مدبر لنظام الأعمال فهل يعدله غيره حتى يشاركه في ألوهيته؟.

و من ذلك يظهر أن الخبر في قوله: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ» الخ؛ محذوف يدل عليه قوله: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ» و من سخييف القول ما نسب الى الضحاك أن المراد بقوله: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» الملائكة لكونهم موكلين على الاعمال و المعنى أفيكون الملائكة الموكلون على الأعمال بأمره شركاء له سبحانه؟ و هو معنى بعيد من السياق غايته.

قوله تعالى: قُلْ سَيُّمُوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ لَمَّا ذَكَرَ سبحانه قوله: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ» عاد اليهم بيان يبطل به قولهم ذلك مأخوذ من البيان السابق بوجه.

فأمر نبيه بأن يحاجهم بنوع من الحجاج عجيب في بابه فقال «قُلْ سَيُّمُوهُمْ» أي صفوهم فإن صفات الأشياء هي التي تتعين بها شئونها و آثارها فلو كانت هذه الأصنام شركاء لله شفعاء عنده و جب أن يكون لها من الصفات ما يسوى لها الطريق لهذا الشأن كما يقال فيه تعالى إنه حي عليم قدير خالق مالك مدبر فهو رب كل شيء لكن الأصنام إذا ذكرت فقيل: هبل أو اللات أو العزى لم يوجد لها من الصفات ما يظهر به أنها شريكه لله شفيعه عنده.

ثم قال أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ و أم منقطعه أي بل أ تنبئونه بكذا و المعنى أن اتخاذكم الأصنام شركاء له إنباء له في الحقيقة بما لا يعلم فلو كان له شريك في الأرض لعلم به لأن الشريك في التدبر يمتنع أن يخفى تأثيره في التدبير على شريكه و الله سبحانه يدبر الأمر كله و لا يرى لغيره أثرا في ذلك لا موافقا و لا مخالفا، و الدليل على أنه لا يرى لنفسه شريكا في الأمر أنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت، و بعبارة أخرى أن له الخلق و الأمر و هو على كل شيء شهيد بالبرهان الذي لا سبيل للشك اليه، و الآيه بالجملة كقوله في موضع آخر: قُلْ أُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (يونس ١٨).

ثم قال أم بظاهر من القول أي بل أ تنبئونه بأن له شركاء بظاهر من القول من غير حقيقه و هذا كقوله: **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣)**.

و عن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر كتاب نازل من الله تسمى فيه الأصنام آلهه حقه و حاصل الآيه نفى الدليل العقلى و السمعى معا على الوهيتها و كونها شركاء لله سبحانه و هو بعيد من اللفظ.

و وجه الارتباط بين هذه الحجج الثلاث أنهم فى عبادتهم الأصنام و جعلهم لله شركاء مترددون بين محاذير ثلاثه إما أن يقولوا بشركتها من غير حجه إذ ليس لها من الاوصاف ما يعلم به أنها شركاء لله، و إما أن يدعوا أن لها أوصافا كذلك هم يعلمونها و لا- يعلم بها الله سبحانه، و إما أن يكونوا متظاهرين بالقول بشركتها من غير حقيقه و هم يغرون الله بذلك تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

قال الزمخشري فى الكشف: و هذا الاحتجاج و أساليبه العجيبه التى ورد عليها مناد على نفسه بلسان تطلق ذلك أنه ليس من كلام البشر لمن عرف و أنصف على نفسه انتهى كلامه.

قوله تعالى: **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صِيَدُوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ إِضْرَابٍ** عن الحجج المذكوره و لوازمها و المعنى دع هذه الحجج فإنهم لا يجعلون له شركاء لشيء من هذه الوجوه بل مكر زينه لهم الشيطان و صدهم بذلك عن سبيل الله تعالى و ذلك أنهم على علم بأنه لا حجه على شركتها و أن مجرد الدعوى لا ينفعهم لكنهم يريدون بترويح القول بالوهيتها و توجيه قلوب العامه إليها عرض الدنيا و زينتها، و دعوتك الى سبيل الله مانعه دون ذلك فهم فى تصلبهم فى عبادتها و دعوه الناس إليها و الحث على الأخذ بها يمكرون بك من وجه و بالناس من وجه آخر و قد زين لهم هذا المكر و هو السبب فى جعلهم إياها شركاء لا غير ذلك من حجه أو غيرها و صدوا بذلك عن السبيل.

فهم زين لهم المكر و صدوا به عن السبيل و الذى زين لهم و صدهم هو الشيطان ياغوائهم، و اضلوا و الذى اضلهم هو الله سبحانه يامساك نعمه الهدى منهم و من يضل الله فما له من هاد.

قوله تعالى: لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ أَشَقُّ أَفَعَلَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَ وَاقٍ اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْوَقَايَةِ بِمَعْنَى الْحِفْظِ.

و فى الآيه إيجاز القول فيما وعد الله الذين كفروا من العذاب فى الآيات السابقيه، و فى قوله:

«وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» نفى الشفاعة و تأثيرها فى حقهم أصلا، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ المثل هو الوصف يمثل الشيء.

و فى قوله: «مَثَلُ الْجَنَّةِ» الخ؛ بيان ما خص الله به المتقين من الوعد الجميل مقابله لما أوعده به الذين كفروا و ليكون تمهيدا لما يختم به القول من الإشارة الى محصل سعى الفريقين فى مسيرهم الى ربهم و رجوعهم اليه، و قد قابل الذين كفروا بالمتقين إشاره الى أن الذين ينالون هذه العاقبه الحسنى هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات دون المؤمنين من غير عمل صالح فإنهم مؤمنون بالله كافرون بآياته (١).

## [سوره الرعد (١٣): الآيات ٣٦ الى ٤٢]

### إشارة

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَأْبٍ (٣٦) وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَسِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ (٣٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَ إِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعَدُهُمْ أَوْ نتَوَفَيْنَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُضُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)

ص: ٤٠٤

(١ - ١). الرعد ٢٧-٣٥: بحث روائى فى اطمئنان القلوب بذكر الله، شجره طوبى؛ ان طوبى شجره اصلها فى دار على عليه السلام فى الجنة.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن المراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود و النصارى أو هم و المجوس فإن هذا هو المعهود من إطلاقات القرآن و السوره مكيه و قد أثبت التاريخ أن اليهود ما كانوا يعاندون النبوه العربيه فى أوائل البعثه و قبلها ذاك العناد الذى ساقتهم اليه حوادث ما بعد الهجره و قد دخل جمع منهم فى الإسلام أوائل الهجره و شهدوا على نبوه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ كونه مبشرا به فى كتبهم كما قال تعالى: وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ (الأحقاف ١٠).

و أنه كان من النصارى يومئذ قوم على الحق من غير أن يعاندوا دعوه الإسلام كقوم من نصارى الحبشه على ما نقل من قصه هجره الحبشه و جمع من غيرهم، و قد قال تعالى فى أمثالهم: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (القصص ٥٢) و قال: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَْعِيدُونَ (الأعراف ١٥٩) و كذا كانت المجوس ينتظرون الفرج بظهور منج ينشر الحق و العدل و كانوا لا يعاندون الحق كما يعانده المشركون.

فالظاهر أن يكونوا هم المعتبون بالآيه و خاصه المحقون من النصارى و هم القائلون بكون المسيح بشرا رسولا كالنجاشى و أصحابه، و يؤيده ما فى ذيل الآيه من قوله: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا» فإنه أنسب أن يخاطب به النصارى.

و قوله: وَ مِنَ الْمُخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ اللَّامِ لِلْعَهْدِ أَى و من أحزاب أهل الكتاب من ينكر بعض ما أنزل اليك و هو ما دل منه على التوحيد و نفى التثليث و سائر ما يخالف ما عند أهل الكتاب من المعارف و الأحكام المحرفه.

و قوله: قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ دليل على أن المراد من البعض الذى ينكرونه ما يرجع الى التوحيد فى العباده أو الطاعه و قد أمره الله أن يخاطبهم بالموافقه عليه بقوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤).

ثم تم الكلام بقوله: إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَأْبِ أَى مرجعى فكان أول الكلام مفصحا عن بغيته فى نفسه و لغيره، و آخره عن سيرته أى أمرت لأعبد الله وحده فى عملى و دعوتى، و على ذلك أسير بين الناس فلا أدعو إلا اليه و لا أرجع فى أمر من امورى إلا اليه فذيل الآيه فى معنى قوله: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنْ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يوسف ١٠٨).

و يمكن أن يكون المراد بقوله: «وَ إِلَيْهِ مَأْبِ» المعاد و يفيد حينئذ فائده التعليل أى اليه أدعو

وحده لأن ما بى اليه وحده.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «كَذَلِكَ» إِلَى الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَهُوَ جِنْسُ الْكِتَابِ النَّازِلِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ كَالْتُورَاهِ وَالْإِنْجِيلِ.

و المراد بالحكم هو القضاء و العزيمه فإن ذلك هو شأن الكتاب النازل من السماء المشتمل على الشريعة كما قال: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٢/٤) فالكتاب حكم إلهى بوجه و حاكم بين الناس بوجه فهذا هو المراد بالحكم دون الحكمه كما قيل.

و قوله: عَرَبِيًّا صَفَهُ لِحُكْمٍ وَ إِشَارَهُ إِلَى كَوْنِ الْكِتَابِ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ وَ هُوَ لِسَانُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سَنَهُ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ (إبراهيم ٤/٤) وَ هَذَا - كَمَا لَا يَخْفَى - مِنَ الشَّاهِدِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى، وَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مُتَعَرِّضَةٌ لِشَأْنِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْآيَاتِ السَّابِقَةُ عَلَيْهَا مُتَعَرِّضَةٌ لِشَأْنِ الْمُشْرِكِينَ.

و على هذا فالمراد بقوله: «وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ» السخ؛ النهى عن اتباع أهواء أهل الكتاب، و قد ذكر في القرآن من ذلك شيء كثير، و عمدته ذلك أنهم كانوا يقترحون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ آيَةَ غَيْرِ الْقُرْآنِ كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقْتَرِحُونَهَا، وَ كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ لِأَحْوَالِهِمْ النِّسْخَ فِي الْأَحْكَامِ، وَ هَذَا مِنَ الْأَمْرَانِ وَ لَا سِيَّمَا أَوْلَهُمَا عَمْدَهُ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ هَذِهِ الْآيَاتِ.

و المعنى: و كما أنزلنا على الذين أتوا الكتاب كتابهم أنزلنا هذا القرآن عليك بلسانك مشتملا على حكم أو حاكما بين الناس و لئن اتبعت أهواء أهل الكتاب فتمنيت أن ينزل عليك

آيه غير القرآن كما يقترحون أو داهنتهم وملت الى اتباع بعض ما عندهم من الأحكام المنسوخه أو المحرفه أخذناك بالعقوبه و ليس لك ولى يلى أمرك من دون الله و لا واق يقيك منه فالخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو المراد به دون الامه كما ذكره بعضهم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** لما نهى النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن اتباع أهوائهم فيما اقترحوا عليه من إنزال آيه غير القرآن ذكره بحقيقه الحال التى تؤيسه من الطمع فى ذلك و يعزم عليه أن يتوكل على الله و يرجع اليه الامور.

و هو أن سنه الله الجاربه فى الرسل أن يكونوا بشرا جارين على السنه المألوفه بين الناس من غير أن يتعدوها فيملكوا شيئا مما يختص بالغيب كأن يكونوا ذا قوه غيبه فعاله لما تشاء قديره على كل ما أرادت أو أريد منها حتى تأتي بكل آيه شاءت إلا أن يأذن الله له فليس للرسول و هو بشر كسائرهم من الأمر شيء بل لله الأمر جميعا.

فهو الذى ينزل الآيه إن شاء غير أنه سبحانه إنما من الآيات إذا اقتضته الحكمة الإلهيه و ليست الأوقات مشتركه متساويه فى الحكم و المصالح و إلا لبطلت الحكمة و اختل نظام الخلقه بل لكل وقت حكمه تناسبه و حكم يناسبه فلكل وقت آيه تخصه.

و هذا هو الذى تشير اليه الآيه فقوله: **«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً»** إشاره الى السنه الجاربه فى الرسل من البشر العاديه، و قوله: **«وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»** إشاره الى حرمانهم من القدره الغيبه المستقله بكل ما أرادت إلا أن يمدهم الإذن الإلهي.

و قوله: **لِكُلِّ أَجَلٍ** أى وقت محدود **«كِتَابٌ»** أى حكم مقضى مكتوب يخصه إشاره الى ما يلوح اليه استثناء الإذن و سنه الله الجاربه فيه، و التقدير فالله سبحانه هو الذى ينزل ما شاء و يأذن فيما شاء لكنه لا ينزل و لا يأذن فى كل آيه فى كل وقت فإن لكل وقت كتابا كتبه لا

يجرى فيه إلا ما فيه.

و مما تقدم يظهر ان ما ذكره بعضهم ان قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» من باب القلب و أصله:

لكل كتاب أجل أى إن لكل كتاب منزل من عند الله وقتا مخصوصا ينزل فيه و يعمل عليه فالتوراه وقت و للإنجيل وقت و للقرآن وقت.وجه لا يعبأ به.

قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ محو الشيء هو إذهاب رسمه و أثره يقال: محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط و الرسوم قال تعالى:

وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (الشورى ٢٤/أى يذهب بآثار الباطل كما قال:

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ قَالَ: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً (أسرى ١٢/أى أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال: نسخت الشمس الظل أى ذهبت بأثره و رسمه.

و قد قوبل المحو فى الآيه بالإثبات و هو إقرار الشيء فى مستقره بحيث لا يتحرك و لا يضطرب يقال: أثبت الوتد فى الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا يتحرك و لا يخرج من مركزه فالمحو هو إزاله الشيء بعد ثبوته برسمه و يكثر استعماله فى الكتاب.

و وقوع قوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ» بعد قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» و اتصاله به من جانب و بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» من جانب ظاهر فى أن المراد محو الكتب و إثباتها فى الأوقات و الآجال فالكتاب الذى أثبتته الله فى الأجل الأول إن شاء محاه فى الأجل الثانى و أثبت كتابا آخر فلا يزال يمحي كتاب و يثبت كتاب آخر.

و إذا اعتبرنا ما فى الكتاب من آيه و كل شىء آيه صح أن يقال لا يزال بمحو آيه و يثبت آيه كما يشير اليه قوله: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلُهَا (البقره ١٠٦/)، و قوله: «وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ الْآيَةَ» (النحل ١٠١/).

فقوله: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِطْلَاقِ يفيد فائده التعليل



لقوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» و المعنى أن لكل وقت كتابا يخصه فيختلف باختلاف الكتب باختلاف الأوقات و الآجال إنما ظهر من ناحيه اختلاف التصرف الإلهي بمشيئته لا من جهه اختلافها في أنفسها و من ذواتها بأن يتعين لكل أجل كتاب في نفسه لا يتغير عن وجهه بل الله سبحانه هو الذى يعين ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب و محو كتاب و إثبات آخر.

و قوله: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ أى أصله فإن الام هى الأصل الذى ينشأ منه الشىء و يرجع اليه، و هو دفع للدخل و إبانة الحقيقه الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل بالمحو و الإثبات أى تغير الحكم المكتوب و القول المقضى به حيناً بعد حين ربما أوهم أن الأمور و القضايا ليس لها عند الله سبحانه صورته ثابتة و إنما يتبع حكمه العليل و العوامل الموجبه له من خارج كأحكامنا و قضايانا معاشر ذوى الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافى لا- تعين له فى نفسه و لا- مؤثر فى تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطة أن الذى له ملك -بكسر اللام- مطلق و سلطنه مطلقه له أن يريد ما يشاء و يفعل ما يريد على حريه مطلقه من رعايه أى قيد و شرط و سلوك أى نظام أولاً نظام فى عمله فلا صورته ثابتة لشيء من أفعاله و قضاياها عنده، و قد قال تعالى: **مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ (ق ٢٩)،** و قال: **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (الرعد ٨/٨)** الى غير ذلك من الآيات.

فدفع هذا الدخل بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» أى أصل جنس الكتاب و الأمر الثابت الذى يرجع اليه هذه الكتب التى تمحى و تثبت بحسب الأوقات و الآجال و لو كان هو نفسه تقبل المحو و الإثبات لكان مثلها لا أصلاً لها و لو لم يكن من أصله كان المحو و الإثبات فى أفعاله تعالى إما تابعا لامور خارجه تستوجب ذلك فكان تعالى مقهوراً مغلوباً للعوامل و الأسباب الخارجيه مثلنا و الله يحكم لا معقب لحكمه.

و إما غير تابع لشيء أصلاً و هو الجزاف الذى يختل به نظام الخلقه و التدبير العام الواحد يربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته، قال تعالى: **وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ**

وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان ٣٩).

فالمخلص من مضمون الآيه أن لله سبحانه في كل وقت و أجل كتابا أى حكما و قضاء و أنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب و الأحكام و الأفضيه و يثبت ما يشاء أى يغير القضاء الثابت فى وقت فيضع فى الوقت الثانى مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبه الى كل وقت قضاء لا- يتغير و لا- يقبل المحو و الإثبات و هو الأصل الذى يرجع اليه الأفضيه الأخر و تنشأ منه فيمحو و يثبت على حسب ما يقتضيه هو.

و يتبين بالآيه أولا: أن حكم المحو و الاثبات عام لجميع الحوادث التى تداخله الآجال و الأوقات و هو جميع ما فى السماوات و الأرض و ما بينهما، قال تعالى مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى (الأحقاف ٣).

و ذلك لإطلاق قوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ» و اختصاص المورد بآيات النبوه لا- يوجب تخصيص الآيه لأن المورد لا يخصص.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ «إما» هو إن الشرطيه و ما الزائده للتأكيد و الدليل عليه دخول نون التأكيد فى الفعل بعده.

و فى الآيه إيضاح لما للنبي صلى الله عليه و آله و سلم من الوظيفه و هو الاشتغال بأمر الإنذار و التبليغ فحسب فلا ينبغى له أن يتبع أهواءهم فى نزول آيه عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغى له أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم.

و فى الآيه دلالة على أن الحساب الإلهى يجرى فى الدنيا كما يجرى فى الآخره.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا الخ؛ كلام مسوق للعبره بعد ما قدم اليهم الوعيد بالهلاك، و منه يعلم أن إتيان الأرض و نقصها من أطرافها كناية عن نقص أهلها بالإماتة و الإهلاك فالآيه نظيره قوله: بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ

وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (الأنبياء ٤٤).

و قول بعضهم إن المراد به أو لم ير أهل مكة أنا نأتى أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحده بعد واحده للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم و ننتقم منهم يدفعه أن السوره مكيه و تلك الفتوحات إنما كانت تقع بعد الهجره، على أن الآيات بوعيدها ناظره الى هلاكهم بغزوه بدر و غيرها لا الى فتح مكة.

و قوله: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ يريد به أن الغلبه لله سبحانه فإنه يحكم و ليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع و الرد و هو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهله حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ» الخ؛ فى معنى قوله فى ذيل آيه سوره الأنبياء المتقدمه: «أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ» .

قوله تعالى: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا الى آخر الآيه؛ أى و قد مكر الذين من قبلهم فلم ينفعهم مكرهم و لم يقدروا على صدنا من أن نأتى الأرض فننقصها من أطرافها فالله سبحانه يملك المكر كله و يبطله و يرده الى أهله فليعتبروا.

و قوله: يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ فى مقام التعليل لملكه تعالى كل مكر فإن المكر إنما يتم مع جهل الممكور به و أما إذا علم به فعنده بطلانه.

و قوله: وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبَى الدَّارِ قَطْعَ لِلْحِجَابِ بِدَعْوَى أَنْ مَسْأَلَهُ انْتِهَاءُ الْأُمُورِ الى عواقبها من الامور الضروريه العينيه لا تتخلف عن الوقوع و سيشهدونها شهود عيان فلا حجه الى الإطاله و الإطناب فى إعلامهم ذلك فسيعلمون (١).

ص: ٤١٢

(١- ١). الرعد ٣٦-٤٢: بحث روائى حول الآيه «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ»؛ أم الكتاب؛ علم الله.

## اشاره

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

## بيان:

قوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا الخ؛ بناء الكلام فى السوره على إنكارهم حقيه الكتاب و عدم عدهم إياه آيه إلهيه للرساله و لذا كانوا يقترحون آيه غيره كما حكاها الله تعالى فى خلال الآيات مره بعد مره و أجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرساله لعدم إذعانهم بما أنزل الله من آيه و عدم إجابتهم فيما اقترحوه من آيه فكانوا يقولون: «لَسْتَ مُرْسَلًا» .

فلقن الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم الحججه عليهم لرسالته بقوله: «قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» و هو حججه قاطعه و ليس بكلام خطابى و لا إحاله الى ما لا طريق الى حصول العلم به.

فقوله: قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ استشهاد بالله سبحانه و هو ولى أمر الإرسال و إنما هى شهاده تأديه لا شهاده تحمل فقط فإن أمثال قوله تعالى: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من آيات القرآن و كونه آيه معجزه من الله ضرورى، و كونه قولاً- و كلاماً له سبحانه ضرورى و اشتماله على تصديق الرساله بدلاله المطابقه المعتمده على علم ضرورى أيضا ضرورى، و لا نعى بشهاده التأديه إلا ذلك.

و من فسر شهادته تعالى من المفسرين بأنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الأدله و الحجج ما فيه غنى عن شهاده شاهد آخر ثم قال: و تسميه ذلك شهاده مع أنه فعل و هى قول من المجاز حيث إنه يعنى غذاها بل هو أقوى منها. انتهى. فقد قصد المطلوب من غير طريقه.

و ذلك أن الأدلة و الحجج الداله على حقيه رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم إما القرآن و هو الآيه المعجزه الخالده، و إما غيره من الخوارق و المعجزات و آيات السوره- كما ترى- لا- تجيب الكفار على ما اقترحوه من هذا القسم الثانى و لا- معنى حينئذ للاستشهاد بما لم يجابوا عليه، و أما القرآن فمن البين أن الاستناد اليه من جهه أنه معجزه تصدق رساله بدلائلها عليها أى كلام له تعالى يشهد بالرساله، و إذا كان كذلك فما معنى العدول عن كونه كلاما له تعالى يدل على حقيه رساله أى شهاده لفظيه منه تعالى على ذلك بحقيقه معنى الشهاده الى كونه دليلا فعليا منه عليها سمي مجازا بالشهاده؟.

على أن كون فعله تعالى أقوى دلالة على ذلك من قوله ممنوع.

□  
فقد تحصل أن معنى قوله: «اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» أن ما وقع فى القرآن من تصديق رساله شهاده إلهيه بذلك.

و أما جعل الشهاده شهاده تحمل فيه إفساد المعنى من أصله و أى معنى لإرجاع أمر متنازع فيه الى علم الله و اتخاذ ذلك حجه على الخصم و لا سبيل له الى ما فى علم الله فى أمره؟ أ هو كما يقول أو فريه يفتريها على الله؟.

و قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ أَي و كفى بمن عنده علم الكتاب شهيدا بينى و بينكم، و قد ذكر بعضهم أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ و يتعين على هذا أن يكون المراد بالموصول هو الله سبحانه فكأنه قيل: كفى بالله الذى عنده علم الكتاب شهيدا «الخ».

و فيه أولا- أنه خلاف ظاهر العطف، و ثانيا أنه من عطف الذات مع صفته الى نفس الذات و هو قبيح غير جائز فى الفصيح و لذلك ترى الزمخشري لما نقل فى الكشاف هذا القول عن الحسن بقوله: و عن الحسن: «لا- و الله ما يعنى إلا الله» قال بعده: و المعنى كفى بالذى يستحق العباده و بالذى لا- يعلم علم ما فى اللوح إلا- هو شهيدا بينى و بينكم. انتهى. فاحتال الى تصحيحه بتبديل لفظه الجلال «الله» من «الذى يستحق العباده» و تبديل «من» من «الذى»

ليعود المعطوف و المعطوف عليه و صفيين فيكون في معنى عطف أحد و صفي الذات على الآخر و إناطه الحكم بالذات بما له من الوصفيين كدخالتهما فيه فافهم ذلك.

لكن من المعلوم أن تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا- يوجب استقامه ذلك في اللفظ الأول و إلا لبطلت أحكام الألفاظ.

على أن التأمل فيما تقدم في معنى هذه الشهاده و أن المراد به تصديق القرآن لرساله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يعطى أن وضع لفظه الجلاله في هذا الموضع لا للتلميح الى معناه الوصفي بل لإسناده الشهاده الى الذات المقدسه المستجمعه لجميع صفات الكمال لأن شهادته أكبر الشهادات قال سبحانه «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» .

و ذكر آخرون: أن المراد بالكتاب التوراه و الإنجيل أو خصوص التوراه و المعنى و كفى بعلماء الكتاب شهداء بيني و بينكم لأنهم يعلمون بما بشر الله به الأنبياء في و يقرءون نعتي في الكتاب.

و فيه أن الذي أخذ في الآية هو الشهاده دون مجرد العلم، و السوره مكيه و لم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب يومئذ كما قيل و لا شهد للرساله بشيء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد الى شهاده لم يقم بها أحد بعد.

و قيل: المراد القوم الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام و تميم الداري و الجارود و سلمان الفارسي، و قيل هو عبد الله بن سلام، و رد بأن السوره مكيه و هؤلاء إنما أسلموا بالمدينه.

و للقائلين بأنه عبد الله بن سلام جهد بليغ في الدفاع عنه فقال بعضهم: إن مكيه السوره لا تنافي كون بعض آياته مدنيه فلم لا يجوز أن تكون هذه الآية مدنيه مع كون السوره مكيه.

و فيه أولاً: أن مجرد الجواز لا يثبت ذلك ما لم يكن هناك نقل صحيح قابل للتعويل عليه.

على أن الجمهور نصوا على أنها مكيه كما نقل عن البحر.

و ثانيا: أن ذلك إنما هو في بعض الآيات الموضوعه في خلال آيات السور النازله و أما في مثل هذه الآيه التي هي ختام ناظره الى ما افتتحت به السوره فلا إذ لا معنى لإرجاء بعض الكلام المرتبط الأجزاء الى أمد غير محدود.

و قال بعضهم: إن كون الآيه مكيه لا ينافى أن يكون الكلام إخبارا عما سيشهد به.

و فيه أن ذلك يوجب رداءه الحجه و سقوطها فأى معنى لأن يحتج على قوم يقولون «لَسْتَ مُرْسِيًّا» فيقال: صدقوا به اليوم لأن بعض علماء أهل الكتاب سوف يشهدون به.

و قال بعضهم: إن هذه الشهاده شهاده تحمّل لا يستلزم إيمان الشهيد حين الشهاده فيجوز أن تكون الآيه مكيه و المراد بها عبد الله بن سلام أو غيره من علماء اليهود و النصارى و إن لم يؤمنوا حين نزول الآيه.

و فيه أن المعنى حينئذ يعود الى الاحتجاج بعلم علماء أهل الكتاب و إن لم يعترفوا به و لم يؤمنوا، و لو كان كذلك لكان المتعين أن يستشهد بعلم الذين كفروا أنفسهم فإن الحجه كانت قد تمت عليهم بكون القرآن كلام الله و لا يكون ذلك إلا عن علمهم به فما الموجب للعدول عنهم الى غيرهم و هم مشتركون فى الكفر بالرساله و نفيها. على أنه تقدم أن الشهاده فى الآيه ليست إلا شهاده أداء دون التحمل.

و قال بعضهم: -و هو ابن تيميه و قد أغرب- إن الآيه مدنيه بالاتفاق. و هو كما ترى.

و ذكر بعضهم: أن المراد بالكتاب القرآن الكريم، و المعنى أن من تحمّل هذا الكتاب و تحقق بعلمه و اختص به فإنه يشهد على أنه من عند الله و أنى مرسل به فيعود مختتم السوره الى مفتتحها من قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» و ينعطف آخرها على أولها و على ما فى أواسطها من قوله: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّ مَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ» .

و هذا فى الحقيقه انتصار و تأييد منه تعالى لكتابه قبال ما أزرى به و استهانته الذين كفروا

حيث قالوا: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» مره بعد مره و: «لَسْتُ مُرْسَلًا» فلم يعبأ بأمره و لم يبالوا به و أجاب الله عن قولهم مره بعد مره و لم يتعرض لأمر القرآن و لم يذكر أنه أعظم آيه للرساله و كان من الواجب ذلك فقوله: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» استيفاء لهذا الغرض الواجب الذى لا يتم البيان دونه و هذا من أحسن الشواهد على ما تقدم أن الآيه كسائر السوره مكيه.

و بهذا يتأيد ما ذكره جمع و وردت به الروايات من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام أن الآيه نزلت فى على عليه السلام فلو انطبق قوله: «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» على أحد ممن آمن بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم يومئذ لكان هو فقد كان أعلم الامه بكتاب الله و تكاثرت الروايات الصحيحه على ذلك و لو لم يرد فيه إلا قوله صلى الله عليه و آله و سلم فى حديث (1) الثقلين المتواتر من طرق الفريقين: «لن يفترقا حتى يردا على الحوض» لكان فيه كفايه.

ص: ٤١٧

١- ١). و هو الحديث المعروف الذى رواه الفريقان عن جم غفير من الصحابه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم «انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتى أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا». الحديث.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ  
الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ  
الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ  
الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ  
الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ

السورة الكريمة تصف القرآن النازل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من حيث إنه آية رسالته يخرج به الناس من الظلمات إلى النور و يهديهم إلى صراط الله سبحانه الذي هو عزيز حميد أى غالب غير مغلوب و غنى غير محتاج إلى الناس و جميل فى فعله منعم عليهم،و إذا كان المنعم غالباً غنيا حميد الأفعال كان على المنعم عليهم أن يجيبوا دعوته و يلبوا نداءه حتى يسعدوا بما أفاض عليهم من النعم،و أن يخافوا سخطه و شديد عذابه فإنه قوى غير محتاج إلى أحد،له أن يستغنى عنهم فيذهب بهم و يأتى بآخرين كما فعل بالذين كفروا بنعمته من الامم الماضين فإن آيات السماوات و الأرض ناطقه بأن النعمه كلها له و هو رب العزه و ولى الحمد لا رب سواه.

و بهذا تختتم السوره إذ يقول عزّ من قائل: هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ .

و لعل ما ذكرنا هو مراد من قال: إن السورة مفتحة ببيان الغرض من الرساله و الكتاب يشير إلى قوله تعالى: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .

و السورة مكيه على ما يدل عليه سياق آياتها، و نسب إلى ابن عباس و الحسن و قتاده أنها مكيه إلا آيتين منها نزلتا فى قتلى بدر من المشركين: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ بئس القارُ و سيأتى أن الآيتين غير صريحتين و لا ظاهرتين فى ذلك.

قوله تعالى: الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ أى هذا كتاب أنزلناه إليك،فهو خبر لمبتدأ محذوف على ما يعطيه السياق و قيل غير ذلك.

و قوله: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ظاهر السياق عموم الناس لا

خصوص قومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا- خصوص المؤمنين منهم إذ لا- دليل على التقييد من جهة اللفظ، و كلامه تعالى صريح في عموم رساله كقوله: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (الفرقان ١) وقوله:

لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (الأنعام ١٩)، وقوله: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (الأعراف ١٥٨)، والآيات الصريحة في دعوه اليهود و عامه أهل الكتاب، و عمله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في دعوتهم و قبول إيمان من آمن منهم كعبد الله بن سلام و سلمان و بلال و صهيب و غيرهم تؤيد ذلك.

على أن آخر السوره هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ الْآيَةَ؛ و قد قوبل به أولها يُؤَيِّدُ أن المراد بالناس أعم من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل.

و قد نسب الإخراج من الظلمات إلى النور إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لكون أحد الأسباب الظاهرية لذلك و إليه ينتهي إيمان المؤمنين بدعوته بلا- واسطه أو بواسطه، و لا- ينافية قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦)، فإن الآية إنما تنفي أصالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الهدايه و استقلاله فيها من غير أن تنفي عنه مطلق الهدايه حتى ما يكون على نحو الوساطه و بإذن من الله تعالى، و الدليل عليه قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢)، و لذلك قيد سبحانه قوله: «لِتُخْرِجَ» بقوله: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» .

و المراد بالظلمات و النور و الضلال و الهدى، و قد تكرر في كلامه تعالى اعتبار الهدى نورا و عدّ الضلال ظلمه و جمع الظلمات دون النور، لأن الهدى من الحق و الحق واحد لا- تغاير بين أجزائه و مصاديقه و لا كثره بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوى و الأهواء مختلفه متغاير بعضها مع بعض لا- وحده بينها و لا اتحاد لأبعضها و مصاديقها قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام ١٥٣).

و اللام في قوله: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ لام الغرض بناء على عموم الناس كما هو ظاهر الآية، و ليس بلام المعاقبه إذ لو كان كذلك لكان الناس كلهم مؤمنين، و المعلوم خلافه.

و أما ما اعترض عليه بعضهم أن التربيه الإلهيه بإخراج الناس من الظلمات إلى النور و إيصالهم إلى السعاده و الكمال مشروطه بالتهيؤ و الاستعداد مع كون الفيض عاماً فالمقدار الممكن من هذه العاقبه على تقدير عمومه هو هذا المقدار.

ففيه أنه اعتراف بأن كون اللام للعاقبه خلاف ظاهر الآيه، فإن الذى ذكره لا يتم إلا بتقييد «الناس» بالمستعدين، لكن الذى يجب أن يعلم أن هذا الغرض غرض تشريعى معناه أن للحكم غايه مقصوده و هى المصلحه التى يستعقبها، فإن الله سبحانه يدعو الناس ليغفر لهم و يهديهم الى الإيمان و العمل الصالح ليسعدهم بذلك و يدخلهم الجنه، و يرسل الرسل و ينزل عليهم الكتاب ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم، و يريد بما يوجهه اليهم من الأمر و النهى أن يطهرهم و يذهب عنهم رجز الشيطان، و الآيات الداله على ذلك كثيره لا موجب لإيرادها و كذا الروايات و لعلها تزهو الالوف.

قوله تعالى: **إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْعِزَّةُ تَقَابُلُ الذَّلَّةِ**، قال الراغب: العزه حاله مانعه للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أى صلبه، قال تعالى: **أَيَّتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً** و تعزز اللحم اشتد و عزز كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول إليه، انتهى موضع الحاجه.

فعزه العزيز هى كونه بحيث يصعب نيله و الوصول إليه و منه عزيز القوم و هو الذى يقهر و لا يقهر لأنه ذو مقام لا يصل إليه من قصده دون أن يمنع قبل الوصول إليه و يقهر، و منه العزيز لما قل وجوده لصعوبه نيله، و منه العزيز بمعنى الشاق لأن الذى يشق على الإنسان يصعب حصوله، قال تعالى: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** (التوبه ١٢٨/١)، و منه قوله: **وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** (ص ٢٣/١)، أى غلبنى على ما فسر به.

و الله سبحانه عزيز لأنه الذات الذى لا يقهره شىء من جهه و هو يقهر كل شىء من كل جهه و لذلك انحصرت العزه فيه تعالى فلا توجد عند غيره إلا باكتساب منه و بإذنه قال تعالى:

أَيَّتُّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (النساء ١٣٩)، وقال: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (فاطر ١٠).

والحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد وهو الثناء على الجميل الاختياري، وإذ كان كل جمال ينتهي إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (سورة الحمد ٢) ومن غريب القول ما عن الإمام الرازي على ما سنقله: أن الحميد معناه العالم الغنى.

وقوله: إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله: «إِلَى التُّورِ» يبيّن به ما يوصل إليه الكتاب الذي أنزله على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بياناً بعد بيان فتبه أولاً بأنه نور يميز الحق من الباطل والخير من الشر والسعادة من الشقاوة، وثانياً بأنه طريق واضح يجمع سالكيه في منتهى و ينتهى بهم جميعاً إلى الله العزيز الحميد.

و الوجه في ذكر الصفتين الكريمتين: العزيز الحميد أنهما مبدآن لما سيورد في السورة من الكلام الموجه إليهم فإن عمده الكلام في السورة هي تذكيرهم أن الله أنعم عليهم بربوبيته كل نعمه عظيمه، ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه و لا يكفروه و وعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنة، و إن كفروا انتقم منهم و أوردهم مورد الشقاء و العذاب، فليخافوا ربهم و ليحذروا مخالفه أمره و كفران نعمته لأن له كل العزه لا نمنع عن حلول سخطه بهم و نزول عذابه عليهم شىء، حميد لا يذم فى إثابته المؤمنين، و لا فى تعذيب الكافرين، كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التى لا تحصى.

فجّل الكلام فى هذه السورة فيما يقتضيه الصفات الثلاث: توخّده تعالى بالربوبية و عزته و كونه حميدا فى أفعاله فليخف من عزته المطلقة، و ليشكر و ليوثق بما وعد و ليتذكر من آيات ربوبيته.

و أما قوله: اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فبيان للعزيز

الحميد، والمراد بما في السماوات و الأرض كل ما في الكون فيشمل نفس السماوات و الأرض كما يشمل ما فيهما، فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهه بحقيقه معنى الملك.

و فيه إشاره الى الحججه فى كونه تعالى عزيزا حميدا، فإنه تعالى و إن كان هو الذى يحق الحق بكلماته و هو الذى ينجح كل حججه فى دلالتها، لكنه جارى عبادته فى كلامه على ما فطرهم عليه، و ذلك أنه تعالى لما ملك كل خلق و أمر بحقيقه معنى الملك فهو المالك لكل قهر و غلبه فلا قهر إلا منه و لا غلبه إلا له، فهو تعالى عزيز و له أن يتصرف فى ما يشاء بما يشاء و لا يكون تصرفه إلا محمودا غير مذموم لأن التصرف إنما يكون مذموما إذا كان المتصرف لا يملكه إما عقلا أو شرعا أو عرفا، و أى تصرف نسبه اليه تعالى عقل أو شرع أو عرف فإنه يملكه، فهو تعالى حميد محمود الأفعال.

قوله تعالى: وَ وَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ بَيَانٌ لِمَا تَقْتَضِيهِ صِفَةُ الْعِزَّةِ مِنَ الْقَهْرِ لِمَنْ يَرُدُّ دَعْوَتَهُ وَيَكْفُرُ بِنِعْمَتِهِ.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا خ؛ قال الراغب فى المفردات: و قوله عزّ و جل: «إِنَّ اسْتَحْبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ» أى إن آثروه عليه، و حقيقه الاستحباب أن يتحرى الإنسان فى الشيء أن يحبه، و اقتضى تعديته بعلى معنى الإيثار، و على هذا قوله تعالى: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، انتهى.

و معنى استحباب الدنيا على الآخرة اختيار الدنيا و ترك الآخرة رأسا، و يقابله اختيار الآخرة على الدنيا بمعنى أخذ الآخرة غايه للسعى و جعل الدنيا مقدّمه لها يتوسل بها إليها، و أما اختيار الآخرة و ترك الدنيا من أصلها فإنه مضاف الى عدم إمكانه بحقيقه معنى الكلمه يوجب اختلال أمر الآخرة، و ينجز الى تركها بالآخرة، فالحياه الدنيا حياه منقطعه و الحياه الآخرة حياه دائمه يتوسل الى سعادتها من طريق الدنيا بالاكْتِسَاب، فمن اختار الآخرة و أثبتها

لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدميتها، و من اختار الدنيا و جعلها غايه لزمه نفي الآخره من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غايه و إذ لم يجعل غايه انتفت، فليس بين يدى الإنسان إلا خصلتان:

اختيار الآخره على الدنيا بجعل الآخره غايه و إثبات الدنيا معها للمقدميه، و اختيار الدنيا على الآخره بجعل الدنيا غايه و نفي الآخره من أصلها.

و قوله: وَ يَصِيحُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا مَفَادَهُ أَنَّهُمْ يَكْفُونَ أَنفُسَهُمْ عَنِ الِاسْتِنَانِ بِسَنَةِ اللَّهِ وَ التَّدِينِ بِدِينِهِ أَوْ يَصُدُونَ وَ يَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ التَّشَرُّعِ بِشَرِيعَتِهِ عِنَادًا مِنْهُمْ لِلْحَقِّ، وَ يَطْلُبُونَ سَنَةَ اللَّهِ عِوَجًا وَ مَنْحَرَفَةً بِالِاسْتِنَانِ بِغَيْرِهَا مِنْ سَنَةِ اجْتِمَاعِيهِ أَيَا مَا كَانَتْ ثُمَّ سَجَّلَ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ» .

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ. اللسان هو اللغة، قال تعالى: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء ١٩٥).

و الضمير فى «قَوْمِهِ» عائد إلى «رَسُولٍ» و فى «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» و المحضّل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبيّن لقومه، و من الخطأ إرجاع ضمير قومه إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليفيد أن الله سبحانه كان يوحى إلى جميع الرسل بالعربيّه لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» فيفيد أنّ الله أنزل التوراه لموسى مثلا بالعربيّه ليبيّن للعرب كما فى الكشاف.

و المراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم و يخالطهم و يعاشرهم و ليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسبا لأنه سبحانه يصرح بمهاجره لوط عليه السلام من كلدّه و هم سريانيه اللسان إلى المؤتفكات، و هم عبرانيون و سّمّاهم قومه و أرسله إليهم ثم أنجاه و أهله إلا- امرأته و هى منهم و أهلكتهم قال تعالى: فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي (العنكبوت ٢٦) و فى مواضع من كلامه تعالى «قَوْمٍ

و أما من أرسل إلى أزيد من أمه و هم أولو العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواما من غير أهل لسانهم ما حكاه الله من دعوه إبراهيم عليه السّلام عرب الحجاز إلى الحجّ، و دعوه موسى عليه السّلام فرعون و قومه إلى الإيمان و عموم دعوه النبي صلي الله عليه و آله و سلم و قد اشتمل القرآن على دعوه اليهود و النصارى و غيرهم و قبول إيمان من آمن منهم بالنبي صلي الله عليه و آله و سلم و كذا ما يستفاد من عموم دعوه نوح عليه السّلام. و على هذا فالمراد بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا-بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» -و الله أعلم- أن الله لم يبين إرسال الرسل و الدعوه الدينيه على أساس معجز خارق للعادة الجارويه و لا فَوْضٍ إلى رسله من الأمر شيئا بل أرسلهم باللسان العادى الذى كانوا يكالمون قومهم و يحاورونهم به ليبيّنوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلا البيان، و أما ما وراء ذلك من الهدايه و الإضلال فالى الله سبحانه لا يشاركه فى ذلك رسول و لا غيره.

فتعود الآيه كالبيان و الإيضاح لقوله تعالى قبل: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» و أنّ معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل الله لا أزيد من ذلك فيكون فى معنى قوله: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (النحل ٤٤).

و أما قوله: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» فإشاره إلى ما أوأنا إليه أن أمر الهدى و الضلال إلى الله لا يتحقق شىء منهما إلا عن مشيئه منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أنّ هذه المشيئه منه ليست جزافيه غير منتظمه بل لها نظم ثابت فمن اتّبع الحق و لم يعانده هداه الله، و من جاحده و اتّبع هواه أضله الله فهو إضلال مجازاه غير الإضلال الابتدائى المذموم.

و قد قدم سبحانه الإضلال على الهدايه إذ قال: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبنى على عزته المطلقه فكان من الواجب أن



يبين أن ضلال من يضلّ عن السبيل كهدي من اهتدى إليها إنما هو بمشيئه منه تعالى و لم يغلب في إرادته و لم يزاحم في ملكه حتى لا- يخيل الى كل مغفل من الناس أن الله يصف نفسه بالعزه المطلقه و أنه غالب غير مغلوب و قاهر غير مقهور ثم يدعو الناس فلا يستجيبون دعوته و يأمرهم و ينهاهم فيعصون و لا يطيعون و هل هذا الا غلبه منهم و قهر و هو مغلوب مقهور؟

فكأنه تعالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته أن يرسل رسولا بلسان قومه فيبين لهم ما يسعدهم مما يشقيهم، و أمّا ضلال من ضلّ من الناس كهدي من اهتدى منهم فبمشيئه من الله و إذنه، و حاشاه أن يقهر في سلطانه أو يتصرّف في ملكه أحد بغير إذنه.

فضلال من ضلّ منهم دليل عزته فضلا أن يكون ناقضا لها كما أن هدى من اهتدى كذلك، و لذلك ذيل الكلام بقوله: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو سبحانه عزيز لا يغلبه و لا يضره ضلال من ضلّ منهم، و لا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء من شاء جزافا و عبثا بل عن نظام متقن دائمى.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إِذْ كَانَ الْكَلَامَ فِي السُّورَةِ مَبْنِيًّا عَلَى الْإِنذَارِ وَ التَّذْكَيرِ بِعِزَّةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ نَاسِبًا أَنْ يَذْكَرَ إِرسَالَ مُوسَىٰ بِالآيَاتِ لِهَدَايَةِ قَوْمِهِ فَإِنْ قَصَبَهُ رِيسَالَتُهُ مِنْ أَوْضَاحِ مُصَادِقِ ظُهُورِ الْعِزَّةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ بَيْنِ الرِّسَالِ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِيهِ: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (المؤمن ٢٣)»، وَ قَالَ حَاكِيَا عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (الدخان ١٩)».

فوزان الآيه أعنى قوله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»، من قوله: «كذّابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» وزان التنظير بداعى التأيب و تطيب النفس كما فى قوله: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء ١٦٣)».

وقوله: وَ ذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ لا- شك أن المراد بها أيام خاصه، ونسبه أيام خاصه إلى الله سبحانه مع كون جميع الأيام و كل الأشياء له تعالى ليست إلا- لظهور أمره تعالى فيها ظهورا لا يبقى معه لغيره ظهور، فهي الأزمنة و الظروف التي ظهرت أو سيظهر فيها أمره تعالى و آيات وحدانيته و سلطنته كيوم الموت الذي يظهر فيه سلطان الآخرة و تسقط فيه الأسباب الدنيوية عن التأثير، و يوم القيامة الذي لا يملك فيه نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله، و كالأيام التي أهلك الله فيها قوم نوح و عاد و ثمود فإن هذه و أمثالها أيام ظهر فيها الغلبه و القهر و الإلهيان و أن العزه لله جميعا.

و يمكن أن يكون منها أيام ظهرت فيها النعم الإلهيه ظهورا ليس فيه لغيره تعالى صنع كيوم خروج نوح عليه السلام و أصحابه من السفينه بسلام من الله و بركات و يوم إنجاء إبراهيم من النار و غيرهما فإنها أيضا كسوابقها لا نسبه لها في الحقيقه إلى غيره تعالى فهي أيام الله منسوبه إليه كما ينسب الأيام إلى الامم و الأقوام و منه أيام العرب كيوم ذى قار و يوم فجار و يوم بغاث و غير ذلك.

و تخصيص بعضهم الأيام بنعماء الله سبحانه بالنظر إلى ما سيأتى من ذكر نعمه تعالى كتخصيص آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعد ما كان الكلام جاريا في السوره على ما تقتضيه عزته تعالى، و من مقتضى صفه عزته الإنعام على العباد و الأخذ الشديد إن كفروا بنعمته.

ثم تتم الكلام بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أى كثير الصبر عند الضراء و كثير الشكر على النعماء.

## [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٦ الى ١٨]

### اشاره

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُمَنُّ عَلَيْنَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَيْنَا اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ مَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَ عَلَيْنَا اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَتَشْكُنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَنْجَرِعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَ يُأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ





قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ السوم على ما ذكره الراغب بمعنى الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ بمعنى يتركب من الذهاب و الابتغاء فكأنه في الآية بمعنى إذاقه العذاب، والاستحياء استبقاء الحياه.

و المعنى و اذكر أيها الرسول لزياده التثبت في أن الله عزيز حميد إذ قال موسى لقومه و هم بنو إسرائيل: اذكروا نعمه الله عليكم يوم أنجاكم من آل فرعون و خاصه من القبط و الحال أنهم مستمرون على إذاقتكم سوء العذاب و يكثر ذبح الذكور من أولادكم و على استبقاء حياه نسائكم للاسترقاق، و في ذلكم بلاء و محنه من ربكم عظيم.

قوله تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: التَّأَذُّنُ الْإِعْلَامُ يُقَالُ: آذَنُ وَتَأَذَّنَ وَ مِثْلُهُ أَوْعَدَ وَ تَوَعَّدَ.

انتهى.

و قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ الخ؛ معطوف على قوله: «وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ» و موقع الآية التاليه «وَ قَالَ مُوسَى» الخ؛ من هذه الآية كموقع قوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى» الخ؛ من قوله: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فافهم ذلك فهو الأنسب بسياق كلامه تعالى.

و من لطيف كرمه تعالى اللائح من الآية- كما ذكره بعضهم- اشتمالها على التصريح بالوعد و التعريض فى الوعيد حيث قال: «لَأَزِيدَنَّكُمْ» و قال: «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» و لم يقل:

لاعذبنكم و ذلك من دأب الكرام فى وعدهم و وعيدهم غالباً.

و الآية مطلقه لا دليل على اختصاص ما فيها من الوعد و الوعيد بالدنيا و لا بالآخرة، و تأثير الإيمان و الكفر و التقوى و الفسق فى شؤون الحياه الدنيا و الآخرة معا معلوم من القرآن.

و قد استدلل بالآيه على وجوب شكر المنعم، و الحق أن الآية لا تدل على أزيد من أن الكافر على خطر من كفره فإن الله سبحانه لم يصرح بفعليه العذاب على كل كفر إذ قال: «وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» و لم يقل: لاعذبنكم.

قوله تعالى: «وَ قَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» لما أمر تعال بشكر نعمه بذكر ما تأذن به من الزيادة على الشكر و العذاب على الكفر على ما تقتضيه العزه المطلقه ذكر فى تأييده من كلام موسى عليه السلام ما يجرى مجرى التنظير فقال: «وَ قَالَ مُوسَى» و الكلام جار على هذا النمط الى تمام عشر آيات.

و أما أن الله غنى و إن كفر من فى الأرض جميعاً فإنه غنى بالذات عن كل شىء فلا ينتفع بشكر و لا يتضرر بكفر، و إنما يعود النفع و الضرر الى الإنسان فيما أتى به، و أما أنه حميد فلائـن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال و الحسن و فعله تعالى حسن جميل

من كل جهه فهو جميل ظاهر الجمال يمتنع خفاؤه و إخفاؤه،فهو تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمد.

□  
على أن كل شيء يحمده بتمام وجوده حتى الكافر بنعمته كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤)،فهو  
تعالى محمود سواء حمده الناس بألسنتهم أو لم يحمده، و له كل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غيره.

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛من كلام موسى عليه السلام يذكر قومه من  
أيام الله في الامم الماضين ممن فئت أشخاصهم و خمدت أنفاسهم و عفت آثارهم و انقطعت أخبارهم فلا يعلمهم بحقيقه  
حالههم تفصيلا إلا الله كقوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم.

□ وقوله: جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمُ الظاهر أن المراد به أن رسلهم جاء وهم بحجج بينه تبين الحق و تجليه  
من غير أى إبهام و ريب فمنعواهم أن يتفوهوا بالحق و سدوا عليهم طريق التكلم.

فالضميران في «أَيْدِيَهُمْ» و «أَفْوَاهِهِمْ» للرسول، و ردّ أيديهم في أفواههم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا و يكفوا عن التكلم  
بالحق كأنهم أخذوا بأيدي رسلهم و ردوها في أفواههم إيذانا بأن من الواجب عليكم أن تكفوا عن الكلام، و يؤيده قوله بعد: «وَ  
قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» فإن دعوى الشك و الريب قبال الحجج البينه و الحق الصريح  
الذى لا يبقى مجالاً للشك لا- تتحقق إلا من جاحد مكابر متحكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمه الحق فيجبر قائلها على  
السكوت و الصمت.

□ و أما قوله: وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ فهو نحو بيان لقوله: «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ»  
و الجملة الاولى أعنى قولهم: «إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ» إنكار للشريعة الإلهيه التى هى متن الرساله،و الجملة الثانيه أعنى قولهم:

«وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ» الخ؛ إنكار لما جاءوا به من الحجج و البيّنات و إظهار ريب فيما كانوا يدعون اليه و هو توحيد الربوبية.

قوله تعالى: **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُعَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسِيئٍ** أصل الفطر على ما ذكره الراغب الشَّقُّ طولاً يقال: فطرت الشيء فطرا أى شققته طولاً، و أفطر الشيء فطورا و انفطر انفطارا أى قبل الفطر، و استعمل فى القرآن فيما انتسب إليه تعالى بمعنى الإيجاد بنوع من العناية كأنه تعالى شقّ العدم شقا فأظهر من بطنه الأشياء فهى ظاهره **مَا أَمْسَكَ** هو تعالى على شقى العدم موجوده ما كان ممسكا لها و لو ترك الإمساك لانعدمت و زالت كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر / ٤١).**

و على هذا فتفسير الفطر بالخلق الذى هو جمع الأجزاء و الأبعاض كما وقع فى بعض العبارات ليس على ما ينبغى، و يؤيد ذلك أن الفطر لو كان بمعنى الخلق لكان البرهان الذى أشير إليه بقوله: **«فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»** مسوقا لإثبات وجود الخالق فكان أجنبيا عن المقام لأن الوثنيه لا تنكر وجود خالق للعالم و أنه هو الله عزّ اسمه لا غير، و إنما ينكرون توحيد الربوبية و العباده و هو أن يكون الله سبحانه هو الربّ المعبود لا غير، و البرهان على كونه تعالى خالقا للسموات و الأرض لا ينفع فيه شيئا.

و كيف كان فقوله: **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ** الخ؛ كلام قوبل به قولهم:

**وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** و قد عرفت أن قولهم هذا يتضمن إنكارين: إنكارهم للرسالة و تشككهم فى توحيد الربوبية فكلام الرسل المورد جوابا منهم عن قولهم بالمقابله متضمن لجزءين.

فقولهم: **أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ** برهان على توحيد



الربوبيه إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشارة إلى برهان لم يكن حاجه إلى ذكر الوصف «فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ففي ذكره دلالة على أنه مزيل كل شك و ريب عنه تعالى.

و ذلك أنا نرى في أول ما نعقل أن لهذا العالم المشهود الذى هو مؤلف من أشياء كثيرة كل واحد منها محدود في نفسه متميز من غيره وجودا، وليس وجوده و لا- وجود شىء من أجزائه من نفسه و قائما بذاته و إلا- لم يتغير و لم ينعدم فوجوده و وجود أجزائه و كذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات و الآثار من غيرها و لغيرها و هذا الغير هو الذى نسميه «الله» عز اسمه.

فهو تعالى الذى يوجد العالم و كل جزء من أجزائه و يحده و يميزه من غيره فهو في نفسه موجود غير محدود و إلا لاحتاج إلى آخر يحدده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثرة لأن ما لا يحد بحد لا يقبل الكثرة.

و هو بوحدته يدبّر كل أمر كما أنه يوجد لأنه هو المالك لوجودها و الكل أمر يرجع إلى وجودها، و لا يشاركه غيره في شىء لأن شيئا من الموجودات غيره لا يملك لنفسه و لا لغيره فهو تعالى ربّ كل شىء لا ربّ غيره، كما أنه موجود كل شىء لا موجود غيره.

و هذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطة يناله الإنسان الذى يدعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقه و واقعيه من غير أن يكون وهما مجردا كما يبدية السفسطه و الشك، و يثبت به توحيد الالوهيه و الربوبيه، و لذلك تمسك به في هذا المقام الذى هو مقام خصام الوثنيه.

و قوله: «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى أَى لا يعاجلكم بالعقوبه و الهلاك و يؤخركم الى الأجل الذى لا يؤخر و قد سمّاه لكم و لا يبدل القول لديه، و قد تقدم في تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل أجلان: أجل موقوف معلق، و أجل مسمى لا يؤخر.

و من الدليل على هذا الذى ذكرناه قول نوح لقومه في هذا المقام على ما حكاه الله سبحانه:

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ (نوح ٤).

قوله تعالى: قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ قد تقدم في مباحث النبوه في الجزء الثاني من الكتاب أن الآيه المعجزه حجه عامه على نبوه النبي لا حجه عاميه و خاصه الوحي و النبوه التي هي نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعادة الجاربه بين أفراد الإنسان لا يجدونها من أنفسهم فعلى من يدعيها الإثبات، و لا طريق الى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عاده آخر يدل على صحه هذا الاتصال الغيبي لأن حكم الأمثال واحد، و إذا جاز أن تخترق العاده بشيء جاز أن تخترق بما يماثله.

و الرسل عليهم السلام لما احتجوا على كفار أممهم في النبوه العامه بقولهم: «يَدْعُوكُمْ لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» عادت الكفار اليهم بطلب الدليل منهم على ما يدعونيه من النبوه لأنفسهم معتدريين في ذلك بقولهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا»، ثم صرّحوا بما يطلبونه من الدليل و هو الآيه المعجزه بقولهم: «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

فالمعنى سلّمنا أن من مقتضى العنايه الإلهيه أن يدعونا الى المغفره و الرحمه، لكننا لا نسلّم لكم أن هذه الدعوه قائمه بكم كما تدعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشيء، و لو كان مجرد البشريه يوجب ذلك لكننا وجدناه من أنفسنا و نحن بشر، فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه فأتونا بسُلطان مبین أى ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا و يضطرنا الى الإذعان بنبوتكم و هو آيه معجزه غيبه تخرق العاده كما أن ما تدعونيه خارق مثلها.

و بهذا البيان يظهر أولا أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى، و قولهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا» سند المنع، و قولهم: «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» تصريح بطلب الدليل.

و ثانيا أن قولهم: «تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع و سنده و معناه أنكم لما كنتم بشرا مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء فلا وجه لأن نقبل

منكم ما لا نجده من أنفسنا ولا تعهده من أمثالنا، والذى نعده من أمثال هذه الامور إنما تظهر عن أغراض و مطامع دنيويه ماديه فليس إلا أنكم تريدون أن تصرفونا عن سنتنا القوميه و طريقتنا المثلى.

قوله تعالى: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ جواب الرسل عمّا أوردوه على رسالتهم بأنكم بشر مثلنا فلستم ذوى هويه ملكوتيه حتى تتصلوا بالغيب فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه القدره الغيبيه فأتونا بسلطان مبین.

و محصل الجواب أن كوننا بشرا مثلكم مسلم لكنه يوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولكم إن كونكم بشرا مثلنا يوجب أن لا تختصموا بخصيصه لا- نجدها من أنفسنا و هى الوحي الرساله فجوابه: أن المماثله فى البشريه لا- توجب المماثله فى جميع الكمالات الصوريه و المعنويه الإنسانيه كما أن اعتدال الخلقه و جمال الهيئه و كذا رزانه العقل و إصابه الرأى و الفهم و الذكاء كمالات صوريه و معنويه توجد فى بعض أفراد الإنسان دون بعض، فمن الجائز أن ينعم الله بالوحي و الرساله على بعض عباده دون بعض فإن الله يمن على من يشاء منهم.

و أما قولكم فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فإنه مبنى على كون النبى ذا شخصيه ملكوتيه و قدره غيبيه فعاله لما تشاء، و ليس كذلك فما النبى إلا بشر مثلكم يوحى إليه بالرساله و ليس له من الأمر شيء، و ما كان له أن يأتى بآيه من عنده إلا أن يشاء الله ذلك و يأذن فيه.

فقوله: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ تسليم من الرسل لقولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا» لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه، و قوله: «وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ» إشاره إلى مقدمه بانضمامها يستنتج المطلوب، و قوله: «وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» جواب منهم استنتجوه من كونهم بشرا مثلهم.

و تذييل هذا الكلام بقولهم: وَ عَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ للإشاره الى ما

يجرى مجرى حجه ثانيه على إرجاع الأمر كله-و منه أمر الآيه المعجزه-الى الله و هى حجه خاصه بالمؤمنين،و ملخصها أن الإيمان بالله سبحانه يقتضى منهم أن يذعنوا بأن الإتيان بالآيه إنما هو الى الله لأن الحول و القوه له خاصه لا يملك غيره من ذلك شيئاً إلا بإذنه.

و ذلك لأنه هو الله عز شأنه،فهو الذى يبدأ منه و ينتهى اليه و يقوم به كل شىء فهو رب كل شىء المالك لتدبير أمره لا يملك شىء أمراً إلا- بإذنه فهو و كيل كل شىء القائم بما يرجع اليه من الأمر،فعلى المؤمن ان يتخذ ربه و كيلا فى جميع ما يرجع اليه حتى فى أعماله التى تنسب اليه لما أن القوه كلها له سبحانه و على الرسول ان يذعن بأن ليس له الإتيان بآيه معجزه إلا بإذن الله.

و الآيه ظاهره فى أن الرسل عليهم السلام لم يدعوا امتناع إتيانهم بالآيه المعجزه المسماه سلطانا ميينا،و إنما ادعوا امتناع أن يستقلوا بذلك من غير حاجه فيه إلى إذن الله سبحانه،و احتجوا على ذلك أولاً،و ثانياً.

قوله تعالى: **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا** وَ لَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْنَا وَمَا نُنَاجِيهِ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ما استفهاميه و الاستفهام للإنكار، و قوله: **«وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا»** حال من الضمير فى «لنا» و سبل الأنبياء و الرسل الشرائع التى كانوا يدعون إليها، قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف ١٠٨)** / و المعنى ما الذى نملكه من العذر فى أن لا نتوكل على الله و الحال أنه تعالى هدانا سبلنا و لم يكن لنا صنع فى هذه النعمه و السعاده التى من بها علينا فإذا كان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذى هو كل الخير،فمن الواجب أن نتوكل عليه فى سائر الامور.

و هذا فى الحقيقه حجه ثانيه على وجوب التوكل عليه و إلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار المداله على وجوب التوكل عليه كما أن الحجه السابقه سلك فيها من النظر فى نفس المؤثر،و تقرير الحجه أن هدايته تعالى إيانا إلى سبلنا دليل على وجوب التوكل عليه لأنه لا يخون عباده و لا يريد بهم إلا الخير و مع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على

عدم التوكل يكون عذرا لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى.

فقوله تعالى: **وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** مجرى اللهم، وقوله: **«وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا»** مجرى الإن فتدبر فى هذا البيان العذب و الاحتجاج السهل الممتنع الذى قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه فى أوجز لفظ.

وقوله: **وَ لَنُصَبِّرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْنُمُونَ** من تفریع الصبر على ما بين من وجوب التوكل عليه أى إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه و نحن مؤمنون به و قد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيدائكم لنا فى سبيل الدعوه إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد و يفعل ما يشاء من غير أن نأوى فى ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول و القوه.

وقوله: **وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** كلام مبنى على الترقى أى كل من تلبس بالتوكل فعليه أن يتوكل على الله سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقه التوكل لا يكون إلا مؤمنا فإنه مدعن أن الأمر كله لله فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر و ينتهى عما ينهى و يرضى بما يرضى به و يسخط عما سخط عنه و هذا هو الإيمان.

قوله تعالى: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا** هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا فى مناظرتهم و خسروا فى محاجتهم، و الخطاب فى قولهم: **«لَنُخْرِجَنَّكُمْ»** الخ؛ للرسل و الذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل فى ملتهم و يبقى أتباعهم على دين التوحيد. على أن الله سبحانه صرح بذلك فى قصص بعضهم كقوله فى شعيب: **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا (الأعراف ٨٨).**

وقوله: **أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا** «عاد» من الأفعال الناقصه بمعنى الصيروره و هى الحيلولة من حال إلى حال سواء كان عليها سابقا أولا و من الدليل عليه- كما قيل- قوله: **«فِي مِلَّتِنَا»** و لو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعين أن يقال: إلى ملتنا.

و من لطيف الصنائه فى الآيه دخول لام القسم و نون التأكيد على طرفى الترديد «لنخرجنكم أو لتعودن» مع أن أو للاستدراك و تفيد معنى الاستثناء و لا- معنى لأن يقال: إلا- أن تعودوا و الله فى ملتنا، إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان فى معنى الإعاده و عاد قوله:

«لَتَعُوذُنَّ» طرف الترديد و صح دخول اللام و النون و آل المعنى إلى قولنا: و الله لنخرجنكم من أرضنا أو نعيدنكم فى ملتنا.

قوله تعالى: فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَ لَنَسْجِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير الجميع الأول و الثانى للرسول و الثالث للذين كفروا بدلاله السياق، و التعبير عنهم بالظالمين للإشاره إلى سببيه ظلمهم للإهلا-ك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعليه كما أن قوله: «ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ» مشعر بالعليه الخوف للإسكان.

و قوله: مَقَامِي مصدر ميمي أريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أريد به مرتبه قيمومه تعالى للأمر كله، و المراد من وعيده تعالى ما أوعده به المخالفين عن أمره من العذاب.

فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بما أنه الله القائم بأمر عباده و المراد بالخوف من وعيده تقواه بما أنه الله الذى حذر عباده من مخالفه أمره بلسان أنبيائه و رسله فيعود على أى حال إلى التقوى و ينطبق على قول موسى لقومه: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف ١٢٨/) كما أشار إليه فى الكشاف.

و المعنى فأوحى رب الرسول إليهم- و قد أخذت صفه الربوبيه الخاصه بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمه و العنايه- و أقسم لنهلكن هؤلاء المهديين لكم بظلمهم و لنسكننكم هذه الأرض التى هددوكم بالإخراج منها و نورثكم إياها لصفه مخافتكم منى و من وعيدى و كذلك نفع فنورث الأرض عبادنا المتقين.

قوله تعالى: **وَاسِيَّتْفَتَحُوا وَخَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** الاستفتاح طلب الفتح و النصر. و الخيبة انقطاع الرجاء و الخسران و الهلاك، و العنيد هو اللجوج و منه المعاند.

و الضمير فى **وَاسِيَّتْفَتَحُوا** للرسل أى طلبوا النصر من الله لما انقطعت بهم الأسباب من كل جانب و بلغ بهم ظلم الظالمين و تكذيب المعاندين كقول نوح فيما حكاه الله: **أَنى مَغْلُوبٌ فَأَتْتَصِرُ** (القمر ١٠/)، و يمكن رجوع الضمير إلى الرسل و الكفار جميعا فإن الكفار أيضا كانوا يصرون على أن يأتيهم الرسل بما يقضى بينهم كقولهم: **مَتى هَذَا الْفَتْحُ** (الم السجده ٢٨/). **مَتى هَذَا الْوَعْدُ** (يس ٤٨/)، و على هذا التقدير يكون المعنى:

و استفتح الرسل و الكفار جميعا، و كانت الخيبة للجبارين و هو عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: **مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ** إلى آخر الآيتين؛ الصديد القيح السائل من الجرح، و هو بيان للماء الذى يسقونه فى جهنم. و التجرع تناول المشروب جرعه جرعه على الاستمرار، و الإساعه إجراء الشراب فى الحلق يقال: ساع الشراب و أسغته أنا كذا فى المجمع و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ** إلى آخر الآيه، يوم عاصف شديد الريح تمثيل لأعمال الكفار من حيث تترتب نتائجها عليها و بيان أنها حبط باطله لا أثر لها من جهة السعاده فهو كقوله تعالى:

**وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا** (الفرقان ٢٣/). فأعمالهم كذرات من الرماد اشتدت به الريح فى يوم شديد الريح فنثرته و لم يبق منه شيئا هذا مثلهم من جهة أعمالهم.

و من هنا يظهر أن لا حاجه إلى تقدير شىء فى الكلام و إرجاعه إلى مثل قولنا: مثل أعمال الذين كفروا الخ؛ و الظاهر أن الآيه ليست من تمام كلام موسى بل هى كالنتيجه المحصله من

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ١٩ الى ٣٤]

إشارة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاسًا يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدُلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصِلُونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ وَالنَّهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظُلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)





قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ الْمَراد بالرؤية هو العلم القاطع، فإنه لصالح لأن يتعلّق بكيفية خلق السماوات والأرض دون الرؤية البصريه.

ثم الفعل الحق و يقابله الباطل هو الذى يكون لفاعله فيه غايه مطلوبه يسلك إليه بذاته فمن المشهود أن كل واحد من الأنواع من أول تكونه متوجه إلى غايه مؤجله لا- بغيه له دون أن يصل إليها ثم البعض منها غايه للبعض ينتفع به فى طريق كينونته و يصلح به فى حدوثة و بقائه كالعناصر الارضيه التى ينتفع بها النبات، و النبات الذى ينتفع به الحيوان و هكذا قال تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الدخان ٣٩). و قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (ص ٢٧).

فلا- تزال الخلقه تقع مرحله بعد مرحله و تنال غايه بعد غايه حتى تتوقف فى غايه لا- غايه بعدها، و ذلك رجوعها إلى الله سبحانه، قال تعالى: وَ أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى (النجم / ٤٢).

و بالجمله الفعل إنما يكون فعلا حقا إذا كان له أمر يقصده الفاعل بفعله و غايه يسلك بالفعل إليها، و أما إذا كان فعلا لا يقصد به إلا- نفسه من غير أن يكون هناك غرض مطلوب فهو الفعل الباطل، و إذا كان الفعل الباطل ذا نظام و ترتيب فهو الذى يسمى لعبا كما يلعب الصبيان بإتيان حركات منظمه مرتبه لا- غايه لهم وراءها و لا أن لهم همّا إلا إيجاد ما تخيلوه من صوره الفعل لشوق نفسانى منهم إلى ذلك.

وفعله تعالى ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات و الارض يخلف عالما باقيا بعد زواله، و لو لم يكن كذلك كان باطلا لا أثر له و لا خلف يخلفه، و كان العالم المشهود بما فيه من النظام البديع لعبا منه سبحانه اتخذه لحاجه منه إليه كالتنفس من كرب و سأمه و التفرج من همّ أو التخلص من وحشه وحده و نحو ذلك و هو سبحانه العزيز الحميد لا تمسه حاجه و لا يذله فقر و فاقه.

و بما مرّ يظهر أن الباء في قوله: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و أن قول بعضهم: أن الباء للسببيه أو الآله و أن المعنى كيف خلقها بقوله الحق أو للغرض الحق ليس على ما ينبغي.

قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أَيْ بِشَاقٍ صَعْبٍ، و الخطاب لعامه البشر بجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مثالا لهم يمثلون به لان الخطاب متوجه إليه في قوله قبل و بعد: «أَلَمْ تَرَ» وَ مَا ذَلِكَ» .

قوله تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً الى آخر الآيه؛ البروز هو الخروج الى البراز بفتح الباء و هو الفضاء، يقال: برز اليه إذا خرج اليه بحث لا يحجبه عنه حاجب، و منه المبارزه و البراز كخروج المقاتل من الصف الى كفؤه من العدو.

و التبع بفتحيتين جمع تابع كخادم و خادم، و قيل: اسم جمع، و قيل: مصدر جيء به للمبالغه، و الإغناء الإفاده و ضمّن معنى الدفع و لذا عدّى بعن كما قيل، و الجزع و الصبر متقابلان، و المحيص اسم مكان من حاص يحيص حيصا و حيوصا إذا زال عن المكروه كما في المجمع فالمحيص هو المكان الذي يزول اليه الإنسان عن المكروه و الشده.

قوله: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً أى ظهوروا له تعالى ظهورا لا يحجبهم عنه حاجب و هذا بالنسبه الى أنفسهم حيث كانوا يتوهمون في الدنيا أن ربهم في غيبه عنهم و هم غائبون عنه، فإذا كان يوم القيامه زال كل ستر متوهم و شاهدوا أن لا حاجب هناك يحجبهم عنه، و أما هو تعالى فلا ساتر يستر عنه في دنيا و لا آخره، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي

الْأَرْضِ وَاللَّيْلِ فِي السَّمَاءِ (آل عمران ٥).

و يمكن أن تكون الجملة كناية عن خلوصهم لحساب الأعمال و تعلق المشيئة الإلهية بانقطاع الأعمال و إنجاز الجزاء الموعود كما قال: سَنَفُزُّكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ (الرحمن / ٣١).

و قوله: فَقَالَ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا -إلى قوله- مِنْ شَيْءٍ تَخَاصُمَ بَيْنَ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ-على ما يعطيه السياق-فالضعفاء هم المقلدون المطيعون لأوليائهم من الكفار، و المستكبرون هم أولياؤهم المتبوعون أولو الطول و القوه المستنكفون عن الإيمان بالله و آياته.

و المعنى فقال الضعفاء المقلدون للذين استكبروا منهم إنا كنا فى الدنيا لكم تابعين مطيعين من غير أن نسألكم حجه على ما تأمرونا به فهل أنتم مفيدون لنا اليوم تدفعون عنا شيئا من عذاب الله الذى قضى علينا.

و على هذا فلفظه «مِنْ» فى قوله: «مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» للبيان، و فى قوله: «مِنْ شَيْءٍ» زائده للتأكيد كما فى قولنا: ما جاءنى من أحد، و النفى و الاستفهام متقاربان حكما و لا دليل على امتناع تقدم البيان على المبين و خاصه مع اتصالهما و عدم الفصل بينهما.

و قوله: قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ظاهر السياق أن المراد بالهدايه هنا الهدايه الى طريق التخلص من العذاب و يمكن أن يكون المراد بها الهدايه الى الدين الحق فى الدنيا، و المآل واحد لما بين الدنيا و الآخرة من التطابق، و لا يبرز فى الاخرى إلا ما كان كامنا فى الاولى، قال تعالى حكاية عن أهل الجنة: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ (الأعراف ٤٣)، مزجوا الهدايتين بعضا ببعض كما هو ظاهر.

و قوله: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنا أَمْ صَبْرُنا مَا لَنَا مِنْ مَحِصٍ سِوَاءِ و الاستواء

والتساوى واحد، وسواء خبر لمبتدأ محذوف و الجملة الاستفهامية بيان لذلك، وقوله: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ بيان آخر للتساوى، والمعنى الأمران متساويان علينا و بالنسبة إلنا و هما الجزع و الصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى آخِرِ آيَةِ فِي الْمَجْمَعِ الْإِصْرَاحِ الْإِغَاثَةَ بِإِجَابَةِ الصَّارِخِ وَ يُقَالُ: اسْتَصْرَخَنِي فَلَانَ فَأَصْرَخْتَهُ أَى اسْتَغَاثَ بى فَأَغَثْتَهُ. انتهى.

و هذا كلام جامع يلقيه الشيطان يوم القيامة الى الظالمين يبين فيه موقعه منهم و يتبى أهل الجمع منهم بوجه الحق فى الرابطة التى كانت بينه و بينهم فى الدنيا و قد وعد الله سبحانه أنه سينبئهم يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون، و أن الحق سيظهر يوم القيامة عن قبل كل من كان له من قبله خفاء أو التباس، فالملائكة يتبرءون من شركهم و الجن و القرناء من الشياطين يطردونهم، و الأصنام و الآلهة التى اتخذوها أربابا من دون الله يكفرون بشركهم، و كبرائهم و أئمة الضلال لا- يستجيبون لهم، و المجرمون أنفسهم يعترفون بضلالهم و جرمهم، كل ذلك واقعه فى آيات كثيرة غير خفيه على المتتبع المتدبر فيها.

و الشيطان و إن كان بمعنى الشرير و ربما أطلق فى كلامه تعالى على كل شرير من الجن و الإنس كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام ١١٢)، لكن المراد به فى الآية الشيطان الذى هو مصدر كل غوايه و ضلال فى بنى آدم و هو إبليس فإن ظاهر السياق أنه يخاطب بكلامه هذا عامه الظالمين من أهل الجمع و يعترف أنه كان يدعوهم الى الشرك، و قد نص القرآن على أن الذى له هذا الشأن هو إبليس و قد ادعى هو ذلك و لم يرد الله ذلك عليه كما فى قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ - إلى أن قال- ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص ٨٥).

و أما ذريته و قبيله الذين يذكهم القرآن بقوله: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأعراف ٢٧)، و قوله: أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ (الكهف ٥٠/) فولايه الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو فى بعض الأعمال دون بعض، وإما ولايه على نحو العونيه فهو العون، والأصل الذى ينتهى إليه أمر الإضلال والإغواء هو إبليس.

فهدا القائل: إِنَّ اللَّهَ وَعَدُّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ الْخ؛ هو إبليس يريد بكلامه ردّ اللوم على فعل المعاصى اليهم و التبرى من شركهم فقوله: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدُّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَ وَعَدُّتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أى وعدكم الله وعدا حقيقه الوقوع و صدقته المشاهده من البعث و الجمع و الحساب و فصل القضاء و الجنه و النار، و وعدتكم أنا أن لا بعث و لا حساب و لا جنه و لا نار و لم أف بما وعدت حيث ظهر خلاف ما وعدت. كذا ذكره المفسرون.

و على هذا فالموعود جميع ما يرجع الى المعاد إثباتا و نفيًا أثبتة الله سبحانه و نفاه إبليس، و إخلاف الوعد كنايه عن ظهور الكذب و عدم الوقوع من إطلاق الملزوم و إرادته اللازم.

و من الممكن -بل هو الوجه- أن يشمل الوعد ما يترتب على الإيمان و الشرك فى الدنيا و الآخره جميعا لأنهما متطابقتان فقد وعد الله أهل الإيمان حياه طيبه و عيشه سعيده، و أهل الشرك المعرضين عن ذكره معيشه ضنكا و تحرّجا فى صدورهم و عذابا فى قلوبهم فى الدنيا، و وعد الجميع بعثا و حسابا و جنه و نارا فى الآخره.

و وعد إبليس أوليائه بالأهواء اللذيذه و الآمال الطويله و أنساهم الموت و صرفهم عن البعث و الحساب و خوّفهم الفقر و الذلّه و ملامحه الناس، و كان مفتاحه فى جميع ذلك إغفالهم عن مقام ربهم و تزيين ما بين أيديهم من الأسباب مستقله بالتأثير خالقه لآثارها و تصوير نفوسهم لهم فى صوره الاستقلال مهيمنه على سائر الأسباب تدبرها كيف شاءت فتغريهم على الاعتماد بأنفسهم دون الله و تسخير الأسباب فى سبيل الآمال و الأمانى.

و بالجمله وعدهم الله فيما يرجع الى الدنيا و الآخره بما و فى لهم فيه، و دعاهم إبليس من طريق الإغفال و التزيين الى الأوهام و الأمانى و هى بين ما لا يناله الإنسان قطعا و ما إذا ناله

وجده غير ما كان يظنه، فيتركه الى ما يظنه كما يريد هذا في الدنيا و أما الآخرة فينسيه شؤونها كما تقدم.

وقوله: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي السُّلْطَانُ - كما ذكره الراغب - هو السلاطه و هو التمكن من القهر، و تسمى الحجه أيضا سلطانا لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج، و كثيرا ما يطلق و يراد به ذو السلطان كالملك و غيره.

و الظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطه الصوريه و المعنويه فالمعنى و ما كان في الدنيا لي عليكم من تسلط لا - من جهه أشخاصكم و أعيانكم فاجبركم على معصيه الله بسلب اختياركم و تحميل إرادتي عليكم، و لا - من جهه عقولكم فاقم لكم الحجه على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله و تطيعها نفوسكم فيما تأمرها به.

و الظاهر أيضا أن يكون الاستثناء في قوله: «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» منقطعاً و المعنى لكن دعوتكم من غير أي سلطان فاستجبت لي، و دعوته الناس إلى الشرك و المعصيه و إن كانت باذن الله لكنهما لم تكن تسلطاً فإن الدعوه إلى فعل ليست تسلطاً من الداعي على فعل المدعو و إن كان نوع تسلط على نفس الدعوه، و من الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له: وَاسْتَفْزِزْ مِنَ الَّذِينَ تَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصُورَتِكَ - إلى أن قال - وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (الإسراء ١٦٥).

وقوله: مَا أَنَا بِمُضِرِّخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّخِي أَي مَا أَنَا بِمُغِيثِكُمْ وَ مُنْجِيكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُغِيثِي وَ مُنْجِيٍّ فَلَا أَنَا شَافِعٌ لَكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ شَافِعُونَ لِي الْيَوْمَ.

وقوله: إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ أَي أَنِي تَبَرَّاتُ مِنْ إِشْرَاكِكُمْ إِيَّاي فِي الدُّنْيَا، وَ الْمُرَادُ بِالْإِشْرَاكِ فِي الطَّاعَةِ دُونَ الْإِشْرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى خَاطَبًا لِأَهْلِ الْجَمْعِ: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنْ

اعْبُدُونِي (يس ٦١).

و قوله: إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ من تمام كلام إبليس على ما يعطيه السياق يسجل عليهم العذاب الأليم لأنهم ظالمون ظلما لا يرجع إلا الى أنفسهم.

و ظاهر السياق أن قوله: مَا أَنَا بِمُضِيرٍ بِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِيرِيَّ كُنَايَه عن انتفاء الرابطه بينه و بين تابعيه كما يشير تعالى اليه في مواضع اخرى بمثل قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤)، و قوله: فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شَرَّكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (يونس ٢٨).

و فى الآيه دلالة واضحة على أن للانسان سلطانا على عمله هو الذى يوجب ارتباط الجزاء به و يسلبه عن غيره، و هو الذى يعيد اللاتمه اليه لا الى غيره، و أما كونه مستقلا بهذا السلطان فلا دلالة فيها على ذلك البتة، و قد تكلمنا فى ذلك فى الجزء الأول من الكتاب فى ذيل قوله:

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

قوله تعالى: وَ أَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ الْخَبْر؛ بيان ما ينتهى اليه حال السعداء من المؤمنين، و فى قوله: «تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» مقابله حالهم من انعكاس السلام و التحية المباركه من بعضهم الى بعض مع حال غيرهم المذكورين فى الآيتين السابقتين من الخصام و تجبيه بعضهم بعضا بالكفر و التبرى و الإياس.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ذَكَرُوا أَنَّ «كَلِمَةً» بدل اشتمال من «مَثَلًا» و «كَشَجَرَةٍ» صفة بعد صفة لقوله: «كَلِمَةً» أو خبر مبتدأ محذوف و التقدير هى كشجره، و قيل: إن «كَلِمَةً» مفعول أول متأخر لضرب و «مَثَلًا» مفعوله الثانى قدّم لدفع محذور الفصل بين «كَلِمَةً» و صفتها و هى «كَشَجَرَةٍ» و التقدير ضرب الله كلمه طيبه كشجره طيبه الخ...مثلا.



وقيل «ضَرَبَ» متعدّد لواحد و «كَلِمَةً» منصوب بفعل مقدّر كجعل و اتخذ و التقدير ضرب الله مثلا جعل كلمه طيبه كشجره طيبه الخ؛ و أظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجه بكون «كَلِمَةً طَيِّبَةً» الخ؛ عطف بيان لقوله: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا» من بيان الجملة للجمله، و يتعيّن حينئذ نصب «كَلِمَةً» بمقدّر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثل الكلمه بالشجره و شبهها بها و هو معنى قولنا: اتخذ كلمه طيبه كشجره الخ.

و قوله: أَصْلُهَا ثَابِتٌ أَي مرتكز في الأرض ضارب بعروقه فيها، و قوله:

وَ فَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ أَي ما يتفرع على ذلك الأصل من أغصانها في جهه العلو فكل ما علا و أظّل سماء،

و قوله: تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا أَي تثمر ثمرها المأكول كل زمان بإذن الله، و هذا نهايه ما تفيده شجره من البركات.

و الذى يعطيه التدبر فى الآيات أن المراد بالكلمه الطيبه التى شَبَّهت بشجره طيبه من صفتها كذا و كذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعد و هو كالنتيجه المأخوذه من التمثيل «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ» الآيه و القول هى الكلمه و لا كل كلمه بما هى لفظ بل بما هى معتمده على اعتقاد و عزم يستقيم عليه الإنسان و لا يزيغ عنه عملا.

ثم ختم الله سبحانه الآيه بقوله: «وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» ليتذكر به المتذكر أن لا محيص لمريد السعاده عن التحقق بكلمه التوحيد و الاستقامه عليها.

قوله تعالى: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مِمَّا لَهَا مِنْ فُرَارٍ الاجتثاث الاقتلاع، يقال: جثته و اجثته أى قلعته و اقتلعته، و الجث بالضم ما ارتفع من الأرض كالأكمه، و جثه الشىء شخصه الناتية. كذا فى المفردات.

و الكلمه الخبيثه ما يقابل الكلمه الطيبه و لذا اختلفوا فيها فقال كل قوم فيها ما يقابل ما قاله فى الكلمه الطيبه و كذا اختلفوا فى المراد بالشجره الخبيثه فقليل: هى الحنظل، و قيل:

الكشوث و هو نبت يلتف على الشوك و الشجر لا أصل له فى الأرض و لا ورق عليه، و قيل:

شجره الثوم، و قيل: شجره الشوك، و قيل: الطحلب، و قيل: الكمأه، و قيل: كل شجره لا تطيب لها ثمره.

و قد عرفت حال هذه الاختلافات فى الآيه السابقه، و عرفت أيضا ما يعطيه التدبير فى معنى الكلمه الطيبه و ما مثلت به و يجرى ما يقابله فى الكلمه الخبيثه و ما مثلت به حرفا بحرف فإنما هى كلمه الشرك مثلت بشجره خبيثه مفروضه اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت و ما لها من قرار، و إذ كانت خبيثه فلا أثر لها إلا الضرّ و الشرّ.

قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن «بِالْقَوْلِ» متعلق بقوله: «يُبَيِّنُ» لا بقوله: «آمَنُوا»، و الباء للآله أو السببيه لا للتعديه، و أن قوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ» متعلق أيضا بقوله: «يُبَيِّنُ» لا بقوله: «الثَّابِتِ».

فيعود المعنى إلى أن الذين آمنوا إذا ثبتوا على إيمانهم و استقاموا ثبتهم الله عليه فى الدنيا و الآخره، و لو لا تثبيته تعالى لهم لم ينفعهم الثبات من أنفسهم شيئا و لم يستفيدوا شيئا من فوائده فإليه تعالى يرجع الأمر كله، فقوله تعالى: «يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ»، و فى باب الهدايه يوازن قوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥/٥)، فى باب الإضلال.

غير أن بين البابين فرقا و هو أن الهدى يبتدىء من الله سبحانه و يترتب عليه اهتداء العبد، و الضلال يبتدىء من العبد بسوء اختياره فيجازيه الله بالضلال على الضلال، كما قال: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦/٢٦) و قد تكاثرت الآيات القرآنيه أن الهدايه من الله سبحانه ليس لغيره فيها صنع.

و توضيح المقام أن الله سبحانه خلق الإنسان على فطره سليمه ركز فيها معرفه ربوبيته و ألهمها فجورها و تقواها، و هذه هدايه فطريه أوليه ثم أيدها بالدعوه الدينيه التى قام بها أنبياءه و رسله.

ثم إن الإنسان لو جرى على سلامه فطرته و اشتقاق إلى المعرفة و العمل الصالح هداه الله فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى، و أما جريه على سلامه الفطره فلو سمى اهتداء فإنما هو اهتداء متفرع على السلامه الفطريه لو سميت هدايه.

و لو انحرف الإنسان عن صراط الفطره بسوء اختياره و جهل مقام ربه و أخلد إلى الأرض و أتبع الهوى و عاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من الله- و حاشاه سبحانه- لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاه و تثبيته على ما هو عليه بقطع الرحمه منه و سلب التوفيق عنه و هذا إضلال مسبوق بضلاله من نفسه بسوء اختياره و إزاعه له عن زيغ منه.

و قوله: **وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** أي يجري تثبيت هؤلاء و إضلال اولئك على ما تقتضيه مشيئته لا مانع له و لا دافع فلا حائل بين مشيئته و فعله.

و يظهر من ذلك أن الله تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء و إضلال اولئك و هو فاعلهما لا محاله فمن القضاء المحتوم سعادته المؤمن و شقاء الكافر و قد وردت به الروايه.

و وقوع لفظ الجلاله في قوله: **وَ يُضِلُّ اللَّهُ** و قوله: **وَ يَفْعَلُ اللَّهُ** من وقوع الظاهر موقع المضممر و يدل على فخامه الأمر و مهابه الموقف كما قيل.

قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلُوا قَوْمَهُمْ** **دَارَ الْبُورِ** قال في المجمع: الإحلال وضع الشيء في محل إما بمجاوره إن كان من قبيل الأجسام أو بمدخله إن كان من قبيل الأعراض، و البوار الهلاك يقال: بار الشيء يبور بورا إذا هلك و رجل بور أي هالك و قوم بور أيضا. انتهى.

و قال الراغب: البوار فرط الكساد و لما كان فرط الكساد يؤدي الى الفساد كما قيل: كسد حتى فسد، عبّر بالبوار عن الهلاك يقال: بار الشيء يبور بورا و بورا قال عزّ و جل: **تِجَارَةٌ لَنْ تَبُورَ** انتهى.

و الآيه تذكر حال أئمة الكفر و رؤساء الضلال في ظلمهم و كفرانهم نعمه الله سبحانه التي

أحاطت بهم من كل جهه بدل أن يشكروها و يؤمنوا بربهم، و قد ذكر قبل كيفية خلقه تعالى السماوات و الأرض على غنى منه و هى نعمه، ثم ذكر كلمه الحق التى يدعو إليها و ما لها من الآثار الثابته الطيبه و هى نعمه.

و الآيه مطلقه لا دليل على تقييدها بكفار مكه أو كفار قريش و إن كان الخطاب فيها للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و كان فى ذيلها مثل قوله: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» لظهور أن ذلك لا يوجب تقييدا فى الآيه مع إطلاق مضمونها و شمولها للطواغيت من الامم و ما صنعوا بأفوامهم.

فقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا يَذْكُرُ حَالِ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَرُؤَسَاءِ الضَّلَالِ مِنَ الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ وَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ الدليل على اختصاصه بهم قوله: «وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ» المشعر بكونهم نافذى الكلمه مطاعين فى قومهم فهم الأئمه و الرؤساء.

و المراد بتبديلهم نعمه الله كفرا بتبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفرا فى الجملة مضاف محذوف و التقدير: بدّلوا شكر نعمه الله كفرا، و يمكن أن يراد بتبديل نفس النعمه كفرا بنوع من التجوّز، و نظير الآيه فى هذه العنايه قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (الواقعه ٨٢).

و ذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمه الضلال ضلّوا ثم أضلّوا و التبعه تبعه الضلال، و نظير الآيه فى هذا المعنى قوله فى فرعون: يَفْقَهُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ (هود ٩٨).

و المعنى أ لم تنظر الى الأئمه و الرؤساء من الامم السابقه و من أمتك الذين بدّلوا شكر نعمه الله كفرا و اتبعتهم قومهم فحلّوا و أحلّوا قومهم دار الهلاك و هو الشقاء و النار.

قوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصِيحُونَ بِهَا وَ يَنْسِفُ الْقَرَارُ بَيَانَ لِدَارِ الْبُورِ، و احتمال بعضهم أن يكون «جَهَنَّمَ» منصوبا بالاشتغال، و التقدير يصلون جهنم يصلونها و الجملة مستأنفه خال عن الوجه لأن النصب مرجوح و لا نكته تستوجب الاستئناف.

و من هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مدنيه، و المراد بالذين كفروا هم عظماء مكه و صناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و حاربوه بيدر فقتلوا و أحلوا قومهم دار البوار.

و ذلك أنك عرفت من معنى الآيه أنها مطلقه و لا- موجب لتخصيصها بقتلى بدر من الكفار أصلاً، بل الآيه تشمل كل إمام ضلال أحلّ قومه دار البوار ممن تقدّم و تأخر، و المراد بإحلال دار البوار إقرارهم فى شقاء النار و إن لم يقتلوا و لا ماتوا و لا دخلوا النار بعد.

على أن ظاهر الآيه التاليه «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» أن ضمير الجمع راجع الى الذين كفروا المذكورين فى هذه الآيه و لازمه كون خطاب قل تمتعوا خطاباً للباقيين منهم و هم الذين أسلموا يوم الفتح و هو إبعاد بشقاء قطعى منجز من غير استثناء.

قوله تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ الْأَنْدَادُ جَمْعُ نَدٍّ وَهُوَ الْمَثَلُ وَهُمْ الْأَلِهَةُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ»

و إنما جعلوها أندادا مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله سبحانه من جهة أنهم سمّوهم آلهه و أربابا و نسبوا اليهم تدبير أمر العالم ثم عبدوهم خوفاً و طمعا مع أن الأمر و الخلق كله لله و قد اعترفت بذلك فطرتهم و أريد الله ذلك بما ألهمه أنبياءه و رسله من الآيات و الحجج الدالّة على وحدانيته.

فهم كانوا على بصيره من أمر التوحيد لم يتخذوا الأنداد عن غفله أو خطأ بل عمدوا الى ذلك ابتغاء عرض الحياه الدنيا و ليستعبدوا الناس و يستدروهم بإضلالهم عن سبيل الله، و لذلك علل اتخاذهم الأنداد بقوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» ثم أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يوعدهم بالنار التى إليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها، فقال: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» .

و كان من طبع الكلام أن يقال لهم: اتخذوا الأنداد أو أضلوا عن سبيل الله فإن مصيركم الى النار، لكن بدل من قوله: «تَمَتَّعُوا» ليصرح بغرضكم الفاسد الذى كانوا يخفونه ليكون أبلغ فى فصاحتهم.

قوله تعالى: قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ لِمَا تَوَعَّدَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِإِضْلَالِهِمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أمره أن يأمر عباده الذين آمنوا بالتزام سبيله من قبل أن يأتى يوم القيامة فلا يسعهم تدارك ما فات منهم من السعادة بشيء من الأسباب الدائرة بينهم لذلك و هى ترجع الى أحد شيئين: إما المعارضه بإعطاء شيء و أخذ ما يعادله و هو البيع بالمعنى الأعم، وإما الخلة و المحبه، و لا أثر من هذه الأسباب فى يوم محض للحساب و الجزاء فإن ذلك شأن يوم القيامة لا شأن له دون ذلك.

و من هنا يظهر أن قوله: يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا بَيَانٌ لسبيل الله و قد اكتفى بهذين الركنين اللذين بهما يلحق سائر الوظائف الشرعيه مما يصلح حياه الإنسان الدنيويه فيما بينه و بين ربه و ما بينه و بين سائر أفراد نوعه.

و قوله: يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا الخ؛ مجزومان لوقوعهما فى جواب الأمر و مقول القول محذوف لدلاله الفعلين عليه، و التقدير: قل: أقيموا الصلاه و أنفقوا الخ» يقيموا الصلاه و ينفقوا الخ».

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الخ؛ لما ذكر سبحانه جعلهم لله أندادا لإضلال الناس عن سبيل الله و أوعده عليه أورد فى هذه الآيه إلى تمام ثلاث آيات الحججه على اختصاص الربوبيه بنفسه تعالى و تقدس من طريق اختصاص التدبير العام به من نظم الخلقه و إنزال الماء و إخراج الرزق و تسخير البحار-الفلك-و الأنهار و الشمس و القمر و الليل و النهار.

و أشار فى آخر الآيات إلى أنها و ما لا تحصى من غيرها نعمه منه تعالى للإنسان لأن البيان فى هذه السوره- كما تقدمت الاشاره إليه-يجرى فى ضوء الاسمين:العزير الحميد.

□  
فقوله: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْخَبْءَ فى معنى قولنا:فهو الربّ وحده دون الذين جعلتموهم أندادا له.

و قوله: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْخَبْءَ الْمُرْتَدِّءَ بالسماء جهه العلو و هو معناها اللغوى،و الماء النازل منها هو المطر النازل منها فإليه ينتهى الماء فى الأرض الذى تعيش به ذوات الحياه من النبات و الحيوان.

قوله تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْءَ لَتَجْرَىٰ فى الْبَحْرِ بِأَمْرِهٖ وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ تسخير الفلك للناس هو جعلها بحيث تنفعهم فى مقاصدهم و هى العبور بأنفسهم و أحمالهم و غير ذلك من غير أن ترسب فى الماء أو تمتنع عن الحركة.

و أما قول بعضهم:تسخيرها لهم هو إقذارهم على صنعتها و استعمالها بإلهامهم طريق ذلك بعيد،فإن الظاهر من تسخير شىء للإنسان هو التصرف فيه بجعله موافقا لما يقصده من منافع نفسه دون التصرف فى الانسان نفسه بإلهام و نحوه.

و كان من طبع الكلام أن يقال:و سخر لكم البحر لتجرى فيه الفلك بأمره و سخر لكم الأنهار غير أنه عكس،و قيل:و سخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره لكون الفلك من أوضح النعم البحرية و إن لم تنحصر فيها نعمه و لعل ذلك هو السبب فى العكس،لأن المقام مقام عدّ النعمه و النعمه فى الفلك أوضح و إن كانت فى البحر أعظم.

و إسناد جريها فى البحر إلى أمره تعالى مع كونه مستندا إلى الأسباب الطبيعیه العامله كالريح و البخار و سائر الأسباب،لكونه تعالى هو السبب المحيط الذى إليه ينتهى كل سبب.

و قوله: وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ و هى المياه الجاريه فى مختلف أقطار الأرض و تسخيرها هو تدليلها بحيث ينتفع بها الإنسان بالشرب و الغسل و إزاله الأوساخ و غير ذلك

و يعيش بها الحيوان و النبات المسخران له.

قوله تعالى: وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبِينَ وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ قَالَ الرَّابِعُ: الدَّابُّ إِدَامَةُ السَّيْرِ دَابُّ فِي السَّيْرِ دَابًّا، قَالَ تَعَالَى: «وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبِينَ» وَ الدَّابُّ الْعَادَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ دَائِمًا عَلَى حَالِهِ، قَالَ تَعَالَى: «كَالدَّابِّ آلِ فِرْعَوْنَ» أَيْ كَعَادَتِهِمْ الَّتِي يَسْتَمِرُّونَ عَلَيْهَا. انْتَهَى، وَ مَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحٌ.

قوله تعالى: وَ أَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعِدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ السُّؤَالُ هُوَ الطَّلَبُ وَ يَفَارِقُهُ أَنْ السُّؤَالُ إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ يَعْقِلُ وَ الطَّلَبُ أَعْمٌ وَ إِنَّمَا تَتَّبِعُهُ الْإِنْسَانُ لِلسُّؤَالِ مِنْ جِهَةِ الْحَاجَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ فَأُظْهِرُ لَهُ أَنْ يَرْفَعُ مَا حَلَّتْ بِهِ مِنْ حَاجَةٍ وَ كَانَتْ الْوَسِيلَةَ الْعَادِيَةَ إِلَيْهِ هِيَ اللَّفْظُ فَتُوسَلُ بِهِ إِلَيْهِ وَ رُبَّمَا تُوَسَّلُ إِلَيْهِ بِإِشَارَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ وَ سُمِّيَ سُّؤَالًا حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِ تَجَوُّزٍ.

فَبِالْجَمَلِ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى النُّوعَ الْإِنْسَانِيَّ مَا سَأَلَهُ فَمَا مِنْ حَاجَةٍ مِنْ حَوَائِجِهِ إِلَّا رَفَعَ كُلَّهَا أَوْ بَعْضَهَا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ.

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنْ تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَ قَالَ الرَّابِعُ: الْإِحْصَاءُ: التَّحْصِيلُ بِالْعَدَدِ يُقَالُ: أَحْصَيْتُ كَذَا وَ ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ الْحِصَا وَ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ بِالْعَدِّ كَاعْتِمَادِنَا فِيهِ عَلَى الْأَصَابِعِ. انْتَهَى.

وَ فِي الْجَمَلِ إِشَارَةٌ إِلَى خُرُوجِ النِّعَمِ عَنِ طَوْقِ الْإِحْصَاءِ وَ لِأَنَّهُ كَوْنُ حَوَائِجِ الْإِنْسَانِ الَّتِي رَفَعَهَا اللَّهُ بِنِعْمِهِ غَيْرَ مُقَدَّرٍ لِلْإِنْسَانِ إِحْصَاؤُهَا.

وَ كَيْفَ يُمْكِنُ إِحْصَاءُ نِعْمَةِ تَعَالَى وَ عَالَمِ الْوُجُودِ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَ مَا يَلْحَقُ بِهَا مِنَ الْأَوْصَافِ وَ الْأَحْوَالِ مُرْتَبِطَةٌ بِمَنْتَظِمَةٍ نَافِعَةٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَالْجَمِيعُ نِعْمَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَمِيعِ وَ هَذَا أَمْرٌ لَا يَحِيطُ بِهِ إِحْصَاءٌ.

وَ لَعَلَّ ذَلِكَ هُوَ السَّرُّ فِي إِفْرَادِ النِّعْمَةِ فِي قَوْلِهِ: «نِعْمَةُ اللَّهِ» فَإِنَّ الْحَقَّ أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا النِّعْمَةُ



فلا حازه الى تفخيمها بالجمع ليدل على الكثره، والمراد بالنعمة جنس المنعم فيفيد ما يفيدہ الجمع.

وقوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ أَي كثير الكفران يظلم نفسه فلا يشكر نعمه الله و يكفر بها فيؤدبه ذلك الى البوار و الخسران، أو كثير الظلم لنعم الله لا- يشكرها و يكفر بها، الجملة استئناف بياني يؤكد بها ما يستفاد من البيان السابق، فإن الواقف على ما مر بيانه من حال نعمه تعالى و ما آتى الإنسان من كل ما سأله منها لا يرتاب فى أن الإنسان و هو غافل عنها طبعاً ظالم لنفسه كافر بنعمه ربه (١).

## [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٤١]

### اشاره

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسِيءْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِيُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

ص: ٤٥٧

١- ١). ابراهيم ١٩-٣٤: بحث روائي فى كلمه طيبه و شجره طيبه و كلمه خبيثه و شجره خبيثه.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا أَى و اذكر إذ قال إبراهيم و الإشاره إلى مكه شرفها الله تعالى.

و قد حكى الله سبحانه نظير هذا الدعاء على اختصار فيه عن إبراهيم عليه السلام فى موضع آخر بقوله: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ (البقره/ ١٢٦).

و من الممكن أن يستفاد من اختلاف المحكيين فى التعبير أعنى قوله: «اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» و قوله: «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا» أنهما دعاء ان دعا عليه السلام بهما فى زمانين مختلفين، و أنه بعد ما أسكن إسماعيل و أمه أرض مكه و رجع إلى أرض فلسطين ثم عاد اليهما وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتهما مكانا ما سرّ بذلك فدعا عند ذلك مشيرا إلى مكانهم «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» فسأل ربه أن يجعل المكان بلدا و لم يكن به و أن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات، ثم لما عاد اليهم بعد ذلك بزمان وجد المكان بلدا فسأل ربه أن يجعل البلد آمنا.

و مما يؤيد كونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجبهه ففى آيه البقره الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات و فى الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصه مع امور اخرى دعا بها لهم.

و على هذا يكون هذا الدعاء المحكى عن إبراهيم عليه السلام فى هذه الآيات آخر ما أورده الله تعالى فى كتابه من كلام إبراهيم عليه السلام و دعائه، و قد دعا به بعد ما أسكن إسماعيل و أمه بها

و جاورتها قبيله جرهم و بنى البيت الحرام و بنيت بلده مكه بأيدى القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات.

و على تقدير أن يكون المحكميات دعاء واحدا يكون قوله: «رَبِّ اجْعَلْ» الخ؛ تقديره: رَبِّ اجعل هذا البلد بلدا آمنا و قد حذف فى إحدى الآيتين المشار اليه و فى الاخرى الموصوف اختصارا.

و المراد بالأمن الذى سأله عليه السّلام الأمن التشريعى دون التكوينى - كما تقدم فى تفسير آيه البقره- فهو يسأل ربه أن يشرع لأرض مكه حكم الحرمه و الأمن، و هو- على خلاف ما ربما يتوهم- من أعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده فإننا لو تأملنا هذا الحكم الإلهى الذى شرعه إبراهيم عليه السّلام بإذن ربه أعنى حكم الحرمه و الأمن و أمعنا فيما يعتقدده الناس من تقديس هذا البيت العتيق و ما أحاط به من حرم الله الأمن و قد ركز ذلك فى نفوسهم منذ أربعة آلاف سنه حتى اليوم وجدنا ما لا يحصى من الخيرات و البركات الدينيه و الدنيويه عائده إلى أهلها و إلى سائر أهل الحق ممن يحزن إليهم و يتعلق قلبه بهم، و قد ضبط التاريخ من ذلك شيئا كثيرا و ما لم يضبط أكثر فجعله تعالى مكه بلدا آمنا من النعم العظيمة التى أنعم الله بها على عباده.

قوله تعالى: وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ الدَّاسِ - إلى قوله- غَفُورٌ رَحِيمٌ يقال: جنبه و أجنبه أى أبعده، و سؤاله عليه السّلام أن يجنبه الله و يعبده و بنيه من عباده الأصنام لواز و التجاء إليه تعالى من الإضلال الذى نسبه إليهن فى قوله: «رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ» الخ.

و من المعلوم أن هذا الإبعاد و الإجنباب منه تعالى كيفما كان و أيا ما كان تصرف ما و تأثير منه تعالى فى عبده بنحو، غير أنه ليس بنحو يؤدى إلى الإلجاء و الاضطرار و لا ينجر إلى القهر و الإيجاب بسلب صفه الاختيار منه إذ لا مزيه لمثل هذا الابتعاد حتى يسأل ذلك مثل إبراهيم خليل الله.

فرجع بالحقيقه إلى ما تقدم فى قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الْآيَةَ؛ أن كل خير من فعل أو ترك فإنه منسوب إليه تعالى أولاً، ثم إلى العبد ثانياً بخلاف الشر من فعل أو ترك فإنه منسوب إلى العبد ابتداءً و لو نسب إليه تعالى فإنه ينسب إذا كان على سبيل المجازاه، وقد أوضحنا ذلك.

فالاتىب من عباده الأصنام إنما يتحقق عن إجناب من الله رحمه منه لعبده و عناية، و ليس فى الحقيقه إلا أمراً تلبس و اتصف به العبد غير أنه إنما بملكه بتمليك الله سبحانه فهو المالك له بذاته و العبد يملكه بأمر منه و إذن كما أن العبد إنما يهتدى عن هدايه من الله، و ليس هناك إلا هدى واحد لكنه مملوك لله سبحانه لذاته و العبد إنما يملكه بتمليك منه سبحانه، و أبسط كلمه فى هذا المعنى ما وقع فى أخبار آل العصمه أن الله يوفق عبده لفعل الخير و ترك الشر هذا.

فتلخص أن المراد بقوله عليه السلام: «وَ اجْتَنِبْنِي» سؤال ما لله سبحانه من الصنع فى ترك العبد عباده الأصنام، و بعبارة أخرى هو يسأل ربه أن يحفظه و بنيه من عباده الأصنام و يهديهم إلى الحق إن هم عرضوا أنفسهم لذلك و أن يفيض عليهم إن استفاضوا لا أن يحفظهم منها سواء عرضوا لذلك أنفسهم أو لم يعرضوا و أن يفيض عليهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنى دعائه عليه السلام.

و منه يعلم أن نتيجة الدعاء لبعض المدعويين لهم و إن كان بلفظ يستوعب الجميع، و هذا البعض هم المستعدون لذلك دون المعاندين و المستكبرين منهم و سنزيده بياناً.

ثم هو عليه السلام يدعو بهذا الدعاء لنفسه و بنيه «وَ اجْتَنِبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» و بنوه جميع من جاء من نسله بعده و هم بنو إسماعيل و بنو إسحاق فإن الابن كما يطلق على الولد من غير واسطه كذلك يطلق على غيره، و يصدق ذلك القرآن الكريم قال تعالى: مَلَأَ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ (الحج ٧٨) و قد تكرر إطلاق بنى إسرائيل على اليهود فى نيف و أربعين موضعاً من كلامه

فهو عليه السّلام يسأل البعد عن عباده الأصنام لنفسه و لجميع من بعده من بنيه بالمعنى الذى تقدم، اللهم إلا أن يقال: إن قرائن الحال و المقال تدل على اختصاص الدعاء بآل إسماعيل القاطنين بالحجاز فلا يعم بنى إسحاق.

ثم عقب عليه السّلام دعاءه «وَ اجْتُنِبْنِي وَ بَيْتِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»

بقوله: «رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» و هو فى مقام التعليل لدعائه، و قد أعاد النداء «رَبِّ» إثاره للرحمة الإلهية، أى إني إنما أسألك أن تبعدنى و بنى عن عبادتهم لأنهم أضلّلن كثيرا من الناس و نسبة الاضلال إلى الأصنام لمكان الربط الذى بين الضلال و بينهم و إن لم يكن ارتباطا شعوريا و ليس من اللازم فى نسبة أى فعل أو أثر إلى شىء أن يقوم به قياما شعوريا و هو ظاهر.

ثم قوله عليه السّلام: «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تفريع على ما تقدم من كلامه أى إذا كان كثير من الناس أضلتهم الأصنام بعبادتهم و استعدت بك و عرضت نفسى و بنى عليك أن تجنّبنا من عبادتهم افترقنا نحن و الناس طائفتين: الضالون عن طريق توحيدك و العارضون لأنفسهم على حفظك و إجنابك فمن تبعنى الخ.

و قد عبّر عليه السّلام فى تفريعه بقوله: «فَمَنْ تَبِعَنِي وَ الاتّباع إنما يكون فى طريق - و قد لوّح إلى الطريق أيضا بقوله: «أَضَلَّلَنِي» لأن الضلال إنما يكون عن الطريق - فمراده باتباعه التدين بدينه و السير بسيرته لا مجرد الاعتقاد بوحديته تعالى بل سلوك طريقته المبنية على توحيد الله سبحانه ليكون فى ذلك عرض النفس على رحمته تعالى و إجنابه من عباده الأصنام.

و من الدليل على كون المراد بالاتباع هو سلوك سبيله قوله فى ما يعادله من كلامه: «وَ مَنْ عَصَانِي» فإنه نسب العصيان إلى نفسه و لم يقل: و من كفر بك أو عصاك أو فسق عن الحق و نحو ذلك كما لم يقل: فمن آمن بك أو أطاعك أو اتقاك و ما أشبهه.

فمراده باتباعه سلوك طريقه و التدين بجميع ما أتى به من الاعتقاد و العمل و بعضيانه ترك سيرته و ما أتى به من الشريعة اعتقادا و عملا- كأنه عليه السلام يقول: من تبعني و عمل بشريعتي و سار بسيرتي فانه ملحق بي و من أبنائي تنزيلا أسألك أن تجنبي و إياه أن نعبد الأصنام، و من عصاني بترك طريقتي كلها أو بعضها سواء كان من بني أو غيرهم فلا ألحقه بنفسى و لا أسألك إجنابه و إبعاده بل أخلى بينه و بين مغفرتك و رحمتك (١).

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيكُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِمَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ -إلى آخر الآية- مِنْ ذُرِّيَّتِي فِي تَأْوِيلِ مَفْعُولِ أَسِيكُنْتُ أَوْ سَادَّ مَسَدَهُ وَ «مَرْنٌ» فِيهِ لِلتَّبَعِيضِ وَ مَرَادُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضُ ذَرِيَّتِهِ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ وَ مِنْ سَيُولِدِ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ دُونَ إِسْمَاعِيلَ وَحَدَهُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَ: «رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» .

و المراد بغير ذى زرع غير المزروع و هو آكد و أبلغ لأنه يدل -كما قيل- على عدم صلاحيته لأن يزرع لكونه أرضا حجرية رملية خالية عن المواد الصالحة للزرع و هذا كقوله: «قرآنا غير ذى عوج».

و نسبه البيت إلى الله سبحانه لأنه مبنى لغرض لا يصلح إلا- له تعالى و هو عبادته، و كونه محرما هو ما جعل الله له من الحرمه تشريعا، و الظرف أعني قوله: «عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» متعلق بقوله: «أَسَكُنْتُ» .

و هذه الجملة من دعائه عليه السلام أعني قوله: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيكُنْتُ -إلى قوله- الْمُحَرَّمِ من الشاهد على ما قدمناه من أنه عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء فى أواخر عمره بعد ما بنى الكعبه و بنى الناس بلده مكه و عمروها، كما أن من الشاهد عليه أيضا قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ» .

ص: ٤٤٢

(١-١). ابراهيم ٣٥-٤١: بحث فى قول ابراهيم عليه السلام «وَ اجْتَنِبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»؛ الشرك الخفى.

و بذلك يندفع ما ربما يستشكل فيقال: كيف سماه بيتا و قال: أسكنت من ذريتي عنده و لم بينه بعد؟ كأن السائل يقدر أنه إنما دعا به يوم أتى بإسماعيل و أمه إلى أرض مكة و كانت أرضا قفراء لا أنيس بها و لا نبت.

و لا حاجة إلى دفعه بأنه كان يعلم بما علمه الله أنه سيبنى هناك بيتا لله أو بأن البيت كان قبل ذلك و إنما خرّبه بعض الطوائف أو رفعه الله إلى السماء في الطوفان و ليت شعري إذا اندفع بهما هذا الإشكال فكيف يندفع بهما ما يتوجه من الإشكال على هذا التقدير إلى ظاهر قوله: ربّ اجعل هذا البلد آمنا و ظاهر قوله: «وَهَبْ لِي عَلى الكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ» .

و قوله: رَبَّنَا لِتَقِيْمُوا الصَّلَاةَ بيان لغرضه من إسكانهم هناك، و هو بانضمام ما تقدم من قوله: «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» و ما يعقبه من قوله: «فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ» يفيد أنه عليه السّلام إنما اختار واديا غير ذى زرع أعزل من أمتعه الحياه من ماء عذب و نبات ذى خضره و شجر ذى بهجه و هواء معتدل خاليا من السكنه ليتمحضوا فى عباده الله من غير أن يشغلهم شواغل الدنيا.

و قوله: فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ الخ؛ من الهوى بمعنى السقوط أى تحنّ و تميل اليهم بالمساكنه معهم أو بالحج إلى البيت فيأنسوا بهم، و ارزقهم من الثمرات، بالنقل اليهم تجاره لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ إلى آخر الآيه معناه ظاهر، و قوله: «وَ مَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ» من تمام كلام إبراهيم عليه السّلام أو من كلامه تعالى، و على الأول ففي قوله: «عَلَى اللَّهِ» التفات وجهه الإشارة إلى عله الحكم كأنه قيل: إنك تعلم ما نخفى و ما نعلن لأنك الله الذى ما يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و لا يبعد أن يستفاد من هذا التعليل أن المراد بالسماء ما هو خفى علينا غائب عن حسنا و الأرض خلافه فافهم ذلك.

قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَدِيمُ الدُّعَاءِ كالجمله المعترضه بين فقرات دعائه دعاه إلى إيراده تذكّره في ضمن ما أورده من الأدعيه عظيم نعمه الله عليه إذ وهب له ولدين صالحين مثلهما بعد ما انقطع عنه الأسباب العاديه المؤديه إلى ظهور النسل، وأنه إنما وهبهما له باستجابته دعائه للولد فحمد الله على ما وهبهما و أثنى عليه على استجابته دعائه في ذلك.

قوله تعالى: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ الْكَلَامِ فِي استناد إقامته الصلاه إلى الله سبحانه نظير الكلام في استناد إجنابه أن يعبد الأصنام فإن لإقامه الصلاه نسبه اليه تعالى بالإذن والمشيه كما أن لها نسبه إلى العبد بالتصدى والعمل وقد مرّ الكلام فيه.

و هذه الفقره ثاني دعاء يشترك فيه هو عليه السلام و ذريته و يعقب في الحقيقه قوله أولا:

«وَاجْتُنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» كما يلحق به دعاؤه الثالث المشترك فيه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» .

و قد أفرد نفسه في جميع الفقرات الثلاث عن غيره إذ قال: وَاجْتُنِبْنِي رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ اغْفِرْ لِي لِأَن مطلوبه لحوق ذريته به كما قال في موضع آخر: وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (الشعراء ٨٤) وفي موضع آخر كما حكاه الله بقوله: وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي (البقره ١٢٤).

و أما قوله في الفقره الاولى: «وَاجْتُنِبْنِي وَبَنِيَّ» و هاهنا «اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» فقد تقدم أن المراد بينه بعضهم لا جميعهم فتتطابق الفقرتان.

و من تطابق الفقرتين أنه أكد دعاءه في هذه الفقره بقوله: «رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح و إصرار و تأكيد كما أن التعليل في الفقره الاولى، بقوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلَنَ



كثيراً من الناس» تأكيد في الحقيقه لما فيها من الدعاء، بقوله: «وَاجْتِنِي» الخ.

قوله تعالى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ختم عليه السلام دعاءه- وهو آخر ما ذكر من دعائه في القرآن الكريم كما تقدم- بطلب المغفرة للمؤمنين يوم القيامة، ويشبه آخر ما دعا به نوح عليه السلام مما ذكر في القرآن: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ (نوح/٢٨).

و في الآيه دليل على أنه عليه السلام لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه عليه السلام- كما ترى- يستغفر لوالديه و هو على الكبير و في آخر عهده «و قد تبرأ من آزر في أوائل عهده بعد ما استغفر له عن مواعده وعده إياه قال تعالى: قَالَ سَاءَ لَكُمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي (مريم/٤٧)، و قال:

وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (الشعراء/٨٤)، و قال: وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه/١١٤) و قد تقدم تفصيل القول في قصصه عليه السلام في سورة الأنعام في الجزء السابع من الكتاب.

و من لطيف ما في دعائه عليه السلام اختلاف النداء المكرر الذي فيه بلفظ «رَبِّ» و «رَبَّنَا» و العناية فيما أضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبقه و الإمامه، و فيما أضيف إلى نفسه و غيره إلى المشتركات.

## [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ الى ٥٢]

### اشاره

وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً (٤٣) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا تِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ تَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَ سَيَكُونُ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سِيرَابِيْلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَ تَعْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ (٥٢)

بيان:

قوله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ اِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛

ص: ٤٦٦

يقال: شخص بصره أى سكن بحيث لا يطرف جفنه، و يقال: يعير مهطع إذا صوّب عنقه أى رفعه و هطع و أهطع بمعنى، و يقال: أقنع رأسه إذا رفعه، و قوله: لا يرتد إليهم طرفهم أى لا يقدرّون على أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه، و قوله: و أفندتهم هواء أى قلوبهم خاليه عن التعقل و التدبير لشده الموقف أو أنها زائله.

و المعنى: و لا- تحسبن الله و لا تظننه غافلا عما يعمل هؤلاء الظالمون بما تشاهد من تمتعهم و إترافهم فى العيش و إفسادهم فى الأرض إما يمهلهم الله و يؤخر عقابهم الى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف و الحال أنهم مادون لأعناقهم رافعون لرءوسهم لا يقدرّون على ردّ طرفهم و قلوبهم مدهوشه خاليه عن كل تحيّل و تدبير من شده هول يوم القيامة و فى الآيه إنذار للظالمين و تعزيه لغيرهم.

قوله تعالى: **وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** الى آخر الآيه؛ فى الآيه إنذار بعد إنذار و بين الإنذار فرق من جهتين:

إحدهما: أن الإنذار فى الآيتين السابقتين إنذار بما أعدّ الله من أهوال يوم القيامة و أليم العذاب فيه، و أما الذى فى هذه الآيه و ما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال فى الدنيا و من الدليل عليه قوله: «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» الخ.

و الثانيه: أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعى لا- صارف له عن أمه ظالمه و لا فرد ظالم من أمه و أما الإنذار الثانى فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أمه ظالمه و أما الفرد فربما صرف عنه، و لذلك ترى أنه تعالى يقول أولا «وَ أَنْذِرِ النَّاسَ» ثم يقول «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» الخ؛ و لم يقل: فيقولون أى الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى: **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ** (يونس ١٠٣) و إنما يصيب الامه الظالمه بحلول أجلهم و هو طائفه من ظالمى الامه لا جميع أفرادها.

و بالجمله فقوله: **وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** إنذار للناس بعذاب

الاستئصال الذى يقطع دابر الظالمين منهم، وقد تقدم فى تفسير سورة يونس وغيره أن ذلك مكتوب على الامم قضاء بينهم و بين رسولهم حتى هذه الامه المحمديه و قد تكرر هذا الوعيد منه تعالى فى عدة مواضع من كلامه.

و هذا هو اليوم الذى يطهر الله الأرض فيه من قذاره الشرك و الظلم و لا يعبد عليها يومئذ إلا الله سبحانه فإن الدعوه عامه و الامه هم أهل الأرض فإذا محى الله عنهم الشرك لم يبق منهم إلا المؤمنون و يكون الدين كله لله، قال تعالى: **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** .

و قوله: **فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ** المراد به الظالمون من الناس و هم الذين يأخذهم العذاب المستأصل و لا يتخطاهم، و مرادهم بقولهم: **«أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ»** الاستمهال بمده قصيره تضاف الى عمرهم فى الدنيا حتى يتداركوا فيه ما فوتوه بظلمهم و الدليل عليه قولهم: **«نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ»** .

و التعبير بالرسول بلفظ الجمع فى قولهم: **«وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ»** مع أن الآيه تصف حال ظالمى هذه الامه ظاهرا و كان مقتضى ذلك أن يقال: و نتبع الرسول إنما هو للدلاله على أن الملاك فى نزول هذا العذاب القضاء بين الرساله و بين منكريها من غير اختصاص ذلك برسول دون رسول كما يفيد قوله: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (يونس ٤٧).

و قوله: **أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسِمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالِ الْإِقْسَامِ** تعليق الحكم فى الكلام بأمر شريف من جهه شرافته ليدل به على صدقه إذ لو كذب المتكلم و قد أقسم فى كلامه لأذهب بذلك شرف المقسم به كقولنا: و الله إن كذا لكذا و لعمري إن الأمر على كذا، و يعدّ القسم أقوى أسباب التأكيد. و لا يبعد أن يكون الإقسام فى الآيه كناية عن إيراد

الكلام فى صورته جازمه غير قابله للتريد.

و الكلام على تقدير القول، و المعنى يقال لهم توبيخا و تبيكتا: أ لم تكونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال و أنكم بما عندكم من القوة و السطوة و وسائل الدفاع أمه خالده مسيطره على الحوادث فما لكم تستمهلون الى أجل قريب.

قوله تعالى: وَ سَيَكُونُ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ معطوف على محل قوله: «أَقْسَمْتُمْ» فى الآيه السابقيه، و المعنى: أ و لم تكونوا سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الامم السابقيه، و ظهر لكم أن هذه الدعوه حقه و يتعقبها لو ردت عذاب مستأصل، من جهتين: جهه المشاهده حيث تبين لكم كيف فعلنا باولئك الظالمين الذين سكنتم فى مساكنهم؟ و جهه البيان حيث ضربنا لكم الأمثال و أذرناكم عذابا مستأصلا يتعقبه إنكار الحق و رد الدعوه النبويه و يقطع دابر الظالمين.

قوله تعالى: وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ حَالٍ مِنَ الضمير فى «فَعَلْنَا» فى الآيه السابقيه أو من الضمير فى «بِهِمْ» فيها أو من الضميرين جميعا على ما قيل، و ضمائر الجمع راجعه الى «الَّذِينَ ظَلَمُوا» .

و المراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه و قدرته، و من المعلوم أن المكر إنما يكون مكرًا إذا لم يحط به الممكور به و جهله، و أما إذا كان الممكور به عالما بما هياه الماكر من المكر و قادرا على دفعه لغى المكر أو عاد مكرًا على نفس الماكر كما قال تعالى: وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (الأنعام ١٢٣).

و قوله: وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ إِنْ وَصَلِيَهُ عَلَى مَا قِيلَ - و اللام فى «لتزول» متعلق بمقدّر يدلّ عليه لفظ المكر كقولنا: يقتضى أو يوجب و ما أشبه ذلك، و التقدير: الله محيط بمكرهم عالم به قادر على دفعه إن كان مكرهم دون هذه الشده و إن كان على هذه الشده.

و المعنى تبين لكم كيف فعلنا بهم و الحال أنهم مكروا ما فى وسعهم من المكر و الله محيط بمكرهم و إن كان مكرهم عظيما موجبا لزوال الجبال.

و ربما قيل: إن «إِنَّ» نافية و اللام هى الداخلة على المنفى بالجبال الآيات و المعجزات كناية و المعنى و ما كان مكرهم لتبطل به آيات الله و معجزاته التى هى كالجبال الراسيات التى لا تزول عن مكانها، و أريد هذا المعنى بقراءة ابن مسعود «و ما كان مكرهم» و هو معنى بعيد.

و قرئ أيضا «لِتُزُولَ» بفتح اللام الاولى و ضم اللام الثانية، و على هذا تكون «إِنَّ» مخففة من المشددة و المعنى و التحقيق أن مكرهم كان من العظمه بحيث تزول منه الجبال.

قوله تعالى: **فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذة الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم الى يوم القيامة أى إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن الله مخلفا لما وعد رسله من نصرهم و مؤاخذة المتخلفين عن دعوتهم، و كيف يخلف وعده و هو عزيز ذو انتقام شديد و لازم عزته المطلقة أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من رأى بعروض حال ثانيه تقهره على خلاف ما بعثته اليه الحال الاولى التى أوجبت عليه الوعد و الله سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بعجز و لا تقهره حال و لا شىء آخر و هو الواحد القهار.

و لازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه و استعلى عليه و ينتصف للمظلوم من الظالم.

و ذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التى سمى الله تعالى بها نفسه فى مواضع من كلامه و قارنه فى جميعها باسمه العزيز، قال تعالى: **وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** (آل عمران ٤)، (المائدة ٩٥)، و قال: **أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ** (الزمر ٣٧)، و قال فى الآيه المبسوٲ

عنها: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ من ذلك يظهر أن «ذُو انتِقَامٍ» من فروع اسم «العزیز» (١).

قوله تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الظرف متعلق بقوله: «ذُو انتِقَامٍ» و تخصيص انتقامه تعالى بيوم القيامة مع عمومته لجميع الأوقات و الظروف إنما هو لكون اليوم أعلى مظاهر الانتقام الإلهي كما أن تخصيص بروزهم لله بذلك اليوم كذلك، و على هذا النسق جل الأوصاف المذكورة في كلامه تعالى ليوم القيامة كقوله: الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩)، و قوله: مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ (المؤمن ٣٣)، إلى غير ذلك و قد تقدمت الإشارة إليه كرارا.

و الظاهر أن اللام في الأرض للعهد في الموضوعين معا و كذا في السماوات و السماوات معطوفه على الأرض الاولى و المعنى تبدل هذه الأرض غير هذه الأرض و تبدل هذه السماوات غير هذه السماوات.

و قوله: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ معنى بروزهم و ظهورهم لله يومئذ-مع كون الأشياء بارزه غير خفيته عليه دائما-سقوط جميع العلل و الأسباب التي كانت تحجبهم عنه تعالى ما داموا في الدنيا فلا يبقى يومئذ-على ما يشاهدون-شيء من الأسباب يملكهم و يتولى أمرهم و يستقل بالتأثير فيهم إلا الله سبحانه كما يدل عليه آيات كثيرة فهم لا يلتفتون إلى جانب و لا يتوجهون إلى جهة في ظاهرهم و باطنهم و حاضرهم و الماضي الغائب من أحوالهم و أعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهدا مهيمنا عليه محيطا به.

و الدليل على هذا الذي ذكرناه توصيفه تعالى بالواحد القهَّار المشعر بنوع من الغلبة فبروزهم لله يومئذ إنما هو ناشئ عن كونه تعالى هو الواحد الذي يقوم به وجود كل شيء و يقهر كل من دونه من مؤثر فلا يحول بينهم و بينه حائل فهم بارزون له بروزا مطلقا.

ص: ٤٧١

قوله تعالى: وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سِرَابِيْلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَ تَغْشَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ الْمُقْرَنِينَ مِنَ التَّقْرِينِ وَ هُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ إِلَىٰ نَظِيرِهِ وَ الْأَصْفَادُ جَمْعُ الصَّفَدِ وَ هُوَ الْغُلُّ الَّذِي يَجْمَعُ الْيَدَ إِلَى الْعُنُقِ أَوْ هُوَ مُطْلَقُ السَّلْسَلَةِ يَقْرُنُ بَيْنَ الْمُقْتَدِينَ، وَ السَّرَابِيلُ جَمْعُ السَّرْبَالِ وَ هُوَ الْقَمِيصُ وَ الْقَطْرَانُ شَيْءٌ أَسْوَدٌ مُتَنَنَّ يَطْلَىٰ بِهِ الْإِبِلُ فَإِنَّهُمْ يَطْلُونَ فِيصِيرُ كَالْقَمِيصِ عَلَيْهِمْ، وَ الْغَشَاوَهُ بِالْفَتْحِ السُّتْرُ وَ التَّغْطِيَةُ يُقَالُ: غَشَىٰ يَغْشَىٰ غَشَاوَهُ أَيْ سَتَرَهُ وَ غَطَّاهُ، وَ مَعْنَى الْآيَتَيْنِ وَاضِحٌ.

قوله تعالى: لِيُجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ مَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحٌ، وَ هِيَ بظَاهِرِهَا تَدَلُّ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي تَجْزَىٰ بِهِ كُلَّ نَفْسٍ هُوَ عَيْنٌ مَا كَسَبَتْهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ وَ إِنْ تَبَدَّلَتْ صَوْرَتُهُ، فَهِيَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَلْحَقُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمْ.

فَالْآيَةُ تَفْسِيرٌ أَوْ لَا مَعْنَى الْجِزَاءِ فِي يَوْمِ الْجِزَاءِ، وَ ثَانِيًا مَعْنَى انْتِقَامِهِ تَعَالَىٰ يَوْمَئِذٍ وَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ عَقُوبَةِ الْمُجْرِمِ الْعَاصِي تَشْفِيًا مِنْهُ بَلْ إِلْحَاقٌ مَا يَسْتَدْعِيهِ عَمَلُ الْمُجْرِمِ بِهِ وَ إِنْ شَتَّ فَقُلْ إِيصَالٌ مَا اكْتَسَبَهُ الْمُجْرِمُ بَعِيْنَهُ إِلَيْهِ.

وَ فِي تَعْلِيلِ هَذَا الْجِزَاءِ وَ هُوَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» إِيْمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ الْجِزَاءَ وَاقِعٌ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ وَ مَهْلٍ إِلَّا أَنَّ ظَرْفَ ظُهُورِهِ هُوَ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَا غَيْرَ، أَوْ أَنَّ الْحُكْمَ بِالْجِزَاءِ وَ كِتَابَتَهُ وَاقِعٌ عِنْدَ الْعَمَلِ وَ تَحَقُّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مَالَ الْوَجْهَيْنِ وَاحِدٌ فِي الْحَقِيقَةِ.

قوله تعالى: هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ الْبَالِغُ بِمَعْنَى التَّبْلِيغِ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ أَوْ بِمَعْنَى الْكِفَايَةِ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ غَيْرُهُ.

وَ الْآيَةُ خَاتَمَةُ السُّورَةِ فَالْأَنْسَبُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَىٰ مَا أُورِدَ فِي السُّورَةِ مِنَ الْبَيَانِ لَا إِلَىٰ مَجْمُوعِ الْقُرْآنِ كَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ وَ لَا إِلَىٰ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا



يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» الى آخر السوره؛ كما ذكره آخرون.

وقوله: وَ لِيُنذِرُوا بِهِ الخ؛ اللام فيه للغاية و هو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامه أمره و عظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتغاله من الأسرار الإلهيه على ما لا- يطيقونه، و إنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته و هو الإنذار و العلم بوحدانيتها تعالى و التذکر، فهم يندرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلا- و آجلا- و تتم عليهم الحجة بما ذكر فيها من آيات التوحيد، و يتذکر المؤمنون منهم خاصة بما فيها من المعارف الإلهيه.

و بهذا يتطابق مختتم السوره و مفتتحها أعنى قوله فى أول السوره: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» فقد تقدم أن مدلول الآيه أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالدعوه و التبليغ الى صراط الله بما أنه تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات الى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوه و آمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر الى نور الإيمان بالفعل و إن لم يستجيبوا أنذروا و وقفوا على التوحيد الحق و خرجوا من الجهل الى العلم و هو نوع خروج من الظلمه الى النور و إن كان وبالا عليهم و خسارا ففى الدعوه-على أى حال-و إنذار للناس و إعلامهم أنما هو إله واحد و تذكر لاولى الألباب منهم خاصة و هم المؤمنون (١).

ص: ٤٧٣

١- ١). ابراهيم ٤٢-٥٢: بحث روائى فى يوم القيامة و تبديل الارض بغير الارض، و الجنه و نعيمها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَا كَلُوا وَ يَمْتَعُوا وَ يُلْهِبِمْ أَلْمِيلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَزِيهِ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهِ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)

تشتمل السوره على الكلام حول استهزاء الكفار بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ورميه بالجنون ورمى القرآن الكريم بأنه من أهذار المجانين ففيها تعزیه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأمره بالصبر والثبات والصفح عنهم و تطيب لنفسه الشريفه و إنذار و تبشير.

و هي مكيه على ما تشهد به آياتها، و نقل في المجمع عن الحسن استثناء قوله: **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي الْآيَةِ**؛ و قوله: **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** و سيأتي ما فيه.

و تشتمل السوره على قوله تعالى: **فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** الخ؛ و الآية تقبل الانطباق على ما ضبطه التاريخ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اكتتم في أول البعثة ثلاث سنين أو أربعا أو خمسا لا يعلن دعوته لاشتداد الأمر عليه فكان لا يدعو إلا آحادا ممن يرجو منهم الايمان يدعوهم خفيه و يسر اليهم الدعوه حتى أذن له ربه في ذلك و أمره أن يعلن دعوته.

و تؤيده الروايات المأثوره من طرق الشيعة و أهل السنه أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يكتتم في أول بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامة الناس حتى أنزل الله تعالى عليه: **فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** فخرج الى الناس و أظهر الدعوه، و عليه فالسوره مكيه نازله في أول الدعوه العلنيه.

و من غرر الآيات القرآنيه المشتمله على حقائق جمه في السوره قوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ الْآيَةِ**؛ و قوله: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**.

قوله تعالى: **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الْقُرْآنِ مُبِينٍ** الإشاره الى الآيات الكريمه القرآنيه فالمراد بالكتاب القرآن، و تنكير القرآن للدلاله على عظم شأنه و فخامه أمره كما أن التعبير بتلك و هي للإشاره الى البعيد لذلك.

و المعنى هذه الآيات العالیه منزله الرفیعہ درجه التی نتنزلها الیک آیات الكتاب الإلهی و آیات قرآن عظیم الشأن فاصل بین الحق و الباطل علی خلاف ما یرمیها به الکفار بما یرمونک بالجنه مستهزئين بكلام الله.

و من الممكن أن یراد بالكتاب اللوح المحفوظ فان القرآن منه و فیہ، قال تعالی: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (الواقعه ٧٨/٧)، و قال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج ٢٢/٢٢) فيكون قوله: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الْقُرْآنِ مُبِينٍ كالمخلص من قوله: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف ٤/٤).

قوله تعالی: رَبُّمَا يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ توطئه لما سيتعرض له من قولهم للنبي: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ يشير به الى أنهم سيندمون على ما هم عليه من الكفر و يتمنون الإسلام لله و الإيمان بكتابه يوم لا سبيل لهم الى تحصيل ذلك.

فقوله: رَبُّمَا يَؤُدُّ المراد به وداده التمني لا مطلق الوداده و الحب، و الدليل على ذلك قوله في بيان هذا الموده: لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ فَإِن لَفْظِي «لَوْ» و «كَانُوا» تدلان على أن ودادتهم وداده تمنّ و أنهم يتمنون الاسلام بالنسبه الى ماضى حالهم مما فاتهم و لن يعود اليهم فليس إلا الاسلام ما داموا في الدنيا.

فالآيه تدلّ على أن الذين كفروا سيندمون على كفرهم و يتمنون أن لو كانوا مسلمين بعد انطواء بساط الحياه الدنيا.

قوله تعالی: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِمَهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الإلهاء الصرف و الاشتغال يقال: ألهاه كذا عن كذا أى شغله عنه و أنساه ذكره.

و قوله: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِمَهُمُ الْأَمْلُ أمر برفع اليد عنهم و تركهم و ما هم فيه من الباطل، و هو كناية عن النهي عن الجدل معهم و الاحتجاج عليهم لإثبات

هذه الحقيقه و هى أنهم سوف يودّون الاسلام و يتمنونه و لا- سبيل لهم الى تحصيله و تدارك ما فات منه، و قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» فى موضع التعليل للأمر أى ذرهم و لا تجادلهم و لا تحاجهم فلا حاجه الى ذلك لأنهم سوف يعلمون ذلك فإن الحق ظاهر لا محاله.

و فى الآيه تعريض لهم أنهم لا غايه لهم فى حياتهم إلا الأكل و التمتع بلذات الماده و التلهى بالآمال و الأمانى فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام و الحيوان العجم فمن الحرى أن يتركوا و ما هم فيه، و لا يلقى اليهم الحجج الحقه المبنيه على أساس العقل السليم و المنطق الإنسانى.

قوله تعالى: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ تثبت و توكيد لقوله فى الآيه السابقه: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» على ما يعطيه السياق و المعنى دعهم فإنهم لا- يسلمون فى هذه الحياه الدنيا و إنما يودّون الإسلام بعد حلول أجلهم و نزول الهلاك بهم، و الناس ليسوا بدوى خيره فى ذلك بل لكل أمه كتاب معلوم عند الله مكتوب فيه أجلهم لا يقدرّون أن يستقدموه و لا يستأخروه ساعه.

و فى الآيتين دلالة على أن الامه من الإنسان لها كتاب كما أن للفرد منه كتابا، قال تعالى:

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (الإسراء/ ١٣).

قوله تعالى: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» كلام خارج مخرج الاستهزاء، و لذلك خاطبه صلى الله عليه و آله و سلم لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدّعيه، و جاءوا بالفعل المجهول للدلاله على أن منزله غير معلوم عندهم و لا اعتماد و لا وثوق لهم بما يدّعيه هو أن الله تعالى هو الذى أنزله، و توصيفه بالذى نُزِّلَ عليه الذكر و كذا تسميه النازل عليه ذكرا كل ذلك من الاستهزاء كما أن قولهم: «إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» رمى و تكذيب.

قوله تعالى: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ» لو ما مثل هلا

للتحضيض أى هلاً- تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً فى دعوى النبوة ليشهدوا على صدق دعواك و يندروا معك،فهو قريب المعنى من قولهم على ما حكاه الله: لَوْ لَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (الفرقان ٧).

و وجه اقتراحهم على الأنبياء أن يأتوا بالملائكة و يظهرهم لهم اعتقادهم أن البشريه كينونه ماديه مغموره فى قذاره الشهوه و الغضب لا- نسبه بينها و بين العالم السماوى الذى هو محض النورانيه و الطهاره فمن ادعى نوعاً من الاتصال بذاك العالم الروحاني فعليه أن يأتى ببعض أهله من الملائكة الكرام ليصدقوه فى دعواه و يعينوه فى دعوته.

على أن الملائكة عند الوثنيين آلهه دون الله سبحانه فدعوتهم الى التوحيد معناه أن هؤلاء الآلهه فى معزل من الشفاعه و العباده بأمر من الله سبحانه و هو إله الآلهه و لا دليل على ذلك كاعترافهم به فليزلوا و ليعترفوا و يصدقوا،النبوه.

قوله تعالى: مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ جواب عما اقترحوا على النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن ياتيهم بالملائكة حتى يصدقوه و محصيل الجواب أن السنه الإلهيه جاريه على ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم و أظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلك كان ذلك آيه سماويه خارقه للعاده نازله عن اقتراحهم،و من شأن الآيه المعجزه النازله عن اقتراح الناس ان يعقبا عذاب الاستئصال و الهلاك القطعى إن لم يؤمنوا بها،و هؤلاء الكفار المعاندون ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك.

و بالجمله لو أنزل الله الملائكة و الحال هذا الحال-هم يقترحون آيه فاصله تظهر الحق و تميظ الباطل-لأنزلهم بالحق الفاصل المميز و ما كانوا إذا منظرين بل يهلكون و يقطع دابرهم، هذا محصل ما ذكره بعضهم.

و يمكن أن يقرّر معنى الآيه باستمداد من التدبر فى آيات أخر أن ظرف الحياه الماديه أعنى هذه النشأه الدنيويه ظرف يختلط فيه الحق و الباطل من غير ان يتمخض الحق فى الظهور

بجميع خواصه و آثاره كما يشير اليه قوله تعالى: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (الرعد ١٧)، و قد تقدم تفصيل القول فى ذلك فما يظهر فيه شىء من الحق إلا و هو يحتمل شيئا من اللبس و الشك كما يصدقه استقراء الموارد التى صادفناها مدى أعمارنا، و من الشاهد عليه قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا- وَ لَلْبَشِ إِنَّا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (الأنعام / ٩)، و الظرف ظرف الامتحان و الاختيار و لا- اختيار إلا مع إمكان التباس الحق بالباطل و اختلاط الخير و الشر بنحو حتى يقف الإنسان على ملتقى الطريقين و منشعب النجدين فيستدل على الخير و الشر بآثارهما و أمارتهما ثم يختار ما يستحقه من السعادة و الشقاوه.

قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ صدر الآيه مسوق سوق الحصر، و ظاهر السياق أن الحصر ناظر الى ما ذكر من ردهم القرآن بأنه من أهدار الجنون و أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مجنون لا عبره بما صنع و لا حجر و من اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكة ليصدقوه فى دعوته و أن القرآن كتاب سماوى حق.

و المعنى-على هذا و الله أعلم- أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك و يبطلوه بعنادهم و شدة بطشهم و تتكلف لحفظه ثم لا تقدر، و ليس نازلا من عند الملائكة حتى يفتقر الى نزولهم و تصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالا تدريجيا و إننا له لحافظون بما له من صفة الذكر بما لنا من العناية الكاملة به.

فهو ذكر حى خالد مصون من أن يموت و ينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكرا، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير فى صورته و سياقه بحيث يتغير به صفة كونه ذكرا لله مبيِّنا لحقائق معارفه.

فالآيه تدل على كون كتاب الله محفوظا من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذكرا لله

## [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١٥]

### اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمِمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسِلكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

### بيان:

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ الى آخر الآيتين؛ الشيع جمع شيعه و هي الفرقة المتفقه على سنه أو مذهب يتبعونه، قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم ٣٢).

وقوله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا أَيْ رَسَلًا وَقَدْ حَذَفَ لِلإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ فَإِنَّ العِنَايَةَ بِأَصْلِ تَحْقِيقِ الإِرْسَالِ مِنْ قَبْلِ مَنْ غَيْرِ نَظَرِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَ بِلِ بَيَانِ أَنَّ البَشَرَ الْأَوَّلِينَ كَالْآخِرِينَ جَرَتْ عَادَتُهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَحْتَرِمُوا الرِّسَالَةَ الإِلَهِيَّةَ وَيَسْتَهْزِئُوا بِمَنْ أَتَى بِهَا وَيَمْضُوا عَلَى إِجْرَامِهِمْ لِتَكُونَ فِي ذَلِكَ تَعْزِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ وَ سَلَمٍ فَلَا يَضِيقُ صَدْرَهُ بِمَا قَبِلُوهُ مِنْ الإِنْكَارِ وَ الإِسْتَهْزَاءِ كَمَا سَيَعُودُ إِلَيْهِ فِي آخِرِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ الخ؛ الآيه ٩٧ من السوره.

ص: ٤٨٠



و المعنى: طب نفسا فنحن نزلنا الذكر عليك و نحن نحفظه و لا- يضيقر صدرك بما يقولون فهو دأب المجرمين من الامم الانسانيه أقسم لقد أرسلنا من قبلك فى فرق الأولين و شيعهم و حالهم هذه الحال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ إِلَى آخِرِ آيَاتِنَا؛ السُّلُوكُ:

النفاذ و الإنفاذ يقال: سلك الطريق أى نفذ فيه و سلك الخيط فى الإبره أى أنفذه فيها و أدخله و ذكروا أن سلك و أسلك بمعنى.

و الضميران فى نَسْلُكُهُ و بِهِ للذكر المتقدم ذكره و هو القرآن الكريم و المعنى أن حال رسالتك و دعوتك بالذكر المنزل اليك تشبه حال الرساله من قبلك فكما أرسلنا من قبلك فقابلوها بالرد و الاستهزاء كذلك ندخل هذا الذكر و ننفذه فى قلوب هؤلاء المجرمين، و نبأ به:

أنهم لا يؤمنون بالذكر و قد مضت طريقه الأولين و سنتهم فى أنهم يستهزءون بالحق و لا يتبعونه فالآيتان قريبتا المعنى من قوله: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ .

قوله تعالى: وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُبُكَّتْ أَبْصَارُنَا بِنُورٍ مِّنَ السَّمَاءِ الصُّعُودِ إِلَيْهَا وَ التَّسْكِيرِ الْعِشَاوَةِ.

و المراد بفتح باب من السماء عليهم إيجاد طريق يتيسر لهم به الدخول فى العالم العلوى الذى هو مأوى الملائكه و ليس كما يظن سقفا جرمانيا له باب ذو مصراعين يفتح و يغلق، و قد قال تعالى: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (القمر ١١).

فالمعنى: و لو فتحنا عليهم بابا من السماء و يسرنا لهم الدخول فى عالمها فداموا يعرجون فيه عروجا بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهده ما فيه من أسرار الغيب و ملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشاهدت امورا لا حقيقه لها بل نحن قوم مسحورون.

## [سورة الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ٢٥]

### إشارة

وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زِينَاتٍ لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ إِسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ الْأَقْيَانَا فِيهَا رُؤُوسًا وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَشِئْمٌ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزَانَةٌ وَ إِذَا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَ إِذَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسِيئِينَ تَقْدِيمًا مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَ إِنْ رَبُّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** الى آخر الآيات الثلاث، البروج جمع برج و هو القصر سميت بها منازل الشمس و القمر من السماء بحسب الحس تشبيها لها بالقصور التي ينزلها الملوكة.

و الضمير في قوله: **وَزَيَّنَّاهَا** للسماء كما في قوله: **وَ حَفِظْنَاهَا** و تزينها للناظرين هو ما نشاهده في جوهها من البهجه و الجمال الذي يولّه الألباب بنجومها الزاهره و كواكبها اللامعه على اختلاف أقدارها و تنوع لمعاتها و قد كرّر سبحانه ذكر هذا التزيين الكاشف عن مزيد عنايته به كقوله: **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا** (حم السجده/

(١٢)، و قوله: إِذَا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِبَنِينَ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (الصفات ١٠).

و استرق السمع أخذ الخبر المسموع فى خفيه كمن يصغى خفيه الى حديث قوم يسرونه فيما بينهم، و استراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطلعوا على بعض ما يحدث به الملائكة فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفا من آيات سورة الصفات.

و الشهاب هو الشعلة الخارجة من النار و يطلق على ما يشاهد فى الجو من أجرام مضيئه كأن الواحد منها كوكب ينقض دفعه من جانب الى آخر فيسير سيرا سريعا ثم لا يلبث دون أن ينطفىء.

فظاهر معنى الآيات: و لقد جعلنا فى السماء- و هى جهة العلو- بروجاً و قصورا هى منازل الشمس و القمر و زيناها أى السماء للناظرين بزينة النجوم و الكواكب و حفظناها أى السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطلع على ما تحتويه من الملكوت إلا من استراق السمع من الشياطين بالاقتراب منه لسمع ما يحدث به الملائكة من أحداث الغيب المتعلقة بمستقبل الحوادث و غيرها فإنه يتبعه شهاب مبين.

و سنتكلم إن شاء الله فى الشهب و معنى رمى الشياطين فيما سيأتى من تفسير سورة الصفات.

قوله تعالى: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ مَدَّ الْأَرْضَ بِسَطْحِهَا طَوَّلاً وَعَرْضاً وَبِذَلِكَ صَلَحَتْ لِلزَّرْعِ وَالسَّكَنِى وَ لَوْ اغْشَيْتَ جَبَالاً شَاهِقَهُ مَضْرَسَهُ لَفَقَدْتَ كَمَالَ حَيَاةِ الْحَيَوَانَ عَلَيْهَا.

و الرواسى صفة محذوفه الموصوف و التقدير و ألقينا فيها جبالا رواسى و هو جمع راسيه بمعنى الثابتة إشاره الى ما وقع فى غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال: وَأَلْقَى

فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (النحل ١٥).

والموزون من الوزن و هو تقدير الأجسام من جهه ثقلها ثم عمم لكل تقدير لكل ما يمكن أن يتقدر بوجه كتقدير الطول بالشبر و الذراع و نحو ذلك و تقدير الحجم و تقدير الحرارة و النور و القدره و غيرها، و في كلامه تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (الأنبياء ٤٧)، و هو توزيع الأعمال و لا يتصف بثقل و خفه من نوع ما للأجسام الارضيه منهما.

و ربما يكتنى به عن كون الشىء بحيث لا يزيد و لا ينقص عما يقتضيه الطبع أو الحكمة كما يقال: كلامه موزون و قامته موزونه و أفعاله موزونه أى مستحسنه متناسبه الأجزاء لا تزيد و لا تنقص مما يقتضيه الطبع أو الحكمة.

و بالنظر الى اختلاف اعتباراته المذكوره ذكر بعضهم أن المراد به إخراج كل ما يوزن من المعدنيات كالذهب و الفضة و سائر الفلزات، و قال بعضهم: إنه إنبات النباتات على ما لكل نوع منها من النظام البديع الموزون، و قيل: إنه خلق كل أمر مقدر معلوم.

و الذى يجب التنبه له التعبير بقوله: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ» دون أن يقال: من كل نبات موزون فهو يشمل غير النبات مما يظهر و ينمو فى الأرض كما أنه يشمل النبات لمكان قوله:

«وَ أَنْبَتْنَا» دون أن يقال: أخرجنا أو خلقنا و قد جىء بمن و ظاهرها التبويض فالمراد-و الله أعلم- إنبات كل أمر موزون ذى ثقل مادى يمكن ان يزيد و ينقص من الأجسام النباتيه و الأرضيه، و لا مانع على هذا من أخذ الموزون بكل من معنيه الحقيقى و الكنائى.

و المعنى: و الأرض بسطناها و طرحنا فيها جبالا ثابتة لتسكنها من الميد و أنبتنا فيها من كل شىء موزون-ثقل واقع تحت الجاذبه أو متناسب-مقدارا تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَشِئْتُمْ لَهُ بَرَازِقِينَ المَعَايِش جمع معيشه و هى ما به يعيش الحيوان و يديم حياته من المأكول و المشروب و غيرهما و يأتى مصدرا

و قوله: وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ مَعُوفٍ عَلَى الضمير المجرور في «لَكُمْ» على ما ذهب اليه من النحاء الكوفيون و يونس و الأخفش من جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجواز، و أما على قول غيرهم فربما يعطف على معاش و التقدير و جعلنا لكم من لستم له برازقين كالعيبد و الحيوان الأهلى، و ربما جعل «مَنْ» مبتدأ محذوف الخبر و التقدير:

و من لستم له برازقين جعلنا له فيها معاش و هذا كله تكلف ظاهر.

و كيف كان، المراد بمن العبيد و الدواب-على ما قيل-أتى بلفظه من و هى لاولى العقل تغليبا هذا، و ليس من البعيد أن يكون المراد به كل ما عدا الإنسان من الحيوان و النبات و غيرهما فإنها تسأل الرزق كما يسأله العقلاء و من دأبه سبحانه فى كلامه أن يطلق الألفاظ المختصة بالعقلاء على غيرهم إذا أضيف إليها شىء من الآثار المختصة بهم كقوله تعالى فى الأصنام: فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (الأنبياء ٦٣)، و قوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي (الشعراء ٧٧)، الى غير ذلك من الآيات المتعرضه لحال الأصنام التى كانوا يعبدونها و لا- يستقيم للمعبود إلا- أن يكون عاقلا- و كذا قوله: فَقَالَ لَهُمَا وَ لِلْمَأْرُضِ اثْنَيْ عَشَرَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده ١١)، و غير ذلك.

و المعنى: و جعلنا لكم معشر البشر فى الأرض أشياء تعيشون بها مما تدام به الحياه و لغيركم من أرباب الحياه مثل ذلك.

قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا- عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا- بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ الخزائن جمع خزانه و هى مكان خزن المال و حفظه و ادخاره، و القدر بفتحين أو فتح فسكون مبلغ الشىء و كميته المتعينه (١).

و الذى يعطيه التدبر فى الآيه و ما يناظرها من الآيات الكريمة أنها من غرر كلامه تعالى تبين ما هو أدق مسلكا و أبعد غورا مما فسروها به و هو ظهور الأشياء بالقدر و الأصل الذى لها قبل إحاطته بها و اشتماله عليها.

و ذلك أن ظاهر قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ» على ما به من العموم بسبب وقوعه فى سياق النفى مع تأكيده بمن، كل ما يصدق عليه أنه شىء من دون أن يخرج منه إلا ما يخرج نفسه السياق و هو ما تدل عليه لفظه «نا» و «عند» و «خزائن» و ما عدى ذلك مما يرى و لا يرى مشمول للعام.

فشخص زيد مثلا و هو فرد إنسانى و نوع من الإنسان أيضا الموجود فى الخارج بأفراده من الشىء و الآيه تثبت لذلك خزائن عند الله سبحانه فلننظر ما معنى كون زيد مثلا له خزائن عند الله؟

و الذى يسهل الأمر فيه أنه تعالى يعد هذا الشىء المذكور نازلا من عنده و النزول يستدعى علوا و سفلا و رفعه و خفضه و سماء و أرضا مثلا و لم ينزل زيد المخلوق مثلا من مكان عال الى آخر سافل بشهادته العيان فليس المراد بإنزاله إلا خلقه لكنه ذو صفه يصدق عليه النزول بسببها، و نظير الآيه قوله تعالى: «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِينَ أَزْوَاجًا (الزمر / ٦)»، و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥)».

ثم قوله: «وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» يقرن النزول و هو الخلقه بالقدر قرنا لازما غير جائز الانفكاك لمكان الحصر، و الباء إما للسببيه أو الآله أو المصاحبه و المآل واحد فكينونه زيد و ظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محاله، كيف؟ و هو تعالى بقول: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (حم السجده ٥٤)»، و لو لم يكن محدودا لم يكن محاطا له تعالى فمن المحال أن يحاط بما لا حد له و لا نهايه.

و هذا القدر هو الذى بسببه يتعين الشىء و يتميز من غيره ففى زيد مثلا شىء به يتميز من

عمرو وغيره من أفراد الانسان و يتميز من الفرس و البقر و الأرض و السماء و يجوز لنا به أن نقول: ليس هو بعمر و ولا بالفرس و البقر و الأرض و السماء و لو لا هذا الحد لكان هو هي و ارتفع التميز.

و كذلك ما عنده من القوى و الآثار و الأعمال محدوده مقدره فليس إبطاره مثلا إبطارا مطلقا في كل حال و في كل زمان و في كل مكان و لكل شيء و بكل عضو مثلا بل إبطار في حال و زمان و مكان خاص و لشيء خاص و بعضو خاص و على شرائط خاصه، و لو كان إبطارا مطلقا لأحاط بكل إبطار خاص و كان الجميع له و نظيره الكلام في سائر ما يعود اليه من خصائص وجوده و توابعه فافهم ذلك.

و من هنا يظهر أن القدر خصوصيه وجود الشيء و كيفيه خلقته كما يستفاد أيضا من قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (الأعلى ٣)، و قوله: الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (طه ٥٠) فإن الآيه الاولى رتبت الهدايه و هي الدلاله على مقاصد الوجود على خلق الشيء و تسويته و تقديره، و الآيه الثانيه رتبته على إعطائه ما يختص به من الخلق، و لازم ذلك -على ما يعطيه سياق الآيتين- كون قدر الشيء خصوصيه خلقه غير الخارجه عنه.

ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال: «وَمَا نُزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» و يفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما ينزل الشيء و لما يتم نزوله و يظهر وجوده فهو معلوم القدر معينه قبل إيجاده، و اليه يؤول معنى قدر: «كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (الرعد / ٨)، فإن ظاهر الآيه أن كل شيء بماله من المقدار حاضر عنده معلوم له فقوله هناك: «عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» في معنى قوله هاهنا: «بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» و نظير ذلك قوله في موضع آخر: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» (الطلاق / ٣)، أي قدرا لا يتجاوزه معينا غير مبهم معلوما غير مجهول و بالجملة للقدر تقدم على الشيء بحسب العلم و المشيه و إن كان مقارنا له غير منفك عنه في

ثم إنه تعالى أثبت بقوله: «عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ» الخ؛ للشيء عنده قبل نزوله الى هذه النشأة و استقراره فيها خزائن، وجعل القدر متأخرا عنها ملازما لنزوله فالشيء و هو في هذه الخزائن غير مقدر بقدر و لا محدود بحد و هو مع ذلك هو.

وقد جمع في تعريف هذه الخزائن بين كونها فوق القدر الذى يلحق الشيء و بين كونها خزائن فوق الواحد و الاثنتين، و من المعلوم أن العدد لا يلحق إلا الشيء المحدود و أن هذه الخزائن لو لم تكن محدوده متميزه بعضها من بعض كانت واحده البته.

و من هنا يتبين أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض و كل ما هو عال منها غير محدود بحد ما هو دان غير مقدر بقدره و مجموعها غير محدود بالحد الذى يلحق الشيء و هو في هذه النشأة، و لا يبعد أن يكون التعبير بالتنزيل الدال على نوع من التدرج في قوله: «وَمَا نُنزِّلُهُ» إشارة الى كونه يطوى في نزوله مرحله بعد مرحله و كلما ورد مرحله طراه من القدر أمر جديد لم يكن قبل حتى إذا وقع في الأخيره أحاط به القدر من كل جانب قال تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّيذُورًا (الدهر ١)، فقد كان الإنسان و لكنه لم يكن شيئا مذكورا.

و هذه الخزائن جميعا فوق عالما المشهود لأنه تعالى وصفها بأنها عنده و قد أخبرنا بقوله:

«مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ» أن ما عنده ثابت لا يزول و لا يتغير عما هو عليه فهذه الخزائن كائنه ما كانت أمور ثابتة غير زائلة و لا- متغيره، و الأشياء في هذه النشأة الماديه المحسوسه متغيره فانيه لا- ثابتة و لا- باقيه فهذه الخزائن الإلهيه فوق عالما المشهود.

هذا ما يعطيه التدبر في الآيه الكريمة و هو و إن كان لا- يخلو من دقه و غموض يعضل على بادئ الفهم لكنك لو أمعنت في التدبر و بذلت في ذلك بعض جهدك استنتار لك و وجدته من واضحات كلامه إن شاء الله تعالى و على من لم يتيسر له قبوله أن يعتمد الوجه الثالث المتقدم



فهو أحسن الوجوه الثلاثة المتقدمه و الله ولي الهدايه و سرجع الى بحث القدر فى كلام مستقل يختص به إن شاء الله فى موضع يناسبه.

قوله تعالى: **وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** اللواقح جمع لاقحه من اللقح بالفتح فالسكون يقال: لقح النخل لقحا أى وضع اللقاح-بفتح اللام-و هو طلع الذكور من النخل على الإناث لتحمل بالتمر، وقد ثبت بالأبحاث الحديثه فى علم النبات أن حكم الزوجيه جار فى عامه النبات و أن فيه ذكوريه و أنوثيه و أن الرياح فى مهبها تحمل الذرات من نطفه الذكور فتلقح بها الإناث، و هو قوله تعالى: **«وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ»**.

و قوله: **فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ** إشاره الى المطر النازل من السحاب و قد تسلم الأبحاث العلميه الحديثه أن الماء الموجود فى الكره الأرضيه من الأمطار النازله عليها من السماء على خلاف ما كانت تعتقده القدماء أنه كره ناقصه محيطه بكره الأرض إحاطه ناقصه و هو عنصر من العناصر الأربعه.

و هذه الآيه التى تثبت بشرها الأول **«وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ»** مسأله الزوجيه و اللقاح فى النبات، و بشرها الثانى **«فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»** أن المياه الموجوده المدخره فى الأرض تنتهى الى الأمطار، و قوله تعالى السابق: **وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ** الظاهر فى أن للوزن دخلا خاصا فى الإنبات و الإنماء من نقود العلم التى سبق إليها القرآن الكريم الأبحاث العلميه و هى تتلو المعجزه أو هى هى.

قوله تعالى: **وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ** الكلام مسوق للحصر يريد بيان رجوع كل التدبير اليه، و قد كان ما عدّه من النعم كالسما بروجها و الأرض برواسيها، و إنبات كل شىء موزون و جعل المعائش و إرسال اللواقح و إنزال الماء من السماء إنما يتم نظاما مبنا على الحكمه و العلم إذا انضم اليه الحياه و الموت و الحشر، و كان

مما ربما يظن أن بعض الحياه و الموت ليس اليه تعالى و لذا أكد الكلام و أتى بالحصر دفعا لذلك.

ثم جاء بقوله: وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ أى الباقون بعد إمامتكم المتصرفون فيما حوّلناكموه من أمتعه الحياه كأنه تعالى يقول الينا تدبير أمركم و نحن محيطون بكم نحبيكم بعد ما لم تكونوا فنحن قبلكم، و نميتكم و نرثكم فنحن بعدكم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ لما كانت الآيات السابقه التى تعدّ النعم الإلهيه و تصف التدبير مسوقه لبيان وحدانيته تعالى فى ربوبيته، و كان لا ينفع الخلق و النظم من غير انضمام علمه تعالى و خاصه بمن يحييه و يميته عقبها بهذه الآيه الداله على علمه بمن استقدم منهم بالوجود و من استأخر أى المتقدمين من الناس و المتأخرين على ما يفيد السياق.

و قيل: المراد بالمستقدمين المستقدمون فى الخير، و قيل: المستقدمون فى صفوف الحرب، و قيل: المستقدمون الى الصف الأول فى صلاه الجماعه و المستأخرون خلافهم، و هى أقوال رديه.

قوله تعالى: وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ الكلام مسوق للحصر أى هو يحشرهم لا غير فهو الرب.

و أورد عليه أنه فى مثل ذلك من الحصر يكون الفعل مسلّم الثبوت و النزاع إنما هو فى الفاعل، و هاهنا ليس كذلك فإن الخصم لا يسلم الحشر من أصله هذا.

و قد ذهب على هذا المعترض أن الآيه حوّلت الخطاب السابق للناس عنهم الى النبى صلّى الله عليه و آله و سلم التفاتا فقول «وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ» و لم يقبل: إن ربكم هو يحشركم، و النبى صلّى الله عليه و آله و سلم مسلّم للحشر.

و بذلك يظهر نكته الالتفات فى الآيه فى مورده تعالى من التكلم مع الغير الى الغيبه، و فى

مورد النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم من الغيبة الى الخطاب، و في مورد الناس بالعكس.

و قد ختمت الآيه بقوله: إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ لِأَن الْحِشْرَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْحِكْمَةِ الْمَقْتَضِيَةِ لِحِسَابِ الْأَعْمَالِ وَ مَجَازَاهِ الْمَحْسَنِ بِإِحْسَانِهِ وَ الْمَسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَ عَلَى الْعِلْمِ حَتَّى لَا يَغَادِرَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

## [سوره الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٤٨]

### اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَمَاذَا سَوَّيْتَهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجِدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْمَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءُدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عَيْونٍ (٤٥) أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦) وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» قال الراغب في المفردات: أصل الصلصال تردّد الصوت من الشيء اليابس و منه قيل: صلّ المسمار و سمى الطين الجاف صلصالا، قال تعالى: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» «مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» و الصلصلة بقيه ماء سميت بذلك لحكاية صوت تحرّكه في المزاده و قيل: الصلصال المنتن من الطين من قولهم: صلّ اللحم.

وقال: والحمأ و الحمأه طين أسود منتن، وقال: وقوله: من حماء مسنون قيل: متغير وقوله: لم يتسنه معناه لم يتغير و الهاء للاستراحه. انتهى.

وقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ الْخ؛ المراد به بدء خلقه الإنسان بدليل قوله:

وَ يَدَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْ نَسِيلَهُ مِنْ سُيَالِهِ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (الم السجده ٨/٨)، فهو إخبار عن خلقه النوع و ظهوره فى الأرض فإن خلق أول من خلق منهم و منه خلق الباقي خلق الجميع.

قال فى مجمع البيان: و أصل آدم كان من تراب و ذلك قوله: «خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ» ثم جعل التراب طينا و ذلك قوله: «وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ثم ترك ذلك الطين حتى تغير و استرخى و ذلك قوله: «مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ» ثم ترك حتى جف و ذلك قوله: «مِنْ صَلْصَالٍ» فهذه الأقوال لا تناقض فيها إذ هى أخبار عن حالاته المختلفه. انتهى.

قوله تعالى: وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ قال الراغب: السموم الريح الحاره تؤثر تأثير السم. انتهى. و أصل الجن الستر و هو معنى سار فى جميع ما اشتق منه كالجن و المجنه و الجنه و الجنين و الجنان بالفتح و جن عليه الليل و غير ذلك.

و الجن طائفه من الموجودات مستوره بالطبع عن حواسنا ذات شعور و إراده تكرر فى القرآن الكريم ذكرهم و نسب اليهم أعمال عجيبه و حركات سريعه كما فى قصص سليمان عليه السلام و هم مكلفون و يعيشون و يموتون و يحشرون تدل على ذلك كله آيات كثيره متفرقه فى كلامه تعالى.

و أما الجان فهل هو الجن بعينه أو هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر كما عن ابن عباس أو هو إبليس نفسه كما عن الحسن أو الجان نسل إبليس من الجن أو هو نوع من الجن كما ذكره الراغب؟ أقوال مختلفه لا دليل على أكثرها.

و الذى يهدى اليه التدبر فى كلامه تعالى أنه قابل فى هاتين الآيتين الإنسان بالجان فجعلهما

نوعين اثنين لا- يخلوان عن نوع من الارتباط في خلقتهما، و نظير ذلك قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (الرحمن ١٥).

و لا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلالة على أن إبليس كان جانا و إلا لغي قوله:

«وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛ و قد قال تعالى في موضع آخر من كلامه في إبليس: <sup>□</sup> كَمَا كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف ٥٠)، فأفاد أن هذا الجان المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجن ثم ترك سبحانه في سائر كلامه ذكر الجان من أصله و لم يذكر إلا- الجن حتى في موارد يعم الكلام فيها إبليس و قبيله كقوله تعالى: شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/ ١١٢)، و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده ٢٥)، و قوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ -إلى أن قال- يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانفُذُوا (الرحمن ٣٣).

و ظاهر هذه الآيات من جهه المقابله الواقعه فيها بين الإنسان و الجان تاره و بين الإنسان و الجن أخرى أن الجن و الجان واحد و إن اختلف التعبير.

و ظاهر المقابله بين قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» الخ؛ و قوله: «وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛ أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائي و بدء ظهر و النوع كخلق الإنسان من صلصال؛ و هل كان استمرار الخلقه في أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنه الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدئ خلقه من تراب ثم استمر بالنطفه؟ كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهرا غير ما في بعض كلامه من نسبه الذريه الى إبليس كما قال:

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي (الكهف ٥٠)، و نسبه الموت اليهم كما في قوله:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده ٢٥)، و المألوف من نوع فيه ذريه و موت هو التناسل و الكلام بعد في هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟

و قوله: خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مَقْطُوعِ الْإِضَافَةِ أَي مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْقَرِينَةُ هِيَ الْمَقَابِلَةُ بَيْنَ الْخَالِقِينَ.

وعد مبدأ خلق الجن في الآية هو نار السموم لا ينافي ما في سورة الرحمن من عده مارجا من نار أي لهيبا مختلطا بدخان فإن الآيتين تلخصان أن مبدأ خلقه ريح سموم اشتعلت فكانت مارج نار.

فمعنى الآيتين: أقسم لقد بدأنا خلق النوع الانساني من طين قد جف بعد أن كان سائلا متغيرا منتنا، و نوع الجن بدأنا خلقه من ريح حارّه حاده اشتعلت فصارت نارا.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْبَشَرَةُ ظَاهِرُ الْجِلْدِ وَالْأَدَمَةُ بَاطِنُهُ كَذَا قَالَ عَامَهُ الْإِدْبَاءُ-إِلَى أَنْ قَالَ-وَعَبَّرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِالْبَشَرِ اعْتِبَارًا بِظُهُورِ جِلْدِهِ مِنَ الشَّعْرِ بِخِلَافِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا الصُّوفُ أَوْ الشَّعْرُ أَوْ الْوَبْرُ، وَاسْتَوَى فِي لَفْظِ الْبَشَرِ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَثَنِي فَقَالَ تَعَالَى: أُنُومٌ لِبَشَرَيْنِ وَخَصَّ فِي الْقُرْآنِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ اعْتَبَرَ مِنَ الْإِنْسَانِ جِثَّتَهُ وَظَاهِرَهُ بِلَفْظِ الْبَشَرِ نَحْوَ «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا» أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ.

و قوله: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا بِإِضْمَارِ فِعْلِ وَالتَّقْدِيرُ: وَاذْكَرْ إِذْ قَالَ رَبُّكَ، وَفِي الْكَلَامِ التَّفَاتِ مِنَ التَّكْلِمْ مَعَ الْغَيْرِ إِلَى الْغَيْبِ وَكَأَنَّ الْعِنَايَةَ فِيهِ مِثْلُ الْعِنَايَةِ الَّتِي مَرَّتْ فِي قَوْلِهِ: وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ أَيْضًا تَكْشِفُ عَنْ نَبَأِ يَنْتَهَى إِلَى الْحَشْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ الْخَالِدَتَيْنِ.

على أن التكلم مع الغير في السابق «وَلَقَدْ خَلَقْنَا» مِنْ قَبِيلِ تَكْلِمْ الْعِظْمَاءِ عَنْهُمْ وَعَنْ خِدْمَتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ تَعْظِيمًا أَيْ بِأَخْذِهِ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ الْكِرَامَ مَعَهُ فِي الْأَمْرِ وَهَذِهِ الْعِنَايَةُ مِمَّا لَا يَسْتَقِيمُ فِي مِثْلِ الْمَقَامِ الَّذِي يَخَاطَبُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ فِي إِخْبَارِهِمْ بِإِرَادَتِهِ خَلْقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَرَهُمْ بِالسُّجُودِ لَهُ إِذَا سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ فَافْهَمْ ذَلِكَ وَمَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ التسويه جعل الشئء مستويا قيما على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغي أن يكون عليه فتسويه الإنسان أن يكون كل عضو من أعضائه في موضع الذي ينبغي أن يكون فيه و على الحال التي ينبغي أن يكون عليها.

و لا يبعد أن يستفاد من قوله: «إني خالق- فإذا سويته» أن خلق بدن الإنسان الأول كان على سبيل التدرج الزماني فكان أولا الخلق و هو جمع الأجزاء ثم التسويه و هو تنظيم الأجزاء و وضع كل جزء في موضعه الذي يليق به و على الحال التي تليق به ثم النفخ، و لا ينافيه ما في قوله تعالى: خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٥٩/)، فإن قوله: «ثُمَّ قَالَ لَهُ» الخ؛ ناظر الى كينونه الروح و هو النفس الانسانيه دون البدن كما عبّر عنه في موضع آخر بعد بيان خلق البدن بالتدرج بقوله: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون/ ١٤).

و قوله: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ إدخال الهواء في داخل الأجسام بفم أو غيره و يكتنى به عن إلقاء أثر أو أمر غير محسوس في شئء، و يعنى به في الآيه إيجاده تعالى الروح الانساني بما له من الرابطة و التعلق بالبدن، و ليس بداخل فيه دخول الهواء في الجسم المنفوخ فيه كما يشير اليه قوله سبحانه: ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤/)، و قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده/ ١١).

فالآيه الاولى- كما ترى- تبين أن الروح الانساني هو البدن منشأ خلقا آخر و البدن على حاله من غير أن يزداد فيه شئء، و الآيه الثانيه تبين أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن و البدن على حاله من غير أن ينقص منه شئء.



فالروح أمر موجود في نفسه له نوع اتحاد بالبدن بتعلقه به و له استقلال عن البدن إذ انقطع تعلقه به و فارقه و قد تقدم بعض ما يتعلق من الكلام بهذا المقام في تفسير قوله تعالى: **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ** (البقره ١٥٤/) في الجزء الأول من الكتاب.

و نرجو أن نستوفي هذا البحث في ذيل قوله: **«قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»** الآية ٨٥ من سورة الإسراء إن شاء الله.

و إضافة الروح اليه تعالى في قوله: **«مَنْ رُوحِي»** للكرمه و التشريف من الإضافة اللاميه المفيده للملك، و قوله: **«فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»** أى اسجدوا، و لا يبعد أن يفهم منه أن خزوا على الأرض ساجدين له فيفيد التأكيد في الخضوع من الملائكه لهذا المخلوق الجديد كما قيل.

و معنى الآية فإذا عدلت تركيبه و أتممت صنع بدنه و أوجدت الروح الكريم المنسوب إلى الذى أربط بينه و بين بدنه فقعدوا و خزوا على الأرض ساجدين له.

قوله تعالى: **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** لفظه أجمعون تأكيد بعد تأكيد لتشديده، و المراد أن الملائكه سجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد و قد استثنى من ذلك إبليس و لم يكن منهم لقوله تعالى: **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** (الكهف ٥٠/)، و أما قول من قال: إن طائفه من الملائكه كانوا يسمعون الجن و كان إبليس منهم أو أن الجن بمعنى الستر فيعم الملائكه و غيرهم فمما لا يصغى اليه، و قد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام في معنى شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم كونه من الملائكه، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** «مَا لَكَ» مبتدأ و خبر أى ما الذى هو كائن لك؟ و قوله: **«أَلَّا تَكُونَ»** من قبيل نزع الخافض و التقدير فى أن لا تكون مع الساجدين و هم الملائكه، و محصل المعنى: ما بالك لم تسجد؟

قوله تعالى: **قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ**

مَسِينُونَ فِي التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ» دُونَ أَنْ يَقُولَ: لَا أَسْجُدُ أَوْ لَسْتُ أَسْجُدُ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الْإِبَاءَ عَنِ السَّجْدِ مَقْتَضِي ذَاتَهُ وَ كَانَ هُوَ الْمَتْرَقِبُ مِنْهُ لَوْ أُطْلِعَ عَلَى جَوْهَرِهِ فَتَفِيدُ الْآيَةَ بِالْكِنَايَةِ مَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (ص ٧٦) بالتصريح.

و قد تقدم كلام في معنى السجود لآدم و أمر الملائكة و إبليس بذلك و ائتمارهم و تمرده عنه، نافع في هذا الباب في تفسير سورتي البقرة و الأعراف من هذا الكتاب.

قول تعالى فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ الرَّجِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِنَ الرَّجْمِ وَ هُوَ الطَّرْدُ وَ شَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الطَّرْدِ بِالْحِجَارَةِ وَ الْحِصَاةِ، وَ اللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ وَ الْإِبْعَادُ مِنَ الرَّحْمَةِ.

و من هنا يظهر أن قوله: وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ الخ؛ بمنزله البيان لقوله: «فَأِنَّكَ رَجِيمٌ» فَإِنَّ الرَّجْمَ كَانَ سَبَبًا لَخُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ الْمَنْزَلَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَ بِالْجَمَلَةِ مِنْ مَقَامِ الْقُرْبِ وَ هُوَ مَسْتَوَى الرَّحْمَةِ الْخَاصَةِ الْإِلَهِيَّةِ فَيَنْطَبِقُ عَلَى الْإِبْعَادِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ هُوَ اللَّعْنُ.

و قد نسب سبحانه هذه اللعنة المجمعولة على إبليس في موضع آخر الى نفسه فقال: وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (ص ٥٨)، و قيدها في الآيتين جميعاً بقوله: «إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» .

أما جعل مطلق اللعنة عليه في قوله: «عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ» فَلَأَنَّ اللَّعْنَ يَلْحَقُ الْمَعْصِيَةَ وَ مَا مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَ لِإِبْلِيسِ فِيهِ صَنْعٌ بِالْإِغْوَاءِ وَ الْوَسْوَسَةِ فَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلُّ مَعْصِيَةٍ وَ مَا يَلْحَقُهَا مِنْ لَعْنٍ حَتَّى فِي عَيْنِ مَا يَعُودُ إِلَى أَشْخَاصِ الْعِصَاةِ مِنَ اللَّعْنِ وَ الْوَبَالِ، وَ تَذَكَّرْ فِي ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ فِي ذَيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال ٣٧) فِي الْجِزَاءِ التَّاسِعِ مِنَ الْكِتَابِ.

على أنه لعنه الله أول فاتح فتح باب معصية الله و عصاه في أمره فاليه يعود وبال هذا الطريق بسالكيه ما سلكوا فيه.

و أما جعل لعنته خاصه عليه فى قوله: «عليه لعنتى» فلأن الإبعاد من الرحمه بالحقيقه إنما يؤثر أثره إذا كان منه تعالى إذ لا يملك أحد من رحمته إعطاء و منعا إلا بإذنه فاليه يعود حقيقه الإعطاء و المنع.

على أن اللعن من غيره تعالى بالحقيقه دعاء عليه بالإبعاد من الرحمه و أما نفس الإبعاد الذى هو نتيجه الدعاء فهو من صنعه القائم به تعالى و حقيقته المبالغه فى منع الرحمه.

و قال فى المجمع: و قال بعض المحققين: إنما قال سبحانه هنا: «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ» بالألف و اللام، و قال فى سورة ص: لَعْنَتِي بِالْإِضَافَةِ لِأَنَّ هُنَاكَ يَقُولُ «لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ» مضافا، فقال: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي» على المطابقه، و قال هنا: «مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ» و ساق الآيه على اللام فى قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» و قوله: «وَ الْجَانَّ» فأتى باللام أيضا فى قوله:

«وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ» انتهى و قال أيضا فى الآيه بيان أنه لا يؤمن قط.

و أما تقييد اللعنه بقوله: إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فلأن اللعنه هى عنوان الإثم و الوبال العائد الى النفس من المعصيه و المعصيه محدوده بيوم القيامه فالיום عمل و لا جزاء و غدا جزاء و لا عمل، و إن شئت فقل: هذه الدار دار كتابه الأعمال و حفظها و يوم القيامه دار الحساب و الجزاء.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ الانظار هو الامهال و قد صدر كلامه بقوله: «رَبِّ» و هو يخاصمه و قد عصاه و استكبر عليه تعالى لأنه فى مقام الدعاء لا مفر له من دعوته تعالى بما يثير به الرحمه الإلهيه المطلقه و هو الالتجاء اليه برؤيته له ليستجيب له و هو مغضوب عليه.

و قد صدر مسأله بفاء التفریع فى قوله: «فَأَنْظِرْنِي» و ذكر فيه بعثه عامه البشر من غير أن يخص بالذكر آدم أباهم الذى ابتلى بالرجم و اللعن من أجل الإباء عن السجود له و ذلك كله مبنى على ما تقدم فى تفسير آيات القصه فى سورة الأعراف أن المأمور به كان هو السجود

لعامه البشر و كان آدم عليه السلام كالقنبله المنصوبه للسجود يمثل به النوع الانساني.

و توضيحه أنه قد تقدم في قوله تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ نُفُوسًا مُّؤْتَمِنَةً صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ** (الأعراف ١١) أنهم إنما أمروا بالسجده لنوع الانسان لا لشخص آدم عليه السلام و لم يكن هذه السجده تشريفا اجتماعيا من غير غايه حقيقيه بل كانت خضوعا بحسب الخلقه فهم بحسب ما أريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أريد من كمال خلقتهم، أي إنهم مسخرون لأجله عاملون في سبيل سعادته أي إن للانسان منزله من القرب و مرحله من كمال السعاده تفوق ما للملائكه من ذلك.

فسجودهم جميعا له دليل أنهم جميعا مسخرون في سبيل كماله من السعاده عاملون لأجل فوزه و فلاحه كمالته الحياه و ملائكه الموت و ملائكه الأرزاق و ملائكه الوحي و المعقبات و الحفظه و الكتبه و غيرهم ممن تذكرهم متفرقات الآيات القرآنيه فالملائكه أسباب إلهيه و أعوان للانسان في سبيل سعاده و كماله.

و من هنا يظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبليس عن السجده استنكاف منه عن الخضوع لنوع الانسان و العمل في سبيل سعاده و إعيانه على كماله المطلوب على خلاف ما ظهر من الملائكه فهو يابائه عن السجده خرج من جمع الملائكه كما يفيدته قوله تعالى: **«مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»** و أظهر الخصومه لنوع الانسان و البراءه منهم ما حيوا و عاشوا أو خالدا مؤبدا.

و يؤيده جعله تعالى اللعنه المطلقه عليه من يوم أبي الى يوم الدين و هو مدته مكث النوع الانساني في هذه الدنيا فجعلها عليه كذلك و لما يدع إبليس أنه سيغويهم و لم يقل بعد **«لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»** مشعر بأن إباءه عن السجده نوع خصومه و عداوه منه لهذا النوع آخذا من آدم الى آخر من سيولد و يعيش من ذريته.

فكأنه عليه اللعنه فهم من قوله تعالى: **«وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَيَّ يَوْمَ الدِّينِ»** أن له شأنا مع

النوع الانساني الى يوم القيامة و أن لشقائهم و فساد أعمالهم ارتباطا به من حيث امتنع عن السجود و لذلك سأل النظره الى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنه المجمعوله عليه فقال: «رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» و لم يقل: رَبِّ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ و لم يقل: أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتِ آدَمُ أَوْ أَنْظِرْنِي مَا دَامَ حَيًّا يَعِيشُ بَلْ ذَكَرَ آدَمَ وَ بَنِيهِ جَمِيعًا وَ طَلَبَ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ مَفْرَعًا ذَلِكَ عَلَى اللَّعْنَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فَلَمَّا أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ أَبَدِيًّا مَا فِي كَمُونِ ذَاتِهِ وَ قَالَ: لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.

قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ جواب منه سبحانه لإبليس و فيه إجابته و ردّ أما الإجابة بالنسبه الى أصل الإنظار الذي سأله و أما الردّ بالنسبه الى القيد و هو أن يكون الإنظار الى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر الى سياق الآيتين أن يوم الوقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره الى يوم يبعثون بل الى يوم هو غيره و لا محاله هو قبل يوم البعث.

و ظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعين في العلم الإلهي نظير قوله: وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١)، و قوله: أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (الصفوات ٤١) فهو معلوم عند الله قطعا و أما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ، و قول بعضهم: أنه سبحانه أبهم اليوم و لم يبين فهو معلوم لله غير معلوم لإبليس لأن في بيانه إغراء بالمعصيه كلام خال عن الدليل فإبهام اللفظ بالنسبه اليها غير إبهام ما ألقى الى إبليس من القول بالنسبه اليه على أن إغراء إبليس بالمعصيه و هو الأصل لكل معصيه مفروضه لا يخلو عن إشكال فافهمه.

على أن قول إبليس ثانيا «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» شاهد على أنه سيبقى الى آخر ما يعيش الإنسان في الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى: «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أنه آخر عمر البشر العائشين في الأرض الجائر له إغواؤهم.

و نسب الى ابن عباس و مال اليه الجمهور أن اليوم هو آخر أيام التكليف و هو النفخه الاولى يوم يموت الخلائق و كأنه مبنى على أن إبليس باق ما بقى التكليف و أمكنت المخالفه و المعصيه، و هو مده عمر الإنسان فى الدنيا، و ينتهى ذلك الى النفخه الاولى التى بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الذى أنظره الله اليه، و بينه و بين النفخه الثانيه التى فيها يعثون أربعمائه سنه أو اربعون سنه على اختلاف الروايات، و هى ما به التفاوت بين ما سأله إبليس و بين ما أجاب اليه الله سبحانه.

و هذا وجه حسن لو لا- ما فيه من قولهم: إن إبليس باق ما بقى التكليف و أمكنت المخالفه و المعصيه فإنها مقدمه لا بينه و لا مبينه و ذلك أن تعويل القوم فى ذلك على أن المستفاد من الآيات و الأخبار كون كل كفر و فسوق موجود فى النوع الإنسانى مستندا الى إغواء إبليس و وسوسته كما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (يس ٦٠) و قوله: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ الخ؛ الى غير ذلك من الآيات. و مقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقيا، و التكليف باق ما بقى الإنسان و هو المطلوب.

و فيه أن كون المعصيه الإنسانيه مستنده بالجملة الى إغواء إبليس مستفاده من الآيات و الروايات لا غبار عليه لكنه إنما يقتضى بقاء إبليس ما دامت المعصيه و الغوايه باقيه لا بقاءه ما دام التكليف باقيا، و لا دليل على الملازمه بين المعصيه و التكليف وجودا.

بل الحجه قائمه من العقل و النقل على أن غايه الانسان النوعيه و هى السعاده ستعمّ النوع و يتخلص المجتمع الانسانى الى الخير و الصلاح و لا يعبد على الأرض يومئذ إلا الله سبحانه، و ينطوى وقتئذ بساط الكفر و الفسوق، و يصفو العيش و يرتفع أمراض القلوب و وساوس الصدور، و قد تقدم تفصيل ذلك فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى و فى قصص نوح فى الجزء العاشر من الكتاب. قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم ٤١)، وقال: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء ١٠٥).

و من ذلك يظهر أن الذي استندوا اليه من الحجّة إنما يدل على كون يوم الوقت المعلوم الذي جعله الله غايه إنظار إبليس هو يوم يصلح الله سبحانه المجتمع الإنساني فينقطع دابر الفساد و لا يعبد يومئذ إلا الله لا يوم يموت الخلائق بالنفخه الاولى.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الباء فى قوله: «بِمَا أَغْوَيْتَنِي» للسبب و«ما» مصدرية أى أتسبب ياغوائك إياى الى التزيين لهم و ألقى اليهم ما استقر فى من الغوايه كما قالوا يوم القيامة على ما حكى الله: أَعْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا (القصص ٦٣).

و قول بعضهم: إن الباء للقسم أى أقسم ياغوائك لازينن؛ من أردإ القول فلم يعهد فى كتاب و لا سنّه أن يقسم بمثل الإغواء و الإضلال و ليس فيه شىء مفهوم من التعظيم اللازم فى القسم.

و قد نسب لعنه الله فى قوله: بِمَا أَغْوَيْتَنِي الى الله سبحانه أنه أغواه و لم يرده الله سبحانه اليه و لا- أجاب عنه و ليس مراده به غوايته إذ عصى أمر السجده و لم يسجد لآدم عليه السّلام و الدليل على ذلك أن لا رابطه بين معصيته فى نفسه و بين معصيه الانسان لربه حتى يكون معصيته سبب معصيتهم و يتسبب هو بها الى إغوائهم.

و إنما يريد به ما يفيدده قوله تعالى: «وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّغْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» من استقرار اللعنه المطلقه فيه و هى الابعاد من الرحمه و الإضلال عن طريق السعاده و هى إغواء له إثر الغوايه التى أبداها من نفسه و أتى بها من عنده فيكون من إضلاله تعالى مجازاه لا إضلالا ابتدائيا و هو جائز غير ممتنع عليه تعالى، و لذلك لم يرده كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و قد بيّنا ذلك فى ذيل الآيه و مواضع اخرى من هذا





أخلصوا لله و ما أخلصهم إلا الله سبحانه، وقد قدمنا فى الكلام على الإخلاص فى تفسير سورة يوسف أن المخلصين هم الذين أخلصهم الله لنفسه بعد ما أخلصوا أنفسهم لله فليس لغيره سبحانه فيهم شركة و لا فى قلوبهم محلّ فلا يشتغلون بغيره تعالى فما ألقاه اليهم الشيطان من حباله و تزيناته عاد ذكرًا لله مقرّبًا اليه.

و من هنا يترجح أن الاستثناء إنما هو الإِغواء فقط لا- منه و من التزيين بمعنى أنه لعنه الله يزين للكل لكن لا- يغوى إلا- غير المخلصين.

و يستفاد من استثناء العباد أولاً ثم تفسيره بالمخلصين أن حق العبودية إنما هو بأن يخلص الله العبد لنفسه أى أن لا يملكه إلا هو و يرجع الى أن لا يرى الإنسان لنفسه ملكا و أنه لا يملك نفسه و لا شيئاً من صفات نفسه و آثارها و أعمالها و أن الملك- بكسر الميم و ضمها- لله وحده.

قوله تعالى: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ظاهر الكلام على ما يعطيه السياق أنه كناية على أن الأمر اليه تعالى لا غنى فيه عنه بوجه كما أن كون طريق السفينه على البحر يقضى على راعيها بأن لا مفرّ لهم مما يستدعيه العبور على الماء من العده و الوسيله و كذا كون طريق القافله على الجبل يحوجهم الى ما يتهيأ به لعبور قلله الشاهقه و مسالكه الصعبه فكونه صراطا عليه تعالى بالاستقامه هو أنه أمر متوقف من كل جهه الى حكمه و قضائه تعالى فإنه الله الذى منه يبدأ كل شىء و اليه ينتهى فلا يتحقق أمر إلا و هو ربه القيوم عليه.

و ظاهر السياق أيضا أن الإشاره بقوله: «هَذَا صِرَاطٌ» الخ؛ الى قول إبليس «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» لما أظهر بقوله هذا أنه سينتقم منهم و يبسط سلطته بالتزيين و الإِغواء عليهم جميعا فلا يخلص منهم إلا القليل كأنه يشير الى أنه سيستقلّ بما عزم عليه و يعلو بإرادته على الله سبحانه فيما أراد من خلقهم و استخلافهم و استعبادهم كما حكاه الله تعالى من قوله فى موضع آخر من قوله: «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» (الأعراف ١٧).

فمعنى الآية أن ما ذكرت من أنك ستغويهم أجمعين و استثنيت منهم من استثنيت و أظهرت نسبتته الى قوتك و مشيئتك زاعما فيه أنك مستقل به، أمر لا- يملكه إلا أنا و لا يحكم فيه غيرى و لا يصدر إلا عن قضائى فإن أغويت فيأذنى أغويت و إن منعت فبمشيئتى منعت فليس اليك من الأمر شىء و لا من الملك إلا ما ملكتك و لا من القدره إلا ما أقدرتك، و الذى أفضيه لك من السلطان أن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك، الخ.

قوله تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ هذا هو القضاء الذى أشار سبحانه اليه فى الآية السابقه فى أمر الإغواء و ذكر أنه له وحده ليس لغيره فيه صنع و لا نصيب.

و محصّيه أن آدم و بنيه كلهم عباده لا- كما قاله إبليس حيث قصر عباده على المخلصين منهم إذ قال: «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» و لم يجعل سبحانه له عليهم- أى على العباد- سلطانا حتى يستقل بأمرهم فيغويهم، و إنما جعل له السلطان على طائفه منهم و هم الذين اتبعوه من الغاوين و ولّوه أمرهم و ألقوا اليه زمام تدبيرهم فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان.

فإذا أمعنت فى الآية وجدتها تردّ على إبليس قوله: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» من ثلاث جهات أصليه:

إحداها: أنه حصر عباده فى المخلصين منهم و نفى عنهم سلطان نفسه و عمم سلطانه على الباقيين و الله سبحانه عمم عباده على الجميع و قصر سلطان إبليس على طائفه منهم و هم الذين اتبعوه من الغاوين و نفى سلطانه على الباقيين.

و الثانيه: أنه لعنه الله ادعى لنفسه الاستقلال فى إغوائهم كما يظهر من قوله: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ» فى سياق المخاصمه و التقرّيع بالانتقام و الله سبحانه يردّ عليه بأنه منه مزعمه باطله و إنما هو عن قضاء من الله و سلطان بتسليطه و إنما ملكه إغواء من اتبعه و كان غاويا فى نفسه و بسوء اختياره.

فلم يأت إبليس بشيء من نفسه و لم يفسد أمرا على ربه لا- في إغوائه أهل الغواية فإنه بقضاء من الله سبحانه أن يستقر لأهل الغواية عنهم بسببه- وقد اعترف لعنه الله بذلك بعض الاعتراف بقوله: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» -و لا في استثنائه المخلصين فإنه أيضا بقضاء من الله نافذ فلا حكم إلا لله.

و هذا الذى تفيدته الآية الكريمة أعنى تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم فى أنفسهم غاوون و تخليص المخلصين و هم مخلصون فى أنفسهم من كيد كل ذلك بقضاء من الله، مبنى على أصل عظيم يفيد التوحيد القرآنى المفاد بأمثال قوله تعالى: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (يوسف ٦٧)، و قوله: **وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ** (القصص ٧٠)، و قوله: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** (آل عمران ٦٠)، و قوله: **وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** (يونس ٨٢)، و غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل حكم إيجابى أو سلبى فهو مملوك لله نافذ بقضائه.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** الظاهر أن «مَوْعِدًا» اسم مكان و المراد بكون جهنم موعدهم كونه محل إنجاز ما وعدهم الله من العذاب.

و هذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته و رجوع الأمر كله اليه كأنه تعالى يقول له ما ذكرته من السلطان على الغاوين ليس لك من نفسك و لم تعجزنا بل نحن سلطناك عليهم لا تبعاهم لك على أنا سنجازيهم بعذاب جهنم.

و لكون الكلام مسوقا لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم و لم يذكر معهم إبليس و لا جزاءه بخلاف قوله: **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** (ص ٨٥) و قوله:

**فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا** (الإسراء ٦٣)، لأن المقام غير المقام.

قوله تعالى: **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ** لم يبين سبحانه فى شيء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أ هى كأبواب الحيطان مداخل تهدى

الجميع الى عرصه واحده أم هي طبقات و دركات تختلف في نوع العذاب و شدته؟ و كثيرا ما يسمى في الامور المختلفه الأنواع كل نوع بابا كما يقال: أبواب الخير و أبواب الشر و أبواب الرحمه، قال تعالى: فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام ٤٤)، و ربما سمى أسباب الشيء و طرق الوصول اليه أبوابا كأبواب الرزق لأنواع المكاسب و المعاملات.

و ليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثانى من متفرقات آيات النار كقوله تعالى: وَ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا - الى أن قال - قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا (الزمر ٧٢)، و قوله: إِنَّ الْمُتَافِفِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (النساء ١٤٥)، الى غير ذلك من الآيات.

و يؤيده قوله: لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ فَإِنْ ظَاهَرَهُ أَنْ نَفْسَ الْجُزْءِ مَقْسُومٌ موزع على الباب، و هذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقة دون الباب بمعنى المدخل و أما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر.

و على هذا فكون جهنم لها سبعة أبواب هو كون العذاب المعدّ فيها متنوعا الى سبعة أنواع ثم انقسام كل نوع أقساما حسب انقسام الجزء الداخلى الماكث فيه، و ذلك يستدعى انقسام المعاصى الموجهه للدخول فيها سبعة أقسام، و كذا انقسام الطرق المؤديه و الأسباب الداعيه الى تلك المعاصى ذاك الانقسام، و بذلك يتأيد ما ورد من الروايات فى هذه المعانى كما سيوافيك إن شاء الله.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ، اُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ أى إنهم مستقرون فى جنّات و عيون يقال لهم: ادخلوها بسلام لا يوصف و لا يكتنه نعتة فى حال كونكم آمنين من كل شرّ و ضرر.

لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن أتبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به فى حق المتقين من الجنة، و قد ورد تفسير التقوى فى كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم بالورع عن محارم الله، و قد تكرر فى كلامه

تعالى بشراهم بالجنة فيكون المتقون أعم من المخلصين.

فالحق أن الآيه إنما تشمل الذين استقرت فيهم ملكة التقوى و هو الورع عن محارم الله فاولئك هم المقضى عليهم بالسعاده و الجنة قضاء لازما، نعم المستفاد من الكتاب و السنه أن أهل التوحيد و هم من حضر الموقف بشهاده أن لا إله إلا الله لا يخلدون في النار و يدخلون الجنة لا محاله، و هذا غير دلالة آيه المتقين على ذلك.

قوله تعالى: **وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** الى آخر الآيتين. الغل الحقد، و قيل هو ما في الصدر من حقد و حسد مما يبعث الإنسان الى إضرار الغير، و السرر جمع سرير و النصب هو التعب و العى الوارد من خارج.

يصف تعالى في الآيتين حال المتقين في سعادتهم بدخول الجنة، اختص بالذكر هذه الامور من بين نعم الجنة على كثرتها فإن العناية باقتضاء من المقام متعلقه ببيان أنهم في سلام و أمن مما ابتلى به الغاوون من بطلان السعاده و ذهاب السياده و الكرامه فذكر أنهم في أمن من قبل أنفسهم لأن الله نزع ما في صدورهم من غل فلا يهيم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان على سرر متقابلين و لتقابلهم معنى سيأتى في البحث الروائى إن شاء الله تعالى، و أنهم في أمن من ناحيه الأسباب و العوامل الخارجيه فلا يمسههم نصب أصلا، و أنهم في أمن و سلام من ناحيه ربهم فما هم من الجنة بمخرجين أبدا فلهم السعاده و الكرامه من كل جهه، و لا- يغشاهم و لا- يمسههم شقاء و وهن من جهه أصلا لا من ناحيه أنفسهم و لا من ناحيه سائر ما خلق الله و لا من ناحيه ربهم (1)(2).

ص: ٥٠٩

- 
- ١- ١). الحجر ٢٦-٤٨: كلام في الاقضية التى صدرت عن مصدر العزه فى بدء خلق الانسان.  
٢- ٢). الحجر ٢٦-٤٨: بحث روائى فى: الروح التى نفخ الله فى آدم؛ لم اضاف الله الروح الى نفسه؟؛ زمان موت ابليس؛ ابواب جهنم.

نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَ تَبَتُّهُمُ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا  
 سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا- تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي  
 (٥٤) قَالُوا بِشَرِّ نَارِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا- الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَلَمَّا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا  
 الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ  
 (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ  
 وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ  
 ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصَدِّحِينَ (٦٦) وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ ضَافِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَ  
 اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا- تُخْزَوْنَ (٦٩) قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي  
 سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَآخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَ آمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَ إِنَّهُمْ لَبَسِيْلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لَمَآيَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨)  
 فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لِيَأْمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَ أَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَ  
 كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَآخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَلَمَّا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)



قوله تعالى: تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ المراد بقوله: «عِبَادِي» على ما يفيدته سياق الآيات مطلق العباد ولا يعبأ بما ذكره بعضهم: أن المراد بهم المتقون السابق ذكرهم أو المخلصون.

و تأكيد الجملتين بالاسميه و إن و ضمير الفصل و اللام في الخبر يدل على أن الصفات المذكوره فيها أعنى المغفره و الرحمه و ألم العذاب بالغه في معناها النهايه بحيث لا تقدر بقدر و لا يقاس بها غيرها،فما من مغفره أو رحمه إلا و يمكن أن يفرض لها مانع يمنع من إرسالها أو مقدر يقدرها و يحدّها،لكنه سبحانه يحكم لا معقب لحكمه و لا مانع يقاومه فلا يمنع عن إنجاز مغفرته و رحمته شيء و لا- يحدّهما أمر إلا- أن يشاء ذلك هو جلّ و عزّ،فليس لأحد ان يئأس من مغفرته أو يقنط من روحه و رحمته استنادا الى مانع يمنع أو رادع يردع إلا ان يخافه تعالى نفسه كما قال:

لَا تَقْنُطُوا مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أُنْيَبُوا إِلَى رَبِّكُمْ (الزمر ٥٤).

و ليس لأحد أن يحقر عذابه أو يؤمل عجزه أو يأمن مكره و الله غالب على أمره و لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قوله تعالى: وَ تَبَيَّنَ عَنْ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الضيف معروف و يطلق على المفرد و الجمع و ربما يجمع على أضياف و ضيوف و ضيفان لكن الأفصح- كما قيل- أن لا يثنى و لا يجمع لكونه مصدرا في الأصل.

و المراد بالضيف الملائكه المكرمون الذين أرسلوا لبشاره إبراهيم بالولد و لهلاك قوم لوط سمّاهم ضيفا لأنهم دخلوا عليه في صورته الضيف.

قوله تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، قَالُوا لَا



تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۚ ضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي «دَخَلُوا وَقَالُوا» فِي الْمَوْضِعِينَ لِلْمَلَائِكَةِ فَقَوْلُهُمْ: «سَلَامًا» تَحِيَّةٌ وَتَقْدِيرُهُ نَسَلِمُ عَلَيْكَ سَلَامًا وَقَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» أَي خَائِفُونَ وَالْوَجَلُ: الْخَوْفُ.

وإنما قال لهم إبراهيم ذلك بعد ما استقر بهم المجلس و قدّم اليهم عجلا حينذا فلم يأكلوا منه فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم و أوجس منهم خيفة كما في سورة هود فالقصه المذكوره على نحو التلخيص.

و قولهم: لَا تَوَجَّلْ تَسْكِينٌ لَوْجَلِهِ وَ تَأْمِينٌ لَهُ وَ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُمْ رَسَلُ رَبِّهِ وَ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ لِيُبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ أَي بَوْلَدٍ يَكُونُ غُلَامًا وَ عَلِيمًا، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ كَوْنَهُ عَلِيمًا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ وَ وَحْيِهِ فَيَقْرَبُ مِنْ قَوْلِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا (الصافات ١١٢).

قوله تعالى: قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشَّرُونَ تلقى إبراهيم عليه السلام البشرى و هو شيخ كبير هرم لا عقب له من زوجه و قد أياسته العاده الجارية عن الولد و ابن كان يجلّ أن يقنط من رحمه الله و نفوذ قدرته، و لذا تعجب من قولهم و استفهمهم كيف يبشرونه بالولد و حاله هذه الحال؟ و زوجه عجوز عقيم كما وقع في موضع آخر من كلامه تعالى.

فقوله: قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْخُوخَةِ وَ مَسَّهُ هُوَ نِيلُهُ مِنْهُ مَا نَالَ بِإِفْنَاءِ شِبَابِهِ وَ إِذْهَابِ قَوَاهِ، وَ الْمَعْنَى إِنِّي لِأَتَعْجَبُ مِنْ بَشَارَتِكُمْ إِيَّايَ وَ الْحَالُ أَنِّي شَيْخٌ هَرَمَ فَنِي شِبَابِي وَ فَقَدْتُ قُوَى بَدْنِي، وَ الْعَادَةُ تَسْتَدْعِي أَنْ لَا يَوْلِدَ لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَ لَد.

و قوله: فِيمَ تَبَشَّرُونَ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ: «مَسَّنِيَ الْكِبَرُ» وَ هُوَ اسْتِفْهَامٌ عَمَّا بَشَّرُوهُ بِهِ كَأَنَّهُ يَشْكُ فِي كَوْنِ بَشَارَتِهِمْ بِشَرِيٍّ بِالْوَلَدِ مَعَ تَصْرِيحِهِمْ بِذَلِكَ لَا اسْتِبْعَادَ ذَلِكَ فَيَسْأَلُ مَا هُوَ الَّذِي تَبَشَّرُونَ بِهِ؟ فَإِنَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ كَلَامِكُمْ أَمْرٌ عَجِيبٌ، وَ هَذَا شَائِعٌ فِي الْكَلَامِ يَقُولُ

الرجل إذا أخير بما يستعبده أو لا يصدق: ما تقول؟ وما تريد؟ وما ذا تصنع؟.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا كَمَا بِالْحَقِّ﴾ -الى قوله- ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الباء فى «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أى إن بشارتنا ملازمه للحق غير منفكه منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمه الله، وهذا جواب للملائكه و قد قابلهم إبراهيم عليه السلام على نحو التكنيه فقال:

﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ والاستفهام إنكارى أى إن القنوط من رحمه الله مما يختص بالضالين و لست أنا بضال فليس سؤالى سؤال قانط مستبعد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الخطب الأمر الجليل الشأن العظيم، و فى خطابهم بالمرسلين دلالة على أنهم ذكروا له ذلك قبلا، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ -الى قوله- ﴿لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قال فى المفردات: الغابر الماكت بعد مضى من هو معه قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعنى فىمن طال أعمارهم، و قيل: فىمن بقى و لم يسر مع لوط، و قيل: فىمن بقى بعد فى العذاب، و فى آخر «إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» و فى آخر «قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ» -الى أن قال- و الغبار ما يبقى من التراب المثار و جعل على بناء الدخان و العثار و نحوهما من البقايا. انتهى و لعله من هنا ما ربما يسمى الماضى و المستقبل معا غابرا أما الماضى فبعنايه أنه بقى فيما مضى و لم يتعد الى الزمان الحاضر و أما المستقبل فبعنايه أنه باق لم يفن بعد كالماضى.

و الآيات جواب الملائكه لسؤال إبراهيم ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ من عند الله سبحانه ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ نكروهم و لم يسموهم صونا للسان عن التصريح باسمهم تنفرا منه و مستقبل الكلام يعينهم ثم استثنوا و قالوا: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ و هم لوط و خاصته و ظهر به أن القوم قومه ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أى مخلصوهم من العذاب «أَجْمَعِينَ» و ظاهر السياق كون الاستثناء منقطعا.

ثم استثنوا امرأه لوط من آله للدلالة على أن النجاه لا تشملها و أن العذاب سيأخذها و يهلكها فقالوا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى الباقيين من القوم بعد خروج آل لوط

و قد تقدم تفصيل القول في ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب و عقدنا هناك بحثا مستقلا فيه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ إنما قال لهم لوط عليه السلام ذلك لكونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان و كان يشقه ما يراه منهم و شأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم في سورة هود، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكِ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ، وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ الامتراء من المريبه و هو الشك، و المراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذى كان ينذرهم به لوط و هم يشكون فيه، و المراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق فى أمر القوم لا معدل عنه كما وقع فى موضع آخر من قولهم: وَ إِنَّهُمْ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود/ ٧٦)، و قيل: المراد «و أتيناك بالعذاب الذى لا شك فيه» و ما ذكرناه هو الوجه.

و فى آيات القصة تقديم و تأخير لا- بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر فى موضع المقدم و بالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصة فى غير محله الذى يقتضيه الترتيب الطبعى و تعينه له سنه الاقتصاص لنكته توجب ذلك.

و ترتيب القصة بحسب أجزاءها على ما ذكرها الله سبحانه فى سورة هود و غيرها و الاعتبار يساعد ذلك مقتضاه أن يكون قوله: «فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ» الى تمام آيتين قبل سائر الآيات. ثم قوله: «وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ» الى تمام ست آيات. ثم قوله: «قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكِ» الى تمام أربع آيات. ثم قوله: «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ» الى آخر الآيات.

و حقيقه هذا التقديم و التأخير أن للقصة فصولا أربعة و قد أخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول و الثانى أعنى أن قوله: «وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ» الى آخره أخر فى الذكر ليتصل آخره و هو قوله: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» بأول الفصل الأخير «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ»

مُشْرِقِينَ» و ذلك ليمثل به الغرض في الاستشهاد بالقصه و ينجلي أوضح الانجلاء و هو نزول عذاب هائل كعذابهم في حال سكره منهم و أمن منه لا يخطر ببالهم شيء من ذلك و ذلك أبلغ في الدهشه و أوقع في الحسره يزيد في العذاب ألما على ألم.

و نظير هذا في التلويح بهذه النكته ما في آخر قصه أصحاب الحجر الآتيه من اتصال قوله:

«وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضِيَّيْنَ» كل ذلك ليجلّى معنى قوله تعالى في صدر المقال: «وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» فافهم ذلك.

قوله تعالى: فَاسِيرٌ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإسراء هو السير بالليل، فقوله: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» يؤكد و قطع الليل شطرا مقطوع منه، و المراد باتباعه أدبارهم هو أن يسير وراءهم فلا يترك أحدا يتخلف عن السير و يحملهم على السير الحثيث كما يشعر به قوله: «وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» .

و المعنى: و إذ جئناك بعذاب غير مردود و أمر من الله ماض يجب عليك أن تستر بأهلك ليلا و تأخذ أنت وراءهم لئلا يتخلفوا عن السير و لا يساهلوا فيه و لا يلتفت أحد منكم الى ورائه و امضوا حيث تؤمرون، و فيه دلالة على أنه كانت أمامهم هدايه إلهيه تهديهم و قائد يقودهم.

قوله تعالى: وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضِيَّيْنَ الْقَضَاءِ مَضْمَنٌ مَعْنَى الْوَحْيِ وَ لَذَا عَدَى بَالِي - كما قيل - و المراد بالأمر أمر العذاب كما يفسره قوله: «أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضِيَّيْنَ» و الإشارة اليه بلفظه «ذَلِكَ» للدلالة على عظم خطره و هول أمره.

و المعنى: و قضينا أمرنا العظيم في عذابهم موحيا ذلك الى لوط و هو أن دابر هؤلاء و أثرهم الذي من شأنه أن يبقى بعدهم من نسل و بناء و عمل مقطوع حال كونهم مصبحين أو التقدير أوحينا اليه قاضيا، الخ.

قوله تعالى: «وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ» -الى قوله- «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ يَدُلُّ نَسْبَهُ الْمَجِيءِ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ جَمَاعَةً عَظِيمَةً يَصْحَحُ عَدَّهُمْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لكَثْرَتِهِمْ.

فالمعنى «وَجَاءَ» إلى لوط «أَهْلُ الْمَدِينَةِ» جمع كثير منهم يريدون أضيافه وهم «يَسْتَبْشِرُونَ» لولعهم بالفحشاء و خاصة بالداخلين في بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعا عن أضيافه «قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ» بالعمل الشنيع بهم «وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا» المهاجمون من أهل المدينة: أ لم نقطع عذرَكَ في إيوائهم «أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ» أن تؤويهم و تشفع فيهم و تدافع عنهم فلما يئس لوط عليه السَّلام منهم عرض عليهم بناته أن ينصرفوا عن أضيافه بنكاحهن -كما تقدم بيانه في سورة هود- «قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» .

قوله تعالى: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» -الى قوله- «مَنْ سَجَّيْلٍ قَالِ فِي الْمَفْرَدَاتِ: العماره ضد الخراب. قال: و العمر اسم لمدته عماره البدن بالحياه فهو دون البقاء فإذا قيل: طال عمره فمعناه عماره بدنه بروحه، و إذا قيل: بقاؤه فليس يقتضى ذلك فإن البقاء ضد الفناء، و لفضل البقاء على العمر وصف الله به و قلما وصف بالعمر قال: و العمر -بالضم- و العمر -بالفتح- و واحد لكن خصَّ القسم بالعمر -بالفتح- دون العمر -بالضم- نحو «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ» ، انتهى.

و الخطاب في لَعَمْرُكَ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فهو قسم ببقائه و قول بعضهم: إنه خطاب من الملائكة للوط عليه السَّلام و قسم بعمره لا دليل عليه من سياق الآيات.

و العمه هو التردد على حيره و السجَّيل حجاره العذاب و قد تقدم تفصيل القول في معناه في تفسير سورة هود.

و المعنى أقسم بحياتك و بقائك يا محمد إنهم لفي سكرتهم و هي غفلتهم بانغمارهم في

الفحشاء و المنكر يترددون متحيرين «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» و هى الصوت الهائل «مُشْرِقِينَ» أى حال كونهم داخلين فى إشراق الصبح فجعلنا على بلادهم سافلها و فوقها تحتها و أمطرنا و أنزلنا من السماء عليهم حجاره من سجّيل.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ -الى قوله- لِّلْمُؤْمِنِينَ الآيه العلامه و المراد بالآيات أولا العلامات الداله على وقوع الحادثه من بقايا الآثار و بالآيه ثانيا العلامه الداله للمؤمنين على حقيّه الإنذار و الدعوه الإلهيه، و التوسّم التفرّس و الانتقال من سيماء الأشياء على حقيقه حالها.

و المعنى: أن فى ذلك أى فيما جرى من الأمر على قوم لوط و فى بلادهم لعلامات من بقايا الآثار للمتفرّسين و إن تلك العلامات لسبيل للعابرين مقيم لم تعف و لم تمنح بالكلية بعد، إن فى ذلك لآيه للمؤمنين تدلّ على حقيّه الإنذار و الدعوه و قد تبين بذلك وجه إيراد الآيات جمعا و مفردا فى الموضوعين.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ -الى- فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّنَ الْأَيْكَةِ وَاحِدٍ أَيْكَ وَهُوَ الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ بَعْضُهُ بَعْضٍ فَقَدْ كَانُوا- كما قيل فى غيظه أى بقعه كثيفه الأشجار.

و هؤلاء- كما ذكروا- هم قوم شعيب عليه السّلام أو طائفه من قومه كانوا يسكنون الغيظه، و يؤيده قوله تعالى ذيلًا: «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّنَ الْأَيْكَةِ» أى مكانا قوم لوط و أصحاب الأيكة لفى طريق واضح فإن الذى على طريق المدينة الى الشام هى بلاد قوم لوط و قوم شعيب الخربه أهلكهم الله بكفرهم و تكذيبهم لدعوه شعيب عليه السّلام و قد تقدمت قصتهم فى سوره هود. و قوله:

«فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» الضمير لأصحاب الأيكة و قيل: لهم و لقوم لوط. و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُؤْمِنِينَ -الى قوله- مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح، و الحجر اسم بلده كانوا يسكنونها و عدّهم

مكذبين لجميع المرسلين و هم إنما كذبوا صالحا المرسل اليهم إنما هو لكون دعوه الرسل دعوه واحده،و المكذب لواحد منهم مكذب للجميع.

وقوله: وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ إن كان المراد بالآيات المعجزات و الخوارق- كما هو الظاهر- فالمراد بها الناقه و شربها و ما ظهر لهم بعد عقرها الى أن أهلكوا،و قد تقدمت القصة فى سورة هود،و إن كان المراد بها المعارف الإلهيه التى بلغها صالح عليه السلام و نشرها فيهم أو المجموع من المعارف الحقه و الآيه المعجزه فالأمر واضح.

وقوله: وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ أى كانوا يسكنون الغيران و الكهوف المنحوته من الحجاره آمنين من الحوادث الأرضيه و السماويه بزعمهم.

وقوله: فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَهُ مُصِيبَةً أى صيحه العذاب التى كان فيها هلاكهم، و قد تقدمت الإشارة الى مناسبه اجتماع الأمن مع الصيحه فى الآيتين لقوله فى صدر الآيات:

«وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» .

وقوله: فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أى من الأعمال لتأمين سعادتهم فى الحياه.

## [سوره الحجر (١٥): الآيات ٨٥ الى ٩٩]

### اشاره

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَهُ فَاصِحَ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَيْكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضًا مِنْ (٩١) فَو رَبِّكَ لَنَسِفَنَّ لَهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِذَا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِزِّينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِذْ يَأْتِيكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أى إن خلقها جميعا لا ينفك عن الحق و يلازمه فللخلق غايه سيرجع إليها قال تعالى: إِنَّ إِلَهِي رَبُّكَ الرَّجْعِي (العلق ٨)، و لو لا ذلك لكان لعبا باطلا قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان ٣٩)، و قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (ص ٢٧)، و من الدليل على كون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الكلام بقوله: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ» و هو ظاهر.



قوله تعالى: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ قال في المفردات: صفح الشيء عرضه و جانبه كصفحه الوجه و صفحه السيف و صفحه الحجر و الصفح ترك التثريب و هو أبلغ من العفو و لذلك قال: «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» و قد يعفو الإنسان و لا يصفح قال تعالى: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أَمْضَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا .

و صفحت عنه أوليته صفحه جميله معرضا عن ذنبه، أو لقيت صفحته متجافيا عنه أو تجاوزت الصفحه التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب الى غيرها من قولك تصفحت الكتاب، و قوله: «إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» فأمر له عليه السلام أن يخفف كفر من كفر كما قال:

«وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ» و المصافحه الإفضاء بصفحه اليد. انتهى.

و سيأتي ما فى الروايه من تفسير على عليه السلام الصفح بالعفو من غير عتاب.

و قوله: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ تفريع على سابقه أى إذا كانت الخلقه بالحق و هناك يوم فيه يحاسبون و يجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من التكذيب و الاستهزاء و اعف عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشه و جدال فإن ربك الذى خلقك و خلقهم هو عليم بحالك و حالهم و وراءهم يوم لا يفوتونه.

و من هنا يظهر أن قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ تعليل لقوله: «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» .

و هذه الآيات الحافه لقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تطيب ل نفسه ليأخذ قوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» موقعه فقد عرفت فى أول السوره أن الغرض الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوه و عرفت أيضا بالتدبر فى الآيات السابقه أنها مسروده ليتخلص بها الى تسليته صلى الله عليه و آله و سلم عما لقي من قومه من الإيذاء و الإهانه و الاستهزاء و يتخلص من ذلك الى الأمر المطلوب.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ السبع المثاني هي سورة الحمد على ما فسّر في عدّه من الروايات المأثوره عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم وَ أئمه أهل البيت عليهم السّلام فلا يصغى الى ما ذكره بعضهم: أنها السبع الطوال، و ما ذكره بعض آخر أنها الحواميم السبع، و ما قيل: إنها سبع صحف من الصحف النازله على الأنبياء، فلا دليل على شيء منها من لفظ الكتاب و لا من جهه السنّه.

و قد كثر اختلافهم في قوله: مِنَ الْمَثَانِي من جهه كون من للتبعيض او للتبيين و في كيفية اشتقاق لفظه المثاني و وجه تسميتها بالمثاني.

و الذي ينبغي أن يقال- و الله أعلم- إن «مِنَ» للتبعيض فإنه سبحانه سمى جميع آيات كتابه مثاني إذ قال: كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ (الزمر/ ٢٣) و آيات سورة الحمد من جملتها فهي بعض المثاني لا كلها.

و الظاهر أن المثاني جمع مثنيه اسم مفعول من الثني بمعنى اللوى و العطف و الإيعاده قال تعالى: يَتُوبُونَ صِدْقًا وَرَهُمْ (هود/٥)، و سميت الآيات القرآنيه مثاني لأن بعضها يوضح حال البعض و يلوى و يعطف عليه كما يشعر به قوله: «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي» حيث جمع بين كون الكتاب متشابها يشبه بعض آياته بعضا و بين كون آياته مثاني، و في كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم في صفه القرآن «يصدق بعضه بعضا» و عن علي عليه السّلام فيه «ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض» او هي جمع مثني بمعنى التكرير و الإيعاده كناية عن بيان بعض الآيات ببعض.

و في قوله: سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ من تعظيم أمر الفاتحه و القرآن ما لا يخفى أما القرآن فلتوصيفه من ساحه العظمه و الكبرياء بالعظيم، و أما الفاتحه فلمكان التعبير عنه بالنكره غير الموصوفه «سَبْعًا» و فيه من الدلاله على عظمه قدرها و جلاله شأنها ما لا يخفى و قد قوبل بها القرآن العظيم و هي بعضه.

و الآيه- كما تبين في مقام الامتان و هي مع ذلك لوقوعها في سياق الدعوه الى الصفح

و الإعراض تفيد أن في هذه الموهبه العظمى المتضمنه لحقائق المعارف الإلهيه الهاديه الى كل كمال و سعادته بإذن الله عدّه أن تحملك على الصفح الجميل و الاشتغال بربك و التوغل في طاعته.

قوله تعالى: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ - الى قوله- الْمُبِينُ الْآيَاتِ؛ في مقام بيان الصفح الجميل الذي تقدم الأمر به، و لذلك جىء بالكلام في صورته الاستئناف.

و المذكور فيهما أربعة دساتير: منفيان و مثبتان فقوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ مدّ العينين الى ما متّعوا به من زهره الحياه الدنيا كناية عن التعدى عن قصر النظر على ما آتاه الله من نعمه، و المراد بالأزواج الأزواج من الرجال و النساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين و اليهود و النصرارى و المجوس، و المعنى لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناك به من النعم الظاهره و الباطنه الى ما متّعنا به أزواجاً قليله أو أصنافاً من الكفار.

و ربما أخذ بعضهم قوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ كناية عن إطاله النظر و إدامته، و أنت تعلم أن الغرض على أى حال النهى عن الرغبه و الميل و التعلق القلبي بما فى أيديهم من أمتعته الحياه كالمال و الشوكه و الصيت و الذى يكئى به عن ذلك هو النهى عن أصل النظر اليه لا عن إطالته و إدامته، و يشهد به ما سننقله من آيه الكهف.

و قوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أَي من جهه تماديهم فى التكذيب و الاستهزاء و إصرارهم على أن لا يؤمنوا بك.

و قوله: وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: هو كناية عن التواضع و لين الجانب، و الأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم اليه أفراده بسط جناحه عليها ثم خفضه لها، هذا.

و قوله: وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أَي لا دعوى لى إلا أنى نذير أنذركم بعذاب

اللّٰه سبحانه مبين آيين لكم ما تحتاجونه الى بيانه، وليس لى وراء ذلك من الأمر شىء.

فهذه الامور الأربعة أعنى ترك الرغبه بما فى أيديهم من متاع الحياه الدنيا و ترك الحزن عليهم إذا كفروا و استهزءوا، و خفض الجناح للمؤمنين و إظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذى يليق بالنبي صلّى الله عليه و آله و سلم، و لو أسقط منها واحد لاختل الأمر.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال فى المجمع: عضين جمع عضه و أصله عضوه فنقصت الواو و لذلك جمعت عضين بالنون كما قيل: عزوه و عزون و الأصل عزوه، و التعضيه: التفريق مأخوذ من الأعضاء يقال: عضّيت الشىء أى فرقته و بعضه قال رؤبه: و ليس دين الله بالمعضّى، انتهى موضع الحاجه.

و قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ لا يخلو السياق من دلالة على أنه متعلق بمقدّر يلوح اليه قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أى بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين، و المراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ و هم على ما وردت به الروايه قوم من كفار قريش جزءوا القرآن أجزاء فقالوا: سحر، و قالوا:

أساطير الأولين، و قالوا: مفترى، و تفرقوا فى مداخل طرق مكه أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم كما سيأتى فى البحث الروائى إن شاء الله.

فالظاهر أن الآيتين تذكران قوما نهضوا فى أوائل البعثه على إطفاء نور القرآن و بعضوه أبعاضا ليصدوا عن سبيل الله فأنزل الله عليهم العذاب و أهلكتهم، و هم الذين ذكروا فى الآيتين

ثم يذكر الله مآل أمرهم بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال فى المجمع:

الصدع و الفرق و الفصل نظائر، و صدع بالحق إذا تكلم به جهارا، انتهى.

و الآيه تفرّيع على ما تقدم، و من حقها أن تتفرع لأنها الغرض فى الحقيقه من السوره أى إذا كان الأمر على ما ذكر و أمرت بالصفح الجميل و كنت نذيرا بعذابنا كما أنزلنا على المقتسمين

فأظهر كلمه الحق و أعلن الدعوه.

و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» في مقام التعليل لقوله: «فَاصْدَعْ» الخ؛ كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزئين هم المقتسمون المذكورون قبل، و معنى الآية إذا كان الأمر كما ذكرناه و كنت نذيرا بعدابنا كما أنزلناه على المقتسمين «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» و أعلن الدعوه و أظهر الحق «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا» أى لأننا «كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» بإنزال العذاب عليهم و هم «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْتَ يَضِيْقُ صِدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ رَجِعْ ثَانِيَا إِلَى حَزْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ وَ ضَيْقُ صَدْرِهِ مِنْ اسْتَهْزَائِهِمْ لِمَزِيدِ الْعِنَايَةِ بِتَسْلِيَتِهِ وَ تَطْيِيبِ نَفْسِهِ وَ تَقْوِيَةِ رُوحِهِ، وَ قَدْ أَكْثَرَ سُبْحَانَهُ فِي كَلَامِهِ وَ خَاصَّهُ فِي السُّورِ الْمَكِّيَةِ مِنْ ذَلِكَ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ.

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ وَ صَاهُ سُبْحَانَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَ التَّحْمِيدِ وَ السُّجُودِ وَ الْعِبَادَةِ أَوْ إِدَامَةِ الْعِبُودِيَةِ مَفْرَعًا ذَلِكَ عَلَى ضَيْقِ صَدْرِهِ بِمَا يَقُولُونَ فَفِي ذَلِكَ اسْتِعَانَهُ عَلَى الْغَمِّ وَ الْمَصِيبِ، وَ قَدْ أَمَرَهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِالصَّفْحِ وَ الصَّبْرِ، وَ يَسْتَفَادُ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ أَيْضًا مِنْ قَوْلِهِ: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» فَإِنْ ظَاهَرَهُ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْعِبُودِيَةِ حَتَّى حِينَ، وَ بِذَلِكَ يَصِيرُ الْكَلَامُ قَرِيبَ الْمَضْمُونِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى لِدَفْعِ الشَّدَائِدِ وَ الْمَقَاوِمِ عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ: إِشْرَافًا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ (البقرة ١٥٣).

و بذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون و أنه أمر بالصلاه و قد سميت سجودا تسميه لها باسم أفضل أجزائها و يكون المراد بالتسبيح و التحميد اللفظي منهما كقول سبحان الله و الحمد لله أو ما فى معناهما نعم لو كان المراد بالصلاه فى آيه البقره التوجه الى الله سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح و التحميد- أو بهما و بالسجود- المعنى اللغوى و هو تنزيه تعالى عما يقولون و الثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم و التذلل له تذلل العبوديه.

ص: ٥٢٥

و أما قوله: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ فَإِن كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ كَانَ كَالْمُفَسِّرِ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ وَ إِن كَانَ الْمُرَادُ الْأَخْذَ بِالْعِبُودِيَّةِ - كَمَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ، وَ خَاصَّهُ سِيَاقُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الْأَمْرُ بِالصَّفْحِ وَ الْإِعْرَاضِ وَ لِأَزْمَهُمَا الصَّبْرُ كَانَ بَقْرِينَهُ تَقْيِيدَهُ بِقَوْلِهِ:

«حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» أَمْرًا بِانْتِهَاجِ مَنْهَجِ التَّسْلِيمِ وَ الطَّاعَةِ وَ الْقِيَامِ بِلِوَاظِمِ الْعِبُودِيَّةِ.

وَ عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِإِتْيَانِ الْيَقِينِ حُلُولُ الْأَجْلِ وَ نَزُولُ الْمَوْتِ الَّذِي يَتَبَدَّلُ بِهِ الْغَيْبُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَ يَعُودُ بِهِ الْخَيْرُ عِيَانًا، وَ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ تَفْرِيعُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: «فَاضْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» عَلَى قَوْلِهِ: «وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَمَأْتِيَةٌ» فَإِنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ أَمْرٌ بِالْعَفْوِ وَ الصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ لِأَنَّ لَهُمْ يَوْمًا يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ يَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ دَمًا عَلَى الْعِبُودِيَّةِ وَ اصْبِرْ عَلَى الطَّاعَةِ وَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَ عَلَى مَرِّ مَا يَقُولُونَ حَتَّى يَدْرُكَكَ الْمَوْتُ وَ يَنْزِلَ عَلَيْكَ عَالَمُ الْيَقِينِ فَتَشَاهِدْ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ رَبِّكَ.

وَ فِي التَّعْبِيرِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ إِشْعَارٌ أَيْضًا بِذَلِكَ فَإِنَّ الْعِنَايَةَ فِيهِ بِأَنَّ الْيَقِينَ طَالِبٌ لَهُ وَ سَيَدْرُكُهُ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ حَتَّى يَدْرُكَهُ وَ يَصِلَ إِلَيْهِ، وَ هَذَا هُوَ عَالَمُ الْآخِرَةِ الَّذِي هُوَ عَالَمُ الْيَقِينِ الْعَامِّ بِمَا وَرَاءَ الْحِجَابِ دُونَ الْإِعْتِقَادِ الْيَقِينِيِّ الَّذِي رُبَّمَا يَحْصُلُ بِالنَّظَرِ أَوْ بِالْعِبَادَةِ (١).

ص: ٥٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ  
 عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ  
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ  
 تُرْيَحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا نَسِيتُ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَ الْخَيْلَ وَ  
 الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ  
 الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ  
 كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَ سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي  
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَ مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ  
 الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَ  
 أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَارًا وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَمْ مَنْ يَخْلُقُ  
 كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَ إِنْ تَعِدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ  
 (١٩) وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)





الغالب على الظنّ - إذا تدبرنا السوره - أن صدر السوره مما نزلت في أواخر عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكة قبيل الهجرة، وهي أربعون آية يذكر الله سبحانه في شطر منهما أنواع نعمه السماويه والأرضيه مما تقوم به حياه الإنسان و ينتفع به في معاشه نظاما متقنا و تدبيرا متصلا يدلّ على وحدانيته تعالى في ربوبيته.

و يحتجّ في شطر آخر على بطلان مزاعم المشركين و خيبه مساعيهم و أنه سيجازيهم كما جازى أمثالهم من الامم الماضيه و سيفصل القضاء بينهم يوم القيامه.

و

قد افتح سبحانه هذه الآيات بقوله: «أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» مفرّعا آيات الاحتجاج على ما فيه من التنزيه و التسييح و من ذلك يعلم أن عمده الغرض في صدر السوره الإنباء بإشراف الأمر الإلهي و دنوّه منهم و قرب نزوله عليهم، و فيه إبعاد للمشركين فقد كانوا يستعجلون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -استهزاء به- لما كانوا يسمعون كلام الله سبحانه يذكر كثيرا نزول أمره تعالى و ينذرهم به و فيه مثل قوله للمؤمنين: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ و ليس إلا أمره تعالى بظهور الحق على الباطل و التوحيد على الشرك و الإيمان على الكفر، هذا ما يعطيه التدبر في صدر السوره.

و أما ذيلها و هي ثمان و ثمانون آية من قوله: وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ عَلَىٰ مَا بَيْنَهَا مِنَ الْإِتِّصَالِ و الارتباط فسياق الآيات فيه يشبه أن تكون مما نزلت في أوائل عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالمدينه بعيد الهجرة - فصدر السوره و ذيلها متقاربا

النزول و ذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلا على بعض الحوادث الواقعة بعيد الهجرة كقوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ الْآيَةَ؛ وقوله: وَ لَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ الْآيَةَ النازلة على قول في سلمان الفارسي و قد آمن بالمدينة، وقوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ الْآيَةَ النازلة في عمار- كما سيأتي- و كذا الآيات النازلة في اليهود و الآيات النازلة في الأحكام كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنيه.

و مع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا الخ (الآية ٤١)، و قوله: وَإِذَا يَدُّنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (الآية ١٠١) الى تمام آيتين أو خمس آيات، و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ (الآية ١٠٦) و عده آيات تلوها.

و الإنصاف- بعد ذلك كله- أن قوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا (الآية ٤١) الى تمام آيتين؛ و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ (الآية ١٠٦) و بضع آيات بعدها، و قوله:

وَإِنْ عَمَّ أَقْبَتُمْ فَأَقْبُوا (الآية ١٢٦) و آيتان بعدها مدنيه لشهاده سياقها بذلك، و الباقي أشبه بالمكيه منها بالمدينه. و هذا و إن لم يوافق شيئا من المأثور لكن السياق يشهد به و هو أولى بالتباع. و قد مرّ في تفسير آيه ١١٨ من سورة الأنعام احتمال أن تكون نازله بعد سورة النحل و هي مكيه. و الغرض الذي هو كالجامع لآيات ذيل السوره أن فيها أمرا بالصبر و وعدا حسنا على الصبر في ذات الله.

و غرض السوره الإخبار بإشراف أمر الله و هو ظهور الدين الحق عليهم، و يوضح تعالى ذلك بيان أن الله هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به، كما أن الخلقه قائمه به و لانتهاه جميع النعم اليه، و انتفاء ذلك عن غيره، فالواجب أن يعبد الله و لا يعبد غيره، و بيان أن الدين الحق لله فيجب أن يؤخذ به و لا يشرع دونه دين و رد ما أبداه المشركون من الشبهه على النبوه و التشريع و بيان أمور من الدين الإلهي.

هذا هو الذي يرومه معظم آيات السوره و تنعطف الى بيانه مره بعد مره و في ضمنها آيات

تعرض لأمر الهجره و ما يناسب ذلك مما يحوم حولها.

قوله تعالى: **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التاليه مسوقه احتجاجا عليهم، الى قوله في الآيه الثانيه و العشرين: **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** و وجه الكلام فيها الى المشركين، و هى جميعا كالمتفرعه على قوله فى ذيل هذه الآيه: **«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ»** و مقتضاه أن يكون الأمر الذى أخبر بإتيانه أمرا يطهر ساحه الربوبيه من شركهم بحسم مادته، و لم تقع فى كلامه حكايه استعجال من المؤمنين فى أمر، بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر فى كلامه تعالى من أمر الساعه و أمر الفتح و أمر نزول العذاب، كما يشير اليه قوله: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** -الى قوله- **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** (يونس ٥٣)/الى غير ذلك من الآيات.

و على هذا فالمراد بالأمر ما وعد الله النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الذين آمنوا و أوعد المشركين مره بعد مره فى كلامه أنه سينصر المؤمنين و يخزى الكافرين و يعذبهم و يظهر دينه بأمر من عنده كما قال: **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** (البقره ١٠٩). و اليه يعود أيضا ضمير **«فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ»** على ما يفيدته السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق و قربه من الظهور، و هذا شائع فى الكلام قال لمن ينتظر ورود الأمير: هذا الأمير جاء و قد دنا مجيئه و لم يجىء بعد.

و على هذا أيضا يكون قوله: **«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ»** من قبيل الالتفات من الخطاب الى الغيبه إشاره الى أنهم ينبغي أن يعرض عن مخاطبتهم و مشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم و لم يستعجلوا نزول الأمر إلا لشركهم استهزاء و سخرية.

قوله تعالى: **يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** الى آخر الآيه؛ الناس على اختلافهم الشديد قديما و حديثا فى حقيقه الروح لا يختلفون فى

أنهم يفهمون منه معنى واحداً وهو ما به الحياه التي هي ملاك الشعور و الاراده فهذا المعنى هو المراد فى الآيه الكريمه.

و أما حقيقته إجمالاً فالذى يفيدته مثل قوله تعالى: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا (النبا ٣٨)، وقوله: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ (المعارج ٤) وغيرهما أنه موجود مستقل ذو حياه و علم و قدره و ليس من قبيل الصفات و الأحوال القائمه بالأشياء كما ربما يتوهم، وقد أفاد بقوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أنه من سنخ أمره، و عرف أيضاً أمره بمثل قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، فدل على أنه كلمه الإيجاد التى يوجد سبحانه بها الأشياء أى الوجود الذى يفيضه عليها لكن لا من كل جهه بل من جهه استناد اليه تعالى بلا ماده و لا زمان و لا مكان كما يفيدته قوله: وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصِيرِ (القمر ٥٠) فإن هذا التعبير إنما يورد فيما لا- تدريج فيه أى لا- ماده و لا حركه له، و ليكن هذا الإجمال عندك حتى يرد عليك تفصيله فيما سيأتى إن شاء الله فى تفسير سوره الإسراء.

فتحصّل أن الروح كلمه الحياه التى يلقيها الله سبحانه الى الأشياء فيحييها بمشيئته، و لذلك سمّاه وحيا و عدّ إلقاءه و إنزاله على نبيّه إحياء فى قوله: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى ٥٢)، فإن الوحي هو الكلام الخفى و التفهيم بطريق الإشاره و الإيماء فيكون إلقاء كلمته تعالى- كلمه الحياه- الى قلب النبي صلّى الله عليه و آله و سلم وحيا للروح اليه، فافهم ذلك.

فقوله تعالى: «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» الباء للمصاحبه او للسببيه و لا- كثير تفاوت بينهما فى المآل كما هو ظاهر عند المتأمل فإن تنزيل الملائكه بمصاحبه الروح إنما هو لإلقائه فى روع النبي صلّى الله عليه و آله و سلم ليفيض عليه المعارف الإلهيه و كذا تنزيلهم بسبب الروح لأن كلمته تعالى أعنى كلمه الحياه تحكّم فى الملائكه و تحييمهم كما تحكّم فى الإنسان و تحييه، و ضمير «يُنزِّلُ» له تعالى و الجملة استئناف تفيد تعليل قوله فى الآيه السابقه: «سُبْحَانَهِ وَ تَعَالَى عَمَّا

و المعنى: أن الله منزّه و متعال عن شركهم او عن الشريك الذى يدعونه له و لتزّهه و تعاليه عن الشريك ينزل سبحانه الملائكة بمصاحبه الروح الذى هو من سنخ أمره و كلمته فى الإيجاد -او بسببه-على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون.

و قوله: عَلِيٌّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَى إن بعث الرسل و تنزل الملائكة بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشيه الإلهيه من غير أن يقهره تعالى فى ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل او يمنعه من الفعل كما فى سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و قوله: أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ بيان لقوله: «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ» لكونه فى معنى الوحي أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحي، و الإنذار هو إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب أو إعلام بالمحذور كما ذكره غيره، و التقدير على الأول أخبروهم مخوفين بوحدانيتى فى الالوهيه و وجوب تقواى، و على الثانى أعلموهم ذلك، على أن يكون «أنه» مفعولا ثانيا لا منصوبا بنزع الخافض.

و قد علم بذلك أن قوله: «فَاتَّقُونِ» متفرع على قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» و الجملتان جميعا مفعول ثانى او فى موضعه لقوله: «أَنْذِرُوا» و يوضح ذلك أن لا إله و هو الذى يبتدى منه و ينتهى اليه كل شىء او المعبود بالحق من لوازم صفه ألوهيته أن يتقيه الإنسان لتوقف كل خير و سعاده اليه، فلو فرض أنه واحد لا شريك له فى ألوهيته كان لازمه أن يتقى وحده لأن التقوى و هو إصلاح مقام العمل فرع لما فى مقام الاعتقاد و النظر، فعباده الآلهه الكثيرين و الخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بآله واحد لا شريك له الذى هو القيوم على كل شىء و بيده زمام كل أمر، و لذا لم يؤمر نبي أن يدعو الى توحيد من غير عمل او الى عمل من غير توحيد،

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٢٥).

فالذى أمر الرسل بالإنذار به فى الآيه هو مجموع قوله: «أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» و هو تمام الدين لاندرج الاعتقادات الحقه فى التوحيد و الأحكام العمليه جميعا فى التقوى، و لا يعاب بما ذكره بعضهم ان قوله: «فَاتَّقُونِ» للمستعجلين من الكفار المذكورين فى الآيه الاولى او لخصوص كفار قريش من غير أن يكون داخلا فيما أمر به الرسل من الإنذار.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ تقدم معنى خلق السماوات و الأرض بالحق، و لازم خلقها بالحق أن لا يكون للباطل فيها أثر، و لذلك عقبه بتنزيهه عن الشركاء الذين يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله و يهدوهم الى الخير و يقوهم الشر فإنهم من الباطل الذى لا أثر له.

و فى الآيه و الآيات التاليه لها احتجاج على وحدانيته تعالى فى الالوهيه و الربوبيه من جهتى الخلق و التدبير جميعا فإن الخلق و الإيجاد آيه الالوهيه و كون الخلق بعضها نعمه بالنسبه الى بعض آيه الربوبيه لأن الشىء لا يكون نعمه بالنسبه الى آخر إلا عن ارتباط بينهما و اتصال من أحدهما بالآخر يودى الى نظام جامع بينهما و تدبير واحد يجمعهما، و وحده التدبير آيه وحده المدبر فكون ما فى السماوات و الأرض من مخلوق نعماً للإنسان يدل على أن الله سبحانه وحده ربه و رب كل شىء.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ المراد به الخلق الجارى فى النوع الإنسانى و هو جعل نسله من النطفه فلا يشمل آدم و عيسى عليهما السلام.

و الخصيم صفه مشبهه من الخصومه و هى الجدال، و الآيه و إن أمكن أن تحمل على الامتتان حيث إن من عظيم المن أن يبذل الله سبحانه بقدرته التامه قطره من ماء مهين إنسانا كامل الخلقه منطقيا متكلما ينبى عن كل ما جل و دق بيانه البليغ لكن كثره الآيات التى توحي

الإنسان و تقرّعه على وقاحته فى خصامه فى ربه كقوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (يس ٧٨) ترّجح أن يكون المراد بذيل الآيه بيان وقاحه الإنسان.

و يؤيد ذلك أيضا بعض التأييد ما فى ذيل الآيه السابقه من تنزيهه تعالى من شركهم.

قوله تعالى: وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ الْأَنْعَامَ جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم سمّيت بذلك لنعمه مسّ بها بخلاف الحافر الذى يصلب كذا فى المجمع، و فى المفردات: الدفء خلاف البرد. انتهى. و كأن المراد بالدفء ما يحصل من جلودها و أوصافها و أوبارها من الحراره للاتقاء من البرد، أو المراد بالدفء ما يدفأ به.

و المراد بالمنافع سائر ما يستفاد منها لغير الدفء من أوصافها و أوبارها و جلودها و ألبانها و شحومها و غير ذلك، و قوله: «لَكُمْ» يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «خَلَقَهَا» و يكون قوله:

«فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعٌ» حالا من ضمير «خَلَقَهَا» و يمكن أن يكون «لَكُمْ» ظرفا مستقرا متعلقا بالجملة الثانيه أى فى الأنعام دَفءٌ كائنا لكم.

قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ الْجَمَالَ الزينه و حسن المنظر، قال فى المجمع: الإراحه ردّ الماشيه بالعشى من مراعيها الى منازلها و المكان الذى تراح فيه مراح، و السروح خروج الماشيه الى المرعى بالغداه، يقال: سرحت الماشيه سرحا و سروحا و سرحها أهلها. انتهى.

يقول تعالى: و لكم فى الأنعام منظر حسن حين تردّونها بالعشى الى منازلها و حين تخرجونها بالغداه الى مراعيها.

قوله تعالى: وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْإِنْفُسِ إِلَّا بَشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ الأثقال جمع ثقل و هو المتاع الذى يتقلّ حمله، و المراد بقوله:

«بَشِقُّ الْأَنْفُسِ» مشقه تتحمّلها الأنفس فى قطع المسافات البعيده و المسالك الصعبه.

و المراد أن الأنعام كالإبل و بعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيله الى بلد ليس يتيسر لكم بلوغها إلا بمشقه تتحملها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها و تسخيرها لكم إن ربكم رؤف رحيم.

قوله تعالى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ معطوف على الأنعام فيما مرّ أي و الخيل و البغال و الحمير خلقها لكم لتركبوها، و زينه أي إن في خلقها ارتباطا بمنافعكم و ذلك أنكم تركبونها و تتخذونها زينه و جمالا، و قوله: «و يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أي يخلق ما لا- علم لكم به من الحيوان و غيره، و سخّرها لكم لتنتفعوا بها، و الدليل على ما قدرناه هو السياق.

قوله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ القصد-على ما ذكره الراغب و غيره-استقامه الطريق و هو كونه قيما على سالكيه يوصلهم الى الغايه، و الظاهر أن المصدر بمعنى الفاعل و الإضافة من إضافة الصفه الى موصوفها و المراد السبيل القاصد بدليل مقابله بقوله: «و مِنْهَا جَائِزٌ» أي و من السبيل ما هو جائز أي مائل عن الغايه يورد سالكيه غيرها و يضلهم عنها.

و المراد بكون قصد السبيل على الله و جوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسلكه عباده فيوردهم مورد السعاده و الفلاح و إذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الذي أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقا هذا نعته ثم يهديهم اليه أما الجعل فهو ما جهز الله كل موجود و منها الإنسان من القوى و الأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدته الى سعاده و كماله المطلوب قال تعالى:

الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (طه ٥٠)، و قال في الإنسان خاصه: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم ٣٠) (١).

ص: ٥٣٦

١- (١). النحل ١-٢١: بحث في السبيل القاصد، تشاجر الاشاعره و المعتزله في الآيه «و عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» .



قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ شروع فى نوع آخر من النعم وهى النعم النباتيه التى يقتات بها الإنسان وغيره و ما سَخَّرَ له لتدبير أمرها كالليل والنهار والشمس والقمر و ما يحذو حذوها، ولذلك غيّر السياق فقال: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِنْهَا نَجَاتٍ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ شروع فى نوع آخر من النعم وهى النعم النباتيه التى يقتات بها الإنسان وغيره و ما سَخَّرَ له لتدبير أمرها كالليل والنهار والشمس والقمر و ما يحذو حذوها، ولذلك غيّر السياق فقال: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِنْهَا نَجَاتٍ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

وقوله: تُسِيمُونَ من الإسامه وهى رعى المواشى و منه السائمه للماشيه الراعيه و «مِنْ» الاولى تبعيضيّه و الثانيه نشويه و الشجر من النبات ما له ساق و ورق و ربما توسع فاطلق على ذى الساق وغيره جميعا، و منه الشجر المذكور فى الآيه لمكان قوله: «فِيهِ تُسِيمُونَ» و الباقي واضح.

قوله تعالى: يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ الخ؛ الزيتون شجر معروف و يطلق على ثمره أيضا يقال: إنه اسم جنس جمعى واحده زيتونه، وكذا النخيل، و يطلق على الواحد والجمع، والأعناب جمع عنبه و هى ثمره شجره الكرم و يطلق على نفس الشجره كما فى الآيه، و السياق يفيد أن قوله: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» تقديره و من كل الثمرات أنبت أشجارها. و لعل التصريح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها و عطف الباقي عليها لكونها مما يقتات بها غالبا.

و لما كان فى هذا التدبير العام الواسع الذى يجمع شمل الإنسان و الحيوان فى الارتزاق به حجه على وحدانيته تعالى فى الربوبيه ختم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

قوله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ الخ الى آخر الآيه قد تكرر الكلام فى معنى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، و لكون كل من المذكورات و كذا مجموع الليل والنهار و مجموع الشمس والقمر و النجوم ذا خواص و آثار فى نفسه من شأنه أن يستقل بإثبات وحدانيته فى ربوبيته تعالى ختم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» فجمع الآيات في هذه الآيه بخلاف الآيتين السابقيه و اللاحقه.

قوله تعالى: وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ الذره الخلق، و اختلاف ألوان ما ذراه في الأرض غير ما مرّ كما يختلف ألوان المعادن و سائر المركبات العنصريه التي ينتفع بها الانسان في معاشه و لا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كناية عن الاختلاف النوعى بينها فتقرب الآيه مضمونا من قوله تعالى:

و فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَ جَذَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَ زُرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِهْمُونَ وَ غَيْرُ صِهْمُونَ يُشِيقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ (الرعد ٤)، و قد تقدم تقريب الاستدلال به.

و اختلاف الألوان فيما ذرأ في الأرض كإنبات الشجر و الثمر أمر واحد يستدلّ به على وحدانيته في الربوبيه و لذا قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً» و لم قل: لآيات.

و هذه حجج ثلاث نسب الاولى الى الذين يتفكرون، و الثانيه الى الذين يعقلون، و الثالثه الى الذين يتذكرون، و ذلك أن الحججه الاولى مؤلفه من مقدمات ساذجه يكفى في إنتاجها مطلق التفكير، و الثانيه مؤلفه من مقدمات علميه لا يتيسر فهمها إلا لمن غار في أوضاع الأجرام العلويه و السفليه و عقل آثار حركاتها و انتقالاتها، و الثالثه مؤلفه من مقدمات كليه فلسفيه إنما ينالها الإنسان يتذكر ما للوجود من الأحكام العامه الكليه كاحتياج هذه النشأ المتغيره الى الماده و كون الماده العامه واحده متشابهه الأمر، و وجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقيه الى أمر آخر وراء الماده الواحده المتشابهه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا الخ؛ و هذا فصل آخر من النعم الإلهيه و هو نعم البحر و الجبال و الأنهار و السبل و العلامات و كأن ما تقدمه من الفصل مشتملا على نعم البرّ و السهل من الأشجار و الأثمار و نحوها، و لذلك قال: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ و لم يقل: و سَخَّرَ، الخ.

و الطرى فعيل من الطراوه و هو الغصّ الجديد من الشىء على ما ذكره فى المفردات،و المخر شقّ الماء عن يمين و شمال،يقال:مخرت السفينه تمخر مخرأ فهى ماخره و مخر الأرض أيضا شقها للزراعه،على ما فى المجمع و المراد بأكل اللحم الطرى من البحر هو أكل لحوم الحيتان المصطاده منه،و باستخراج حليه تلبسونها ما يستخرج منه بالغوص من أمثال اللؤلؤ و المرجان التى تتحلى و تترّين بها النساء.

و قوله: وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ أَى تشهد السفائن تشق ماءه عن اليمين و الشمال،و لعل قوله: «وَ تَرَى» من الخطابات العامه التى لا- يقصد بها مخاطب خاص و كثيرا ما يستعمل كذلك و معناه يراه كل راء و يشاهده كل من له أن يشاهد فليس من قبيل الالتفات من خطاب الجمع السابق الى خطاب الواحد.

و قوله: وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى و لتطلبوا بعض رزقه فى ركوب البحر و إرسال السفائن فيه،و الجملة معطوفه على محذوف و التقدير و ترى الفلك مواخر فيه لتنالوا بذلك كذا و كذا و لتبتغوا من فضله،و هو كثير النظير فى كلامه تعالى.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى و من الغايات فى تسخير البحر و إجراء الفلك فيه شكركم له المرجو منكم إذ هو من زيادته تعالى فى النعمه فقد أغناكم بما أنعم عليكم فى البر عن أن تتصرفوا فى البحر بالغوص و إجراء السفن و غير ذلك لكنه تعالى زادكم بتسخير البحر لكم نعمه لعلكم تشكرونه على هذا الزائد فإن الإنسان قليلا ما يتتبه فى الضروريات أنها نعمه موهوبه من لدنه سبحانه و لو شاء لقطعها و أما الزوائد النافعه فهى أقرب من هذا التنبه و الانتقال.

قوله تعالى: وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ قال فى المجمع:الميد الميل يمينا و شمالا و هو الاضطراب ماد يميد ميذا.

انتهى.

وقوله: أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أَي كراهه أن تميد بكم أو أن لا- تميد بكم والمراد أنه طرح على الأرض جبالا- ثوابت لثلا تضطرب و تميل يمينا و شمالا فيختل بذلك نظام معاشكم.

وقوله: وَأَنْهَاراً أَي وجعل فيها أنهارا تجرى بمائها و تسوقه الى مزارعكم و بساتينكم و تسقيكم و ما عندكم من الحيوان الأهلئ.

وقوله: وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ معطوف على قوله: وَأَنْهَاراً أَي وجعل سبلا لغايه الاهتداء المرجو منكم، و السبل منها ما هي طبيعیه و هي المسافات الواقعه بين بقعتين من الأرض الواصله إحداهما بالأخرى من غير أن يقطع ما بينهما بحاجب او مانع كالسهل بين الجبلين، و منها ما هي صناعیه و هي التي تتكون بعبور المارّه و آثار الأقدام او يعملها الإنسان.

و الظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين، و لا ضير في نسبه ما جعله الإنسان الى جعله تعالى كما نسب الأنهار و العلامات الى جعله تعالى و أكثرها من صنع الإنسان و كما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام و غيرها الى خلقه تعالى في قوله: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (الصافات ٩٦).

و ذلك أنها كائنه ما كانت من آثار مجعولاته تعالى و جعل الشئ ذى الأثر جعل لأثره بوجه و إن لم يكن جعلاً مستقيماً من غير واسطه.

قوله تعالى: وَ عَلامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ العلامات جمع علامه و هي ما يعلم به الشئ، و هو معطوف على قوله: «أَنْهَاراً» أَي و جعل علامات تستدلون بها على الأشياء الغائبه عن الحس و هي كل آيه و أماره طبيعیه أو وضعیه تدل على مدلولها و منها الشواخص و النصب و اللغات و الإشارات و الخطوط و غيرها.

ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ و لعل الالتفات فيه من الخطاب الى الغيبه للتحرز عن تكرار «تَهْتَدُونَ» بصيغه الخطاب في آخر الآيتين.

و الآيه السابقه «وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيْلِ وَ مِنْهَا جَزَائِرٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ» المتضمنه لمسأله الهدايه المعنويه التى هى كالمعترضه بين الآيات العادّه للنعم الصوريه و إن كان الأنسب ظاهرا أن يوضع بعد هذه الآيه أعنى قوله: «وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» المتعرضه هى و ما قبلها للهدايه الصوريه غير أن ذلك لم يكن خاليا من اللبس و إيهاام التناقض بخلاف موقعها الذى هى واقعه فيه و إن كانت كالمعترضه كما هو ظاهر.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا- يَخْلُقُ -الى قوله- إِيَّاهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ والآيات تقرير إجمالى للحجه المذكوره تفصيلا فى ضمن الآيات الست عشره الماضيه و استنتاج للتوحيد و هى حجه واحده أقيمت لتوحيد الربوبيه، و ملخصها أن الله سبحانه خالق كل شىء فهو الذى أنعم بهذه النعم التى لا يحيط بها الإحصاء التى يتتظم بها نظام الكون، و هو تعالى عالم بسرّها و علنها فهو الذى يملك الكل و يدبر الأمر فهو ربها، و ليس شىء مما يدعونه على شىء من هذه الصفات فليست أربابا فالإله واحد لا غير و هو الله عز اسمه.

و إنما سيقّت آيات الخلقه لتثبيت أمر النعمه إذ من السبب أنه إذا كان الله سبحانه خالقا لكل شىء موجودا له كانت آثار وجودات الأشياء و هى النعم التى يتنعم بها له سبحانه كما أن وجوداتها له ملكا طلقا لا يقبل بطلانا و لا نقلا و لا تبديلا فهو سبحانه المنعم بها حقيقه لا غيره من شىء حتى الذى نفس النعمه من آثار وجوده فإنه و ما له من أثر هو لله وحده.

و لذلك ضمّ الى حديث الخلق و الإنعام قوله تعالى: «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُؤْنَ وَ مَا تُعْلِنُونَ» لأن مجرد استناد الخلق و الإنعام الى شىء لا يستلزم ربوبيته و لا يستوجب عبادته لو لا انضمام العلم اليهما ليتم بذلك أنه مدبر يهدى كل شىء الى كماله المطلوب له و سعاده المكتوبه فى صحيفه عمله، و من المعلوم أنّ العباده إنما تستقيم عبادته إذا كان المعبود موسوما بسمه العلم عالما بعباده من يعبده شاهدا لخضوعه.

فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق و النعمه و العلم مقدمات لحجه واحده أقيمت على توحيد الربوبية الذى ينكره الوثنيه كما عرفت.

فقوله: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا- يَخْلُقُ أَفَلَا- تَذَكَّرُونَ قياس ما له سبحانه من النعت الى ما لغيره منه و نفى للمساواه، و الاستفهام للإبتكار، و المراد بمن لا يخلق آلهمم الذين يدعونهم من دون الله.

و بيانه- كما ظهر مما تقدم- أن الله سبحانه يخلق الأشياء و يستمر فى خلقها فلا يستوى هو و من لا يخلق شيئاً فإنه تعالى لخلقها الأشياء يملك وجوداتها و آثار وجوداتها التى هى الأنظمه الخاصه بها و النظام العام الجارى عليها.

و قوله: وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا الخ؛ إشاره الى كثره النعم الإلهيه كثره خارجه عن حيطه الإحصاء، و بالحقيقه ما من شىء إلا و هو نعمه إذا قيس الى النظام الكلى و إن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمه إذا قيس الى بعض آخر.

و قد علل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ و هو من ألطف التعليل و أود فأفاد سبحانه أن خروج النعمه عن حد الاحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتى المغفره و الرحمه فإنه بمغفرته-و المغفره هى الستر-يستر ما فى الأشياء من وبال النقص و شوهه القصور، و برحمته-و الرحمه إتمام النقص و رفع الحاجه-يظهر فيها الخير و الكمال و يحلّيا بالجمال فيبسط المغفره و الرحمه على الأشياء يكون كل شىء نافعا فى غيره خيرا مطلوبا عنده فيصير نعمه بالنسبه اليه فالأشياء بعضها نعمه لبعض فللنعمه الإلهيه من السعه و العرض ما لمغفرته و رحمته من ذلك: فإن تعدوا نعمه الله لا تحصوها، فافهم ذلك.

و الآيه من الموارد التى استعملت فيها المغفره فى غير الذنب و المعصيه للأمر المولوى كما هو المعروف عند المتشرعه.

وقوله: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ إشاره الى الركن الثالث من أركان الربوبية و هو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العباده و اللاعباده بالنسبه اليه فكانت عبادته لغوا لا أثر لها.

وقوله: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ إشاره الى فقدان الركن الأول من أركان الربوبية فى آلهتهم الذين يدعون من دون الله و يتفرع عليه الركن الثانى و هو إيتاء النعمه،فليس الذين يدعونهم آلهه و أربابا و الله الرب.

وقوله: أَمْ مَاتَ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ إشاره الى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبية فى أصنامهم و هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون و قد بالغ فى نفى ذلك فنفى أصل الحياه المستلزم لنفى مطلق العلم فضلا عن نوعه الكامل الذى هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون فقال: «أَمْ مَاتَ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» فأثبت الموت أولا و هو لا يجامع الشعور ثم أكده بنفى الحياه ثانيا.

و خصّ من وجوه جهلهم عدم شعورهم متى يبعث عبادهم من الناس فقال: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» أى ما يدرى الأصنام أيان يبعث عبادهم فإن العباده هى التى يجزى بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب فى الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث حتى يجزى عباده فيه عن عبادتهم،و هؤلاء لا يدرون شيئا من ذلك.

وقوله: إِيَّاكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ببيان لنتيجة الحجه التى أقيمت فى الآيات السابقه أى إذا كان الله سبحانه هو الواجد لما تتوقف عليه الالوهيه و هى المعبوديه بالحق،و غيره تعالى ممن يدعون من دونه غير واجد لشيء مما تتوقف عليه و هو الخلق و الإنعام و العلم فالهكم الذى يحق له أن يعبد واحد و لازم معناه أنه الله عز اسمه (١).

ص: ٥٤٣

إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا  
 يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ  
 الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ  
 فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَّنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ قَالَ  
 الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ  
 مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ  
 اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِمَنْ دَارَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتٌ عَدْنٍ  
 يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ  
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ  
 قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ  
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
 فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ  
 مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٣٦) إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَيَّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا  
 يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) وَأَفْسَدُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ  
 نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)





قوله تعالى: **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** قد تقدم الكلام في قوله: **«إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»** و أنه نتيجة الحجّة التي أقيمت في الآيات السابقة.

وقوله: **فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الخ**؛ تفرّيع عليه، و افتتاح لفصل جديد من الكلام حول أعمال الكفار من أقوالهم و أعمالهم الناشئة عن عدم إيمانهم بالله سبحانه و إنما ذكر عدم إيمانهم بالآخرة و لم يذكر عدم إيمانهم بالله وحده لأن الذي أقيمت عليه الحجّة هو التوحيد الكامل و هو وجوب الاعتقاد بإله عليم قدير خلق كل شيء و أتمّ النعمة لا لغوا باطلا بل لحق ليرجعوا إليه فيحاسبهم على ما عملوا و يجازيهم بما اكتسبوا مما عهدده اليهم من الأمر و النهى بواسطة الرسل.

فالتوحيد المندوب إليه في الآيات الماضيه هو القول بوحدانيته تعالى و الإيمان بما أتى به رسل الله و الإيمان بيوم الحساب و الجزاء، و لذلك وصفهم الكفار بعدم الإيمان بالآخرة لأن الإيمان بها يستلزم الإيمان بالوحدانيته و رساله.

و قوله: **قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ** أى للحق و قوله: **«وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»** أى عن الحق، و الاستكبار -على ما ذكره- طلب الترفع بترك الإذعان للحق.

و المعنى: إلهكم واحد على ما تدل عليه الآيات الواضحة في دلالتها، وإذا كان الأمر على هذا الوضوح و الجلاء لا يستتر بستر و لا يرتاب فيه فهم فالذين لا يؤمنون بالآخره قلوبهم منكره للحق جاحده له عنادا و هم مستكبرون عن الانقياد للحق من غير حجه و لا برهان.

قوله تعالى: لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ «لَا جَرَمَ» كلمه مركبه باقيه على حاله واحده يفيد معنى التحقيق على ما ذكره الخليل و سيبويه و اليه يرجع ما ذكره غيرهما و إن اختلفوا فى أصل تركبه قال الخليل:

و هو كلمه تحقيق و لا يكون إلا جوابا يقال: فعلوا كذا فيقول السامع: لا جرم يندمون.

و المعنى من المحقق-أو حق-أن الله يعلم ما يسرون و ما يعلنون، و هو كناية و تهديد بالجزاء السيئ أى إنه يعلم ما يخفونه من أعمالهم و ما يظهره فسيجزىهم بما عملوا و يؤاخذهم على ما أنكروا و استكبروا إنه لا يحب المستكبرين.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قال الراغب فى المفردات: السطر و السطر-بفتح السكون أو بفتحتين-السطر من الكتابه و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف-الى أن قال-و جمع السطر أسطر و سطور و أسطار.

قال: و أما قوله: أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ فقد قال المبرد: هى جمع اسطوره نحو أرجوحه و أثفيه و أثافى و أحداثه و أحاديث، و قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى شىء كتبوه كذبا و مينا فيما زعموا نحو قوله تعالى: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا» انتهى و قال غيره: أساطير جمع أسطار و أسطار جمع سطر فهو جمع الجمع.

و قوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ يمكن أن يكون القائل بعض المؤمنين و إنما قاله اختبارا لحالهم و استفهاما لما يروونه فى الدعوه النبويه، و يمكن أن يكون من المشركين و إنما قاله لهم ليقلدتهم فيما يروونه، و عبر عن القرآن بمثل قوله: مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ لنوع من

التهكم و الاستهزاء، و يمكن أن يكون شاكا متحيرا باحثا، و الآيه التاليه و كذا قوله فيما سيأتى:

«وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ» يؤيد أحد الوجهين الأخيرين.

و قوله: قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى الذى يسأل عنه أكاذيب خرافيه كتبها الأولون و أثبتوها و تركوها لمن خلفهم، و لازم هذا القول دعوى أنه ليس نازلا من عند الله سبحانه.

قوله تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال فى المفردات: الوزر-بفتحيتين-الملجأ الذى يلتجأ اليه من الجبل، قال تعالى: «كَأَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و الوزر-بالكسر فالسكون-الثقل تشبيها بوزر الجبل، و يعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل، قال تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً» الآيه؛ كقوله:

«وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أُنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» .

قال: و حمل وزر الغير بالحقيقه هو على نحو ما أشار اليه صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «من سنَّ سنه حسنه كان له أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شىء، و من سنَّ سنه سيئه كان له وزرها و وزر من عمل بها» أى مثل وزر من عمل بها، و قوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» أى لا تحمل وزره من حيث يتعزى المحمول عنه، انتهى.

و الذى ذكره من الحديث النبوى مروى من طرق الخاصه و العامه جميعا و يصدقه من الكتاب العزيز مثل قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلْتَأْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أُمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينًا» (الطور ٢١)، و قوله: «و نَكُتِبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ» (يس ١٢) و الآيات فى هذا المعنى كثيره.

و أما قوله فى تفسير قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «كان له وزرها و وزر من عمل بها» أى مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهرى لا- بأس بأن يوجه به الآيه و الروايه لرفع التناقض بينهما و بين مثل قوله تعالى: «لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» (الأنعام ١٦٤)، و قوله: لِيُؤْفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ

أَعْمَالُهُمْ (هود ١١١)، إذ لو حمل الأمر وزر السيئه و عذب بعذابها دون الفاعل ناقض ذلك الآية الاولى، و لو قسم بينهما و حمل كل منهما بعض الوزر و عذب ببعض العذاب ناقض الآية الثانية، و أما لو حمل السان و الأمر مثل ما للعامل الفاعل لم يناقض شيئاً.

و فى تقييد قوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ بقوله: كَامِلَةً دفع لتوهم التقسيم و التبعض بأن يحملوا بعضاً من أوزار أنفسهم و بعضاً من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزاراً كاملاً بل يحملون أوزار أنفسهم كاملاً ثم من أوزار الذين يضلونهم.

و قوله: وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ من تبعضيه لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التى ترتبت على إضلالهم خاصة بشهادته السياق فالتبعض إنما هو لتميز الأوزار المترتبة على الإضلال من غيرها لا- للدلالة على تبعض كل وزر من أوزار الإضلال و حمل بعضه على هذا و بعضه على ذاك و لا تقسيم مجموع أوزار الإضلال و حمل قسم منه على هذا و قسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨) تنافى ذلك فافهم.

و تقييده سبحانه قوله: يُضِلُّونَهُمْ بقوله: بغير علم للدلالة على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا: أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليداً و بغير علم فالقائلون أنهم الضلال و هؤلاء الضلال أتباعهم و مقلدوهم ثم ختم سبحانه الآية بدمهم و تقييد أمرهم جميعاً فقال: «أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ» .

قوله تعالى: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ الخ؛ إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضراً، و هذا شائع فى الكلام و خروار السقف سقوطه على الأرض و انهدامه.

و الظاهر- كما يشعر به السياق- أن قوله: فَأَتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ كناية عن إبطال كيدهم و إفساد مكرهم من حيث لا

يتوقعون كمن يتقى أمامه و يراقبه فيأتيه العدو من خلفه فالله سبحانه يأتي مكرهم من ناحيه قواعده و هم مراقبون سقفه مما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بانهدام القواعد.

و على هذا فقوله: **وَ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** عطف تفسيري يفسر قوله: **«فَأَتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمُ»** الخ؛ والمراد بالعذاب العذاب الدنيوي.

و في الآيه تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون بالله و رسوله بتذكيرهم ما فعل الله بالماكرين من قبلهم من مستكبري الامم الماضيه حيث ردّ مكرهم الى أنفسهم فكانوا هم الممكورين.

قوله تعالى: **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَإِنَّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمُ الْإِخْرَاءَ مِنَ الْخِزْيِ وَ هُوَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ الذَّلِ الَّذِي يَسْتَحْيِي مِنْهُ، وَ الْمَشَاقَّةَ مِنَ الشَّقِّ وَ هُوَ قَطْعُ بَعْضِ الشَّيْءِ وَ فَصْلُهُ مِنْهُ فَهِيَ الْمَخَاصِمُ وَ الْمَعَادَاةُ وَ الْإِخْتِلَافُ مِمَّنْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَأْتِلَفَ وَ يَتَّفِقَ فَمَشَاقَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي شُرَكَائِهِمْ هُوَ إِخْتِلَافُهُمْ مَعَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَ هُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَطَهَّرَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا عَلَى التَّوْحِيدِ وَ دِينَ الْحَقِّ وَ مَخَاصِمَتِهِمْ لَهُمْ وَ انْفِصَالُهُمْ عَنْهُمْ.**

و المعنى: أن الله سبحانه سيخزيهم يوم القيامة و يضرب عليهم الذله و الهوان بقوله: **أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ أَهْلَ الْحَقِّ فِيهِمْ وَ تَخَاصُمُونَهُمْ وَ تَوْجِدُونَ الْإِخْتِلَافَ فِي دِينِ اللَّهِ.**

قوله تعالى: **قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الْخِزْيَ ذَلَّةُ الْمَوْقِفِ وَ السُّوءَ الْعَذَابَ عَلَى مَا يَفِيدهُ السِّيَاقُ.**

و هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم اوتوا العلم و أخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم بالله و انكشفت لهم حقيقته التوحيد فإن ذلك هو الذي يعطيه السياق من جهه المقابله بينهم مع وصفهم بالعلم و بين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلا

على أن الله سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ و يقولون كذا و قد قال في وصف اليوم:

لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨) و القول لا يكون صوابا بحق المعنى إلا مع كون قائله مصونا من خطاه و لغوه و باطله، و لا يكون مصونا في قوله إلا إذا كان مصونا في فعله و في علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلا الحق و لا يفعلون إلا الحق و لا ينطقون إلا بالحق.

قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ الى آخر الآيه؛ الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع في آخر الآيه السابقه كما أن قوله الآتى:

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ الخ؛ تفسير للمتقين الواقع في آخر الآيه التي قبله، و لا يستلزم كونه بيانا للكافرين كونه من تمام قول الذين اتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم:

«إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ» الخ؛ ثم بيانهم بقولهم: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ الخ؛ دون أن يقولوا: الذين توفاهم الملائكه كما لا يخفى.

وقوله: فَأَلْقَوْا السَّلَمَ أى الاستسلام و هو الخضوع و الانقياد، و ضمير الجمع للكافرين و المعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكه و يقبضون أرواحهم و الحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم بالله فألقوا السلم و قدموا الخضوع و الانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء، فيرد عليهم قولهم و يكذبون و يقال لهم: بلى قد فعلتم و عملتم إن الله عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد و هو الموت.

قوله تعالى: فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ الخطاب للمجموع كما كان قوله: «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ الشُّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ» و كذا قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» الخ؛ ناظرا الى جماعه الكافرين دون كل واحد واحد منهم.

و على هذا يعود معناه الى مثل قولنا: ليدخل كل واحد منكم بابا من جهنم يناسب عمله و موقفه من الكفر لا أن يدخل كل واحد منهم جميع الأبواب او أكثر من واحد منها، و قد تقدم الكلام فى معنى أبواب جهنم فى تفسير قوله تعالى: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (الحجر ٤٤).

و المتكبرون هم المستكبرون بحسب المصداق و إن كانت العناية اللفظية مختلفه فيهما كالمسلم و المستسلم فالمستكبر هو الذى يطلب الكبر لنفسه بإخراجه من القوه الى الفعل و إظهاره لغيره، و المتكبر هو الذى يقبله لنفسه و يأخذه صفه.

قوله تعالى: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا الى آخر الآيه؛ أخذ المسئول عنهم هم الذين اتقوا أى الذين شأنهم فى الدنيا أنهم تلبسوا بالتقوى و هم المتصفون به المستمرون بدليل إعادته ذكرهم بعد لفظ المتقين مرتين فيكون المسئول عنهم من هذه الطائفة خيارهم الكاملين فى الإيمان كما كان المسئول عنهم فى الطائفة الاخرى شرارهم الكاملين فى الكفر و هم المستكبرون.

و قوله: قَالُوا خَيْرًا أى أنزل خيرا لأنه أنزل قرآنا يتضمن معارف و شرائع فى أخذها و العمل بها خير الدنيا و الآخرة و فى قولهم: «خَيْرًا» اعتراف بكون القرآن نازلا- من عنده تعالى مضافا الى وصفهم له بالخيره و فى ذلك إظهار منهم المخالفه للمستكبرين حيث أجابوا بقولهم: أساطير الأولين أى هو أساطير و لو قال المتقون: خير بالرفع لم يكن فيه اعتراف بالنزول كما أنه لو قال المستكبرون: أساطير الأولين بالنصب كان فيه اعتراف بالنزول. كذا قيل.

و قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ظاهرا السياق أنه بيان لقولهم: «خَيْرًا» و هل هو تتمه قولهم أو بيان منه تعالى؟ ظاهر قوله: «وَ لِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتٌ عَدْنٍ» الى آخر الآيه؛ أنه كلام منه تعالى يبين به وجه الخيره فيما أنزله اليهم



فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب و خاصة المتقين الذين لا يجترءون على أمثال هذه الاقتراحات.

و المراد بالحسنه المثوبه الحسنه و ذلك لأنهم بالإحسان الذى هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعا صالحا يحكم فيه العدل و الإحسان و عيشه طيبه مبنيه على الرشد و السعاده ينالون ذلك جزاء دنيويا لإحسانهم لقوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا» و لدار الحياه الآخره خير جزاء لأن فيها بقاء بلا فناء و نعمه من غير نقمه و سعاده ليس معها شقاء.

و معنى الآيه: و قيل للمتقين من المؤمنين ما ذا أنزل ربكم من الكتاب و ما شأنه؟ قالوا أنزل خيرا، و كونه خيرا هو أن للذين أحسنوا- أى عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ و العمل بما فى الكتاب إيماء الى أن الذى يأمر به الكتاب أعمال حسنه- فى هذه الدنيا مثوبه حسنه و لدار الآخره خير لهم جزاء.

ثم مدح دارهم ليكون تأكيدا للقول فقال: «وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ» ثم بين دار المتقين بقوله:

«جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بيان للمتقين كما كان قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» الخ؛ بيانا للمستكبرين.

و الطيب تعزى الشىء مما يختلط به فيكدره و يذهب بخلوصه و محوضته يقال: طاب لى العيش أى خلص و تعزى مما يكدره و ينغصه و القول الطيب ما كان عاريا من اللغو و الشتم و الخشونه و سائر ما يوجب فيه غضاظه، و الفرق بين الطيب و الطهاره أن الطهاره كون الشىء على طبعه الأصلى بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه و الطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره و يفسد أمره سواء تنفّر عنه أم لا و لذلك قوبل الطيب بالخبيث المشتمل على

الخبث الزائد، قال تعالى: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ (النور ٢٦)، وقال: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ لِبَاءتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا (الأعراف ٥٨).

و على هذا فالمراد بكون المتقين طيبين في حال توفيتهم خلوصهم من خبث الظلم في مقابل المستكبرين الذين وصفهم بالظلم حال التوفى في قوله السابق: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» و يكون معنى الآية أن المتقين هم الذين تتوفاهم الملائكة متعززين عن خبث الظلم-الشرك و المعاصى-يقولون لهم سلام عليكم-و هو تأمين قولى لهم-ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون-و هو هدايه لهم إليها-.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ الخ؛ رجوع الى حديث المستكبرين من المشركين و ذكر بعض أحوالهم و أقوالهم و قياسهم ممن سبقهم من طغاه الامم الماضين و ما آل اليه أمرهم.

و قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ سياق الآية و خاصه ما فى الآية التاليه من حديث العذاب ظاهر فى أنها مسوقه للتهديد فالمراد بإتيان الملائكة نزولهم لعذاب الاستئصال و ينطبق على مثل قوله: مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ (الحجر ٨)، و المراد بإتيان أمر الرب تعالى قيام الساعة و فصل القضاء و الانتقام الإلهى منهم.

و أما كون المراد بإتيان الأمر ما تقدم فى أول السوره من قوله: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ» و قد قرَبنا هناك أن المراد به مجيء النصر و ظهور الاسلام على الشرك فلا يلائم اللحن الشديد الذى فى الآية تلك الملائمه، و أيضا سيأتى فى ذيل الآيات ذكر إنكارهم للبعث و إصرارهم على نفيه و الرد عليهم، و هو يؤيد كون المراد بإتيان الأمر قيام الساعة.

و قد أضاف الرب الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فقال: أَمْرٌ رَبِّكَ وَ لم يقل: أمر الله أو أمر ربهم ليدل

به على أن فيه انتصارا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقضاء له عليهم.

وقوله: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ تَأْكِيدًا لِلتَّهْدِيدِ وَتَأْيِيدًا لِلنَّظِيرِ أَيْ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ فَعَلِهِمْ مِنَ الْجُحُودِ وَالِاسْتِهْزَاءِ مِمَّا فِيهِ بِحَسَبِ الطَّبَعِ انْتِظَارَ عَذَابِ اللَّهِ «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا» الخ.

وقوله: وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ معترضه يبين بها أن الذي نزل بهم من العذاب لهم يستوجبه إلا الظلم، غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلما منه تعالى و تقدس، و لم يعذبهم الله سبحانه عن ظلم وقع منهم مره أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا في ظلمهم و أصروا عليه - كما يدل عليه قوله: كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ - فعند ذلك أنزل عليهم العذاب، ففي قوله: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ» الخ؛ إثبات الاستمرار على الظلم عليهم و نفى أصل الظلم عن الله سبحانه.

قوله تعالى: فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ حاق بهم أي حل بهم، وقيل: معناه نزل بهم و أصابهم، و الذي كانوا به يستهزئون هو العذاب الذي كانت رسلهم يندرونهم به و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ الذي تورده الآية شبهه على النبوه من الوثنيين المنكرين لها، و لذلك عرفهم بنعتهم الصريح حيث قال: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و لم يكتف بالضمير و لم يقل: و قالوا كما في الآيات السابقة ليعلم أن الشبهه لهم بعينهم.

وقوله: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا جملته شرطيه حذف فيها مفعول «شاء» لدلاله الجزاء عليه، و التقدير لو شاء الله أن لا نعبد من دونه شيئا ما عبدنا، الخ.

وقوله: مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ لفظه من الاولى بانيه و الثانيه زائده

لتأكيد الاستغراق في النفي، والمعنى ما عبدنا شيئاً دونه، ونظير ذلك قوله: «وَلَا حَرَمٌ مِّنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» .

وقوله: نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا بيان لضمير التكلم في «عَبَدْنَا» للدلالة على أنهم يتكلمون عنهم و عن آبائهم جميعاً لأنهم كانوا يقتدون في عبادة الأصنام بآبائهم، وقد تكرر في القرآن حكاية مثل قولهم: إِذَا وَحَدَّثْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ (الزخرف ٢٣).

وقوله: وَلَا حَرَمًا مِّنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ عطف على قوله: «عَبَدْنَا» الخ؛ أي و لو شاء الله أن لا نحرم من دونه من شيء أو نحل ما حرّمناه ما حرّمنا، الخ؛ والمراد البحيره و السائبه و غيرهما مما حرّموه.

ثم إن قولهم: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ ظاهر من جهة تعليق نفي العبادة على نفس مشيئته تعالى في أنهم أرادوا بالمشيه إرادته التكوينية التي لا تتخلف عن المراد البتة و لو أرادوا غيرها لقالوا: لو شاء الله كذا لأطعناه و استجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى.

فكأنهم يقولون: لو كانت رسالته حقه و كان ما جاء به الرسل من النهي عن عبادة الأصنام و الأوثان و النهي عن تحريم البحيره و السائبه و الوصيله و غيرها نواهي لله سبحانه كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئاً غيره و أن لا نحرم من دونه شيئاً، و لو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره و لا نحرم شيئاً لم نعبد و لم نحرم لاستحاله تخلف مراده عن إرادته لكننا نعبد غيره و نحرم أشياء فليس يشاء شيئاً من ذلك فلا نهى و لا أمر منه تعالى و لا شريعته و لا رساله من قبله.

قوله تعالى: كَذَلِكَ فَعَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، خطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بأمره أن يبلغ رسالته بلاغاً مبيناً و لا يعتنى بما لفقوه من

الحججه فإنها داخضه و الحججه تامه عليهم بالبلاغ و فيه إشاره إجماليه الى دحض حججهم.

فقوله: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ الَّذِى سَلَكَ هَؤُلَاءِ سَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَ حَرَّمُوا مَا لَمْ يَحَرِّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ رِسَالُهُمْ يَنْهَوْنَهُمْ عَنِ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمَنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ فَالْجمله كقوله تعالى: كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ (الأنفال ٥٢).

و قوله: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَى بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ بِلَاغًا مَبِينًا تَتِمُّ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا وَظِيفَهُ الرِّسَالَةَ الْبَلَاغُ الْمَبِينُ وَ لَيْسَ مِنْ وَظِيفَتِهِمْ أَنْ يَلْجِئُوا النَّاسَ إِلَى مَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ وَ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ وَ لَا- أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ إِرَادَةَ اللَّهِ الْمَوْجِبَةَ الَّتِى لَا- تَتَخَلَّفُ عَنِ الْمُرَادِ وَ لَا أَمْرَهُ الَّذِى إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ حَتَّى يَحْوُلُوا بِذَلِكَ الْكُفْرَ إِلَى الْإِيمَانِ وَ يَضْطَرُّوا الْعَاصِىَ عَلَى الْإِطَاعَةِ.

فإنما الرسول بشر مثلهم و الرساله التى بعث بها إنذار و تبشير و هى مجموعه قوانين اجتماعيه أوحاها اليه الله فيها صلاح الناس فى دنياهم و آخرتهم صورتها صورته الأوامر و النواهي المولويه و حقيقتها الإنذار و التبشير، قال تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا- أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ (الأنعام ٥٠)، فهذا ما أمر به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يبلغهم و قد أمر به نوحا و من بعده من الرسل عليهم السلام أن يبلغوه أممهم كما فى سورة هود و غيرها.

و قال أيضا مخاطبا نبيه صلى الله عليه و آله و سلم: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (الكهف / ١١٠).

فهذا هو الذى يشير اليه على سبيل الإجمال بقوله: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ فَإِنْ ظَاهِرُهُ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا أَنْ هَذِهِ حُجَّةُ

دائرته بينهم قديما و حديثا، و على هذا ليس من شأن الرسول إجبار الناس و إجناؤهم على الإيمان و الطاعه بل البلاغ المبين بالإنذار و التبشير و حجتهم لا- تدفع ذلك فبلغ ما أرسلت به بلاغا مبينا و لا تطمع فى هدايه من ضلّ منهم، و ستفصل الآياتان التاليتان ما أجملته هذه الآيه و توضحانها.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اذْعِبُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** الخ؛ الطاغوت فى الأصل مصدر كالطغيان و هو تجاوز الحدّ بغير حق، و اسم المصدر منه الطغوي، قال الراغب: الطاغوت عباره عن كل متعدّد و كل معبود من دون الله، و يستعمل فى الواحد و الجمع، قال تعالى: **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ وَهُمْ الطَّاغُوتُ** . انتهى.

و قوله: **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا** إشاره الى أن بعث الرسول أمر لا يختص به امه دون امه بل هو سنّه إلهيه جاريه فى جميع الناس بما أنهم فى حاجه اليه و هو يدرّكهم أينما كانوا كما أشار الى عمومه فى الآيه السابقه إجمالا بقوله: **«كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»** .

و قوله: **أَنْ اذْعِبُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** بيان لبعث الرسول على ما يعطيه السياق أن ما كانت حقيقه بعث الرسول إلّا- أن يدعوهم الى عباده الله و اجتناب الطاغوت لأن الأمر و كذا النهى من البشر و خاصه إذا كان رسولا ليس إلّا دعوه عاديه لا إلهاء و اضطرارا تكوينيا، و لا أن للرسول أن يدعى ذلك حتى يرد عليه أنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء و إذ لم يشأ فلا معنى للرساله.

و قوله: **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** أى كانت كل من هذه الامم مثل هذه الامه منقسمه الى طائفتين فبعضهم هو من هداه الله الى ما دعاهم اليه الرسول من عباده الله و اجتناب الطاغوت.

و ذلك أن الهدايه من الله سبحانه لا يشاركه فيها غيره و لا تنسب الى أحد دونه إلا بالتبع كما قال: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦) و سنشير اليه فى الآيه التاليه: إِنَّ تَحْرِصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ الْآيَاتِ فى حصر الهدايه فيه تعالى كثيره، و لا يستلزم ذلك كونها أمرا اضطراريا لا صنع فيه للعبد أصلا فإنها اختياريه بالمقدمه كما يشير اليه قوله: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت ٦٩) يفيد أن للهدايه الإلهيه طريقا ميسرا للانسان و هو الإحسان فى العمل و أن الله لمع المحسنين لا يدعهم يضلون.

و بعض هذه الامم-الطائفه الثانيه منهم-هو من حقت عليه الضلاله أى ثبتت و لزمت، و هذه الضلاله هى التى من قبل العبد بسوء اختياره و ليست بالتى تتبعها مجازاه من الله فإن الله يصفها بقوله: حقت ثم يضيفها فى الآيه التاليه الى نفسه إذ يقول: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ ضَلَالَةٌ ثُمَّ حَقَّتْ وَ ثَبَّتَتْ بِإِثْبَاتِ اللَّهِ مَجَازَاهُ فَصَارَتْ هِيَ التَّى مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَجَازَاهُ، فْتَبَصَّرَ.

و لم ينسب الله سبحانه فى كلامه الى نفسه إضلالا إلا ما كان مسبوqa لظلم من العبد أو فسق أو كفر أو تكذيب أو نظائر ها كقوله: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعه ٥) و عدم الهدايه هو الإضلال، و قوله: وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧)، و قوله: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَ لَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ (النساء ١٦٨)، و قوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥)، الى غير ذلك من الآيات.

و لم يقل سبحانه: فمنهم من هدى الله و منهم من أضله مع كون ضلالهم ضلال مجازاه لا مانع من إضافته اليه تعالى دفعا لإيهام نسبه أصل الضلال اليه بل ذكر أولا من هداه ثم قابله بمن كان من حقه أن يضل-و هو الذى اختار الضلاله على الهدى أى اختار أن لا يهتدى- فلم

يهده الله وحق له ذلك.

وقوله: فَسَيَرَوْا فِي الْأَرْضِ فَمَا نَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ظاهر السياق أن الخطاب للذين أشركوا القائلين «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» و الالتفات الى خطابهم لكونه أشد تأثيرا فلي تثبت القول و إتمام الحجة.

و الكلام متفرع على ما بين جوابا لحجتهم إجمالا- و تفصيلا و محصّلا المعنى أن الرسالة و الدعوه النبويه ليست من الإبراده التكوينية الملجئه الى ترك عباده الأصنام و تحريم ما لم يحرمه الله حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرسالة و كذب مدّعيتها بل هي دعوه عاديه بعث الله سبحانه بها رسلا يدعونكم الى عباده الله و اجتناب الطاغوت و حقيقته الإنذار و التبشير، و من الدليل على ذلك آثار الامم الماضيه الظالمه التي تحكى عن نزول العذاب عليهم فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوه النبويه التي هي إنذار حق و أن الرسالة ليست كما تزعمون.

قوله تعالى: إِنَّ تَحَرُّصَ عَلِيٍّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ لما بين أن الامم الماضين انقسموا طائفتين و كانت إحدى الطائفتين هم الذين حقّت عليهم الضلاله و كانت هؤلاء الذين أشركوا و قالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بين فى هذه الآيه أن ثبوت الضلاله فى حقهم إنما هو ثبوت لا- زوال معه و تحتم لا- يقبل التغير فإنه لا هادى بالحقيقه إلا الله فإن جاز هداهم كان الله هو هاديهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم و لا يجتمع الهدى و الضلال معا، و ليس هناك ناصر ينصرهم على الله فيقهره على هداهم فليؤيس منهم.

ففى الآيه تعزیه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و إرشاد له أن لا يحرص فى هداهم، و إعلام له أن القضاء قد مضى فى حقهم و ما يبذل القول لديه و ما هو بظلام للعبيد.

فقوله: إِنَّ تَحَرُّصَ عَلِيٍّ هُدَاهُمْ الخ؛ فى تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم



حرصك شيئاً فليسوا ممن يمكن له الاهتداء فإن الله هو الذى يهدى من اهتدى، وهو لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يناقض تعالى فعل نفسه، وليس لهم ناصرون ينصرونهم عليه.

و فى هذه الآيات الثلاث مشاجرات طويله بين المجبّره و المفوّضه و كل يفسرها بما يقتضيه مذهبه حتى قال الامام الرازى: إن المشركين أرادوا بقولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء، الخ؛ أنه لما كان الكل من التوحيد و الشرك و الهدى و الضلال من الله كانت بعثه الأنبياء عبثاً فنقول: هذا اعتراض على الله و جار مجرى طلب العله فى أحكامه و أفعاله تعالى و ذلك باطل فلا يقال له: لم فعلت هذا و لم لم تفعل ذلك؟

قال: فثبت أن الله تعالى إنما ذمّ هؤلاء القائلين لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع عن جواز بعثه الرسل لا لأنهم كذبوا فى قولهم ذلك. انتهى ملخصاً.

و فى قوله: **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** دلالة على أن غيرهم ناصرين كثيرين و ذلك أن السياق يدل على أنه ليس لهم ناصر أصلاً لا واحد و لا كثير فنفى الناصرين بصيغه الجمع يكشف عن عنايه زائده بذلك أى أن هناك ناصرين لكنهم ليسوا لهم بل غيرهم و ليس إلا من يهتدى بهدى الله، و نظير الآية ما حكاه الله سبحانه عن المجرمين يوم القيامة: **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ** (الشعراء ١٠٠).

و هؤلاء الناصرون هم الملائكة الكرام و سائر أسباب التوفيق و الهدايه و الله سبحانه من ورائهم محيط، قال تعالى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** (المؤمن ٥١).

قوله تعالى: **وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ قال فى المفردات: الجهد و الجهد-بفتح الجيم و ضمها-الطاقة، و المشقه أبلغ من الجهد بالفتح، قال: و قال تعالى: **«وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ»** أى حلفوا و اجتهدوا فى الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم. انتهى.

و قال فى المجمع فى معنى قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَى بلغوا فى القسم كل مبلغ. انتهى.

و قولهم: لا- يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ إنكار للحشر، و الجملة كناية عن أن الموت فناء فلا يتعلق به بعده خلق جديد، و هذا لا ينافى قول كلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعد مفارقتها البدن ببدن آخر إنسانى أو غير إنسانى و عيشها فى الدنيا، و هو قولهم بالتولد بعد التولد.

و قوله: بَلَى وَ عَرِداً عَلَيْهِ حَقًّا أَى ليس الأمر كما يقولون بل يبعث الله من يموت وعده وعدا ثابتا عليه حقا أى إن الله سبحانه أوجه على نفسه بالوعد الذى وعد عباده، و أثبتته إثباتا فلا يتخلف و لا يتغير.

و قوله: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَى لا يعلمون أنه من الوعد الذى لا يخلف و القضاء الذى لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الداله عليه الكاشفه عن وعده و هى خلق السماوات و الأرض و اختلاف الناس بالظلم و الطغيان و العدل و الإحسان و التكليف النازل فى الشرائع الإلهيه.

قوله تعالى: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ اللام للغايه و الغرض أى يبعث الله من يموت ليبين لهم، الخ؛ و الغايتان فى الحقيقه غايه واحده فإن الثانيه من متفرعات الاولى و لوازمها فإن الكافرين إنما يعلمون أنهم كانوا كاذبين فى نفى المعاد من جهه تبين الاختلاف الذى ظهر بينهم و بين الرسل بسبب إثبات المعاد و نفيه و ظهور المعاد لهم عيانا.

و تبين ما اختلف فيه الناس من شئون يوم القيامة، و قد تكرر فى كلامه هذا التعبير و ما فى معناه تكرارا صحّ معه جعل تبين الاختلاف معرّفا لهذا اليوم الذى ثقل فى السماوات و الأرض، و على ذلك يتفرع ما قصه الله سبحانه فى كلامه من تفاصيل ما يجرى فيه من المرور





قوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وعد جميل للمهاجرين، وقد كانت من المؤمنين هجرتان عن مكة: إحداهما الى حبشه عدّه من المؤمنين بالنبي صلّى الله عليه و آله و سلم بإذن من الله و رسوله إليها و لبثوا فيها حيناً في أمن و راحة من أذى مشركى مكة و عذابهم

و الثانيه هجرتهم من مكه الى المدينه بعد مهاجره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و الظاهر أن المراد بالهجره فى الآيه هى الهجره الثانيه فسياق الآيتين أكثر ملاءمه لها من الاولى و هو ظاهر.

□  
و قوله: فى الله متعلق بهاجروا، و المراد بكون المهاجره فى الله أن يكون طلب مرضاته محيطا بهم فى مهاجرتهم لا يخرجون منه الى غرض آخر كما يقال: سافر فى طلب العلم و خرج فى طلب المعيشه أى لا- غايه له إلا- طلب العلم و لا- بغيه له إلا- طلب المعيشه، و السياق يعطى أن قوله: «مَنْ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا» أيضا مقيد بذلك معنى، و التقدير: و الذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا فيه، و إنما حذف اختصارا و إنما اكتفى به قيما للمهاجره لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى.

و قوله: لَتَبَوَّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قِيلَ: أى بلده حسنه بدلا مما تركوه من وطنهم كمكه و حوالها دليل قوله: «لَتَبَوَّئَنَّهُمْ» فإنه من بَوَّأَتْ له مكانا أى سَوَّيَتْ و أقررته فيه.

و قيل: أى حاله حسنه من الفتح و الظفر و نحو ذلك فيكون قوله: لَتَبَوَّئَنَّهُمْ الخ؛ من الاستعاره بالكنايه.

و الوجهان متحدان مآلا فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعا إسلاميا طيبا لا يبعد فيه إلا الله، و لا يحكم فيه إلا العدل و الإحسان أو ليدخلوا فى مجتمع هذا شأنه فلو رجوا فى مهاجرهم غايه حسنه أو وعدوا بغيه حسنه كان ذلك هذا المجتمع الصالح، و لو حمدوا البلده التى يهاجرون إليها لكان حمدهم للمجتمع الاسلامى المستقر فيها لا لمائها أو هوائها فالغايه الحسنه التى يعدهم الله فى الدنيا هى هذا المجتمع سواء اريد بالحسنه البلده أو الغايه.

□  
و قوله: وَ لَمَّا جُرِّمَ آخِرَهُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ تميم للوعد و إشاره الى أن أجر الآخره أفضل من هذا الأجر الدنيوى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فيها من النعم فإن

فيها سعادته من غير شقاء و خلودا من غير فناء و لذّه غير مشوبه بألم و جوار رب العالمين.

قوله تعالى: الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جملة العناية فيهما الى وعد المهاجرين في الله وعدا حسنا في الدنيا و الآخرة من غير نظر الى الإخبار بتحقيق المهاجره قبل حال الخطاب فيكون الكلام في معنى الاشتراط: من يهاجر في الله فله كذا و كذا، و تكون العناية في قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا» الخ؛ بتوصيف المهاجرين بالصبر و التوكل من غير نظر الى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم في أوطانهم بين المشركين قبال أذاهم و فتنهم.

و العناية بالتوصيف إنما هي لكون كلتا الصفتين دخيلتين في الغايه الحسنه التي وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مّر الجهاد و أظهروا الجزع عند هجوم العظام و لم يتأيدوا بالتوكل على الله و اعتمدوا على أنفسهم الضعيفه أحيط بهم و لم يتهيأ لهم المستقر و فزقهم العدو المصمر على عداوته بددا و تلاشى المجتمع الصالح الذي أقاموه في مهاجرهم هذا في الدنيا، و أما أمر الآخرة ففساده بفساد المجتمع أو تلاشيه أوضح.

و لو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجره قبل نزول الآيه تطيبا لنفوسهم و تسليه لهم عما أخرجوا من ديارهم و أموالهم و قاسوا الفتن و المحن كان قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» مدحا لهم بما ظهر منهم ايام إقامتهم بمكه و غيرها من الصبر في الله على أذى المشركين و التوكل على الله فيما عزموا عليه من الاسلام لله.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَشِئْلُوا أَهْلَ الذُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ رجوع ثان الى بيان كيفية إرسال الرسل و إنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوة الدينيه إلاّ دعوه عاديه من رجال يوحى اليهم من البشر يندبون الى ما فيه صلاح الناس في دنياهم و عقباهم.

و أنه لم يدع أحد من الرسل و لا ادعى في كتاب من كتب الشرائع أن الدعوة الدينيه ظهور

للقدره الغيبية القاهره لكل شىء و الاراده التكوينية لهدم النظام الجارى و نقض سنه الاختيار و إبطالها حتى يقول القائل منهم «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» الخ.

و على هذا فقولہ سبحانہ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مَسْوِقًا لِحَصْرِ الرِّسَالَةِ عَلَى الْبَشَرِ الْعَادِي مِنْ رِجَالِ يُوْحَى إِلَيْهِمْ قَبَالَ مَا ادْعَاهُ الْمَشْرُكُونَ أَنَهَا لَوْ كَانَتْ لَكَانَتْ نَقْضًا لِنِظَامِ الطَّبِيعَةِ وَ إِبْطَالًا لِلْاِخْتِيَارِ وَ الْاِسْتِطَاعَةِ.

و الحق أن الآيه وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا إِنَّمَا هِيَ فِي مَقَامِ بَيَانِ أَنَّ الرِّسَالَاتِ كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ الْعَادِي مِنْ غَيْرِ عِنَايَةٍ بِكُونِهِمْ أَوَّلَ مَا بَعَثُوا لِلرِّسَالَةِ أَفْرَادًا بِالْغَيْنِ مَبْلَغِ الرِّجَالِ فَالْغَرَضُ أَنَّ نُوحًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ يَحْيَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَ هُمْ رِسَلٌ - كَانُوا رِجَالًا يُوْحَى إِلَيْهِمْ وَ لَمْ يَكُونُوا أَشْخَاصًا مَجْهُزِينَ بِقَدْرِهِ قَاهِرِهِ غَيْبِيَةٍ وَ إِرَادَةِ إِلَهِيَةٍ تَكْوِينِيَةٍ.

و يقرب من الآيه قوله تعالى في موضع آخر: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (الأنبياء/٨).

و قوله: فَسئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ الظاهر أنه خطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ لِقَوْمِهِ، وَ قَدْ كَانَ الْخِطَابُ فِي سَابِقِ الْكَلَامِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ خَاصَةً وَ الْمَعْنَى مَوْجَّهٌ إِلَى الْجَمِيعِ فَهُوَ تَعْمِيمٌ لِلْخِطَابِ لِلْجَمِيعِ لِيَتَّخِذَ كُلٌّ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ سَبِيلَهُ فَمَنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ كَبَعْضِ الْمَشْرُكِينَ رَاجِعٌ أَهْلَ الذِّكْرِ وَ اسْأَلَهُمْ وَ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ كَانَ فِي غِنَى عَنِ الرَّجُوعِ وَ السُّؤَالِ.

و الذكر حفظ معنى الشىء أو استحضاره، و يقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب في المفردات: الذكر تارة يقال و يراد به هيئته للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من معرفته و هو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره، و تارة يقال لحضور الشىء في القلب أو القول و لذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، و ذكر



باللسان، و كل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ، انتهى موضع الحاجة.

و الظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب و إنما يسمى اللفظ ذكراً اعتباراً بإفادته المعنى و إلقائه إياه في الذهن، و على هذا المعنى جرى استعماله في القرآن غير أن مورده فيه ذكر الله تعالى فالذكر إذا أطلق فيه و لم يتقيد بشيء هو ذكره.

و بهذه العناية أيضاً سُمي القرآن وحي النبوه و الكتب المنزله على الأنبياء ذكراً، و الآيات في ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها في هذا الموضع. و قد سمي الله سبحانه في الآية التاليه القرآن ذكراً.

فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح و صحف إبراهيم و تورا موسى و زبور داود و إنجيل عيسى عليهم السلام - و هي الكتب السماويه المذكوره في القرآن - كلها ذكر، و أهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر.

و لما كان أهل الشيء و خاصته أعرف بحاله و أبصر بأخباره كان على من يريد التبصر في أمره أن يرجع إلى أهله، و أهل الكتب السماويه القائمون على دراستها و تعلمها و العمل بشرائعها هم أهل الخبره بها و العالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شيء من أمرهم أن يراجعهم و يسألهم.

لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله: فَسَيُتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ لِمَا كَانُوا لَا يَسْلَمُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم النبوه و لا يصدقونه في دعواه و يستهزءون بالقرآن ذى الذكر كما يذكره تعالى في قوله: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر ٦)، لم ينطبق قوله:

«فَسَيُتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» بحسب المورد إلا على أهل التوراه، و خاصه من حيث كونهم أعداء للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم رادين لنبوته و كانت نفوس المشركين طيبه بهم لذلك، و قد قالوا في المشركين:

هُؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (النساء ٥١).

قوله تعالى: بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ متعلق بمقدّر يدلّ عليه ما فى الآيه السابقه من قوله:

«وَمَا أَرْسَلْنَا» أى أرسلناهم بالبينات و الزبر و هى الآيات الواضحه الداله على رسالتهم و الكتب المنزله عليهم.

و ذلك أن العنايه فى الآيه السابقه إنما هى بيان كون الرسل بشرا على العاده فحسب فكأنه لما ذكر ذلك اختلج فى ذهن السامع أنهم بما ذا أرسلوا؟ فاجيب عنه فقيل: بالبينات و الزبر أما البيّنات فلا ثبات رسالتهم و أما الزبر فلحفظ تعليماتهم.

و قيل: و هو متعلق بقوله: وَمَا أَرْسَلْنَا أى و ما أرسلنا بالبينات و الزبر إلا- رجالا- نوحى اليهم. و فيه أنه لا بأس به فى نفسه لكنه مفوّت لما تقدّم من النكته.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ لا شك أن تنزيل الكتاب على الناس و إنزال الذكر على النبى صلّى الله عليه و آله و سلم واحد بمعنى أن تنزيله على الناس هو إنزاله اليه ليأخذوا به و يوردوه مورد العمل كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (النساء ١٧٤/)، و قال: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (الأنبياء ١٠/).

فيكون محصّل المعنى أن القصد بنزول هذا الذكر الى عامه البشر و أنك و الناس فى ذلك سواء، و إنما اخترناك لتوجيه الخطاب و إلقاء القول لا لنحملك قدره غيبه و إرادته تكوينيه إلهيه فنجعلك مسيطرا عليهم و على كل شىء بل لأمرين:

أحدهما: أن تبين للناس ما نزل تدريجا اليهم لأن المعارف الإلهيه لا ينالها الناس بلا واسطه فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين و التعليم، و هذا هو غرض الرساله ينزل اليه الوحى فيحمله ثم يؤمر بتبليغه و تعليمه و تبينه.

و الثانى: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصّروا أن ما جئت به حق من عند الله فإن الأوضاع المحيطه بك و الحوادث و الأحوال الوارده عليك فى مدى حياتك من اليتيم و خمود الذكر

و الحرمان من التعلم و الكتابه و فقدان مربّ صالح و الفقر و الاحتباس بين قوم جهله أخصاء صفر الأيدي من مزايا المدنيه و فضائل الإنسانيه كانت جميعا أسبابا قاطعه أن لا تذوق من عين الكمال قطره، و لا تقبض من عرى السعاده على مسكه، لكن الله سبحانه أنزل اليك ذكرا تتحدّى به على الجن و الإنس مهيمنا على سائر الكتب السماويه تيانا لكل شىء و هدى و رحمه و برهانا و نورا مبينا.

فالتفكر فيك نعم الدليل الهادى الى أن ليس لك فيما جئت به صنع و لا لك من الأمر شىء و أن الله أنزله بعلمه و أيديك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العاديه شىء.

هذا ما تفيده الآيه الكريمه نظرا الى سياقها و سياق ما قبلها و محصّيه أن قوله: «لَتُبَيِّنَنَّ» الخ؛ غايه للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلّقه بشخص النبي صلّى الله عليه و آله و سلم، و أن متعلق «يَتَفَكَّرُونَ» المحذوف هو نحو قولنا: فيك لا قولنا: فى الذكر.

و فى الآيه دلالة على حجّيه قول النبي صلّى الله عليه و آله و سلم فى بيان الآيات القرآنيه، و أما ما ذكره بعضهم أن ذلك فى غير النص و الظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع الى أسرار كلام الله و ما فيه من التأويل فمما لا ينبغى أن يصغى اليه.

هذا فى نفس بيانه صلّى الله عليه و آله و سلم و يلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر و غيره و أما سائر الامه من الصحابه أو التابعين أو العلماء فلا حجّيه لبيانهم لعدم شمول الآيه و عدم نص معتمد عليه يعطى حجّيه بيانهم على الإطلاق.

و أما قوله تعالى: «فَسئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» فقد تقدم أنه إرشاد الى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل الى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفه دون طائفه.

هذا كله فى نفس بيانهم المتلقى بالمشافهه، و أما الخبر الحاكي له فما كان منه بيانا متواترا أو محفوفًا بقريته قطعيه و ما يلحق به فهو حجّيه لكونه بيانهم، و أما ما كان مخالفا للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر و لا محفوفًا بالقريته فلا حجّيه فيه لعدم كونه بيانا فى الأول و عدم

إحراز البيانیه فی الثانی و للتفصیل محل آخر.

قوله تعالى: «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ» هذه الآية والآيتان بعدها إنذار و تهديد للمشركين و هم الذين يعبدون غير الله سبحانه و يشرعون لأنفسهم سننا يستنون بها فى الحياه فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم معرضين عن شرائع الله النازله من طريق النبوه استنادا الى حجج داحضه اخلقوها لأنفسهم كلها سيئات و ما يتقبلون فيها مدى حياتهم من حركه أو سكون و أخذ أو رد و فعل أو ترك و هم على ما هم عليه من استكبار و غرور، كلها ذنوب يقتترفونها مكرًا بالله ربهم و برسله الداعين الى الأخذ بدين الله و لزوم سبيله.

فقوله: «السَّيِّئَاتِ مَفْعُولٌ مَكْرُؤًا بِتَضَمِينِهِ بِمَعْنَى عَمِلُوا أَى عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ مَا كَرِينُ؛ وَ مَا أَحْتَمَلَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ كَوْنِ السَّيِّئَاتِ وَصَفًا سَادًّا مَسَدَّ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ وَ التَّقْدِيرِ:

يمكرون المكرات السيئات بعيد من السياق.

و بالجملة الكلام لتهديد المشركين و إنذارهم بالعذاب الإلهي و يدخل فيهم مشركوا مكة، و الكلام متفرع على ما تقدم كما يدل عليه قوله: «أَفَأَمِنَ» بقاء التفرع.

و المعنى—و الله أعلم—فإذا دلت الآيات البيئات على أن الله هو ربهم لا شريك له فى ربوبيته و أن رساله ليست بأمر محال بل هى دعوه الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم و خير دنياهم و أخراهم من رجال هم أمثالهم يبعثهم الله و يوحى اليهم بما تشتمل عليه الدعوه، فهؤلاء الذين يعرضون عن ذلك و يمكرون بالله و رسله بالتشبهت بهذه الحجج الواهيه لتسويه الطريق الى ترك دين الله و تشريع ما يوافق أهواءهم و يعملون السيئات هل آمنوا أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب و هم لا يشعرون، أى يفاجئهم من غير أن يتنبهوا بتوجيه اليهم قبل نزوله.

ص: ٥٧٢

قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ الفاعل هو الله سبحانه وقد كثرت في القرآن نسبة الأخذ إليه، وقيل: الضمير للعذاب، والتقلب هو التحول من حال الى حال والمراد به تحوّل المشركين في مقاصدهم و أعمالهم السيئه و انتقالهم من نعمه الى نعمه اخرى من نعم الحياه الدنيا، قال تعالى: لَا يُغْرِنُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ بَشَسَ الْمِهَادُ (آل عمران ١٩٧).

فالمراد بأخذهم في تقلبهم أن يأخذهم في عين ما يتقلبون فيه من السيئات مكرًا بالله و رسله بالعذاب أو المعنى يعذبهم بنفس ما يتقلبون فيه فيعود النعمه نغمه، وهذا أنسب بالنظر الى قوله: «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» .

وقوله: فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ في مقام التعليل لأخذهم في تقلبهم و مكرهم السيئات أى لأنهم ليسوا بمعجزين لله فيما أراد بالتغلب عليه أو بالفرار من حكمه، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ التخوف تمكن الخوف من النفس و استقراره فيها فالأخذ على تخوف هو العذاب مبنيًا على المخافه بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه و يحذروه بما استطاعوا من توبه و ندامه و نحوهما فيكون الأخذ على تخوف مقابلا لإتيان العذاب من حيث لا يشعرون.

وقوله: فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ في مقام التعليل أى يأخذهم على تخوف و يتنزّل في عذابهم الى هذا النوع من العذاب الذى هو أهون الأنواع المعدوده لأنه رؤف رحيم، و فى التعبير بقوله: «رَبُّكُمْ» إشاره الى ذلك، و كونه فى مقام التعليل بالنسبه الى الوجهين الأولين ظاهر، و أما بالنسبه الى الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا يخلو من مهله و فرصه يتنبه فيها من تنبهه فيأخذ بالحذر بتوبه أو غيرها.

و الكلام فى تعداد أنواع العذاب المذكوره ليس مسوقا للحصر كما تنبه به بعضهم بل إحصاء لأنواع منه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّيُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ المراد بالرؤية الرؤية البصريه و النظر الحسى الى الأشياء الجسمانيه لأن المطلوب إلفات النظر الى الأجسام فوات الأظلال.

و التفتؤ من الفىء و هو الظل راجعاً، و لذا قيل: إن الظل هو ما فى أول النهار الى زوال الشمس و الفىء هو ما يكون بعد زوال الشمس الى آخر النهار، و الظاهر أن الظل أعم من الفىء كما تقدم و تؤيده الآيه. فالتفتؤ رجوع الظل بعد زواله.

و الشمائل جمع شمأل و هو خلاف اليمين، و جمعه باعتبار أخذ كل سمت مفروض خلف الشىء و عن يساره جهه شمال على حده فهى شمائل تقابل اليمين كما أن عدّ كل شىء ذا أظلال بهذه العنايه أخذاً للظل بالنسبه الى كل جهه من اليمين و الشمائل ظلا- غيره بالنسبه الى جهه اخرى لا- لأن الشىء المذكور جمع بحسب المعنى و إن كان مفرداً بحسب اللفظ. و الدخور هو الخضوع و الصغار.

□  
فمعنى الآيه- و الله أعلم- «أَوْ لَمْ يَرَوْا» هؤلاء المشركون لتوحيد الربوبيه و لدعوه النبوه أو لم ينظروا «إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ» من هذه الأجسام القائمه على بسيط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أى جسم منتصب «يَتَفَتَّيُونَ» و يرجع و يدور ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ واقعه على الأرض تذلاً و تعبداً له سبحانه «وَهُمْ دَاخِرُونَ» خاضعون صاغرون.

□  
و قد تقدم الكلام فى معنى سجده الظلال ذيل قوله تعالى: وَ ظِلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ (الرعد ١٥/١)، فى الجزء الحادى عشر من الكتاب.

□  
قوله تعالى: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ الى آخر الآيتين؛ ذكرت الآيه السابقه سجود الظلال و هو معنى مشهود فيها يمثل معنى السجود لله، و تذكر هذه الآيه سجود ما فى السماوات و الأرض من دابه- و الدابه ما

يدبّ و يتحرك بالانتقال من مكان الى مكان-بحقيقه السجود التي هي نهايه التذلل و التواضع قبال العظمه و الكبرياء فإن صوره السجده التي هي خروور الإنسان و وقوعه على وجهه على الأرض إنما تعدّ عباده إذا أريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقه السجده هي التذلل المذكور.

و يدخل في عموم الدابه الإنسان و كذا الجن لأنه سبحانه يصفهم في كلامه بما يفيد أن لهم ديبيا كما لسائر الدواب من الإنسان و الحيوان،و لم يدخل سبحانه الملائكه في عموم الدابه و أفردهم بالذكر،و في ذلك من التلويح الى ما نسب اليهم في كلامه تعالى من النزول و الصعود و الذهاب و المجيء مما ظاهره النقله و الحركه المكانيه ليس من نوع ما للدواب من الدييب و الانتقال المكاني ما لا يخفى.

فقوله تعالى: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ أَى لَهُ يَخْضَعُ وَيُنْقَادُ خَضُوعًا وَ انْقِيَادًا ذَاتيًا هِيَ حَقِيقَةُ السَّجُودِ** فمن حقه تعالى أن يعبد و يسجد له.

و في الآيه دلالة على أن في غير الأرض من السماوات شيئًا من الدواب يسكنها و يعيش فيها.

و قوله: **وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** الاستكبار و التكبر من الإنسان أن يعدّ نفسه كبيرا و يضعه موضع الكبر و ليس به و لذلك يعدّ في الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما لله سبحانه من الكبرياء بالحق و هو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر و ليس يقال:مستكبر و لعل ذلك كذلك اعتبارا باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر و لازمه أن لا يكون ذلك حاصلًا للطالب من نفسه و إنما يطلب الكبر و العلوّ على غيره دعوى فكان مذمومًا،و أما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له في نفسه كما لله سبحانه و هو التكبر الحق أو لم يكن له إلاّ دعوى و غرورا كما في غيره.

فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائما أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر

و الحاجة قد استوعبهما جميعا و شىء منهما لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و لا لغيره فاستكبار أحدهما على الآخر خروج منه عن حدّه و تجاوز عن طوره و ظلم و طغيان.

و أما قوله: **وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** فإشاره الى عدم استكبارهم فى مقام الفعل و قد تقدم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى فى ذات لم يستكبر عليه فى فعل فهم لا- يعصون الله سبحانه فى أمر بل يفعلون ما يؤمرون، و فى إتيان قوله: «يُؤْمَرُونَ» مبنيا للمجهول من التعظيم و التفضيم لمقامه سبحانه ما لا يخفى.

فتبين أن الملائكه نوع من خلق الله تعالى لا تأخذهم غفله عن مقام ربهم و لا يطرأ عليهم ذهول و لا سهو و لا نسيان عن ذلك و لا يشغلهم عنه شاغل، و هم لا يريدون إلا ما يريد الله سبحانه.

و إنما خص سبحانه الملائكه من بين الساجدين المذكورين فى الآيه بذكر شأنهم و تعريف أوصافهم و تفصيل عبوديتهم لأن أكثر آلهة الوثنيين من الملائكه كإله السماء و إله الأرض و إله الرزق و إله الجمال و غيرهم، و للدلاله على أنهم- بالرغم من زعم الوثنيين- أمعن خلق الله تعالى فى عبوديته و عبادته.

قوله تعالى: **وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنََّّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِتَيَا فَارَهُبُونَ** الرهبه الخوف و تقابل الرغبه كما ان الخوف يقابل به الرجاء.

و الكلام معطوف على قوله: **وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ** و قيل: معطوف على قوله: **«وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ»** و قيل: على قوله: **«مَا خَلَقَ اللَّهُ»** على طريقه قوله: (علفتها تبنا و ماء باردا) أى سقيتها ماء باردا، و التقدير فى الآيه أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء و أ لم يسمعوا الى ما قال الله: **«لَا تَتَّخِذُوا»** الخ؟ و الأول هو الوجه.

و قوله: **لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ** اريد به- و الله اعلم- النهى عن التعدى عن الإله الواحد باتخاذ غيره معه فيشمل الاثنين و ما فوقه من العدد، و يؤيده تأكيد بقوله: **إِنَّمَا**



هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَائْتِنِينَ وَإِلَهَيْنِ كَمَا أَنَّ وَاحِدٌ صِفَةُ إِلَهٍ جِيءَ بِهِمَا لِلإيضاحِ وَالتَّبِينِ.

و الظاهر أن الأمر بالرهبة كناية عن الأمر بالعبادة و إنما اختصت الرهبة بالذكر ليوافق ما تقدم في حديث سجده الكل التي هي الأصل في تشريع العبادة من خوف الملائكة، و على هذا فالظاهر أن المراد بالرهبة ما هي رهبة إجلال و مهابة لا ما هي رهبة مؤاخذة و عذاب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَ اصْبَأْ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ قَالَ فِي الْمفردات: الوصب السقم اللازم و قد وصب فلان فهو وصب و أوصبه كذا فهو يتوصب نحو يتوجع، قال تعالى: «وَ لَهُمُ عَذَابٌ وَاصِبٌ» «وَ لَهُ الدِّينُ وَ اصْبَأْ» فتوعد لمن اتخذ إلهين و تنبيه أن جزاء من فعل ذلك عذاب لازم شديد.

و يكون الدين هاهنا الطاعة، و معنى الواصب الدائم أى حق الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله كما وصف به الملائكة حيث قال: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» و يقال: وصب و صوبا دام، و وصب الدين و جب، و مفازه و اصبه بعيده لا غايه لها. انتهى.

و الآيه و ما بعدها تحتج على وحدانيته تعالى فى الالوهيه بمعنى المعبوديه بالحق و أن الدين له وحده ليس لأحد أن يشرع من ذلك شيئاً و لا- أن يطاع فيما شرع فالآيه و ما بعدها فى مقام التعليل لقوله: «وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِتْنِينَ» الى آخر الآيه؛ و احتجاج على مضمونها و عود بعد عود الى ما تقدم بيانه من التوحيد و النبوه الذين ينكرهما المشركون.

فقوله: وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ احتجاج على توحيده تعالى فى الربوبيه فإن ما فى السماوات و الأرض من شىء فهو مملوك له بحقيقه معنى الملك إذ ما فى العالم المشهود من شىء فهو بما له من الصفات و الأفعال، قائم به تعالى موجود بإيجاده و ظاهر بإظهاره لا يسعه أن ينقطع منه و لا لحظه فالأشياء قائمه به قيام الملك بمالكه مملوكه له ملكا

حقيقيا لا يقبل تغييرا و لا انتقالا كما هو خاصه الملك الحقيقى كملك الإنسان لسمعه و بصره مثلا.

و إذا كان كذلك كان هو تعالى المدبر لأمر العالم إذ لا معنى لكون العالم مملوكا له بهذا الملك ثم يستقل غيره بتدبير أمره و التصرف فيه و ينزل هو تعالى عما خلقه و ملكه، و إذا كان هو المدبر لأمره كان هو الرب له إذ الرب هو المالك المدبر، و إذا كان هو الرب كان هو الذى يجب أن يتقى و يخضع له بالعباده.

و قوله: **وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَبًا** أى دائما لازما، و ذلك أنه لما كان تعالى هو الرب الذى يملك الأشياء و يدبر أمرها و من واجب التدبير أن يستن العالم الإنسانى بسنّه يبلغ به الجرى عليها غايتها و يهديه الى سعادته- و هذه السنّه و الطريقه هى التى يسميها القرآن دينا- كان من الواجب أن يكون تعالى هو القائم على وضع هذه السنّه و تشريع هذه الطريقه فهو تعالى المالك للدين كما قال: **«وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَبًا»** و عليه أن يشرّع ما يصلح به التدبير كما قال فيما مرّ:

□  
«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» الآية.

و قوله: **أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** استفهام إنكارى- متفرع على الجملتين جميعا- على الظاهر، و المعنى: و إذا كان كذلك فهل غيره تعالى تتقون و تعبدون؟ و ليس يملك شيئا و لا يدبر أمرا حتى يعبد، و ليس من حقه أن يشرّع دينا فيطاع فيما وضعه و شرّعه.

قوله تعالى: **وَمَا بَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ** بيان آخر لوحدايته تعالى فى الربوبيه يفرّع سبحانه عليه ذمهم و توبيخهم على شركهم بالله و على تشريعهم امورا من عند أنفسهم من غير إذن منه و رضى و يجرى الكلام فى هذا المجرى الى تمام بعض آيات.

و المراد بالضر سوء الحال من جهه فقدان النعمه التى تصلح بها الحال، و الجوار بضم الجيم صوت الوحوش استعير لرفع الصوت بالدعاء و التضرع و الاستغاثة تشبيها له به.

وقوله: **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** الكلام مسوق للعموم وليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بين ذلك فى الآيات السابقه.على أن السامعين يسلّمون ذلك و يقولون به و يدلّ عليه جؤارهم و استغاثتهم اليه عند ميسس الضر بفقدان نعمه من النعم.

فالمعنى: أن جميع النعم التى عندكم من إنعامه تعالى عليكم و أنتم تعلمون ذلك ثم إذا حلّ بكم شىء من الضر و سوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع و جأرتم اليه لا الى غيره و لو كان لغيره صنيعه عندكم لتوجّهتم اليه فهو سبحانه منعم النعمه و كاشف الضر فما بالكم لا تخصّونه بالعباده و لا تطيعونه.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** شروع فى ذمهم و توبيخهم و ينتهى الى إيعادهم و حق لهم ذلك لأن الذى يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم و رجوعهم الفطرى الى ربهم أن يوحده بالربوبيه بعد ما انكشفت لهم الحقيقه باندفاع البليّيه و نزول الرحمه لكن فريقا منهم تفاجئهم الشقوه فيعودون الى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيشير لهم الأهواء و يشركون بربهم غيره، و منه الأسباب التى يتعلقون بها، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** اللام للغايه أى إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمه بكشف الضر عنهم و لا يشكروه.

و جعل الكفر بالنعمه غايه للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غايه لهم فى مسير حياتهم إلا الكفر بنعمه الله و عدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس و الماده أورثهم فى قلوبهم ملكه التعلق بالأسباب الظاهره و إسناد النعم الإلهيه إليها و ضربهم إياها حجابا تخينا على عرفان الفطره فأنساهم ذلك توحيد ربهم فى ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمه أسبابها الظاهره دون الله، و يتعلقون بها و يخشون انقطاعها و يخضعون لها دون الله فكأنهم بل إنهم لا غايه لهم إلا كفر نعمه الله و عدم شكرها.

فالكفر بالله سبحانه هو غايتهم العامه فى كل شأن أبدوه و كل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضرّ بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمه.

و لما كان كفرانهم هذا-و هو كفر دائم يصرون عليه و استكبار على الله، و قد قال تعالى:

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم ٧) آثار ذكر ذلك الغضب الإلهى فعديل عن خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هم على نعت الغيبه الى خطابهم و إيعادهم من غير توسط فقال: «فَتَمَتُّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» .

و لم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤاخذون عليه و لا ينفعهم شىء منه، و لم يذكر ما يعلمونه-و هو لا- محاله أمر يسوؤهم- ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأه و يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون و فيه تشديد للإيعاد.

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَيْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ذكروا أنه معطوف على سائر جناياتهم التى دلت عليها الآيات السابقه و التقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جناياتهم و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا، و الظاهر أن «ما» فى «لِمَا لَا يَعْلَمُونَ» موصوله و المراد به آلهتهم و ضمير الجمع يعود الى المشركين و مفعول «لَا- يَعْلَمُونَ» محذوف و المعنى و يجعل المشركون لآلهتهم التى لا يعلمون من حالها أنها تضر و تنفع نصيبا مما رزقناهم.

و المراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه فى سوره الأنعام بقوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا- يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الأنعام ١٣٦)، هذا ما ذكره و لا يخلو عن تكلف.

و يمكن أن يكون معطوفا على ما مرّ من قوله: «يُشْرِكُونَ» و التقدير إذا فريق منكم بربهم يشركون و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم، و المراد بما لا يعلمون الأسباب الظاهره

التي ينسبون إليها الآثار على سبيل الاستقلال و هم جاهلون بحقيقه حالها و لا علم لهم جازما أنها تضر و تنفع مع ما يرون من تخلفها عن التأثير أحيانا.

و إنما نسب اليهم أنهم يجعلون لها نصيبا من رزقهم مع أنهم يسندون الرزق إليها بالاستقلال من غير أن يذكروا الله معها و مقتضاه نفي التأثير عنه تعالى رأسا لا إشراكه معها لأن لهم علما فطريا بأن الله سبحانه له تأثير في الأمر و قد ذكر عنهم آفا أنهم يجأرون اليه عند مس الضر و إذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثير الى الأسباب أنتج ذلك أن الأسباب عندهم شركاء لله في الرزق و لها نصيب فيه ثم أوعدهم بقوله: «تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ» .

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ عتاب آخر لهم في حكم حكموا به جهلا- من غير علم فاحترموا لأنفسهم و أساءوا الأدب مجترئين على الله سبحانه حيث اختاروا لأنفسهم البنين و كرهوا البنات لكنهم نسبوا الى الله سبحانه.

فقوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ هو أخذهم الآلهه دون الله أو بعض الآلهه إناثا، و قولهم: إنهن بنات الله، و قد قيل: إن خزاعه و كنانه كانوا يقولون: إن الملائكه بنات الله.

و كانت الوثنيه البرهميه و البوذيه و الصابئه يثبتون آلهه كثيره من الملائكه و الجن إناثا و هن بنات الله، و في القرآن الكريم: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إناثاً (الزخرف ١٩)، و قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهٖ نَسَباً (الصافات ١٥٨).

و قوله: وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ظاهر السياق أنه معطوف على «لِلَّهِ الْبَنَاتِ» و التقدير و يجعلون لهم ما يشتهون، أى يثبتون لله سبحانه البنات باعتقاد أن الملائكه بناته و يثبتون لأنفسهم ما يشتهون و هم البنون بقتل البنات و وأدها و المحصل أنهم يرضون لله بما لا يرضون به لأنفسهم.

قوله تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ اسوداد الوجه كناية عن الغضب، والكظيم هو الذى يتجرع الغيظ، والجمله حاله أى ينسبون الى ربهم البنات و الحال أنهم إذا بشر أحدهم بالانثى فقيل: ولدت لك بنت اسود وجهه من الغيظ و هو يتجرع غيظه.

قوله تعالى: يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التوارى الاستخفاء و التخفى و هو مأخوذ من الوراء، و الهون الذله و الخزى، و الدس الإخفاء.

و المعنى: يستخفى هذا المبشر بالبت من القوم من سوء ما بشر به على عقيدته و يتفكر فى أمره: أى يمسك ما بشر به و هى البنت على ذله من إمساكه و حفظه أم يخفيه فى التراب كما كان ذلك عادتهم فى المواليد من البنات كما قيل: إن أحدهم كان يحفر حفيره صغيره فإذا كان المولود انثى جعلها فى الحفيره و حشا عليها التراب حتى تموت تحته، و كانوا يفعلون ذلك مخافه الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن.

و أول ما بدا لهم ذلك أن بنى تميم غزوا كسرى فهزمهم و سبى نساءهم و ذراريهم فأدخلهن دار الملك و اتخذ البنات جوارى و سرايا ثم اصطلحوا بعد برهه و استردوا السبايا فخيرن فى الرجوع الى أهلهن فامتنعت عدّه من البنات فأغضب ذلك رجال بنى تميم فعزموا لا تولد لهم أنثى إلا و أدوها و دفنوها حيّه ثم تبعهم فى ذلك بعض من دونهم فشاع بينهم وأد البنات.

و قوله: أَلَا - سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ هو حكمهم أن له البنات و لهم البنون لا لهوان البنات و كرامه البنين فى نفس الأمر بل معنى هذا الحكم عندهم أن يكون لله ما يكرهون و لهم ما يحبون، و قيل: المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات و كون إمساكهن هونا، و أول الوجهين أوفق و أنسب للآيه التاليه.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْمَثَلُ السَّائِرُ مثلا لأنه صفة تسير فى

الألسن و تجرى فى كل موضع تناسبه و تشابهه.

و السوء-بالفتح و السكون-مصدر ساء يسوء كما أن السوء بالضم اسمه و إضافه المثل الى السوء تفيد التنويع فإن الأشياء إنما توصف إما من جهه حسنها و إما من جهه سوئها و قبحها فالمثل مثلان:مثل الحسن و مثل السوء.

و الحسن و القبح ربما كانا من جهه الخلقه لا صنع للإنسان و لا مدخل لاختياره فيهما كحسن الوجه و دمامه الخلقه،و ربما لحقا من جهه الأعمال الاختياريه كحسن العدل و قبح الظلم،و إنما يحمد و يذمّ العقل ما كان من القسم الثانى دون القسم الأول فيدور الحمد و الذم بحسب الحقيقه مدار العمل بما تستحسنه و تأمر به الفطره الإنسانيه من الأعمال التى توصله الى ما فيه سعادته و ترك العمل بها و هو الذى يتضمنه الدين الحق من أحكام الفطره.

و من المعلوم أن الطبع الإنسانى لا- رادع له عن اقتراف العمل السيئ إلا- أليم المؤاخذه و شديد العقاب و إذعانه بإيقاعه و إنجازه،و أما الذم فإنه يتبدل مدحا إذا شاع الفعل و خرج بذلك عن كونه منكرا غير معروف.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مسوق لإفاده الحصر و تعليل ما تقدمه أى و هو الذى له كل العزه فلا تعتريه ذله أصلا لأن كل ذله فهو فقد عزه ما و ليس يفقد عزه ما،و له كل الحكمه فلا يعرضه جهاله لأنها فقد حكمه ما ليس يفقد شيئا من الحكمه.

و إذ لا سبيل لذله و لا جهاله اليه فلا يتصف بشيء من صفات النقص،و لا ينعت بشيء من نعت الذمّ و أمثال السوء،لكن الكافر دليل فى ذاته جهول فى نفسه فتلحقه و تلازمه صفات النقص و يتصف بصفات الذم و أمثال السوء فللذين لا يؤمنون بالآخره مثل السوء.

و المؤمن و إن كان ذليلا- فى ذاته جهولا- فى نفسه كالكافر إلا- أنه لدخوله فى ولايه الله أعزه ربه بعزته و أظهره على الجهاله بتأييده بروح منه،قال تعالى: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨/١)،و قال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ٨/١)،و قال:

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله ٢٢).

قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير «عَلَيْهَا» عائد الى الأرض لدلاله «النَّاس» عليها.

و لا يبعد أن يدعى أن السياق يدل على كون المراد بالدابه الإنسان فقط من جهة كونه يدب و يتحرك، و المعنى و لو أخذ الله الناس بظلمهم مستمرا على المؤاخذه ما ترك على الأرض من إنسان يدب و يتحرك، أما جل الناس فإنهم يهلكون بظلمهم و أما الأشد الأندر و هم الأنبياء و الأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون الهلاك آبائهم و امهاتهم من قبل.

و القوم أخذوا الدابه فى الآيه بإطلاق معناها و هو كل ما يدب على الأرض من إنسان و حيوان فعاد معنى الآيه الى أنه لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك البشر و كل حيوان على الأرض فتوجه اليه: أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك و لا ظلم له أن يهلك بظلم من الإنسان؟

و أوجه ما أجيب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا: إن الله تعالى لو أخذهم بظلمهم بكفر أو معصيه لهلك عامه الناس بظلمهم إلا المعصومين منهم و أما المعصومون على شدوذهم و قله عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم و امهاتهم من قبل، و إذا هلك الناس و بطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان لأنها مخلوقه لمنافع العباد و مصالحهم كما يشعر به قوله تعالى:

خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (البقره ٢٩).

و قوله: وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَنْقِذُونَ استدراك عن مقدر يدل عليه الجملة الشرطيه فى صدر الآيه و التقدير: فلا يعاجل فى مؤاخذتهم و لكن يؤخرهم الى أجل مسمى و الأجل المسمى بالنسبه الى الفرد من الإنسان موته المحتوم، و بالنسبه الى الامه يوم انقراضها و بالنسبه الى عامه البشر نفخ الصور و قيام الساعة، و لكل منها ذكر فى كلامه تعالى قال: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ



وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى (المؤمن ٦٧)، وقال: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْتِدُمُونَ (الأعراف ٣٤)، وقال: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ لَأَجَلَ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤).

قوله تعالى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى إلى آخر الآيه؛ عود إلى نسبة المشركين إليه تعالى البنات و اختيارهم لأنفسهم البنين و هم يكرهون البنات و يحبون البنين و يستحسنونهم.

فقوله: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ يعنى البنات و قوله: «وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ» أى تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب و هو «أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى» أى العاقبة الحسنى من الحياه و هى أن يخلفهم البنون، و قيل: المراد بالحسنى الجنه على تقدير صحه البعث و صدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم فى قوله: وَ لَئِنْ أَدْقْنَا رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِىَ وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّى إِنَّ لى عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى (حم السجده / ٥٠)، و هذا الوجه لا بأس به لو لا ذيل الآيه بما سيجىء من معناه.

و قوله: لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ أى المقدمون إلى عذاب النار يقال فرط و أفرط أى تقدم و الإفراط و الإسراف فى التقدم كما أن التفريط التقصير فيه، و الفرط بفتحين هو الذى يسبق السياره لتهيئه المسكن و الماء، و يقال: أفرطه أى قدّمه.

و لما كان قولهم كذبا و افتراء إن لله ما يكرهون و لهم الحسنى فى معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم إلى الحسنى و تركوا له ما يكرهون أو عداهم بحقيقه هذا الزعم جزاء لكذبهم و هو أن لهم النار و أنهم مقدمون إليها حقا و ذلك قوله: «لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» الخ.

قوله تعالى: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيَّ أُمَمًا مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآيه و المراد بكون الشيطان وليا لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال فى زمان الوحي و المراد

بالعذاب الموعود عذاب يوم القيامة كما هو ظاهر غالب الآيات التي توعد بالعذاب.

و المعنى: تالله لقد أرسلنا رسلنا الى امم من قبلك كاليهود و النصارى و المجوس ممن لم ينقضوا كعاد و ثمود فزين لهم الشيطان أعمالهم فاتبعوه و أعرضوا عن رسلنا فهو وليهم اليوم و هو متفوقون على الضلال و لهم يوم القيامة عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ الْحَخَّ؛ ضمير لهم للمشركين و المراد بالذى اختلفوا فيه هو الحق من اعتقاد و عمل فيكون المراد بالتبين الإيضاح و الكشف لإتمام الحجج، و الدليل على هذا الذى ذكرنا تفریق أمر المؤمنين منهم و إفرادهم بالذكر فى قوله: «وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

و المعنى: هذا حال الناس فى الاختلاف فى المعارف الحقه و الأحكام الإلهيه و ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتكشف لهؤلاء المختلفين الحق الذى اختلف فيه فیتم لهم الحجج، و ليكون هدى و رحمه لقوم يؤمنون يهديهم الله به الى الحق و يرحمهم بالإيمان به و العمل.

## [سورة النحل (١٦): الآيات ٦٥ الى ٧٧]

### اشاره

وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سِكْرًا وَ رِزْقًا حَسِينًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأُمَّةَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْدِيهِمَا يُوَجِّهُهُ لَهَا وَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)



قوله تعالى: وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا الْخ؛ يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذى او المطر فتأخذ أصول النباتات و بذورها فى النمو بعد سكونها، و هى حياه من سنخ الحياه الحيوانيه و إن كانت أضعف منها، و قد اتضح بالأبحاث الحديثه أن للنبات من جراثيم الحياه ما للحيوان و إن اختلفتا صورته و أثرا.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصغى و استمع اليه ليعيه و يحفظه، قال تعالى: الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (الزمر ١٨).

فإذا ذكر من فيه قريحه قبول الحق حديث إنزال الله المطر و إحيائه الأرض بعد موتها كان له فى ذلك آيه للبعث و أن الذى أحيها لمحى الموتى.

قوله تعالى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً الْخ؛ الفرث هو الثفل الذى ينزل الى الكرش و الإمعاء فإذا دفع فهو سرجين و ليس فرثا، و السائغ اسم فاعل من السوغ يقال:

ساغ الطعام و الشراب إذا جرى فى الحلق بسهولة.

و قوله: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً أَى لَكُمْ فى الإبل و البقر و الغنم لأمرأ أمكنكم أن تعتبروا به و تتعظوا ثم بين ذلك الأمر بقوله: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ» الْخ؛ أى بطون

ما ذكر من الأنعام أخذ الكثير شيئا واحدا.

وقوله: مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمِ الْفَرْثِ فِي الْكُرْشِ وَ أَلْبَانِ الْأَنْعَامِ مَكَانَهَا مَوْخِرُ الْبَطْنِ بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ، وَ الدَّمِ مَجْرَاهَا الشَّرَائِبُ وَ الْأُورْدَةُ وَ هِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمَا جَمِيعًا فَأَخَذَ اللَّبَنُ شَيْئًا هُوَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَ الدَّمِ كَأَنَّهُ بِاعْتِبَارِ مَجَاوَرَتِهِ لِكُلِّ مِنْهُمَا وَ اجْتِمَاعِ الْجَمِيعِ فِي دَاخِلِ الْحَيَوَانِ وَ هَذَا كَمَا يُقَالُ:

اخترت زيدا من بين القوم و دعوته و أخرجته من بينهم إذا اجتمع معهم في مكان واحد و جاورهم فيه و إن كان جالسا في حاشية القوم لا وسطهم، و المراد بذلك أنى ميّزته من بينهم و قد كان غير متميز.

و المعنى: نسقيكم مما في بطونه لبنا خارجا من بين فرث و دم خالصا غير مختلط و لا مشوب بهما و لا مستصحب لشيء من طعمهما و رائحتهما سائغا للشاربين فذلك عبره لمن اعتبر و ذريعه الى العلم بكمال القدره و نفوذ الإراده، و أن الذي خلص اللبن من بين فرث و دم لقادر على أن يبعث الإنسان و يحييه بعد ما صار عظاما رميما و ضلّت في الأرض أجزاءه.

قوله تعالى: وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكِرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا الى آخر الآية؛ قال في المفردات: السكر- بضم السين- حاله تعرض بين المرء و عقله- الى أن قال- و السكر- بفتحيتين- ما يكون منه السكر، قال تعالى: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكِرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا» انتهى.

و قال في المجمع: السكر في اللغة على أربعة أوجه: الأول ما أسكر من الشراب، و الثاني ما طعم من الطعام، قال الشاعر: «جعلت عيب الأكرمين سكرًا» أي جعلت ذمهم طعاما لك، و الثالث السكون و منه ليله ساكره أي ساكنه، قال الشاعر: «و ليست بطلق و لا ساكره» و يقال: سكرت الريح سكنت، قال: «و جعلت عين الحورور تسكر»، و الرابع المصدر من قولك: سكر سكرًا و منه التسكير التحيير في قوله: «سَيِّكْرَتْ أَبْصَارُنَا» انتهى. و الظاهر أن الأصل في معناه هو زوال العقل باستعمال ما يوجب ذلك، و سائر ما ذكره من المعاني مأخوذه

منه بنوع من الاستعاره و التوسّع.

و قوله: وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ إِما جمله اسميّه معطوفه على قوله:

«وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» كقوله فى الآيه السابقه: «وَ إِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً»، و التقدير:

و من ثمرات النخيل و الأعناب- أو (1) شىء- تتخذون منه، الخ؛ قالوا: و العرب ربما يضم ما الموصوله كثيرا، و منه قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا (الدهر / ٢٠)، و التقدير رأيت ما ثم، أو التقدير و من ثمرات النخيل و الأعناب شىء تتخذونه منه، بناء على عدم جواز حذف الموصول و إبقاء الصله على ما ذهب اليه البصريون من النحاه.

و إمّا جمله فعليه معطوفه على قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» كما فى الآيه التاليه «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ» و التقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل و الأعناب، و قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ» الخ؛ بدل منه أو استئناف كأن قائلا يقول: ما ذا نستفيد منه فقيل: تتخذون منه سكرا و رزقا حسنا، و أفراد ضمير «مِنْهُ» بتأويل المذكور كقوله: «مِمَّا فِى بُطُونِهِ» فى الآيه السابقه.

و قوله: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكْرًا وَ رِزْقًا حَسِينًا أى تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل و الأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها و رزقا حسنا كالتمر و الزبيب و الدبس و غير ذلك مما يقتات به.

ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ حثا على التعقل و الإمعان فى أمر النبات و ثمراته.

قوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخِيلِ أَنْ أَنْجِذِي مِنَ الْجِبَالِ الْمِيَّاتَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ، الوحي- كما قال الراغب- الإشاره السريعه و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرّد عن التركيب أو بإشاره و نحوها، و المحصّل من موارد استعماله أنه إلقاء

ص: ٥٩٠

(١-١). الترديد مبنى على المذهبين فى حذف الموصوف كما سيأتى.

المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى فى فهم الحيوان من طريق الغريزه من الوحي و كذا ورود المعنى فى النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسه أو بالإشاره كل ذلك من الوحي، وقد استعمل فى كلامه تعالى فى كل من هذه المعانى كقوله:

«وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» الآية، وقوله: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (القصص ٧)، وقوله: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام ١٢١)، وقوله: «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (مريم ١١)، و من الوحي التكليم الإلهى لأنبياؤه و رسله، قال تعالى: «وَ مَا كُنَّا لِنَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا (الشورى ٥١)، و قد قرّر الأديب الدينى فى الإسلام أن لا يطلق الوحي على غير ما عند الأنبياء و الرسل من التكليم الإلهى.

قال فى المجمع: و الذلل جمع الذلول، يقال: دابه ذلول بين الذل و رجل ذلول بين الذل و الذله. انتهى.

وقوله: «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» أى ألهمه من طريق غريزته التى أودعها فى بنيته، و أمر النحل و هو زنبور العسل فى حياته الاجتماعيه و سيرته و صنعته لعجيب، و لعل بداعه أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ قال: «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ» .

وقوله: «أَنْ اتَّخَذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ» هذا من مضمون الوحي الذى أوحى اليه، و الظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل.

وقوله: «ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالبا على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكوّن فى بطون الأزهار و لما تكبر و تنضج.

وقوله: «فَاسْئَلِيكى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا» تفرّعه على الأمر بالأكل يؤيد أن المراد به رجوعها الى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات و إضافه السبل الى الرب للدلاله على أن الجميع بإلهام إلهى.

و قوله: **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ** الخ؛ استئناف بعد ذكر جملة ما أمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهدتها في امتثال أمر الله سبحانه ذللاً وهو أنه يخرج من بطونها أى بطون النحل «شَرَابٌ» وهو العسل «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» بالبياض والصفرة و الحمرة الناصعه و ما يميل الى السواد فيه شفاءً لِلنَّاسِ من غالب الأمراض.

و تفصيل القول فى حياه النحل هذه الحشره الفطنه التى بنت حياتها على مدنيه عجيبه فاضله لا تكاد تحصي غرائبها و لا يحاط بدقائقها ثم الذى تهينه ببالح مجاهدتها و ما يشتمل عليه من الخواص خارج عن وسع هذا الكتاب فليراجع فى ذلك ميطان تحقيقه.

ثم ختم الآيه بقوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** و قد اختلف التعبير بذلك فى هذه الآيات فخص الآيه فى إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون، و فى ثمرات النخيل و الأعناب بقوم يعقلون، و فى أمر النحل بقوم يتفكرون.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً** الخ؛ الأردل اسم تفضيل من الرذاله و هى الرداءه، و الرذل الدون و الردىء، و المراد بأردل العمر بقريته قوله: **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ** الخ؛ سن الهرم التى فيها انحطاط قوى الشعور و الإدراك، و هى تختلف باختلاف الأزجه و تبتدى على الأغلب من الخمس و السبعين.

و المعنى: و الله خلقكم معشر الناس ثم يتوفاكم فى متوسط و منكم من يرد الى سن الهرم فينتهى الى أن لا يعلم بعد علم شيئاً لضعف القوى، و هذه آيه أن حياتكم و موتكم و كذا شعوركم و علمكم ليست بأيديكم و إلا اخترتم البقاء على الوفاء و العلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجيب النظام منته الى علمه و قدرته تعالى، و لهذا علمه بقوله: **«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ»**.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ** الى آخر الآيه؛



فَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي ارْزَاقِهِ وَهُوَ مَا تَبَقِيَ بِهِ الْحَيَاةُ رُبَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ الْكَمِيَّةِ كَالْغَنِيِّ الْمَفْضَلِ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ عَلَى الْفَقِيرِ، وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ الْكَيْفِيَّةِ كَأَنْ يَسْتَقِلَّ بِالتَّصَرُّفِ فِيهِ بَعْضُهُمْ وَيَتَوَلَّى أَمْرَ الْآخَرِينَ مِثْلَ مَا يَسْتَقِلُّ الْمَوْلَى الْحَرَّ بِمَلِكِهِ مَا فِي يَدِهِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ بِخِلَافِ عَبْدِ الذِّي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَّصِرَ فِي شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَكَذَا الْأَوْلَادُ الصِّغَارَ بِالنَّسَبِ إِلَى وَلِيِّهِمْ وَ الْأَنْعَامِ وَالْمَوَاشِي بِالنَّسَبِ إِلَى مَالِكِهَا.

وَقَوْلُهُ: فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ قَرِينَهُ عَلَى أَنْ الْمَرَادُ هُوَ الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ التَّفْضِيلِ وَهُوَ أَنْ بَعْضُهُمْ فَضَّلَ بِالْحَرِيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ بِمَلِكِهِ مَا رَزَقَ وَ لَيْسَ يَخْتَارُ أَنْ يَرُدَّ مَا رَزَقَ بِاسْتِقْلَالِهِ وَ حَرِيَّتِهِ إِلَى مَا يَمْلِكُهُ وَ يَمْلِكُ رِزْقَهُ، وَ لَا أَنْ يَبْذُلَ لَهُ مَا أَوْتِيَهُ مِنْ نِعْمَةٍ حَتَّى يَتَسَاوَى وَ يَتَشَارَكَ فِي بَطْلِ مَلِكِهِ وَ يَذْهَبَ سُودَدَهُ.

فَهَذِهِ نِعْمَةٌ لَيْسُوا بِمَغْمُضِينَ عَنْهَا وَ لَا بِرَادِّينَ لَهَا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَ لَيْسَتْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ أَمْرَ الْمَوْلِيِّ وَ الرَّقِيَّةِ وَ إِنْ كَانَ مِنَ الشُّثُونِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَنْ آرَاءِ النَّاسِ وَ السَّنَنِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْجَارِيَةِ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ لَكِنْ لَهُ أَصُولٌ طَبِيعِيَّةٌ تَكْوِينِيَّةٌ هِيَ الَّتِي بَعَثَتْ آرَاءَهُمْ عَلَى اعْتِبَارِهِ كَسَائِرِ الْأُمُورِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَامَةِ.

وَ الْمَعْنَى - وَ اللَّهُ أَعْلَمُ - وَ اللَّهُ فَرَّقَ بَيْنَكُمْ بِأَنْ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَبَعْضُكُمْ حَرٌّ مُسْتَقِلٌّ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ، وَ بَعْضُكُمْ عَبْدٌ تَبِعَ لَهُ لَا يَتَّصِرُ إِلَّا عَنْ إِذْنِ فُلَيْسِ الذِّي فَضَّلُوا بِرِزْقِهِمُ الذِّي رَزَقُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْحَرِيَّةِ وَ الْاسْتِقْلَالِ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ حَتَّى يَكُونَ هَؤُلَاءِ الْمَفْضَلُونَ وَ الْمَفْضَلُ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ سَوَاءٌ فَلَيْسُوا سَوَاءٌ بَلْ هِيَ نِعْمَةٌ تَخْتَصُّ بِالْمَفْضَلِينَ أَوْ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَ حَفَدَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَ حَفَدَةً جَمْعُ حَافِدٍ وَ هُوَ الْمُتَحَرِّكُ الْمَسْرَعُ بِالْخِدْمَةِ أَقْرَابُ

كانوا أو أجنب. قال المفسرون: هم الأسباط و نحوهم و ذلك أن خدمتهم أصدق-الى أن قال-قال الأصمعي: أصل الحفد مداركه الخطو. انتهى.

و فى المجمع: و أصل الحفد الإسراع فى العمل-الى أن قال-و منه قيل للأعوان حفده لإسراعهم فى الطاعة. انتهى. و المراد بالحفده فى الآيه الأعوان الخدم من البنين لمكان قوله:

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» و لذا فسر بعضهم قوله: «بَيْنَ وَحَفْدَةٍ» بصغار الأولاد و كبارهم، و بعضهم بالبنين و الأسباط و هم بنو البنين.

و المعنى: و الله جعل لكم من أنفسكم أزواجا تألفونها و تأنسون بها، و جعل لكم من أزواجكم بالإيلاء بنين و حفده و أعوانا تستعينون بخدمتهم على حوائجكم و تدفون بهم عن أنفسكم المكاره و رزقكم من الطيبات و هى ما تستطيعونه من أمتعته الحياه و تنالونه بلا علاج و عمل كالماء و الثمرات أو بعلاج و عمل كالأطعمه و الملابس و نحوها، و «مِنْ» فى «مِنَ الطَّيِّبَاتِ» للتبعيض و هو ظاهر.

ثم وبخهم بقوله: أَفَبِالْبَاطِلِ وَ هى الأصنام و الأوثان و من ذلك القول بالبنات لله، و الأحكام التى يشرعها لهم أئمتهم أئمه الضلال «يُؤْمِنُونَ وَ يَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ» و النعمه هى جعل الأزواج من أنفسهم و جعل البنين و الحفده من أزواجهم فإن ذلك من أعظم النعم و أجلاها لكونه أساسا تكوينيا يبنى عليه المجتمع البشرى، و يظهر به فيهم حكم التعاون و التعاضد بين الأفراد، و ينتظم به لهم أمر تشريك الأعمال و المساعى فيتيسر لهم الظفر بسعادتهم فى الدنيا و الآخرة.

و لو أن الإنسان قطع هذا الرابط التكويني الذى أنعم الله به عليه و هجر هذا السبب الجميل، و إن توسل بأى وسيله غيره لتلاشى جمعه و تشتت شمله و فى ذلك هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَشْتَرُونَ عَطْفَ عَلَى مَوْضِعِ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ وَ المعنى يكفرون

بنعمه الله و يعبدون من دون الله ما لا يملك، الخ.

و قد ذكروا أن رَزَقًا مصدر و شَيْئًا مفعوله و المعنى لا يملك لهم أن يرزق شيئاً، و قيل: الرزق بمعنى المرزوق و شَيْئًا بدل منه، و قيل: إن شَيْئًا مفعول مطلق و التقدير: لا يملك شيئاً من الملك. و خير الوجوه أوسطها.

و فى الآيه رجوع الى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم و هو التوحيد و إثبات النبوه بمعنى التشريع و المعاد يجرى ذلك الى تمام أربع آيات ينهى فى اولها عن ضربهم الأمثال لله سبحانه، و يضرب فى الثانيه مثل تبين به وحدانيته تعالى فى ربوبيته، و فى الثالثه مثل يتبين به أمر النبوه و التشريع، و يتعرض فى الرابعه لأمر المعاد.

قوله تعالى: **فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** الظاهر السابق الى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعاره التمثيليه و هى إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم: إن له بنات كالإنسان، و إن الملائكه بناته، و إن بينه و بين الجنه نسبا و صهرا، و إنه كيف يحيى العظام و هى رميم الى غير ذلك، و هذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمه فى كلامه تعالى، و قد تقدم فى خلال الآيات السابقه قوله: **«الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى»**.

فالمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فلا- تصفوه سبحانه بما تشبهونه بغيره و تقيسونه الى خلقه لأن الله يعلم و أنتم لا تعلمون حقائق الامور و كنهه تعالى.

قوله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ مَا فِي الْآيَةِ مِنَ الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ** يفرض عبدا مملوكا لا يقدر على شىء، و آخر رزق من الله رزقا حسنا ينفق منه سرا و جهرا ثم يسأل هل يستويان؟ و اعتبار التقابل بين المفروضين يعطى أن كلا من الطرفين مقيد بخلاف ما فى الآخر من الوصف مع تبين الأوصاف بعضها لبعض.

فالعبد المفروض مملوك غير مالك لا لنفسه و لا لشيء من متاع الحياه و هو غير قادر على التصرف فى شيء من المال، و الذى فرض قبالة حر يملك نفسه و قد رزقه الله رزقا حسنا و هو ينفق منه سرا و جهرا و على قدره منه على التصرف بجميع أقسامه.

و قوله: هَلْ يَشْتَرُونَ سؤَالَ عَنْ تَسَاوِيهِمَا، و من البديهي أن الجواب هو نفى التساوى و يثبت به أن الله سبحانه و هو المالك لكل شيء المنعم بجميع النعم لا يساوى شيئا من خلقه و هم لا يملكون لا أنفسهم و لا غيرهم و لا يقدرُونَ على شيء من التصرف فمن الباطل قولهم: إن مع الله آلهه غيره و هم من خلقه.

و التعبير بقوله: يَشْتَرُونَ دون أن يقال: يستويان للدلاله على أن المراد من ذلك الجنس من غير أن يختص بمولى و عبد معينين كما قيل.

□  
و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ أى له عز اسمه جنس الحمد و حقيقته و هو الثناء على الجميل الاختيارى لأن جميل النعمه من عنده و لا يحمد إلا الجميل فله تعالى كل الحمد كما أن له جنسه فافهم ذلك.

□  
و قوله: يَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أى أكثر المشركين لا- يعلمون أن النعمه كلها لله لا- يملك غيره شيئا و لا يقدر على شيء بل يثبتون لأولياهم شيئا من الملك و القدره على سبيل التفويض فيعبدونهم طمعا و خوفا، هذا حال أكثرهم و أما أقلهم من الخواص فانهم على علم من الحق لكنهم يحيدون عنه بغيا و عنادا.

□  
قوله تعالى: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع: الأبكم الذى يولد أخرس لا يفهم و لا يفهم، و قيل: الأبكم الذى لا يقدر أن يتكلم و الكل الثقل يقال: كلّ عن الأمر يكلّ كلا إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه.

و كلت السكين كلولا- إذا غلظت شفرتها، و كلّ لسانه إذا لم ينبعث فى القول لغلظه و ذهاب حدّه فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ، و التوجيه: الإرسال فى وجه من الطريق، يقال:

وجّهته الى موضع كذا فتوجه اليه. انتهى.

فقوله: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ مَقَايِسَهُ أُخْرَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَفْرُوضَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ فِي أَوْصَافِهِمَا الْمَذْكُورِ.

وقوله: أَحَدُهُمَا أَبُكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ أَي محروم من أن يفهم الكلام و يفهم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع و لا ينطق فهو فاقد لجميع الفعليات و المزايا التي يكتسبها الإنسان من طريق السمع الذي هو أوسع الحواس نطاقا، به يتمكن الإنسان من العلم بأخبار من مضى و ما غاب عن البصر من الحوادث و ما في ضمائر الناس و يعلم العلوم و الصناعات، و به يتمكن من إلقاء ما يدركه من المعاني الجليله و الدقيقه الى غيره، و لا يقوى الأبكم على درك شيء منها إلاّ النزر اليسير مما يساعد عليه البصر بإعانه من الإشارة.

فقوله: لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مَخْصَصٌ عَمُومَهُ بِالْأَبْكَمِ أَي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرِ الْأَبْكَمِ وَ هُوَ جَمَلُهُ مَا يَحْرَمُهُ الْأَبْكَمُ مِنْ تَلْقَى الْمَعْلُومَاتِ وَ إِقَائِهَا.

وقوله: وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَي ثَقْلٌ وَ عِيَالٌ عَلَى مَنْ يَلِي وَ يَدْبِرُ أَمْرَهُ فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْبِرَ أَمْرَ نَفْسِهِ، وَ قَوْلُهُ: «أَيْنَمَا يُوجَّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ» أَي إِلَى أَي جَهِّهِ أَرْسَلَهُ مَوْلَاهُ لِحَاجَتِهِ مِنْ حَوَائِجِ نَفْسِهِ أَوْ حَوَائِجِ مَوْلَاهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى رَفْعِهَا فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعُ غَيْرَهُ كَمَا لَا يَنْفَعُهُ نَفْسُهُ، فَهَذَا أَعْنَى قَوْلِهِ: «أَحَدُهُمَا أَبُكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ» النخ؛ مثل أحد الرجلين، و لم يذكر سبحانه مثل الآخر لحصول العلم به من قوله: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» النخ؛ و فيه إيجاز لطيف.

وقوله: هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فيه إشارة الى وصف الرجل المفروض و سؤال عن استوائهما إذا قوبس بينهما و عدمه.

أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير و الكمال الذي يحلى نفسه و يعدو الى غيره و هو العدل الذي هو التزام الحد الوسط في الأعمال و اجتناب

الإفراط و التفریط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه أن يتمكن الصلاح من نفس الانسان ثم ينسبط على أعماله فيلتزم الاعتدال في الامور ثم يجب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل و هو- كما عرفت-مطلق التجنب عن الإفراط و التفریط أى العمل الصالح أعم من العدل فى الرعيه.

ثم وصفه بقوله: وَ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَاضِحُ الَّذِي يَهْدِي سَالِكِيهِ إِلَىٰ غَايَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ عَوْجٍ، و الانسان الذى هو فى مسير حياته على صراط مستقيم يجرى فى أعماله على الفطره الانسانيه من غير أن يناقض بعض أعماله بعضاً أو يتخلف عن شىء مما يراه حقاً، و بالجمله لا تخلف و لا اختلاف فى أعماله.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الغيب يقابل الشهاده فى إطلاقات القرآن الكريم و قد تكرر فيه «عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» و قد تقدم مرارا أنهما أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب و غائب بالنسبه الى شىء و شهاده و مشهود بالنسبه الى آخر.

و إذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره و يخفى ببعض أعنى أنه متضمن غيباً و شهاده كانت إضافه الغيب و الشهاده الى الشىء تاره بمعنى اللام فيكون مثلاً غيب السماوات و الأرض ما هو غائب عنهما خارج من حدودهما، و يلحق بهذا الباب الإضافه لنوع من الاختصاص، كما فى قوله: فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (الجن ٢٦).

و تاره بمعنى «من» أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات و الأرض الغيب الذى يشتملان عليه نوعاً من الاشتمال قبال ما يشتملان عليه من الشهاده و بعباره اخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منهما.

و الساعه هى من غيب السماوات و الأرض بهذا المعنى الثانى.

فقوله: وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى بالنسبه اليه و إلا

فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير و وصفها بأوصاف لا يعادلها فيها غيرها، قال تعالى: ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (الأعراف/١٨٧).

و تشبيه أمرها بلمح البصر إنما هو من جهة أن اللمحة و هي مدّ البصر و إرساله للرؤية أخف الأعمال عند الإنسان و أقصرها زمانا فهو تشبيه بحسب فهم السامع و لذلك عقبه بقوله:

«أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول: إن أمرها في خفه المؤنه و الهوان و السهولة بالنسبه الينا يشبه لمح أحدكم ببصره، و إنما أشبهه به رعايه لحالكم و تقريبا الى فهمكم و إلا فالأمر أقرب من ذلك، كما قال فيها: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (الأنعام/٧٣)، فأمر الساعه بالنسبه الى قدرته و مشيئته تعالى كأمر أيسر الخلق و أهونه.

و علل تعالى ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فقدترته على كل شيء توجب أن تكون الأشياء بالنسبه اليه سواء.

و إياك أن تتوهم أن عموم القدره لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبه، فقله الاسباب المتوسطه بين الفاعل و فعله و الشرائط و الموانع و كثرتها لهما تأثير في ذلك لا محاله، فالإنسان مثلا قادر على التنفس و حمل ما يطيقه من الاثقال و ليسا سواء بالنسبه اليه و على هذا القياس.

## [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٨ الى ٨٩]

### إشاره

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِّنْ أَصْوَابِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَ جَعَلَ لَكُم سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتِ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَآلَقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَ آلَقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ زَٰنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)





قوله تعالى: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا إِلَى آخِرِ آيَةِ. الامهات جمع أم و الهاء زائده نظير إهراق و أصله أراق و قد تأتي أمات، وقيل: الامهات فى الانسان و الامات فى غيره من الحيوان، و الأفئدة جمع قله للفؤاد و هو القلب و اللب، و لم يبين له جمع كثره.

و قوله: أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ إشاره الى التولد و «لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا» حال من ضمير الخطاب أى أخرجكم من أرحامهن بالتولد و الحال أن نفوسكم خاليه من هذه المعلومات التى أحرزتموها من طريق الحس و الخيال و العقل بعد ذلك.

و الآيه تؤيد ما ذهب اليه علماء النفس أن لوح النفس خاليه عن المعلومات أول تكونها ثم تنتقش فيها شيئاً فشيئاً - كما قيل - وهذا فى غير علم النفس بذاتها فلا يطلق عليه عرفاً «يعلم شيئاً» و الدليل عليه قوله تعالى فى خلال الآيات السابقه فيمن يردّ الى أرذل العمر: «لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا» فإن من الضرورى أنه فى تلك الحال عالم بنفسه.

و احتج بعضهم بعموم الآيه على أن العلم الحضورى يعنى به علم الإنسان بنفسه كسائر العلوم الحصيليه مفقود فى بادئ الحال حادث بعد ذلك ثم ناقش فى أدله كون علم النفس بذاتها حضورياً مناقشات عجيبه.

و فيه أن العموم منصرف الى العلم الحصولى و يشهد بذلك الآيه المتقدمه.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إشاره الى مبادئ العلم الذى أنعم بها على الإنسان فمبدأ التصور هو الحس، و العمده فيه السمع و البصر و إن كان هناك غيرهما من اللمس و الذوق و الشم، و مبدأ الفكر هو الفؤاد.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ الخ؛ قال في المجمع: الجو الهواء البعيد من الأرض. انتهى. يقول: أ لم ينظروا الى الطير حال كونها مسخرات لله سبحانه في جو السماء و الهواء البعيد من الأرض، ثم استأنف فقال مشيرا الى ما هو نتيجة هذا النظر: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» .

و إثبات الإمساك لله سبحانه و نفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعیه هناك مؤثره في ذلك و كلامه تعالى يصدق ناموس العليه و المعلوليه إنما هو من جهه أن توقف الطير في الجو من دون أن تسقط كيفما كان و إلى أى سبب استند هو و سببه و الرابطه التي بينهما جميعا مستنده الى صنعه تعالى فهو الذى يفيض الوجود عليه و على سببه و على الرابطه التي بينهما فهو السبب المفيض لوجوده حقيقه و إن كان سببه الطبيعي القريب معه يتوقف هو عليه.

و معنى توقفه في وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد وجود نفسه منه تعالى بل إن هذا المسبب يتوقف في أخذه الوجود منه تعالى الى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك، و قد تقدم بعض الكلام في توضيح ذلك من قريب.

و هذا معنى توحيد القرآن، و الدليل عليه من جهه لفظه أمثال قوله: <sup>□</sup>أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف ٥٤)، و قوله: <sup>□</sup>أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥)، و قوله: <sup>□</sup>اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)، و قوله: <sup>□</sup>إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل ٧٧).

و الدليل على ما قدمناه في معنى النفي و الإثبات في الآيه قوله تعالى: «مُسَخَّرَاتٍ» فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر في فعله على ما يريده السبب القاهر ففي لفظه دلالة على أن للمقهور نوعا من السببيه.

و ليس طيران الطائر في جو السماء بالحقيقه بأعجب من سكون الإنسان في الأرض فالجميع ينتهى الى صنعه تعالى على حد سواء لكن ألفه الإنسان لبعض الامور و كثره عهده به توجب خمود قريحه البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه و كثر عهده به كالمستثنى من

الكليه انتبه لذلك و انتزعت القريحه للبحث عنه و الإنسان يرى الأجسام الأرضيه الثقيله معتمده على الأرض مجذوبه إليها فإذا وجد الطير مثلا- تنقض كليه هذا الحكم بطيرانها تعجب منه و انبسط للبحث عنه و الحصول على علتة،و للحق نصيب من هذا البحث و هذا هو أحد الأسباب فى أخذ هذا النوع من الامور فى القرآن مواد للاحتجاج.

□ و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى فى كونها مسخرات فى جو السماء فإن للطير و هو فى الجو دفيفا و صفيفا و بسطا لأجنتها و قبضا و سكونا و انتقالا و صعودا و نزولا و هى جميعا آيات لقوم يؤمنون كما ذكره الله.

□ قوله تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا الى آخر الآيه؛ فى المفردات:

البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال: بات أقام بالليل كما يقال: ظل بالنهار. ثم قد يقال:

للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، و جمعه أبيات و بيوت لكن البيوت بالمسكن أخص و الأبيات بالشعر، قال: و يقع ذلك على المتخذ من حجر و مدر و صوف و وبر. انتهى موضع الحاجه.

و السكن ما يسكن اليه، و الظعن الارتحال و هو خلاف الإقامة، و الصوف للضأن و الوبر للإبل كالشعر للإنسان و يسمى ما للمعز شعرا كالإنسان، و الأثاث متاع البيت الكثير و لا- يقال للواحد منه أثاث، قال فى المجمع: و لا- واحد للأثاث كما أنه لا واحد للمتاع. انتهى.

و المتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما يتمتع به و لا يختص بما فى البيت.

□ و قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا أى جعل لكم بعض بيوتكم سكنا تسكنون اليه، و من البيوت ما لا يسكن اليه كالمستخدم لادخار الأموال و اختزان الأمتعه و غير ذلك و قوله: «وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا» الخ؛ أى من جلودها بعد الدبغ و هى الأنطاع و الأدم «بُيُوتًا» و هى القباب و الخيام «تَسْتَخِفُّونَهَا» أى تعدونها خفيفه من جهه الحمل «يَوْمَ ظَغْنِكُمْ» و ارتحالكم «وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ» من غير سفر و ظعن.

وقوله: «مِنْ أَضْوَابِهَا» وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا الخ؛ معطوف على موضع «مِنْ جُلُودٍ» أى و جعل لكم «مِنْ أَضْوَابِهَا» و هى للضأن و «أَوْبَارِهَا» و هى للابل «وَأَشْعَارِهَا» و هى للمعز «أَثَانًا» تستعملونه فى بيوتكم «وَمَتَاعًا» تتمتعون به «إِلَى حِينٍ» محدود، قيل:

و فيه إشاره الى أنها فانيه دائره فلا ينبغى للعاقل أن يختارها على نعيم الآخره.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظرفان أعنى قوله: «لَكُمْ» و «مِمَّا خَلَقَ» متعلقان بجعل و تعليق الظلال بما خلق لكونها أمرا عدميا محققا بتبع غيره و هى مع ذلك من النعم العظيمة التى أنعم الله بها على الإنسان و سائر الحيوان و النبات فما الانتفاع بالظل للإنسان و غيره بأقل من الانتفاع بالنور و لو لا الظل و هو ظل الليل و ظل الأبنية و الأشجار و الكهوف و غيرها لما عاش على وجه الأرض عائش.

وقوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا الْكُنَّ» ما يستتر به الشئ حتى أن القميص كن للابسه، و أكنان الجبال هى الكهوف و الثقب الموجوده فيها.

وقوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ سِيْرًا بَيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ» أى قميصا يحفظكم من الحر، قال فى المجمع: و لم يقل: و تقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد، و إنما خص الحر بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر فى بلادهم فحاجتهم الى ما يقى الحر أكثر، عن عطاء.

قال: على أن العرب يكتفى بذكر أحد الشئيين عن الآخر للعلم به قال الشاعر:

و ما أدرى إذا يمت أرضا

أريد الخير أيهما يلينى

فكنى عن الشر و لم يذكره لأنه مدلول عليه، ذكره الفراء انتهى.

و لعل بعض الوجه فى ذكره الحر و الاكتفاء به أن البشر الأولى يسكنون المناطق الحاره من الأرض فكان شدة الحر أمس بهم من شدة البرد و تنبهم لاتخاذ السراويل إنما هو للاتقاء مما كان الابتلاء به أقرب اليهم و هو الحر و الله أعلم.

و قوله: وَ سَرَّابِيلٌ تَقِيكُم بِأَسْكَمَ الظاهر أن المراد به درع الحديد و نحوه.

و قوله: كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ امتنان عليهم بإتمام النعم التي ذكرها، و كانت الغايه المرجوه من ذلك إسلامهم لله عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم و إتمامها عليه أن يسلم لإرادته منعمه و لا يقابله بالاستكبار لأن منعما هذا شأنه لا يريد به سوء.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ قال فى المجمع: البلاغ الاسم و التبليغ المصدر مثل الكلام و التكليم، انتهى.

لما فرغ عن ذكر ما أريد ذكره من النعم و الاحتجاج بها ختمها بما مدلوها العتاب و اللوم و الوعيد على الكفر و يتضمن ذكر وحدانيته تعالى فى الربوبية و المعاد و النبوه، و بدأ ذلك ببيان وظيفه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى رسالته و هو البلاغ فقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى يتفرع على هذا البيان الذى ليس فيه إلا دعوتهم الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا و أعرضوا عن الإصغاء اليه و الاهتداء به «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» و التبليغ الواضح الذى لا إبهام فيه و لا ستر عليه لأنك رسول و ما على الرسول إلا ذلك.

و فى الآيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و بيان وظيفه له.

قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ المعرفة و الإنكار متقابلان كالعلم و الجهل و هذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار و هو عدم المعرفة لانزم معناه و هو الإنكار فى مقام العمل و هو عدم الإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر أو الجحود لسانا مع معرفتها قلبا، لكن قوله: «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» يخص الجحود بأكثرهم كما سيجىء فىبقى للإنكار المعنى الأول.

و قوله: وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ دخول اللام على «الْكَافِرُونَ» يدل على الكمال أى إنهم كافرون بالنعم الإلهيه أو بما تدل عليه من التوحيد و غيره جميعا لكن أكثرهم كاملون فى

كفرهم و ذلك بالجحود عنادا و الإصرار عليه و الصدّ عن سبيل الله.

و المعنى: يعرفون نعمه الله بعنوان أنها نعمه منه و مقتضاه أن يؤمنوا به و برسوله و اليوم الآخر و يسلموا فى العمل إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفة، و أكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملى بل يزيّدون عليه بكمال الكفر و العناد مع الحق و الجحود و الإصرار عليه.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ قَالَ فى المجمع: قال الزخّاج: و العتب الموجد يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فوضه ما عتب عليه قالوا: عتابه، و إذا رجع الى مسرّته قيل: أعتب، و الاسم العتبي و هو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العتاب، و استعته طلب منه أن يعتب. انتهى.

و قوله: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم القيامة، و بهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمه، شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمال أمتهم فى الدنيا و هم يستشهد بهم و يشهدون عليهم يوم القيامة، و قد تقدم بعض الكلام فى معنى هذه الشهادة فى تفسير قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١٤٣) فى الجزء الأول من الكتاب.

و لا دلالة فى لفظ الآية على أن المراد بشهيد الامه نبيها، و لا أن المراد بالامه أمه الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبي من أمته كالإمام شهيدا كما يدلّ عليه آيه البقره السابقه و قوله تعالى: وَ جِئَءَ بِالْبَنِيِّنَ وَ الشُّهَدَاءِ (الزمر ٦٩)، و على هذا فالمراد بكل أمه أمه الشهيد المبعوث و أهل زمانه.

و قوله: ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ذكر بعث شهداء الامم دليل على أنهم يشهدون على أممهم بما عملوا فى الدنيا، و قرينه على أن المراد من نفى الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم فى الكلام و هو الاعتذار لا محاله، و نفى الإذن فى الكلام إنما هو تمهيد

لأداء الشهود شهادتهم كما تلوح إليه آيات أخر كقوله: **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ** (يس ٦٥)، و قوله: **هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤَذِّنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ** (المرسلات ٣٦).

على أن سياق قوله: **«ثُمَّ لَا يُؤَذِّنُ»** الخ؛ يفيد أن المراد بهذا الذى ذكر نفى ما يتقى به الشر يومئذ من الحيل و بيان أنه لا سبيل الى تدارك ما فات منهم و إصلاح ما فسد من أعمالهم فى الدنيا يومئذ و هو أحد أمرين: الاعتذار أو استئناف العمل، أما الثانى فيتكفله قوله: **«وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»** و لا يبقى للأول و هو الاعتذار بالكلام إلا قوله: **«ثُمَّ لَا يُؤَذِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا»** .

قوله تعالى: **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** كانت الآية السابقة بالحقيقه مسوقه لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذى هو يوم القيامة و بين سائر ظروف الجزاء فى الدنيا بأن جزاء يوم القيامة لا- يرتفع و لا- يتغير باعتذار و لا باستعتاب، و هذه الآية بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيويه التى تتعلق بالظالمين فى الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير ما و عذاب يوم القيامة لا يقبل تخفيفا و لا إنظارا.

فقوله: **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ** ذكر الظلم فى الصلحه دون الكفر و نحوه للدلاله على سبب الحكم و ملاكه، و المراد برؤيه العذاب إشرافه عليهم و إشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيد السياق، و المراد بالعذاب عذاب يوم القيامة و هو عذاب النار. و المعنى- و الله أعلم- و إذا قضى الأمر بعذابهم و أشرفوا على العذاب بمشاهده النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار و إمهال.

قوله تعالى: **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ مَضَىٰ فِي حَدِيثِ يَوْمِ الْبَعْثِ، وَقَوْلِهِ: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا»** و هم فى عرف القرآن عبده الأصنام

و الأوثان قرينه على أن المراد بقوله: «شُرَكَاءُهُمْ» الذين أشركوهم بالله زعما منهم أنهم شركاء لله و افتراء و يدل أيضا عليه ذيل الآيه و الآيه التاليه.

فتسميتهم شركاءهم و هم يسمونهم شركاء الله للدلاله بها على أن ليس لهم من الشركه إلا الشركه بجعلهم بحسب وهمهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقه إلا أنها لا حقيقه لها.

و قوله: قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ معناه ظاهر و هو تعريف منهم إياهم لربهم، و لا حاجه الى البحث عن غرض المشركين فى تعريفهم فى اليوم يوم أحاط بهم الشقاء و العذاب من كل جانب، و الانسان فى مثل ذلك يلوى الى كل ما يخطر بباله من طرق السعى فى خلاص نفسه و تنفيس كربه.

و قوله: فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ قال فى المجمع: تقول: ألقىت الشئ إذا طرحته، و اللقى الشئ الملقى، و ألقىت اليه مقاله إذا قلتها له، و تلقاها إذا قبلها، انتهى.

و المعنى: أن شركاءهم ردوا اليهم و كذبوهم، و قد عبّر سبحانه فى موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (فاطر ١٤) و قوله حكايه عن مخاطبه الشيطان لهم يوم القيامة: إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم ٢٢).

قوله تعالى: وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ السلم الإسلام و الاستسلام، و كأن فى التعبير بإلقاء السلم إشارة الى انضمام شئ من الخضوع و المقهوريه بالقهر الإلهى الى سلمهم.

و ضمير «أَلْقُوا» عائد الى الذين أشركوا بقرينه قوله بعد: «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فالمراد أن المشركين يسلمون يوم القيامة لله و قد كانوا يدعون الى الاسلام فى الدنيا و هم يستكبرون.



و الآيه المبحوث عنها أعنى قوله: وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ صدرها يشير الى إسلامهم و ذيلها الى كون ذاك الإسلام اضطراريا لا ينفعهم لأنهم كانوا يرون لله ألوهيه و لشركائهم ألوهيه فاختاروا تسليم شركائهم و عبادتهم على التسليم لله ثم لما ظهر لهم الحق يوم القيامة و كذبهم شركائهم بطل ما زعموه و ضل عنهم ما افتروه فلم يبق للتسليم إلا الله سبحانه فسلموا له مضطرين و انقادوا له كارهين.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ استئناف متعرض لحال أئمة الكفر بالخصوص بعد ما أشار الى حال عامه الظالمين و المشركين فى الآيات السابقه.

و السامع إذا سمع ما شرحه الله من حالهم يوم القيامة فى هذه الآيات و أنهم معذبون جميعا من غير أن يخفف عنهم أو ينظروا فيه، و قد سمع منه أن منهم طائفه هم أشد كفرا و أشقى من غيرهم إذ يقول «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» خطر بباله طبعاً أنهم هل يساوون غيرهم فى العذاب الموعود و هم يزيدون عليهم فى السبب و هو الكفر.

فاستؤنف الكلام جواباً عن ذلك فقيل «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» بالعناد و اللجاج فأكملوا فى الكفر و اقتدى بهم غيرهم «زِدْنَاهُمْ عَذَابًا» و هو الذى للصد و هم يختصون به «فَوْقَ الْعَذَابِ» و هو الذى بإزاء مطلق الظلم و الكفر و يشاركون فيه عامه إخوانهم، و كأن اللام فى العذاب للعهد الذكري يشار بها الى ما ذكر فى قوله: «وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ» الخ؛ «بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ» تعليل لزياده العذاب.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الخ؛ صدر الآيه تكرر ما تقدم قبل بضع آيات من قوله: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا» غير أنه كان هناك توطئه و تمهيدا لحديث عدم الإذن لهم فى الكلام يومئذ، و هو هاهنا توطئه و تمهيد لذكر شهادته صلى الله عليه و آله و سلم لهؤلاء يومئذ و هو فى الموضعين مقصود

لغيره لا لنفسه.

و كيف كان فقوله: «و يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» يدل على بعث واحد في كل أمة للشهادة على أعمال غيره و هو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث، و إنما جعل من أنفسهم ليكون أتم للحججه و أقطع للمعذره كما يفيد السباق و ذكره المفسرون حتى أنهم ذكروا شهادة لوط على قومه و لم يكن منهم نسبا و وجهوه بأنه كان تأهل فيهم و سكن معهم فهو معدود منهم.

و قوله: وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ يفيد أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ شهيد على هؤلاء، و استظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته، و أيضا إنهم قاطبه من بعث اليه من لدن عصره الى يوم القيامة ممن حضره و من غاب و من عاصره و من جاء بعده من الناس.

و آيات الشهاده من معضلات آيات القيامة على ما في جميع آيات القيامة من الإعضال و صعوبه المنال، و قد تقدم في ذيل قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١٤٣/١) في الجزء الأول من الكتاب نبذه من الكلام في معنى هذه الشهاده (١).

و قوله: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصفته العامه أنه تبيان لكل شيء و التبيان و البيان واحد- كما قيل- و إذ كان كتاب هدايه لعامه الناس و ذلك شأنه كان الظاهر أن المراد بكل شيء كل ما يرجع الى أمر الهدايه مما يحتاج اليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقه المتعلقه بالمبدئ و المعاد و الأخلاق الفاضله و الشرائع الإلهيه و القصص و المواعظ فهو تبيان لذلك كله.

ص: ٦١٠

إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَ أَوْفُوا  
 بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا  
 كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةَ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ  
 لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ لَنَشِئَنَّ  
 عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَ لَا تَتَّخِذُوا آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعِيدٌ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ  
 عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَ لَا تَشْرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ  
 بَاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً  
 وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ  
 عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ  
 آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا آتَاكُمْ بُرْهَانٌ لَكُمْ أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ  
 آمَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ  
 عَرَبِيٌّ مُسْنِنٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
 بِالْآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

## بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ابْتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني لما أن

ص: ٦١٢

صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الاسلام فى تعاليمه المصلحه فإن أهم الأشياء عند الانسان فى نظر الطبيعه و إن كان هو نفسه الفرديه، لكن سعادته الشخص مبنيه على صلاح الظرف الاجتماعى الذى يعيش هو فيه، و ما أصعب أن يفلح فرد فى مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب.

و لذلك اهتم فى إصلاح المجتمع اهتماما لا- يعادله فيه غيره و بذل الجهد البالغ فى جعل الدساتير و التعاليم الدينيه حتى العبادات من الصلاه و الحج و الصوم اجتماعيه ما أمكن فيها ذلك، كل ذلك ليستصلح الإنسان فى نفسه و من جهة ظرف حياته.

□  
ف قوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ و يقابله الظلم، قال فى المفردات: العداله و المعادله لفظ يقتضى معنى المساواه، و يستعمل باعتبار المضايقه، و العدل-بفتح العين- و العدل-بكسرها- يتقاربان لكن العدل-بفتح العين- يستعمل فيما يدرك بالبصيره كالأحكام، و على ذلك قوله تعالى: «أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِدْقًا» و العدل-بكسر العين- و العدل فيما يدرك بالحاسه كالموزونات و المعدودات و المكيلات، فالعدل هو التقسيط على سواء.

قال: و العدل ضربان: مطلق يقتضى العقل حسنه، و لا يكون فى شىء من الأزمنه منسوخا و لا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان الى من أحسن اليك و كف الأذى عنك ككف أذاه عنك، و عدل يعرف كونه عدلا بالشرع و يمكن أن يكون منسوخا فى بعض الأزمنه كالقصاص و اروش الجنایات و أصل مال المرتد، و لذلك قال: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ»، و قال: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» فسمى اعتداء و سيئه.

□  
و هذا النحو هو المعنى بقوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ فَإِنَّ الْعَدْلَ هُوَ الْمَسَاوَاهُ فِى الْمَكَافَاهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، و الإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه و الشر بأقل منه، انتهى موضع الحاجه.

و قوله: وَ الْإِحْسَانِ الْكَلَامُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ اقْتِضَاءُ السِّيَاقِ كَسَابِقِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ

الإحسان الى الغير دون الإحسان بمعنى إتيان الفعل حسنا، و هو إيصال خير أو نفع الى غير لا على سبيل المجازاه و المقابله كأن يقابل الخير بأكثر منه و يقابل الشر بأقل منه- كما تقدم- و يوصل الخير الى غير متبرعا به ابتداء.

و الإحسان على ما فيه من إصلاح حال من أذلت المسكنه و الفاقه أو اضطرته النوازل، و ما فيه من نشر الرحمه و إيجاد المحبه يعود محمود أثره الى نفس المحسن بدوران الثروه فى المجتمع و جلب الأمن و السلامه بالتحبيب.

و قوله: «وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ» أى إعطاء المال لذوى القرباه و هو من أفراد الإحسان خص بالذكر ليدل على مزيد العناية بإصلاح هذا المجتمع الصغير الذى هو السبب بالحقيقه لانعقاد المجتمع المدنى الكبير كما أن مجتمع الازدواج الذى هو أصغر بالنسبه الى مجتمع القرباه سبب مقدم مكون له فالمجتمعات المدنيه العظيمة إنما ابتدأت من مجتمع بيتى عقده الازدواج ثم بسطه التوالد و التناسل و وسعه حتى صار قبيله و عشيره و لم يزل يتزايد و يتكاثر حتى عادت امه عظيمه فالمراد بذى القربى الجنس دون الفرد و هو عام لكل قرباه كما ذكروه.

و فى التفسير المأثور عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن المراد بذى القربى الإمام من قربه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم، و المراد بالإيتاء إعطاء الخمس الذى فرضه الله سبحانه فى قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ الْآيَه (الأنفال / ٤١) و قد تقدم تفسيرها.

و لعل التعبير بالإفراد حيث قيل ذى القُربى و لم يقل: ذوى القربى أو اولى القربى كما فى قوله: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينُ (النساء ٨/)، و قوله:

وَ آتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ (البقره ١٧٧/) يؤيد ذلك.

و احتمال إرادته الجنس من ذى القربى يبعده ما وقع فى سياق آيه الخمس من ذكر اليتامى و المساكين معه بصيغه الجمع مع عدم ظهور نكته يختص بها ذوى القربى أو اليتامى و المساكين

على أن الآيه لا قرينه واضحه فيها على كون المراد بالإيتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان. والله أعلم.

قوله تعالى: **وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** قال فى المفردات: الفحش و الفحشاء و الفاحشه ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال. انتهى و لعل الأصل فى معناه الخروج عن الحد فيما لا ينبغى يقال: غبن فاحش أى خارج عن حد التحمل و الصبر و السكوت.

و المنكر ما لا يعرفه الناس فى مجتمعهم من الأعمال التى تكون متروكه عندهم لقبحها أو إثمها كالمواقعه أو كشف العوره فى مشهد من الناس فى المجتمعات الإسلاميه.

و البغى الأصل فى معناه الطلب و كثر استعماله فى طلب حق التغير بالتعدى عليه فيفيد معنى الاستعلاء و الاستكبار على الغير ظلما و عتوا، و ربما كان بمعنى الزنا و المراد به فى الآيه هو التعدى على الغير ظلما.

قوله تعالى: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوْكِيدِهَا** الخ؛ قال فى المفردات: العهد حفظ الشىء و مراعاته حالا. بعد حال، و سمي الموثق الذى يلزم مراعاته عهدا. قال: و عهد فلان الى فلان يعهد أى ألقى اليه العهد و أوصاه بحفظه، انتهى.

و ظاهر إضافه العهد الى الله تعالى فى قوله: **«وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ»** أن المراد به هو العهد الذى يعاهد فيه الله على كذا دون مطلق العهد و يأتى نظير الكلام فى نقض اليمين.

و قوله: **«وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوْكِيدِهَا»** نقض اليمين نكته و مخالفه مقتضاه و المراد باليمين هو اليمين بالحلف بالله سبحانه كأن ما عدا ذلك ليس بيمين و الدليل عليه قوله بعد: **«وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا»**.

و المراد بتوكيدها إحكامها بالقصد والعزم و كونها لأمر راجح بخلاف قولهم: لا- و الله و بلى و الله و غيره من لغو الأيمان، فالتوكيد فى هذه الآيه يفيد ما يفيدته التعقيد فى قوله تعالى: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ (المائدہ ۸۹).

و نقض اليمين بحسب الاعتبار أشنع من نقض العهد و إن كان منها عنهما جميعا على أن العنايه بالحلف فى الشرع الاسلامى أكثر كما فى باب القضاء.

و بهذا يظهر معنى قوله تعالى: وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا فَإِنِ الحَالِفِ إِذَا قَالَ: وَ اللَّهُ لِأَفْعَلَنَّ كَذَا أَوْ لِأَتْرُكَنَّ كَذَا فَقَدْ عَقَّ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ نَوْعًا مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ جَعَلَهُ كَفِيلًا عَنْهُ فِي الْوَفَاءِ بِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ الْيَمِينَ، فَإِنِ نَكَثَ وَ لَمْ يَفِ كَانَ لِكَفِيلِهِ أَنْ يُؤَدِّيَهُ إِلَى الْجَزَاءِ وَ الْعُقُوبَةِ، فَفِي نَكَثِ الْيَمِينَ إِهَانَهُ وَ إِرْزَاءَ بِسَاحَةِ الْعِزَّةِ وَ الْكِرَامَةِ مُضَافًا إِلَى مَا فِي نَقْضِ الْيَمِينَ وَ الْعَهْدِ مَعَ مِنَ الْإِنْقِطَاعِ وَ الْإِنْفِصَالِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِ الْإِتِّصَالِ.

فقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ» الخ؛ حال من ضمير الجمع فى قوله: «وَ لَا تَنْقُضُوا» و قوله: «وَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِمَا يَفْعَلُونَ» فى معنى تأكيد النهى بأن العمل مبغوض و هو به عليم.

قوله تعالى: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضُوا عَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ النقص و يقابله الإبرام إفساد ما أحكم من حبل أو غزل بالقتل فنقض الشيء المبرم كحل الشيء المعقود، و النكث النقص، قال فى المجمع: و كل شيء نقض بعد القتل فهو أنكاث حبل- كان أو غزلا، و الدخل بفتحيتين فى الاصل كل ما دخل الشيء و ليس منه، و يكنى به عن الدغل و الخدعه و الخيانه، كما قيل: و أربى أفعال من الربا و هو الزيادة.

و قوله: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضُوا عَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا فى معنى التفسير لقوله فى الآيه السابقه: «وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» و هو تمثيل بمرأه تغزل الغزل بقوه ثم تعود فتنقض ما أتبع نفسها فيه و غزله من بعد قوه و تجعله أنكاثا لا قتل فيه و لا إبرام.



و نقل عن الكلبي أنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواربها الى انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن و لا يزال ذلك دابها، و اسمها ريطه بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مره، و كانت تسمى خرقاء مكه.

و قوله: **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ أَى تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ وَسِيلَهُ لِلْغَدْرِ وَ الْخُدْعَةِ وَ الْخِيَانَةِ تَطِيبُونَ بِهَا نَفُوسَ النَّاسِ ثُمَّ تَخُونُونَ وَ تَخْدَعُونَهُمْ بِنَقْضِهَا، وَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِتَكُونَ أُمَّةٌ - وَ هُمُ الْحَافُونَ - أَرْبَىٰ وَ أَزِيدُ سَهْمًا مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا مِنْ أُمَّةٍ - وَ هُمُ الْمَحْلُوفُ لَهُمْ - .**

فالمراد بالدخل وسيلته من تسميه السبب باسم المسبب و «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ» مفعول له بتقدير اللام، و الكلام نوع بيان لنقض اليمين أو لكونهم كالتى نقضت غزلها من بعد قوه أنكاثا، و محصل المعنى أنكم كمثلها إذ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم فتؤكدونها و تعقدونها ثم تخونون و تخدعون بنقضها و نكثها و الله ينهاكم عنه.

و ذكر بعضهم أن قوله: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ» الخ؛ جملة استفهاميه محذوفه الأداة و الاستفهام للإنكار.

و قوله: **إِنَّمَا يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ بِهَ الْخ؛ أَى إِنْ ذَلِكَ امْتِحَانٌ إلهى يمتحنكم به و أقسم لِيَتَّبِعَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَتَعْلَمُونَ عِنْدَ ذَلِكَ مَا حَقِيقَتُهُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ مِنَ التَّكَالِبِ عَلَى الدُّنْيَا وَ سَلُوكِ سَبِيلِ الْبَاطِلِ لِإِمَاطَةِ الْحَقِّ وَ دَحْضِهِ وَ يَتَّبِعَنَّكُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ هُوَ الضَّالُّ وَ مَنْ هُوَ الْمُهْتَدَى.**

قوله تعالى: **وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ الخ؛** لما انجز الكلام الى ذكر اختلافهم عقب ذلك بيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهي فى خلقهم و لا أنهم معجزون له سبحانه و لو شاء لجعلهم أمة واحدة لا اختلاف بينهم و لكن الله سبحانه جعلهم مختلفين بالهدايه و الإضلال فهدى قوما

و أضلّ آخرين.

و ذلك أنه تعالى وضع سعادته الانسان و شقائه على أساس الاختيار و عرفهم الطاعة المفضية الى غايه السعاده و المعصيه المؤديه الى غايه الشقاء فمن سلك مسلك المعصيه و اجتاز للضلال جازاه الله ذلك، و من ركب سبيل الطاعة و اختار الهدى جازاه الله ذلك و سيسألهم جميعا عما عملوا و اختاروا.

و أن قوله: **وَ لَتَسْتِئْتَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** لدفع ما يسبق الى الوهم أن استناد الضلال و الهدى اليه سبحانه يبطل تأثير اختيارهم في ذلك و تبطل بذلك رساله و تلغو الدعوه فاجيب بأن السؤال باق على حاله لما أن اختياركم لا يبطل بذلك بل الله سبحانه يمد لكم من الضلال و الهدى ما أنتم تختارونه بالركون الى معصيته أو بالإقبال الى طاعته.

قوله تعالى: **وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعِيدَ ثُبُوتِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**؛ قال في المفردات: الصدود و الصد قد يكون انصرافا عن الشيء و امتناعا نحو «يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» و قد يكون صرفا و منعا نحو «وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». انتهى.

و الآيه نهى عن اتخاذ الأيمان دخلا بعد النهي عن أصل نقض الأيمان لأن لخصوص اتخاذها دخلا مفسده مستقلة هي ملاك النهي غير المفسده التي لأصل نقض الأيمان و قد أشار الى مفسده أصل النقض بقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» الخ؛ و يشير في هذه الآيه الى مفسده اتخاذها دخلا بقوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

و قوله: **وَ تَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** معطوف على قوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا» الخ؛ و بيان نتيجته كما أنه بيان نتيجته و عاقبه لقوله: «تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا» و بذلك يظهر أن قوله: «بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ» بمنزله التفسير لقوله:

«فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا».

و المراد بالصدود عن سبيل الله الإعراض و الامتناع عن السنه الفطريه التى فطر الله الناس عليها و دعت الدعوه النبويه إليها من التزام الصدق و الاستقامه و رعايه العهود و المواثيق و الأيمان و التجنب عن الدغل و الخدعه و الخيانه و الكذب و الزور و الغرور.

و المراد بذوق السوء العذاب، و قوله: «وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» حال عن فاعل «تَذُوقُوا» و يمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلاله السيئه فى الدنيا، و قوله: «وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» إخبارا عما يحل بهم فى الآخره، هذا ما يستفاد من ظاهر الآيه الكريمه.

فالمعنى: و لا تتخذوا أيمانكم و سيله دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك الى الزوال عما ثبتم عليه و نقض ما أبرمتموه، و فيه إعراض عن سبيل الله الذى هو التزام الفطره و التحرز عن الغدر و الخدعه و الخيانه و الدغل و بالجمله الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها، و يؤديكم ذلك الى أن تذوقوا السوء و الشقاء فى حياتكم الدنيا و لكم عذاب عظيم فى الاخرى.

قوله تعالى: «وَ لَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» قال فى المفردات: كل ما يحصل عوضا عن شىء فهو ثمنه، انتهى.

و الظاهر أن الآيه نهى عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك فى نقض الأيمان، و الآيه مطلقه، و المراد بعهد الله العهد الذى عوهد به الله مطلقا، و المراد بالاشتراء به ثمنا قليلا بقرينه ذيل الآيه أن يبذل العهد من شىء من حطام الدنيا فينقض لنيه فسمى المبدل منه ثمنا لأنه عوض كما تقدم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ» فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه: «ما عند الله هو خير لكم» و قد وجهه بأن الذى عندكم أى فى الحياه الدنيا التى هى حياه ماديه قائمه على أساس التبدل و التحول منوعته بنعت الحركه و التغير زائل نافذ، و ما عند الله سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول و لا يفنى و الباقي خير من النافذ بصريح

و اعلم أن قوله: مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ عَلَىٰ مَا فِي لَفْظِهِ مِنَ الْإِطْلَاقِ قَاعِدُهُ كَلِيهِ غَيْرُ مَنْقُوضِهِ بِاسْتِثْنَاءِ، تَحْتَهَا جَزْئِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ.

قوله تعالى: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لما كان الوفاء بالعهد مستلزما للصبر على مرّ مخالفه هوى النفس فى نقضه و الاسترسال فيما تشتتته، صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد الى ذكر أجر مطلق الصابرين فى جنب الله.

فقوله: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبورا على الطاعة أو على المعصية أو عند المصيبة غير أنه يجب أن يكون صبورا فى جنب الله و لوجه الله فإن السياق لا يساعد على غيره.

و قوله: بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الباء للمقابلة كما فى قولنا: بعث هذا بهذا، و ليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم فى مقابل الحسن منها بأن يميز الله سبحانه بين أعمالهم الحسنه فيقسّمها الى حسن و أحسن ثم يجزيهم بأحسنها و يلغى الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيده، و آيات الجزاء تنفيه و الرحمه الواسعه الإلهيه تأباه.

و ليس المراد به الواجبات و المستحبات من أعمالهم قبال المباحات التى أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون.

فإن الكلام ظاهر فى أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتى بها فى ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطا، و واضح أن المباحات التى يأتى بها الصابر فى الله لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها.

على أنه لا- مطمع لعبد فى أن يثيبه الله على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب فى مقابل ما أتى به من الواجبات و المستحبات التى هى أحسن مما أتى به من المباحات فيكون

و من هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملا من المصلحه الموجهه للحسن على أزيد من النقل معلوم من الخطابات التشريعيه بحيث لا يرتاب فيه.

بل المراد بذلك أن العمل الذى يأتون به و له فى نوعه ما هو حسن و ما هو أحسن فالله سبحانه يجزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصلاه التى يصلّيها الصابر فى الله يجزيه الله سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاه و إن كانت ما صلاها غير أحسن و بالحقيقه يستدعى الصبر أن لا يناقش فى العمل و لا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضيه لخسته و رداءته كما يفيدته قوله تعالى: **إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**.

قوله تعالى: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ وعد جميل للمؤمنين إن عملوا عملا صالحا و بشرى للإناث أن الله لا يفرق بينهن و بين الذكور فى قبول إيمانهن و لا أثر عملهن الصالح الذى هو الإحياء بحياه طيبه و الأجر بأحسن العمل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنيه و أهل الكتاب من اليهود و النصرارى من حرمان المرأه من كل مزياه دينيه أو جلها و حط مرتبتها من مرتبه الرجل و وضعها وضعا لا يقبل الرفع البته.

فقوله: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ** حكم كلى من قبيل ضرب القاعدة لمن عمل صالحا أى من كان و قد قيده بكونه مؤمنا و هو فى معنى الاشتراط فإن العمل ممن ليس مؤمنا حابط لا يترتب عليه أثر، كما قال تعالى: **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** (المائدة/٥)، و قال: **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (هود/١٦).

و قوله: فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰٓةً طَيِّبَةً ۗ لِلْاِحْيَاءِ اِلْقَاءَ الْحَيٰٓةِ فِى الشَّيْءِ و افاضتها عليه فالجمله بلفظها داله على أن الله سبحانه يكرم المؤمن الذى يعمل صالحا بحياه جديده غير ما يشاركه سائر الناس من الحياه العامه، و ليس المراد به تغيير صفه الحياه فيه و تبديل الخيئه من الطيبه مع بقاء أصل الحياه على ما كانت عليه، و لو كان كذلك لقل: فلنطيبن حياهه.

فالاية نظيره قوله: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ۚ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ (الأنعام ١٢٢/)، و تفيد ما يفيد من تكوين حياه ابتدائيه جديده.

قوله تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الاستعاذه طلب المعاذ، و المعنى: إذا قرأت القرآن فاطلب منه تعالى ما دمت تقرأه أن يعيدك من الشيطان الرجيم أن يغويك، فالاستعاذه المأمور بها حال نفس القارئ ما دام يقرأ و قد أمر أن يوجدها لنفسه ما دام يقرأ، و أما قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أو ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لإيجاد معنى الاستعاذه فى النفس و ليس بنفسها إلا بنوع من المجاز، و قد قال سبحانه: استعذ بالله، و لم يقل: قل أعوذ بالله.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فى مقام التعليل للأمر الوارد فى الآية السابقه أى استعذ بالله حين القراءه ليعيدك منه لأنه ليس له سلطان على من آمن بالله و توكل عليه.

قوله تعالى: إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ضمائر الإفراد الثلاثه للشيطان أى ينحصر سلطان الشيطان فى الذين يتخذونه وليا لهم يدبر امورهم كما يريد، و هم يطيعونه، و فى الذين يشركون به إذا يتخذونه وليا من دون الله و ربًا مطاعا غيره فإن الطاعه عباده كما يشير اليه قوله: أَلَمْ اَعٰهَدُ اِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ اَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطٰنَ ۗ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ و اَنْ اَعْبُدُونِى (يس ٦١/).

قوله تعالى: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ اَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إشاره الى النسخ و حكمته، و جواب عما اتهموه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم به من الافتراء على الله، و الظاهر من سياق الآيات أن القائلين هم المشركون و إن كانت اليهود هم المتصلبين فى نفي النسخ و من المحتمل أن تكون الكلمه مما تلقفه المشركون من اليهود فكثيرا ما كانوا يراجعونهم فى أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم.

و قوله: وَإِذَا يَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: الإبدال و التبديل و التبدل و الاستبدال جعل شىء مكان آخر، و هو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثانى بإعطاء الأول، و التبديل قد يقال للتغير مطلقا و إن لم يأت ببدله قال تعالى: فَيَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ -الى أن قال- و قال تعالى: فَمَنْ يَدَّلْهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ وَإِذَا يَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَ يَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ انتهى موضوع الحاجه.

فالتبديل بمعنى التغير يخالف التبديل بمعناه المعروف فى أن مفعوله الأول هو المأخوذ و المطلوب بخلافه بالمعنى المعروف فمعنى قوله: «وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ» معناه وضعنا الآيه الثانيه مكان الاولى بالتغير فكانت الثانيه المبدله هى الباقيه المطلوبه.

و قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ كُنَايَه عَنْ أَنَّ الْحَقَّ لَمْ يَتَّعَدْ مُورَدَه وَ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَه هُوَ الْحَقِيقُ بِأَنَّ يَنْزِلُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ، وَ الْجَمَلَه حَالِيَه.

و قوله: قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ الْقَوْلَ لِلْمَشْرِكِينَ يَخَاطَبُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم وَ يَتَّهَمُونَه بِأَنَّهُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ فَإِنَّ تَبْدِيلَ قَوْلٍ مَكَانَ قَوْلٍ، وَ الثَّبَاتُ عَلَى رَأْيِ ثَمَّ الْعُدُولُ عَنْهُ مِمَّا يَنْتَزِعُه عَنْهُ سَاحَه رَبِّ الْعِزَّة.

و قد بالغوا فى قولهم إذ لم يقولوا: افتريت فى هذا التبديل و النسخ بل قالوا: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فقصروه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى الافتراء، و أتوا بالجملة الاسميه و سموه مفتريا، و قد بنوا ذلك على أن ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من نسخ واحد و هو يسند الجميع الى ربه و يقول: إنما أنا نذير فإذا كان مفتريا فى

واحد كان مفتريا في الجميع فليس إلا مفتريا.

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أى أكثر هؤلاء المشركين الذين يتهمونك بقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» لا يعلمون حقيقه هذا التبديل والحكمه المؤديه اليه على ما سينكشف فى الجواب أن الأحكام الإلهيه تابعه لمصالح العباد و من المصالح ما يتغير بتغير الأوضاع و الأحوال و الأزمنه فمن الواجب أن يتغير الحكم بتغير مصلحته فينسخ الحكم الذى ارتفعت مصلحته الموجه له بحكم آخر حدثت مصلحته.

فأكثر هؤلاء غافلون عن هذا الأمر و أما الأقل منهم فهم واقفون على حقيقه الأمر و لو إجمالاً غير أنهم مستكبرون على الحق معاندون له و إنما يلقون القول إلقاء من غير رعايه جانب الحق.

قوله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ قد تقدمت فى أول السوره إشاره الى معنى الروح، و القدس الطهاره و النزاهه و الظاهر أن الإضافه للاختصاص أى روح طاهره عن قذارات الماده نزيهه عن الخطأ و الغلط و الضلال، و هو المسمى فى موضع آخر من كلامه تعالى بالروح الأمين، و فى موضع آخر بجبريل من الملائكه قال تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤/)، و قال: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ (البقره ٩٧/).

فقوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ أمر بالجواب و الأسبق الى الذهن أن يكون الضمير راجعا الى القرآن من جهه كونه ناسخا أى الآيه الناسخه، و يمكن أن يكون راجعا الى مطلق القرآن، و فى التعبير بالتنزيل دون الإنزال إشاره الى التدرج.

و كان من طبع الكلام أن يقال: من ربي لكن عدل عنه الى قوله: «مَنْ رَبِّكَ» للدلاله على كمال العناية و الرحمه فى حقه صلى الله عليه و آله و سلم كأنه لا يرضى بانقطاع خطابه فيغتنم الفرصه لتكليمه أينما



أمكن، و ليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلطف بهذه الألفاظ فافهم.

وقوله: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا التثبيت تحكيم الثبات و تأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم بالله و رسوله و اليوم الآخر ثبتوا على الحق و بتجدد الحكم حسب تجدد المصلحه يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضى على أعمال لا تطابق مصلحه الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحه غايه فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادى فقطع قطعه منه على حسب ما يأمره به رعايه لمصلحه الغايه بسرعه أو ببطء أو فى ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحه فلو لم يغير الأمر الهادى نحو السلوك و استمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك و انسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحه و يضمن السعاده زاد إيمانه ثباتا على ثبات.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ افترأ آخر منهم على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هو قولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و هو كما يلوح اليه سياق اعتراضهم و ما ورد فى الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمى غير فصيح فى منطقه عنده شىء من معارف الأديان و أحاديث النبوه ربما لاقاه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم فاتهموه بأنه يأخذ ما يدعيه و حيا منه و الرجل هو الذى يعلمه و هو الذى حكاه الله تعالى من قولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و فى القول إيجاز، و تقديره: إنما يعلمه بشر و ينسب ما تعلمه منه الى الله افتراء عليه، و هو ظاهر.

و من المعلوم أن الجواب عنه بمجرد أن لسان الرجل أعجمى و القرآن عربى مبين لا يحسم ماده الشبهه من أصلها لجواز أن يلقى اليه المطالب بلسانه الأعجمى ثم يسبكها هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم ببلاغه منطقه فى قالب العربيه الفصيحه بل هذا هو الأسبق الى الذهن من قولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» حيث عبروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين و الإملاء، و التعليم أقرب الى المعانى منه الى

و بذلك يظهر أن قوله: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ -الى قوله- مُبِينٌ» ليس وحده جوابا عن شبهتهم بل ما يتلوه من الكلام الى تمام آيتين من تمام الجواب.

و ملخص الجواب مأخوذ من جميع الآيات الثلاث أن ما اتهمتموه به أن بشرا يعلمه ثم هو ينسبه الى الله افتراء إن أردتم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه و أن القرآن كلامه لا كلام الله فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمى و هذا القرآن عربى مبین.

و إن أردتم أن الرجل يعلمه معانى القرآن-و اللفظ لا محاله للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم-و هو ينسبه الى الله افتراء عليه فالجواب عنه أن الذى يتضمنه القرآن معارف حقّه لا يرتاب ذو لبّ فيها و تضطرّ العقول الى قبولها قد هدى الله النبي إليها فهو مؤمن بآيات الله إذ لو لم يكن مؤمنا لم يهده الله و الله لا يهدى من لا يؤمن بآياته و إذ كان مؤمنا بآيات الله فهو لا يفترى على الله الكذب فإنه لا- يفترى عليه إلا من لا يؤمن بآياته،فليس هذا القرآن بمفترى،و لا مأخوذا من بشر و منسوبا الى الله سبحانه كذبا.

فقوله: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» جواب عن أول شقّي الشبهه و هو أن يكون القرآن بلفظه مأخوذا من بشر على نحو التلقين،و المعنى: أن لسان الرجل الذى يلحدون أى يميلون اليه و ينوونه بقولهم: «إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ» أعجمى أى غير فصيح بين و هذا القرآن المتلو عليكم لسان عربى مبین و كيف يتصوّر صدور بيان عربى بليغ من رجل أعجمى اللسان؟

و قوله: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛جواب عن ثانى شقّي الشبهه و هو أن يتعلم منه المعانى ثم ينسبها الى الله افتراء.

و المعنى: أن الذين لا يؤمنون بآيات الله و يكفرون بها لا يهديهم الله اليه و الى معارفه الحقه الظاهره و لهم عذاب أليم،و النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم مؤمن بآيات الله لأنه مهدي بهدايه الله،و إنما يفترى

الكذب و ينسبه الى الله الذين لا يؤمنون بآيات الله و أولئك هم الكاذبون المستمرون على الكذب، و أما مثل النبي صلى الله عليه و آله و سلم المؤمن بآيات الله فإنه لا يفترى الكذب و لا يكذب فالآيتان كنايةتان عن أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم مهدي بهدائه الله مؤمن بآياته و مثله لا يفترى و لا يكذب (١).

## [سوره النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١]

### اشاره

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعَهُمْ وَ أَبْصَرَهُمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

ص: ٦٢٧

---

١- (١). النحل ٩٠-١٠٥: بحث روائى حول الآيه «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ»؛ الحياه الطيبه.



و هو أنهم اختاروا الحياه الدنيا و هى الحياه الماديه التى لا غايه لها إلا التمتع الحيوانى و الاشتغال بمشتهيات النفس على الآخره التى هى حياه دائمه مؤبده فى جوار رب العالمين و هى غايه الحياه الإنسانيه.

و بعباره اخرى هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا و انقطعوا عن الآخره و كفروا بها و الله لا يهدى القوم الكافرين و إذ لم يهدهم الله ضلوا عن طريق السعاده و الجنه و الرضوان فوقعوا فى غضب من الله و عذاب عظيم.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** إشاره الى أن اختيار الحياه الدنيا على الآخره و الحرمان من هدايه الله سبحانه هو الوصف الذى يوصف به الذين طبع الله على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و الذين يسمون غافلين.

فإنهم باختيارهم الحياه الدنيا غايه لأنفسهم و حرمانهم من الاهتداء الى الاخرى انقطعوا عن الآخره و تعلقوا بالدنيا و جعلوها غايه لأنفسهم فوق حسهم و عقلهم فيها دون أن يتعدياها الى ما وراءها و هو الآخره فليسوا يبصرون ما يعتبرون به و لا يسمعون عظه يتعظون بها و لا يعقلون حجه يهتدون بها الى الآخره.

قوله تعالى: **لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** لأنهم ضيعوا رأس مالهم فى الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به فى اخرهم، و قد وقع فى نظير المقام من سوره هود:

**لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخْسِرُونَ** (هود ٢٢)، و لعل وجه التشديد هناك أنه تعالى أضاف الى صفاتهم هناك أنهم صدوا عن سبيل الله فراجع.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** الفتنة فى الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فى مطلق البلاء و التعذيب، و قد كانت قريش و مشركوا مكه يفتنون

المؤمنين ليردوهم عن دينهم و يعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عمارا و أباه و أمه فقتل أبواه و ارتد عمار ظاهرا فتفصى منهم بالتقيه، و فى ذلك نزلت الآيات السابقة كما سيأتى إن شاء الله فى البحث الروائى.

فقوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا وَعَدَّ جَمِيلًا لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبَالَ مَا أُوْعِدَ غَيْرِهِمْ بِالْخُسْرَانِ التَّامِ يَوْمئِذٍ وَقَدْ قَيَّدَ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ بَعْدَ الْمُهَاجِرَةِ.

و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ» بمنزله تلخيص صدر الكلام-لطوله-ليلحق به ذيله، و يفيد فائده التأكيد كقولنا: زيد فى الدار زيد فى الدار كذا و كذا، و يفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلا فى الحكم فالله سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا و لا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها و يصبروا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ إتيان النفس يوم القيامة كناية عن حضورها عند الملك الديان، كما قال: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (الصافات ١٢٧/)، و الضمير فى قوله: «عَنْ نَفْسِهَا» للنفس و لا ضمير فى إضافه النفس الى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنسانى كقوله: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ (المائدة ٢٢/)، و ربما يراد بها التأكيد و يتحدد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنسانا أو غيره، كما يقال: الإنسان نفسه و الفرس نفسه و الحجر نفسه و السواد نفسه، و يقال: نفس الإنسان و نفس الفرس و نفس الحجر و نفس السواد، و قوله: «عَنْ نَفْسِهَا» المراد فيه بالمضاف المعنى الثانى و بالمضاف اليه المعنى الأول، و قد دفع التعبير بالضمير بشاعه تكرار اللفظ بالإضافه، و فى هذا المقدار كفايه عن الأبحاث الطويله التى أوردها المفسرون.

و قوله: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا الظرف متعلق بقوله فى الآيه

السابقه: «لَعَفُورٌ رَحِيمٌ» و مجادله النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها و قد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه فى الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها و ليس ذلك إلا لظهور حقيقه الأمر عليها و هى أن الإنسان لا سبيل له الى ما وراء نفسه، و ليس له فى الحقيقه إلا أن يشتغل بنفسه.

فاليوم تأتى النفس و تحضر للحساب و هى تجادل و تصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعدار.

و قوله: «و تُوْفِي كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» إطاء الحق تاما من غير تنقيص، و قد علق التوفيه على نفس العمل إذ قيل «مَا عَمِلَتْ» فافيد أن الذى أعطيته نفس العمل من غير أن يتصرف فيه بتغيير أو تعويض، و فيه كمال العدل حيث لم يصف الى ما استحقته شيء و لا نقص منه و لذلك عقبه بقوله: «وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (١).

## [سوره النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١٢٨]

### اشاره

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِنْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَ أَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَى السُّبُلِ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أُضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَدَّاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ إِجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ سَبْطَ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَ اصْبِرْ وَ صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

ص: ٦٣١

١ - ١). النحل ١٠٦-١١١: بحث روائى فى امر رسول الله المسلمين بالهجرة؛ التقيه؛ اىذاء المشركين بلالا؛ اخذ المشركين عمار بن

ياسر؛ تقيه عمار بن ياسر.





وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الرغد من العيش هو الواسع الطيب.

هذا مثل ضربه الله تعالى فوصف فيه قرية آتاها ما تحتاج اليه من نعم الحياه، و أتم ذلك كله بنبي بعثه اليهم يدعوهم الى ما فيه صلاح دنياهم و أخرهم فكفروا بأنعمه و كذبوا رسوله فبدل الله نعمته نقمه و عذبهم بما ظلموا بتكذيب رسوله، و فى المثل تحذير عن كفران نعمه الله بعد إذ بذلت و الكفر بآياته بعد إذ أنزل.

و فيه توطئه و تمهيد لما سيذكره من محلات الأكل و محرّماته و ينهى عن تشريع الحلال و الحرام بغير إذن الله كل ذلك بالاستفاده من سياق الآيات فإن كل سابقه منها تسوق النظر الى اللاحقه.

و قوله: فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسِ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ التعبير بأنعم الله و هو جمع قله للإشاره بها الى الأصناف المذكوره و هى ثلاثه: الأمن و الاطمئنان و إتيان الرزق، و الإذاقه استعاره للايصال اليسير فإذاقه الجوع و الخوف مشعر بأن الذى

يوصلهما قادر على تضييف ذلك و تكثيره بما لا يقدر بقدر كيف لا؟ و هو الله الذى له القدره كلها.

ثم إضافه اللباس الى الجوع و الخوف و فيها دلالة على الشمول و الإحاطه كما يشمل اللباس البدن، و يحيط به، تشعر بأن هذا المقدار اليسير من الجوع و الخوف الذى أذاقهم شملهم كما يشمل اللباس بدن الإنسان و هو سبحانه قادر على أن يزيد على ذلك فهو المتناهى فى قهره و غلبته و هم المتناهون فى ذلتهم و هوانهم.

ثم ختم الآيه بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ للدلالة على أنه سنه المجازاه فى الشكر و الكفر قائمه على ساق.

و المعنى: ضرب الله مثلا مثل قريه كان أهلها آمنين من كل شر و سوء يهددهم فى نفوسهم و أعراضهم و أموالهم ساكنين غير مضطرين يأتهم رزقهم طيبا و اسعا من كل مكان من غير أن يضطروا الى السفر و الاغتراب فكفر أهلها بهذه النعم الإلهيه و لم يشكروه سبحانه فأنالهم الله شيئا يسيرا من نعمته- بسلب هذه النعم- و هو الجوع و الخوف اللذان عماهم و شملهم قبال ما استمروا عليه بكفران الأنعم جزاء لكفرانهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ و هذا هو النعمه المعنويه التى أضافها الى نعمه الماديه المذكوره، و كان فيها صلاح معاشهم و معادهم و تحذير لهم من الكفران بأنعم الله و شرح ما فيه من الشؤم و الشقاء لكنهم كذبوا رسولهم الذى هو منهم يعرفونه و يدرون أنه إنما يدعوهم لأمر إلهى و يهديهم الى سبيل الرشاد و سعاده الجد فظلموا ذلك فأخذهم العذاب بظلمهم.

و بهذا التقرير يظهر ما فى القيود المأخوذه فى الآيه من النكات.

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً الى آخر الآيه، تفريع على ما تحصل من المثل نتيجة، و التقدير إذا كان الحال هذا الحال و كان فى كفران هذا الرزق الرغد

عذاب و في تكذيب الدعوه عذاب فكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالا طيبا أى لستم بممنوعين منه و أنتم تستطيونونه فكلوا منه و اشكروا نعمه الله إن كنتم إياه تعبدون.

قوله تعالى: إِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تقدم الكلام فى معنى الآيه فى تفسير سورة البقره الآيه ١٧٣ و سورة المائده الآيه ٣ و سورة الأنعام الآيه ١٤٥.

و الآيه بمعناها على اختلاف ما فى لفظها واقعه فى أربعة مواضع من القرآن: فى سورتي الأنعام و النحل و هما مكيتان من أوائل ما نزلت بمكه و أواخرها، و فى سورتي البقره و المائده و هما من أوائل ما نزلت بالمدينه و أواخرها، و هى تدلّ على حصر محرّمات الأكل فى الأربع المذكوره: الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهّل لغير الله به كما نبّه عليه بعضهم.

لكن بالرجوع الى السنّه يظهر أن هذه هى المحرّمات الأصلية التى عنى بها فى الكتاب و ما سوى هذه الأربع من المحرّمات مما حرّمه النبى صلّى الله عليه و آله و سلم بأمر من ربه و قد قال تعالى: مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر/٧)، و قد تقدم بعض الروايات الدالّه على هذا المعنى.

قوله تعالى: وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ الخ؛ «ما» فى قوله: «لِمَا تَصِفُ» مصدرية و الكذب مفعول «تَصِفُ» أى لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغايه افتراء الكذب على الله.

ثم قال سبحانه فى مقام تعليل النهى: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» ثم بيّن حرمانهم من الفلاح بقوله: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ الخ؛

المراد بقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ - كما قيل - ما قصه تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في سورة الأنعام - وقد نزلت قبل سورة النحل بلا إشكال - بقوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ (الأنعام ١٤٦).

و الآية في مقام دفع الدخل و فيها عطف على مسأله النسخ المذكوره سابقا كأن قائلا يقول:

فإذا كانت محرّمات الأكل منحصره في الأربع المذكوره: الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به، و كان ما وراءها حلالا فما هذه الأشياء المحرّمه على بنى إسرائيل من قبل؟ هل هذا إلا ظلم بهم؟

فأجاب عنه بأنا حرّمنا عليهم ذلك و ما ظلمناهم في تحريمه و لكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرّم عليهم بعض الأشياء أى إنه كان محللا لهم ما ذونا فيه لكنهم ظلموا أنفسهم و عصوا ربهم فجزيناهم بتحريمه عقوبه كما قال سبحانه فى موضع آخر: فَبُظِّلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرْمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الْآيَةُ؛ و لو أنهم بعد ذلك كله رجعوا الى ربهم و تابوا عن معاصيهم تاب الله عليهم و رفع الحظر عنهم و أذن لهم فيما منعم عنه إنه لغفور رحيم.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الْجَهَالَةَ وَ الْجَهْلَ وَاحِدٌ وَ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَا يُقَابِلُ الْعِلْمَ لَكِنِ الْجَهَالَةَ كَثِيرًا مَا تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى عَدَمِ الْإِنْكَشَافِ التَّامِ لِلْوَاقِعِ وَ إِنْ لَمْ يَخْلُ الْمَحَلَّ عَنِ الْعِلْمِ مَا مَصْحُوحٌ لِلتَّكْلِيفِ كَحَالِ مَا يَقْتَرِفُ الْمُحْرَمَاتِ وَ هُوَ يَعْلَمُ بِحُرْمَتِهَا لَكِنِ الْأَهْوَاءُ النَّفْسَانِيَّةُ تَغْلِبُهُ وَ تَحْمِلُهُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَ لَا تَدْعُهُ يَتَفَكَّرُ فِي حَقِيقَةِ هَذِهِ الْمَخَالَفَةِ وَ الْمَعْصِيَةِ فَلَهُ عِلْمٌ بِمَا ارْتَكَبَ وَ لِذَلِكَ يُؤَاخِذُ وَيُعَاقِبُ عَلَى مَا فَعَلَ وَ هُوَ مَعَ ذَلِكَ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَ لَوْ تَبَصَّرَ تَمَامَ التَّبَصُّرِ لَمْ يَرْتَكِبْ.

و المراد بالجهالة فى الآية هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول و كان ما ذكر من عمل السوء مجهولا من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصية حتى يحتاج الى التوبه

و قوله فى ذيل الآيه: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» تلخيص لتفصيل قوله فى صدرها: «إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ» الخ؛ و فائدته حفظ فهم السامع عن التشوش و الضلال و إبراز العناية ببعديه المغفره و الرحمه بالنسبه الى التوبه نظير ما مرّ من قوله: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» .

قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الآيه؛ و ما يتلوها على اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأكل فى الأربع و تحليل ما وراءها، و هذه الآيه الى تمام أربع آيات بمنزله التفصيل لما تقدمها كأنه قيل: هذا حال مله موسى التى حرّمنا فيها على بنى إسرائيل بعض ما أحلّ لهم من الطيبات، و أما هذه المله التى أنزلناها اليك فإنما هى المله التى تحقق بها إبراهيم فاجتبه الله و هداه الى صراط مستقيم و أصلح بها دنياه و آخرته، و هى مله معتدله جاريه على الفطره تحلل الطيبات و تحرم الخبائث يجلب العمل بها من الخير ما جلبه لإبراهيم عليه السلام منه.

فقوله: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ» أى قائما مقام جماعه فى عباده الله نحو قولهم: فلان فى نفسه قبيله، انتهى؟ و هو قريب مما نقل عن ابن عباس، و قيل: معناه الإمام المقتدى به، و قيل: إنه كان أمه منحصره فى واحد مده من الزمان لم يكن على الأرض موحد يوحد الله غيره.

و قوله: قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ القنوت: الإطاعة و العباده أو دوامها، و الحنف: الميل من الطرفين الى حاق الوسط و هو الاعتدال.

قوله تعالى: شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِبَاءً وَ هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ الاجتباء من الجبايه و هو الجمع و اجتباء الله الإنسان هو إخلاصه لنفسه و جمعه من التفرق فى المذاهب المختلفه. و فى تعقيب قوله: «شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ» بقوله: «اجْتِبَاءً» الخ؛ مفصولا إشعار بالعليه

و ذلك يؤيد ما تقدم في سورة الأعراف في تفسير قوله: وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (الأعراف ١٧)، أن حقيقه الشكر هو الإخلاص في العبودية.

قوله تعالى: وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَآتَيْنَاهُ فِي الآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ الحسنه هي المعيشه الحسنه فقد كان عليه السلام ذا مال كثير و مروّه عظيمه.

و قد بسطنا الكلام في معنى الاجتباء في تفسير سورة يوسف عند الآيه ٦، و في معنى الهدايه و الصراط المستقيم في تفسير الفاتحه عند قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الآيه ٦)، و في معنى قوله: وَآتَيْنَاهُ فِي الآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ (البقره ١٣٠)، فراجع.

و في توصيفه تعالى إبراهيم عليه السلام بما وصفه من الصفات إشاره الى أنها من مواهب هذا الدين الحنيف، فإن اتحل به الإنسان ساقه الى ما ساق اليه إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تكرر اتّصافه بالحنف و نفى الشرك لمزيد العناية به.

قوله تعالى: إِذْ جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ قال في المفردات: أصل السبت القطع و منه سبت السير قطعه و سبت شعره حلقه، و أنفه اصطلمه، و قيل: سمى يوم السبت لأن الله تعالى ابتداء بخلق السماوات و الأرض يوم الأحد فخلقها في ستة أيام كما ذكره فقطع عمله يوم السبت فسّمى بذلك.

و سبت فلان صار في السبت، و قوله: «يَوْمَ سَيَبْتُهُمْ شُرْعًا» قيل: يوم قطعهم للعمل «و يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ» قيل: معناه لا يقطعون العمل و قيل: يوم لا يكونون في السبت و كلاهما إشاره الى حاله واحده، و قوله: «إِذْ جَعَلَ السَّبْتُ» أى ترك العمل فيه «و جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا» أى قطعاً للعمل و ذلك إشاره الى ما قال في صفه الليل: «لَتَسْكُنُوا فِيهِ» انتهى.

فالمراد بالسبت على ما ذكره نفس اليوم لكن معنى جعله جعل ترك العمل فيه و تشريعه، و يمكن أن يكون المراد به المعنى المصدرى دون اليوم المجعول فيه ذلك كما هو ظاهر قوله:

تَأْتِيهِمْ حِينَانُهُمْ يَوْمَ سَنِيَّتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ (الأعراف ١٦٣).

و كيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال: إنما جعل السبت للذين، حتى يفيد نوعا من الاختصاص و الملك و أن الله شرع لهم في كل أسبوع أن يقطعوا العمل يوما يفرغون فيه لعباده ربهم و هو يوم السبت كما جعل للمسلمين في كل اسبوع يوما يجتمعون فيه للعباده و الصلاه و هو يوم الجمعة.

فقوله: **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** بتعديه جعل بعلى دون اللام من قبيل قولهم: لى عليك دين و هذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف و التشديد و الابتلاء أى إنما جعل للتشديد عليهم و ابتلائهم و امتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما انجر أمرهم فيه الى لعن طائفه منهم و مسخ آخرين و قد أشير الى ذلك فى سورة البقره الآيه ٦٥ و سورة النساء الآيه ٤٧.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله: **«اخْتَلَفُوا فِيهِ»** أى فى السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقا ممن قبله و ممن رده و ممن احتال للعمل فيه على ما اشير الى قصصهم فى سور البقره و النساء و الأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا فى كل اسبوع يوما للعباده ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعة فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع فى بعض الروايات.

و المعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعباده يوما فى كل اسبوع تشديدا و ابتلاء و فتنه و كلفه على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله و من رده و من احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

و بالبناء على هذا يكون وزن الآيه وزان قوله السابق: **«وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا»** الخ؛ فى أنها فى معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفًا على ما مر من حديث النسخ، و التقدير و أما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم لئبليهم الله و يفتنهم به و يشدد عليهم كما قد

تكرر نظائره فيهم لكونهم عاتين معتدين مستكبرين و بالجمله الآيه ناظره الى الاعتراض بتشريع بعض الأحكام غير الفطريه على اليهود و نسخه فى هذه الشريعه.

و إنما لم يضم الى قوله سابقا: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا» الخ؛ لكون مسأله السبب مغايره لسنخ مسأله تحليل الطيبات و استثناء محرمات الأكل، و قد عرفت أن الكلام على اتصاله من قوله: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا» الى قوله: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» سبع آيات تامه ثم اتصلت بها هذه الآيه و هى ثامتها الملحقه بها.

و من هنا يظهر الجواب عما اعترض به أن توسط جعل السبب بين حكاية أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باتباع مله إبراهيم عليه السلام و بين أمره عليه السلام بالدعوه إليها و بعبارة اخرى وقوع قوله: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ» الخ؛ بين قوله: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» الخ؛ و قوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» الخ؛ كالفصل بين الشجر و لحائه.

و محصل الجواب أن قوله: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» الآيه؛ من تمام السياق السابق، و قوله: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ» الآيه؛ متصل بما تقدمه كما عرفت، و أما قوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» الآيه؛ فهو استئناف و أمر بالدعوه الى سبيل الله بفنون الخطاب لا- الى مله إبراهيم حتى يتصل بالآيه السابقه نوع اتصال و إن كان سبيل الله هو مله إبراهيم بعينها لكن للفظ حكم و للمعنى بحسب المآل حكم آخر، فافهم.

قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الى آخر الآيه لا شك فى أنه يستفاد من الآيه أن هذه الثلاثه: الحكمه و الموعظه و المجادله من طرق التكليم و المفاوضه فقد أمر بالدعوه بأحد هذه الامور فهى من أنحاء الدعوه و طرقها و إن كان الجدل لا يعد دعوه بمعناها الأخص.

و قد فسرت الحكمه- كما فى المفردات- بإصالة الحق بالعلم و العقل، و الموعظه- كما عن الخليل- بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب، و الجدل- كما فى المفردات- بالمفاوضه على



و التأمل فى هذه المعانى يعطى أن المراد بالحكمه-و الله أعلم-الحجه التى تنتج الحق الذى لا مريه فيه و لا وهن و لا إبهام و الموعظه هو البيان الذى تلىن به النفس و يرق له القلب،لما فيه من صلاح حال السامع من الغبر و العبر و جميل الثناء و محمود الأثر و نحو ذلك.

و الجدل هو الحجه التى تستعمل لقتل الخصم عما يصرّ عليه و ينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذه عليه من طريق ما يتسلمه هو و الناس أو يتسلمه هو وحده فى قوله أو حجته.

فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمه و الموعظه و الجدل بالترتيب على ما اصطلحوا عليه فى فن الميزان بالبرهان و الخطابه و الجدل.

غير أنه سبحانه قيد الموعظه بالحسنه و الجدل بالتى هى أحسن،ففيه دلالة على أن من الموعظه ما ليست بحسنه و من الجدل ما هو أحسن و ما ليس بأحسن و لا حسن،و الله تعالى يأمر من الموعظه بالموعظه الحسنه و من الجدل بأحسنه.

ثم إن فى قوله: «بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ الْجِدَالِ الْبِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أخذاً بالترتيب من حيث الأفراد فالحكمه مأذون فيها بجميع أفرادها،و الموعظه منقسمه الى حسنه و غير حسنه و المأذون فيها منهما هى الموعظه الحسنه،و المجادله منقسمه الى حسنه و غير حسنه ثم الحسنه الى التى هى أحسن و غيرها و المأذون فيها منها التى هى أحسن،و الآيه ساكتة عن توزيع هذه الطرق بحسب المدعّوين بالدعوه فالملاك فى استعمالها من حيث المورد حسن الأثر و حصول المطلوب و هو ظهور الحق.

قوله تعالى: «وَ إِنِ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» قال فى المفردات:العقوبه و العقاب و المعاقبه تختص بالعذاب،انتهى.و الأصل فى معناه العقب و هو مؤخر الرّجل و عقيب الشىء و عاقبه الأمر ما يليه من ورائه أو آخره،

و التعقيب الإتيان بشيء عقيب شيء و معابقتك غيرك أن تأتي بما يسوؤه عقيب إتيانه بما يسوؤك فينطبق على المجازاه و المكافأه بالعذاب.

فقوله: **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ** الخطاب فيه للمسلمين -على ما يفيدته السياق- و لازمه أن يكون المراد بالمعاقبه مجازاه المشركين و الكفار، و بقوله:

«عُوِقْتُمْ بِهِ» عقاب الكفار إياهم و مجازاتهم لهم بما آمنوا بالله و رفضوا آلهتهم.

و المعنى: و إن أردتم مجازاه الكفار و عذابهم فجازوهم على ما فعلوا بكم بمثل ما عذبوكم به مجازاه لكم على إيمانكم و جهادكم في الله.

و قوله: **وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** أى صبرتم على مر ما عوقبتم به و لم تعاقبوا و لم تكافئوا لهو خير لكم بما أنكم صابرون لما فيه من إثار رضى الله و ثوابه فيما أصابكم من المحنة و المصيبة على رضى أنفسكم بالتشفى بالانتقام فيكون العمل خالصا لوجهه الكريم، و لما فى الصبح و العفو من إعمال الفتوة و لها آثارها الجميله.

قوله تعالى: **وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** إلى آخر الآية أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بالصبر و بشرى له أن الله قواه على الصبر على مر ما يلقاه فى سبيله فإنه تعالى يذكر أن صبره إنما هو بحول و قوه من ربه ثم يأمره بالصبر و لازم الأمر قدره المأمور على المأمور به ففى قوله: **«وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»** إشاره الى أن الله قواك على ما أمرك به.

و قوله: **وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** أى على الكافرين لكفرهم، و قد تقدم تفسير هذا المعنى سابقا فى السوره و غيرها.

و قوله: **«وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»** الظاهر أن المراد النهى عن التحرج من مكرهم فى الحال أو على سبيل الاستمرار دون مجرد الاستقبال.

قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** أى إن التقوى و الإحسان كل منهما سبب مستقل فى موهبه النصره الالهيه و إبطال مكر أعداء الدين و دفع

كيدهم فالآيه تعليل لقوله: «وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ» و وعد بالنصر.

و هذه الآيات الثلاث أشبه مضمونا بالآيات المدنيه منها بالمكيه و قد وردت روايات من طرق الفريقين أنها نزلت في منصرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عن أحد و سيأتي في البحث الروائي و إن كان من الممكن توجيه اتصالها بما قبلها بوجه كما تصدى له بعضهم.

و مما يجب أن يتنبه له أن الآيه التي قبل الثلاثه أجمع لغرض السوره من هذه الثلاث، و أن لآيات السوره مع الإغماض عن قوله: «وَالَّذِينَ هَارَوا» الآيه، و قوله: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ» الى تمام بضع آيات، و قوله: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ» الى آخر السوره، سياقاً واحداً متصلاً.

ص: ٦٤٣

اشاره

[سوره الإسراء (١٧): آيه ١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ  
لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

بيان:

اشاره

السوره تتعرض لأمر توحيدہ تعالی عن الشريك مطلقا و مع ذلك يغلب فيها جانب التسييح على جانب التحميد كما بدئت به فقيل «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» الآيه؛ و كرر ذلك فيها مره بعد مره كقوله: «سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ» الآيه ٤٣ و قوله: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي» الآيه ٩٣، و قوله: «وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا» الآيه ١٠٨ حتى ان الآيه الخاتمه للسوره:

«وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبْرُهُ تَكْبِيرًا» تحمد الله على تنزهه عن الشريك و الولي و اتخاذ الولد.

و السوره مكيه لشهاده مضامين آياتها بذلك، و عن بعضهم كما فى روح المعانى استثناء آيتين منها و هما «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ» الآيه؛ و قوله: «وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ» الآيه؛ و عن بعضهم إلا اربع آيات و هى الآيتان المذكورتان و قوله: «وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ» الآيه، و قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآيه.

و عن الحسن أنها مكيه إلا خمس آيات منها و هى قوله: «وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ» الآيه؛ «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» «أَقِمِ الصَّلَاةَ» و آتِ ذَا الْقُرْبَى» الآيه.

و عن مقاتل: مكيه إلا خمس «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ» الآيه «وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ» الآيه؛ «وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ» الآيه؛ «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي» الآيه؛ «إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ» الآيه.

و عن قتاده و المعدل عن ابن عباس مكيه إلا ثمانى آيات و هى قوله: «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ» الآيه؛ الى قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآيه.

و لا- دلالة فى مضامين الآيات على كونها مدنيه، و لا الأحكام المذكوره فيها مما يختص نزولا بالمدينه و قد نزلت نظائرها فى السور المكيه كالأنعام و الأعراف.

و قد افتتحت السوره فيما ترومه من التسييح بالإشاره الى معراج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فذكر إسراؤه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى و هو بيت المقدس و الهيكل الذى بناه داود و سليمان عليهما السلام و قدسه الله لبنى إسرائيل.

ثم سبق الكلام بالمناسبه الى ما قدره الله لمجتمع بنى إسرائيل من الرقى و الانحطاط و العزه و الذله فكلما أطاعوا رفعهم الله و كلما عصوا خفضهم الله، و قد أنزل عليهم الكتاب و أمرهم بالتوحيد و نفى الشرك.

ثم عطف فيها الكلام على حال هذه الأمه و ما أنزل عليهم من الكتاب بما يشاكل حال بنى إسرائيل و أنهم إن أطاعوا أثيبوا و إن عصوا عوقبوا فإنما هى الأعمال يعامل الإنسان بما عمل منها، و على ذلك جرت السنه الإلهيه فى الامم الماضين.

ثم ذكرت فيها حقائق جمه من المعارف الراجعة الى المبدأ و المعاد و الشرائع العامه من الأوامر و النواهي و غير ذلك.

و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الآية ١١٠ من السوره، و قوله: «كَلَّا- تَمُدُّ هُوْلَاءِ وَ هُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا» الآية ٢٠ منها، و قوله: «وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا» الآية ٥٨ منها و غير ذلك.

قوله تعالى: سُيُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ سُبْحَانَ اسْمِ مَصْدَرٍ لِلتَّسْبِيحِ بِمَعْنَى التَّنْزِيهِ وَ يَسْتَعْمَلُ مَضَافًا وَ هُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ قَائِمٌ مَقَامَ فِعْلِهِ فَتَقْدِيرُ «سُبْحَانَ اللَّهِ» سَبَّحْتَ اللَّهَ تَسْبِيحًا أَيْ نَزَهْتَهُ عَنِ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِسَاحَةِ قُدْسِهِ وَ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُ لِلتَّعْجِبِ لَكِنْ سِيَاقُ الْآيَاتِ إِنَّمَا يَلَائِمُ التَّنْزِيهِ لِكَوْنِهِ الْغَرَضُ مِنَ الْبَيَانِ وَ إِنْ أَصْرَ بَعْضُهُمْ عَلَى كَوْنِهِ لِلتَّعْجِبِ.

و الإسراء و السرى السير بالليل يقال: سرى و أسرى أى سار ليلا و سرى و أسرى به أى سار به ليلا، و السير يختص بالنهار أو يعمه و الليل.

و قوله: «لَيْلًا» مفعول فيه و يفيد من الفائدة أن هذا الإسراء تم له بالليل فكان الرواح و المجرى فى ليله واحده قبل أن يطلع فجرها.

و قوله: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى هو بيت المقدس بقربه قوله: الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ. و القصى البعد و قد سمي المسجد الأقصى لكونه أبعد مسجد بالنسبه الى مكان النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ وَ هُوَ مَكَّةُ الَّتِي فِيهَا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ.

و قوله: لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا بيان غايه الإسراء و هى إراءه بعض الآيات الإلهيه -لمكان من- و فى السياق دلالة على عظمه هذه الآيات الَّتِي أَرَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كَلَامِهِ يَذْكَرُ فِيهِ حَدِيثَ الْمِعْرَاجِ بِقَوْلِهِ: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى

وقوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تعليل لإسرائئه به لإراءه آياته أى إنه سميع لاقوال عبادته بصير بأفعالهم وقد سمع من مقال عبده و رأى من حاله ما استدعى أن يكرمه هذا الإكرام فيسرى به ليلا و يريه من آياته الكبرى.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير فى قوله: «بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» ثم رجوع الى الغيبه السابقه و الوجه فيه الإشاره الى أن الإسرائ و ما ترتب عليه من إراءه الآيات إنما صدر عن ساحه العظمه و الكبرياء و موطن العزه و الجبروت فعملت فيه السلطنه العظمى و تجلى الله له بآياته الكبرى، و لو قيل: ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النكته.

و المعنى: لينزه تنزيها من أسرى بعظمته و كبريائه و بالغ قدرته و سلطانه بعبده محمد فى جوف ليله واحده من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى و هو بيت المقدس الذى بارك حوله ليريه بعظمته و كبريائه آياته الكبرى، و إنما فعل به ذلك لأنه سميع بصير علم بما سمع من مقاله و رأى من حاله أنه خليق أن يكرم هذه التكرمه.

### بحث روائى:

فى تفسير القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله عليه السلام قال:

جاء جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل بالبراق الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخذ واحد باللجام و واحد بالركاب و سوى الآخر عليه ثيابه فتضععت البراق فلطمها جبرائيل ثم قال لها: اسكنى يا براق فما ركبك نبي قبله و لا يركبك بعده مثله.

قال: فرقت به و رفعت ارتفعا ليس بالكثير و معه جبرئيل يريه الآيات من السماء و الأرض. قال: فبينما أنا فى مسيرى إذ نادى مناد عن يمينى: يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم نادى مناد عن يسارى: يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم استقبلتنى امرأه كاشفه عن

ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها ثم سرت فسمعت صوتا أفرغنى فجاوزت فنزل بي جبرئيل فقال: صل فصليت فقال: تدرى أين صلت؟ قلت: لا، فقال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ثم ركبت فمضينا ما شاء الله ثم قال لى: انزل فصل فنزلت و صليت فقال لى: تدرى أين صليت؟ فقلت: لا، قال: صليت فى بيت لحم، و بيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا الى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقه التى كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد و معى جبرئيل الى جنبى فوجدنا ابراهيم و موسى و عيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام فقد جمعوا إلى و أقيمت الصلاة و لا أشك إلا و جبرئيل سيتقدمنا فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى و أمتهم و لا فخر.

ثم أتانى الخازن بثلاثة أوانى إناء فيه لبن و إناء فيه ماء و إناء فيه خمر، و سمعت قائلا يقول:

إن أخذ الماء غرق و غرقت امته، و إن أخذ الخمر غوى و غويت امته و إن أخذ اللبن هدى و هديت امته قال: فأخذت اللبن و شربت منه فقال لى جبرئيل: هديت و هديت امتك.

ثم قال لى: ما ذا رأيت فى مسيرك؟ فقلت: نادانى مناد عن يمينى فقال: أو أجبته فقلت: لا- و لم ألتفت اليه فقال: داعى اليهود لو أجبته لتهودت امتك من بعدك ثم قال ما ذا رأيت؟ فقلت نادانى مناد عن يسارى فقال لى: أو أجبته؟ فقلت: لا و لم التفت اليه فقال: ذاك داعى النصارى و لو أجبته لتنصرت امتك من بعدك. ثم قال: ما ذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأه كاشفه عن ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك. فقال:

أو كلمتها؟ فقلت: لم اكلمها و لم التفت إليها فقال: تلك الدنيا و لو كلمتها لاختارت امتك الدنيا على الآخرة.

ثم سمعت صوتا أفرغنى، فقال لى جبرئيل: أسمع يا محمد؟ قلت: نعم قال: هذه صخره



قذفتها عن سفير جهنم منذ سبعين عاما فهذا حين استقرت قالوا: فما ضحك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى قبض.

قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه الى السماء الدنيا وعليها ملك يقال له: اسماعيل وهو صاحب الخطفه التي قال الله عزّ وجل: «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ» وتحتة سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك.

فقال: يا جبرئيل! من هذا الذى معك؟ فقال: محمد رسول الله قال: وقد بعث؟ قال: نعم ففتح الباب فسلمت عليه وسلم على و استغفرت له و استغفر لى و قال: مرحبا بالأخ الصالح و النبى الصالح، و تلقنتى الملائكة حتى دخلت السماء الدنيا فما لقينى ملك إلا ضاحكا مستبشرا حتى لقينى ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقا منه كربه المنظر ظاهر الغضب فقال لى مثل ما قالوا من الدعاء إلا أنه لم يضحك و لم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكة فقلت:

من هذا يا جبرئيل فإنى قد فرعت منه؟ فقال: يجوز أن يفزع منه فكلنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط، و لم يزل منذ أن ولاه الله جهنم يزداد كل يوم غضبا و غيظا على أعداء الله و أهل معصيته فينتقم الله به منهم، و لو ضحك الى أحد قبلك أو كان ضاحكا الى أحد بعدك لضحك اليك فسلمت عليه فرد السلام على و بشرنى بالجنه.

فقلت لجبرئيل و جبرئيل بالمكان الذى وصفه الله «مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ»: أ لا تأمره أن يرينى النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك أرمحدا النار فكشف عنها غطاءها و فتح بابا منها فخرج منها لهب ساطع فى السماء و فارت و ارتفعت حتى ظننت ليتناولنى مما رأيت فقلت: يا جبرئيل! قل له فليرد عليها غطاءها فأمره فقال لها: ارجعى فرجعت الى مكانها الذى خرجت منه.

ثم مضيت فرأيت رجلا آدما جسيما فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذريته فيقول: روح طيبه و ريح طيبه من جسد طيب ثم تلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

سوره المطففين على رأس سبع عشره آيه «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ وَمَا أَذْرَاكَ مَا عَلَيْنَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» الى آخرها؛ قال: فسلمت على أبي آدم و سلم على و استغفرت له و استغفر لى، و قال: مرحبا بالابن الصالح و النبي الصالح البعوث فى الزمن الصالح.

قال: ثم مررت بملك من الملائكه جالس على مجلس و اذا جميع الدنيا بين ركبتيه و إذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يتلفت يمينا و لا شمالا، مقبلا عليه كهيه الحزين فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا ملك الموت دائب فى قبض الأرواح فقلت: يا جبرئيل أدنى منه حتى اكلمه فأدنانى منه فسلمت عليه، و قال له جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة الذى أرسله الله الى العباد فرحب بى و حيانى بالسلام و قال: أبشر يا محمد فإنى أرى الخير كله فى امتك فقلت: الحمد لله المنان ذى النعم على عباده ذلك من فضل ربي و رحمته على فقال جبرئيل: هو أشد الملائكه عملا فقلت: أكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه؟ فقال: نعم. قلت: و تراهم حيث كانوا و تشهدهم بنفسك؟ فقال: نعم. فقال ملك الموت: ما الدنيا كلها عندى فيما سخره الله لى و مكنتى عليها إلا كالدهرم فى كف الرجل يقلبه كيف يشاء، و ما من دار إلا و أنا أتصفحه كل يوم خمس مرات، و أقول اذا بكى أهل الميت على ميتهم: لا تبكوا عليه فإن لى فيكم عوده و عوده حتى لا يبقى منكم أحد فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: كفى بالموت طامه يا جبرئيل فقال جبرئيل: إن ما بعد الموت أطم و أطم من الموت.

قال: ثم مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب و لحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث و يدعون الطيب فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون الحرام و يدعون الحلال و هم من امتك يا محمد.

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ثم رأيت ملكا من الملائكه جعل الله أمره عجيبا نصف جسده

الناس و النصف الآخر تلج فلا النار تذيب الثلج و لا الثلج تطفى النار و هو ينادى بصوت رفيع و يقول: سبحان الذى كف حر هذه النار فلا تذيب الثلج و كف برد هذا الثلج فلا يطفى حر هذه النار اللهم يا مؤلف بين الثلج و النار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا ملك و كله الله بأكناف السماء و اطراف الأرضين و هو انصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق.

و رأيت ملكين يناديان فى السماء احدهما يقول: اللهم اعط كل منفق خلفا و الآخر يقول:

اللهم اعط كل ممسك تلفا.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرض اللحم من جنوبهم و يلقى فى أفواههم فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الهمازون اللمازون.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام ترسخ رءوسهم بالصخر فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال:

هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار فى أفواههم و تخرج من ادبارهم فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام يريد احدهم ان يقوم فلا يدر من عظم بطنه فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس. و إذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على الناس غدوا و عشيا يقولون ربنا متى تقوم الساعة؟.

قال: ثم مضيت فإذا أنا بنسوان معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال:

هؤلاء اللواتى يورثن أموال أزواجهن أولاد غيرهم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: اشتد غضب الله على امرأه أدخلت على قوم فى نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم و أكل خزائنهم.

ثم قال: مررنا بملائكته من ملائكة الله عزّ وجل خلقهم الله كيف شاء و وضع وجوههم كيف شاء، ليس شىء من أطباق أجسادهم إلاّ- و هو يسبح الله و يحمده من كل ناحيه باصوات مختلفه اصوات مرتفعه بالتحميد و البكاء من خشيه الله فسألت جبرئيل عنهم فقال: كما ترى خلقوا إن الملك منهم الى جنب صاحبه ما كلمهم كلمه قط و لا رفعوا رءوسهم الى ما فوقها و لا خفضوها الى ما تحتها خوفا من الله و خشوعا فسلمت عليهم فردوا على ايماء برءوسهم لا ينظرون إلى من الخشوع فقال لهم جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة أرسله الله الى العباد رسولا و نبيا. و هو خاتم النبيين و سيدهم أ فلا تكلمون؟ قال: فلما سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا على بالسلام و أكرموني و بشروني بالخير لى و لامتى.

قال: ثم صعدنا الى السماء الثانيه فاذا فيها رجلان متشابهان فقلت: من هذان يا جبرئيل؟ فقال لى: ابنا الخاله يحيى و عيسى عليهما السلام فسلمت عليهما و سلما على و استغفرت لهما و استغفرا لى و قالالا: مرحبا بالأخ الصالح و النبي الصالح و إذا فيها من الملائكه و عليهم الخشوع قد وضع الله وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك الا يسبح الله بحمده بأصوات مختلفه.

ثم صعدنا الى السماء الثالثه فاذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليله البدر على سائر النجوم فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى، و قال: مرحبا بالنبي الصالح و الأخ الصالح و المبعوث فى الزمن الصالح، و إذا فيها ملائكه عليهم من الخشوع مثل ما وصفت فى السماء الاولى و الثانيه، و قال لهم جبرئيل فى أمرى ما قال للآخرين و صنعوا فى مثل ما صنع الآخرون.

ثم صعدنا الى السماء الرابعه و إذا فيها رجل فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا إدريس رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى، و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السموات التى عبرناها فبشرونى بالخير لى و لامتى، ثم رأيت ملكا جالسا على سرير تحت يديه سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك فوقه فى نفس رسول

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ هُوَ فَصَاحَ بِهِ جِبْرِئِيلُ فَقَالَ: قُمْ فَهُوَ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثمَّ صَعَدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ كَهَلٍ عَظِيمِ الْعَيْنِ لَمْ أَرْ كَهَلًا - أَعْظَمَ مِنْهُ حَوْلُهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ فَأَعْجَبَنِي كَثْرَتُهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا الْمُحِبُّ فِي قَوْمِهِ هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

ثمَّ صَعَدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ آدَمٌ طَوِيلٌ كَأَنَّهُ مِنْ شَنُوهٍ وَ لَوْ أَنَّ لَهُ قَمِيصِينَ لَنَفَذَ شَعْرَهُ فِيهِمَا وَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ: يَزْعَمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى اللَّهِ وَ هَذَا رَجُلٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَ اسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَ اسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

قَالَ: ثُمَّ صَعَدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَمَا مَرَرْتُ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ احْتَجِمْ وَ امْرَأَتُكَ بِالْحِجَامَةِ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَشْمَطُ الرَّأْسِ وَ اللَّحْيَةِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِئِيلُ مَنْ هَذَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي جَوَارِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمَ وَ هَذَا مَحَلُّكَ وَ مَحَلٌّ مِنْ اتَّقَى مِنْ أُمَّتِكَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَ الْبَنِ الصَّالِحِ وَ الْمَبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ فَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَ لَأُمَّتِي.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: وَرَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحَارًا مِنْ نُورٍ تَتَلَأَلُ تَلَأُلًا يَخْطَفُ بِالْأَبْصَارِ، وَ فِيهَا بَحَارٌ مِنْ ظِلْمَةٍ وَ بَحَارٌ مِنْ ثَلْجٍ تَرَعْدُ فَكَلِمًا فَزَعَتْ وَرَأَيْتُ هَوْلًا سَأَلْتُ جِبْرِئِيلَ فَقَالَ: ابْشُرْ يَا مُحَمَّدُ وَ اشْكُرْ كَرَامَةَ رَبِّكَ وَ اشْكُرْ اللَّهَ بِمَا صَنَعَ إِلَيْكَ قَالَ: فَثَبَّتَنِي اللَّهُ بِقُوَّتِهِ وَ عَوْنِهِ حَتَّى كَثُرَ قَوْلِي لِجِبْرِئِيلَ وَ تَعَجَّبِي.

فَقَالَ جِبْرِئِيلُ: يَا مُحَمَّدُ تَعْظِمُ مَا تَرَى؟ إِنَّمَا هَذَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ رَبِّكَ فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الَّذِي

خلق ما ترى و ما لا ترى أعظم من هذا من خلق ربك إن بين الله و بين خلقه سبعين ألف حجاب و أقرب الخلق الى الله أنا و إسرافيل و بيننا و بينه أربعة حجب حجاب من نور و حجاب من الظلمه و حجاب من الغمامه و حجاب من الماء.

قال: و رأيت من العجائب التى خلق الله و سخر على ما أراده ديكا رجلاه فى تخوم الأرضين السابعة و رأسه عند العرش و هو ملك من ملائكة الله تعالى خلقه الله كما أراد رجلاه فى تخوم الأرضين السابعة ثم أقبل مصعدا حتى خرج فى الهواء الى السماء السابعة و انتهى فيها مصعدا حتى انتهى قرنه الى قرب العرش و هو يقول: سبحان ربي حيثما كنت لا تدري أين ربك من عظم شأنه، و له جناحان فى منكبها إذا نشرهما جاوزا المشرق و المغرب فاذا كان فى السحر نشر جناحيه و خفق بهما و صرخ بالتسبيح يقول: سبحان الله الملك القدوس، سبحان الله الكبير المتعال لا إله إلا الله الحى القيوم و إذا قال ذلك سبحت ديوك الأرض كلها و خفقت باجنحتها و أخذت بالصراخ فاذا سكت ذلك الديك فى السماء سكت ديوك الأرض كلها، و لذلك الديك زغب أخضر و ريش أبيض كاشد بياض ما رأيت قط، و له زغب أخضر أيضا تحت ريشه الابيض كأشد خضره ما رأيتها قط.

قال: ثم مضيت مع جبرئيل فدخلت البيت المعمور فصليت فيه ركعتين و معى اناس من اصحابى عليهم ثياب جدد و آخرين عليهم خلقان فدخل أصحاب الجدد و جلس أصحاب الخلقان.

ثم خرجت فانقاد لى نهران نهر يسمى الكوثر و نهر يسمى الرحمه فشربت من الكوثر و اغتسلت من الرحمه ثم انقادا لى جميعا حتى دخلت الجنة و إذا على حافتيها بيوتى و بيوت أهلى و إذا ترابها كالمسك، و اذا جاريه تنغمس فى أنهار الجنة فقلت: لمن أنت يا جاريه؟ فقالت: لزيد بن حارثه فبشرته بها حين أصبحت، و اذا بطيرها كالبخت، و اذا رمانها مثل الدلى العظام، و اذا شجره لو ارسل طائر فى اصلها ما دارها سبعمائه سنه، و ليس فى الجنة منزل

الا وفيه غصن منها فقلت: ما هذه يا جبرئيل؟ فقال: هذه شجرة طوبى قال الله: «طوبى لهم وحسن مآب».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فلما دخلت الجنة رجعت الى نفسي فسألت جبرئيل عن تلك البحار و هولها و أعاجيبها فقال: هي سرادقات الحجب التي احتجب الله تبارك و تعالى بها و لو لا تلك الحجب لهتك نور العرش كل شيء فيه.

و انتهيت الى صدره المنتهى فاذا الورقة منها تظل امه من الاعم فكنت منها كما قال الله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فناداني «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ» فقلت أنا مجيبا عنى و عن امتى: «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فقال الله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» فقلت: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» فقال الله: لا أوأخذك، فقلت «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» فقال الله: احملك فقلت: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» فقال الله تبارك و تعالى: قد اعطيتك ذلك لك و لامتك، فقال الصادق عليه السلام: ما وفد الى الله تعالى احد اكرم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سأل لامته هذه الخصال.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا رب أعطيت أنبياءك فضائل فاعطني فقال الله: قد أعطيتك فيما أعطيتك كلمتين من تحت عرشى: لا حول و لا قوة الا بالله، و لا منجى منك الا اليك.

قال: و علمتني الملائكة قولا ا قوله اذا اصبحت و أمسيت: اللهم ان ظلمى اصبح مستجيرا بعفوك، و ذنبى اصبح مستجيرا بمغفرتك و ذلى اصبح مستجيرا بعزتك، و فقرى اصبح مستجيرا بغناك و وجهى الفانى اصبح مستجيرا بوجهك الباقي الذى لا يفنى، و اقول ذلك اذا امسيت.

ثم سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن لم ير في السماء قبل تلك الليله فقال:الله أكبر الله أكبر فقال الله:صدق عبدى أنا أكبر من كل شىء فقال:«أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله» فقال الله:صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنا و لا إله غيرى فقال:«أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله»فقال الله:صدق عبدى إن محمدا عبدى و رسولى انا بعثته و انتجبتة فقال:«حى على الصلاه حى على الصلاه»فقال:صدق عبدى دعا الى فريضتى فمن مشى إليها راغبا فيها محتسبا كانت له كفاره لما مضى من ذنوبه فقال:«حى على الفلاح حى على الفلاح»فقال الله:هى الصلاح و النجاح و الفلاح.ثم أمت الملائكه فى السماء كما أمت الأنبياء فى بيت المقدس.

قال:ثم غشيتنى ضبابه فخررت ساجدا فنادانى ربى أنى قد فرضت على كل نبى كان قبلك خمسين صلاه و فرضتها عليك و على امتك فقم بها انت فى امتك قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

فانحدرت حتى مررت على ابراهيم فلم يسألنى عن شىء حتى انتهيت الى موسى فقال:ما صنعت يا محمد؟فقلت:قال ربى:فرضت على كل نبى كان قبلك خمسين صلاه و فرضتها عليك و على امتك.فقال موسى:يا محمد ان امتك آخر الأمم و أضعفها و إن ربك لا يزيده شىء و إن امتك لا تستطيع أن تقوم بها فارجع الى ربك فأسأله التخفيف لامتك.

فرجعت الى ربى حتى انتهيت الى صدره المنتهى فخررت ساجدا ثم قلت:فرضت على و على امتى خمسين صلاه و لا أطيق ذلك و لا- امتى فخفف عنى فوضع عنى عشرا فرجعت الى موسى فأخبرته فقال:ارجع لا- تطيق فرجعت الى ربى فوضع عنى عشرا فرجعت الى موسى فأخبرته فقال:ارجع و فى كل رجعه أرجع اليه آخر ساجدا حتى رجع الى عشر صلوات فرجعت الى موسى و أخبرته فقال:لا تطيق فرجعت الى ربى فوضع عنى خمسا فرجعت الى موسى و أخبرته فقال:لا تطيق فقلت:قد استحييت من ربى و لكن اصبر عليها فنادانى مناد:

كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كل صلاه بعشر،و من هم من امتك بحسنه يعملها



فعملها كتبت له عشرا وإن لم يعمل كتبت له واحده، و من هم من امتك بسيئه فعلها كتبت عليه واحده وإن لم يعملها لم أكتب عليه.

فقال الصادق عليه السلام: جزی اللہ موسی عن هذه الامه خيرا فهذا تفسير قول الله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

اقول: وقد ورد ما يقرب مما قصته هذه الروايه فى روايات كثيره جدا من طرق الشيعة و أهل السنه، و قوله فى الروايه: «رجلا آدم» يقال: رجل آدم أى أسمر اللون، و الطامه هى الأمر الشديد الذى يغلب ما سواه، و لذلك سميت القيامه بالطامه، و الأكتاف جمع كتف و المراد الأطراف و النواحي، و قوله: «فوقع فى نفس رسول الله أنه هو» أى أنه الملك الذى يدبر أمر العالم و ينتهى اليه كل أمر.

و قوله: شنوه بالشين و النون و الواو و ربما يهمز قبيله كانوا معروفين بطول القامه، و قوله:

«أشمط الرأس و اللحيه» الشمط بياض الشعر يخالطه سواد، و الزغب أول ما يبدو من الشعر و الريض و صغارهما، و البخت الإبل الخراسانى و الدلى بضم الدال و كسر اللام و تشديد الياء جمع دلو على فعول، و الصبابه بفتح الصاد لمهمله و الباء الموحده الشوق و الهوى الرقيق و بالمعجمه مضمومه الغيم الرقيق.

و فى أمالى الصدوق عن أبيه عن على عن أبيه عن ابن أبى عمير عن أبان بن عثمان عن أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: لَمَّا أُسْرَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَمَلَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَى الْبَرَاقِ فَأْتِيَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَ عَرَضَ عَلَيْهِ مَحَارِبَ الْأَنْبِيَاءِ وَ صَلَّى بِهَا وَ رَدَّهُ فَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ فِي رَجُوعِهِ بِعِيرِ لُقْرِيشٍ وَ إِذَا لَهُمْ مَاءٌ فِي آنِيهِ وَ قَدْ أَضَلُّوا بِعِيرِ لَهُمْ وَ كَانُوا يَطْلُبُونَهُ فَشَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ وَ أَهْرَقَ بَاقِيَهُ.

فلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ قَالَ لُقْرِيشٍ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أُسْرَى بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ

و أرانى آثار الأنبياء و منازلهم، و إنى مررت بعير لقريش فى موضع كذا و كذا و قد أضلوا بعيرا لهم فشربت من مائهم و أهرقت باقى ذلك فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصه منه فاسألوه كم الأساطين فيها و القناديل؟ فقال: يا محمد إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه و قناديله و محاريبه؟ فجاء جبرئيل فعلق صورته بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه فلما أخبرهم، قالوا: حتى يجىء العير و نسألهم عما قلت، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق.

فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون الى عقبه و يقولون هذه الشمس تطلع الساعه فينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق فاخبروهم عما قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: لقد كان هذا: ضل جمل لنا فى موضع كذا و كذا، و وضعنا ماء فأصبحنا و قد أهريق الماء فلم يزدهم ذلك إلا عتوا.

أقول: و فى معناها روايات اخرى من طريق الفريقين.

و فيه بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لما أسرى به الى السماء انتهى به جبرئيل الى نهر يقال له النور و هو قوله عزّ و جل: «جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ» فلما انتهى به الى ذلك قال له جبرئيل: يا محمد اعبر على بركه الله فقد نور الله لك بصرك و مر لك أمامك فإن هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب و لا نبي مرسل غير أن لى فى يوم اغتماسه فيه ثم أخرج منه فأنفذ أجنحتى فليس من قطره تقطر من أجنحتى إلا خلق الله تبارك و تعالى منها ملكا مقربا له عشرون ألف وجه و أربعون ألف لسان كل لسان يلفظ بلغه لا يفقهها اللسان الآخر.

فعبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى انتهى الى الحجب و الحجب خمس مائه حجاب من الحجاب الى الحجاب مسيره خمسمائه عام ثم قال: تقدم يا محمد فقال له: يا جبرئيل و لم لا تكون معنى؟ قال: ليس لى أن أجوز هذا المكان فتقدم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما شاء الله أن يتقدم حتى سمع ما قال الرب تبارك و تعالى: أنا المحمود و أنت محمد شققت اسمك من اسمى فمن وصلك وصلته و من

قطعك بتكته انزل الى عبادى فأخيرهم بكرامتى إياك و أنى لم أبعث نبيا إلا جعلت له وزيرا و إنك رسولى و إن عليا وزيرك.

و فى المناقب عن ابن عباس فى خبر: و سمع يعنى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم صوتا «آمنا برب العالمين» قال يعنى جبرئيل: هؤلاء سحره فرعون، و سمع لبيك اللهم لبيك قال: هؤلاء الحجاج، و سمع التكبير قال: هؤلاء الغزاه، و سمع التسييح قال: هؤلاء الأنبياء.

فلما بلغ الى صدره المنتهى و انتهى الى الحجب، قال جبرئيل: تقدم يا رسول الله ليس لى أن أجوز هذا المكان و لو دنوت أنمله لاحتقرت.

و فى الاحتجاج عن ابن عباس قال: قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما احتج على اليهود: حملت على جناح جبرئيل حتى انتهيت الى السماء السابعة فجاوزت صدره المنتهى عندها جنه المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا الله لا إله إلا أنا السلام للمؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم فرأيته بقلبي و ما رأيته بعيني. الخبر.

و فى الكافى بإسناده عن أبى الربيع قال: حججنا مع أبى جعفر عليه السلام فى السنه التى كان حج فيها هشام بن عبد الملك و كان معه نافع مولى عمر بن الخطاب فنظر نافع الى أبى جعفر عليه السلام فى ركن البيت و قد اجتمع اليه الناس فقال نافع: يا أمير المؤمنين من هذا الذى قد تداك عليه الناس؟ فقال: هذا نبى أهل الكوفه هذا محمد بن على فقال: اشهد لآتينه فلا سألته من مسائل لا يجيبني فيها إلا نبى أو وصى أو ابن نبى. قال: فاذهب اليه و أسأله لعلك تخجله.

فجاء نافع حتى اتكأ على الناس ثم أشرف على أبى جعفر عليه السلام و قال: يا محمد ابن على إني قرأت التوراه و الإنجيل و الزبور و الفرقان و قد عرفت حلالها و حرامها، و قد جئت أسألك عن مسائل لا يجيب فيها إلا نبى أو وصى أو ابن نبى. قال: فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه و قال: سل عما بدا لك.

فقال: أخبرنى كم بين عيسى و بين محمد من سنه؟ قال: أخبرك بقولى أو بقولك قال:

أخبرني بالقولين جميعا قال: أما في قولي فخمسمائه سنة، وأما في قولك فستمائه سنة، قال:

فأخبرني عن قول الله عزّ وجل: وَ سَيَّلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ من الذى سأله محمد صلى الله عليه وآله وسلم و كان بينه و بين عيسى عليه السلام خمسمائه سنة؟.

قال: فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا فكان من الآيات التي أراها الله تبارك و تعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم حيث أسرى به الى البيت المقدس أن حشر الله الأولين و الآخرين من النبيين و المرسلين ثم أمر جبرئيل فأذن شفعا و أقام شفعا، و قام فى أذانه حتى على خير العمل ثم تقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فصلى بالقوم.

فلما انصرف قال لهم: على ما تشهدون؟ ما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك رسول الله اخذ على ذلك عهدنا و موثيقنا. فقال: نافع: صدقت يا أبا جعفر.

و فى العليل باسناده عن ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين على بن الحسين عليه السلام عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك. قلت: فلم أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات و ما فيها من عجائب صنعه و بدائع خلقه.

قلت: فقول الله عزّ وجل: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى قال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحت الى ملكوت الأرض حتى ظن أنه فى القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

و فى تفسير القمى باسناده عن إسماعيل الجعفى قال: كنت فى المسجد الحرام قاعدا و أبو جعفر عليه السلام فى ناحيه فرفع رأسه فنظر الى السماء مره و الى الكعبه مره ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» و كرر ذلك ثلاث مرات ثم

التفت إلى فقال: أى شىء يقولون أهل العراق فى هذه الآيه يا عراقى؟ قلت: يقولون اسرى به من المسجد الحرام الى البيت المقدس. فقال: ليس هو كما يقولون و لكنه اسرى به من هذه الى هذه و أشار بيده الى السماء و قال: ما بينهما حرم.

قال: فلما انتهى به الى صدره المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: يا جبرئيل أفى مثل هذا الموضوع تخذلنى؟ فقال: تقدم أمامك فو الله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك فرأيت ربي و حال بينى و بينه السبحة قلت: و ما السبحة جعلت فداك؟ فأوماً بوجهه الى الأرض و أوماً بيده الى السماء و هو يقول: جلال ربي جلال ربي، ثلاث مرات. قال: يا محمد قلت: لبيك يا رب قال: فيم اختصم الملائة الأعلى؟ قلت سبحانك لا علم لى إلا ما علمتنى.

قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي. قال: فلم يسألنى عما مضى و لا عما بقى الا علمته فقال: يا محمد فيم اختصم الملائة الأعلى؟ قال: قلت: فى الدرجات و الكفارات و الحسنات فقال: يا محمد انه قد انقضت نبوتك و انقطع أكلك فمن وصيكت؟ فقلت: يا رب انى قد بلوت خلقك فلم أر فيهم من خلقك أحد أطوع لى من على فقال: و لى يا محمد فقلت:

يا رب انى قد بلوت خلقك فلم أر من خلقك أحداً أشد حبا لى من على بن أبى طالب قال: و لى يا محمد فبشره بأنه آيه الهدى و امام أوليائى و نور لمن أطاعنى و الكلمه الباقية التى ألزمتها المتقين من أحبه أحببى و من أبغضه أبغضنى معما أنى أخصه بما لم أخص به أحداً فقلت: يا رب أخى و صاحبى و وزيرى و وارثى فقال: انه أمر قد سبق انه مبتلى به معما أنى قد نحلته و نحلته و نحلته و نحلته أربعة أشياء عقدها بيده و لا يفصح بما عقدها.

أقول: قوله عليه السلام: «و لكنه أسرى به من هذه الى هذه» أى من الكعبة الى البيت المعمور، و ليس المراد به نفى الإسراء الى بيت المقدس و لا - تفسير المسجد الأقصى فى الآيه بالبيت المعمور بل المراد نفى أن ينتهى الإسراء الى بيت المقدس و لا يتجاوزه فقد استفاضت الروايات

وقوله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «فرأيت ربي» أي شاهدته بعين قلبي كما تقدم في بعض الروايات السابقة و يؤيده تفسير الرؤيه بذلك في روايات أخر.

وقوله: «و حالتي بيني وبينه السبحه» أي بلغت من القرب والزلفى مبلغا لم يبق بيني وبينه إلا - جلاله، وقوله: فوضع يده بين ثديي، الخ؛ كناية عن الرحمه الإلهيه، ومحصله نزول العلم من لدنه تعالى على قلبه بحيث يزيل كل ريب وشك.

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبه و مسلم و ابن مردويه من طريق ثابت عن أنس أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال: أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقه التي يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين.

ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل:

اخترت الفطره، ثم عرج بنا الى سماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثانيه فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخاله عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثالثه فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الرابعه فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من

معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه، قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بإدريس فرحب بي و دعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهارون فرحب بي و دعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي و دعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بإبراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور و إذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه.

ثم ذهب بي الى صدره المنتهى فاذا ورقها فيها كآذان الفيله و اذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى إليّ ما أوحى و فرض عليّ خمسين صلاة فى كل يوم و ليله فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال: ما فرض ربك على امتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: ارجع الى ربك فأسأله التخفيف فإن امتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى اسرائيل و خبرتهم.

فرجعت الى ربي فقلت: يا رب خفف عن امتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقلت:

حط عنى خمسا فقال: إن امتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فأسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي و موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات لكل يوم و ليله لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، و من هم بحسنه فلم يعملها كتبت له حسنه فإن عملها كتبت له عشر، و من هم بسيئه فلم يعملها لم يكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئه واحده فنزلت حتى انتهيت الى

موسى فأخبرته فقال:ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقلت:قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه.

أقول:وقد روى الخبر عن أنس بطرق مختلفه منها ما عن البخارى و مسلم و ابن جرير و ابن مردويه من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس قال:ليله أسرى برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم من مسجد الكعبه جاءه ثلاثه نفر قبل أن يوحى اليه و هو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم:أيهم هو؟فقال أوسطهم:هو خيرهم فقال أحدهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليله فلم يرههم حتى أتوه ليله اخرى فيما يرى قلبه و تنام عيناه و لا ينام قلبه و كذلك الأنبياء تنام أعينهم و لا ينام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبتة حتى فرغ من صدره و جوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب محشوا إيمانا و حكمه فحشا به صدره و لغايديه يعنى عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الى سماء الدنيا ثم ساق الحديث نحو ما تقدم.

و الذى وقع فيه من شق بطن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و غسله و إنقائه ثم حشوه إيمانا و حكمه حال مثاليه شاهدها و ليس بالأمر المادى كما ربما يزعم،و يشهد به حشوه إيمانا و حكمه و أخبار المعراج مملوءه من المشاهدات المثاليه و التمثلات الروحيه،وقد ورد هذا المعنى فى عدة من أخبار المعراج المرويّه من طرق القوم و لا ضير فيه كما لا يخفى.

و ظاهر الروايه أن معراجه صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان قبل البعثه و أنه كان فى المنام أما كونه قبل البعثه فيدفعه معظم الروايات الوارده فى الإسراء و هى أكثر من أن تحصى و قد اتفق على ذلك علماء هذا الشأن.

على أن الحديث نفسه يدفع كون الإسراء قبل البعثه و قد اشتمل على فرض الصلوات و كونها أولا خمسين ثم سؤال التخفيف بإشاره من موسى عليه السّلام و لا معنى للفرض قبل النبوه فمن الحرى أن يحمل صدر الحديث على أن الملائكه أتوه أولا قبل أن يوحى اليه ثم تركوه ثم جاءوه



ليه اخرى بعد بعثته و قد ورد فى بعض رواياتنا أن الذين كانوا نائمين معه فى المسجد ليه أسرى به هم حمزه بن عبد المطلب و جعفر و على ابنا أبى طالب.

و أما ما وقع فيه من كون ذلك فى المنام فيمكن-على بعد-أن يكون ناظرا الى ما ذكر فيه من حديث الشق و الغسل لكن الأظهر أن المراد به وقوع الإسراء بجملته فى المنام كما يدل عليه ما يأتى من الروايات.

و فى الدر المنثور أيضا أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن معاوية بن أبى سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: كانت رؤيا من الله صادقه.

اقول: و ظاهر الآيه الكريمة: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ** -الى قوله- **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** يرده، و كذا آيات صدر سوره النجم و فيها مثل قوله: **مَا زَاغَ الْبَصِيرُ** و **مَا طَغَى** لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى على أن الآيات فى سياق الامتنان و فيها ثناء على الله سبحانه بذكر بديع رحمته و عجب قدرته، و من الضرورى أن ذلك لا يتم برؤيا يراها النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الرؤيا يراها الصالح و الطالح و ربما يرى الفاسق الفاجر ما هو ابداع مما يراه المؤمن المتقى و الرؤيا لا تعد عند عامه الناس إلا نوعا من التخيل لا يستدل به على شىء من القدره و السلطنه بل غايه ما فيها أن يتفائل بها فيرجى خيرها أو يتطير بها فيتخاف شرها.

و فيه أخرج ابن اسحاق و ابن جرير عن عائشه قالت: ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لكن الله أسرى بروحه.

اقول: و يرد عليه ما ورد على سابقه على أنه يكفى فى سقوط الروايه اتفاق كلمه الرواه و أرباب السير على أن الإسراء كان قبل الهجره بزمان و أنه صلى الله عليه و آله و سلم بنى بعائشه فى المدينه بعد الهجره بزمان لم يختلف فى ذلك اثنان و الآيه أيضا صريحه فى إسرايه صلى الله عليه و آله و سلم من المسجد الحرام.

و فيه أخرج الترمذى و حسنه و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن مسعود: قال: قال رسول

اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لقيت ابراهيم ليلاه اسرى بى فقال: يا محمد اقرأ امتك منى السلام و أخبرهم أن الجنه طيبه التربه عذبه الماء و أنها قيعان و أن غراسها سبحان اللّٰهُ و الحمد لله و لا إله إلا اللّٰهُ و اللّٰهُ أكبر لا حول و لا قوه إلا باللّٰهُ.

و فيه أخرج الطبراني عن عائشه قالت: قال رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَمَّا اسرى بى الى السماء ادخلت الجنه فوقعت على شجره من أشجار الجنه لم أر فى الجنه أحسن منها و لا أبيض ورقا و لا أطيب ثمره فتناولت ثمره من ثمرها فأكلتها فصارت نطفه فى صلبى فلما هبطت الى الأرض واقعت خديجه فحملت بفاطمه فإذا أنا اشتقت الى ريح الجنه شممت ريح فاطمه.

و فى تفسير القمى عن أبيه عن ابن محبوب عن ابن رثاب عن أبي عبيده عن الصادق عليه السّلام قال: كان رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يكثّر تقبيل فاطمه فأنكرت ذلك عائشه فقال رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا عائشه إنى لَمَّا اسرى بى الى السماء دخلت الجنه فأدنانى جبرئيل من شجره طوبى و ناولنى من ثمارها فأكلته فحول اللّٰهُ ذلك ماء فى ظهري فلما هبطت الى الأرض واقعت خديجه فحملت بفاطمه فما قبلتها قط إلا وجدت رائحه شجره طوبى منها.

و فى الدر المنثور أخرج الطبراني فى الأوسط عن ابن عمر أن النّبى صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما اسرى به الى السماء اوحى اليه بالأذان فنزل به فعلمه جبريل.

و فيه أخرج ابن مردويه عن على أن النّبى صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علم الأذان ليله اسرى به و فرضت عليه الصلاه.

و فى العلل بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام كيف صارت الصلاه ركعه و سجدتين؟ و كيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين؟ فقال: إذا سألت عن شىء ففرغ قلبك لتفهم. إن أول صلاه صلاها رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما صلاها فى السماء بين يدي اللّٰهُ تبارك و تعالى قدام عرشه جل جلاله.

و ذلك أنه لما اسرى به و صار عند عرشه تبارك و تعالى قال: يا محمد ادن من صاد

فاغتسل مساجدك و طهرها و صل لربك فدنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الى حيث أمره الله تبارك و تعالى فتوضأ فأسغ وضوءه ثم استقبل الجبار تبارك و تعالى قائما فأمره بافتتاح الصلاة ففعل.

فقال: يا محمد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الى آخرها ففعل ذلك ثم أمره أن يقرأ نسبه ربه تبارك و تعالى بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد ثم أمسك عنه القول فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: قل هو الله أحد الله الصمد فقال: قل: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد فأمسك عنه القول فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: كذلك الله ربي كذلك الله ربي.

فلما قال ذلك قال: اركع يا محمد لربك فركع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال له و هو راع: قل سبحان ربي العظيم و بحمده ففعل ذلك ثلاثا، ثم قال: ارفع رأسك يا محمد ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقام منتصبا بين يدي الله فقال: اسجد يا محمد لربك فخر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا فقال: قل سبحان ربي الأعلى و بحمده ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثلاثا فقال: استو جالسا يا محمد ففعل فلما استوى جالسا ذكر جلال ربه جل جلاله فخر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أيضا ثلاثا فقال: انتصب قائما ففعل فلم يرى ما كان رأى من عظمه ربه جل جلاله.

فقال له: اقرأ يا محمد و افعل كما فعلت في الركعة الاولى ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم سجد سجده واحده فلما رفع رأسه ذكر جلال ربه تبارك و تعالى فخر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أيضا ثم قال له: ارفع رأسك ثبتك الله و اشهد أن لا إله إلاّ و أن محمدا رسول الله و أن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من فى القبور اللهم صل على محمد و آل محمد كما صليت و باركت و ترحمت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم تقبل شفاعته فى امته و ارفع درجته ففعل.

فقال: يا محمد و استقبل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ربه تبارك و تعالى وجهه مطرقا فقال: السلام

عليك فأجابه الجبار جل جلاله فقال: و عليك السلام يا محمد بنعمتي قويتك على طاعتي و بعصمتي اتخذتك نبيا و حبيبا.

ثم قال أبو الحسن عليه السلام: و إنما كانت الصلاة التي امر بها ركعتين و سجدتين و هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم إنما سجد سجدتين في كل ركعه كما أخبرتك من تذكره لعظمه ربه تبارك و تعالى فجعله الله عزّ و جل فرضا.

قلت: جعلت فداك و اما صاد الذي امر أن يغتسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له: ماء الحياه و هو ما قال الله عزّ و جل: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ يَتُوضَّأَ وَيُقْرَأَ وَيُصَلَّى.

أقول: و في معناها روايات أخر.

و في الكافي بإسناده عن علي بن أبي حمزه قال: سألت أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام و أنا حاضر فقال: جعلت فداك كم عرج برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم؟ فقال: مرتين فأوقفه جبرئيل موقفا فقال له:

مكانك يا محمد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك قط و لا نبي إن ربك يصلي فقال: يا جبرئيل و كيف يصلي؟ فقال: يقول: سبح قدوس أنا رب الملائكة و الروح سبقت رحمتي غضبي فقال: اللهم عفوك عفوك.

قال: و كان كما قال الله: قاب قوسين أو أدنى فقال له أبو بصير: جعلت فداك و ما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سبتها الى رأسها فقال: بينهما حجاب يتلألأ- و لا- أعلمه إلا- و قد قال: من زبرجد فنظر في مثل سم الإبره الى ما شاء الله من نور العظمه. الحديث.

أقول: و آيات صدر سوره النجم تؤيد ما في الروايه من وقوع المعراج مرتين ثم الاعتبار يساعد على ما في الروايه من صلواته تعالى فإن الأصل في معنى الصلاة الميل و الانعطاف، و هو من الله سبحانه الرحمه و من العبد الدعاء كما قيل، و احتمال ما أخبر به جبرئيل من صلواته تعالى على قوله: «سبقت رحمتي غضبي» يؤيد ما ذكرناه و لذلك أيضا أوقفه جبرئيل في الموقف

الذى أوقفه و ذكر له أنه موطأ ما وطئه أحد قبله و ذلك أن لازم ما وصفه بهذا الوصف أن يكون الموقف هو الحد الفاصل بين الخلق و الخالق و آخر ما ينتهى اليه الانسان من الكمال فهو الحد الذى يظهر فيه الرحمه الإلهيه و تفاض على ما دونه و لهذا اوقف صلى الله عليه و آله و سلم لمشاهدته.

و فى المجمع-و هو ملخص من الروايات-أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال:أتانى جبرائيل و أنا بمكه فقال:قم يا محمد فقمتم معه و خرجت الى الباب فإذا جبرئيل و معه ميكائيل و إسرافيل فأتى جبرائيل بالبراق و كان فوق الحمال و دون البغل خده كخذ الإنسان و ذنبه كذنب البقر و عرفه كعرف الفرس و قوائمه كقوائم الإبل عليه رحل من الجنة و له جناحان من فخذه خطوه منتهى طرفه فقال:اركب فركبت و مضيت حتى انتهيت الى بيت المقدس.

ثم ساق الحديث الى أن قال:فلما انتهيت الى بيت المقدس إذا ملائكه نزلت من السماء بالبشاره و الكرامه من عند رب العزه و صليت فى بيت المقدس،و فى بعضها-بشر لى إبراهيم- فى رهط من الأنبياء ثم وصف موسى و عيسى ثم أخذ جبرائيل بيدي إلى الصخره فأقعدنى عليها فإذا معراج الى السماء لم أر مثلها حسنا و جمالا.

فصعدت الى السماء الدنيا و رأيت عجائبها و ملكوتها و ملائكتها يسلمون على ثم صعد بي جبرائيل الى السماء الثانيه فرأيت فيها عيسى بن مريم و يحيى بن زكريا.ثم صعد بي الى السماء الثالثه فرأيت فيها يوسف.ثم صعد بي الى السماء الرابعه فرأيت فيها ادريس.ثم صعد بي الى السماء الخامسه فرأيت فيها هارون ثم صعد بي الى السماء السادسه فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم فى بعض و فيها الكروبيون ثم صعد بي الى السماء السابعه فأبصرت فيها خلقا و ملائكه -و فى حديث أبى هريره رأيت فى السماء السادسه موسى،و رأيت فى السماء السبعه ابراهيم.

قال:ثم جاوزناها متصاعدين الى أعلى عليين-و وصف ذلك الى أن قال-ثم كلمنى ربي و كلمته،و رأيت الجنة و النار،و رأيت العرش و سدرة المنتهى ثم رجعت الى مكه فلما أصبحت حدثت به الناس فكذبنى أبو جهل و المشركون و قال مطعم بن عدى:أ تزعم أنك سرت

مسيره شهرين فى ساعه؟ أشهد أنك كاذب.

قالوا: ثم قالت قريش: أخبرنا عما رأيت فقال: مررت بعير بنى فلان وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحلهم قعب (١) مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطيته فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح؟ قالوا: هذه آيه واحده.

قال: و مررت بعير بنى فلان فنفرت بكره فلان فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك فقالوا: هذه آيه اخرى قالوا: فأخبرنا عن غيرنا قال: مررت بها بالنعيم و بين لهم أحمالها و هيآتها و قال: يقدمها جمل أورق عليه فزارتان محيطتان و تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا: هذه آيه اخرى.

ثم خرجوا يشهدون نحو التيه و هم يقولون: لقد قضى محمد بيننا و بينه قضاء بينا، و جلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه؟ فقال قائل: و الله إن الشمس قد طلعت، و قال آخر:

و الله هذه الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فبهتوا و لم يؤمنوا.

و فى تفسير العياشى عن هشام بن الحكم عن أبى عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم صلى العشاء الآخرة و صلى الفجر فى الليله التى اسرى به بمكه.

أقول: و فى بعض الأخبار أنه صلى الله عليه و آله و سلم صلى المغرب بالمسجد الحرام ثم اسرى به و لا منافاه بين الروايتين و كذا لا- منافاه بين كونه صلى المغرب او العشاء الآخرة و الفجر بمكه و بين كون الصلوات الخمس فرضت عليه فى السماء ليله الإسراء فإن فرض أصل الصلاة كان قبل ذلك، و أما أنها كم ركعه كانت فغير معلوم غير أن الآثار تدل على أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان يقيم الصلاة منذ بعثه الله نبيا و فى سورة العلق: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عِبْدًا إِذَا صَلَّى و قد روى أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان يصلى بعلى و خديجه عليهما السلام بالمسجد الحرام قبل أن يعلن دعوته بمدته.

ص: ٦٧٠

١- ١). القعب: القدح الضخم الغليظ.

و فى الكافى عن العامرى عن أبى جعفر عليه السّلام قال: لما عرج برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم نزل بالصلاه عشر ركعات ركعتين ركعتين فلما ولد الحسن والحسين عليهما السّلام زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم سبع ركعات شكراً لله فأجاز الله له ذلك وترك الفجر لم يزد فيها لأنه يحضرها ملائكه الليل وملائكه النهار فلما أمره الله بالتقصير فى السفر وضع عن امته ست ركعات وترك المغرب لم ينقص منه شيئاً، وإنما يجب السهو فيما زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فمن شك فى أصل الفرض فى الركعتين الأوليين استقبل صلاته.

و روى الصدوق فى الفقيه باسناده عن سعيد بن المسيب أنه سأل على بن الحسين عليه السّلام فقال: متى فرضت الصلاه على المسلمين على ما هى اليوم عليه؟ فقال: بالمدينه حين ظهرت الدعوه وقوى الإسلام و كتب الله على المسلمين الجهاد زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فى الصلاه سبع ركعات فى الظهر ركعتين وفى العصر ركعتين وفى المغرب ركعه وفى العشاء الآخره ركعتين، وأقر الفجر على ما فرضت بمكه. الحديث.

و فى الدر المنثور أخرج أحمد والنسائى والبزار والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: لما اسرى بى مرت بى رايحه طيبه فقلت: يا جبريل ما هذه الرايحه الطيبه؟ قال: ماشطه بيت فرعون وأولادها كانت تمشطها فسقط المشط من يدها فقالت: بسم الله فقالت ابنه فرعون: أبى؟ قال: بلى ربي وربك ورب أبىك قالت: أو لك رب غير أبى؟ قال: نعم قالت: فأخبر بذلك أبى؟ قال: نعم.

فأخبرته فدعاها فقال: أ لك رب غيرى؟ قالت: نعم ربي وربك الله الذى فى السماء فأمر بيقره من نحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها. قالت: إن لى اليك حاجه قال: وما هى؟ قال: تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنه جميعاً. قال: ذلك لك لما لك علينا من حق فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم قال: نعى يا أمه ولا تقاعسى فإنك على الحق فألقيت هى و ولدها.

قال ابن عباس: و تكلم أربعة و هم صغار: هذا و شاهد يوسف و صاحب جريح و عيسى بن مريم.

اقول: و روى من وجه آخر عن ابن عباس عن ابى بن كعب عن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

و فيه أخبر ابن مردويه عن أنس أن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم قال: ليله اسرى بى مررت بناس يقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء امتك الذين يقولون ما لا يفعلون.

اقول: و هذا النوع من التمثلات البرزخيه التى تصور الأعمال بنتائجها و العذابات المعده لها كثيره الورود فى أخبار الإسراء و قد تقدم شطر منها فى ضمن الروايات.

و اعلم أن ما أوردناه من أخبار الإسراء نبذه يسيره منها و هى كثيره بالغه حد التواتر رواها جم غفير من الصحابه كأنس بن مالك و شداد بن الأوس و على بن أبى طالب عليه السّلام و أبو سعيد الخدرى و أبو هريره و عبد الله بن مسعود و عمر بن الخطاب و عبد الله بن عمر و عبد الله بن عباس و ابى بن كعب و سمره بن جندب و بريده و صهيب ابن سنان و حذيفه بن اليمان و سهل بن سعد و أبو أيوب الأنصارى و جابر بن عبد الله و أبو الحمراء و أبو الدرداء و عروه و ام هانى و ام سلمه و عائشه و أسماء بنت أبى بكر كلهم عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و روتها جماعه كثيره من رواه الشيعة عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام.

و قد اتفقت أقوال من يعنى بقوله من علماء الإسلام على أن الإسراء كان بمكه قبل الهجره كما يستفاد من قوله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الْآيَةَ**؛ و يدل عليه ما اشتملت عليه كثير من الروايات من إخباره صَلَّى الله عليه و آله و سلم قريشا بذلك صبيحه ليلته و انكارهم ذلك عليه و اخباره اياهم بأساطين المسجد الاقصى و ما لقيه فى الطريق من العير و غير ذلك.

ثم اختلفوا فى السنه التى اسرى به صَلَّى الله عليه و آله و سلم فيها فقول: فى السنه الثانيه من البعثه كما عن ابن



عباس، و قيل فى السنه الثالثه منها كما فى الخرائج عن على عليه السلام. و قيل فى السنه الخامسه او السادسه، و قيل بعد البعثه بعشر سنين و ثلاثه أشهر، و قيل: فى السنه الثانيه عشره منها، و قيل: قبل الهجره بسنه و خمسه أشهر، و قيل: قبلها بسنه و ثلاثه أشهر، و قيل: قبلها بسته أشهر.

و لا يهمنى الغور فى البحث عن ذلك و لا عن الشهر و اليوم الذى وقع فيه الإسراء و لا مستند يصح التعويل عليه لكن ينبغى أن يتنبه أن من الروايات المأثوره عن أمته أهل البيت عليهم السلام ما يصرح بوقوع الإسراء مرتين، و هو المستفاد من آيات سوره النجم حيث يقول سبحانه: **وَلَقَدْ رَآهُ نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ ۖ** الآيات؛ على ما سيوافيك ان شاء الله من تفسيره.

و على هذا فمن الجائز أن يكون ما وصفه صلى الله عليه و آله و سلم فى بعض الروايات من عجيب ما شاهده راجعا الى ما شاهده فى الاسراء الأول و بعض ما وصفه فى بعض آخر راجعا الى الإسراء الثانى، و بعضه مما شاهده فى الإسراءين معا.

ثم اختلفوا فى المكان الذى اسرى به صلى الله عليه و آله و سلم منه فقيل: اسرى به من شعب أبى طالب و قيل: اسرى به من بيت ام هانى و فى بعض الروايات دلالة على ذلك و قد اولو قوله تعالى:

**أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** الى أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله مجازا فيشمل مكة، و قيل: اسرى به من نفس المسجد الحرام لظهور الآيه الكريمة فيه و لا دليل على التأويل.

و من الجائز بالنظر الى ما نبهنا به من كون الإسراء مرتين أن يكون أحد الاسراءين من المسجد الحرام و الآخر من بيت ام هانى، و أما كونه من الشعب فما ذكر فيما ذكر فيه من الروايات أن أبا طالب كان يطلبه طول ليلته و انه اجتمع هو و بنو هاشم فى المسجد الحرام ثم سل سيفه و هدد قريشا إن لم يحصل على النبی صلى الله عليه و آله و سلم ثم نزوله من السماء و مجيئه اليهم و إخباره قريشا بما رأى كل ذلك لا يلائم ما كان هو صلى الله عليه و آله و سلم و بنو هاشم جميعا عليه من الشده و البليه أيام كانوا فى

و على أى حال فالاسراء الذى تعطيه الآية: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ** و هو الاسراء الذى كان الى بيت المقدس كان مبدؤه المسجد الحرام لكمال ظهور الآيه و لا موجب للتأويل.

ثم اختلفوا فى كيفية الإسراء ف قيل: كان اسراؤه عليه السّلام بروحه و جسده من المسجد الحرام الى بيت المقدس ثم منه الى السماوات و عليه الاكثر و قيل: كان بروحه و جسده من مكة الى بيت المقدس ثم بروحه من بيت المقدس الى السماوات و عليه جمع، و قيل: كان بروحه عليه السّلام و هو رؤيا صادقه أراها الله نبيه و نسب الى بعضهم.

قال فى المناقب: اختلف الناس فى المعراج فالخوارج ينكرونه، و قال الجهميه: عرج بروحه دون جسمه على طريق الرؤيا، و قالت الإماميه و الزيديه و المعتزله: بل عرج بروحه و بجسمه الى بيت المقدس لقوله تعالى: **إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ** و قال آخرون: بل عرج بروحه و بجسمه الى السماوات روى ذلك عن ابن عباس و ابن مسعود و جابر و حذيفه و انس و عائشه ام هانى.

و نحن لا- ننكر ذلك إذا قامت الدلاله، و قد جعل الله معراج موسى الى الطور: **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ لِإِبْرَاهِيمَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ لِعِيسَىٰ إِلَى الرَّابِعَةِ:**

**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ لَادْرِيسَ إِلَى الْجَنَّةِ: وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا وَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ وَ ذَلِكَ لَعَلَّوْا هِمَّتَهُ. انتهى.**

و الذى ينبغى أن يقال ان اصل الاسراء مما لا سبيل الى انكاره فقد نص عليه القرآن و تواترت عليه الاخبار عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و الأئمه من اهل بيته عليهم السّلام.

و اما كيفية الإسراء فظاهر الآيه و الروايات بما يحتف بها من القرائن ظهورا لا يقبل الدفع أنه اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بروحه و جسده جميعا، و اما العروج الى

السموات فظاهر آيات سورة النجم كما سيأتى ان شاء الله فى تفسيرها و صريح الروايه على كثرها البالغه وقوعه، و لا سبيل الى إنكاره من اصله غير انه من الجائز ان يقال بكونه بروحه لكن لا على النحو الذى يراه القائلون به من كون ذلك من قبيل الأحلام و من نوع ما يراه النائم من الرؤى، و لو كان كذلك لم يكن لما يدل عليه الآيات بسياقها من اظهار المقدره و الكرامه معنى، و لا لذاك الإنكار الشديد الذى اظهرته قريش عند ما قص عليه السلام لهم القصة وجهه، و لا لما اخبرهم به من حوادث الطريق مفهوم معقول.

بل ذلك- إن كان- بعروجه صلى الله عليه و آله و سلم بروحه الشريفه الى ما وراء هذا العالم المادى مما يسكنه الملائكه المكرمون و ينتهى اليه الأعمال و يصدر منه الأقدار و رأى عند ذلك من آيات ربه الكبرى و تمثلت له حقائق الأشياء و نتائج الأعمال و شاهد ارواح الأنبياء العظام و فاضهم و لقي الملائكه الكرام و سامرهم، و رأى من الآيات الإلهيه ما لا يوصف إلا بالأمثال كالعرش و الحجب و السرادقات.

و القوم لذهابهم الى أصله الوجود المادى و قصر الوجود غير المادى فيه تعالى لما وجدوا الكتاب و السنه يصفان امورا غير محسوسه بتمثيلها فى خواص الأجسام المحسوسه كالملائكه الكرام و العرش و الكرسي و اللوح و القلم و الحجب و السرادقات حملوا ذلك على كونها أجساما ماديه لا يتعلق بها الحس و لا يجرى فيها احكام الماده، و حملوا ايضا ما ورد من التمثيلات فى مقامات الصالحين و معارج القرب و بواطن صور المعاصى و نتائج الأعمال و ما يناظر ذلك الى نوع من التشبيه و الاستعاره فوقعوا فى ورطه السفسطه بتغليب الحس و اثبات الروابط الجزافيه بين الأعمال و نتائجها و غير ذلك من المحاذير.

و لذلك ايضا لما نفى النافون منهم كون عروجه صلى الله عليه و آله و سلم الى السماوات بجسمه المادى اضطروا الى القول بكونه فى المنام و هو عندهم خاصه ماديه للروح المادى و اضطروا لذلك الى تأويل الآيات و الروايات بما لا تلائمها و لا واحده منها.

قال فى مجمع البيان: فأما الموضوع الذى أسرى إليه أين كان؟ فإن الأسراء إلى بيت المقدس، وقد نص به القرآن و لا يدفعه مسلم، و ما قاله بعضهم: أن ذلك كان فى النوم فظاهر البطلان إذ لا معجز يكون فيه و لا برهان.

و قد وردت روايات كثيرة فى قصة المعراج فى عروج نبينا صلى الله عليه و آله و سلم إلى السماء و رواها كثير من الصحابة مثل ابن عباس و ابن مسعود و انس و جابر بن عبد الله و حذيفة و عائشه و ام هانى و غيرهم عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و زاد بعضهم و نقص بعض و تنقسم جملتها إلى اربعة اوجه.

أحدهما: ما يقطع على صحتها لتواتر الأخبار به و إحاطه العلم بصحته.

و ثانيها: ما ورد فى ذلك مما يجوزه العقول و لا ياباه الاصول فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان فى يقظته دون منامه.

و ثالثها: ما يكون ظاهره مخالفا لبعض الاصول إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى تأويله على وجه يوافق الحق و الدليل.

و رابعها: ما لا يصح ظاهره و لا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد فالأولى أن لا نقبله.

فأما الأصول المقطوع به فهو أنه أسرى به على الجملة، و أما الثانى فمنه ما روى أنه طاف فى السماوات و رأى الانبياء و العرش و صدره المنتهى و الجنة و النار و نحو ذلك. و أما الثالث فنحو ما روى أنه رأى قوما فى الجنة يتنعمون فيها و قوما فى النار يعذبون فيها فيحمل على أنه رأى صفتهم أو أسمائهم، و ما الرابع فنحو ما روى أنه صلى الله عليه و آله و سلم كلم الله جهره و رآه و قعد معه على سريره و نحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه، و الله سبحانه متقدس عن ذلك، و كذلك ما روى أنه شق بطنه و غسله لأنه صلى الله عليه و آله و سلم كان طاهرا مطهرا من كل سوء و عيب و كيف يطهر القلب و ما فيه من الاعتقاد بالماء. انتهى.

و ما ذكره من التقسيم فى محله غير أن غالب ما أورده من الامثلة للأقسام منظور فيه فما

ذكره من الطواف و رؤيه الانبياء و نحو ذلك تمثلات برزخيه او روحيه و كذا ما ذكره من حديث شق البطن و الغسل تمثل برزخى لا ضير فيه و أحاديث الأسراء مملوءه من ذكر هذا النوع من التمثل كتمثل الدنيا فى هيئه مرأه عليها من كل زينه الدنيا، و تمثل دعوه اليهوديه و النصرانيه و ما شاهده من انواع النعيم و العذاب لأهل الجنه و النار و غير ذلك.

و مما يؤيد هذا الذى ذكرناه ما فى ألسنه هذه الاخبار من الاختلاف فى بيان حقيقه واحده كما فى بعضها من صعوده صلى الله عليه و آله و سلم الى السماء بالبراق و فى آخر على جناح جبريل و فى آخر بمعراج منصوب على صخره بيت المقدس الى السماء الى غير ذلك مما يعثر عليه الباحث المتدبر فى خلال هذه الروايات.

فهذه و أمثالها ترشد الى ان هذه البيانات موضوعه على التمثيل او التمثل الروحى، و وقوع هذه التمثيلات فى ظواهر الكتاب و السنه مما لا سبيل الى انكاره البتة.

### [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٨]

#### اشاره

وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَ قَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ تَتَّخِذُنَّ عَلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لِّئَلَّا تُؤْمِنُوا بِهِمْ فَجَسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنَّ أَحْسَنَ نَسَبٍ أَحْسَنُ نَسَبٍ لِّأَنفُسِكُمْ وَ إِذْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِهِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

قوله تعالى: «وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا الْكِتَابَ كَثِيرًا مَا يَطْلُقُ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى عَلَى مَجْمُوعِ الشَّرَائِعِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَى النَّاسِ الْقَاضِيَةِ بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اشْتِمَالِهِ عَلَى الْوُضَائِفِ الْإِعْتِقَادِيَةِ وَالْعَمَلِيَةِ الَّتِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُوهَا وَيَتَلَبَّسُوا بِهَا، وَلَعَلَّهُ لَذَلِكَ قِيلَ: «وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» وَلَمْ يَقُلِ التَّوْرَةَ لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى اشْتِمَالِهِ عَلَى شَرَائِعِ مَفْتَرَضِهِ عَلَيْهِمْ.

وَبذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» بِمَنْزِلِهِ التَّفْسِيرِ لِإِيْتَاءِهِ الْكِتَابَ.

وَكُونَهُ هُدًى أَيْ هَادِيًا لَهُمْ هُوَ بَيَانُهُ لَهُمْ شَرَائِعَ رَبِّهِمْ الَّتِي لَوْ أَخَذُوهَا وَعَمَلُوا بِهَا لَاهْتَدَوْا إِلَى الْحَقِّ وَنَالُوا سَعَادَةَ الدَّارِينَ.

وَقَوْلُهُ: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا» فِيهِ لِلتَّفْسِيرِ وَمَدْخُولِهَا مَحْصَلٌ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الَّذِي جَعَلَ هُدًى لَهُمْ فَيُتَوَلَّى الْمَعْنَى إِلَى أَنْ مَحْصَلٌ مَا كَانَ الْكِتَابُ يَبِينُهُ لَهُمْ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ هُوَ نَهْيُهُمْ أَنْ يَشْرَكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَيَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ وَكَيْلًا فَقَوْلُهُ: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا» تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» إِنْ كَانَ ضَمِيرُ «أَلَّا تَتَّخِذُوا»

عائدا اليهم كما هو الظاهر، و تفسير لجميع ما تقدمه إن احتمل رجوعه الى موسى و بنى إسرائيل جميعا.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا تطلق الذرية على الأولاد بعنايه كونهم صغارا ملحقين بأبائهم، و هى - على ما يهدى اليه السياق - منصوبه على الاختصاص و يفيد الاختصاص عنايه خاصه من المتكلم به فى حكمه فهو بمنزله التعليل كقوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (الأحزاب ٣٣) أى ليفعل بكم ذلك لأنكم أهل بيت النبوه.

فقوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ يفيد فائده التعليل بالنسبه الى ما تقدمه كما أن قوله: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» يفيد فائده التعليل بالنسبه اليه.

فيتلخص معنى الآيتين فى مثل قولنا: انا جزينا نوحا بما كان عبدا شكورا لنا أنا ابقينا دعوته و اجرينا سنته و طريقته فى ذريه من حملناهم معهم فى السفينه و من ذلك انا انزلنا على موسى الكتاب و جعلناه هدى لبنى اسرائيل.

و يظهر من قوله فى الآيه: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» و من قوله: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» ان الناس ذريه نوح عليه السلام من جهة الابن و البنت معا، و لو كانت الذرية منتهيه الى ابنائه فقط و كان المراد بقوله: «مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» ابناؤه فقط كان الأحسن بل المتعين ان يقال: ذريه نوح و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَغْلُنَّ عُلوًا كَبِيرًا» قال الراغب فى المفردات: القضاء فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا، و كل واحد منهما على وجهين: الهى و بشرى فمن القول الإلهى قوله: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ أى امر بذلك، و قال: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ فهذا قضاء بالاعلام و الفصل فى الحكم أى اعلمناهم و اوحينا اليهم و حيا جزما و على هذا: وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ

ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ .

و من الفعل الإلهي قوله: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ و قوله: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ  
اشاره الى ايجاده الابداعي و الفراغ منه نحو:

بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

قال: و من القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا فان حكم الحاكم يكون بالقول، و من الفعل البشري: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ثُمَّ  
لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ انتهى موضع الحاجة.

و العلو هو الارتفاع و هو في الآيه كناية عن الطغيان بالظلم و التعدي و يشهد بذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير، و في هذا  
المعنى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا .

و معنى الآيه و أخبرنا و أعلمنا بنى اسرائيل إخبارا قاطعا في الكتاب و هو التوراه: اقسم و احق هذا القول انكم شعب اسرائيل  
ستفسدون في الارض و هي ارض فلسطين و ما يتبعها مرتين مره بعد مره و تعلون علوا كبيرا و تطغون طغيانا عظيما.

قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا الْخ؛ قال الراغب:

البؤس و البأس و البأساء الشده و المكروه الا ان البؤس في الفقر و الحرب اكثر و البأس و البأساء في النكايه نحو و الله اشد بأسا  
و اشد تنكيلا. انتهى موضع الحاجة.

و في المجمع: الجوس التخلل في الديار يقال: تركت فلان يجوس بنى فلان و يجوسهم و يدوسهم اي يطؤهم، قال ابو عبيد: كل  
موضع خالطته و وطأته فقد حسته و جستته قال:

و قيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء. انتهى.

و قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ: «لَتَفْسِدُنَّ» الخ؛ و ضمير التثنيه راجع الى المرتين و هما الإفسادتان فالمراد بها  
الإفساده الاولى، و المراد بوعده اولاهما ما



وعدهم الله من النكال و النقمه على افسادهم فالوعد بمعنى الموعد، و مجيء الوعد كناية عن وقت انجازه، و يدل ذلك على انه وعدهم على افسادهم مرتين وعدين و لم يذكر انجازا فكأنه قيل: لتفسدن في الأرض مرتين و نحن نعدكم الانتقام على كل منهما فإذا جاء وعد المره الاولى، الخ؛ كل ذلك معونه السياق.

و قوله: **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ** اي انهضناهم و ارسلناهم اليكم ليدلوكم و ينتقموا منكم، و الدليل على كون البعث الانتقام و الإذلال قوله: **أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ** الخ.

و قوله: **وَ كَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا** تأكيد لكون القضاء حتما لازما و المعنى فإذا جاء وقت الوعد الذى وعدناه على المره الاولى من افسادكم مرتين بعثنا و انهضنا عليكم من الناس عبادا لنا اولى بأس و شده شديده فدخلوا بالقهر و الغلبه ارضكم و توسطوا فى دياركم فأدلوكم و أذهبوا استقلالكم و علوكم و سؤددكم و كان وعدا مفعولا لا محيص عنه.

قوله تعالى: **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** قال فى المجمع: الكره معناه الرجعه و الدوله، و النفير العدد من الرجال قال الزجاج: و يجوز أن يكون جمع نفر كما قيل: العبيد و الضئيين و المعيز و الكليب، و نفر الانسان و نفره و نفيره و نافرته رهطه الذين ينصرونه و ينفرون معه انتهى.

و معنى الآيه ظاهر، و ظاهرها أن بنى اسرائيل ستعود الدوله لهم على أعدائهم بعد وعد المره الأولى فيغلبونهم و يقهرونهم و يتخلصون من استعبادهم و استرقاقهم و أن هذه الدوله سترجع اليهم تدريجا فى برهه معتد بها من الزمان كما هو لازم امدادهم بأموال و بنين و جعلهم اكثر نفيرا.

و فى قوله فى الآيه التاليه: **إِنْ أَحْسَيْتُمْ أَحْسَيتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** اشعار بل دلالة بمعونه السياق ان هذه الواقعه و هى رد الكره لبنى اسرائيل على أعدائهم انما

كانت لرجوعهم الى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال اساءتهم قبل ذلك كما ان إنجاز وعد الآخرة انما كان لرجوعهم ثانيا الى الإساءة بعد رجوعهم هذا الى الإحسان.

قوله تعالى: **إِنْ أَحْسَيْتُمْ أَحْسَيتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا اللام في «لِأَنْفُسِكُمْ» و «فَلَهَا» للاختصاص** اي ان كلا من احسانكم و إساءتكم يختص بأنفسكم دون ان يلحق غيركم، و هي سنة الله الجارية ان العمل يعود اثره و تبعته الى صاحبه ان خيرا و ان شرا فهو كقوله: **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (البقره ١٤١).**

فالمقام مقام بيان ان اثر العمل لصاحبه خيرا كان او شرا، و ليس مقام بيان ان الإحسان ينفع صاحبه و الإساءة تضر حتى يقال: و إن أسأتم فعليها كما قيل: **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره ٢٨٦).**

قوله تعالى: **فَإِذَا جَاءَ وَعِيدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَهُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُبَيِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا التتبير الإهلاك** من التبار بمعنى الهلاك و الدمار.

و قوله: **لِيَسُوءُوا وُجُوهَهُمْ** من المساءه يقال: ساء زيد فلانا اذا احزنه و هو على ما قيل متعلق بفعل مقدر محذوف للإيجاز، و اللام للغايه و التقدير بعثناهم ليسوؤا و جوهكم بظهور الحزن و الكأبه فيها و بدو آثار الذله و المسكنه و صغار الاستعبار عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع و السبي و النهب.

و قوله: **وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ** المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى -بيت المقدس- و لا يعاب بما ذكره بعضهم ان المراد به جميع الأرض المقدسه مجازا، و في الكلام دلالة أولا انهم في وعد المره الاولى ايضا دخلوا المسجد عنوه و إنما لم يذكر قبلا للإيجاز، و ثانيا ان دخولهم المسجد انما كان للهتك و التخريب، و ثالثا يشعر الكلام بأن هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاه بنى اسرائيل و الانتقام منهم هم الذين بعثوا

عليهم اولا.

وقوله: **وَلِيَتَّبِعُوا مَا آتَاهُمْ مِنْهُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** اي ليهلكوا الذى غلبوا عليه اهلا كما فيقتلوا النفوس و يحرقوا الاموال و يهدموا الابنيه و يخربوا البلاد، و احتمال ان يكون ما مصدرية بحذف مضاف و تقدير الكلام: و ليتبروا مده علوهم تتبيرا، و المعنى الاول اقرب الى الفهم و اوفق بالسياق.

و المقايسه بين الوعدين اعنى قوله: **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا** الخ؛ و قوله: **لِيَسْؤُوا وُجُوهَكُمْ** الخ؛ يعطى ان الثانى كان اشد على بنى اسرائيل و امر و قد كادوا ان يفنوا و يببوا فيه عن آخرهم و كفى فى ذلك قوله تعالى: **«وَلِيَتَّبِعُوا مَا آتَاهُمْ مِنْهُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»** .

و المعنى فإذا جاء وعد المره الآخره و هى الثانيه من الإفسادتين بعثناهم ليسؤوا و جوهكم بظهور الحزن و الكأبه و بدو الذله و المسكنه و ليدخلوا المسجد الاقصى كما دخلوه اول مره و ليهلكوا الذى غلبوا عليه و يفنوا الذى مروا عليه اهلا كما و افناء.

قوله تعالى: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** الحصير من الحصر و هو -على ما ذكره- التضييق و الحبس قال تعالى: **وَ اخْضَرُّوهُمْ** (التوبه ٥) اي ضيقوا عليهم.

و قوله: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ** اي بعد البعث الثانى على ما يفيد السيق و هو ترج للرحمه على تقدير ان يتوبوا و يرجعوا الى الطاعه و الإحسان بدليل قوله: **وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ** اي و ان تعودوا الى الافساد و العلو، بعد ما رجعتم عنه و رحمتكم ربكم نعد الى العقوبه و النكال، و جعلنا جهنم للكافرين حصيرا و مكانا حابسا لا يستطيعون منه خروجا.

و فى قوله: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ** التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و كأن الوجه فيه الاشاره الى ان الأصل الذى يقتضيه ربوبيته تعالى ان يرحم عباده ان جروا على

ما يقتضيه خلقتهم و يرشد اليه فطرتهم الا- ان ينحرفوا عن خط الخلقه و يخرجوا عن صراط الفطره، و الايماء الى هذه النكته  
يوجب ذكر وصف الرب فاحتاج السياق ان يتغير عن التكلم مع الغير الى الغيبه ثم لما استوفيت النكته بقوله: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ  
يَزَحْمَكُمْ» عاد الكلام الى ما كان عليه (١).

## [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٩ الى ٢٢]

### اشاره

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ  
فَمَحْوِنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ تَعْلَمُوا عِيَدَ السَّنِينَ وَ الْحِسَابِ وَ كُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا  
(١٢) وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ  
حَسِيبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَىٰ فَأَتَمَّمْنَا صَلَاتَهُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ  
رَسُولًا (١٥) وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمْزَنَّا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ  
مَنْ بَعْدَ نُوحٍ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ  
جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدِّدُ  
هُؤُلَاءِ وَ هُوَ لَاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ  
أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)

ص: ٦٨٤

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ أَي لمله التي هي أقوم كما قال تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (الأنعام/ ١٦١).

و الأقوم أفعل تفضيل و الاصل فى الباب القيام ضد القعود الذى أو أحد أحوال الانسان و اوضاعه، و هو أعدل حالاته يتسلط به على ما يريد من العمل بخلاف القعود و الاستلقاء

و الانبطاح و نحوها ثم كنى به عن حسن تصديه للامور إذا قوى عليها من غير عجز و عى و أحسن ادارتها للغايه يقال: قام بأمر كذا اذا تولاه و قام على امر كذا اى راقبه و حفظه و راعى حاله بما يناسبه.

و قد وصف الله سبحانه هذه المله الحنيفيه بالقيام كما قال: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم ٣٠)، و قال:

فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (الروم ٤٣).

و ذلك لكون هذا الدين مهيمنا على ما فيه خير دنياهم و آخرتهم قيما على اصلاح حالهم فى معاشهم و معادهم، و ليس الا لكونه موافقا لما تقتضيه الفطره الإنسانيه و الخلقه التى سواه الله سبحانه عليها و جهزه بحسبها بما يهديه الى غايته التى اريدت له، و سعاده التى هيئت لأجله.

قوله تعالى: وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا الصالحات صفه محذوف موصوفها اختصارا و التقدير و عملوا الأعمال الصالحات.

و فى الآيه جعل حق للمؤمنين الذين آمنوا و عملوا الصالحات على الله سبحانه كما يؤيده تسميه ذلك أجرا و يؤيده أيضا قوله فى موضع آخر: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (حم السجده ٨) و لا محذور فى ان يكون لهم على الله حق اذا كان سبحانه هو الجاعل له، و نظيره قوله: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ١٠٣).

و العناية فى الآيه ببيان الوعد المنجز كما ان الآيه التاليه تعنى ببيان الوعيد المنجز و هو العذاب لمن يكفر بالآخره، و أما من آمن و لم يعمل الصالحات فليس ممن له على الله أجر منجز و حق ثابت بل أمره مراعى بتوبه أو شفاعه حتى يلحق بذلك معشر الصالحين من المؤمنين قال تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ (التوبه ١٠٢) وقال: وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ (التوبه ١٠٦).

□  
نعم لهم ثبات على الحق بإيمانهم كما قال تعالى: وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس ٢) وقال: يُبَيِّنُ اللَّهُ  
الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ (إبراهيم ٢٧).

□  
قوله تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الإعتاد الإعداد و التهيئه من العتاد بالفتح و هو على ما ذكره  
الراغب ادّخار الشيء قبل الحاجه اليه كالإعداد.

□  
و ظاهر السياق أنه عطف على قوله فى الآيه السابقه: «أَنَّ لَهُمْ» الخ؛ فيكون التقدير و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن  
الذين لا يؤمنون، الخ؛ و كون ذلك بشاره للمؤمنين من حيث إنه انتقام إلهى من أعدائهم فى الدين.

□  
و إنما خص بالذكر من أوصاف هؤلاء عدم ايمانهم بالآخره مع جواز أن يكفروا بغيرها كالتوحيد و النبوه لأن الكلام مسوق  
لبين الأثر الذى يعقبه الدين القيم، و لا موقع للدين و لا فائده له مع انكار المعاد و ان اعترف بوحدانيه الرب تعالى و غيرها من  
المعارف، و لذلك عد سبحانه نسيان يوم الحساب أصلاً لكل ضلال فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ  
بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦).

□  
قوله تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء  
كان بلفظ الدعاء كقوله: اللهم ارزقنى مالا- و ولدا و غير ذلك أو من غير دعاء لفظى بل بطلب و سعى فإن ذلك كله دعاء و  
سؤال من الله سواء اعتقد به الانسان و تنبه له أم لا- إذ لا- معطى و لا- مانع فى الحقيقه إلا الله سبحانه، قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن ٢٩) وقال: وَ اتَّكُم

مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤) فالدعاء مطلق الطلب و الباء فى قوله: «بِالشَّرِّ» و «بِالخَيْرِ» للصله و المراد أن الانسان يدعو الشر و يسأله دعاء كدعائه الخير و سؤاله و طلبه.

و على هذا فالمراد بكون الإنسان عجباً أنه لا يأخذ بالأناه إذا أراد شيئاً حتى يتروى و يتفكر فى جهات صلاحه و فاسده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريد من الأمر فيطلبه و يسعى اليه بل يستعجل فى طلبه بمجرد ما ذكره و تعلق به هواه فربما كان شراً فتضرر به و ربما كان خيراً فانتفع به.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُودًا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال فى المجمع: مبصره أى مضيئه منيره نيره قال أبو عمرو:

أراد يبصر بها كما يقال: ليل نائم و سر كاتم، و قال الكسائى: العرب تقول: أبصر النهار إذا أضاء. انتهى موضع الحاجة.

الليل و النهار هما النور و الظلمه المتعاقبان على الأرض من جهه مواجهه الشمس بالطلوع و زوالها بالغروب و هما كسائر ما فى الكون من أعيان الأشياء و أحوالها آيتان لله سبحانه تدلان بذاتهما على توحده بالربوبيه.

و قوله: لَتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ متفرع على قوله: «وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً» أى جعلناها مضيئه لتطلبوا فيه رزقا من ربكم فإن الرزق فضله و عطاؤه تعالى.

و قوله: وَ لَتَعْلَمُوا عِدادَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ أى لتعلموا بمحو الليل و إبصار النهار عدد السنين بجعل عدد من الأيام واحدا يعقد عليه، و تعلموا بذلك حساب الأوقات و الآجال، و ظاهر السياق أن علم السنين و الحساب متفرع على جعل النهار مبصراً نظير تفرع ما تقدمه من ابتغاء الرزق على ذلك و ذلك أنا إنما نتنبه للاعدام و الفقدانات من ناحيه الوجودات لا بالعكس و الظلمه فقدان النور و لولا النور لم تنتقل لا الى نور و لا الى ظلمه،



و نحن و إن كنا نستمد في الحساب بالليل و النهار معا و نميز كلا منهما بالآخر ظهرا لكن ما هو الوجودى منهما أعنى النهار هو الذى يتعلق به إحساسنا أولا ثم نتنبه لما هو العدمى منها أعنى الليل بنوع من القياس، و كذلك الحال فى كل وجودى و عدمى مقيس اليه.

قوله تعالى: وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال فى المجمع: الطائر هنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذى يسبح و يتبرك به و الطائر الذى يبرح فيتشام به، و السانح الذى يجعل ميامنه الى مياسرك، و البارح الذى يجعل مياسره الى ميامنك، و الأصل فى هذا أنه إذ كان سانحا أمكن الرامى و إذا كان بارحا لم يمكنه قال أبو زيد: كل ما يجرى من طائر أو ظبى أو غيره فهو عندهم طائر. انتهى.

و فى الكشاف: أنهم كانوا يتفألون بالطير و يسمونه زجرا فإذا سافروا و مر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحا بأن مر من جهة اليسار الى اليمين تيمنوا و إن مر بارحا بأن مر من جهة اليمين الى الشمال تشأموا و لذا سمي تطيرا. انتهى.

و قال فى المفردات: تطير فلان و أطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل فى كل ما يتفأل به و يتشام «قالوا إنا تطيرنا بكم» و لذلك قيل: لا طير إلا طيرك و قال: «إِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا» أى يتشاموا به «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» أى شؤمهم ما قد أعد الله لهم بسوء أعماله، و على ذلك قوله: «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ» «قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» «قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» «وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» أى عمله الذى طار عنه من خير و شر و يقال:

تطايروا إذا أسرعوا و يقال إذا تفرقوا. انتهى.

و بالجمله سياق ما قبل الآيه و ما بعدها و خاصه قوله: «مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» الخ؛ يعطى أن المراد بالطائر ما يستدل به على اليمينه و المشأمه و يكشف عن حسن العاقبه و سوئها فلكل إنسان شىء يرتبط بعاقبه حاله يعلم به كيفيتها من خير أو شر.

و إلزام الطائر جعله لازما له لا يفارقه، و إنما جعل الإلزام فى العنق لأنه العضو الذى لا

يمكن أن يفارقه الإنسان أو يفارقه هو الإنسان بخلاف الأطراف كاليد و الرجل، و هو العضو الذى يوصل الرأس بالصدر فيشاهد ما يعلق عليه من قلاده أو طوق أو غل أول ما يواجه الإنسان.

فالمراد بقوله: «وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» أن الذى يستعقب لكل إنسان سعادته أو شقائه هو معه لا يفارقه بقضاء من الله سبحانه فهو الذى ألزمه إياه، وهذا هو العمل الذى يعمل الإنسان لقوله تعالى: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ» (النجم ٤١).

فالطائر الذى ألزمه الله الإنسان فى عنقه هو عمله، و معنى إلزامه إياه أن الله قضى أن يقوم كل عمل بعامله و يعود اليه خيره و شره و نفعه و ضرره من غير أن يفارقه الى غيره، و قد استفيد من قوله تعالى: «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ... إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ الْآيَاتِ (الحجر ٤٥)» أن من القضاء المحتوم أن حسن العاقبه للايمان و التقوى و سوء العاقبه للكفر و المعصيه.

و لانزم ذلك أن يكون مع كل إنسان من عمله ما يعين له حاله فى عاقبه أمره معيه لازمه لا يتركه و تعيينا قطعيا لا يخطئ و لا يغلط لما قضى به أن كل عمل فهو لصاحبه ليس له إلا هو و أن مصير الطاعه الى الجنه و مصير المعصيه الى النار.

و بما تقدم يظهر أن الآيه إنما تثبت لزوم السعاده و الشقاء للانسان من جهه أعماله الحسنه و السيئه المكتسبه من طريق الاختيار من دون أن يبطل تأثير العمل فى السعاده و الشقاء بإثبات قضاء أزلئ يحتم للانسان سعاده أو شقاء سواء عمل أم لم يعمل و سواء أطاع أم عصى كما توهمه بعضهم.

قوله تعالى: «وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا» يوضح حال هذا الكتاب قوله بعده: «أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» حيث يدل أولا على أن

الكتاب الذى يخرج له هو كتابه نفسه لا يتعلق بغيره، و ثانياً أن الكتاب متضمن لحقائق أعماله التى عملها فى الدنيا من غير أن يفقد منها شيئاً كما فى قوله: يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (الكهف ٤٩)، و ثالثاً أن الأعمال التى أحصاها باديه فيها بحقائقها من سعادته أو شقاء ظاهره بنتائجها من خير أو شر ظهوراً لا يستتر بستر ولا يقطع بعذر، قال تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

و بالجمله فى قوله: وَ نُخْرِجُ لَهُ إِشَارَهُ إِلَى أَنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ بِحَقَائِقِهَا مُسْتَوْرٍ عَنِ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ مُحْجُوبٍ وَرَاءَ حِجَابِ الْغَفْلَةِ وَ إِنَّمَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِلْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُطَلِّعُهُ عَلَى تَفَاصِيلِهِ، وَ هُوَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: «يَلْقَاهُ مَنْشُورًا».

قوله تعالى: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا أى يقال له: اقرأ كتابك، الخ.

و قوله: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْبَاءُ فِيهِ زَائِدَةٌ لِلتَّكْثِيرِ وَ أَصْلُهُ كَفَتَ نَفْسَكَ وَ إِنَّمَا لَمْ يُوْنِثِ الْفِعْلُ لِأَنَّ الْفَاعِلَ مُؤْنِثٌ مُجَازِيٌّ يَجُوزُ مَعَهُ التَّذْكِيرُ وَ التَّنْأِيثُ، وَ رَبَّمَا قِيلَ: إِنَّهُ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى اكْتَفَى وَ الْبَاءُ غَيْرُ زَائِدَةٍ، وَ رَبَّمَا وَجَّهَ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

و فى الآيه دلالة على أن حجة للكتاب قاطعه بحيث لا يرتاب فيها قارئه و لو كان هو المجرم نفسه و كيف لا؟ و فيه معانيه نفس العمل و به الجزاء، قال تعالى: لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧).

و الحال أن العمل سواء كان خيراً أو شراً لازم لصاحبه لا يفارقه و هو أيضاً محفوظ عليه فى كتاب سيخرج له يوم القيامة و ينشر بين يديه و يحاسب عليه، و إذا كان كذلك كان من الواجب على الإنسان أن لا يبادر الى اقتحام كل ما يهواه و يشتهيه و لا يستعجل ارتكابه بل يتوقف فى الامور و يتروى حتى يميز بينها و يفرق خيراً من شراً فيأخذ بالخير و يتحرز الشر.

قوله تعالى: مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الوزر الثقل تشبيها بوزر الجبل، و يعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً الْآيَةَ؛ كقوله:

وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ قَالَ: وقوله: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ أَي لا- تحمل وزره من حيث يتعرى المحمول عنه. انتهى.

و الآية في موضع النتيجة لقوله: «وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ» السخ؛ و الجملة الثالثة «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» تأكيد للجملة الثانية «وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

و المعنى إذا كان العمل خيرا كان أو شرا يلزم صاحبه و لا يفارقه و هو محفوظ على صاحبه سيشاهده عند الحساب فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه و ينتفع به نفسه من غير أن يتبع غيره.

و من ضل عن السبيل فإنما يضل على نفسه و يتضرر به نفسه من دون أن يفارقه فيلحق غيره، و لا تتحمل نفس حامله حمل نفسه اخرى لا كما ربما يخيل لاتباع الضلال أنهم إن ضلوا فوبال ضلالهم على أئمتهم الذين أضلوهم و كما يتوهم المقلدون لآبائهم و أسلافهم أن آثامهم و أوزارهم لآبائهم و أسلافهم لا لهم.

نعم لأئمة الضلال مثل أوزار متبعيهم، و لمن سن سنه سيئه أوزار من عمل بها و لمن قال:

اتبعونا لنحمل خطاياكم آثام خطاياهم لكن ذلك كله وزر الإمامه و جعل السنه و تحمل الخطايا لا عين ما للعامل من الوزر بحيث يفارق عامله و يلحق المتبوع بل إن كان عينه فمعناه أن يعذب بعمل واحد اثنان.

قوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ظَاهِرَ السِّيَاقِ الْجَارِي فِي الْآيَةِ وَ مَا يَتْلُوهَا مِنَ الْآيَاتِ بَلْ هِيَ وَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمُعَذِّبِ التَّعْذِيبَ الدُّنْيَوِيَّ بِعُقُوبِهِ الْإِسْتِصْصَالِ، وَ يُؤَيِّدُهُ خُصُوصَ سِيَاقِ النَّفْيِ «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ» حَيْثُ لَمْ يَقُلْ:

و لسننا معذبين و لا نعذب و لن نعذب بل قال: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ» الدال على استمرار النفي في

الماضى الظاهر فى انه كانت السنه الإلهيه فى الامم الخاليه الهالكه جاريه على أن لا يعذبهم إلا بعد أن يبعث اليهم رسولا يندرهم بعذاب الله.

قوله تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَّا كُنَّا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَارَةً بِتَارَةٍ تَدْمِيرًا قَالَ الرَّاعِبُ: الترفه التوسع فى النعمه يقال: أترف فلان فهو مترف-الى أن قال فى قوله: أمرنا مترفيها-هم الموصوفون بقوله سبحانه: فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ائْتَهَى. وقال فى المجمع: الترفه النعمه، قال ابن عرفه: المترف المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع منه، وقال: التدمير الإهلاك و الدمار الهلاك.

انتهى.

وقوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَّا كُنَّا مُتْرَفِيهَا أى إذا دنا وقت هلاكهم من قبيل قولهم: إذا أراد العليل أن يموت كان كذا، وإذا أرادت السماء أنى مطر كان كذا، أى إذا دنا وقت موته و إذا دنا وقت إمطارها فإن من المعلوم أنه لا يريد الموت بحقيقه معنى الإراده و أنها لا تريد الإمطار كذلك، و فى القرآن: فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ الْآيَةَ.

و يمكن أن يراد به الإراده الفعلية و حقيقتها توافق الأسباب المقتضيه للشئ و تعاضدها على وقوعه، و هو قريب من المعنى الأول و حقيقته تحقق ما لهلاكهم من الأسباب و هو كفران النعمه و الطغيان بالمعصيه كما قال سبحانه: لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابى لشديد (إبراهيم ٧)، و قال: الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِغٌ صَادٍ (الفجر ١٤).

قوله: أَمْرًا مَّا كُنَّا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا من المعلوم من كلامه تعالى أنه لا يأمر بالمعصيه أمرا تشريعيا فهو القائل: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ (الأعراف ٢٨) و أما الأمر التكويني فعدم تعلقه بالمعصيه من حيث إنها معصيه أوضح لجعله الفعل ضروريا يبطل معه تعلقه باختيار الإنسان و لا معصيه مع عدم الاختيار قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا

أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢).

فمتعلق الأمر فى قوله: «أَمْرًا» إن كان هو الطاعه كان الأمر بحقيقه معناه و هو الأمر التشريعى و كان هو الأمر الذى توجه اليهم بلسان الرسول الذى يبلغهم أمر ربهم و ينذرهم بعذابه لو خالفوا و هو الشأن الذى يختص بالرسول كما تقدمت الاشاره اليه فإذا خالفوا و فسقوا عن أمر ربهم حق عليهم القول و هو أنهم معذبون إن خالفوا فاهلكوا و دمروا تدميرا.

و إن كان متعلق الأمر هو الفسق و المعصيه كان الأمر مرادا به الاكثار من إفاضه النعم عليهم و توفيرها على سبيل الاملاء و الاستدراج و تقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحق عليهم القول و ينزل عليهم العذاب.

و هذان وجهان فى معنى قوله: «أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا» يجوز توجيهه بكل منها لكن يبعد أول الوجهين أولا أن قولنا: أمرته ففعل و أمرته ففسق ظاهره تعلق الأمر بعين ما فرع عليه، و ثانيا عدم ظهور وجه لتعلق الأمر بالمترفين مع كون الفسق لجميع أهل القرية و إلا لم يهلكوا.

و قرئ «أمرنا» بالمد و نسب الى على عليه السلام و الى عاصم و ابن كثير و نافع و غيرهم و هو من الإيمان بمعنى إكثار المال و النسل أو بمعنى تكليف إنشاء فعل، و قرئ أيضا «أمرنا» بتشديد الميم من التأمير بمعنى توليه الإمارة و نسب ذلك الى على و الحسن و الباقر عليهم السلام و الى ابن عباس و زيد بن على و غيرهم.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا قال فى المفردات: القرن القوم المقترنون فى زمن واحد و جمعه قرون قال: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ أَنْتَهَى و معنى الآيه ظاهر، و فيها تثبيت ما ذكر فى الآيه السابقه من سنه الله الجاربه فى إهلاك القرى بالاشاره الى القرون الماضيه الهالكه.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن سنه الاهلاك إنما شرعت فى القرون الانسانيه بعد نوح عليه السلام و هو كذلك، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ (البقره ٢١٣) فى الجزء الثانى من الكتاب أن المجتمع الانسانى قبل زمن نوح عليه السلام كانوا على سذاجه الفطره ثم اختلفوا بعد ذلك.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا العاجله صفه محذوفه الموصوف و لعل موصوفها الحياه بقرينه مقابلتها الآخره فى الآيه التاليه و هى الحياه الآخره، و قيل: المراد النعم العاجله و قيل: الأعراج الدينويه العاجله.

و فى المفردات: أصل الصلى لا يقاد النار. قال: و قال الخليل: صلى الكافر النار قاسى حرها يَصْلَوْنَهَا فَبَشَّسَ الْمَصِيرُ و قيل: صلى النار دخل فيها، و أصلها غيره قال: فَسَوْفَ نُضِيْلُهُ نَارًا انتهى. و فى المجمع: الدحر الابعاد و المدحور المبعد المطرود يقال: اللهم ادحر عنا الشيطان أى أبعده انتهى.

لما ذكر سبحانه سنته فى التعذيب الدينوى إثر دعوه رساله و أنه يهدى الامم الانسانيه الى الايمان و العمل الصالح حتى إذا فسدوا و أفسدوا بعث اليهم رسولا فإذا طغوا و فسقوا عذبهم عذاب الاستئصال، عاد الى بيان سنته فى التعذيب الأخرى و الإثابه فيها فى هذه الآيه و الآيتين بعدها يذكر فى آيه ملاك عذاب الآخره، و فى آيه ملاك ثوابها، و فى آيه محصل القول و الأصل الكلى فى ذلك.

فقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ أى الذى يريد الحياه العاجله و هى الحياه الدنيا، و إرادته الحياه الدنيا إنما هى طلب ما فيها من المتاع الذى تلتذ به النفس و تعلق به القلب، و التعلق بالعاجله و طلبها إنما يعد طلبا لها إذا كان مقصوده بالاستقلال لا لأجل التوسل بها الى سعادته الاخرى و إلا كانت إرادته للآخره فإن الآخره لا يسلك إليها إلا من طريق الدنيا فلا

يكون الانسان مريداً للدنيا إلا إذا أعرض عن الآخرة و نسيها فتمحضت إرادته في الدنيا، و يدل عليه أيضا خصوص التعبير في الآية «مَنْ كَانَ يُرِيدُ» حيث يدل على استمرار الاراده.

و هذا هو الذى لا يرى لنفسه إلا هذه الحياه الماديه الدنيويه و ينكر الحياه الآخره، و بلغو بذلك القول بالنبوه و التوحيد إذا لا أثر للايمان بالله و رسله و التدين لو لا الاعتقاد بالمعاد، قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ (النجم ٣٠).

و قوله: عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ أى أسرعنا فى إعطائه ما يريد فى الدنيا لكن لا بإعطائه ما يريد بل بإعطائه ما نريده بالأمر الينا لا اليه و الأثر لارادتنا لا لإرادته، و لا بإعطاء ما نعطيه لكل من يريد بل لمن نريد فليس يحكم فينا إرادته الأشخاص بل إرادتنا هى التى تحكم فيهم.

و إرادته سبحانه الفعلية لشيء هو اجتماع الأسباب على كينونته و تحقق العله التامه لظهوره فالآيه تدل على أن الانسان و هو يريد الدنيا يرزق منها على حسب ما يسمح له الأسباب و العوامل التى أجزاها الله فى الكون و قدر لها من الآثار فهو ينال شيئا مما يريد و يسأله بلسان تكوينه لكن ليس له إلا ما يهدى اليه الأسباب و الله من ورائهم محيط.

قوله تعالى: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا قال الراغب: السعى المشى السريع و هو دون العدو، و يستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا، انتهى موضع الحاجة.

و قوله: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ أى الحياه الآخره نظير ما تقدم من قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ» و الكلام فى قول من قال: يعنى من أراد بعمله الآخره نظير الكلام فى مثله فى الآيه السابقه.

و قوله: وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا اللام للاختصاص و كذا إضافه السعى الى ضمير



الآخره،و المعنى و سعى وجد للآخره السعى الذى يختص بها،و يستفاد منه أن سعيه لها يجب أن يكون سعيًا يليق بها و يحق لها كأن يكون يبذل كمال الجهد فى حسن العمل و أخذه من عقل قطعى أو حجه شرعيه.

و قوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أَى مؤمن بالله و يستلزم ذلك توحيد و الإذعان بالنبوه و المعاد فإن من لا يعترف بإحدى الخصال الثلاث لا يعده الله سبحانه فى كلامه مؤمنا به و قد تكاثرت الآيات فيه.

على أن نفس التقييد بقوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ يكفى فى التقييد المذكور فان من أراد الآخره و سعى لها سعيها فهو مؤمن بالله و بنشأه وراء هذه النشأه الدينويه قطعاً فلولا أن التقييد بالإيمان لإفاده وجوب كون الإيمان صحيحاً و من صحته أن يصاحب التوحيد و الإذعان بالنبوه لم يكن للتقييد وجه فمجرد التقييد بالإيمان يكفى مؤننه الاستعانه بآيات أخر.

و قوله: فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً أى يشكره الله بحسن قبوله و الثناء على ساعيه،و شكره تعالى على عمل العبد تفضل منه على تفضل فإن أصل إثابته العبد على عمل عمله تفضل لأن من وظيفه العبد أن يعبد مولاه من غير وجوب الجزاء عليه فالإثابه تفضل، و الثناء عليه بعد الإثابه تفضل على تفضل و الله ذو الفضل العظيم.

و فى الآيتين دلالة على ان الأسباب الاخرويه و هى الأعمال لا تتخلف عن غاياتها بخلاف الأسباب الدينويه فإنه سبحانه يقول فىمن عمل للآخره فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً و يقول فىمن عمل للدنيا عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .

قوله تعالى: كَلَّا نَبْدُدُ هُوَلاءِ وَ هُوَلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً قال فى المفردات: أصل المد الجر و منه المده للوقت الممتد و مده الجرح و مد النهر و مده نهر آخر و مددت عيني الى كذا قال تعالى: وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ الْآيَهُ؛و مددته فى غيه...

وَأَمَدَدَتِ الْجَيْشَ بِمَدَدِ الْإِنْسَانِ بِطَعَامٍ قَالَ: وَ أَكْثَرَ مَا جَاءَ الْإِمْدَادُ فِي الْمَحْبُوبِ وَ الْمَدِّ فِي الْمَكْرُوهِ نَحْوُ: وَ أَمَدَدْنَا هُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَ نَمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَ نَمْدُهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ وَ إِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ انْتَهَى بِتَلْخِصٍ مِنَّا.

فإمداد الشيء و مده أن يضاف اليه من نوعه مثلاً ما يمتد به بقاءه و يدوم به وجوده و لولا ذلك لانتقطع كالعين من الماء التي تستمد من المنبع و يضاف إليها منه الماء حيناً بعد حين و يمتد بذلك جريانها.

و قوله: هَوْلَاءٌ وَ هَوْلَاءٌ أَي هَوْلَاءُ الْمَعْجَلِ لَهُمْ وَ هَوْلَاءُ الْمَشْكُورِ سَعِيهِمْ بِمَا أَنْ لِكُلِّ مِنْهُمَا نَعْتُهُ الْخَاصُّ بِهِ، وَ يَثْوِلُ الْمَعْنَى إِلَى أَنْ كَلَامًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ تَحْتَ التَّرْبِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ يَفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَطَائِهِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ غَيْرِ أَنْ أَحَدَهُمَا يَسْتَعْمَلُ النِّعْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِابْتِغَاءِ الْآخِرَةِ فَيَشْكُرُ اللَّهَ سَعِيَهُ، وَ الْآخَرُ يَسْتَعْمَلُهَا لِابْتِغَاءِ الْعَاجِلِ وَ يَنْسَى الْآخِرَةَ فَلَا يَبْقَى لَهُ فِيهَا إِلَّا الشَّقَاءُ وَ الْخِيبَةُ.

و قوله: مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ فَإِنْ جَمِيعٌ مَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ فِي أَعْمَالِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ لَا صَنْعَ لَهُمْ وَ لَا لغيرهم من المخلوقين فيه بل الله سبحانه هو الموجد لها و مالكها فهي من عطائه.

و قوله: وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا أَي مَمْنُوعًا- وَ الْحِظْرُ الْمَنْعُ- فَأَهْلُ الدُّنْيَا وَ أَهْلُ الْآخِرَةِ مَسْتَمِدُونَ مِنْ عَطَائِهِ مَنْعُونَ بِنِعْمَتِهِ مَمْنُونُونَ بِمَنْتِهِ.

و في الآيه دلالة على أن العطاء الإلهي مطلق غير محدد بحد لمكان إطلاق العطاء و نفى الحظر في الآيه فما يوجد من التحديد و التقدير و المنع باختلاف الموارد فإنما هو من ناحيه المستفيض و خصوص استعداده للاستفاضه أو فقدانه من رأس لا من ناحيه المفيض.

قوله تعالى: أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لِلْمَآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفَضُّلاً إِشَارَةً إِلَى تَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ بِتَفَاوُتِ الْمَسَاعَى حَتَّى لَا- يَتَوَهَّمُ أَنْ قَلِيلَ الْعَمَلِ وَ كَثِيرَهُ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ وَ يَسِيرَ السَّعَى وَ السَّعَى الْبَالِغُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فَإِنْ تَسْوِيَهُ الْقَلِيلُ وَ الْكَثِيرُ وَ الْجِدُّ وَ الرَّدَى فِي الشُّكْرِ وَ الْقَبُولِ رَدٌّ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَا يَزِيدُ بِهِ الْأَفْضَلُ عَلَى غَيْرِهِ.

وقوله: «نُظِرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَي بَعْضُ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا، وَالْقَرِينَةُ عَلَى هَذَا التَّقْيِيدِ قَوْلُهُ بَعْدَ: «وَ لِلَّآخِرَةِ أَكْبَرُ» وَ التَّفْضِيلُ فِي الدُّنْيَا هُوَ مَا يَزِيدُ بِهِ بَعْضُ أَهْلِهَا عَلَى بَعْضٍ مِنْ أَعْرَاضِهَا وَ أَمْتَعَتِهَا كَالْمَالِ وَ الْجَاهِ وَ الْوَلَدِ وَ الْقُوَّةِ وَ الصِّيتِ وَ الرَّئَاسَةِ وَ السُّودِّ وَ الْقَبُولِ عِنْدَ النَّاسِ.

وقوله: «وَ لِلَّآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً أَي هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا فِي الدَّرَجَاتِ وَ التَّفْضِيلِ فَلَا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ أَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ فِي عَيْشِهِ سَوَاءٌ وَ لَا أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ مَعَايِشِهِمْ كَتَّفَاوُتِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ بَلِ الدَّارُ أَوْسَعُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا لَا يُقَاسُ وَ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ التَّفْضِيلِ فِي الدُّنْيَا هِيَ اخْتِلَافُ الْأَسْبَابِ الْكُونِيَّةِ وَ هِيَ مَحْدُودَةٌ وَ الدَّارُ دَارُ التَّرَاحُمِ وَ سَبَبُ التَّفْضِيلِ وَ اخْتِلَافُ الدَّرَجَاتِ فِي الْآخِرَةِ هُوَ اخْتِلَافُ النُّفُوسِ فِي الْإِيمَانِ وَ الْإِحْلَاصِ وَ هِيَ مِنْ أَحْوَالِ الْقُلُوبِ، وَ اخْتِلَافُ أَحْوَالِهَا أَوْسَعُ مِنْ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْأَجْسَامِ بِمَا لَا يُقَالُ قَالَ تَعَالَى:

إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقرة ٢٨٤) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَا لَكُمْ وَلَا بُنُونَ إِلَّا مَنِ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء ٨٩).

ففي الآيه أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ التَّفَاضُلِ وَ الْإِعْتِبَارِ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرِيْعَةً إِلَى فَهْمِ مَا بَيْنَ أَهْلِ الْآخِرَةِ مِنْ تَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ وَ التَّفَاضُلِ فِي الْمَقَامَاتِ فَإِنَّ اخْتِلَافَ الْأَحْوَالِ فِي الدُّنْيَا يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ الْإِدْرَاكَاتِ الْبَاطِنَةِ وَ النِّيَّاتِ وَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَيَسَّرُ لِلنَّاسِ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا وَ اخْتِلَافُ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ الدَّرَجَاتِ فِي الْآخِرَةِ.

قوله تعالى: لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعَدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْخِذْلَانُ تَرَكَ مِنْ يَظُنُّ بِهِ أَنْ يَنْصُرَ نَصْرَتَهُ انْتَهَى.

وَ الْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ النُّتِيْجَةِ لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ سَنَةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَ خَتَمْتُ فِي أَنَّ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْعَاجِلَةَ انْتَهَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصَلِيَ جَهَنَّمَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا، وَ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْآخِرَةَ شَكَرَ اللَّهُ سَعِيَةَ الْجَمِيلِ، وَ الْمَعْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ حَتَّى يُؤَدِيكَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَقَعُدَ وَ تَحْتَبِسَ عَنِ

السير الى درجات القرب و انت مذموم لا ينصر ك الله و لا ناصر دونه و قيل: القعود كناية عن المذلة و العجز (١)(٢).

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢٣ الى ٣٩]

إشارة

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَ  
قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي  
نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ لَا تُبْذِرْ تَبَذُّرًا (٢٦)  
إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ  
قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطِ الرِّزْقَ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُمْسِكُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاءً  
كَبِيرًا (٣١) وَ لَا تَقْرَبُوا الزَّوْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ  
جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا  
بِالعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَ لَا تَقْفُ  
مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَ الْبَصِيرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ  
الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لَا  
تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

ص: ٧٠٠

١- ١. الاسراء ٩-٢٢: بحث روائي في القرآن.

٢- ٢. الاسراء ٩-٢٢: كلام في القضاء في فصول (في تحصيل معناه و تحديده؛ نظره فلسفيه في معنى القضاء) بحث فلسفي في وجود الواجب تعالى.



قوله تعالى: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿١٦٣﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا ﴿١٦٤﴾ الخ؛ نفى و استثناء و «أن» مصدرية و يجوز ان يكون نهيا استثناء و أن مصدرية أو مفسره، و على أى حال ينحل مجموع المستثنى و المستثنى منه الى جملتين كقولنا: تعبدونه و لا تعبدون غيره و ترجع الجملتان بوجه آخر الى حكم واحد و هو الحكم بعبادته عن اخلاص.

و القول سواء كان منحلا الى جملتين أو عائدا الى جملة واحدة متعلق القضاء و هو القضاء التشريعى المتعلق بالاحكام و القضايا التشريعية، و يفيد معنى الفصل و الحكم القاطع المولوى، و هو كما يتعلق بالأمر يتعلق بالنهى و كما يبرم الأحكام المثبتة يبرم الأحكام المنفيه، و لو كان بلفظ الأمر فقيل: و أمر ربك ان لا تعبدوا الا اياه، لم يصح الا بنوع من التأويل و التجوز.

و الأمر باخلاص العبادة لله سبحانه أعظم الأوامر الدينيه و الاخلاص بالعباده أوجب الواجبات كما أن معصيته و هو الشرك بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقه، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء/٤٨).

و اليه يعود جميع المعاصى بحسب التحليل اذ لو لا طاعه غير الله من شياطين الجن و الإنس و هوى النفس و الجهل لم يقدم الانسان على معصيه ربه فيما أمره به أو نهاه عنه و الطاعه عباده قال تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (يس /٦٠)، و قال:

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿٢٣﴾ (الجاثيه/٢٣)، حتى أن الكافر المنكر للصانع مشرك بالقائه زمام تدبير العالم الى الماده او الطبيعه او الدهر او غير ذلك و هو مقر بسداجه فطرته بالصانع

و لعظم أمر هذا الحكم قدمه على سائر ما عد من الأحكام الخطيره شأننا كعقوق الوالدين و منع الحقوق الماليه و التبذير و قتل الأولاد و الزنا و قتل النفس المحترمه و أكل مال اليتيم و نقض العهد و التطفيف فى الوزن و اتباع غير العلم و الكبير ثم ختمها بالنهى ثانيا عن الشرك.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا عطف على سابقه أى و قضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا او ان أحسنوا بالوالدين احسانا و الإحسان فى الفعل يقابل الإساءه و هذا بعد التوحيد لله من أوجب الواجبات كما أن عقوقهما أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، و لذلك ذكره بعد حكم التوحيد و قدمه على سائر الأحكام المذكوره المعدوده و كذلك فعل فى عده مواضع من كلامه.

قوله تعالى: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا «إِمَّا» مركب من «إن» الشرطيه و «ما» الزائده و هى المصححه لدخول نون التأكيد على فعل الشرط، و الكبير هو الكبير فى السن و أف كلمه تفيد الضجر و الانزجار، و النهر هو الزجر بالصياح و رفع الصوت و الاغلاظ فى القول.

فالآيه تدل على وجوب إكramهما و رعايه الأدب التام فى معاشرتهما و محاورتهما فى جميع الأوقات و خاصه فى وقت يشند حاجتهما الى ذلك و هو وقت بلوغ الكبير من احدهما او كليهما عند الولد و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا خفض الجناح كناية عن المبالغه فى التواضع و الخضوع قولاً- و فعلاً- مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليستعطف أمه لتغذيته، و لذا قيده بالذل فهو دأب أفراخ الطيور إذا أرادت الغذاء من امهاتها، فالمعنى واجههما فى معاشرتك و محاورتك مواجهه يلوح منها تواضعك و خضوعك لهما و تذللك قبالهما رحمه بهما.

هذا ان كان الذل بمعنى المسكنه و ان كان بمعنى المطاوعه فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته افراخه رحمه بها و حفظا لها.

وقوله: وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَحِمْتَ بَنِي صَدِّيقِي، أى اذكر تربيتهما لك صغيرا فادع الله سبحانه أن يرحمهما كما رحماك و ربياك صغيرا.

قال فى المجمع: و فى هذا دلالة على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع و إلا لم يكن للامر به معنى. انتهى. و الذى يدل عليه كون هذا الدعاء فى مظنه الإجابة و هو أدب دينى ينتفع به الولد و ان فرض عدم انتفاع والديه به على أن وجه تخصيص استجابته الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر و الآيه مطلقه.

قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا السياق يعطى أن تكون الآيه متعلقه بما تقدمها من إيجاب إحسان الوالدين و تحريم عقوقهما، و على هذا فهى متعرضه لما إذا بدرت من الولد بادره فى حق الوالدين من قول أو فعل يتأذيان به، و إنما لم يصرح به للإشارة الى أن ذلك مما لا ينبغى أن يذكر كما لا ينبغى أن يقع.

فقوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ أى أعلم منكم به، و هو تمهيد لما يتلوه من قوله: إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فيفيد تحقيق معنى الصلاح أى إن تكونوا صالحين و علم الله من نفوسكم ذلك فإنه كان، الخ؛ و قوله: فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا أى للراجعين اليه عند كل معصيه و هو من وضع البيان العام موضع الخاص.

و المعنى: إن تكونوا صالحين و علم الله من نفوسكم و رجعتم و تبتم اليه فى بادره ظهرت منكم على والديكم غفر الله لكم ذلك إنه كان للأوابين غفورا.

قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ تقدم الكلام فيه فى نظائره، و بالآيه أن إيتاء ذى القربى و المسكين و ابن السبيل مما شرع قبل الهجره لأنها آيه



مكيه من سوره مكيه.

قوله تعالى: وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: التَّبْذِيرُ التَّفْرِيقُ بِالْإِسْرَافِ، وَأَصْلُهُ أَنْ يَفْرُقَ كَمَا يَفْرُقُ الْبَذْرَ إِلَّا أَنَّهُ يَخْتَصُّ بِمَا يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْإِفْسَادِ، وَمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْإِصْلَاحِ لَا يُسَمَّى تَبْذِيرًا وَإِنْ كَثُرَ انْتَهَى.

وقوله: إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنِ التَّبْذِيرِ، وَالْمَعْنَى لَا تَبْذِرْ إِنَّكَ إِنْ تَبْذَرْتَ كُنْتَ مِنَ الْمُبْذِرِينَ وَالْمُبْذِرُونَ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ، وَكَأَنَّ وَجْهَ الْمَوَاحَاةِ بَيْنَهُمْ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَصِيرُ مَلَازِمًا لِشَيْطَانِهِ وَبِالْعَكْسِ كَالْأَخْوِيَّةِ الَّذِينَ هُمَا شَقِيْقَانِ مُتَلَازِمَانِ فِي أَصْلِهِمَا الْوَاحِدَ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا (حم السجده / ٢٥)، وَقَوْلُهُ: أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ (الصافات / ٢٢) أَي قَرَأَهُمْ: وَقَوْلُهُ:

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (الأعراف / ٢٠٢).

وَمِنْ هُنَا يُظْهِرُ أَنَّ تَفْسِيرَ مَنْ فَسَّرَ آيَةَ بَأَنَّهُمْ قَرَأَ الشَّيَاطِينِ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ:

الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ الشَّيَاطِينِ سَالِكُونَ سَبِيلِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا» فَالْمُرَادُ بِالشَّيْطَانِ فِيهِ هُوَ ابْلِيسُ الَّذِي أَوْ أَبُو الشَّيَاطِينِ وَهُمُ ذُرِّيَّتُهُ وَقَبِيلُهُ وَاللَّامُ حِينَئِذٍ لِلْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ لِلْجِنْسِ وَالْمُرَادُ بِهِ جِنْسُ الشَّيْطَانِ وَعَلَى أَيِّ حَالٍ كَوْنُهُ كَفُورًا لِربِّهِ مِنْ جِهَةِ كُفْرَانِهِ بِنِعْمِ اللَّهِ حَيْثُ أَنَّهُ يَصْرِفُ مَا آتَاهُ مِنْ قُوَّةٍ وَقَدْرَةٍ وَاسْتِطَاعَةٍ فِي سَبِيلِ إِغْوَاءِ النَّاسِ وَحَمْلِهِمْ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْخَطِيئَةِ وَكُفْرَانِ النِّعْمَةِ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ مِمَّا تَقَدَّمَ النِّكْتَةُ فِي جَمْعِ الشَّيْطَانِ أَوْلَا وَإِفْرَادِهِ ثَانِيًا فَإِنَّ الْإِعْتِبَارَ أَوْلَا بِأَنَّ كُلَّ مُبْذِرٍ أَخُو شَيْطَانِهِ الْخَاصِّ فَالْجَمِيعُ إِخْوَانٌ لِلشَّيَاطِينِ وَالْإِعْتِبَارَ ثَانِيًا بِابْلِيسَ الَّذِي هُوَ أَبُو الشَّيَاطِينِ أَوْ بِجِنْسِ الشَّيْطَانِ.

ص: ٧٠٥

قوله تعالى: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا أَوَّلَهُ إِنَّ تَعْرِضَ عَنْهُمْ وَ«مَا» زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَ النون للتأكيد.

و السياق يشهد بأن الكلام في إنفاق الأموال فالمراد بقوله: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ» الإعراض عن سألته شيئاً من المال ينفقه له و يسد به خلته؛ وليس المراد به كل إعراض كيف اتفق بل الإعراض عند ما ليس عنده شيء من المال يبذله له و ليس بآيس من وجدانه بدليل قوله: ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا أَي كُنْتَ تَعْرِضُ عَنْهُمْ لِأَنَّكَ لَكُنْتَ مَلِيئًا بِالْمَالِ شَحِيحًا بِهِ؛ وَ لَا لِأَنَّكَ فَاقِدٌ لَهُ آيسٌ مِنْ حَصُولِهِ بَلْ لِأَنَّكَ فَاقِدٌ لَهُ مَبْتَغٍ وَ طَالِبٌ لِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا يَعْنِي الرِّزْقَ.

و قوله: فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا أَي سهلاً لينا أَي لا تغلظ في القول و لا تجف في الرد كما قال تعالى: وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (الضحى ١٠) بل رده بقول سهل لين.

قال في الكشاف: و قوله: «ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ» إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه أَي فقل لهم قولاً سهلاً لينا وعدهم وعداً جميلاً رحمه لهم و تطيباً لقلوبهم ابتغاء رحمه من ربك أي ابتغ رحمه الله التي ترجوها برحمتك عليهم، و إما أن يتعلق بالشرط أَي و إن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك - فسمى الرزق رحمه - فردهم رداً جميلاً فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء و الابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب انتهى.

قوله تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُومًا مَحْسُورًا جعل اليد مغلوله الى العنق كناية عن الإمساك كمن لا يعطى و لا يهب شيئاً لبخله و شح نفسه، و بسط اليد كل البسط كناية عن إنفاق الإنسان كل ما في وجده بحيث لا يبقى شيئاً كمن يبسط يده كل البسط بحيث لا يستقر عليها شيء ففي الكلام نهى بالغ عن التفريط و الإفراط في الإنفاق.

وقوله: فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَحْسُورًا متفرع على قوله: «وَلَا تَبْسُطْهَا» الخ؛ والحسر هو الانقطاع أو العرى أى ولا تبسط يدك كل البسط حتى يتعقب ذلك أن تقعد ملوما لنفسك وغيرك منقطعاً عن واجبات المعاش أو عريانا لا تقدر على أن تظهر للناس و تعاشرهم و تراودهم.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ظاهر السياق أن الآية فى مقام التعليل لما تقدم فى الآية السابقة من النهى عن الإفراط و التفريط فى إنفاق المال و بذله.

و المعنى: أن هذا دأب ربك و سنته الجارية ببسط الرزق لمن يشاء و يقدر لمن يشاء فلا يبسطه كل البسط و لا يمسك عنه كل الإمساك رعايه لمصلحه العباد إنه كان بعباده خبيراً بصيراً و ينبغى لك أن تتخلق بخلق الله و تتخذ طريق الاعتدال و تتجنب الافراط و التفريط.

قوله تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا الاملاق الفاقة و الفقر، و قال فى المفردات: الخطأ العدول عن الجهد و ذلك أضرَب: أحدها أن تريد غير ما تحسن ارادته و فعله، و هذا هو الخطأ التام المأخوذ به الانسان يقال: خطئ يخطأ و خطأه، قال تعالى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا و قال: وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ و الثانى أن يريد ما يحسن فعله و لكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أخطأ اخطاء فهو مخطئ و هذا قد أصاب فى الاراده و أخطأ فى الفعل، و هذا المعنى بقوله: وَ مَنْ قَتَلَ مَوْمِنًا خَطْأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، و الثالث أن يريد ما لا يحسن فعله و يتفق منه خلافه فهذا مخطئ فى الإراده مصيب فى الفعل فهو مذموم بقصده غير محمود على فعله.

و جملة الأمر أن من أراد شيئاً فاتفق منه غيره يقال: أخطأ، و ان وقع منه كما أراد يقال:

أصاب، و قد يقال لمن فعل فعلاً لا يحسن أو أراد اراده لا يجمل: انه أخطأ، و لذا يقال: أصاب الخطأ و أخطأ الصواب و أصاب الصواب و أخطأ الخطأ و هذه اللفظه مشتركه كما ترى متردده

بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أو يتأملها. انتهى بتلخيص.

و في الآية نهى شديد عن قتل الأولاد خوفا من الفقر و الحاجة و قوله: «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» تعليل للنهي و تمهيد لقوله بعد: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا» .

و المعنى و لا- تقتلوا أولادكم خوفا من أن تبتلوا بالفقر و الحاجة فيؤديهم ذلك الى ذل السؤال أو ازدواج بناتكم من غير الأكفاء أو غير ذلك مما يذهب بكرامتكم فإنكم لستم ترزقونهم حتى تفقدوا الرزق عند فقركم و اعساركم بل نحن نرزقهم و اياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا.

و أما الآية التي نحن فيها و أترابها فإنها تنهى عن قتل الأولاد خشية إملاق، و لا موجب لحمل الأولاد على البنات مع كونه أعم، و لا- حمل الهون على خوف الفقر مع كونهما متغايرين فالحق أن الآية تكشف عن سنه سيئه اخرى غير وأ البنات دفعا للهون و هي قتل الأولاد من ذكر و انثى خوفا من الفقر و الفاقة و الآيات تنهى عنه.

قوله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا نهى عن الزنا و قد بالغ في تحريمه حيث نهاهم عن أن يقربوه، و عله بقوله: «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً» فأفاد أن الفحش صفة لازمه له لا- يفارقه، و قوله: «وَ سَاءَ سَبِيلًا» فأفاد أنه سبيل سيئ يؤدي الى فساد المجتمع في جميع شئونه حتى ينحل عقده و يختل نظامه و فيه هلاك الإنسانية و قد بالغ سبحانه في وعيد من أتى به حيث قال في صفات المؤمنين: وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يُخَلَّدُ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (الفرقان ٧٠) (١).

قوله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ

ص: ٧٠٨

(١- ١). الاسراء ٢٣-٣٩: كلام في حرمه الزنا و هو بحث قرآنى اجتماعى.

أَشَدُّهُ نَهَى عَنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَ هُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ الَّتِي أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّارَ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا (النساء / ١٠).

و فى النهى عن الاقتراب مبالغه لإفاده اشتداد الحرمة.

و قوله: بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَى بالطريقة التى هى أحسن و فيه مصلحة إنماء ماله، و قوله: «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» هو أوان البلوغ و الرشد و عند ذلك يرتفع عنه اليتيم فالتحديد بهذه الجملة لكون النهى عن القرب فى معنى الأمر بالصيانة و الحفظ كأنه قيل: احتفظوا على ماله حتى يبلغ أشده فتردوه إليه، و بعبارة أخرى الكلام فى معنى قولنا: لا تقربوا مال اليتيم ما دام يتيما، و قد تقدم بعض ما يناسب المقام فى سورة الأنعام آية ١٥٢.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئَلًا- أَى مسئول عنه و هو من الحذف و الإيصال السائغ فى الكلام، و قيل: المراد السؤال عن نفس العهد فان من الجائز أن تمثل الأعمال يوم القيامة فتشهد للانسان أو عليه و تشفع له أو تخصصه.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زُنُوتًا بِالْقِيسِ طاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا القسطاس بكسر القاف و ضمها هو الميزان قيل: رومى معرب و قيل:

عربى، و قيل مركب فى الأصل من القسط و هو العدل و طاس و هو كفه الميزان و القسطاس المستقيم هو الميزان العادل لا يخسر فى وزنه.

و قوله: ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا- الخير هو الذى يجب أن يختاره الإنسان إذا تردد الأمر بينه و بين غيره، و التأويل هو الحقيقة التى ينتهى إليها الأمر، و كون إيفاء الكيل و الوزن بالقسطاس المستقيم خيرا لما فيه من الاتقاء من استراق أموال الناس و اختلاسها من حيث لا يشعرون و جلب و ثوقهم.

و كونهما أحسن تأويلا لما فيهما من رعايه الرشد و الاستقامة فى تقدير الناس معيشتهم فان

معايشهم تقوم في التمتع بأمته الحياه على أصلين اكتساب الأمتعه الصالحه للتمتع و المبادله على الزائد على قدر حاجتهم فهم يقدرون معيشتهم على قدر ما يسعهم أن يبذلوه من المال عينا أو قيمه، و على قدر ما يحتاجون اليه من الأمتعه المشتره فإذا خسروا بالتطيف و نقص الكيل و الوزن فقد اختلت عليهم الحياه من الجهتين جميعا، و ارتفع الأمن العام من بينهم.

و أما إذا أقيم الوزن بالقسط فقد أطل عليهم الرشد و استقامت أوضاعهم الاقتصاديه بإصابه الصواب فيما قدروا عليه معيشتهم و اجتلب و ثوقهم الى أهل السوق و استقر بينهم الأمن العام.

قوله تعالى: «لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ وَالْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاَ القراءه المشهوره «لَا تَقْفُ» بسكون القاف و ضم الفاء من قفا يقفوقفوا اذا اتبعه و منه قافيه الشعر لكونها في آخر المصراع تابعه لما تقدمها، و قرئ «لَا تَقْفُ» بضم القاف و سكون الفاء من قاف بمعنى قفا، و لذلك نقل عن بعض أهل اللغه أن قاف مقلوب قفا مثل جبذ مقلوب جذب، و منه القيافه بمعنى اتباع أثر الأقدام.

و الآيه تنهى عن اتباع ما لا علم به، و هى لاطلاقها تشمل الاتباع اعتقادا و عملا، و تحصل في مثل قولنا: لا تعتقد ما لا علم لك به و لا تقل ما لا علم لك به و لا تفعل ما لا علم لك به لأن في ذلك كله اتباعا.

قوله تعالى: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا المرح شده الفرح بالباطل - كما قيل - و لعل التقييد بالباطل للدلاله على خروجه عن حد الاعتدال فإن الفرح الحق هو ما يكون ابتهاجا بنعمه من نعم الله شكرا له و هو لا يتعدى حد الاعتدال، و اما اذا فرح و اشتد منه ذلك حتى خف عقله و ظهر آثاره في افعاله و اقواله و قيامه و قعوده و خاصه في مشيه فهو من الباطل.

و قوله: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا نهي عن استعظام الانسان نفسه بأكثر

مما هو عليه لمثل البطر و الأشر و الكبر و الخيلاء، و انما ذكر المشى فى الأرض مرحا لظهور ذلك فيه.

و قوله: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كناية عن ان فعالك هذا و انت تريد به اظهار القدره و القوه و العظمه انما هو و هم تتوهمه فإن هناك ما هو أقوى منك لا- يخترق بقدميك و هى الأرض و ما هو أطول منك و هى الجبال فاعترف بذلك أنك وضيع مهين فلا شىء مما يبتغيه الإنسان و يتنافس فيه فى هذه النشأه من ملك و عزه و سلطنه و قدره و سؤدد و مال و غيرها إلا- امور وهميه لا- حقيقه لها وراء الإدراك الإنسانى سخر الله النفوس للتصديق بها و الاعتماد فى العمل عليها لتعمير النشأه و تمام الكلمه، و لو لا هذه الأوهام لم يعيش الإنسان فى الدنيا و لا تمت كلمته تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦).

قوله تعالى: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا الإشاره بذلك الى ما تقدم من الواجبات و المحرمات- كما قيل- و الضمير فى «سَيِّئُهُ» يرجع الى ذلك، و المعنى كل ما تقدم كان سيئه- و هو ما نهى عنه و كان معصيه من بين المذكورات- عند ربك مكروها لا يريد الله تعالى.

و فى غير القراءه المعروفه «سَيِّئُهُ» بفتح الهمزه و التاء فى آخرها و هى على هذه القراءه خبر كان و المعنى واضح.

قوله تعالى: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ ذَلِكَ إِشَارَه الى ما تقدم من تفصيل التكاليف و فى الآيه إطلاق الحكمة على الأحكام الفرعيه و يمكن أن يكون لما تشتمل عليه من المصالح المستفاده إجمالاً من سابق الكلام.

قوله تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا كرر سبحانه النهى عن الشرك و قد نهى عنه سابقاً اعتناء بشأن التوحيد و تفخيماً

لأمره، وهو كالوصله يتصل به لاحق الكلام بسابقه، ومعنى الآية ظاهر (١).

## [سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٠ إلى ٥٥]

### إشاره

أَفَاصِفًا كُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَدَقْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسِيئًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أذْبَانِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا (٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤْسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُزَحِّمَكُمْ أَوْ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥)

ص: ٧١٢



قوله تعالى: أَفَأَصْبَحَ فُؤَادُكُمْ رُبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا الإصفاء الإخلاص قال فى المجمع: تقول: أصفيت فلانا بالشىء آثرته به. انتهى.

خطاب لمن يقول منهم: ان الملائكة بنات الله أو بعضهم بنات الله و الاستفهام للانكار، و لعله بدل البنات من الاناث لكونهم يعدون الانوثة من صفات الخسه.

و المعنى اذا كان سبحانه ربكم لا رب غيره و هو الذى يتولى أمر كل شىء فهل تقولون انه آثركم بكرامه لم يتكرم به هو نفسه و هو انه خصكم بالبنيين و لم يتخذ لنفسه من الود الا الاناث و هم الملائكة الكرام الذين تزعمون انهم اناث انكم لتقولون قولاً عظيماً من حيث استتباعه التبعة السيئه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** قال فى المفردات:الصرف رد الشىء من حاله الى حاله او ابداله بغيره.قال:و التصريف كالصرف الا- فى التكثير،و اكثر ما يقال فى صرف الشىء من حاله الى حاله و من امر الى امر، و تصريف الرياح هو صرفها من حال الى حال قال تعالى: **وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ وَمَا يَصْرِفُنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ** و منه تصريف الكلام و تصريف الدراهم.انتهى.

و قال:النفر الانزعاج من الشىء و الى الشىء كالفزع الى الشىء و عن الشىء يقال:نفر عن الشىء نفورا قال تعالى: **مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** انتهى.

فقوله: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا** معناه بشهادة السياق:و اقسام لقد رددنا الكلام معهم فى امر التوحيد و نفى الشرك من وجه الى وجه و حولناه من لحن الى لحن فى هذا القرآن فأوردناه بمختلف العبارات و بيناه بأقسام البيانات ليتذكروا و يتبين لهم الحق.

و قوله: **وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** أى ما يزيدهم التصريف الا انزعاجا كلما استؤنف جىء ببيان جديد ورثهم نفره جديده.

قوله تعالى: **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** أعرض عن مخاطبتهم فصرف الخطاب الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأمره أن يكلمهم فى أمر التوحيد و نفى الشرك.و الذى يقولون به أن هناك آلهه دون الله يتولون جهات التدبير فى العالم على اختلاف مراتبهم و الواحد منهم رب لما يدبره كإله السماء و إله الأرض و إله الحرب و إله

و إذ كانوا شركاء من جهة التدبير لكل واحد منهم الملك على حسب ربوبيته و الملك من توابع الخلق الذى يختص به سبحانه حتى على معتقدهم (١) كان الملك مما يقبل فى نفسه أن يقوم به غيره تعالى و حب الملك و السلطنه ضرورى لكل موجود كانوا بالضروره طالبين أن ينازعه فى ملكه و يتزعه من يده حتى ينفرد الواحد منهم بالملك و السلطنه، و يتعين بالعزه و الهيمنه تعالى الله عن ذلك.

فملخص الحججه أنه لو كان معه آلهه كما يقولون و كان يمكن أن ينال غيره تعالى شيئاً من ملكه الذى هو من لزوم ذاته الفياضه لكل شىء و حب الملك و السلطنه مغروز فى كل موجود بالضروره لطلب اولئك الآلهه أن ينالوا ملكه فيعزلوه عن عرشه و يزدادوا ملكا على ملك لحبهم ذلك ضروره لكن لا سبيل لأحد اليه تعالى عن ذلك.

فقوله: «إِذَا لَا يَبْتَغُوا إِلَهِي ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا» أى طلبوا سبيلاً- اليه ليغلبوه على ماله من الملك، و التعبير عنه تعالى بذى العرش و هو من الصفات الخاصه بالملك للدلاله على أن ابتغاءهم السبيل اليه انما هو لكونه ذا العرش و هو ابتغاء سبيل الى عرشه ليستقروا عليه.

و من هنا يظهر أن قول بعضهم ان الحججه فى الآيه هى فى معنى الحججه التى فى قوله تعالى:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا الْآيَةَ (الأنبياء ٢٢) فى غير محله.

قوله تعالى: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا التعالى هو العلو البالغ و لهذا وصف المفعول المطلق أعنى «عُلُوًّا» بقوله: «كَبِيرًا» فالكلام فى معنى تعالى تعاليا:

و الآيه تنزيه له تعالى عما يقولونه من ثبوت الآلهه و كون ملكه و ربوبيته مما يمكن أن يناله

ص: ٧١٥

١ - ١). كما نقل انهم كانوا يقولون فى التلبيه: لبيك لا- شريك لك الا شريكا هو لك تملكه و ما ملك و الكتب المقدسه البرهمنيه و البوذيه مملوءه ان الملك كله لله سبحانه.

قوله تعالى: **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** الخ؛ الآيه و ما قبلها و ان كانت واقعه موقع التعظيم كقوله: **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا سُبْحَانَهُ** لكنها تفيد بوجه في الحجة المتقدمه فإنها بمنزله المقدمه المتممه لقوله: **«لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ»** الخ؛ فإن الحجة بالحقيقه قياس استثنائي و الذي بمنزله الاستثناء هو ما في الآيه من تسبيح الأشياء له سبحانه كأنه قيل: لو كان معه آلهه لكان ملكه في معرض المنازعه و المهاجمه لكن الملك من السماوات و الأرض و من فيهن ينزهه عن ذلك و يشهد أن لا شريك له في الملك فإنها لم تبتدأ الا منه و لا تنتهى الا اليه و لا تقوم الا به و لا تخضع سجدا الا له فلا يتلبس بالملك و لا يصلح له الا هو فلا رب غيره.

و التسبيح تنزيه قولى كلامى و حقيقه الكلام الكشف عما فى الضمير بنوع من الإشاره اليه و الدلاله عليه غير أن الإنسان لما لم يجد الى اراده كل ما يريد الإشاره اليه من طريق التكوين طريقا التجأ الى استعمال الألفاظ و هى الأصوات الموضوعه للمعانى، و دل بها على ما فى ضميره، و جرت على ذلك سنه التفهيم و التفهم، و ربما استعان على بعض مقاصده بالإشاره بيده أو رأسه أو غيرهما، و ربما استعان على ذلك بكتابه أو نصب علامه.

و بالجمله فالذى يكشف به عن معنى مقصود قول و كلام و قيام الشىء بهذا الكشف قول منه و تكليم و ان لم يكن بصوت مقروع و لفظ موضوع، و من الدليل عليه ما ينسبه القرآن اليه تعالى من الكلام و القول و الأمر و نحو ذلك مما فيه معنى الكشف عن المقاصد و ليس من قبيل القول و الكلام المعهود عندنا معشر المتلسنين باللغات و قد سماه الله سبحانه قولا و كلاما.

و عند هذه الموجودات المشهوده من السماء و الأرض و من فيهما ما يكشف كشافا صريحا عن وحدانيه ربها فى ربوبيته و ينزهه تعالى عن كل نقص و شين فهى تسبح الله سبحانه.

و ذلك أنها ليست لها فى أنفسها إلا محض الحاجة و صرف الفاقه اليه فى ذاتها و صفاتها و أحوالها. و الحاجة أقوى كاشف عما اليه الحاجة لا- يستقل المحتاج دونه و لا ينفك عنه فكل من هذه الموجودات يكشف بحاجته فى وجوده و نقصه فى ذاته عن موجه الغنى فى وجوده التام الكامل فى ذاته و بارتباطه بسائر الموجودات التى يستعين بها على تكميل وجوده و رفع نقائصه فى ذاته أن موجه هو ربه المتصرف فى كل شىء المدبر لأمره.

ثم النظام العام الجارى فى الأشياء الجامع لشتاتها الرابط بينها يكشف عن وحده موجهها، و أنه الذى اليه بوحدته يرجع الأشياء و به بوحدته ترتفع الحوائج و النقائص فلا- يخلو من دونه من الحاجة، و لا- يتعزى ما سواه من النقيصه و هو الرب لا رب غيره و الغنى الذى لا فقر عنده و الكمال الذى لا نقص فيه.

فكل واحد من هذه الموجودات يكشف بحاجته و نقصه عن تنزه ربه عن الحاجة و براءته من النقص حتى أن الجاهل المثبت لربه شركاء من دونه أو المناسب اليه شيئاً من النقص و الشين تعالى و تقدس يثبت بذلك تنزهه من الشريك و ينسب بذلك اليه البراءة من النقص فإن المعنى تصور فى ضمير هذا الإنسان و اللفظ الذى يلفظه لسانه و جميع ما استخدمه فى تأديه هذا المقصود كل ذلك مور موجوده تكشف بحاجتها الوجوديه عن رب واحد لا شريك له و لا نقص فيه.

فمثل هذا الإنسان الجاحد فى كون جحوده اعترافاً مثل ما لو ادعى إنسان أن لا إنسان متكلماً فى الدنيا و شهد على ذلك قولاً فإن شهادته أقوى حجه على خلاف ما ادعاه و شهد عليه و كلما تكررت الشهاده على هذا النمط و كثر الشهود تأكدت الحجه من طريق الشهاده على خلافها.

فإن قلت: مجرد الكشف عن التنزه لا يسمى تسييحاً حتى يقارن القصد و القصد مما يتوقف على الحياه و أغلب هذه الموجودات عادمه للحياه كالأرض و السماء و أنواع الجمادات فلا

مخلص من حمل التسييح على المجاز فتسييحها دلالتها بحسب وجودها على تنزه ربها.

قلت: كلامه تعالى مشعر بأن العلم سار في الموجودات مع سريان الخلقه فلكل منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود، وليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنسه و نوعه أو يكون عند كل ما عند الإنسان من ذلك أو أن يفقه الإنسان بما عندها من العلم قال تعالى حكاية عن أعضاء الإنسان: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (حم السجده ٢١) وقال: ﴿قَالَ لَهُمَا وَ لِلْمَأْرُضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (حم السجده ١١) والآيات في هذا المعنى كثيرة، و سيوافيك كلام مستقل في ذلك إن شاء الله تعالى.

و إذا كان كذلك فما من موجود مخلوق إلا و هو يشعر بنفسه بعض الشعور و هو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجه الناقصه التي يحيط بها غنى ربه و كماله لا رب غيره فهو يسبح ربه و ينزهه عن الشريك و عن كل نقص ينسب اليه.

و بذلك يظهر أن لا- وجه لحمل التسييح في الآيه على مطلق الدلاله مجازا فالمجاز لا- يصار اليه إلا- مع امتناع الحمل على الحقيقه، و نظيره قول بعضهم: إن تسييح بعض هذه الموجودات قالى حقيقى كتسييح الملائكه و المؤمنين من الإنسان و تسييح بعضها حالى مجازى كدلاله الجمادات بوجودها عليه تعالى و لفظ التسييح مستعمل في الآيه على سبيل عموم المجاز، و قد عرفت ضعفه آنفا.

و الحق أن التسييح في الجميع حقيقى قالى غير أن كونه قاليا لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعه و أصوات مقروعه كما تقدمت الإشاره اليه و قد تقدم في آخر الجزء الثانى من الكتاب كلام في الكلام نافع في المقام.

فقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يثبت لها تسييحا حقيقيا و هو تكلمها بوجودها و ما له من الارتباط بسائر الموجودات الكائنه و بيانها

تنزه ربها عما ينسب اليه المشركون من الشركاء و جهات النقص.

□  
و قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ تَعْمِيمَ التَّسْبِيحِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَ قَدْ كَانَتْ الْجُمْلَةُ السَّابِقَةُ عَدَّتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مِنْ فِيهِنَّ، وَ تَزِيدُ عَلَيْهَا بِذِكْرِ الْحَمْدِ مَعَ التَّسْبِيحِ فَتَفِيدُ أَنْ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا يَسْبُحُهُ تَعَالَى كَذَلِكَ يَحْمَدُهُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ وَ أَعْمَالِهِ.»

و ذلك أنه كما أن عند كل من هذه الأشياء شيئاً من الحاجة و النقص عائدا الى نفسه كذلك عنده من جميل صنعه و نعمته تعالى شىء راجع اليه تعالى موهوب من لدنه، و كما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها فى الوجود إظهار لحاجتها و نقصها كشف عن تنزه ربها عن الحاجة و النقص، و هو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبراز لما عندها من جميل فعل ربها الذى وراءها جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلا الثناء على الجميل الاختيارى فهى تحمد ربها كما تسبحه و هو قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.»

و بلفظ آخر اذا لوحظ الأشياء من جهه كشفها عما عند ربها بإبرازها ما عندها من الحاجة و النقص مع ما لها من الشعور بذلك كان ذلك تسييحا منها، و اذا لوحظت من جهه كشفها ما لربها باظهارها ما عندها من نعمه الوجود و سائر جهات الكمال فهو حمد منها لربها و اذا لوحظ كشفها ما عند الله سبحانه من صفه جمال أو جلال مع قطع النظر عن علمها و شعورها بما تكشف عنه كان ذلك دلالة منها عليه تعالى و هى آياته.

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالتسبيح فى الآيه ليس مجرد دلالتها عليه تعالى بنفى الشريك و جهات النقص فإن الخطاب فى قوله: «وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» إما للمشركين و إما للناس أعم من المؤمن و المشرك و هم على أى حال يفقهون دلالة الأشياء على صانعها مع أن الآيه تنفى عنهم الفقه.

و لا يصغى الى قول من قال: إن الخطاب للمشركين و هم لعدم تدبرهم فيها و قله انتفاعهم بها كان فهمهم بمنزله العدم، و لا الى دعوى من يدعى أنهم لعدم فهمهم بعض المراد من

التسييح جعلوا ممن لا يفقه الجميع تغليباً.

و ذلك لأن تنزيل الفهم منزله العدم او جعل البعض كالجميع لا- يلائم مقام الاحتجاج و هو سبحانه يخاطبهم فى سابق الآيه بالحجه على التنزيه على أن هذا النوع من المسامحه بالتغليب و نحوه لا يحتمله كلامه تعالى.

و أما ما وقع فى قوله بعد هذه الآيه: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ؛ من نفى الفقه عن المشركين فليس يؤيد ما ذكره فإن الآيات تنفى عنهم فقه القرآن و هو غير نفى فقه دلالة الأشياء على تنزهه تعالى إذ بها تتم الحجه عليهم.

فالحق أن التسييح الذى تثبته الآيه لكل شىء هو التسييح بمعناه الحقيقى و قد تكرر فى كلامه تعالى إثباته للسموات و الأرض و من فيهن و ما فيهن و فيها موارد لا تحتمل إلا الحقيقه كقوله تعالى: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ (الانبيا ٧٩)، و قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ (ص ١٨)، و يقرب منه قوله: يَا جِبَالَ أُوبَىٰ مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (سبا ١٠)، فلا معنى لحملها على التسييح بلسان الحال.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنه أن للأشياء تسييحا و منها روايات تسييح الحصى فى كف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و سيوافيك بعضها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و قوله: إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا أى يمهل فلا يعاجل بالعقوبه و يغفر من تاب و رجع اليه، و فى الوصفين دلالة على تنزهه تعالى عن كل نقص فإن لازم الحلم أن لا يخاف الفوت، و لازم المغفره أن لا يتضرر بالمغفره و لا بإفاضه الرحمه فملكه و ربوبيته لا يقبل نقصا و لا زوالا.

و قد قيل فى وجه هذا التذييل أنه إشاره الى أن الإنسان فى قصوره عن فهم هذا التسييح الذى لا يزال كل شىء مشتغلا به حتى نفسه بجميع أركان وجوده بأبلغ بيان، مخطئ من حقه



أن يؤاخذ به لكن الله سبحانه بحلمه مغفرتة لا يعاجله و يعفو عن ذلك إن شاء.

و هو وجه حسن و لازمه أن يكون الإنسان فى وسعه أن يفقه هذا التسييح من نفسه و من غيره، و لعلنا نوفق لبيانه إن شاء الله فى موضع يليق به.

قوله تعالى: **وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّشْتُورًا** ظاهر توصيف الحجاب بالمستور أنه حجاب مستور عن الحواس على خلاف الحجابات المتداوله بين الناس المعموله لستر شىء عن شىء فهو حجاب معنى مضروب بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه قار للقرآن حامل له و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقه ما عنده من معارف القرآن و يؤمنوا به و لا أن يدعوا بأنه رسول من الله جاءهم بالحق، و لذلك تولوا عنه إذا ذكر الله وحده و بالغوا فى إنكاره المعاد و رموه بأنه رجل مسحور، و الآيات التاليه تؤيد هذا المعنى.

و إنما وصف المشركين بقوله: **الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** لأن إنكار الآخرة يلغو معه الإيمان بالله وحده و بالرساله فالكفر بالمعاد يستلزم الفر بجميع اصول الدين، و ليكون تمهيدا لما سيذكر من إنكارهم البعث.

و المعنى: إذا قرأت القرآن و تلوته عليهم جعلنا بينك و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة— و فى توصيفهم بذلك ذم لهم— حجابا معنى محجوبا عن فهمهم فلا يسعهم أن يسمعا ذكره تعالى وحده، و لا أن يعرفوك بالرساله الحقه، و لا أن يؤمنوا بالمعاد و يفقهوا حقيقته.

قوله تعالى: **وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحِيدَهُ وَ لَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** الا-كنه جمع كن بالكسر و هو على ما ذكره الراغب ما يحفظ فيه الشىء و يستر به عن غيره، و الوقر الثقل فى السمع، و فى المجمع: النفور جمع نافر، و هذا الجمع قياس فى كل فاعل اشتق من فعل مصدره على فعول مثل

ركوع و سجود و شهود. انتهى.

و قوله: **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** الخ؛ كالبيان للحجاب المذكور سابقا أى أعشينا قلوبهم بأغشيه و حجب حذار أن يفقهوا القرآن و جعلنا فى آذانهم وقرا و ثقلا أن يسمعه فهم لا يسمعون القرآن سمع قبول و لا يفقهونه فقه إيمان و تصديق كل ذلك مجازاه لهم بما كفروا و فسقوا.

و قوله: **وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخِذَهُ** أى على نعت التوحيد و نفى الشريك ولوا على أديبارهم نافرين و أعرضوا عنه مستدبرين.

قوله تعالى: **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** الى آخر الآيه؛ النجوى مصدر و لذا يوصف به الواحد و المثنى و المجموع و المذكر و المؤنث و هو لا يتغير فى لفظه.

و الآيه بمنزله الحجه على ما ذكر فى الآيه السابقه أنه جعل على قلوبهم أكنه أن يفقهوه و فى آذانهم وقرا فقوله: **«نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ»** الخ؛ ناظر الى جعل الوقر و قوله: **«وَ إِذْ هُمْ نَجْوَى»** الخ؛ ناظر الى جعل الأكنه.

يقول تعالى: نحن أعلم بآذانهم التى يستمعون بها اليك و بقلوبهم التى ينظرون بها فى أمرك - و كيف لا؟ و هو تعالى خالقها و مدبر أمرها فأخباره أنه جعل على قلوبهم أكنه و فى آذانهم وقرا أصدق و أحق بالقبول - فنحن أعلم بما يستمعون به و هو آذانهم فى وقت يستمعون اليك، و نحن أعلم أى بقلوبهم إذ هم نجوى إذ يناجى بعضهم بعضا متحرزين عن الإجهار و رفع الصوت و هم يرون الرأى إذ يقول الظالمون أى يقول القائلون منهم و هم ظالمون فى قولهم: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا، و هذا تصديق أنهم لم يفقهوا الحق.

و فى الآيه إشعار بل دلالة على أنهم كانوا لا يأتونه صلى الله عليه و آله و سلم لاستماع القرآن علنا حذرا من اللائمه و إنما يأتونه متسترين مستخفين حتى إذا رأى بعضهم بعضا على هذا الحال تلاوموا

بالنجوى خوفاً أن يحس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنون بموقفهم فقال بعضهم لبعض: إن تتبعون إلا- رجلاً مسحوراً، وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول بهذا المعنى، و سنورده إن شاء الله في البحث الروائي الآتى.

قوله تعالى: **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَبِيحُونَ سَيِّئاً الْمَثَلُ بِمَعْنَى الْوَصْفِ، وَ ضَرَبَ الْأَمْثَالَ التَّوْصِيفَ بِالصِّفَاتِ وَ** معنى الآيه ظاهر، و هى تفيد أنهم لا- مطمع فى إيمانهم كما قال تعالى: **وَ سَيِّئَاءَ عَلَيْهِمْ أَمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا- يُؤْمِنُونَ** (يس ١٠).

قوله تعالى: **وَ قَالُوا أَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** قال فى المجمع: الرفات ما تكسر و بلى من كل شىء، و يكثر بناء فعال فى كل ما يحطم و يرضض يقال: حطام و دقاق و تراب و قال المبرد: كل شىء مدقوق مبالغ فى دقه حتى انسحق فهو رفات. انتهى.

فى الآيه مضى فى بيان عدم فقههم بمعارف القرآن حيث استبعدوا البعث و هو من أهم ما يثبت القرآن و أوضح ما قامت عليه الحجج من طريق الوحي و العقل حتى وصفه الله فى مواضع من كلامه بأنه «لا- ريب فيه» و ليس لهم حجة على نفيه غير أنهم استبعدوه استبعاداً.

و من أعظم ما يزين فى قلوبهم هذا الاستبعاد زعمهم أن الموت فناء للانسان و من المستبعد أن يتكون الشىء من عدم بحت كما قالوا: إذا كنا عظاماً و رفاتاً بفساد أبداننا عن الموت حتى إذا لم يبق منها إلا العظام ثم رمت العظام و صارت رفاتاً أنا لفى خلق جديد نعود أناسى كما كنا؟ ذلك رجح بعيد و لذلك رده سبحانه اليهم بتذكيرهم القدره المطلقه و الخلق الأول كما سيأتى.

قوله تعالى: **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ** جواب عن استبعادهم، و قد عبروا فى كلامهم بقوله: «أ إذا كنا» فأمر سبحانه

نبيه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أن يأمرهم أمر تسخير أن يكونوا حجاره أو حديدا، الخ؛ مما تبديله الى الإنسان أبعد و أصعب عندهم من تبديل العظام لرفات اليه.

فيكون إشاره الى أن القدره المطلقه الإلهيه لا يشقها شيء تريد تجديد خلقه سواء أ كان عظاما و رفاتا أو حجاره أو حديدا أو غير ذلك.

و المعنى: قل لهم ليكونوا شيئا أشد من العظام و الرفات حجاره أو حديدا أو مخلوقا آخر من الأشياء التي تكبر في صدورهم و يبالغون في استبعاد أن يخلق منه الإنسان-فليكونوا ما شاءوا فإن الله سيعيد اليهم خلقهم الأول و يعيدهم.

قوله تعالى: فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَى إِذَا أُجِبْتَ عَنْ اسْتِعَادِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ أَيَّامًا كَانُوا وَ إِلَى أَى حَالٍ وَ صَفِهِ تَحَوَّلُوا سَيَسْأَلُونَكَ وَ يَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ فَاذْكُرْ لَهُمُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ ذَكَرَهُمْ مِنْ وَصْفِهِ بِمَا لَا يَبْقَى مَعَهُ لِاسْتِعَادِهِمْ مَحَلٌّ وَ هُوَ فَطَرَهُ إِيَاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لَمْ يَكُنُوا شَيْئًا وَ قُلْ: يُعِيدُكُمْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

ففى تبديل لفظ الجلاله من قوله: «الذى خلقكم أول مره» إثبات الإمكان و رفع الاستبعاد براءه المثل.

قوله تعالى: فَسَيُيْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤْسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا قَالَ الرَّاعِبُ: الْإِنْغَاظُ تَحْرِيكُ الرَّأْسِ نَحْوَ الْغَيْرِ كَالْمَتَعَجَبِ مِنْهُ. انتهى.

و المعنى: إذا قرعتم بالحجه و ذكرتهم بقدره الله على كل شيء و فطره إياهم أول مره وجدتهم يحركون اليك رءوسهم تحريك المستهزئ المستخف بك المستهين له و يقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبا فإنه لا سبيل الى العلم به و هو من الغيب الذى لا يعلمه إلا- الله لكن وصف اليوم معلوم باعلامه تعالى و لذا وصفه لهم واضعا الصفه مكان الوقت فقال: يوم يدعوكم فتستجيون بحمده، الآية.

قوله تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا «يَوْمَ» منصوب بفعل مضمر أى تبعثون يوم كذا و كذا و الدعوه هى أمره تعالى لهم أن يقوموا ليوم الجزاء و استجابتهم هى قبولهم الدعوه الإلهيه، وقوله: «بِحَمْدِهِ» حال من فاعل تستجيبون و التقدير تستجيبون متلبسين بحمده أى حامدين له تعدون البعث و الإعاده منه فعلا جميلا يحمد فاعله و يثنى عليه لأن الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتبين لكم أن من الواجب فى الحكمة الإلهيه أن يبعث الناس للجزاء و ان تكون بعد الاولى اخرى.

□  
و قوله: وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أى تزعمون يوم البعث أنكم لم تلبثوا فى القبور بعد الموت الا زمانا قليلا و ترون أن اليوم كان قريبا منكم جدا.

□  
و قد صدقهم الله فى هذه المزعمه و ان خطأهم فيما ضربوا له من المده قال تعالى: قَالَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون ١١٤)، و قال: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ (الروم ٥٦) الى غير ذلك من الآيات.

□  
و فى التعرض لقوله: «وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» تعريض لهم فى استبطائهم اليوم و استهزائهم به، و تأييد لما مر من رجاء قربه فى قوله: قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا أَى و انكم ستعدونه قريبا، و كذا فى قوله: «فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» تعريض لهم فى استهزائهم به و تعجبهم منه أى و انكم ستحمدونه يوم البعث و انتم اليوم تستبعدونه و تستهزون بأمره.

□  
قوله تعالى: وَ قُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمُ الْخَبْثَ يَلُوحُ مِنَ السَّيَاقِ أَن الْمُرَادَ بَعَادَى هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فالإضافه للتشريف، و قوله:

«قُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا» الخ؛ أى مرهم أن يقولوا فهو أمر و جواب أمر مجزوم، و قوله: «الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى الكلمه التى هى أحسن، و هو اشتمالها على الأدب الجميل و تعريها عن الخشونه و الشتم و سوء الأمر.

قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا قَدْ تَقَدَّمَ أَنْ الْآيَةَ وَمَا بَعْدَهَا تَتِمُّهُ السِّيَاقُ السَّابِقُ، وَعَلَى ذَلِكَ فَصَدَرَ الْآيَةَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَمَرَ بِالْقَائِمَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: «قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا» الخ؛ وَذِيلُ الْآيَةِ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ خَاصَّهُ فَلَا التَّفَاتُ فِي الْكَلَامِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ فِي صَدْرِ الْآيَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا بِتَغْلِيْبِ جَانِبِ خِطَابِهِ عَلَى غَيْبَتِهِمْ، وَهَذَا أَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَتَلَاْحِقِ الْكَلَامِ، وَالْكَلَامُ لِلَّهِ جَمِيعًا.

وَكَيْفَ كَانَ قَوْلُهُ: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ» فِي مَقَامِ تَعْلِيلِ الْأَمْرِ السَّابِقِ ثَانِيًا، وَيُفِيدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَحَرَّزُوا مِنْ اغْلَاظِ الْقَوْلِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَالْقَضَاءِ بِمَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ سَعَادَةٍ أَوْ شِقَاءٍ كَمَا يَقُولُوا: فَلَانِ سَعِيدٌ بِمَتَابَعِهِ النَّبِيِّ وَفَلَانِ شَقِيٌّ وَفَلَانِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَفَلَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا الْأَمْرَ وَيَفُوضُوهُ إِلَى رَبِّهِمْ فَرَبِّكُمْ - وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ وَغَيْرِهِ - أَعْلَمُ بِكُمْ وَهُوَ يَقْضِي فِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الرَّحْمَةِ أَوْ الْعَذَابِ إِنْ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ وَلَا يَشَأُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى مَا بَيْنَهُ فِي كَلَامِهِ أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَلَا يَشَأُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ، وَمَا جَعَلْنَاكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا مَفُوضًا إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ حَتَّى تَخْتَارَ لِمَنْ تَشَاءُ مَا تَشَاءُ فَتُعْطَى هِدَا وَتَحْرَمَ ذَاكَ.

وَمِنْ ذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ التَّرْدِيدَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ» بِاعْتِبَارِ الْمَشِيهِ الْمَخْتَلَفِ بِاخْتِلَافِ الْمَوَارِدِ بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالطَّالِحِ وَأَنَّ قَوْلَهُ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا» لِرَدِّعِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يِعْتَمِدُوا فِي نَجَاتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالِانْتِسَابِ إِلَى قَبُولِ دِينِهِ نَظِيرَ قَوْلِهِ: لَيْسَ بِأُمَّتِيكُمْ وَلَا أُمَّانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ (النِّسَاءُ/ ١٢٣) وَقَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (البقرة ٦٢) وَأَيَّاتٍ أُخْرَى فِي هَذَا الْمَعْنَى.

قوله تعالى: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا صَدَرَ الْآيَةِ تَوْسِعَهُ فِي مَعْنَى التَّعْلِيلِ السَّابِقِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ كَيْفَ لَا يَكُونُ أَعْلَمُ بِكُمْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ أَنْتُمْ مِنْهُمْ.

و قوله: وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ كَأَنَّهُ تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: «وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا» وَ الْجُمْلَةُ تَذَكُّرُ فَضْلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكُتَابِهِ الَّذِي هُوَ زَبُورٌ وَ فِيهِ أَحْسَنُ الْكَلِمَاتِ فِي تَسْبِيحِهِ وَ حَمْدِهِ تَعَالَى، وَ فِيهِ تَحْرِيزٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرْغَبُوا فِي أَحْسَنِ الْقَوْلِ وَ يَتَأَدَّبُوا بِالْأَدَبِ الْجَمِيلِ فِي الْمَحَاوِرَةِ وَ الْكَلَامِ (١).

## [سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ الى ٦٥]

### إشارة

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَ إِنْ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنَا ثُمُودَ النَّبَاةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نَحْوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ إِذْ هَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَ اسْتَفْزَزْ مِنْهُنَّ اسْتِطْعَتَ مِنْهُنَّ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجَلَكَ وَ شَارِكُهُمْ فِي الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَ عَدَّهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا (٦٥)

ص: ٧٢٧

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. الزعم بتثليث الزاى مطلق الاعتقاد ثم غلب استعماله فى الاعتقاد الباطل، ولذا نقل عن ابن عباس أن ما كان فى القرآن من الزعم فهو كذب.

و الدعاء و النداء واحد غير أن النداء إنما هو فيما إذا كان معه صوت و الدعاء ربما يطلق على ما كان بإشاره أو غيرها، و ذكر بعضهم فى الفرق بينهما أن النداء قد يقال إذا قيل: يا أو أيا أو



نحوهما من غير أن يضم اليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان.

انتهى.

والآية تحتج على نفى الوهيه آلتهم من دون الله بأن الرب المستحق للعباده يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع و دفع الضر إذ هو لازم ربوبيه الرب على أن المشركين مسلمون لذلك و إنما اتخذوا الآلهه و عبدوهم طمعا فى نفعهم و خوفا من ضررهم لكن الذين يدعونهم من دون الله لا يستطيعون ذلك فليسوا بآلهه، والشاهد على ذلك أن يدعوهم هؤلاء الدين يعبدونهم لكشف ضرر مسهم أو تحويله عنهم الى غيرهم فإنهم لا يملكون كشفا و لا تحويلا.

و كيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضرر أو تحويله و يستقلون بقضاء حاجه و رفع فاقه و هم فى أنفسهم مخلوقون لله يبتغون اليه الوسيله يرجون رحمته و يخافون عذاب باعتراف من المشركين.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** الى آخر الآية؛ **«أُولَئِكَ»** مبتدأ و **«الَّذِينَ»** صفة له و **«يَدْعُونَ»** صلته و ضميره عائد الى المشركين، و **«يَبْتَغُونَ»** خبر **«أُولَئِكَ»** و ضمير و سائر ضمائر الجمع الى آخر الآية راجعه الى **«أُولَئِكَ»** و قوله: **«أَيُّهُمْ أَقْرَبُ»** بيان لابتغاء الوسيله لكون الابتغاء فحصا و سؤالا فى المعنى هذا ما يعطيه السياق.

و الوسيله على ما فسروه هى التوصل و التقرب، و ربما استعملت بمعنى ما به التوصل و التقرب و لعله هو الأنسب بالسياق بالنظر الى تعقيبه بقوله: **«أَيُّهُمْ أَقْرَبُ»** .

و المعنى -و الله أعلم- أولئك الذين يدعوهم المشركون من الملائكة و الجن و الإنس يطلبون ما يتقربون به الى ربهم يستعلمون أيهم أقرب؟ حتى يسلكوا سبيله و يقتدوا بأعماله ليتقربوا اليه تعالى كتقربه و يرجون رحمته من كل ما يستمدون به فى وجودهم و يخافون

عذاب فيطيعونه ولا يعصونه ان عذاب ربك كان محذورا يجب التحرز منه.

قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ذكروا أن المراد بالعذاب الشديد عذاب الاستئصال فيبقى للإهلاك المقابل له الإمامة بحتف أنف فالمعنى ما من قرية إلا نحن نميت أهلها قبل يوم القيامة أو نعذبهم عذاب الاستئصال قبل يوم القيامة إذ لا قرية بعد طى بساط الدنيا بقيام الساعة وقد قال تعالى: وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (الكهف ٨) ولذا قال بعضهم: إن الإهلاك للقرى الصالحة و التعذيب للقرى الطالحة.

وقوله: كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا أى اهلاك القرى او تعذيبها عذابا شديدا كان فى الكتاب مسطورا و قضاء محتوما، و بذلك يظهر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ الذى يذكر القرآن أن الله كتب فيه كل شىء كقوله: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (يس ١٢)، و قوله: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (يونس ٦١).

فالحق ان الكتاب المبين هو متن (١) الأعيان بما فيه من الحوادث من جهه ضروره ترتب المعلولات على عللها، و هو القضاء الذى لا- يرد و لا- يبدل لا- من جهه امكان المادة و قوتها، و التعبير عنه بالكتاب و اللوح لتقريب الأفهام الى حقيقه المعنى بالتمثيل، و سنستوفى الكلام فى هذا البحث ان شاء الله فى موضع يناسبه.

قوله تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ الى آخر الآيه؛ قد تقدم وجه اتصال الآيه بما قبلها و محصله ان الآيه السابقه افادت ان الناس -و آخر و هم كأوليهم- مستحقون بما فيهم من غريزه الفساد و الفسق لحلول الهلاك و سائر

ص: ٧٣٠

(١- ١). بما لها من الثبوت فى مرتبه عللها لا فى مرتبه انفسها «منه».

انواع العذاب الشديد، وقد قضى الله على القرى ان تهلك او تعذب عذاباً شديداً و هذا هو الذى منعنا ان نرسل بالآيات التى يقتروحونها فإن السابقين منهم اقتروحوا فأرسلناهم اليهم فكذبوا بها فأهلكناهم، وهؤلاء اللاحقون فى خلق سابقهم فلو أرسلنا بالآيات حسب اقتراحهم لكذبوا بها فحل الهلاك بهم لا محاله كما حل بسابقهم، وما يريد الله سبحانه ان يعاجلهم بالعقوبه.

□  
□<sup>□</sup> و قوله: **إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ** التعبير عن الأمم الهالكة بالآولين المضايق للآخرين فيه ايماء الى ان هؤلاء آخر اولئك الأولين فهم فى الحقيقة امه واحده لآخرها من الخلق و الغريزه ما لأولها، و لديها من الحكم ما لصدرها و لذلك كانوا يقولون **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ** (المؤمنون ٢٤) و يكررون ذكر هذه الكلمه.

و كيف كان فمعنى الآيه انا لم نرسل الآيات التى يقتروحونها-و المقترحون هم قريش-لأننا لو أرسلناها لم يؤمنوا و كذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما انا أرسلناها الى الأولين بعد اقتراحهم اياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكننا قضينا على هذه الامه أن لا نعذبهم الا بعد مهله و نظره كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى.

□<sup>□</sup> و قوله: **وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ثمود هم قوم صالح و لقد آتاهم الناقه آيه، و المبصره الظاهره اليه على حد ما فى قوله تعالى: **وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** (الإسراء ١٢)، و هى صفه الناقه او صفه لمحذوف و التقدير آيه مبصره و المعنى و آتينا قوم ثمود الناقه حال كونها ظاهره بينه او حال كونها آيه ظاهره بينه فظلموا أنفسهم بسببها او ظلموا مكذبين بها.

□<sup>□</sup> و قوله: **وَ مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً** أى ان الحكمه فى الإرسال بالآيات التخويف و الإنذار فإن كانت من الآيات التى تستتبع عذاب الاستئصال ففيها تخويف بالهلاك فى الدنيا و عذاب فى الآخره، و إن كانت من غيرها ففيها تخويف و إنذار بعقوبه العقبى.

و ليس من البعيد ان يكون المراد بالتخويف إيجاد الخوف و الوحشه بارسال ما دون عذاب الاستئصال على حد ما فى قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (النحل ٤٧) فيرجع محصل معنى الآية انا لا نرسل بالآيات المقترحة لأننا لا نريد ان نعذبهم بعذاب الاستئصال و إنما نرسل ما نرسل من الآيات تخويفا ليحذروا بمشاهدتها عما هو اشد منها و افضع و نسب الوجه الى بعضهم.

قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نَحْوَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا فقرات الآية و هى اربع و اوضحه المعانى لكنها بحسب ما بينها من الاتصال و ارتباط بعضها ببعض لا تخلد من إجمال و السبب الأصلى فى ذلك الفقرتين الوسطيين الثانيه و الثالثه.

فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التى أراها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و لم يقع فى سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا، و الذى ذكره من رؤياه فى مثل قوله: إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمُ (الأنفال ٤٣) و قوله: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ (الفتح ٢٧) من الحوادث الواقعة بعد الهجره و هذه الآية مكيه نازله قبل الهجره.

فالذى يهدى اليه الإمعان فى البحث أن المراد بالشجره الملعونه قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرفون بين المسلمين إما بالنسل و إما بالعقيدته و المسلك هم فتنه للناس، و لا ينبغى أن يرتاب فى أن فى سياق الآية تلويحا بالارتباط بين الفقرتين أعنى قوله:

«وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» و خاصه بعد الإمعان فى تقدم قوله: «وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ بِالنَّاسِ» و تذييل الفقرات جميعا بقوله: «وَ نَحْوَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر فى أن الآية بصدد الإشاره

الى أمر واحد هو سبحانه محيط به و لا ينفذ فيه عظه و تخويف إلا زياده فى الطغيان.

و يستفاد من ذلك أن الشأن هو أن الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فى الرؤيا هذه الشجره الملعونه و بعض أعمالهم فى الإسلام ثم بين لرسوله أن ذلك فتنه.

ف قوله: **وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ كَذًا و كذا و المعنى و اذكر للتثبت فيما ذكرنا لك فى هذه الآيات أن شيمه الناس الاستمرار فى الفساد و الفسوق و اقتداء أخلافهم بأسلافهم فى الإعراض عن ذكر الله و عدم الاعتناء بآيات الله، وقتنا قلنا لك ان ربك أحاط بالناس علما و علم أن هذه السنه ستجرى بينهم كما كانت تجرى.**

و قوله: **وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ** محصل معناه على ما تقدم أنه لم نجعل الشجره الملعونه فى القرآن التى تعرفها بتعريفنا، و ما أريناك فى المنام من أمرهم إلا- فتنه للناس و امتحانا و بلاء نمتحنهم و نبلوهم به و قد أحطنا بهم.

و قوله: **وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا** ضميرا الجمع للناس ظاهرا و المراد بالتخويف اما التخويف بالموعظه و البيان أو بالآيات المخوفه التى هى دون الآيات المهلكه المبيده، و المعنى و نخوف الناس فما يزيدهم التخويف الا طغيانا و لا أى طغيان كان بل طغيانا كبيرا أى انهم لا يخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه بل يجيبوننا بالطغيان الكبير فهم يبالغون فى طغيانهم و يفرطون فى عنادهم مع الحق.

و سياق الآيه سياق التسليه فالله سبحانه يعزى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فيها بأن الذى أراه من الأمر، و عرفه من الفتن، و قد جرت سنته تعالى على امتحان عباده بالمحن و الفتن، و قد اعترف بذلك غير واحد من المفسرين.

و يؤيد جميع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنه و اتفقت عليه أحاديث أئمه أهل

البيت عليهم السّلام أن المراد بالرؤيا فى الآيه هى رؤيا رآها النّبى صلى الله عليه وآله وسلم فى بنى اميه و الشجره شجرتهم و سيوافيك الروايات فى البحث الروائى الآتى ان شاء الله تعالى (١).

قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْبِغُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَسْبِغُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَمِنْ ثَمَرِهِ مَنْ عَلَى الْحَالِ بِمَعْنَى أَنَّكَ أَنْشَأْتَهُ فِي حَالٍ كَوْنَهُ مِنْ طِينٍ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ مِنْ طِينٍ فَحَذَفَ «مِنْ» فَوَصَلَ الْفِعْلَ، وَ مِثْلُهُ قَوْلُهُ: أَنْ تَشْتَرِضُوا أَوْلَادَكُمْ أَى لَأَوْلَادِكُمْ وَ قِيلَ: إِنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ.  
انتهى.

فالمعنى: و اذكر اذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس، فكانه قيل: فما ذا صنع؟ او فما ذا قال؟ اذ لم يسجد؟ فقيل: انه انكر الأمر بالسجده و قال أ أسجد-و الاستفهام للانكار-لمن خلقته من طين و قد خلقتنى من نار و هى اشرف من الطين.

قوله تعالى: قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا الْكَافِ فِي «أَرَأَيْتَكَ» زائده لا- محل لها من الإعراب و انما تفيد معنى الخطاب كما فى أسماء الإشاره، و المراد بقوله: «هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» آدم عليه السلام و تكريمه على ابليس تفضيله عليه بأمره بالسجده و رجمه حيث أبى.

و من هنا يظهر أنه فهم التفضيل من أمر السجده كما أنه اجترأ على اراده اغواء ذريته مما جرى فى محاورته تعالى الملائكة من قولهم: أ تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ (البقره ٣٠/١)، و قد تقدم تفسير الآيه ما ينفع هاهنا.

و الاحتناك-على ما فى المجمع-الاقطاع من الأصل، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم اذا استقصاه فأخذه كله، و احتنك الجراد المزرع اذا أكله كله، و قيل: انه من قولهم:

ص: ٧٣٤

حنك الدابه بحبلها اذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا- يقودها به، و الظاهر أن المعنى الأخير هو الأصل فى الباب، و الاحتناك الإلجام.

و المعنى: قال ابليس بعد ما عصى و أخذه الغضب الإلهى رب أ رأيت هذا الذى فضلته بأمرى بسجده و رجمى بمعصيته اقسام لئن اخرتنى الى يوم القيامة و هو مده مكث بنى آدم فى الأرض لألجمن ذريته الا قليلا منهم و هم المخلصون.

قوله تعالى: **قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا** قيل: الأمر بالذهاب ليس على حقيقته و إنما هو كناية عن تخليته و نفسه كما تقول لمن يخالفك: افعل ما تريد، و قيل: الأمر على حقيقته و هو تعبير آخر لقوله فى موضع آخر:

**فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** و الموفور المكمل فالجزاء الموفور الجزاء الذى يوفى كله و لا يدخر منه شىء، و معنى الآية واضح.

قوله تعالى: **وَاسْتَفْزِرُ مِنْ أَسَدٍ تَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ** الى آخر الآية؛ الاستفزاز الازعاج و الاستنهاض بخفه و إسراع، و الإجلاب كما فى المجمع السوق بجلبه من السائق و الجلبه شدة الصوت، و فى المفردات: أصل الجلب سوق الشىء يقال: جلبت جلبا قال الشاعر: «و قد يجلب الشىء البعيد الجواب» و أجلبت عليه صحت عليه بقهر، قال الله عزّ و جل: **«وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»** انتهى.

و الخيل-على ما قيل-الأفراس حقيقه و لا- واحد له من لفظه و يطلق على الفرسان مجازا، و الرجل بالفتح فالكسر هو الراجل كحذر و حاذر و كامل و كامل و هو خلاف الراكب، و ظاهر مقابله بالخيل أن يكون المراد به الرجاله و هم غير الفرسان من الجيش.

فقوله: **وَاسْتَفْزِرُ مِنْ أَسَدٍ تَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ** أى استنهض للمعصيه من استطعت أن تستنهضه من ذريه آدم- و هم الذين يتولونه منهم و يتبعونه كما ذكره فى سوره الحجر- بصوتك، و كأن الاستفزاز بالصوت كناية عن استخفافهم بالوسوسه الباطله من غير

حقيقه، و تمثيل بما يساق الغنم و غيره بالنعيق و الزجر و هو صوت لا معنى له.

و قوله: «وَ أَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجْلِكَ أَى وَ صَحَّ عَلَيْهِمْ لِسُوْقِهِمْ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللَّهِ بِأَعْوَانِكَ وَ جِيُوشِكَ فِرْسَانِهِمْ وَ رَجَالَتِهِمْ وَ كَأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ قَبِيلَهُ وَ أَعْوَانَهُ مِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ بِسُرْعَةٍ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْفِرْسَانِ فِي مَعْرَكَةِ الْحَرْبِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ مَوَارِدِ الْحَمَلَاتِ السَّرِيعَةِ كَالرَّجَالِ، فَالْخَيْلِ وَ الرَّجُلِ كِنَايَةٌ عَنِ الْمُسْرَعِينَ فِي الْعَمَلِ وَ الْمَبْطُئِينَ فِيهِ وَ فِيهِ تَمَثِيلٌ نَحْوَ عَمَلِهِمْ.

و قوله: «وَ شَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ» الشَّرِكَةُ إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ فِي الْمَلِكِ وَ الْإِخْتِصَاصِ وَ لَا يَزِمُهُ كَوْنُ الشَّرِيكِ سَهِيْمًا لِشَرِيكِهِ فِي الْإِنْتِفَاعِ الَّذِي هُوَ الْغَرَضُ مِنْ اتِّخَاذِ الْمَالِ وَ الْوَلَدِ فَإِنَّ الْمَالَ عَيْنٌ خَارِجِيٌّ مُنْفَصِلٌ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ كَذَا الْوَلَدُ شَخْصٌ إِنْسَانِيٌّ مُسْتَقِلٌّ عَنِ وُلْدِيهِ، وَ لَوْ لَا غَرَضُ الْإِنْتِفَاعِ لَمْ يَعْتَبَرِ الْإِنْسَانُ مَالِيَةً لِمَالٍ وَ لَا إِخْتِصَاصًا بِوَلَدٍ.

و قوله: «وَ عَزَّوَجَدُّهُمْ وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أَى مَا يَعِدُّهُمْ إِلَّا وَعْدًا غَارًا يَظَاهِرُ الْخَطَأَ فِي صَوْرِهِ الصَّوَابِ وَ الْبَاطِلَ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ الْحَقِّ فَالْغُرُورُ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ لِلْمَبَالِغَةِ.

قوله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا» المراد بعبادى أعم من المخلصين الذين استثناهم إبليس بقوله: «إِلَّا قَلِيلًا» بل غير الغاوين من أتباع إبليس كما قال فى موضع آخر: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» (الحجر ٤٢) و الإضافة للتشريف.

و قوله: «وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا أَى قَائِمًا عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ حَافِظًا لِمَنَافِعِهِمْ مُتَوَلِيًّا لِأَمْرِهِمْ فَإِنَّ الْوَكِيلَ هُوَ الْكَافِلُ لِأُمُورِ الْغَيْرِ الْقَائِمِ مَقَامَهُ فِي تَدْبِيرِهَا وَ إِدَارَةِ رَحَايَاهَا، وَ ذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَكَالَتَهُ الْخَاصَّةَ لِغَيْرِ الْغَاوِينَ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا هُوَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ.

و قد تقدمت أبحاث مختلفه حول قصه سجده آدم نافعہ فى هذا المقام فى مواضع متفرقه من



[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٦٦ الى ٧٢]

اشاره

رُبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا بِهِ تَبِعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

ص: ٧٣٧

قوله تعالى: رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا الاجزاء على ما فى مجمع البيان سوق الشىء حالاً- بعد حال فالمراد به إجراء السفن فى البحر بإرسال الرياح ونحوه وجعل الماء رطبا مائعا يقبل الجرى و الخرق، و الفلك جمع الفلكه و هى السفينه.

و ابتغاء الفضل طلب الرزق فإن الجواد إنما وجود غالباً بما زاد على مقدار حاجه نفسه و فضل الشىء ما زاد و بقى منه و من ابتدائه، و ربما قيل: إنها للتبعيض، و ذيل الآيه تعليل للحكم بالرحمه، و المعنى ظاهر. و الآيه تمهيد لتاليها.

قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ الْآخِرِ الضَّرِّ الشَّدِيدِ، و مس الضر فى البحر هو خوف الغرق بالاشراف عليه بعصف الرياح و تقاذف الأمواج و نحو ذلك.

و قوله: ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ الْمَرَاد بِالضَّلَالِ-على ما ذكروا-الذهاب عن الخواطر دون الخروج عن الطريق و قيل: هو بمعنى الضياع من قولهم: ضل عن فلان كذا أى ضاع عنه و يعود على أى حال الى معنى النسيان.

و المراد بالدعاء دعاء المسأله دون دعاء العباده فيعم قوله: «مَنْ تَدْعُونَ» الإله الحق و الآلهه الباطله التى يدعوها المشركون، و الاستثناء متصل، و المعنى و إذا اشتد عليكم الأمر فى البحر بالإشراف على الغرق نسيتم كل إله تدعونه و تسألونه حوائجكم إلا الله.

و الظاهر أن المراد بالضلال معناه المعروف و هو خلاف الهدى و الكلام مبنى على تمثيل لطيف كأن الإنسان إذا مسه الضر فى البحر و وقع فى قلبه أن يدعو لكشف ضره قصده آلهته الذين كان يدعوهم و يستمر فى دعائهم قبل ذلك و أخذوا يسعون نحوه و يتسابقون فى قطع

الطريق الى ذكره ليذكرهم و يدعوهم و يستغيث بهم لكنهم جميعا يضلون الطريق و لا ينتهون الى ذكره فينساهم و الله سبحانه مشهود لقلبه حاضر في ذكره يذكره الإنسان عند ذلك فيدعوه و قد كان معرضا عنه فيجيبه و ينجيه الى البر.

و بذلك يظهر أن المراد بالضلال معناه المعروف، و بمن تدعون آلهتهم من دون الله فحسب و أن الاستثناء منقطع و الوجه في جعل الاستثناء منقطعا أن الذى يبتنى عليه الكلام من معنى التشبيه لا يناسب ساحه قدسه تعالى لتزهره من السعى و الوقوع فى الطريق و قطعه و نحو ذلك.

مضافا الى أن قوله: **فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** ظاهر فى أن المراد بالدعوه دعاء المسأله و أنهم فى البر أى فى حالهم العادى غير حال الضر معرضون عنه تعالى لا يدعونه فقوله: **«مَنْ تَدْعُونَ»** الظاهر فى استمرار الدعوه المراد به آلهتهم الذين كانوا يدعونهم فاستثناؤه تعالى استثناء منقطع.

و قوله: **«فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ»** أى فلما نجاكم من الغرق و كشف عنكم الضر رادا لكم الى البر اعرضتم عنه او عن دعائه و فيه دلالة على أنه تعالى غير مغفول عنه للإنسان فى حال و أن فطرته تهديه الى دعائه فى الضراء و السراء و الشده و الرخاء جميعا فإن الإعراض إنما يتحقق عن أمر ثابت موجود فقوله: إن الإنسان يدعوه فى الضر و يعرض عنه بعد كشفه فى معنى أنه مهدي اليه بالفطره دائما.

و قوله: **وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا** أى إن الكفران من دأب الإنسان من حيث ان له الطبيعه الإنسانيه فإنه يتعلق بالأسباب الظاهريه فينسى مسبب الأسباب فلا يشكره تعالى و هو يتقلب فى نعمه الظاهره و الباطنه.

قوله تعالى: **أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً** خسوف القمر استتار قرصه بالظلمه و الظل و خسف الله به

الأرض اى ستره فيها،و الحاصب-كما فى المجمع-الرياح التى ترمى بالحصباء و الحصى الصغار و قيل:الحاصل الرياح المهلكه فى البر و القاصف الرياح المهلكه فى البحر.

و الاستفهام للتوبيخ يوبخهم الله تعالى على إعراضهم عن دعائه فى البر فإنهم لا مؤمن لهم من مهلكات الحوادث فى البر كما لا مؤمن لهم حال مس الضر فى البحر إذ لا علم لهم بما سيحدث لهم و عليهم فمن الجائز أن يخسف الله بهم جانب البر أو يرسل عليهم ريحا حاصبا فيهلكهم بذلك ثم لا يجدوا لأنفسهم وكيلا يدفع عنهم الشده و البلاء و يعيد إليهم الأمن و السلام.

قوله تعالى: أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ القصف الكسر بشده و قاصف الرياح هى التى تكسر السفن و الأبنية،و قيل:القاصف الرياح المهلكه فى البحر و التبع هو التابع يتبع الشىء،و ضمير «فيه» للبحر و ضمير «به» للغرق أو للارسال أولهما معا باعتبار ما وقع و لكل قائل،و الآية من تمام التوبيخ.

و المعنى أم هل أمنت ببنجاتكم الى البر أن يعيدكم الله فى البحر تاره اخرى فيرسل عليكم ريحا كاسره للسفن أو مهلكه فيغرقكم بسبب كفركم ثم لا تجدوا بسبب الإغراق أحدا يتبع الله لكم عليه فيسأله لم فعل هذا بكم؟ و يؤاخذة على ما فعل.

و فى قوله: ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِه تَبِيعًا التفتات من الغيبه الى التكلم بالغير و كأن النكته فيه الظهور على الخصم بالعظمه و الكبرياء.و هو المناسب فى المقام،و ليكون مع ذلك توطئه لما فى الآيات التالیه من سياق التكلم بالغير.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَيْنَى آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا الْآيَةِ مسوقه للامتنان مشوبا بالعتاب كأنه تعالى لما ذكر وفور نعمه و تواتر فضله و رحمته على الانسان،و حملة فى البحر ابتغاء فضله و رزقه،و رفاه حاله فى البر ثم نسيانه لربه و اعراضه عن دعائه إذا نجاه

و كشف ضره كفرانا مع أنه متقلب دائما بين نعمه التي لا تحصى نبه على جملة تكريمه و تفضيله ليعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان و كفران الإنسان لنعمه على كثرتها و بلوغها.

و قوله: وَ حَمَلْنَاَهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أَي حملناهم على السفن و الدواب و غير ذلك يركبونها الى مقاصدهم و ابتغاء فضل ربهم و رزقه، و هذا أحد مظاهر تكريمهم.

و قوله: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَي من الأشياء التي يستطيبونها من أقسام النعم من الفواكه و الثمار و سائر ما يتنعمون به و يستلذونه مما يصدق عليه الرزق، و هذا أيضا أحد مظاهر التكريم فمثل الانسان في هذا التكريم الإلهي مثل من يدعى الى الضيافة و هي تكريم ثم يرسل إليه مركوب يركبه للحضور لها و هو تكريم ثم يقدم عليه أنواع الأغذية و الأطعمه اللذيذه و هو تكريم.

و بذلك يظهر أن عطف قوله: «وَ حَمَلْنَاَهُمْ» الخ؛ و قوله: «وَ رَزَقْنَاهُمْ» الخ؛ على التكريم من قبيل المصاديق المترتبة على العنوان الكلي المنتزع منها.

و قوله: وَ فَضَّلْنَاَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا لا يبعد أن يكون المراد بمن خلقناهم أنواع الحيوان ذوات الشعور و الجن الذي يثبته القرآن فإن الله سبحانه يعد أنواع الحيوان امما أرضيه كالامه الإنسانيه و يجريها مجرى اولى العقل كما قال: وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

و هذا هو الأنسب بمعنى الآيه و قد عرفت أن الغرض منها بيان ما كرم الله به بنى آدم و فضلهم على سائر الموجودات الكونية و هي -فيما نعلم- الحيوان و الجن و أما الملائكة فليسوا من الموجودات الكونية الواقعة تحت تأثير النظام المادى الحاكم فى عالم المادة.

فالمعنى: و فضلنا بنى آدم على كثير مما خلقنا و هم الحيوان و الجن و أما غير الكثير و هم الملائكة فهم خارجون عن محل الكلام لأنهم موجودات نوريه غير كونه و لا داخله فى مجرى

النظام الكونى، والآيه إنما تتكلم فى الإنسان من جهة أنه أحد الموجودات الكونيه وقد انعم عليه بنعم نفسه وإضافيه (١).

قوله تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمَّ الْيَوْمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالظُّرْفُ مَتَّعٌ بِمَقْدَرِ أَى اذْكَرِ يَوْمَ كَذَا، والإمام المقتدى وقد سمي الله سبحانه بهذا الاسم أفراداً من البشر يهدون الناس بأمر الله كما فى قوله: قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (البقره ١٢٤) وقوله:

وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (الأنبياء ٧٣) وأفراداً آخرين يقتدى بهم فى الضلال كما فى قوله: فَاقْتُلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ (التوبه ١٢).

وسمى به أيضاً التوراه كما فى قوله: وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً (هود ١٧)، وربما استفيد منه أن الكتب السماويه المشتمله على الشريعه ككتاب نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد عليه السلام جميعاً أئمه.

وسمى به أيضاً اللوح المحفوظ كما هو ظاهر قوله تعالى: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (يس ٦٢).

ولما كان ظاهر الآيه أن لكل طائفة من الناس إماماً غير ما لغيرها فإنه المستفاد من إضافه الإمام الى الضمير الراجع الى كل اناس لم يصلح أن يكون المراد بالإمام فى الآيه اللوح لكونه واحداً لا اختصاص له باناس دون أناس.

وأيضاً ظاهر الآيه أن هذه الدعوه تعم الناس جميعاً من الأولين والآخرين وقد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ (البقره ٢١٣) أن أول الكتب السماويه المشتمله على الشريعه هو كتاب نوح عليه السلام ولا كتاب قبله فى هذا الشأن، وبذلك يظهر عدم صلاحيه كون الإمام فى الآيه مراداً به الكتاب

ص: ٧٤٢

و إلا خرج من قبل نوح من شمول الدعوه فى الآيه.

فالمتمعن أن يكون المراد بإمام كل اناس من يأتون به فى سبيلى الحق و الباطل كما تقدم أن القرآن يسميهما إمامين أو إمام الحق خاصه و هو الذى يجتبيه الله سبحانه فى كل زمان لهدايه أهله بأمره نبيا كان كإبراهيم و محمد عليهما الصلاه و السلام أو غير نبى، و قد تقدم تفصيل الكلام فيه فى تفسير قوله: وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (البقره ١٢٤/).

لكن المستفاد من مثل قوله فى فرعون و هو من أئمه الضلال: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورَدَهُمُ النَّارَ (هود ٩٨/٩) و قوله: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُضُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال ٣٧/١) و غيرهما من الآيات و هى، كثيره أن أهل الضلال لا يفارقون أولياءهم المتبوعين يوم القيامة، و لازم ذلك أن يصاحبوهم فى الدعوه و الإحضار.

على أن قوله: «بِإِمَامِهِمْ» مطلق لم يقيد بالإمام الحق الذى جعله الله إماما هاديا بأمره، و قد سمي مقتدى الضلال إماما كما سمي مقتدى الهدى إماما و سياق ذيل الآيه و الآيه الثانيه أيضا مشعر بأن الإمام المدعو به هو الذى اتخذته الناس إماما و اقتدارا به فى الدنيا لا من اجتهاده الله للإمامه و نصبه لهدايه بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

فالظاهر أن المراد بإمام كل أناس فى الآيه من ائتموا به سواء كان إمام حق أو إمام باطل، و ليس كما يظن أنهم ينادون بأسماء أئمتهم فيقال: يا أمه إبراهيم و يا أمه محمد و يا آل فرعون و يا آل فلان فإنه لا يلائمه ما فى الآيه من التفرع أعنى قوله: فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ الخ؛ إذ لا تفرع بين الدعوه بالإمام بهذا المعنى و بين إعطاء الكتاب باليمين أو العمى.

بل المراد بالدعوه-على ما يعطيه سياق الذيل-هو الإحضار فهم محضرون بإمامهم ثم

يأخذ من اقتدى بامام حق كتابه يمينه و يظهر عمى من عمى عن معرفه الإمام الحق فى الدنيا و اتباعه، هذا ما يعطيه التدبر فى الآيه.

قوله تعالى: **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** الفتيل هو المفتول الذى فى شق النواه، وقيل: الفتيل هو الذى فى بطن النواه و النقىر فى ظهرها و القطمير شق النواه.

و تفريع التفصيل على دعوتهم بامامهم دليل على أن ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم الى قسمين و تفرقهم فريقين: من اوتى كتابه يمينه و من كان أعمى و أضل سبيلا فالإمام إمامان:

امام هدى و إمام ضلال، و هذا هو الذى قدمناه أن تفريع التفصيل يشهد بكون المراد بالإمام أعم من إمام الهدى.

و يشهد به أيضا تبديل إيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر كما وقع فى غير هذا الموضع من قوله: **وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى** الخ.

و المعنى -باعانه من السياق- فيتفرقون حينئذ فريقين فالذين أعطوا صحيفه أعمالهم بأيمانهم فاولئك يقرءون كتابهم فرحين مستبشرين مسرورين بالسعاده و لا يظلمون مقدار فتيل بل يوفون اجورهم تامه كامله.

قوله تعالى: **وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا** المقابله بين قوله: «**فِي هَذِهِ**» و «**فِي الْآخِرَةِ**» دليل على أن الإشاره بهذه الى الدنيا كما أن كون الآيه مسوقه لبيان التطابق بين الحياه الدنيا و الآخره دليل على أن المراد بعمى الآخره عمى البصيره كما أن المراد بعمى الدنيا ذلك قال تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** و يؤيد ذلك أيضا تعقيب عمى الآخره بقوله: «**وَ أَضَلُّ سَبِيلًا**» .



إشارة

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتِنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ  
إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَادَفْتَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ  
الْأَرْضِ لَيَخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سَيِّئَةٌ مِمَّنْ قَدْ آرَسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)  
أَقِمِ الصَّلَاةَ لِادُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ  
عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ  
سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ لَئِنْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)

قوله تعالى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا إِنْ مَخَفَهُ بِدَلِيلِ اللَّامِ فِي «لَيَفْتِنُونَكَ» و الفتنه الازلال و الصرف، و الخيل من الخله بمعنى الصداقه و ربما قيل: هو من الخله بمعنى الحاجه و هو بعيد.

و ظاهر السياق أن المراد بالذى أوحينا إليك القرآن بما يشتمل عليه من التوحيد و نفى الشريك و السيره الصالحه و هذا يؤيد ما ورد فى بعض أسباب النزول أن المشركين سألو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يكف عن ذكر آلهتهم بسوء و يبعد عن نفسه عبيدهم المؤمنين به و السقاط حتى يجالسوه و يسمعوا منه فنزلت الآيات.

و المعنى: و إن المشركين اقتربوا أن يزلوك و يصرفوك عما أوحينا إليك لتتخذ من السيره و العمل ما يخالفه فيكون فى ذلك افتراء علينا لانتسابه بعملك إلينا و إذا لاتخذوك صديقا.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا الشيت- كما يفيدہ السياق- هو العصمه الإلهيه و جعل جواب لو لا- قوله: «لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ» دون نفس الركون و الركون هو الميل أو أدنى الميل كما قيل دليل على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يركن و لم يكد، و يؤكده إضافة الركون إليهم دون إجابتهم الى ما سألوه.

و المعنى: و لو لا- أن تبتناك بعصمتنا دنوت من أن تميل إليهم قليلا- لكننا تبتناك فلم تدن من أدنى الميل إليهم فضلا من أن تجيبهم الى ما سألوا فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يجبههم الى ما سألوا و لا مال إليهم شيئا قليلا و لا كاد أن يميل.

قوله تعالى: إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا إياه سياق الآية سياق توعد فالمراد بضعف الحياه و الممات المضاعف من عذاب الحياه و الممات، و المعنى لو قارنت أن تميل إليهم بعض الميل لأذقناك الضعف من العذاب الذى

نعذب به المجرمين فى حياتهم و الضعف مما نعذبهم به فى مماتهم أى ضعف عذاب الدنيا و الآخرة.

و نقل فى المجمع عن أبان بن تغلب أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه و المعنى لأذقناك عذاب الدنيا و عذاب الآخرة، و أنشد قول الشاعر:

لمقتل مالك إذ بان منى

أبيت الليل فى ضعف أليم

أى فى عذاب أليم.

و ما فى ذيل الآيه من قوله: «ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا» تشديد فى الإيعاد أى إن العذاب واقع حينئذ لا مخلص منه.

قوله تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لَيْسَ بِتَفْرِؤْنَاكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» الاستفزاز الإزعاج و التحريك بخفه و سهوله، و اللام فى «الْأَرْضِ» للعهد و المراد بها مكة، و الخلاف بمعنى بعد، و المراد بالقليل اليسير من الزمان.

و المعنى و إن المشركين قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لإخراجك منها و لو كان منهم و خرجت منها لم يمكنوا بعدك فيها إلا قليلا فهم هالكون لا محاله.

قوله تعالى: «سِنَّةٌ مِّنْ قَدِّ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» التحويل نقل الشىء من حال الى حال، و قوله: «سِنَّةٌ» أى كسنة من قد أرسلنا و هو متعلق بقوله: «لَا يَلْبَثُونَ» أى لا يلبثون بعدك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا.

و هذه السنة و هى إهلاك المشركين لذين أخرجوا رسولهم من بلادهم و طردوه من بينهم سنة لله سبحانه، و إنما نسبها الى رسله لأنها مسنونه لأجلهم بدليل قوله بعد: «و لن تجد لسننتنا تحويلا» و قد قال تعالى: «و قال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين» (إبراهيم ١٣).

و المعنى: و إذا نهلكهم لنستنا التي سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا و أجريناها و لست تجد لسننا تحويلا و تبديلا.

قوله تعالى: **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** قال فى مجمع البيان: دلوك الزوال، و قال المبرد: دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها، و قيل: هو الغروب و أصله من الدلك فسمى الزوال دلوكا لأن الناظر إليها يدلك عينيه لشده شعاعها، و سمي الغروب دلوكا لأن الناظر يدلك عينيه ليثبتها. انتهى.

و قال فيه: غسق الليل ظهور ظلامه يقال: غسقت القرحة إذا انفجرت فظهر ما فيها.

انتهى، و فى المفردات: غسق الليل شده ظلمته. انتهى.

و قد اختلف المفسرون فى تفسير صدر الآية و المروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من طرق الشيعة تفسير دلوك الشمس بزوالها و غسق الليل بمنتصفه، و سيجىء الإشارة الى الروايات فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

و عليه فالآية تشمل من الوقت ما بين زوال الشمس و منتصف الليل، و الواقع فى هذا المقدار من الوقت من الفرائض اليومية أربع صلاة الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخرة.

و بانضمام صلاة الصبح المدلول عليها بقوله: **«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»** الخ؛ إليها تتم الصلوات الخمس اليومية.

و قوله: **«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»** معطوف على الصلاة أى و أقم قرآن الفجر و المراد به صلاة الصبح لما تشتمل عليه من القراءة و قد اتفقت الروايات على ان صلاة الصبح هى المراد بقرآن الفجر.

و كذا اتفقت الروايات من طرق الفريقين على تفسير قوله ذيلًا: **«إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»** بأنه يشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار، و سنشير الى بعض هذه الروايات عن

قريب إن شاء الله.

قوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» التهجد من الهجود وهو النوم في الأصل و معنى التهجد التيقظ و السهر بعد النوم على ما ذكره غير واحد منهم، و الضمير فى «به» للقرآن أو للبعض المفهوم من قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ» و النافله من النفل و هو الزيادة، و ربما قيل: إن قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ» من قبيل الاغراء نظير قولنا: عليك بالليل، و الفاء فى قوله: «فَتَهَجَّدْ بِهِ» نظير قوله: «فَأَيُّيَ فَاَرْهَبُونَ» (النحل ٥١).

و المعنى: و اسهر بعض الليل بعد نومتك بالقرآن- و هو الصلاة- حال كونها صلاه زائده لك على الفريضة.

و قوله: «عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» من الممكن أن يكون المقام مصدرا ميميا و هو البعث فيكون مفعولا مطلقا من غير لفظه، و المعنى عسى أن يبعثك ربك بعثا محمودا، و من الممكن أن يكون اسم مكان و البعث بمعنى الاقامه أو مضمنا معنى الاعطاء و نحوه، و المعنى عسى أن يقيم ربك فى مقام محمود أو يبعثك معطيا لك مقاما محمودا أو يعطيك بعثا مقاما محمودا.

و قد وصف سبحانه مقامه بأنه محمود و أطلق القول من غير تقييد و هو يفيد أنه مقام يحمده الكل و لا يثنى عليه الكل إلا إذا استحسنته الكل و انتفع به الجميع و لذا فسروا المقام المحمود بأنه المقام الذى يحمده عليه جميع الخلائق و هو مقام الشفاعة الكبرى له صلى الله عليه و آله و سلم يوم القيامة و قد اتفقت على هذا التفسير الروايات من طرق الفريقين عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» المدخل بضم الميم و فتح الخاء مصدر ميمي

بمعنى الادخال و نظيره المخرج بمعنى الاخراج، والعنايه فى إضافه الادخال و الاخراج الى الصدق أن يكون الدخول و الخروج فى كل أمر منعوتنا بالصدق جاريا على الحقيقه من غير أن يخالف ظاهره باطنه أو يضاد بعض أجزائه بعضا كأن يدعو الانسان بلسانه الى الله و هو يريد بقلبه أن يسود الناس أو يخلص فى بعض دعوته لله و يشرك فى بعضها غيره.

و بالجمله هو أن يرى الصدق فى كل مدخل منه و مخرج و يستوعب وجوده فيقول ما يفعل و يفعل ما يقول و لا يقول و لا يفعل إلا ما يراه و يعتقد به، و هذا مقام الصديقين. و يرجع المعنى الى نحو قولنا: اللهم تول أمرى كما تتولى أمر الصديقين.

و قوله: «وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» اى سلطنه بنصرتى على ما أهم به من الامور و اشتغل به من الأعمال فلا أغلب فى دعوتى بحجه باطله، و لا أفتن بفتنه أو مكر يمكرنى به أعداؤك و لا أضل بنزغ شيطان و وسوسته.

و الآيه- كما ترى- مطلقه تأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يسأل ربه أن يتولى أمره فى كل مدخل و مخرج بالصدق و يجعل له سلطانا من عنده ينصره فلا- يزيغ فى حق و لا- يظهر بباطل فلا وجه لما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالدخول و الخروج دخول المدينه بالهجره و الخروج منها الى مكه للفتح أو أن المراد بهما دخول القبر بالموت و الخروج منه بالبعث.

نعم لما كانت الآيه بعد قوله: «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» و «وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ» و فى سياقهما، لوحى الى أمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يلتجئ الى ربه فى كل أمر يهم به أو يشتغل به من امور الدعوه، و فى الدخول و الخروج فى كل مكان يسكنه أو يدخله او يخرج منه و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَقُلْ لِحَاءِ الْحَقِّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا قال فى المجمع: الزهوق هو الهلاك و البطلان يقال: زهقت نفسه اذا خرجت فكأنها قد خرجت الى الهلاك. انتهى و المعنى ظاهر.

و فى الآيه أمره صلى الله عليه و آله و سلم بإعلام ظهور الحق و هو لوقوع الآيه فى سياق ما مر من قوله: «وَ إِنْ

كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» الى آخر الآيات؛ أمر يائس المشركين من نفسه و تنبيهم أن يوقنوا أن لا مطمع لهم فيه صلى الله عليه و آله و سلم.

و فى الآيه دلالة على أن الباطل لا- دوام له كما قال تعالى فى موضع آخر: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (إبراهيم ٢٦) (١).

## [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٨٢ الى ١٠٠]

### إشارة

وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسِئًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرْبُكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَ يَسْتَمْلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا- رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا- أَنْ قَالُوا أُبَعِثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يَضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ نُكَمَا وَ صُمَّا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاءُهمُ بِمَا نُهُمُ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَ قَالُوا أِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أِذَا لَمْبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوْ لَسَمُ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

ص: ٧٥١





قوله تعالى: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا من بيانيه تبين الموصول أعنى قوله: «مَا هُوَ شِفَاءٌ» الخ؛ أى و نزل ما هو شفاء و رحمه و هو القرآن.

وعد القرآن شفاء و الشفاء انما يكون عن مرض دليل على أن للقلوب أحوالا نسبه القرآن إليها نسبه الدواء الشافى الى المرض، و هو المستفاد من كلامه سبحانه حيث ذكر أن الدين الحق فطرى للانسان فكما أن للبنيه الانسانيه التى سويت على الخلقه الأصليه قبل أن يلحق بها أحوال منافيه و آثار مغايره للتسويه الأوليه استقامه طبيعیه تجرى عليها فى أطوار الحياه كذلك لها بحسب الخلقه الأصليه عقائد حقه فى المبدأ و المعاد و ما يتفرع عليهما من اصول المعارف، و أخلاق فاضله زاكيه تلائمها و يترتب عليها من الأحوال و الأعمال ما يناسبها.

فلانسان صحه و استقامه روحيه معنويه كما أن له صحه و استقامه جسميه صوريه، و له

أمراض و أدواء روحيه باختلال أمر الصحه الروحيه كما أن له أمراضا و أدواء جسميه باختلال أمر الصحه الجسميه و لكل داء دواء و لكل مرض شفاء.

و قد ذكر الله سبحانه في اناس من المؤمنين أن في قلوبهم مرضا و هو غير الكفر و النفاق الصريحين كما يدل عليه قوله: لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينه لنغرینک بهم (الأحزاب ٦٠) و قوله: و ليقول الذين في قلوبهم مرض و الكافرون ما ذا أراد الله بهذا مثلا (المدثر ٣١).

و ليس هذا المسمى مرضا الا- ما يختل به ثبات القلب و استقامه النفس من أنواع الشك و الريب الموجه لاضطراب الباطن و تزلزل السر و الميل الى الباطل و اتباع الهوى مما يجامع ايمان عامه المؤمنين من أهل أدنى مراتب الايمان و مما هو معدود نقصا و شركا بالاضافه الى مراتب الايمان العاليه، و قد قال تعالى: و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون (يوسف ١٠٦) و قال: فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما (النساء ٦٥).

و القرآن الكريم يزيل بحججه القاطعه و براهينه الساطعه أنواع الشكوك و الشبهات المعترضه في طريق العقائد الحقه و المعارف الحقيقه و يدفع بمواعظه الشافيه و ما فيه من القصص و العبر و الأمثال و الوعد و الوعيد و الانذار و التبشير و الأحكام و الشرائع عاهات الأفتده و آفاتها فالقرآن شفاء للمؤمنين.

و اما كونه رحمه للمؤمنين- و الرحمه افاضه ما يتم به النقص و يرتفع به الحاجه- فلأن القرآن ينور القلوب بنور العلم و اليقين بعد ما يزيل عنها ظلمات الجهل و العمى و الشك و الريب، و يحليها بالملكات الفاضله و الحالات الشريفه الزاكيه بعد ما يغسل عنها أوساخ الهيئات الرديه و الصفات الخسيسه.

فهو بما انه شفاء يزيل عنها انواع الأمراض و الأدواء، و بما انه رحمه يعيد إليها ما افتقدته

من الصحة و الاستقامه الأصلية الفطريه فهو بكونه شفاء يطهر المحل من الموانع المضاده للسعاده و يهيئها لقبولها، و بكونه رحمه يلبسه لباس السعاده و ينعم عليه بنعمه الاستقامه.

فالقرآن شفاء و رحمه للقلوب المريضة كما انه هدى و رحمه للنفوس غير الآمنه من الضلال، و بذلك يظهر النكته فى ترتيب الرحمه على الشفاء فى قوله: ﴿ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١) و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ وَ رَحْمَةٌ (النساء ٩٦).

فمعنى قوله: «وَ نُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» و نزل اليك امرا يشفى امراض القلوب و يزيلها و يعيد إليها حاله الصحة و الاستقامه فتتمتع من نعمه السعاده و الكرامه.

و قوله: ﴿ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ السياق دال على ان المراد به بيان ما للقرآن من الأثر فى غير المؤمنين قبال ما له من الأثر الجميل فى المؤمنين فالمراد بالظالمين غير المؤمنين و هم الكفار دون المشركين خاصه كما يظهر من بعض المفسرين و انما علق الحكم بالوصف اعنى الظلم ليشعر بالتعليل اى ان القرآن انما يزيدهم خسارا لمكان ظلمهم بالكفر.

و الخسار هو النقص فى رأس المال فللكفار رأس مال بحسب الأصل و هو الدين الفطرى تلهم به نفوسهم الساذجه ثم إنهم بكفرهم بالله و آياته خسروا فيه و نقصوا. ثم إن كفرهم بالقرآن و إعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خسارا على خسار و نقصا على نقص إن كانت عندهم بقيه من موهبه الفطره، و الى هذه النكته يشير سياق النفى و الاستثناء حيث قيل: «وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» و لم يقل: و يزد الظالم خسارا.

و به يظهر أن محصل معنى الآية أن القرآن يزيد المؤمنين صحه و استقامه على صحتهم و استقامتهم بالإيمان و سعاده على سعادتهم و إن زاد الكافرين شيئا فإنما يزيدهم نقصا

قوله تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُؤْسَأُ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: العرض خلاف الطول و أصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها-الى أن قال-و أعرض أظهر عرضه أى ناحيته فاذا قيل: أعرض لى كذا أى بدا عرضه فأمكن تناوله،و إذا قيل: أعرض عنى فمعناه و لى مبدئاً عرضه.انتهى موضع الحاجه.

و النأى البعد و نأى بجانبه أى اتخذ لنفسه جهه بعيده منا،و مجموع قوله: «أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ» يمثل حال الإنسان فى تباعده و انقطاعه من ربه عند ما ينعم عليه. كمن يحول وجهه عن صاحبه و يتخذ لنفسه موقفاً بعيداً منه،و ربما ذكر بعض المفسرين أن قوله: «نَأَىٰ بِجَانِبِهِ» كناية عن الاستكبار و الاستعلاء.

و قوله: وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُؤْسَأُ أى و إذا أصابه الشر إصابه خفيفه كالمس كان آيساً منقطع الرجال عن الخير و هو النعمه،و لم ينسب الشر إليه تعالى كما نسب النعمه تنزيهاً له تعالى من أن يسند إليه الشر،و لأن وجود الشر أمر نسبي لا نفسى فما يتحقق من الشر فى العالم كالموت و المرض و الفقر و النقص و غير ذلك انما هو شر بالنسبه الى مورده،و أما بالنسبه الى غيره و خاصه النظام العام الجارى فى الكون فهو من الخير الذى لا- مناص عنه فى التدبير الكلى فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العناية الإلهيه و هو مراد بالذات،و ما كان من الشر فهو مما تعلقت به العناية لغيره و هو مقضى بالعرض.

فالمعنى إنا إذا أنعمنا على الإنسان هذا الموجود الواقع فى مجرى الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب و اخلد إليها فنسينا فلم يذكرنا و لم يشكرنا،و إذا ناله شىء يسير من الشر فسلب منه الخير و زالت عنه أسبابه و رأى ذلك كان شديد اليأس من الخير لكونه متعلقاً بأسبابه

و هو يرى بطلان أسبابه و لا يرى لربه فى ذلك صنعا (١).

قوله تعالى: قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا المشاكله-على ما فى المفردات-من الشكل و هو تقييد الدابه، و يسمى ما يقيده به شكالا بكسر الشين، و الشاكله هى السجيه سمي بها لتقييدها الإنسان أن يجرى على ما يناسبها و تقتضيه.

و فى المجمع: الشاكله الطريقه و المذهب يقال: هذا طريق ذو شواكل أى ينشعب منه طرق جماعه و انتهى. و كأن تسميتها بها لما فيها من تقييد العابرين و المنتحلين بالتزامها و عدم التخلف عنها و قيل: الشاكله من الشكل بفتح الشيخ بمعنى المثل و قيل: إنها من الشكل بكسر الشين بمعنى الهيئه.

و كيف كان فالآيه الكريمه ترتب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أن العمل يناسبها و يوافقها، فهى بالنسبه الى العمل كالروح الساريه فى البدن الذى يمثل بأعضائه و أعماله هيآت الروح المعنويه و قد تحقق بالتجارب و البحث العلمى أن بين الملكات و الأحوال النفسانيه و بين الأعمال رابطه خاصه فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل و الجبان إذا حضرا موقفا هائلا، و لا عمل الجواد الكريم و البخيل اللئيم فى مواد الانفاق و هكذا، و أن بين الصفات النفسانيه و نوع تركيب البنيه الإنسانيه رابطه خاصه فمن الأمزجه ما يسرع اليه الغضب و حب الانتقام بالطبع و منها ما تغلى و تفور فيه شهوه الطعام أو النكاح أو غير ذلك بحيث تنوق نفسه بأذى سبب يدعوه و يحركه، و منها غير ذلك فيتخلف انعقاد الملكات بحسب ما يناسب المورد سرعه و بطء (٢)(٣).

ص: ٧٥٧

١-١. الاسراء ٨٢-١٠٠: بحث فلسفى فى الشرور.

٢-٢. الاسراء ٨٢-١٠٠: بحث فى: شاكله الانسان؛ الارتباط بين الاعمال و الملكات و بين الذوات.

٣-٣. الاسراء ٨٢-١٠٠: بحث فلسفى فى سنخيه وجوديه و رابطه ذاتيه بين الفعل و فاعله.

قوله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا الروح على ما يعرف في اللغه هو مبدأ الحياه الذى به يقوى الحيوان على الإحساس و الحركة الإراديه و لفظه يذكر و يؤنث، و ربما يتجوز فيطلق على الامور التى يظهر بها آثار حسنه مطلوبه كما يعد العلم حياه للنفوس قال تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (الأنعام ١٢٢/أى بالهدايه الى الإيمان و على هذا المعنى حمل جماعه مثل قوله: يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل ٢/أى بالوحى و قوله: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى ٥٢/أى القرآن الذى هو وحى فذكروا أنه تعالى سمي الوحى أو القرآن روحا لأن به حياه النفوس الميته كما أن الروح المعروف به حياه الأجساد الميته (١).

قوله تعالى: وَلَئِنْ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا الكلام متصل بما قبله فإن الآيه السابقه و إن كانت متعرضه لأمر مطلق الروح و هو ذو مراتب مختلفه إلا أن الذى ينطبق عليه منه بحسب سياق الآيات السابقه المسوقه فى أمر القرآن هو الروح السماوى النازل على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الملقى اليه القرآن.

فالمعنى -و الله أعلم- الروح النازل عليك الملقى بالقرآن اليك من أمرنا غير خارج من قدرتنا، و أقسم لئن شئنا لنذهبن بهذا الروح الذى هو كلمتنا الملقاه إليك ثم لا تجد أحدا يكون وكيلا به لك علينا يدافع عنك و يطالبنا به و يجبرنا على رد ما أذهبنا به.

قوله تعالى: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا استثناء من محذوف يدل عليه السياق، و التقدير فما اختصاصت بما اختصاصت به و لا اعطيت ما اعطيت من نزول الروح و ملازمته إياك إلا رحمه من ربك، ثم علله بقوله: «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا» و هو وارد مورد الامتنان.

ص: ٧٥٨

قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً الظاهر هو المعين مأخوذ من الظهر كالرئيس من الرأس، وقوله: «بِمِثْلِهِ» من وضع الظاهر موضع المضمرة وضميره عائد الى القرآن.

و في الآيه تحد ظاهر، و هي ظاهره في أن التحدى بجميع ما للقرآن من صفات الكمال الراجعه الى لفظه و معناه لا بفصاحته و بلاغته وحدها فإن انضمام غير أهل اللسان اليهم لا ينفع في معارضه البلاغه شيئاً و قد اعتنت الآيه باجتماع الثقلين و إعانه بعضهم لبعض.

على أن الآيه ظاهره في دوام التحدى و قد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحه و البلاغه اليوم فلا أثر منهم، و القرآن باق على إعجازه متحد بنفسه كما كان.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَيَّرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً تصريف الأمثال ردها و تكرارها و تحويلها من بيان الى بيان و من اسلوب الى اسلوب، و المثل هو وصف المقصود بما يمثله و يقربه من ذهن السامع، و «مِنْ» في قوله: «مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» لا ابتداء الغايه، و المراد من كل مثل يوضح لهم سبيل الحق و يمهد لهم طريق الإيمان و الشكر بقريته قوله: «فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً» و الكلام مسوق للتوبيخ و الملامه.

و في قوله: «أَكْثَرُ النَّاسِ» وضع الظاهر موضع المضمرة و الأصل أكثرهم و لعل الوجه فيه الإشاره الى أن ذلك مقتضى كونهم ناساً كما مر في قوله: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كُفُوراً (الإسراء / ٦٧).

و المعنى: و أقسم لقد كررنا للناس في هذا القرآن من كل مثل يوضح لهم الحق و يدعوهم الى الإيمان بنا و الشكر لنعمنا فأبى أكثر الناس إلا ان يكفروا و لا يشكروا.

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً -الى

قوله - كِتَابًا نَقَرُوهُ الفجر الفتح و الشق و كذلك التفجير إلا- انه يفيد المبالغه و التكثير، و ينبوع العين التي لا- ينضب ماؤها، و خلال الشىء وسطه و اثنائه، و الكسف جمع كسفه كقطع جمع قطعه وزنا و معنى، و القبيل هو المقابله كالعشير و المعاشر، و الزخرف الذهب، و الرقى الصعود و الارتقاء.

و الآيات تحكى الآيات المعجزه التي اقترحتها قريش على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و علقوا ايمانهم به عليها مستهينه بالقرآن الذي هو معجزه خالده.

و المعنى «وَقَالُوا» اى قالت قريش: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» يا محمد «حَتَّى تَفْجَرَ» و تشق «لَنَا مِنَ الْأَرْضِ» ارض مكه لقله مائها «يَبْثُوعًا» عينا لا- ينضب ماؤها «أَوْ تَكُونَ» بالإعجاز لك جَنَّةٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتَفْجَرَ الْأَنْهَارَ اى تشقها او تجريها «خِلَالَهَا» اى وسط تلك الجنه و اثناءها «تَفْجِيرًا» «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ» اى مماثلا لما زعمت يشيرون (١) به الى قوله تعالى: «أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهَمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ (سبأ ٩)» «عَلَيْنَا كِسْفًا» و قطعا «أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا» مقابلا- نعاينهم و نشاهدهم «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ» و ذهب «أَوْ تَرْقَى» و تصعد «فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ» و صعودك «حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا» منها «كِتَابًا نَقَرُوهُ» و نتلوه.

قوله تعالى: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا فيه امره صلى الله عليه و آله و سلم ان يجيب عما اقترحوه عليه و ينههم على جهلهم و مكابرتهم فيما لا يخفى على ذى نظر فإنهم سألوه امورا عظاما لا يقوى على اكثرها إلا القدره الغيبه الإلهيه و فيها ما هو مستحيل بالذات كالإتيان بالله و الملائكه قبلا- و لم يرضوا بهذا المقدار و لم يقنعوا به دون ان جعلوه هو المسئول المتصدى لذلك المجيب لما سألوه فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا و كذا بل

ص: ٧٦٠

١- (١). فالآيه لا تخلو من دلالة على تقدم سوره سبأ على هذه السوره نزولا.



قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ» الخ؛ «أَوْ تَكُونَ لَكَ» الخ؛ «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ» الخ؛ «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ» الخ؛ «أَوْ يَكُونَ لَكَ» الخ؛ «أَوْ تَرْقِيَ فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ» .

قوله تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا لَلنَّكَارِ، وجملة «قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ» الخ؛ حكاية حالهم بحسب الاعتقاد و ان لم يتكلموا بهذه الكلمة بعينها.

و انكار النبوه و الرساله من اثبات الإله من عقائد الوثنيه، و هذه قرينه على أن المراد بالناس الوثنيون، و المراد بالإيمان الذي منعه هو الإيمان بالرسول.

فمعنى الآيه و ما منع الوثنيين -و كانت قريش و عامه العرب يومئذ منهم- أن يؤمنوا بالرساله -أو برسالتك- إلا إنكارهم لرساله البشر، و لذلك كانوا يردون على رسالهم دعوتهم -كما حكاها الله- بمثل قولهم: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (حم السجده ١٤).

قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا أَمَرَ سُبْحَانَهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ وَ إنكارهم لرساله البشر و نزول الوحي بأن العناية الإلهيه قد تعلقت بهدايه أهل الأرض و لا يكون ذلك إلا بوحي سماوى لا من عند أنفسهم فالبحر القاطنون فى الأرض لا غنى لهم عن وحي سماوى بنزول ملك رسول إليهم و يختص بذلك نبيهم.

و هذه خاصه الحياه الأرضيه و العيشه الماديه المفتقره الى هدايه إلهيه لا سبيل إليها إلا بنزول الوحي من السماء حتى لو أن طائفه من الملائكه سكنوا الأرض و أخذوا يعيشون عيشه أرضيه ماديه لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا كما نزل على البشر ملكا رسولا.

و العناية فى الآيه الكريمه -كما ترى- متعلقه بجهتين إحداهما كون الحياه أرضيه ماديه،

و الاخرى كون الهدايه الواجبه بالعنايه الإلهيه بوحي نازل من السماء برساله ملك من الملائكه.

و الأمر على ذلك، فهاتان الجهتان أعنى كون حياه النوع أرضيه ماديه و وجوب هدايتهم بواسطه سماويه و ملك علوى هما المقدمتان الأصليتان فى البرهان على وجود الرساله و لزومها (١).

و الآيه بما تعطى من معنى الرساله يؤيد ما ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام فى الفرق بين الرسول و النبى أن الرسول هو الذى يرى الملك و يسمع منه، و النبى يرى المنام و لا يعاين، و قد أوردنا بعض هذه الأخبار فى خلال أبحاث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب.

و من أطف التعبير فى الآيه و أجزه تعبيره عن الحياه الأرضيه بقوله: «فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ» فإن الانتقال المكانى على الأرض مع الوقوع تحت الجاذبه الأرضيه من أوضح خواص الحياه الماديه الأرضيه.

قوله تعالى: قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا لما احتج عليهم بما احتج و بين لهم ما بين فى أمر معجزه رسالته و هى القرآن الذى تحدى به و هم على عنادهم و جحودهم و عنتهم لا- يعتنون به و يقترحون عليه بأمر جزافيه اخرى و لا- يحترمون لحق و لا- ينقطعون عن باطل أمر أن يرجع الأمر الى شهاده الله فهو شهيد بما وقع منه و منهم فقد بلغ ما ارسل به و دعا و احتج و أعذر و قد سمعوا و تمت عليهم الحججه و استكبروا و عتوا فالكلام فى معنى اعلام قطع المحاجه و ترك المخاصمه و رد الأمر الى مالك الامر فليقض ما هو قاض.

ص: ٧٦٢

---

(١-١). الاسراء ٨٢-١٠٠: بحث فى وجوب كون الرسول من جنس المرسل اليهم و من انفسهم كالانسان و الملك للملك.



و تكذيب آياته فهو قادر على بعثهم و الانتقام منهم بما صنعوا.

فقوله: «وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا - لَا رَيْبَ فِيهِ» ناظر الى قوله في صدر الآيه السابقه: ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فهو نظير قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسَبِ بِتَدْرِجِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ - الى أن قال- أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ - الى أن قال- وَ أَنَّ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (الأعراف ١٨٥).

قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ حَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا فسر القتل بالبخيل المبالغ في الامساك و قال في المجمع:

القتل التصييق و القتور فعول منه للمبالغه، و يقال: قتر يقترو و تقترو و أقترو و قتر إذا قدر في النفقه. انتهى.

و هذا توبيخ لهم على منعهم رساله البشر المنقول عنهم سابقا بقوله: وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا و معنى الآيه ظاهر (١).

## [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ الى ١١١]

### اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَيَّمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَهْلَكْنَا هَوْلًا إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بَصُورًا وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَجْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَّلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (١٠٥) وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ يَسْجُدُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَ لَا تَجْهَرُوا بِصَوْتِكُمْ وَ لَا تَحَافَتُوا بِهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبْرُهُ تَكْبِيرًا (١١١)

ص: ٧٦٤

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّئَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا الَّذِي  
اوتى موسى عليه السّلام من الآيات على ما يقصه القرآن أكثر من تسع غير أن الآيات التي أتى بها لدعوه فرعون فيما يذكره  
القرآن تسع و هي: العصا و اليد و الطوفان و الجراد و القمل و الضفدع و الدم و السنون و نقص من الثمرات فالظاهر أنّها هي  
المراده بالآيات التسع المذكوره فى الآيه و خاصه مع ما فيها من محكى قول موسى لفرعون: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ  
السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِصَائِرٍ و أما غير هذه الآيات كالبحر و الحجر و إحياء المقتول بالبقره و إحياء من أخذته

الصاعقه من قومه و نتق الجبل فوقهم و غير ذلك فهى خارجه عن هذه التسع المذكوره فى الآيه.

و لا- ينافى ذلك كون الآيات إنما ظهرت تدريجاً فإن هذه المحاوره مستخرج من مجموع ما تخاصم به موسى و فرعون طول دعوته.

و لعل مخالفه التوراه لظاهر القرآن فى الآيات التسع هى الموجه لترك تفصيل الآيات التسع فى الآيه ليستقيم الأمر بالسؤال من اليهود لأنهم مع صريح المخالفه لم يكونوا ليصدقوا القرآن بل كانوا يبادرون الى التكذيب قبل التصديق.

قوله تعالى: **إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا** أى سحرت فاختل عقلك و هذا فى معنى قوله المنقول فى موضع آخر: **إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** (الشعراء ٢٧) وقيل: المراد بالمسحور الساحر نظير الميمون و المشؤم بمعنى اليامن و الشائم و أصله استعمال وزن الفاعل فى النسبه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا** المشبور الهالك و هو من الثبور بمعنى الهلاك، و المعنى قال موسى مخاطباً لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا- رب السموات و الأرض أنزلها بصائر يتبصر بها لتمييز الحق من الباطل و إنى لأظنك يا فرعون هالكاً بالأخره لعنادك و جحودك.

و إنما أخذ الظن دون اليقين لأن الحكم لله و ليوافق ما فى كلام فرعون: **«إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ»** الخ؛ و من الظن ما يستعمل فى مورد اليقين.

قوله تعالى: **فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا** الاستفزاز الازعاج و الإخراج بعنف، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ**

الْمَآخِرَةَ جَنَّاتٍ بِكُمْ لَفِيْفًا الْمَرَادُ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَمَرُوا أَنْ يَسْكُنُوهَا هِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ بِشَهَادَةِ قَوْلِهِ: «أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» (المائدة ٢١)، و غير ذلك كما أن المراد بالأرض في الآيه السابقه مطلق الأرض أو أرض مصر بشهادة السياق.

و قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أَي وَعَد الْكَرْهُ الْآخِرَهُ أَوْ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ وَ الْمَرَادُ بِهِ عَلَي مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ قَوْلُهُ: «جَنَّاتٍ بِكُمْ لَفِيْفًا» أَي مَجْمُوعًا مَلْفُوفًا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ.

و المعنى: و قلنا من بعد فرعون لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض المقدسه-و كان فرعون يريد أن يستفزه من الأرض-فاذا كان يوم القيامه جئنا بكم ملتفين مجتمعين للحساب و فصل القضاء.

و ليس ببعيد أن يكون المراد بوعده الآخرة ما ذكره الله سبحانه في أول السوره فيما قضى الى بنى إسرائيل بقوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوتُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِعًا.

قوله تعالى: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا لما فرغ من التنظير رجع الى ما كان عليه من بيان حال القرآن و ذكر أوصافه فذكر أنه أنزله انزالا مصاحبا للحق و قد نزل هو من عنده نزولا مصاحبا للحق فهو مصون من الباطل من جهه من أنزله فليس من لغو القول و هذره و لا داخله شيء يمكن أن يفسده يوما و لا شاركه فيه أحد حتى ينسخه في قوت من الأوقات و ليس النبي صلى الله عليه و آله و سلم الا رسولا منه تعالى يبشر به و ينذر و ليس له أن يتصرف فيه بزياده أو نقيصه أو يتركه كلا- أو بعضا باقتراح من الناس أو هوى من نفسه أو يعرض عنه فيسأل الله آيه أخرى فيها هواه أو هوى الناس أو يداهنهم فيه أو يسامحهم في شيء من معارف و أحكامه كل ذلك لأنه حق صادر عن مصدر

حق، و ما ذا بعد الحق الا الضلال.

فقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا خَشْيَةَ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ وَالْحَقَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا لَنَا إِلَّا الْحَقُّ وَلَا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُرْسِلُ وَمَا أَهْلَكَ مَا لَا يُغْنِيكَ اللَّهُ مِنْ فَتْرَتِهِ إِنَّهٗ كَانَ مُبْتَلًى. و غير فى ذلك سواء.

قوله تعالى: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا مَعطوف على ما قبله أى أنزلناه بالحق و فرقناه قرآنا، قال فى المجمع: معنى فرقناه فصلناه و نزلناه آيه آيه و سوره سوره و يدل عليه قوله: «عَلَى مُكْثٍ» و المكث -بضم الميم- و المكث - بفتحها- لغتان. انتهى.

فاللفظ بحسب نفسه يعم نزول المعارف القرآنيه التى هى عند الله فى قالب الألفاظ و العبارات التى لا تتلقى الا بالتدرىج و لا تتعاطى الا- بالمكث و التؤده ليسهل على الناس تعقله و حفظه على حد قوله: إِذْ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهٗ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (الزخرف ٤/٤).

قوله تعالى: قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ الْثَلَاثِ، و المراد بالذين اتوا العلم من قبله هم الذين تحققوا بالعلم بالله و آياته من قبل نزول القرآن سواء كانوا من اليهود او النصارى أو غيرهم فلا موجب للتخصيص اللهم الا ان يقال: ان السياق يفيد كون هؤلاء من اهل الحق و الدين غير المنسوخ يومئذ هو دين المسيح عليه السلام فهم أهل الحق من علماء النصرانية الذين لم يزيغوا و لم يبدلوا.

و على أى حال المراد من كونهم اتوا العلم من قبله أنهم استعدوا لفهم كلمه الحق و قبولها لتجهزهم بالعلم بحقيقه معناه و ايرائه اياهم وصف الخشوع فيزيدهم القرآن المتلو عليهم خشوعا.

و قوله: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ لِلأَذْقَانِ سَجْدًا جمع ذقن و هو مجمع اللحين من الوجه، و الخرور للأذقان السوق على الأرض على أذقانهم للسجده كما بيينه قوله: «سَجْدًا» و انما



اعتبرت الأذقان لأن الذقن أقرب أجزاء الوجه من الأرض عند الخرور عليها للسجده، وربما قيل: المراد بالأذقان الوجوه اطلاقاً للجزء على الكل مجازاً.

وقوله: وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا أَي يَنْزَهُونَهُ تَعَالَى عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَنْ خَلْفِ الْوَعْدِ خَاصَةً وَيُعْطَى سِيَاقَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَعْدِ وَعَدِهِ سُبْحَانَهُ بِالْبَعْثِ وَهَذَا فِي قِبَالِ إِصْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى نَفْيِ الْبَعْثِ وَانْكَارِ الْمَعَادِ كَمَا تَكَرَّرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ.

وقوله: وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ أَنْ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا تَكَرَّرَ الْخُرُورُ لِلْأَذْقَانِ وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْبُكَاءِ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ الَّذِي يَكُونُ بِالْبَدَنِ كَمَا أَنَّ الْجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْخُشُوعِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ الَّذِي يَكُونُ بِالْقَلْبِ فَمَحْصَلُ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يَخْضَعُونَ وَيَخْشَعُونَ.

وقوله تعالى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى لَفْظُهُ أَوْ لِلتَّسْوِيَةِ وَالْإِبَاحَةِ فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ» وَ«الرَّحْمَنُ» الْأَسْمَاءُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمَسْمُومِ دُونَ الْمَسْمُومِ، وَالْمَعْنَى ادْعُوا بِاسْمِ اللَّهِ أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ فَالِدَعَاءُ دَعَاؤُهُ.

وقوله: «أَيًّا مَا تَدْعُوا» شَرْطٌ وَ«مَا» صَلَهِ لِلتَّأَكِيدِ نَظِيرُ قَوْلِهِ: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ (آل عمران ١٥٩). وقوله: عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (المؤمنون ٤٠) و«أَيًّا» شَرْطِيَّةٌ وَهِيَ مَفْعُولٌ «تَدْعُوا».

وقوله: فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى جَوَابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ مِنْ وَضْعِ السَّبَبِ مَوْضِعَ الْمَسْبُوبِ وَالْمَعْنَى أَي اسْمٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ تَدْعُوهُ فَهُوَ اسْمٌ أَحْسَنُ لَهُ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى كُلُّهَا لَهُ فَالْأَسْمَاءُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمَسْمُومَاتِ مِنْهَا حَسَنَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَا فِيهِ حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحَةٌ بِخِلَافِهَا وَلَا سَبِيلَ لِلْقَبِيحِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَالْأَسْمَاءُ الْحَسَنَةُ مِنْهَا مَا هُوَ أَحْسَنُ لَا شَوْبَ نَقْصٍ وَقَبِيحٌ فِيهِ كَالْغَنَى الَّذِي لَا فَقْرَ مَعَهُ وَالْحَيَاةُ الَّتِي لَا مَوْتَ مَعَهَا وَالْعِزَّةُ الَّتِي لَا ذُلَّ دُونَهَا وَمِنْهَا مَا هُوَ حَسَنٌ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْحَسَنُ مِنْ غَيْرِ مَحْوُضِهِ وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَهِيَ كُلُّ اسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ فِي

معناه كما يدل عليه قول أئمة الدين: ان الله تعالى غنى لا كالأغنياء، حى لا كالأحياء، عزيز لا كالأعزّه، عليم لا كالعلماء و هكذا أى له من كل كمال صرفه و محضه الذى لا يشوبه خلافه.

و الضمير فى قوله: «أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» عائد الى الذات المتعالیه من كل اسم و رسم، و ليس براجع الى شىء من الاسمين: الله و الرحمن لأن المراد بهما- كما تقدم- الاسمان دون الذات المتعالیه التى هى مسماه بهما و لا معنى لأن يقال: أيا من الاسمين تدعوا فان ذلك الاسم جميع الأسماء الحسنی أو باقى الاسماء الحسنی بل المعنى أيا من اسمائه تدعوا فلا مانع منه لأنها جميعا أسماؤه لأنها اسماء حسنی و له الأسماء الحسنی فهى طرق دعوته و دعوتها دعوته فإنها اسمائه و الاسم مرآه المسمى و عنوانه فافهم ذلك.

قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرُ بِصَوْتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهِمَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» الجهر و الإخفات و صفان متضائفان، يتصف بهما الأصوات، و ربما يعتبر بينهما خصله ثالثه هى بالنسبه الى الجهر إخفات و بالنسبه الى الإخفات جهر فيكون الجهر هو المبالغه فى رفع الصوت، و الإخفات هو المبالغه فى خفضه و ما بينهما هو الاعتدال فيكون معنى الآية لا تبالغ فى صلاتك فى الجهر و لا فى الإخفات بل اسلك فيما بينهما سبيلا و هو الاعتدال و تسميته سبيلا لأنه سنه يستن بها هو و من يقتدى به من امته المؤمنين به.

هذا لو كان المراد بالصلاه فى قوله: «بِصَوْتِكَ» للاستغراق و المراد به كل صلاه صلاه، و أما لو اريد المجموع و لعله الأظهر كان المعنى لا- تجهر فى صلواتك كلها و لا تخافت فيها كلها بل اتخذ سبيلا وسطا تجهر فى بعض و تخافت فى بعض، و هذا المعنى أنسب بالنظر الى ما ثبت فى السنه من الجهر فى بعض الفرائض اليوميه كالصبح و المغرب و العشاء و الإخفات فى غيرها. و لعل هذا الوجه أوفق بالنظر الى اتصال ذيل الآية بصدرها فالجهر بالصلاه يناسب كونه تعالى عليا متعاليا و الإخفات يناسب كونه قريبا أقرب من جبل الوريد فاتخاذ الخصلتين

جميعاً في الصلوات أداء لحق أسمائه جميعاً.

قوله تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرُهُ تَكْبِيرًا معطوف على قوله في الآيه السابقه: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» و يرجع محصل الكلام الى أن قل إن ما تدعونها من الأسماء و تزعمون أنها آلهه معبودون غيره إنما هي أسماؤه و هي مملوكة له لا تملك أنفسها و لا شيئاً لأنفسها فدعاؤها فهو المعبود على كل حال.

و ختم سبحانه الآيه بقوله: «وَ كَبِّرُهُ تَكْبِيرًا» و قد اطلق إطلاقاً بعد التوصيف و التنزيه فهو تكبيره من كل وصف، و لذا فسر «الله أكبر» بأنه أكبر من أن يوصف على ما ورد عن الصادق عليه السلام، و لو كان المعنى أنه أكبر من كل شيء لم يخل من إشراك الأشياء به تعالى في معنى الكبير و هو أعز ساحة أن يشاركه شيء في أمر.

و من لطيف الصنعه في السوره افتتاح أول آيه منها بالتسبيح و اختتام آخر آيه منها بالتكبير مع افتتاحها بالتحميد (١)(٢).

ص: ٧٧١

١-١. الاسراء ١٠١-١١١: بحث روائي في اسماء الله الحسنی.

٢-٢. الاسراء ١٠١-١١١: بحث روائي و قرآنی حول قوله تعالى: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

**[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩